

دورية دولية محكمة

مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية



ISSN: 2625-8943



العدد ثلاثون- كانون الأول- ديسمبر 2023 م المجلد 7



مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية

المركز الديمقراطي العربي

**Journal of
cultural linguistic and artistic studies**
International scientific periodical journal



المركز الديمقراطي العربي

رقم التسجيل

VR.3373.6326.B



Germany: Berlin 10315
Gensinger- Str: 112
<http://democraticac.de>

المركز الديمقراطي العربي

لدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية

Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

مجلة

الدراسات الثقافية

واللغوية والفنية

دورية علمية محكمة فصلية

تصدر عن

المركز الديمقراطي العربي

برلين - ألمانيا

ISSN : 2625-8943

*JOURNAL OF
CULTURAL LINGUISTIC
AND ARTISTIC STUDIES*

*An International scientific
Periodical Quarterly Journal
Issued by*

The Democratic Arabic Center

© Democratic Arabic Center

Germany - Berlin

ISSN: 2625-8943

E-MAIL

culture@democraticac.de

مجلة

الدراسات الثقافية

واللغوية والفنية

تعنى المجلة بالبحوث والدراسات
الأكاديمية الرصينة التي يكون
موضوعها متعلقا بجميع مجالات علوم
اللغة والترجمة والعلوم الإسلامية
والآداب، والعلوم الاجتماعية
والإنسانية، وكذا العلوم الفنية
وعلوم الآثار، للوصول إلى الحقيقة
العلمية والفكرية المرجوة من البحث
العلمي، والسعي وراء تشجيع
الباحثين للقيام بأبحاث علمية رصينة

الهيئة المشرفة على المجلة

رئيس المركز الديمقراطي العربي

أ.عمار شرعان



مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية

دورية علمية دولية محكمة

تصدر عن

المركز الديمقراطي

العربي

ألمانيا – برلين

وتعنى بنشر الدراسات والبحوث في التخصصات التالية

- الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية
- اللغات والترجمة والآداب والعلوم الإسلامية
- العلوم الفنية وعلوم الآثار

الهيئة الاستشارية

أ.د. رفيق سليمان / مدير المركز

الديمقراطي العربي ببرلين / ألمانيا

أ.د. محمد جودات

جامعة محمد الخامس بالرباط / المغرب

أ.د. الفالي بن لباد

جامعة تمنغاست / الجزائر

أ.د. ضياء عنى العبودي

جامعة ذي قار / العراق

د. أحمد حسن إسماعيل الحسن

الجامعة الهاشمية / الأردن

د. جمال ولد الخليل

جامعة حائل / المملكة العربية السعودية

د. رسول بلاوي

جامعة فليخ فارس – بوشهر / إيران

د. محمود خليل خضير الحياتي

الجامعة التقنية الشمالية / العراق

د. صافية زفندي

المركز الديمقراطي العربي ببرلين / ألمانيا

نائب رئيس التحرير

أ.د. عبد الكريم حمو

باحث بالمركز الوطني للبحث

في الأنثروبولوجيا الاجتماعية - وهران

رئيس التحرير

أ.د. سالم بن لباد

مساعد رئيس التحرير

أ.د. بدرالدين شعباني

جامعة قسنطينة 2 / الجزائر

التصميم والإخراج الفني

أ.د. بدرالدين شعباني

شهادة تمكيم المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

بناءً على تقرير السادة الخبراء؛ يشهد مدير مركز مؤشر للاستطلاع والتحليلات بان:
مجلة (لدراسات ثقافية واللغوية والفنية)

الحاملة للترقيع المعياري:

ISSN: 2625-8943

قد نحصت على درجة 100/57

وعليه فهي حسب مؤشر (AIMQSJ) نعتبر من المجلات الحسنة؛ فئة (B+)



Arabic Index of Measuring the Quality of Scientific Journals



مدير مركز مؤشر للاستطلاع والتحليلات

د. محمد الحاج

مركز مؤشرات

د. جمال ولد الخليل جامعة حائل /
المملكة العربية السعودية
أ.د. أرزقي شمون جامعة بجاية / الجزائر
د. نصيرة شيادي جامعة تلمسان / الجزائر
د. رشيدة بودالية جامعة البويرة / الجزائر
أ.د. كمال علوات جامعة البويرة / الجزائر
د. طه حميد حريش الفهداوي كلية الامام
الاعظم جامعة بغداد / العراق
أ.د. سعدي الدراجي المدرسة العليا
للأساتذة بوزريعة / الجزائر
د. مالكي سميرة جامعة وهران 2 / الجزائر
د. حسام عزمي العفوري أكاديمية مينيسوتا
لتعليم اللغات / تركيا
د. هدية صارة باحثة دائمة بالمركز الوطني
للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية
وهران / الجزائر
د. محمد بن لباد المركز الجامعي
مغنية / الجزائر
د. محمود خليف خضير الحياني الجامعة
التقنية الشمالية / العراق
د. علي مولود فاضل مدرس في علوم الاتصال
والإعلام كلية الإسرائ الجامعة / العراق
د. محمد ياسين عليوي الشكري كلية
التربية للبنات جامعة الكوفة / العراق
د. ليلي كواكي مركز البحث العلمي والتقني
في علم الإنسان

أ.د. رفيق سليمان مدير المركز الديمقراطي
العربي برلين / ألمانيا
أ.د. الغالي بن لباد جامعة تمنغاست / الجزائر
أ.د. ضياء غني العبودي جامعة ذي قار /
العراق
أ.د. عبد الحليم بن عيسى جامعة وهران 1 /
الجزائر
أ.د. محمد أحمد سامي أبو عيد جامعة
البلقاء التطبيقية / الأردن
أ.د. عبد الكريم حمو باحث بالمركز الوطني
للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية وهران /
الجزائر
أ.د. الزاوي لعموري جامعة الجزائر 2 /
الجزائر
أ.د. سالم بن لباد جامعة غليزان / الجزائر
أ.د. بدرالدين شعباني جامعة قسنطينة 2 /
الجزائر
أ.د. جميلة ملوكي جامعة تمنغاست / الجزائر
أ.د. الزهرة قريصات جامعة تيارت / الجزائر
أ.د. صديق بغورة جامعة المسيلة / الجزائر
أ.د. نعيمة بن علية جامعة البويرة / الجزائر
أ.د. ليلي مهدان جامعة خميس مليانة /
الجزائر
م.أ.د. علي عبد الأمير عباس الخميس
جامعة بابل / العراق
أ.د. حبيب بوسغاي جامعة عين
تموشنت / الجزائر
د. صافية زفنكي المركز الديمقراطي العربي
برلين - ألمانيا

د. عبد القادر قدوري جامعة الأغواط/ الجزائر
د. رسول بلاوي جامعة خليج فارس - بوشهر/ إيران
د. بابو سقال مريم جامعة سعيدة/ الجزائر
د. فاطمة الزهراء نهمار جامعة البلدية 2/ الجزائر
د. أحمد حميد أوغلو جامعة إبراهيم جاجان/ تركيا
د. بوزياني فاطمة الزهراء جامعة تلمسان/ الجزائر
د. صليحة لطرش جامعة البويرة/ الجزائر
د. نسيمه بغدادى جامعة المسيلة/ الجزائر
د. هبيري فاطمة الزهراء جامعة تلمسان/ الجزائر
د. علاء الدين عبد اللطيف عبد العاطي محمد أبو العينين جامعة القاهرة/ مصر
د. كاهية باية جامعة محمد بوضياف المسيلة/ الجزائر
د. نبيل أحمد عبد العزيز رفاعي كلية الدراسات الإسلامية والعربية بسوهاج/ مصر
د. عبد القادر عوادي جامعة سيدي بلعباس/ الجزائر
د. علي ساهي جامعة الأغواط/ الجزائر

د. نورالدين بن نعيمة مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة الأغواط/ الجزائر
د. فاتح كرغلي جامعة البويرة/ الجزائر
د. سليم مزهود المركز الجامعي ميله/ الجزائر
د. محمد أحمد محمد حسن مخلوف جامعة الأزهر/ مصر
د. روح الله صيادي نجاد كاشان/ إيران
د. فاطمة الزهراء ضيفاف جامعة بومرداس/ الجزائر
د. سمية قندوزي جامعة/ الجزائر
د. فتيحة بوشان جامعة البويرة/ الجزائر
د. محمد بوعلاوي جامعة المسيلة/ الجزائر
د. آمنة شنتوف مركز تطوير اللغة العربية وحدة تلمسان/ الجزائر
أ.د. بن عزوز حليلة جامعة تلمسان/ الجزائر
د. بن عطية كمال جامعة الجلفة/ الجزائر
د. خالد حوير شمس جامعة بغداد/العراق
د. كاتب كريم جامعة وهران 1/ الجزائر
د. حميدش مونيعة جامعة الجزائر 2
د. محمد رزق الشحات عبد الحميد شعير جامعة هيتت/ تركيا
د. أمينة بن قويدر جامعة تيارت/ الجزائر
د. سوسن بوزيرة جامعة تيارت/ الجزائر
د. محمد بلحسن المركز الجامعي مغنية/ الجزائر

مقاييس وشروط النشر

الهوامش

تكتب بنظام

APA

على الشكل الآتي:
في المتن يكتب
بين قوسين: لقب
الكاتب والسنة
والصفحة (اللقب:
السنة، ص ..)

المراجع

تكتب المعلومات
الكاملة في آخر
المقال على هذا
النحو:
إسم ولقب الكاتب،
عنوان الكتاب،
الجزء، دار النشر،
الطبعة، بلد النشر،
سنة النشر،
الصفحة.

تخص البحوث المرسله الى المجلة الى مجموعة من الشروط تتمثل فيما يلي

1. يجب أن تتوفر في البحوث المقترحة الأصالة العلمية الجادة وتتسم بالعمق.
2. على صاحب البحث كتابة إسمه وعنوانه الالكتروني والجامعة والبلد الذي ينتمي اليه أسفل عنوان البحث، مع إرفاق سيرة ذاتية وتكون في صفحة خاصة ضمن البحث.
3. ترتب المراجع والهوامش في نهاية المقال حسب الطرق المنهجية المتعارف عليها ووفقا للتسلسل العلمي المنهجي وبطريقة يدوية.
4. ترفق المقالات بملخص لا يتجاوز 10 أسطر باللغة العربية وترجم الملخص الى اللغة الانجليزية أو العكس مع التطرق الى الكلمات المفتاحية.
5. حجم البحث لا يقل عن 10 صفحات ولا يزيد عن 15 صفحة.
6. تكتب المقالات بحجم 16 بصيغة Traditional Arabic بالنسبة للمتن وبحجم 12 بصيغة Times New Roman بالنسبة للهوامش؛ أما بالنسبة للغات الأجنبية الأخرى يكون بحجم 12 بصيغة Times New Roman بالنسبة للمتن و10 بالنسبة للهوامش وبنفس الصيغة.
7. إرفاق البحث بملخص باللغتين العربية والانجليزية.
8. على البحوث المقترحة أن تراعي القواعد المنهجية والعلمية المتعارف عليها.
9. ترسل المقالات المقترحة لهيئة أمانة التحرير لترتيبها وتصنيفها، كما تعرض المقالات على اللجنة العلمية لنحكيها.
10. يجب ألا يكون المقال قد سبق نشره أو قدم الى مجلة أخرى.
11. ترسل المقالات الى البريد الالكتروني للمجلة.
12. تمتلك المجلة حقوق نشر المقالات المقبولة ولا يجوز نشرها لدى جهات أخرى الا بعد الحصول على ترخيص رسمي منها.
13. لا تشر المقالات التي لا تتوفر على مقاييس البحث العلمي أو مقاييس المجلة المذكورة.
14. المجلة غير ملزمة بإعادة البحوث المرفوضة الى أصحابها.
15. تحتفظ المجلة بحق نشر المقالات المقبولة وفق أولوياتها وبرنامجه الخاص.
16. البحوث التي تتطلب تصحيح أو تعديل مقترحا من قبل لجنة القراءة تعاد الى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
17. ألا تكون البحوث المرسله مستلة من مطبوعة، او جزء من أطروحة.
18. أن تتضمن البحوث المرسله على قائمة المراجع تدرج في الأخير.

التحكيم

- تخضع كل البحوث المقترحة للتحكيم العلمي المزدوج من طرف لجنة القراءة وبسرية تامة، بحيث
- يحق للمجلة اجراء بعض التعديلات الشكلية الضرورية على البحوث المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها.
 - يقوم الباحث بتصحيح الأخطاء التي يقدمها له المحكمين في حال وجودها وإعادة ارسالها للمجلة.
 - لغات المقالات: العربية، والأمازيغية، الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الإسبانية، الإيطالية، والروسية.

- المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي المجلة -

ترسل البحوث المقدمة للنشر عبر البريد الالكتروني

culture@democraticac.de

الفهرس

الرقم	العنوان	الصفحة
1	كلية العدد	12
2	تصميم منصة إقراضية للتشخيص المبكر لأطفال طيف التوحد باستخدام خوارزميات الذكاء الاصطناعي ولاية الخرطوم، السودان يناير 2023 Designing a virtual platform for early diagnosis of children on the autism spectrum using artificial intelligence algorithms د.سليبي عثمان محمد قسم الله، أستاذ علوم الحاسوب المساعد، كلية علوم الحاسوب وتقانة المعلومات، جامعة السودان المفتوحة، السودان	32-13
3	صورة المكان في الرواية اليابانية - رواية نغاس لـ"هاروكي موراكامي" نموذجاً The image of the place in the Japanese novel - no'as novel by "Haruki Murakami" as an example د. مناف بسام علي الخصاصونة وزارة التربية والتعليم - مؤسسة الإمارات للتعليم المدرسي	52-33
4	سلطة الصورة السياسية اليوم داخل الفضاء العمومي The authority of the political image today in the public space د.أ. ريم الشريف/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان/تونس	67-53
5	تقنيات الإقناع في الخطاب الإعلامي وأثرها في إنجاح المصالحة في المجتمع Persuasion techniques in media discourse and their impact on national reconciliation د. عبدالسلام ميلاد جبريل - كلية التربية - جامعة وادي الشاطئ - ليبيا	78-68
6	بوموكاي وما حولها : دراسة في بعض الكتابات المحلية. Boumougai and its environs: a study of some local writings. د. النعمة بوشامة/باحث في تخصص علم الاجتماع/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.	107-79
7	التناص الديني في قصيدة النير التبريزي العربية في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) Religious intertextuality in the Arabic poem of Al-Naiier Al-Tabrizi in praising Amir al-Mu'minin, Ali bin Abi Talib (pbuh) مجتي عمراني پور، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران محسن فريدينيا/طالب مرحلة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران	129-108
8	تظاهرات التراث الأدبي القديم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث in the modern Algerian poetic discourse Manifestations of the ancient literary patrimony د. إبراهيم لقان/أستاذ محاضر قسم "أ" بمعهد الآداب واللغات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف ولاية ميله، الجزائر	143-130
9	الأشكال الجديدة للتدين الشعبي بالجنوب المغربي	156-144

	New forms of popular religiosity in southern Morocco مولود سنادي /باحث في علم الاجتماع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي تطوان/المغرب	
165-157	الاتجاهات الحالية لتوطين ألعاب الفيديو: الرهانات الاقتصادية والثقافية Current Trends in Video Game Localization: Economic and Cultural Challenges. د. ريم القريوي /أستاذة مساعدة بالمعهد العالي لإطارات الطفولة (جامعة قرطاج، الجمهورية التونسية)	10
179-166	المؤسسة الدينية الإسلامية والنص الأ نموذج. النص السردي أ نموذجاً The Islamic religious institution and the model text. Narrative text as a model د. نصر الدين بن عطية. جامعة سيدي بلعباس. الجزائر	11
220-180	التوافق النفسي وعلاقته بالشعور بالعزلة الاجتماعية من وجهة نظر عدد من طلاب مركز الأمل للسمع وضعاف السمع بيفرن Psychological adjustment and its relationship to the feeling of social isolation from the point of view of a number of students from the Al Amal Center for the Deaf and Hard of Hearing in Yafran عبد السلام سالم مسعود البوسيفي / قسم السمع والنطق - كلية التقنية الطبية صرمان - جامعة صبراتة	12
229-221	. القيم التربوية والعناصر الجمالية في مسرحية أطفال الغابة ل "جاسم محمد صالح" Educational values and aesthetic elements in the play Children of the Forest by "Jassim Muhammad Salih فاطمة عبد الرحمن / أستاذة التعليم العالي جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف- الجزائر- سامية غشبر / أستاذة محاضر- أ-جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف- الجزائر-	13
242-230	نحو إنماء كفاية معجمية لدى متعلمي السلك الابتدائي Towards development of a lexical competence among learners Primary wire د. محمد مياة، أستاذة التعليم العالي مساعد/المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الدار البيضاء-سطات/ المغرب	14
255-243	الجسد في "أوراق حياتي" لنوال السعداوي The body in "My Papers, My Life" by Nawal El Saadawi د. أحلام الطويل/جامعة تونس	15
271-256	التذوق الجمالي عند أبي حيان التوحيدي Aesthetic taste at Abi Hayyan al- Tawhidi د. يوسف عابدات، باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب.	16
283-272	تطور الخطاب النقدي في الجزائر The Evolution of Critical Discourse in Algeria د. لبية زباني، المركز الجامعي صالحى أحمد النعامة-الجزائر-	17
289-284	التضمنين في التواصل	18

	Implication in communication. حمزة رشيد/جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب.	
304-290	الرسوم المتحركة العربية كصناعة إبداعية، بين رهانات التطوير ونسق الاستهلاك: Arab Animation as a creative industry, between the commitments of developing and the system of consumption مصطفى حريال: جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب	19
336-305	الأبعاد الاجتماعية لفن الغرافيتي وموسيقى الهامش Social dimensions of graffiti art and fringe music يسرى العماري / جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب.	20
354-337	الأقليات المسلمة في الغرب وضرورة الحوار التربوي والديني د.فارح رضوان (دكتوراه في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان -جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس-سائس- المغرب)	21
378-355	المجموعة القصصية "ميتة مبتكرة" لبلييس خليفة: محاولة سردية لإبداع الأفكار أم تأكيد على موت الابتكار؟ The short story collection 'innovative dead » by Balquis Khalifa : A narrative attempt to create ideas or a confirmation of « the death » of innovation ? رجاء عمّار/باحثة في علوم الإعلام والاتصال/جامعة منوبة - تونس	22
401-379	تطوير مناهج العلوم في الجمهورية اليمنية في ضوء معايير الجودة الشاملة (كتاب الصف الخامس من التعليم الأساسي أ نموذجاً) Developing Science Curricula in the Republic of Yemen in Light of Comprehensive Quality Standards: The Fifth Grade Basic Education Textbook as a Model ط.د/ عبده محمد صالح احمد عبدالكريم / كلية العلوم التطبيقية والتربوية بالنادرة - جامعة إب/ اليمن	23
420-402	نسق الفحولة في الرواية العربية Masculinity in Arabic Novel سكينة الروكي جامعة السلطان مولاي سليمان كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال - المغرب.	24
429-421	المفاهيم الخاطئة حول المعجم: عقبة أمام تدريس المفردات في الفصل الدراسي (مقال مترجم) Le vocabulaire et son enseignement Idées reçues sur le lexique : un obstacle à l'enseignement du lexique dans les classes Alise Lehmann Université d'Amiens, الباحثة / هند العنيكري، المدرسة العليا للأساتذة - جامعة المولى إسماعيل - مكّاس / المغرب	25
445-430	التقنيات بين الدرس اللساني القديم والحديث (الأصول والامتداد) Technology between old and modern tongue lesson (origins and extension)	26

	دكتور محمد اوباحو؛ دكتور متخصص في اللسانيات، جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس - فاس المغرب.	
462-446	آليات بناء الخطاب الفلسفي عند الدكتور محمد عابد الجابري Mechanisms of constructing the philosophical discourse of Muhammad Abed Al - Jabri منير بوردي، باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب	27
484-463	أثر التحولات المعرفية لدى التياران البنوي والعقلاني في تطور السمات المحددة لعلمية اللسانيات The impact of cognitive shifts among the structuralist and rationalist trends on the development of the specific features of linguistics ط.د. رياض عز الدين، المركز الجامعي سي الخواس بريكة/ الجزائر. إشراف الأستاذ الدكتور: عمار لعويجي قسم اللغة والأدب العربي، المركز الجامعي سي الخواس بريكة / الجزائر	28
501-485	الأثر العقلاني الاعتزالي في أدب الجاحظ- كتاب "الحيوان" نموذجاً. The rational and retiring effect in the Al-Jahidh literature - the book "hayawan" is a model. طالب باحث بسلك الدكتوراه هشام مناجي، كلية الآداب عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب/ إشراف الدكتور عبد المجيد شكير	29
518-502	الموروث اللغوي في نصوص الرحلة الأندلسية-مقاربة معجمية تاريخية Linguistic heritage in the texts of the Andalusian voyage - Historical lexical approach الكاني حميد/ باحث في سلك الدكتوراه، اللسانيات والإعداد اللغوي، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، المغرب/الأستاذ المشرف الدكتور عبد الإله بوغابة	30
533-519	تمثيلات الفضاء ودلالاته على المحكي السينمائي. فيلم " عاملة التلغراف " أنموذجاً The Representations of Space and Their Significance in Cinematic Narratives: A Case Study of the Film "The Telegraph Operator طالب باحث عادل علقماء/ كلية اللغات والآداب والفنون/ جامعة ابن طفيل القنيطرة- المغرب	31
548-534	محنة الأسلوب عند الهذلي (دراسة أسلوبية في عينيته) The Style Ordeal When Hudhali (Stylistic Analysis of His Poem) يوسف كطابي، (طالب باحث بسلك الماستر، شعبة اللغة العربية، تخصص اللسانيات العربية والإعداد اللغوي، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب).	32
565-549	Dévoiler le système torturant : Approche de La Question d'Henri Alleg مقاربة لرواية هنري علاق " السؤال": نضام التعذيب عن الكشف Unveiling the Torturing System: An Approach to Henri Alleg's La Question Mehdi HAMDI, Maitre de conférences, HDR Dr en sciences des textes littéraires, Département de français	33

	Université Mouloud Mammeri de Tizi-Ouzou, Algérie	
591-566	وسائل الاعلام وعلم اللغة التطبيقي Media And Applied Linguistics Researcher. Muna Jumaa Ali College of Language , Baghdad University , Baghdad / Iraq	34
608-592	The Challenges that Face Abstract writing in Terms of Contents, Coherence, and Cohesive Devices for Sudanese Researchers التحديات التي تواجه الباحثين السودانيون في كتابة ملخصات البحوث من ناحية المحتوى و التماسك والترابط Dr. Abedelrahman Mohammdain Abdurrahman Ahmed, Associate Professor, El Imam El Mahdi University, Faculty of Arts and Humanity, and White Nile University Sudan, Email, Dr. MohiEldeen Ahmed Abdelrahman Ahmed, Assistant Professor, White Nile University, Faculty of Arts, English language Department, Sudan	35
623-609	Linguistic justice, the concept, ways of development العدالة اللغوية، المفهوم، طرق التطوير Ftaich abdelilah faculté des langues et lettre et art , université ibn Tofail, Kénitra, Morocco	36
646-624	المسرح كوسيلة تعليمية لتنمية المهارات اللغوية للتعلمين Theater as a didactic tool to develop language skills of learners Touria MOUKATE, Doctorante (Université Ibn Tofail Maroc) Mounia BENAMEUR, Professeur de l'enseignement supérieur (Université Ibn Tofail, Maroc)	37
659-647	A quoi servent les termes d'adresse et de politesse dans une interaction commerciale ? Le cas de quelques petits commerces à Fès What are the terms of address and politeness used for in a commercial interaction? The case of some small businesses in Fez MHANDEZ TLEMÇANI ZAKARIA, Université Sidi Mohammed Ben Abdellah- MAROC	38

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام، على رسول الله سيدنا محمد وعلى وآله وصحبه
أجمعين وبعد،

إنّ مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، منبر من المنابر العلمية الدولية الرائدة أروبيا
باعتبار صدورها في برلين/ألمانيا، ولها جناح خاص في المكتبة الوطنية في المدينة نفسها،
وعربيا لأنها تعنى بالدراسات الثقافية واللغوية والأدبية والفنية الرصينة في العالم العربي.

يحمل العدد الثلاثون، أبحاث علمية ذات رؤى نافذة وأقلام واعية وبلغات متعددة
ومجالات متنوعة، وفق قواعد علمية ومنهجية مضبوطة، ليحمل دراسات علمية قيمة
ومتنوعة، تسير مجال اختصاص المجلة واهتمامها.

وكالعادة تلقينا الكثير من البحوث، التي تعد من المواد العلمية والمعرفية المهمة في
مجال الدراسات اللغوية والثقافية والفنية، قد خضعت لتحكيم علمي موضوعي، لذلك
صعب علينا انتقاءها.

ونحن نجدد الاعتذار من الذين لم يتسنى لهم نشر ورقتهم البحثية في هذا العدد،
ونضرب لهم موعدا في الأعداد المقبلة بحول الله تعالى.

في الأخير نجدد الشكر لكل من ساهم في اصدار هذا العدد، وشكر خاص للسيد
رئيس المركز الديمقراطي العربي.

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور سالم بن لباد

. تصميم منصة إقراضية للتشخيص المبكر لأطفال طيف التوحد باستخدام خوارزميات الذكاء الاصطناعي ولاية الخرطوم، السودان
يناير 2023

Designing a virtual platform for early diagnosis of children on the autism spectrum using artificial intelligence algorithms

د.سليبي عثمان محمد قسم الله، أستاذ علوم الحاسوب المساعد، كلية علوم الحاسوب وتقانة المعلومات، جامعة السودان المفتوحة،
السودان

الملخص:

تهدف الدراسة إلى تصميم بيئة إقراضية حديثة للتشخيص المبكر لطفل طيف التوحد، من أجل بناء الثقة للأطفال وخلق الابتكار والمواءمة بفاعلية للرعاية الصحية لطفل طيف التوحد، وذلك لعدم قدرة طفل طيف التوحد على التفاعل الاجتماعي، وعدم التكيف مع طبيعة العلاج وصعوبة التعامل مع المجتمع المحيط بالطفل، وتختصر أهمية الدراسة في خلق بيئة مناسبة لطفل طيف التوحد والتألم مع الواقع، وتوفير كل المتطلبات التي يحتاجها الطفل، وتشخيص الاكتشاف المبكر يجعل والداي الطفل أكثر إطمئناناً على طفلهم والحرص على تقديم واجبه لدى الطفل، ومن أهم نتائج الدراسة نجاح بيئة التعلم الإقراضية وقابلية وفاعلية الاندماج لطفل طيف التوحد، والتركيز على التواصل البصري وتمتية النطق والتكيف على خلق الابتكار والمشاركة لرعاية الطفل، وأهم التوصيات أن تعمل الدراسة بتكاملية هذه البيئة الإقراضية بأساليب عصرية حديثة مرتبطة بمفاهيم السحابة الإلكترونية، وربطها باستخدامات تنقيب البيانات والعمل على تطبيقات التعلم العميق في مجال طيف التوحد.
الكلمات المفتاحية: تصميم، منصة إقراضية، التشخيص المبكر، أطفال طيف التوحد، خوارزميات، الذكاء الاصطناعي.

Abstract:

The study aims to design a modern virtual environment for early diagnosis of children on the autism spectrum, in order to build confidence for children and create innovation and effective alignment with health care for children on the autism spectrum, due to the inability of the child on the autism spectrum to interact socially, the inability to adapt to the nature of treatment, and the difficulty of dealing with the community surrounding the child. The importance of the study is limited to creating an environment suitable for an autism spectrum child and his adaptation to reality, providing all the requirements that the child needs, and early detection diagnosis makes the child's parents more reassured about their child and keen to do their homework for the child. One of the most important results of the study is the success of the virtual learning environment and the ability and effectiveness of integration for a child. The autism spectrum, focusing on visual communication, speech development, and adaptation to create innovation and participation in child care. The most important recommendations are that the study integrates this virtual environment with modern methods linked to the concepts of the electronic cloud, linking it to the uses of data mining, and working on deep learning applications in the field of the autism spectrum.

Keywords: design, virtual platform, early diagnosis, autism spectrum children, algorithms, artificial intelligence.

مقدمة:

يحتاج أطفال طيف التوحد إلى نوع خاص من التعامل والخدمات التي تساعد على التكيف مع البيئة التي يعيشون فيها وإدارة حياتهم بطريقة صحيحة بل يتحمل مسؤولياتهم الذين يحيطون بسبب القصور الوراثي أو المكتسب مما يجعل الفرد غير قادر على إدارة واجباته العادية والإستفادة من الخبرات التقنية لذلك جاءت التقنيات الذكية لتوفر الكثير من الحلول لأطفال طيف التوحد ويعد هذا المرض من الفئات التي تحتاج متطلبات خاصة لأنها تؤثر على إستيعاب المخ لذا توجد أدوات تقنية ذكية تعمل على زيادة الوعي بين أطفال طيف التوحد من خلال قدراتهم على التواصل بالعين وذلك بإستخدام خوارزميات تعقب وتتبع العين وإرتباطها بالدماغ .

تساعد التقنيات الذكية في تنمية ذكاء طفل طيف التوحد وتتيح للأطفال فرصة إختصار الوقت والمجهود بشكل سلس وبسيط وكسب المهارات اللازمة وتنمية العلاقات الإجتماعية.

الفصل الأول (الإطار العام)**مشكلة الدراسة:**

تكمن المشكلة في التالي: تأخر إكتشاف مرض طيف التوحد في المراحل الأخيرة، وعدم قدرة أطفال التوحد التعامل مع الآخرين والتعامل مع الوقت وعدم التفاعل الإجتماعي، وتركيز طفل طيف التوحد على الأشياء أكثر من الأشخاص أي تجنب التواصل بالعينين وعدم التكيف مع تغيير الروتين وطبيعة العلاج وأهدافه، وعدم تركيز الأبحاث والدراسات العربية على شريحة أطفال طيف التوحد في السنوات الأولى.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة في التطبيقات الذكية تعمل على مواءمة طفل طيف التوحد مع الواقع الإقتراضي والإكتشاف المبكر لتشخيص المرض، تصميم المنصة الإقتراضية يعمل على الإعتناء بإحتياجات ومتطلبات طفل طيف التوحد

الإعتناء بإحتياجات ومتطلبات والداي الطفل وإستخدام هذه التطبيقات يفيد والداي الطفل، تعمل هذه الدراسة على ربط كل شرائح المجتمع المحيط بطفل طيف التوحد من والداي الطفل ومعلم الصف والمختصين وكل ما يحيط بطفل طيف التوحد، وتحديد مهام كل شريحة.

أهداف الدراسة:

1- تصميم بيئة تعلم ذكية للتشخيص المبكر لأطفال طيف التوحد لتحسين جودة حياة الأطفال المتوحدين وذويهم.

- 2- فاعلية إنتباه الطفل داخل الجلسات بإستخدام خوارزمية تعقب العين مع نظارة الواقع الإفتراضي
3- الإكتشاف المبكر يسهل علي والداي الطفل الفترة الزمنية لتشخيص المرض وسرعة العلاج.

متغيرات الدراسة:

لدينا عدد من المتغيرات متمثلة في حركات وإيماءات العين والوجه والأطراف وتبع حركتها أثناء عدة عمليات مختلفة متغيرات متمثلة في:

المتغيرات

في الإحصائيات، المتغيرات هي عوامل البيانات أو السمات التي تختلف قيمها. بالنسبة لأي تحليل، تكون بعض المتغيرات متغيرات مستقلة أو توضيحية. هذه السمات هي سبب النتيجة. المتغيرات الأخرى هي متغيرات تابعة أو استجابة؛ تعتمد قيمها على المتغيرات المستقلة. بشكل عام، يستكشف الانحدار اللوجستي كيف تؤثر المتغيرات المستقلة على متغير تابع واحد من خلال النظر في قيم البيانات التاريخية لكلا المتغيرين

المتغير المستقل هو مدي تحديد إيماءات الوجه وحركات تتبع العين (حدقات العين) والمتغير التابع هو متغير التنبؤ أو الإستجابة وهي تشغيل الموسيقى والألعاب وغيرهاx

حدود الدراسة:

الحدود المكانية: ولاية الخرطوم، السودان، المنصة الإفتراضية

الحدود البشرية: أخذ عينة من أطفال طيف التوحد

الحدود الزمانية: يناير 2023م

مجتمع الدراسة: الدراسة بمدارس ولاية الخرطوم لذوي الإحتياجات الخاصة والتركيز علي أطفال التوحد
عينة الدراسة: أخذ عينة (10 أطفال) بمعدل 30 دقيقة كل يوم لمدة ثلاثة أشهر وفحصها في البيئة

الإفتراضية الذكية

منهج الدراسة:

إتبعت الدراسة المنهج الوصفي التجريبي التحليلي التطبيقي للإكتشاف المبكر لطيف التوحد، ويمثل النهج الوصفي في دراسة متكاملة عن خلفية الطفل من النواحي الإجتماعية والإقتصادية والتعليمية وتحليل الأعراض العاطفية والأسرية والمجتمعية وتقييمها وأستخدام خوارزمية تعقب حركة العين في التطبيق العملي.

أدوات الدراسة: قامت الدراسة بإستخدام خوارزمية الإنحدار اللوجستي مع تطبيق البيئة الإفتراضية

هيكل الدراسة:

تتكون الدراسة من أربعة فصول على النحو التالي: الفصل الأول الاطار العام، والفصل الثاني الاطار النظري، والفصل الثالث أدبيات الدراسة، وأما الفصل الرابع الدراسة التحليلية والخاتمة والنتائج والتوصيات وقائمة المصادر والمراجع.

الإطار النظري الفصل الثاني

أولاً: طيف التوحد

طيف التوحد تعرف بمصطلح Autism أي تتكون من شقين الشق الأول يعني النفس أو الذات الشق الثاني يعرف بالحالة وهي وتستخدم للشخص المنطوي علي نفسه بشكل غير عادي. يعد طيف التوحد من الإضرابات الأساسية التي تؤثر سلباً علّة مظاهر النمو الطبيعي (سهي نصر الدين 2022) طفل التوحد هو الذي فقد التواصل مع الآخرين ولا يستطيع تحقيق التواصل معهم (عبد الحميد سليمان 2001)

من أبرز المشاكل التي يعاني منها طفل التوحد اضطراب طيف التوحد (Autism spectrum disorder) وهو حالة تطويرية تتميز بمشاكل في التفاعل الاجتماعي والتواصل الاجتماعي والسلوكيات النمطية والتكرارية.

من المظاهر المميزة لاضطرابات طيف التوحد (ASD) هو وجود عجز في اللغة، فبعض الأطفال الذين يعانون من الاضطراب يطورون اللغة بشكل طبيعي إلى حد ما، ويلاحظ أنهم يعانون من تأخر في اللغة الوظيفية الإجتماعية ونادراً ما يستخدمون اللغة لبدء التفاعل الاجتماعي، ويلاحظ أيضاً أن الكلام يفتقر إلى العفوية، ولا يستخدم هؤلاء الأطفال بشكل عفوي طرق اتصال مناسبة أخرى للتواصل يمكن أن تعوض عن قيود اللغة، وهناك بعض الأطفال يكتسبون بعض اللغة الوظيفية لكن هناك تباين كبير في معدل تقدمهم. (Forget, 2012 & Rivard)

ويواجه أطفال ذوي اضطراب طيف التوحد (ASD) عيوباً في فهم المواد اللفظية، لاتوجد إشكالية في مواجهة طفل طيف التوحد المواد المرئية (السردي المرئي) لذا يجب التحفيز والتركيز عليها، وتستخدم السرد المرئي تنظيمياً تسلسلياً منظماً. وعادةً ما تُعزى أوجه القصور في فهم السرد البصري من قبل الأفراد ذوي اضطراب طيف التوحد (ASD) إلى مشكلات تتعلق بنظرية العقل بدلاً من المعالجة الدلالية الأساسية. (Manfredi, et al., 2020) لذا يركز طفل طيف التوحد في الأشياء التي يقدمها الأشخاص وليس التركيز علي الأشخاص.

هنالك عدة مشاكل تواجه الأخصائيين أثناء العلاج ومن أهمها أن الأطفال لا يتكيفون جيداً مع التغير بالروتين وطبيعة العلاج وأهدافه، والانتقائية الزائدة للانتباه تزيد من صعوبة التعميم، والعزلة وعدم التفاعل الاجتماعي التي تؤثر بشكل سلبي على فاعلية العلاج.

خلل التواصل Communication Disorders هو عجزاً أساسياً في اضطراب طيف التوحد، ويُعد من أبرز المشكلات الرئيسة التي يعاني منها ذوي اضطراب طيف التوحد، وهو أبرز معايير التشخيص الأساسية. (Volkmar et al., 2005)

ومن سماته ظهور عجز في التواصل اللفظي والغير لفظي لذوو طيف التوحد (ASDs)، مما يؤدي هذا العجز إلى افتقار أطفال طيف التوحد لمهارات التفاعل والتواصل مع المحيطين به. (يزيد، وائل، (2013)، و هنالك خلل في التواصل يجعل اضطراب طيف التوحد يُشخص تشخيصاً تمييزياً عن الاضطرابات الأخرى (حسام الدين، شادية، 2018) إذا ظهرت أعراضها دون سن الثالثة من العمر، كون التواصل سلوكاً محورياً في حياة طفل طيف التوحد، تتشكل من خلاله العلاقات الاجتماعية (عبد الرحمن، (2001) مع العلم بأن طفل طيف التوحد هو الطفل الذي فقد التواصل مع الآخرين، أو لم يحقق هذا التواصل.

ويلاحظ أن طفل طيف التوحد (Reed (2008 & Osborne) يقوم بتجنب التواصل بالعينين أحد المشكلات التي يواجهها والدي أطفال طيف التوحد، وتحول دون تحقيق التفاعل الاجتماعي الفعال بين أطفال طيف التوحد والمحيطين، وما أشارت إليه نتائج دراسة (Morgan & Carpenturi (1996)) بأن أطفال طيف التوحد يعانون من قصور في التواصل البصري بالعينين، والتواصل مع الآخرين مقارنة بالأطفال ذوي الإعاقة العقلية، وهنالك سمات أساسية تظهر على أطفال اضطراب طيف التوحد في نهاية العام الثاني من العمر وذلك بحدوث خلل في مهارات التواصل، والتي تلاحظ في عدم التواصل بالعين " التواصل البصري " Eye Contact.

ويؤدي العجز في التواصل إلى ارتفاع مستويات السلوكيات المضطربة (Rutter (1998) وقد أشارت الدراسة بأن مشاكل أطفال طيف التوحد في التفاعل الاجتماعي تظهر في تجنب التفاعل الاجتماعي (Koegel et al., (2006) أو استخدام أنماط غير مناسبة من التواصل، وعلى هذا النحو فإن ضعف التواصل يؤثر على قدرة أطفال طيف التوحد (DSM-5APA, 2013) في التفاعل الاجتماعي مع الأخرى.

ويزيد ذلك من أهمية التركيز على تحسين التواصل البصري لذوي اضطراب طيف التوحد (DSM-5 (APA, 2013)، ما ظهر بالدليل التشخيصي الإحصائي للاضطرابات العقلية الطبعة الخامس وتمثل

هذه الإضطرابات في: صعوبات في التواصل والتفاعل الاجتماعي (Donna et al., (2008) ، والأنشطة والاهتمامات والسلوكيات المقيدة التكرارية. القدرة على التواصل البصري تُعد أحد العناصر المبكرة لتطور الانتباه المشترك (JA) (عادل عبد الله محمد -2011 ، 65)

وتتطلب القدرة على تتبع النظرة من الطفل أن يكون قادراً على الانتباه لكل الأشياء الموجودة في المجال، وهذه المهارة تنقل (Schreibman & Koegel , 1996) الطفل من التفاعلات الثنائية (الطفل - الآخر) إلى التفاعلات الثلاثية (طفل - شيء - الآخر)، مما يظهر عقبات أخرى (Mahoney, (Perales & 2003

وهي إن أطفال طيف التوحد يواجهون مشكلات في التواصل بدقة وكفاءة مع الآخرين، والقدرة على تحقيق التفاعل الاجتماعي يتطلب معالجة معرفية متقدمة للإشارات والرموز على المستوى الاجتماعي وتفسيرها، والاستجابة لها بصورة مناسبة في ضوء السياق الاجتماعي، ويرتبط ذلك بالقدرة على الانتباه المشترك.

ويشغل ذو اضطراب طيف التوحد (ASDs) Autism Spectrum Disorders اهتمام المختصين في التربية الخاصة والقائمين برعايتهم وتعليمهم؛ وقد ركزت الدراسات على تدريب والدي أطفال طيف التوحد على تعلم التدخلات التي تكسب أطفالهم مهارات التواصل، (Schertz,2005) حيث يتم الاهتمام بتدريب الوالدين لتعليم أطفال طيف التوحد مهارات التواصل الاجتماعي غير اللفظية في وقت مبكر من (Eisenstad & McElreath, 1994)، نظراً لوجود علاقة بين المهارات غير اللفظية والاتصالات الاجتماعية، وخاصة تحسين اللغة في وقت لاحق (Tonge et al., 2006)، حيث يكون للوالدين دوراً رئيساً في تطور التواصل غير اللفظي، ونجاح العديد من التدخلات العلاجية الداعمة لمشاركة آباء وأمهات أطفال طيف التوحد في تحسين التواصل اللفظي وغير اللفظي). (سهي نصر، 2002)

العين :

تتكون العين من ثلاثة أجزاء رئيسية، pupil وهي المنطقة السوداء في وسط العين والجزء الثاني هو IRIS هي المنطقة الأوسع التي يمكن أن تأخذ عدة ألوان باختلاف الأشخاص أما الجزء الثالث Sclera وهي المنطقة ذات اللون الأبيض. Ahmed et al.,2003.cell density rations in afoveal patching amacaque retina.Vis.Neurosci.20:189_209

تعد اضطرابات التواصل لطفل اضطراب طيف التوحد من الاضطرابات المركزية والأساسية التي تؤثر سلباً على مظاهر نموه الطبيعي والتفاعل الاجتماعي (Lovaas et al., 2003) [(23) (1997)]. وهي بدورها تمثل عجزاً أساسياً (Paul (2003 & Lord في اضطراب طيف التوحد، وما أشارت إليه الدراسة بأن) اضطرابات التواصل تمثل الأعراض الأكثر خطورة بين مجموعة الأعراض التي يتصف بها أطفال التوحد (سايمون كوهين وباتريك بولين) وتعود خطورة اضطراب التواصل إلى أنها تؤثر بدورها على اضطرابات أخرى كالتفاعل الاجتماعي وغيره من الاضطرابات التي تتأثر باكتساب اللغة (بارتيشيا بولين 2) وقد قاما بتحليل وظائف التواصل للسلوك غير المقبول لدى أطفال التوحد، وتوصلا إلى أن بعض أنماط السلوك التي يمارسونها كإيذاء الذات والبكاء ما هي إلا سلوكيات ناتجة عن الصعوبات التي يواجهونها في التواصل مع الآخرين، حيث اثبتت الدراسات (Siegel (2003) أن طفل اضطراب طيف التوحد غير قادر على فهم (قيمة التواصل، ولا يستطيع فهم التعبيرات التواصلية، وينتج عن خلل التواصل سلوكيات سلبية، ولهذا أشار (إبراهيم، 2004)، (حسام الدين، شادية، 2018) إلى أنه ينتج عن اضطرابات التواصل لدى ذوي طيف التوحد مجموعة من أنماط السلوك غير المرغوبة كوجات الغضب المستمر.

تعد مهارة التواصل البصري أحد مهارات التواصل غير اللفظي Non Verbal Communication Skills أساساً لنمو مهارات التواصل اللفظي، فنطق طفل طيف التوحد للكلمات يجب أن يكون مصحوباً لقيامه بالتواصل غير اللفظي (Dunn, 2007, 190 & 29 Tomchek) وتصف الاستجابة البصرية لدى أطفال اضطراب طيف التوحد بالضعف، والتي تظهر من خلال النظرة الجانبية للأشياء، وتجنب التواصل البصري التي تعد من أبرز السمات والخصائص الاجتماعية لأطفال اضطراب طيف التوحد (Dereu et al., 2011, 30; Zwaigenbaum et al., 2009) فيلاحظ على أطفال اضطراب طيف التوحد القصور في التواصل البصري، والتفاعل الاجتماعي، كالاقتدار لتبادل الإيماءات وفهمها مع الآخرين، وقصور الإدراك والانتباه، وقصور في اللعب التخيلي، وتقليد الآخرين، وهذه السمات من المظاهر المبكرة لاضطراب طيف التوحد ومن أكثر الصعوبات التي تواجه أطفال اضطراب طيف التوحد هي تفسير الإشارات غير اللفظية. (Scott et al., 2000, 15) كما تعد أساليب التواصل غير اللفظي من الوسائل الأساسية التي يستخدمها الأفراد الذين لديهم قصور في التعبير عن أنفسهم باستخدام الكلمات، (Gold, 2006, 535 & Wigram)

كما يلاحظ على الأطفال والمراهقين من ذوي اضطراب طيف التوحد، أنهم يعانون من مشكلات في تطور اللغة اللفظية وأشكال التواصل غير اللفظي كالتواصل البصري، ولغة الجسد، وتطور محدود في مهارات التواصل .

ويُعرف التواصل البصري لأطفال طيف التوحد إجرائياً بأنه: قدرة طفل اضطراب طيف التوحد على النظر للآخرين وتحريكهم للحصول على ما يريد باستخدام إشارات بسيطة بشكل تلقائي، وإبداء العديد من التعبيرات الوجهية، مع فهم الإشارات الاجتماعية للآخرين وتقييمه، ويقاس من خلال قائمة مهارات التواصل البصري المدرك لأباء وأمهات أطفال التوحد. (إبراهيم (2016)، (التوحد السلوك والتشخيص والعلاج. (ط2)، عمان: دار الفكر).

ثانياً: الخوارزميات:

هي مجموعة من الخطوات الرياضية والمنطقية والمتسلسلة اللازمة لحل مشكلة ما، وسميت بهذا الإسم نسبة للعالم أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الذي ابتكرها في القرن التاسع الميلادي وهي تراكيب لثلاث كلمات التسلسل والإختيار والتكرار(توماس كورمن وتشارلز لايسيرسين).

تعريف آخر:

الخوارزمية : هي مجموعة من القواعد تعبر عن سلسلة محددة من العمليات.(رونالد ريفست وكليفرد ستاين).

الانحدار اللوجستي:

هو تقنية لتحليل البيانات تستخدم الرياضيات في إيجاد العلاقات بين عاملين من عوامل البيانات. ثم يستخدم هذه العلاقة للتنبؤ بقيمة أحد هذين العاملين بناءً على الآخر. وعادة ما يكون للتنبؤ عدداً محدوداً (قيمة نهائية) من النتائج، مثل نعم أو لا.(محمد أمين دعيش، محمد ساري).

الانحدار اللوجستي هو تقنية مهمة في مجال الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي. (AI/ML) نماذج التعلم الآلي (ML) هي برامج يمكنك تدريبها لأداء مهام معالجة البيانات المعقدة دون تدخل بشري. تساعد نماذج التعلم الآلي التي تم إنشاؤها باستخدام الانحدار اللوجستي المؤسسات على اكتساب رؤى قابلة للتنفيذ من بيانات أعمالها. يمكنهم استخدام هذه الأفكار لتحليل التنبؤي لتقليل التكاليف التشغيلية وزيادة الكفاءة والتوسع بشكل أسرع. على سبيل المثال، يمكن للشركات الكشف عن الأنماط التي تحسن الاحتفاظ بالموظفين أو تؤدي إلى تصميم منتج أكثر ربحية.

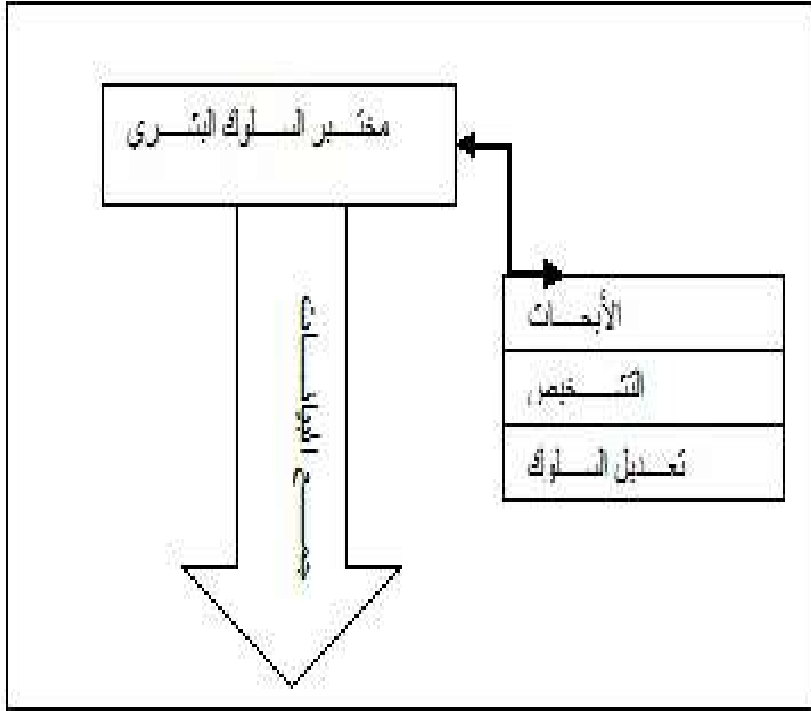
ثالثاً: الذكاء الاصطناعي:

في منتصف الأربعينيات بدأت الدراسة العلمية للذكاء الإصطناعي وإمكان الآلات لإتخاذ القرارات، واهتمت عدة دراسات بتوظيف تطبيقات الذكاء الإصطناعي في مختلف مجال القطاعات. وتقديم الخدمات بصورة بصورة كفاءة وفعالية وتحسين عملية صنع السياسات. (Yunhe Pan, "Heading Engineering", toward Artificial Intelligence 2.0 (الفصل الثالث

المنهجية:

- مفهوم عملية التحليل يقصد بتحليل النظام هو تجزئة النظام الي مجموعه المدخلات والأجراءات والمخرجات (سعاد، 2011)، أثر الذكاء الاستراتيجي على عملية إتخاذ القرارات، غزة: الجامعة الإسلامية) ،التحليل بأسلوب الكينونات (ERD (Entity Relationship Diagram) هي طريقة لتمثيل البيانات المخزنة علي قواعد البيانات والعلاقات بين الجداول وهذه العملية تسهل علي المستخدم فهم البيانات المخزنة علي قواعد البيانات وسهولة تعديل البيانات علي قواعد البيانات والتقليل من نسبة الخطأ والتكرار. إبراهيم، مقدمة في نظم المعلومات الإدارية المفاهيم الأساسية والتطبيقات، الاسكندرية: دار الجامعة الجديدة) ، آلية العمل :

لدينا أربعة مكونات أساسية مرتبطة بطفل طيف التوحد تعرف بالبيئة التي حوله متمثلة في والدي الطفل إذ لا بد من التواصل مع والدي الطفل والتشخيص المبكر لسلوك الطفل ووالديه يتيح لنا طرق إيجابية تساعد في فهم سلوك الأطفال مما يعزز إستقرار الطفل وتحسين صحته الذهنية. أولاً : لدينا مختبر لجمع بيانات طفل التوحد ومعرفة سلوك الطفل و يعرف بمختبر السلوك البشري يتم فيه تشخيص حالة الطفل وذلك بمعرفة كل مايتصل به الطفل من معلومات ناتجة من دراسات والأبحاث وتعديل السلوك وتشخيص السلوك الإقتراضي أو المكتسب.



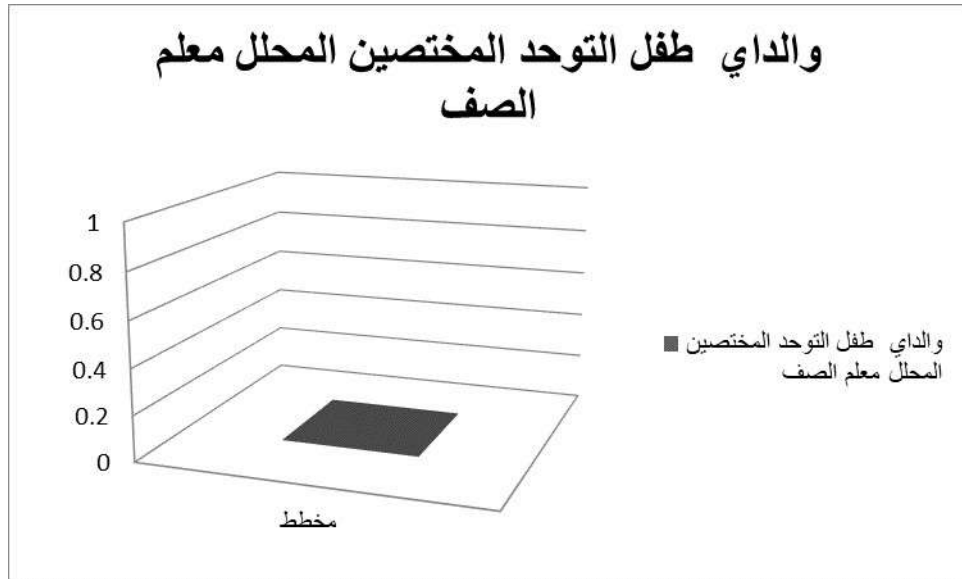
الشكل (1) يوضح مخطط مختبر السلوك البشري
المكونات الأساسية للبيئة الإقتراضية:

مختبر السلوك البشري : معمل البيئة الإقتراضية تسجيل كل معلومات المتخصصين والمعلم وذوي الطفل

ومن حوله

الأبحاث: تسجيل كل بيانات طفل طيف التوحد من فصيلة دم وسلوك وغيره من الصفات (أي تاريخ مسيرته) وكذلك والديه

التشخيص: العمل علي منصة البيئة الإقتراضية وإستخدام الخوارزميات للكشف المبكر لتشخيص المرض
تعديل السلوك: تأعلم الطفل مع الواقع والعمل علي تحسينه إلي بيئة لا يحس بأنه غريب عن المجتمع الذي يحيط به.



العمل في المختبر:

في مختبر السلوك البشري يوجد الباحث ويراقب الطفل وهو يلبس نظارة الواقع الافتراضي وهي نظارة مزودة بعدة تقنيات EEG ذكية تعمل بخوارزمية حركة تتبع العين ومزودة بأجهزة محسسات وإستشعار تعقب العين بشكل فوري وربطها مع تخطيط الدماغ بنفس التوقيت مما يتم جلب كل بيانات الطفل ومروره بجميع حالات مشاعره المختلفة من غضب وخوف وفرح مع تزامن النظام الذكي.

أخذنا عينة من 10 أطفال مصابين بطيف التوحد كل طفل يمتلك نظارة الواقع الافتراضي EEG وربطها بتخطيط الدماغ

وتتبع خوارزمية تعقب العين لكل طفل.

تعقب حركة العين وإتساع الحدقة أثناء تجربة الواقع الافتراضي إختباره علي تشغيل الصوت العالي للموسيقى يلاحظ تعقب عينيه أثناء كاميرا العين وعرض الشخص للواقع الافتراضي والإنتباه علي شئ محدد ومتزامن في نفس الوقت.

إستخدمنا خوارزمية الإنحدار اللوجستي في حركة تعقب العينين.

وتستند المنصة الإلكترونية على تقديم طراز للرعاية اليومية النموذجية للطفل، مع التركيز على استخدام فرص التعلم الإلكتروني إطارها الطبيعي والاندماج الاجتماعي، حيث يشترك في ذلك استخدام نظارة الواقع الافتراضي لتحليل السلوك التطبيقي ABA الذي يستخدم المبادئ السلوكية ضمن سياقات التعلم الطبيعية. ويهدف لتحقيق مفردات أكثر لدى الطفل، وتواصل اجتماعي وانضباط انفعالي، ونمذجة للتعاملات اليومية وتطوير للعلاقات الاجتماعية، وتعلم الاستجابات الصحيحة للمواقف المختلفة، وتتضمن بيئة تطبيق المنصة الألعاب والأنشطة التي تعد جذابة للأطفال الصغار، والتهيئة للطفل لتعلم

الطلب، والتفاعل مع الكبار، ويقضي الأطفال وقتهم في المنصة الذكية حوالي 30 ساعة أسبوعياً بصورة منتظمة، وتتميز الخوارزمية بتركيزها على الأهداف الحقيقية لمرض التوحد. ويعمل تحليل السلوك التطبيقي على اقتراض ماهيته أن العديد من السلوكيات الشاذة كالصرخ والضرب العنيف يمكن أن تؤخذ لمحاولات للتواصل أو إثارة للسلوك المرغوب والنجاح لتشكيل سلوكيات مرغوبة من خلال التعزيز المتزامن، بحيث يتم التركيز على اتجاهات الدافعية للطفل وكيف يمكن أن تدعم وتزداد دافعيتها.

بعد سماع الموسيقى إذا وقف فإنه يشعر بقلق أو غضب إذا إسترخي فإن وضعه مريح وسعيد في هذه اللحظة

كذلك الوقت الذي يقضيه طفل التوحد في بيئة المنصة الذكية فحص سلوك الطفل في حالات مختلفة من أصوات موسيقى عالية، عرض صور جذابة، تشغيل فيديوهات ذات سلوك عنيف مثل الصراخ والضرب وغيرها. وعليه تسجيل حالة طفل طيف التوحد بالتعبير عن المظاهر التي ذكرت سابقاً.



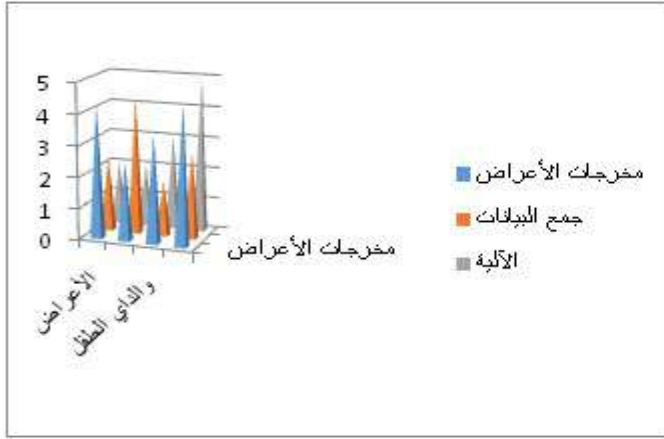
كيفية عمل تحليل الإنحدار

الإنحدار اللوجستي واحد من العديد من تقنيات تحليل الإنحدار المختلفة التي يستخدمها علماء البيانات بشكل شائع في التعلم الآلي.

آلية عمل خوارزمية الإنحدار اللوجستي:

علي سبيل المثال لنفترض أننا نريد تخمين ما إذا كان الطفل مصاباً بمرض طيف التوحد أو معافي فينقر الطفل علي زر تطبيق المنصة الذكية مع استخدام نظارة الواقع الافتراضي هنالك زر التطبيق نعم / وذر التطبيق لا/ يبحث تحليل الإنحدار اللوجستي في سلوك الطفل وما يقوم به من حركات وإيماءات الوجه بما فيها التركيز علي العين وأيضا حركات أطراف جسمه وتحديد ملامح شعوره وتسجيل الفترة الزمنية

فلتكن 30 دقيقة وبعد فترة زمنية كافية إعادة تشخيص سلوك الأطفال في بيئة مختلفة تماما عن البيئة السابقة وتوثيق كل سلوك الطفل في هذه الفترة وبذلك يمكن لوظيفة الإنحدار اللوجستي التنبؤ بتحديد والكشف عن الطفل المصاب بطيف الت



جمع البيانات التاريخية

يجب دراسة كل طفل ومعرفة بيانات عنه منذ ولادته والاتصال مع أبويه ومعرفة بيانات تحليل الطفل وأبويه من فصائل الدم ومعرفة تأريخ مسيرتهم وتلخيص سلوك الطفل مع والديه والمجتمع الذي يعيش حوله. ومعرفة النواحي المناخية والإقتصادية والإجتماعية وعلاقة الوالدين ببعضهما البعض منذ فترة الحمل حتي المرحلة التي نريد أن نحقق فيها لطفل التوحد بأن يكون طفل مثل أي طفل معافي أي أي تفاصيل دقيقة حول حياة الطفل. مع التركيز علي مكونات العين البشرية ودراسة ومعرفة الأشياء التفصيلية للأبوين في حركات العين لهما. رصد كل هذه البيانات لتحليلها

بيئة طفل تتكون من بيته والمدرسة والمعلم والطبيب فهذه المنصة تضم كل هذه الأجسام وتعمل علي مراقبتها بدقة وبصورة دورية منتظمة تتمثل في الآتي:

أحد ركائز المنصة الافتراضية هي جمع البيانات متمثلة في الأسئلة الآتية:

ما مدى إمكانية اكتشاف طفل طيف التوحد مبكرا من عمر (6-15) سنة.

استخدام التحليل اللوجستي لبناء بيئة إلكترونية وتوضيح نموذج إحصائي لتصنيف البيانات.

تصميم منصة ذكية تستطيع التنبؤ بحالات الإصابة بمرض طيف التوحد.

تحديد عوامل البيانات المعنية:

ستقوم بعد ذلك بجمع البيانات السابقة لجميع العوامل التي ذكرت أعلاه.

يمكن التنبؤ بالتشخيص المبكر لطفل طيف التوحد من عمر 6 سنوات إلي 15 سنة خلال 3 أشهر في ولاية انحرطوم.

تدريب نموذج تحليل الانحدار

ستقوم بمعالجة البيانات التاريخية باستخدام برنامج الانحدار. سيقوم البرنامج بمعالجة نقاط البيانات المختلفة وربطها رياضياً باستخدام المعادلات. على سبيل المثال، عدد حركات وإيماءات العين والوجه لطفل التوحد من عمر 6 سنوات حتي عمر 15 سنة لمدة ثلاث أشهر 2,4,6 وكانت عدد الحركات في فترة الـ 3 .شهور .

إذا كانت الإصابة بمرض التوحد من عمر 6 حتي عمر 15 سنة

لدينا في المنصة الذكية (10) أطفال من بينهم أطفال توحد

تسجيل حركات الوجه والأطراف أثناء تشغيل الموسيقى وتحريك الرسومات

نجد:

عدد حركات وإيماءات الشكل والوجه للأطفال متباينة .

عدد الإيماءات لنوعية الأطفال كل 3 دقائق لحركات حدقة العين بسرعة كل 3 دقائق أما بقية الأطفال فلا يوجد فرق .

عدد الإيماءات لهؤلاء الأطفال 3,5,8

كل 30 دقيقة

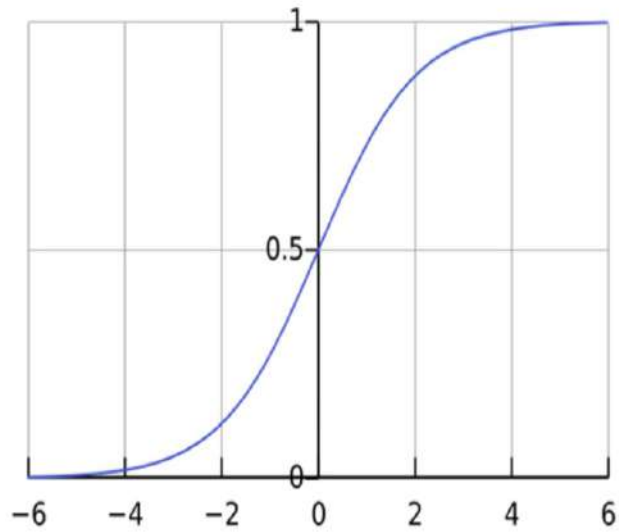
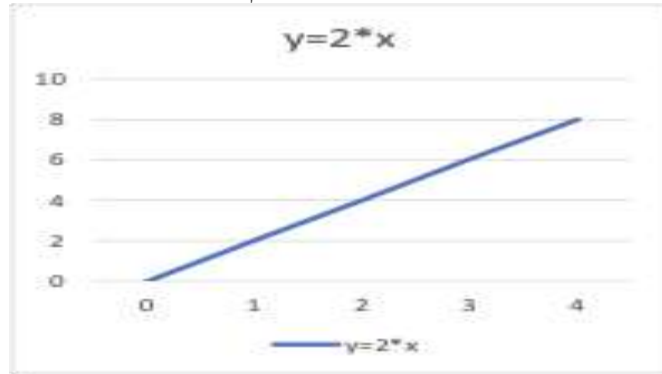
عدد الإيماءات للثلاثة أشهر هي 8,12,18 ، فإن خوارزمية الانحدار ستربط العوامل بالمعادلة

عدد الإيماءات للوجه = 2 * (العدد الكلي لحركات الوجه) + 2

التنبؤ بقيم غير معروفة

بالنسبة للقيم غير المعروفة، يستخدم البرنامج معادلة للتنبؤ بها. إذا كنت تعلم التنبؤ بـ 12 يوم في يونيو، فسيقدر البرنامج قيمة التنبؤ يونيو بـ 20 مخطط يوضح عمل نموذج الانحدار اللوجستي والعلاقة بين المتغير السيني والصادي عن طريق وضع قيم مختلفة

$y = 2 * x$ فستحصل على خط مستقيم كما هو موضح أدناه.



$$f(x) = \frac{1}{1 + e^{-x}}$$

في هذه المعادلة يتم قياس كل إيماءات حركات العين وتحليل كل المتغيرات ونتيجة هذه المعادلة تظهر في مخرجات الحلقة التي يتعايشها طفل طيف التوحده. . . دالة الانحدار اللوجستي :

الانحدار اللوجستي هو نموذج إحصائي يستخدم الدالة اللوجيستية، أو دالة اللوجيستية، في الرياضيات كمعادلة بين المتغيرين x و y . تقوم دالة logit بتعيين y كدالة سينية لـ x .

مخرجات تشخيص طيف التوحد:

أن يرفع حاجبيه بهدف التواصل، يستطيع أن يعبر للآخرين عن الألم مستخدماً تعابير وجهه، يستخدم أكثر من حركة في الوجه (حاجبه مع شفثيه أو شفثيه مع العين) للتعبير عن انفعال ما عند تواصله مع الآخرين، يهز رأسه إلى الأمام ليعبر للآخرين عن الموافقة، يهز رأسه يمين ويسار ليعبر للآخرين عن الرفض. يهز رأسه للتعبير عن متابعته لحديث الآخرين، مع التركيز علي حدقة العين أي قياس كل التعابير وإيماءات الوجه، وإتساع حدقة العين وتركيز الطفل علي الأشياء لا علي الأشخاص. بطء في الكتابة، يستخدموا العنفوانية لحظة ثم التراجع إلي أن يكونو مسالمين، إشكالية في نطق الحروف.

نتائج الدراسة:

- 1- تم تصميم بيئة تعلم ذكية للكشف عن التشخيص المبكر لطفل طيف التوحد
- 2- نجاح بيئة التعلم في تطوير الإنتباه والتفاعل لأطفال طيف التوحد الذين يعانون من الوحدة من البيئة الحولهم متمثلة في المعلم، الطيب، والوالدين، المجتمع الذي يحيط بهم.
- 3- قابلية وفعالية وإثمرار الإدماج في المجتمع المحيط بطفل طيف التوحد التأكد من مواءمة الطفل مع الواقع الإفتراضي.
- 4- التركيز علي التواصل البصري وتنمية النطق والتكيف مع البيئة مما يعمل علي خلق الإبتكار والمشاركة للرعاية الطبية لطفل طيف التوحد.

توصيات ومقترحات الدراسة:

- 1- إنشاء بيئة إفتراضية حديثة بأساليب تطبيقية عصرية تتعامل مع اخر مستجدات العصر والإبحار في علم الذكاء الإصطناعي وربطه بمفاهيم السحابة الإلكترونية .
- 2- عمل تطبيقات حديثة وإستخدام تقنيات التعلم العميق.
- 3- التركيز علي أدوات تنقيب البيانات وإستخدامها ل (طيف التوحد) وإستخراج تقارير تنبؤية.
- 4- تدريب وتطوير المختصين في مجال ذوي الإحتياجات الخاصة (طيف التوحد) ومواءمة كل ماهو حديث وجديد.

المراجع العربية:

- 1- أحمد محمد عبد الخالق، عبد الفتاح دويدار، (1999) ، علم النفس أصوله ومبادئه، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

- 2-ب. م. فوس؛ ترجمة فؤاد أبو حطب، (1980) ، أفاق جديدة في علم النفس ، القاهرة، عالم الكتب.
- 3-حسام الدين جابر السيد أحمد ، شاديه أحمد عبد الخالق، (2018) ، تحسين التفاعل الاجتماعي لدى الأطفال التوحدين باستخدام برنامج تدريبي للتواصل غير اللفظي ، مجلة البحث العلمي في التربية ، (19) ، 431 - 399
- 4-رانده موسى المومني، (2011) ، بناء برنامج في التعزيز الرمزي وقياس أثره في تحسين مهارات التفاعل الاجتماعي والتواصل لدى أطفال التوحد، رسالة دكتوراه، كلية العلوم التربوية والنفسية، جامعة عمان العربية
- 5-عادل عبد الله محمد، (2000) ، بعض أنماط الأداء السلوكي الاجتماعي للأطفال التوحدين وأقرانهم المعوقين عقلياً، مجلة كلية التربية بالزقازيق، جامعة الزقازيق، مايو، (35) ، 9 - 35.
- 6-عادل عبد الله محمد، (2005) ، مقياس الطفل التوحدي ، ط3 ، القاهرة، دار الرشاد.
- عادل عبد الله محمد . (2011) ، مدخل إلى اضطراب التوحد والاضطرابات السلوكية والانفعالية ، القاهرة : دار الرشاد للنشر والتوزيع
- 7-عمرو محمد إسماعيل محمد، (2015) ، فاعلية برنامج تدريبي لأمهات الأطفال التوحدين لاستخدام برنامج PECS في تنمية بعض مهارات التواصل غير اللفظي لدى أطفالهن ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة دمياط .
- 8-محمود عبد العزيز حسين عليوه، (2014) ، فعالية برنامج للتدخل المبكر لتنمية الإدراك البصري لدى عينة من الأطفال التوحدين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بنها.
- 9-هشام محمد الخولي، (2020) ، الأساليب المعرفية وضوابطها في علم النفس ، الإسكندرية، دار الكتاب الحديث.
- سهي نصر الدين، (2022) -10
- 11- إبراهيم، مقدمة في نظم المعلومات الإدارية المفاهيم الأساسية والتطبيقات، الاسكندرية: دار الجامعة الجديدة.

References:

- 1-Brasnan , M ; Scot , F ; Fox , S & Pye , J . (2004) . Gestalt Processing in Autism : Failure to Process Perceptual Relationships and the Implication for

Contextual Understanding , *Journal of Child Psychology and Psychiatry* , 45 (3) , 459 – 469 .

Mahoney, G.& Perales , F. (2003). Using Relationship-focused Intervention to Enhance the Social- Emotional Functioning of Young Children with Autism Spectrum Disorders. *Topics in Early Childhood Special Education*, 23, 77–89 .

2-Bopp , K ., Mirenda , P ., Zumbo , B . (2009) . Behavior Predictors of Language Development Over 2 Years in Children with Autism Spectrum Disorders , *Journal of Speech , Language , and Hearing Research* , 52 , 1106 – 1120 .

3-American Psychiatric Association .(2013). *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders: DSM-V*, 5thed. American Psychiatric Association

4-Carpenturi &Morgan (1996). Adaptive and Intellectual Functioning in Autistic and no Autistic Retarded Children , *Journal of Autism and Developmental Disorders*, 26 (6), 611-620.

Donna ,S;Murray, A; Geaghead, P; Paula, K; Shear, J; & Joanne , P. (2008). The Relationship Between Joint Attention and Language in Children With Autism Spectrum Disorders, *Focus on Autism and Other Developmental Disabilities* , 23, (1),1-5.

5-Ivey , M ; Heflin , L & Alberto , P . (2004) . The Use of Social Stories to Promote independent behaviors in novel events for Children With PDD-NOS , *Focus on Autism and Other Developmental Disabilities* , 19 (3) , 164 – 176 .

6-Johnstont , S ., Evans , E & Joanne , P . (2004) . *The Use of Visual Support in Teaching Young Children with Autism Spectrum Disorder to Initiate Interactions* , London : Powel Company .

7-Koegel, R;Openden, D;Fredeen, R &Koegel, L. (2006). *The Basics of Pivotal Response Treatment . Pivotal response treatments for autism : Communication, Social, and Academic Development* , Baltimore: Paul H Brooks .

8-American Psychiatric Association .(2013). *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders: DSM-V*, 5thed. American Psychiatric Association.

9-Mc Elreath , L & Eisenstadt , T. (1994). *Child directed interaction: Family play therapy for developmentally delayed preschoolers* , Family play therapy New Jersey : Aronson .

Oleny , M. (2002). Working with autism and other social- communication Disorders , *Journal of Rehabilitation*,66(4), 51-57.

10-Osborne , L & Reed , P . (2008) . Parents' perceptions of communication with professionals during the diagnosis of autism , *Autism* , 12 (3) , 309- 324

Rutter , M . (1998) . Cognitive Deficits in the Pathogenesis of Autism , *Journal of Child Psychology and Psychiatry* , 24 , 513 – 531 .

11-Rutter, M. (2008) *Diagnosis and Definition of Autism : A Reappraisal of Concepts of Treatment* , New York :Plenum .

12-Wehman , P. Brooke, V . Brooke, A. Ham, W. Schall, C. Donough , J . Lau, S. Seward, H & Avellone , L . (2016). Employment for Adults with Autism Spectrum Disorders : A retrospective Review of A customized Employment Approach. *Journal of Research In Developmental Disabilities* , 53 , 61- 72

13-Schertz, H . (2005). *joint attention Autism and pervasive developmental disorders dictionary* , Baltimore : Brookes Publishing.

14-Ivey , M ; Heflin , L & Alberto , P . (2004) . The Use of Social Stories to Promote independent behaviors in novel events for Children With PDD-NOS , *Focus on Autism and Other Developmental Disabilities* , 19 (3) , 164 – 176 .

15-Siegel , B. (2003) . *Helping Children With Autism Learn: Treatment Approaches For Parents And Professionals* , London : Oxford University Press.

Simons, J & Oishi , S. (1987). *The Hidden Child: The Linwood Method for Reaching the Autistic Child*. Kensington, MD : Woodbine House .

Volkmar, F;Chawarska, K &Klin, A. (2005). Autism in infancy and early childhood ,*Annual Review of Psychology* , 56 , 315-336.

16-Koegel , R. & Schreibman , L. (1996). *Fostering Self-management: Parent-Directed Pivotal Response Training for Children with Autistic Disorder*. *Psychosocial Treatments for Child and Adolescent Disorders* ,Washington, DC: American Psychological Association , 525–552.

17-Stone, L., Ousley, O. Yoder, J. Hogan, L. and Hepburn, L. (1997). Nonverbal communication in two and three –year- children with Autism , *Journal of Autism and Developmental Disorders*, 27(6), 677-696.

Tonge , B ; Brereton , A ; Kiomall , M ; Mackinnon, A ; King , N & Rinehart, N. (2006). Effects of parental mental health of an education and skills training program for parents of young children with autism: A randomized controlled trial , *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry*,45(5), 561–569.

18-Yunhe Pan, “Heading toward Artificial Intelligence 2.0”,*Engineering*

19- Tomas Conmen, *Techarlize Liyserien*

20-Ronaldo Refeest ,*Clever Stine*

صورة المكان في الرواية اليابانية - رواية نَعاس لـ"هاروكي موراكامي" نموذجاً

The image of the place in the Japanese novel - no'as novel by "Haruki Murakami" as an example

د. مناف بسام علي الخصاصونة | وزارة التربية والتعليم - مؤسسة الإمارات للتعليم المدرسي

الملخص: يمتاز الأدب الياباني بصورة عامّة بتاريخ طويل امتدّ مئات السنين، ساهمت العوامل السياسية الداخلية والخارجية في تشكيل خطابه للقارئ، فهو يمثّل هوية الدولة وحضارتها، وقد ظهر في اليابان أنواع أدبية متنوعة تشكلت من خلال الثقافة اليابانية وتقاليدها، منها: الشعر ومن أشكاله: شعر الهايكو؛ ذلك الشعر الذي يعبر عن الطبيعة والمشاعر الإنسانية، أما النثر فظهر من خلال القصص، والمسرحيات، والروايات. حيث تُعتبر هذه الأعمال الأدبية المتعدّدة بمثابة المرآة للتراث الثقافي الياباني، وقد لفت العديد من الكُتّاب اليابانيين العالم نحو هذا الأدب بشكل عام، والرواية بشكل خاص، فقد كانت اليابان جزءاً لا يتجزأ من الثقافات العالمية. إنّ الرواية اليابانية تمثّلت من خلال نمطين: الرواية الكلاسيكية التي ركّزت على العلاقات الاجتماعية والحياة اليومية، أمّا الرواية الحديثة فقد توقّفت عند التحوّلات الثقافية والاجتماعية في اليابان؛ وعليه جاء اختيار صورة المكان في رواية نَعاس للكاتب الياباني هاروكي موراكامي، في محاولة للوقوف على تشكيل المكان من الناحية الفنية في بنية النصّ.

الكلمات الدالة: الأدب الياباني، الرواية اليابانية، هاروكي موراكامي، رواية نَعاس، المكان.

Abstract: Japanese literature is characterized by a long history spanning hundreds of years. Internal and external political factors contributed to shaping its discourse to the reader, as it represents the identity of the state and its civilization. Various literary genres appeared in Japan that were formed through the culture and traditions of Japan, including: Poetry and its forms: Haiku poetry; the one which expresses human nature and feelings, as for the prose, it appeared through stories, plays, and novels. These multiple literary works are considered as the mirror of Japanese cultural heritage, and many Japanese writers have drawn the world towards this literature in general, and novels specifically Japan has been an integral part of world cultures. The Japanese novel was represented by two styles: the classic novel that focused on social relations and daily life, while the modern novel reflected the cultural and social transformations in Japan. Accordingly, the image of the place was chosen in the novel, "Noa's" by the Japanese writer Haruki Murakami, in an attempt to find out the formation of the place from a technical point of view in the structure of the text.

Keywords: Japanese literature, Japanese novel, Haruki Murakami, "Noa's" novel, Place

• المقدمة:

يمثل المكان في الرواية منطلقاً للأحداث، وهو ركن من أركان السرد الروائي الذي تتحرك من خلاله الشخصيات وفق رؤية الكاتب، فالمكان الروائي لا يتعاقب مع بنية الرواية فقط، وإنما يتجاوزها إلى الأبعاد الدلالية، ونظراً لأهمية المكان فقد عكفت الدراسة على الوقوف على صورة المكان في الرواية اليابانية، رواية نعاس لهاروكي موراكاهي، حيث لم يصل البحث إلى دراسات سابقة حول المكان في الرواية اليابانية عموماً أو رواية نعاس خصوصاً.

فكان البحث بعنوان: صورة المكان في الرواية اليابانية - رواية نعاس لهاروكي موراكاهي نموذجاً، ولعل السبب في اختيار هذا الموضوع يرجع للربط الكبيرة في الوقوف على إنتاج أدبي قلّ باحثوه، ألا وهو الأدب الياباني، الرواية اليابانية على وجه الخصوص.

وتكمن أهمية البحث في الوقوف على دلالات المكان في رواية نعاس وأهميته في تحريك خيال القارئ، ومخزونه الوافر من الذكريات والمحطات، محاولة الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها: هل تأثر الكّتاب اليابانيون بالمكان؟ هل تأثر هاروكي موراكاهي في الأدب الغربي؟ كيف عبّر الكاتب عن المكان في الرواية؟ ما أبرز الأبعاد المكانية التي ارتكزت عليها الرواية؟

وقد اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي، وكان مسار البحث ابتداءً التعريف بالمكان لغة واصطلاحاً وفلسفة، ثم الوقوف على الجانب السياسي في اليابان من خلال قراءة اليابان تاريخياً، تلاها إطلالة على الأدب الياباني، ثم الحديث عن المكان في رواية نعاس، وختم البحث بمحصلة لأهم النتائج التي توصل إليها.

وقد حاولت الدراسة البحث عن مصادر أدبية ونقدية تثري الجانب الموضوعي، إلا أنها كانت شحيحة.

• تعريف المكان:

ورد تعريف المكان في المعاجم على أنه "موضع لكيونة الشيء (الفراهيدي، 1978: ج5\387). وهو "مكان الإنسان وغيره" (البصري: ج3\171)، وهو "الموضع الحاوي للشيء" (الأصفهاني، 1972: 491). ويقول ابن منظور (لسان العرب: ج6: مادة "كون"): هو اسم مشتق من

الكون، مصدر كان يكون كوناً وكيونة، والكون: الحدث، تقول العرب لمن تَشْنُوهُ: لا كان ولا تكون، لا كان: لا حلق، ولا تكون: لا تحرك، أي مات، ثم أورده في مكان آخر فقال: "المكان الموضع، واجمع أمكنة كقَدَالٍ وأقْدَلَةٍ، وأماكن جمع الجمع" (نفسه: مادة مكن) أما الزبيدي فيرى أن "المكان مشتق من كان يكون، ولكنه لما كثر من الكلام صارت الميم كأنها أصلية" (الزبيدي، ج: 9: مادة كون). و"المكان هو الموضع وهو مصدر لفعل الكينونة، وهو من العلم بمكان أي له فيه مقدرة ومنزلة، وهذا مكان هذا أي بدله" (نعمه، وآخرون: 2000: مادة كون). "وحين نضيف المكان إلى الإنسان نحصل على لفظ يدل دلالة عميقة على صيرورة الحياة الإنسانية: فالمكان هو الموضع الذي يولد ويُخْلَق ويوجد فيه الإنسان والموضع الذي يستقر فيه" (العبيدي، 1987: 19).

• المكان في الاصطلاح والفلسفة:

لقد ارتبط المكان بالإنسان منذ القدم، وكان أول استعمال له عند أفلاطون (427 ق.م)، الذي اعتبره ما يحوي الأشياء ويقبلها ويتشكّل بها (أبوريان، 1995: ج1\205). "وهو كل ما فيه الشيء أو يحوي ذلك الشيء ويميزه ويحدّه ويفصله عن باقي الأشياء" (العبيدي، 1987: 19). وهو بطبيعته أنّه "لا يقبل الفساد ويوفر مقاما لكل الكائنات ذات الصيرورة والحدوث، وهو لا يلبس بالحواس، بل يضرب من البرهان المهجين المختلط" (العبيدي، 27: 1987-28) أما أرسطو فقد عرّفه بأنّه "الحد اللامتحرك المباشر للهاوي" (بدوي، 1984: ج1: 108 كما هو مكتوب). ويرى أنه من الممكن إثبات وجود المكان طالما نحن نشغله بالفعل ونستطيع الانتقال منه إلى مكان آخر (أبوريان، ج: 2: 167).

وجاء تعريفه عند المسلمين، بأنه ما يحدّد بحدّين: الأول "نهايات الجسم"، والثاني "التقاء أفقيّ المحيط والمحاط به" (الكندي، ج: 1: 167). وقد أشار إليه الفارابي (ت339هـ)، في كتابه الحروف - الفصل العاشر - فرأى أنّ "المكان موجود ولا يمكن إنكاره" (الفارابي، 1986: 88). وفي الدراسات المعاصرة نلاحظ أنّ المكان أخذ حيزاً كبيراً من الدراسة، فمنهم من رأى أنّه "كلّ ما عنى حيزاً جغرافياً حقيقياً، من حيث نطاق الحيز ذاته، على كلّ فضاء خرافي أو أسطوري أو كلّ ما يندّد على المكان المحسوس، كالخطوط والأبعاد والأحجام والثقال والأشياء المجسّمة" (الحمداني، 2000: 4).

• المكان في الأدب:

حظي المكان بتجربة واسعة الدراسة؛ لأنه الركن الأساس الذي تقوم عليه الأحداث، وحتى يكون المكان مؤثراً في الأعمال الأدبية، "يجب أن تكون دلالاته تحاكي شيئاً ما في نفس الأديب أو في الذات الاجتماعية؛ لأنّ المكان هو الكيان الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه" (النصير، 2010: ج2\16-20). وهو "يتولّد عن طريق الحكاية، فن خلاله تتحرك الشخصيات أو يفترض أن تتحرك فيه" (السماوي، 1997، 71). وتزداد أهمية المكان ودوره من خلال ارتباطه ببقية الأبعاد الفنية الأخرى في العمل الأدبي مما يثري التشويق والمتعة في نفس القارئ ويؤدي بالتالي إلى تعميق الصلة بين النص والمتلقي" (الشوابكة، 1991: 10).

وللمكان أنماط انتهجها الباحثون وفقاً لرؤية كلّ واحد منهم، فمهم من قسمها وفق نمطين اثنين (النصير، 2010، ج1: 27). المكان الموضوعي، والمكان المفترض. بينما قسمه آخرون -اعتماداً على مبدأ الثنائيات- (جندراوي، 2001: 236-266). المكان الأليف والمكان المعادي، المكان الواقعي والمكان المتخيل، والمكان التاريخي والمكان الآني، المكان المسرحي والمكان الكوني. ورأى آخرون أنّ أنماط المكان لا تخرج عن أربعة (لوتمان، 1988: 8). المكان المجازي، المكان الهندسي: من خلال وصف أبعاده الخارجية بدقة وحياد، المكان المعادي: ويمثل في الغربة والمنفى، والمكان التجربة: الذي يعبر عن معاناة الشخصيات ويحمل أفكارها ورؤيتها للمكان. ورأت أخرى (لوتمان، 1988: 60-63). أنّ المكان يكون فردياً وجماعياً، إضافة إلى تقسيمه وفق السلطة التي تخضع لها الأماكن: كالأماكن العامة، والأماكن اللامتناهية، والأماكن التي يمارس فيها الإنسان سلطته دون قيود، وعلى النقيض منها توجد الأماكن التي يخضع فيها الإنسان لسلطة الغير. وعليه فإنّ القراءات حول أنماط المكان جاوزت الثلاثين نمطاً، ويعود السبب في ذلك أنّ إدراك الأمكنة يختلف - بكلّ تأكيد - من شخص لآخر.

إنّ علاقة الأديب بالمكان تستند على أبعاد متعددة، فالمكان يخضع "لتصورات دينية وفلسفية وفنية وثقافية ونفسية واجتماعية وعلمية". فالبعد النفسي - مثلاً - ناتج عن "علاقات إنسانية نفسية ووجدانية تنشأ بين المرء والأماكن التي يعيش فيها أو يألفها، وبقدر ما تكون الألفة والعشق، أو النفور والكراهية فيسعد بذكر بعض الأمكنة ويتلذذ بسماعها ويكثر من ترديدها على أحاسيسه ومسامعه، وكأنها منبع لحياته وهدوئه واستقراره. في حين ينفر من سماع بعضها الآخر، ويقلع عن ترديدها إلا إذا كان في سياق الألم والشكوى والعذاب، ولذلك تختلف رؤية الناس للأمكنة باختلاف ألوانهم ومواقعهم وتجاربهم ويصبح المكان الواحد مختلف المسميات والأشكال، ملتمى للعديد من الأحاسيس التي ارتبطت به" (أبوحميدة، 2008: 47).

وبشكل البعد التاريخي ركيزة مهمة فالأديب عندما "يختار أحداث التاريخ في المكان مجالاً لعمله الفني يضع نفسه رهن أغلال الحقيقة التاريخية في إطارها العام، وإذا بالتاريخ بشخصه وأحداثه، قد صار شيئاً يعايشنا في حاضرنا" (قاسم، 1983: 235).

ولطبيعة الإنسان الاجتماعية، فإنه لا يستطيع البقاء وحيداً بمنأى عن الآخرين. فهو يوجد مع غيره من يتعايش معهم، ويبادلهم الهموم وتقلبات الحياة، فيأخذ منهم تقاليدهم وطبائعهم ويأخذون منه، وبذلك تدخل هذه العلاقة تحت مسمى "العلاقات الاجتماعية"، التي تحمل دلالات مختلفة منها، العلاقات المصغرة والتي تكون بين مجتمع صغير نطاقه ضيق لا يخرج إطار عن البيت أو الحي أو القرية، والعلاقات الموسعة التي تشمل العلاقات بين الدول ومؤسسات السلطة فيها. ومن هنا جاء تصور الأدباء للمكان ليصوروا حال المجتمعات وشواغلها المختلفة.

اليابان تاريخياً:

ينتسب اليابانيون إلى العنصر المنغولي الذي يشكل الصينيون والكوريون فروعاً أخرى منه، واليابان خلال الألف الأول للميلاد تأثرت بالحضارة الصينية، وانطلاقاً من نهاية القرن الثالث كان مجتمع اليابان في تلك الفترة مجتمعاً زراعياً مجزأً متدرج الطبقات الاجتماعية، ثم ظهرت في القرنين الخامس والسادس دولة يابانية مؤلفة من مزيج القبائل الجزأة أشارت إليها المصادر الصينية، حيث غدا المجتمع الياباني مقسماً إلى عشائر وعائلات تسمى (أوجي)، وخلال النصف الثاني من القرن السادس وبنفاذ بصيرة مدهش نهل اليابانيون من معارف الصين عن طريق تعيين سفراء في الأدب والفلسفة والتاريخ الصيني، ثم جاءت الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى مطلع القرن الثاني عشر التي ظهرت فيها روح جديدة، حيث لم يعد السكان اليابانيون يسعون لتقليد المعرفة والمهارة الصينيتين تقليداً منهجياً بقدر ما سعوا إلى تمثل ما أخذوه في الحقبة السابقة وتكييفه بحيث يناسب ما في اليابان من واقع وميول، حيث بدأ التخطيط للاستقلال اللغوي؛ بتبني نظام كتابة يلائم اللغة اليابانية ملاءمة أفضل. وقد شجع شكل الكتابة الجديدة على تطور أنواع أدبية كثيرة التنوع، فكثرت القصص وأخبار الرحلات والدراسات، فكانت اليقظة القومية التي ظهرت في بادئ الأمر في الآداب قد أثرت كذلك في فن الرسم والنحت وهندسة البناء، وفي الوقت نفسه تغيرت المؤسسات والمفاهيم الاجتماعية تغيراً جذرياً حيث أضاعت كل شبه بالأنماط الصينية الأصلية. وقد استمرت هيمنة أباطرة (الفوجيوارا)، وهي عائلة من النبلاء هيمنت على اليابان أثناء فترة هييآن، تنحدر عشيرة فوجيوارا من عشيرة ناكاتومي وقد تولى أفرادها

مناصب قيادية على غرار الحاجب والوصي. حتى جاء الانقلاب السياسي الكبير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إلا أنه وفي منتصف القرن التاسع عشر وبالتحديد عام 1853م، وجدت حكومة (إيدو) نفسها تحت تهديد المدافع الأمريكية، التي أرادت توقيع معاهدة تجارية بفتح ميناءين للسفن الأمريكية، تسمح بالتجارة ببعض الحبوب، تلاها حركات للمصلحين اليابانيين من رجال التنوير من إلغاء عدد لا يحصى من إقطاعات النظام القديم، وإبطال نظام الطبقات الاجتماعية. فأعلنت الحركة عام 1876م، المساواة أمام القانون بين جميع المواطنين بما فيهم الإيتا (ETA)؛ وهم المنبوذون اليابانيون الذين يشكلون 2% من السكان. وأوجدت وزارة للتعليم العام، وقررت التعليم الإلزامي للجميع، وما إن بدأ القرن العشرون حتى كان كل أطفال اليابان ملتحقين بالمدارس، وأنشئت جامعة طوكيو في عام 1877م، وفي عام 1885م أنشئت أول حكومة وزارية برئاسة (إيتو)، وكتب الدستور الياباني عام 1889م، الذي حدد بدقة واجبات الرعايا وحقوقهم. وفي عام 1911م تحررت اليابان من المعاهدات الجمركية غير المتكافئة التي فرضت عليها. وكانت اليابان أول بلد غير غربي يتبنى على نطاق واسع تقنيات الصناعة والتجارة الحديثة، وقد شملت النسيج والصناعات الثقيلة. إلا أنه وفي السنوات التالية تولدت صعوبات كبيرة في اليابان فنظام الأحزاب شكل الهاجس الأكبر عند اليابانيين، فعمت الاحتجاجات والفتن أرجاء اليابان احتجاجا على أسعار الأرز التي تأثرت بفعل التضخم، فتراجعت أسعار الأرز والحريز - الذي يعد إنتاج التصدير الرئيس - ، وتوالت الإفلاسات المصرفية، وتسببت الأزمة الاقتصادية في الولايات المتحدة سنة 1929م، بحرج كبير في بنية اليابان الاقتصادية ذلك أنها ارتبطت ارتباطا محكما بتجارته الخارجية، ورجعت اليابان إلى مرحلة (البنية الاقتصادية الثنائية)، أي تعارض الصناعات الحديثة مع النشاطات التقليدية الأقل مردودا كالخرف الصغيرة والزراعة. حيث كانت فترة العشرينيات بالنسبة لليابان فترة اضطراب، وقد استمر الحال حتى الحرب العالمية الثانية، حيث نجحت اليابان بتوقيع معاهدة تحالف ثلاثي مع ألمانيا وإيطاليا، وعلى إثرها سيطر اليابانيون سنة 1941م على شبه جزيرة الهند الصينية؛ ليتمكنوا من استخدام الموانئ الجنوبية قواعد تلزمهم في حالة توسع لاحق للنزاع، وعندئذ صاغ القادة اليابانيون تعبيراً جديداً هو (مجال الرخاء المشترك لآسيا الشرقية)، إلا أنه كان للولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا رأي آخر، حيث أخضعت صادرات الحديد ومنتجات النفط الذاهبة إلى اليابان لسياسة ترخيص مسبق لشل آلة الحرب اليابانية، فوجدت اليابان نفسها في مأزق حرج؛ لأن جيشها وبحريتها تعتمدان على واردات المنتجات النفطية، فوضعت اليابان نفسها أمام خيارين: إما الانسحاب بخزي فاقدة كل مكاسبها، وإما اللعب بكامل رصيدها دون التأكد من نجاحها الحاسم. وفي فجر يوم الأحد السابع من كانون الأول 1942، قرر اليابانيون الدخول في الحرب فحققت

اليابان نجاحات عسكرية، إلا أنّ الولايات المتحدة حملت السلاح مع تصميم حازم على سحق كلّ من اليابان وألمانيا في آن واحد، وقد بلغ القصف الجوي على طوكيو أوجه في ربيع 1945، وتعرضت معظم المدن اليابانية الكبرى لنفس المصير، وقد كلفت اليابانيين مئة وعشرة آلاف جندي. وبدأت نهاية الحرب قريبة إلا أنّ الولايات المتحدة قررت ودون التفكير بنتائج قرارها إلقاء قنبلتين نوويتين على هيروشيما في السادس والتاسع من آب 1945، وقد كلف هذا السلاح النووي من أول استعمال له ما يقرب مئتي ألف من الأرواح البشرية وأدخل العالم في قلق العصر النووي. وعلى إثرها أعلن الإمبراطور الياباني في الرابع عشر من آب 1945م، استسلام شعبه (انظر: ريشاور، 2000؛ البدوي، 2013؛ ديورانت، دت؛ ريشاور، 1989).

• الأدب الياباني:

يظنّ الكثيرون أنّ اليابان في بداياتها كانت بلاداً بعيدة عن الحضارة، إلا أنّها على العكس من ذلك، حيث استفادت من الثقافة الصينية التي "نقلت إلى اليابان في البداية عبر كوريا، إضافة إلى ثقافة عالمية أخرى وهي الثقافة الهندية التي عبرت اليابان من خلال الصين، ثم نجد ثقافة عالمية وهي الثقافة الأوروبية التي انتقلت إلى اليابان عن طريق اللاجئين البرتغاليين الذين أحضروا المدافع معهم إلى (جزيرة تانجيما) اليابانية عام 1543م" (شونيسكي، 2011: 42). إنّ الأدب الياباني له تاريخ طويل وثري ويتمتع بتنوع كبير من الأنماط والأشكال، ويمتاز بقيمة ثقافية فريدة؛ لأنّ اليابانيين شعروا "بشخصيتهم منذ وقت مبكر جداً، واجتهدوا في أن يؤكدوا مناقبهم الخاصة، وعندما ظهرت الدول القومية في العصر الحاضر نما الشعور القومي الياباني وقوي بسرعة كبيرة جداً؛ لأنّ الخصائص العرقية والجغرافية كانت قد قدّمت نماذج عديدة تساعد على الوحدة وعلى التلاحم" (ريشاور، 2000).

ويرى بعض الباحثين في الأدب الياباني، أنّ هذا الأدب يمكن تقسيمه وفقاً لأسماء أماكن المراكز السياسية التي حكمت اليابان على امتداد الأزمنة، فجاءت على هذا الترتيب: عصر اليماتو، عصر الهيمان، عصر الكاماكورا-موراماتشي، عصر الإيدو، إضافة إلى العصور الحديثة (صوت الماء، 1437هـ).

ولعلّ بدايات الأدب الياباني تعود إلى التقاليد الشفوية التي تم تسجيلها لأول مرة في شكل مجلدات مكتوبة في أوائل القرن السابع بعد إدخال نظام الكتابة "رموز الكانجي"، من الصين؛ حيث تم كتابة مجلدين في التاريخ هما (كوجيكي) و(نيهون شوكي) في عامي (712 و720) على التوالي. ومن أقدم الآثار الأدبية اليابانية، (مقتطفات العشرة آلاف ورقة)، التي جمعت سنة 760 للميلاد، حيث اشتملت

على أربعة آلاف قصيدة نظمها شعراء من القرنين السابع والثامن. وفي عام 905 تم نشر "كوكين واكاشو" وهي مجموعة من الأشعار القديمة والجديدة" كأول مختارات شعرية بتكليف من الإمبراطور وقد أشادت مقدمتها بالإمكانات الهائلة للأدب. (اكتشف اليابان، 2021).

وابتداءً من منتصف القرن العاشر عرف النثر القصصي نهضة بلغت ألقها في مطلع القرن الحادي عشر، فكان هذا القرن، "العصر الذهبي للنثر الياباني، وقد ظهر هذا الفن عند سيدات البلاط اللواتي كنّ يمارسن حياة من الكسل والخمول وإن تميّزت بذوق رفيع، وكان لونهن المفضل المذكرات الشخصية المزدانة في أغلب الأحيان بأشعار موجزة غايتها تخليد ما يمرّ بهن من لحظات انفعال عنيف" (ريشاو، 2000: 52). فجاءت (حكاية جنجي) التي تُعدّ من أروع الآثار القصصية في الأدب العالمي كلّها، والتي وضعها سيدة بلاط تُدعى (موراساكي شيكيبو)؛ حيث صوّرت فيها حياة الأمير جنجي ومغامراته العاطفية، حيث يرى ورل وايريل "ولا أحسب الأدب الياباني بعدئذ قد أنتج ما يوازي في روعته قصة جنجي أو ما يساوي هذه القصة في مبلغ تأثيرها على تطور اللغة تطوراً أدياً" (ديورانت، د.ت: 103)، ويرى كامل يوسف حسين أنّ حكاية جنجي "ليست كذلك فحسب، إنّما هي أيضاً كنز معرفي، من جوانب أخرى لا حصر لها، منها ماهو اجتماعي وأثنوبولوجي وروحي، وغير ذلك كثير" (شيكيبو، 2011: 12). وفي القرن الرابع عشر ظهر ما يسمى بمسرح ال(نو)، الذي اعتمد بشكل كبير على الرقص والموسيقى. في حين شهد القرن السابع عشر بروزاً جديداً لفنون الأدب الياباني، فكتبت روايات ومسرحيات كثيرة استمدت موضوعاتها من وقائع الحياة اليومية، ومن أبرز كتّاب هذه الفترة (تشيكاماتسو) الذي يعدّ أحد أكبر كتّاب اليابان المسرحيين. وفي القرن الثامن عشر الميلادي - عصر الإيدو-، ظهر الكاتب (ساتو كيودن) الذي عرف بقصصه الفاحشة؛ ولذلك حكم عليه سنة 1791، بأن يظل حبيس داره ويده مغلولتان نحسين يوماً. ومع انتصاف القرن التاسع عشر بدأ تأثر الأدب الياباني بالأدب الغربي، فظهرت منذ العقود الأولى من القرن العشرين المدرسة الرومانتيكية ممثلة ب(كودا روهان)، والمدرسة الطبيعية ممثلة ب(شيمازاكي توسون)، والمدرسة الواقعية وممثلوها أكثر من أن يُحصوا في هذه العجالة. (مجلة المعرفة الرقمية).

لقد أثقلت الحرب ذاكرة اليابانيين بكل ما يعنيه الانحطاط والتشويه للنفس الإنسانية. ولعلّ رواية "ضجيج الجبل" ل(ياسوناري كاواباتا) تعطي مثلاً واضحاً لما يعيشه المجتمع الياباني بعد الحرب، إنه ضجيج مكتوم أو غامض، يشي بانفجار محتمل في أي لحظة مقبلة" (ضمرة، 2014)، وهذا ما رآه صبحي حديدي في تقدمته للرواية، حيث يقول "تبدو وكأنها تنقريّ العالم ذاته الذي تنتمي إليه حقبة الرواية

الحديثة، فتحاول اختراق الحجب الكثيفة للنفس البشرية المأزومة، وتوحي بوضع اليد على حركة الفرد الباحث عن مجموع كليّ ما، عن تجانس ما، وهوية تختفي صورتها وتفصيلها في أغوار النفس المثقلة بإسار ماضٍ مثالي وحصين" (كاواباتا، 1983: 5). لكن الفكرة الأكثر تعبيراً كانت في رواية "وحش السماء" الابن المسخ، الذي ولد بعد الحرب، وهو تشوّه له أساس موضوعي يتمثل في قبليتي هيروشيما وناغازاكي، ولكنّه في الرواية يمتلك دلالات ثقافية وفكرية أبعد من موضوع التشوهات الموضوعية العادية، إنه تشوّه أصاب جيلاً كاملاً بسبب اندفاع جيل سابق نحو الحرب، الجيل الذي يحمله اليابانيون حتى اليوم أسباب آلامهم وانكساراتهم وتشوهاتهم، على الرغم من إدانتهم للقوى الأخرى (ضمره)، (2014).

ومن الروائيين اليابانيين الذين تركوا بصمة عالمية على الساحة الأدبية، (يوكيو ميشيما)، الذي توفي منتحراً على طريقة الساموراي، ومن أهم أعماله، رباعية بحر الخصب، وكذلك (إيجي يوكيشاوا)، "ويعد (كاتو شويتشي) "مجلة عريق" (<https://2u.pw/a5vnmW>) واحداً من الأفراد اليابانيين، الذين عكفوا على كتابة تواريخ شاملة للأدب الياباني، وليست مؤلفات التاريخ الأدبي بالشيء النادر في اللغة اليابانية، وقد واصل تاريخ الأدب الياباني، سواء أكان كلياً أو جزئياً من تأليف كاتب واحد أو عدد من الكُتاب، مسيرته دون انقطاع" (مايبر، د.ت: 72). وكذلك الكاتب (إيشيغورو كازو)، الذي استعرض في بداياته النظرية أحداث اليابان عندما غادرها وهو ما يزال في الخامسة، من خلال كتابين، "منظر شاحب التلال، و"فنان العالم العائم" الذي يبحث في ذاكرته عن أحداث الحرب ويتأملها، ويعكس كيف أنّ العالم الذي قد عرفه كان قد دمر تماماً بالحرب" (عبود، 2015: 73).

ويعدّ (هاروكي موراكامي) -村上春- المولود عام 1949 في مدينة كيوتو، من أكثر الروائيين اليابانيين شهرة في العصر الحديث؛ حيث حصل على عدة جوائز أدبية عالمية منها: جائزة عالم الفنتازيا (2006)، وجائزة فرانك أوكونور العالمية للقصة القصيرة (2006)، وجائزة فرانز كافكا (2006) وجائزة جائزة القدس (2009)، فقد لاقت أعماله نجاحاً كبيراً، وتصدّرت قوائم أفضل الكتب مبيعاً سواء على الصعيد المحلي أو العالمي، وترجمت إلى أكثر من 50 لغة؛ ومن رواياته: الغابة النرويجية، رقص رقص، كافكا على الشاطئ، سبوتنيك الحبيبة، جنوب الحدود غرب الشمس، ما بعد الظلام، مطاردة الخراف الجاحمة، مقتل قائد الفرسان، ورواية نَعاس محور هذا البحث.

صورة المكان في رواية نَعاس (المكان الثابت والمكان المتحرك):

إنّ قارئ رواية نَعاس يصاب بحالة من الدهول والدهشة، حتى يجد نفسه أمام عوالم خفية تشدّه على إكمالها قبل أن ينام، حيث شكّلت معادلات النوم والأرق الوحدة والاعتراب

والرومانسية والروتين فضلا عن النهاية المفتوحة للرواية، أساسا مهما انطلقت منه الدراسة لتصنف المكان إلى صنفين: المكان الثابت والمكان المتحرك.

أما المكان الثابت (البيت - الفراش - الأريكة- المسبح): فقد شكّلت هذه الأماكن عند بطله الرواية التي لم يسمّها موركامي، أدوات سعت من خلالها البطل إلى القضاء على الروتين والتمرد على الواقع. ، وكأنّه أراد أن تكون الرواية رواية حدث لا رواية شخصيات، فالبطل يعيش حالة من الأرق الكبير، بعد أن داهمها النوم مرة سبعة وعشرين ساعة متواصلة، تقول: "بجأة ذات صباح وأنا جالسة إلى طاولة الفطور، حيث شعرتُ بالنوم يجتاحني كالإغماء، فهضت دون أن أتفوه بكلمة واحدة، بلغتُ غرفتي متمائلة، اندسستُ تحت الغطاء دون أن أفكر لحظة في تغيير ملابسي، وغرقت مباشرة في النوم، استغرق نومي سبعة وعشرين ساعة بتمامها" (موركامي، 2013: 8).

جاءها بعد ذلك الأرق حيث تقول: "ها قد انقضت سبع عشرة ليلة ولم أنم بعد" (موركامي، 2013: 5). "استمرّ أرقى هذا، أو ما يشبه الأرق، شهرا من الزمان، شهرا كاملا لم أنعم خلاله بليلة واحدة من النوم العادي، فقد كان يكفي أن أضغ نفسي في الفراش مستجديا النوم" (موركامي، 2013: 5).

ولعلّ السبب في ذلك يعود لكابوس لازمها ذات ليلة جعل من المكان عندها ممزوجاً بالخوف والألم تقول: "ما أزال أذكر بوضوح أول ليلة قضيتها دون نوم وقتها قد عانيت من كابوس.. كابوس قاتم. إنه كابوس قلت لنفسي وأنا مستلقية على ظهري منتظرة بفارغ الصبر أن يهدأ تنفسي" (موركامي، 2013: 22).

ثم كان للمكان (الفراش - الأريكة) أثر كبير في السيطرة على البطل، فقد استطاعت أن تصف هذا الكابوس الذي جاء على شكل عجوز يرتدي ملابس سوداء، تقول: "رَكَزْتُ نظري على الظل وفي الحال لم يعد ضبابيا، وكأنما كان في انتظار نظرتي كي يتشكّل متّخذا ملامح بالغة الدقة. جسم نحيف لعجوز يرتدي ملابس سوداء ملتصقة به، كان شعره رماديا وقصيرا... شرعت أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، فلم يخرج من في أيّ صوت. عندما أعدت فتح عيني، لم يكن العجوز هنا، نظرت إلى سائقي فلم أجد أثرا لكلّ تلك المياه التي سكبت عليّ" (موركامي، 2013: 25).

ورغم الكابوس الذي سيطر على المكان -فراش البطل-، إلا أنها بقيت أما حريصة ولو لمرة حيث اطمأنت على ابنها، "بجأة داهمني قلق مبهم على ابني، وما إن فكرت فيه حتى طفق قلبي ينبض بشدة، نهضت وركضت إلى غرفته فإذا به نائم بعمق" (موركامي، 2013: 28).

لقد شكل بيتها في تلك اللحظة المكان والملجأ الآمن الذي لاذت به البطلة رغم قساوة الكابوس، حيث تقول: "أما أنا لست متوترة أبداً، سيمًا وأني في منزلي وما من شيء هنا يمكن أن يبدو لي مهدداً" (موركامي، 2013: 29). فالبيت بالنسبة لها رمز للأمان والاطمئنان والسكينة. ولعلّ نقطة التحوّل عند بطلة الرواية بدأت عندما صار الزوج مشغولا بعيادته التي افتتحها مع صديقه، "بمرور الوقت تتغير الأشياء من تلقاء نفسها ولا نستطيع فعل شيء، أمسياته الآن باتت مملأى بالمواعيد فصار بمجرد انتهائه من الغداء ومن حكّ أسنانه في الحمام يسارع لامتطاء سيارته والعودة إلى العيادة حيث تنتظره الآلاف من الأسنان المريضة" (موركامي، 2013: 16).

فأولى إرهاصات اليقظة المستمرة انطلقت من هذا الاتجاه، فبدأت البطلة تبحث عن ملاذ يساعدها على كبح جماح الأرق فلجأت إلى مكان آخر حاولت من خلاله البحث عن ذاتها فكان نادي السباحة، "فند انقطاع النوم عني أصبحت أشعر بحاجة للسباحة مدة ساعة كاملة على أقل تقدير، حتى عندما كنت أقابل أشخاصا أعرفهم فإني لم أكن أحادثهم تقريبا" (موركامي، 2013: 49).

إنّ ما انتهت به البطلة هنا في تحوّل النمط الاجتماعي عندها من حالة التواصل مع المجتمع إلى حالة الانصراف مع الذات بعيدا عن المجتمع، كان له أثر كبير في سردية اليوميات عندها، فأصبح المكان مقتصرًا على روتينيات الحياة فقط، "لم أكن أفكر إلا في شيء واحد: العودة إلى البيت والمطالعة، أما التسوق والتنظيف وإعداد الأكل ومصاحبة ابني فقد كانت مجرد واجبات أؤديها لا أكثر" (موركامي، 2013: 49).

ثم تنطلق البطلة "إثر حصة السباحة أقضي بقية وقتي في أنشطة أخرى تختلف باختلاف الأيام، كأن أتجوّل في الشوارع متفرجة على الملابس المعروضة، أو أن أعود إلى البيت فألتخذ مكاني على الأريكة متصفحًا كتابا ما، أو أن أستمع إلى الراديو" (موركامي، 2013: 18).

إنّ صراع الإنسان مع المكان الذي يشعر فيه بالراحة، وبين الواقع الحقيقي الذي يفرض عليه تقبّل المكان الآخر بما يحويه، ما هو إلا نتيجة حتمية لعدم رضاه عن محيطه، وبالتالي استسهال الواقع بكلّ تفاصيله، "الأمر الآخر الذي انتهت إليه منذ أن أصبحت لا أنام هو مدى بساطة الواقع وسهولة جعله يعمل هكذا كما هو، واقعا لا أكثر" (موركامي، 2013: 49).

إنّ أي عمل لا يخضع لعملية التقييم ويكون بعيدا عن التطوير يصير مع مرور الوقت روتينًا قاتلاً وتكراراً لحركات يؤديها الإنسان في أماكن محدودة غير قابلة لملء فجوات الملل، وهو ما عبرت عنه البطلة عندما قالت: "تلك هي حياتي، أو لنقل بشكل أدق: هكذا كانت قبل أن أتوقف عن

النوم، باختصار كان كل يوم تكرارا دقيقا لليوم الذي سبقه... كان باستطاعتي استبدال البارحة باليوم الذي سبقها دون أي إشكال" (موركامي، 2013: 21).

ويبدو أنّ بطلّة الراوية تعاني من اضطراب الشخصية؛ فنظورها وفهمها لمحيطها وفق دائرتها الضيقة شكّل لديها حالة خاصة، "حسنا لتتفق أولا أن بلوغنا الثلاثين ليس نهاية العالم، صحيح أن التقدّم في السن أمر غير مفرح، ولكن علينا الاعتراف أيضا أنّه قد يسهل بعض الأشياء، أي أنّ المسألة في النهاية تخضع لفلسفة الحياة لدى كلّ فرد" (موركامي، 2013: 17).

لقد شكّل البيت بالنسبة للبطلّة المكان الذي انطلقت منه للتمرد على الروتين، وكأنّه أصبح وطنًا خاصًا بها ومستقرًا لها، فحمل دلالاته المعنوية قبل دلالاته المادية بالنسبة إليها، فلم تكن ترغب في الخروج من البيت بحثًا عن ذاتها حيث تقول: "جلستُ على الأريكة مفكرة فيما سأفعله.. قصدت المطبخ وفتحت الثلاجة لمعاينة محتوياتها.. حسناً يوجد خبز وحليب وبيض.. اللحم والخضار أيضا موجودان.. إذن هناك كلّ ما يلزمنا حتى ظهر الغد، وبالتالي إذا لم أقم بالمشتريات المنزلية اليوم فلن يسنن ذلك مشكلا، كان عليّ الذهاب إلى البنك إلا أنّ ذلك لم يكن ملحا" (موركامي، 2013: 38).

ولم تكتف البطلّة بذلك، بل أصبحت تعتبر بيتها وأريكتها ملجأ، فتفرح عندما تجد نفسها وحيدة، حيث ينام زوجها الذي كان - كما وصفته-، "يملك قدرة عالية على بعث الهدوء والسكينة في نفوس أغلب محدثيه، بل إني لا أبالغ حين أقول إنّ أغلب صديقاتي معجبات به" (موركامي، 2013: 13).

حيث رأت أنه "وبصراحة فإنّ الصفة الوحيدة التي تلائمها هي غريب أو ربما مراوغ (موركامي، 2013: 11). ورغم أنّه كان شريكًا في المكان إلا أنّه لم يكن متطلبا ولا أنانياً على الإطلاق، حيث تقول: "علما وأنّي لم أكن أعد له أطباقا معقّدة، بل كنت أكتفي بتسخين ما بقي من طعام الأمس في المايكرويف إذا ما تيسّر، أو إعداد عجينة جريس في أفضل الحالات" (موركامي، 2013: 16).

إنّ المكان بالنسبة للبطلّة يمثل فضاء الحرية والبحث عن الذات فبعد أن شعرت بالأرق لجأت إلى الأريكة المكان الذي عوّضها عن مللها: "استلقيت على الأريكة وأغمضت عينيّ محاولة أن أنام فإذا بالنوم يجافيني تماما.. "هيا أرجوك" قلت له. لكن دون جدوى. فعلا لم أعد أشعر بأيّ نعاس، ماذا لو قرأت كتابا حتى يهدّدي النوم؟" (موركامي، 2013: 30).

لقد رأيت البطلة أنّ استخدام العلاج المناسب لتهدئة النفس المضطربة، اللجوء إلى القراءة، وأي قراءة؟ قراءة ما تحب، حيث اختارت الكتاب الذي أعادها إلى الماضي، "رحت إلى الغرفة واخترت كتاباً من الكتب الموجودة في الرف، كنت قد أشعلت الضوء للبحث عن الكتاب الذي أريد إلا أنّ زوجي لم يهتز قيد أملة، قررت سلفاً أن أقرأ "أنا كارنينا"، فلجأت إلى هذا الكتاب محاولة منها لإعادة اكتشاف ذاتها، فاختارت الأريكة ذلك المكان الذي أحسست من خلاله بالحرية، والبحث عن الذات، "إذ كنت بي رغبة في قراءة رواية روسية طويلة" (موركامي، 2013: 30).

لقد تأثرت البطلة برواية تولستوي، واختيارها لرواية طويلة - كما تقول - جاء نتيجة لحالة الأرق الطويلة التي عاشتها، فالكتاب بحسب رأي المثقفين، "المكان الوحيد في العالم الذي يمكن أن يلتقي فيه غريبان بحميمية كاملة"، تقول: "فقط لا أزال أتذكر الجملة الأولى والنهاية حين ترمي البطلة بنفسها تحت القطار" (موركامي، 2013: 30). ولعلّ فكرة البطلة أنّا نتقارب إلى حدّ كبير مع فكرة البطلة (س) في رواية نعاس، حيث بدأها تولستوي بقوله: "السعادة وليدة أمّ، والشقاء له ألف أمّ. العائلات السعيدة ترتع في جنّة، والعائلات الشقية تتمرّغ في ألف بحيم" (تولستوي، 2009: 17). وكما يقول الجاحظ "الكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يُغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستريح الذي لا يسترئيك، والجار الذي لا يستبطنك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب" (الجاحظ، 1965: 50-51). وهذا ما حصل مع بطلة الرواية عندما انتظرت زوجها لينام؛ حتى تفرغ إلى عالمها وتتخذ من مكانها عالماً تنتقل فيه إلى فضائها الخاص، "رائع... ظلت ممددة إلى جانبه لعشر دقائق ثم نهضت، ذهبت إلى الصالون، أشعلت المصباح ثم اتخذت مكاني على الأريكة وشرعت في القراءة، تذكرت بقية الشكلاطة التي كنت قد خبأتها" (موركامي، 2013: 48). إنّ اتخاذ البطلة الكتاب مقراً لانطلاقها نحو هدفها دفعها لأن تستعيد ماضيها بكل تفاصيله، "أريد أن أقرأ "أنا كارنينا" وأن ألتمهم الشكلاطة، ارتديت ستري الصوفية ونزلت بالمصعد إلى أسفل العمارة، فقصدت أقرب المحلات إلى بيتي واشترت رقاقتي شلطة بالحليب، فضضت غلاف إحداهما وشرعت في التهامها وأن أمشي" (موركامي، 2013: 39).

إنّ القراءة تمنح القارئ الشعور بالسعادة، بل تنقله إلى عالم آخر لم يجده في الواقع، بحثاً عن المفقود، "كلّ ما كنت أريده هو أن يتركوني أحيا بسلام في ركني، أقرأ روايتي وأسبح ساعة في اليوم، أضف إلى كل هذا أنني كنت أريد الإبقاء على حرّيتي كاملة" (موركامي، 2013: 53).

لم تسمح البطلة لأحد أن يدخل عالمها الذي صنعته لتكتشف أبعادها النفسية والاجتماعية من خلال ركن القراءة الذي اتخذته، حتى عندما اعتذر أحد مرضى زوجها عن مواعده لم ترغب في بقاءه في محيطها، " كنت أريد فقط أن أعود إلى روايتي في أسرع وقت ممكن فأستلقي على الأريكة وأكل الشكلاطة، وأن أقلب صفحات "آنا كارنينا". في كثير من الأحيان يعيد الإنسان حساباته بناء على رغباته، فكما يُقال "الشيء الأهم والعاجل لا بد أن يُعطى الأولوية ثم يأتي بعده الأقل فالأقل"، فبعد انتهاء وقت السباحة "وجدت أنني ما أزال أملك بعض الوقت قبل حلول الثالثة، لذا مررت إلى البنك بالسيارة، هممت أن أقف أيضا عند المرّكب التجاري لشراء بعض المستلزمات لكنني سرعان ما عدلت عن الفكرة وقفلت راجعة إلى البيت" (موركامي، 2013: 45).

" شرعت في التهام ما تبقى من آنا كارنينا والشكلاطة" (موركامي، 2013: 46).

لقد كانت محاولات البطلة في النوم تبوء بالفشل، بفعل الحالة النفسية التي تعيشها، وكأنّ حالها ينطبق على قول امرئ القيس (امرؤ القيس، 2004: 49):

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحِي، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

إنّ استمرار حالة الأرق عند البطلة جعلها تلجأ مرة أخرى للقراءة في ركنها الخاص، " عبثا حاولت وضع نفسي في الفراش، لم يكن بوسعي إغماض عيني، وكنت أعلم ذلك، حرّكت رأسي لكنّ رغبتني في النوم لم تتحرّك!، فأنا لا أشعر بالنعاس ولو بذرة واحدة، أضف إلى ذلك رغبتني في التعرف على باقي أحداث الرواية" (موركامي، 2013: 35). "جالسة أمام الطاولة في مكتبتني، غارقة في وحدتي، حرّكت رأسي في تصميم: "لست بحاجة للنوم". قلت لنفسي" (موركامي، 2013: 56).

فلجوء البطلة إلى ركنها الخاص ليست إلا تعبيراً عن حالة نفسية متأزمة إزاء الواقع الذي تعيشه، إضافة إلى حالة الصراع الفكري، "جلستُ على الأريكة، ثم فتحت كتاباً كنت قد أعدت قراءة "آنا كارنينا" في الأسبوع الأول ثلاث مرّات متتالية" (موركامي، 2013: 59). فخالة التكرار القهري من خلال إعادة البطلة قراءة "آنا كارنينا" ثلاث مرّات ما هو إلا دليل على ظاهرة نفسية وحالة متأزمة.

أمّا المكان المتحرّك، فقد أصبحت البطلة تتمرّد على المكان الذي حوّاها في أزمتها، تمرّدت على البيت، الذي كانت تتركه لتجلس في سيارتها لفترات طويلة من الليل، مما دفعها لاختيار سيارتها (السيفيك) للخروج من حالتها، وقد شكّل المكان المتحرّك (السيارة) كما تقول: " فما إن يغادر زوجي وابني المنزل كلّ صباح آخذ السيارة وأذهب إلى التسوّق" (موركامي، 2013: 10). حيث وجدت في السيارة ملاذاً للأرق والمهوم وكسراً لتقاليد الروتين، رغم أنها لم تكن حديثة إلا أنّها

شكّلت عند البطلة حالة استثنائية، تقول: "من جهتي كنت أستعمل سيارة "هوندا سيفيك" باعتباري إياها إحدى صديقاتي منذ عامين بسعر زهيد، إذ كان مضادّ الصدمات فيها مكسورا قليلا... وفوق هذا كلّه كان محرّكها يطلق من وقت إلى آخر قرقرة تبعث على القلق فعلا" (موركامي، 2013: 15). وحتى أنّ زوجها كان "يكنّيها بـ "حماركِ اللاهث" لكن ذلك لم يكن يعني شيئا بالنسبة لي" (موركامي، 2013: 15). لقد مثّلت السيارة المكان المحبّب الذي من خلاله استطاعت البطلة تلبية رغباتها فحرّكت بواسطتها إلى (السوق- المحبز- نادي السباحة)، فكانت عند خروج زوجها تكسر روتينها، فتقول: "إثر خروجه كنت آخذ منشفتي وثوب السباحة وأذهب بسيارتي للقيام بجولة في النادي الرياضي الخاص بجنينا، فأصبح لنصف ساعة باذلة جهداً حقيقياً في التمرن، لا ولعاً بالسباحة وإنما حرصاً مني على عدم زيادة وزني" (موركامي، 2013: 17).

كانت السيارة ذلك الفضاء الجغرافي الجديد الذي استطاعت البطلة من خلاله الانطلاق والحركة بحثاً عن حريتها، بحثاً عن شيء يخرجها من حالتها، "أحيانا كنت أدخل أحد المطاعم المفتوحة ليلاً لأحسني قهوة، ولكن لشدة ما كان مرأى الناس يؤلني أصبحت أخير البقاء في السيارة. كذلك كان يحصل لي أن أركن السيارة في مكان أقدر أنه على درجة جيدة من الأمن، لا لشيء إلا لأقبع في الظلام مفكرة" (موركامي، 2013: 60).

إرهاصات النهاية بدأت عندما قالت "ذات مرّة تقدّم شرطي نحو سيارتي.. نقر على شبك السيارة نخفضته، وعندما طلب مني الرخصة مكّته منها... بعد أن دقق في الأوراق أخبرني أن جريمة قتل حدثت الشهر الماضي غير بعيد عن هنا. "رجل وزوجته هوجما من طرف ثلاثة مجرمين فلقي الرجل حتفه واغتصبت المرأة" (موركامي، 2013: 61).

ومن الطبيعي القول إنّه عند الحديث عن المكان فإنه لا بدّ من وقوع حدث، فاقترانها أمر حتمي لا محالة، وهو ما ظهر جلياً عند انتقال البطلة من المكان الثابت (البيت) إلى المكان المتحرّك (السيارة)، والذي بكل تأكيد سينقلنا إلى أحداث جديدة اللجوء إلى السيارة، "صعدت إلى سيارتي "السيفيك" وأدرت المحرّك جاعلة إياه يشخر لفترة... أثناء القيادة بدت لي السيارة أخفّ من العادة وكأنها تنزلق على سطح الماء، واصلت تغيير مستويات السرعة بحذر ثم تركت المدينة واتخذت الطريق السريعة المؤدية إلى "يوكوهاما"، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً بقليل، تسليت بمراقبة الشاحنات هائلة الحجم وهي تتجه نحو الشرق، فحطرت لي خاطر غريب" سائقو الشاحنات أيضاً لا ينامون، فهم لا يرتاحون في النهار ويقودون في الليل لتحسين دخلهم، إذا أن بإمكانني العمل ليلاً ما دمت لا أحتاج إلى النوم" (موركامي، 2013: 71). ولعلّ المقصود هنا ليس المكان

بعينه، بل دلالة المكان الذي أرادت البطلة الانفراد بنفسها بعيدا عن صحب الحياة، " في النهاية توقفت عند موقف السيارات الكبير هذا، ثم اخترت الموقع الأفضل بالقرب من عمود النور مستغلةً خلوّ المكان من السيارات، إذ لم تكن هناك سوى سيارة واحدة قديمة مركونة، سيارة قديمة الطرز بيضاء اللون بباين فقط، من ذلك النوع الرياضي الذي يجذبه معظم الشباب" (موركامي، 2013: 71).

لقد غدا المكان في الرواية موجها سرديا نقل القارئ من حالة المشاهدة إلى حالة تغوّل الأحداث على البطلة، فانكمش الزمن، وانفصلت البطلة عن الواقع، "لا أعلم كم من الوقت مضى وأنا قابعة هنا في السيارة دون حراك، مغمضة العينين، متصلبة اليدين على المقود، غارقة في ظلام يقظ. لكنني فجأة شعرت بحركة قرب السيارة، ففتحت عيني ونظرت حولى، كان هناك ظلّ في الخارج يحاول فتح الباب لكن ولحسن الحظ وجده مقفلا بالمفتاح. بعد قليل أدركت أنّ هناك خيالين لا خيالا واحدا. خيالان أسودان يحاصران السيارة من اليمين واليسار. لم أستطع تمييز وجوههما ولا ملابسهما، كل ما أمكنني رؤيته ظلان حالكا السواد واقفان بجانب السيارة التي بدت وهي محشورة بينهما ضئيلة جدا كعلبة مرطبات صغيرة" (موركامي، 2013: 74). لم يعد المكان بالنسبة للبطلة يمثّل حالة الراحة والسكون، بل أصبح يتصدّر المشهد السردى، بعد أن أكملت تصوير لحظات الختام، "بعد ذلك تلقى البلور الأيمن لطفة من قبضة شخص ما، أعلم أنّه لن يكون شرطيا هذه المرّة، فالشرطي لا يضرب بهذه الطريقة، حتما ما من شرطي يجعل سيارة غيره تهتز! كتمت أنفاسي مفكّرة.. ما العمل؟ عليّ أن أشغل السيارة بأسرع ما يمكن، حرّرت يدي من على المقود وخطفت المفتاح خطفا، أدرتّه إلى اليمين، كلك.. كلك.. كلك، صرصر المحرك لكن السيارة لم تشتغل. مرتجفة الأصابع، أغمضت عيني، وأدرت المفتاح من جديد.. لا فائدة" (موركامي، 2013: 74).

لقد هيمن المكان في نهاية المطاف على البطلة وفرض شخصيته عليها، وأخضعها لشروطه رغم محاولاتها الخلاص من قيوده، إلا أنّها في النهاية بقيت "وحيدة بلا سند، محبوسة في علبتي الصغيرة هذه غارقة في بحر من الدموع، وعاجزة عن الذهاب إلى أيّ مكان"، وفي الخارج ما يزال الرجلان يواصلان هزّ سيارتي في كلّ الاتجاهات، لحظة أخرى فقط وسينجحان في قلبها!" (موركامي، 2013: 75).

إنّ تحرك السرد بفعل المكان في هذه الرواية جعل شخصية البطلة تسير وفق رؤية الكاتب الذي أراد لها هذه النهاية (المجهولة)، حيث عبّر عنها بأكثر من موضع في الرواية، وبإشارات مختلفة

كقولها: "في أحد الأيام جلست في المكتبة وقرأت كتباً عن النوم، لم يكن هناك الكثير منها ولم تكن المعلومات التي تقدمها ذات شأن، فهي تخلص جميعاً إلى نتيجة واحدة: "النوم يعني الراحة". تماماً كإسكات محرك السيارة... فعمل المحرك ينتج طاقة، وتراكم الطاقة هذا يتعب المحرك، لذلك يجب إعطاؤها قسطاً من الراحة" (موركامي، 2013: 53).

لقد برز المكان في الرواية كأساس متين، ولم يظهر كمحطة عابرة تُمرّر من خلاله الشخصيات، مما أضفى نوعاً من الحماس عند المتلقي. فأبدع موركامي في توظيفه للمكان شكلاً أداة استطاع من خلالها التعبير عن حالة اجتماعية نفسية وهي العزلة عن الآخرين والبحث عن الحرية لممارسة البطولة ما تحب، لأن الأدب بطبيعته ينزع إلى الحرية، فصنع شخصية استطاعت أن تبقى متيقظة دون نوم، تمارس ما تريد بحثاً عن اكتشاف ذاتها مرة أخرى؛ لأنها لم تستطع لتأقلم مع محيطها الخارجي، إلا أنها أصبحت في نهاية المطاف ضحية القدر. إضافة إلى توظيف رواية "أنا كارنينا"، من خلال بطلتها ودمجها مع عالم بطلّة الرواية، حيث كانت النهاية واحدة مع تشابه كبير في المكان، فآنا أنهت حياتها تحت عجلات القطار" وفي تلك اللحظة الخاطفة نفسها أصابها رعب رهيب مما أقدمت عليه... أين أنا؟ وماذا أفعل؟ ولماذا أفعل هذا؟ وحاولت أن تتراجع. حاولت أن تتفادى أمراً، إلا أنّ شيئاً ضخماً لا يرحم صدمها في رأسها، وألقاها على ظهرها" (تولستوي، 2009: 360). وكذلك فعلت البطلّة (س) عندما بقيت حبيسة سيارتها بانتظار القدر.

• الخاتمة:

- لقد نجحت رواية نَعاس لـ"هاروكي موركامي" في نقلنا إلى عالم الرواية اليابانية من خلال دراسة صورة المكان، وقد خلّصت الدراسة إلى العديد من النتائج، أهمّها:
- المكان هو أساس النص وجوهره، وتوظيف الكاتب للمكان بطريقة تسلسلية، ساعدت على ترسيخ فكرة الكاتب وفلسفته.
 - حظي المكان بأهمية بالغة عند الكاتب، مما ساعد القارئ في الوصول إلى عمق الفكرة بكل سهولة.
 - ارتبط المكان في تشكيل رؤية الكاتب للنص من خلال انعكاس صورة المكان على الشخصيات.
 - لعب المكان كمحرك رئيس في الرواية حيث سيطر على بطلّة الرواية حتى نقلها من واقعها إلى عالم مجهول سببه الروتين اليومي الذي كانت تعيشه البطلّة.
 - تعددت دلالات المكان وأبعاده في الرواية، فشكّل البعدان النفسي والاجتماعي أهمّ دعائم الدراسة التي ركزت على فكرة التمرد على الواقع.

- بدأ تأثر هاروكي موراكامي في الأدب الغربي واضحاً، فقد كان منذ بداياته قارئاً نهماً لأعمال فرانز كافكا، تشارلز ديكنز، ديستوفيسكي، وتولستوي، حيث وظّف الأخير في روايته من خلال رواية "أنا كاريننا".
- تشكلت صورة المكان في الرواية - بالنسبة للبطلة- في المكان الثابت والمكان المتحرك، فشكّل المكان الثابت (البيت- الأريكة- الفراش) نقطة تحوّل في شخصيتها قادت إلى الرغبة في الانعزال عن العالم، أمّا المكان المتحرك (السيارة - السيفيك)، فكانت تلجأ إليها ليلاً للتأكيد عن عدم رغبتها في الانخراط مع محيطها.
- جاءت نهاية الرواية مفتوحة، فلم يصرّح موراكامي بموت البطلة، بل تركها لتقدير للقارئ.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور. لسان العرب. (م6)، لبنان: دار صادر للطباعة والنشر.
- أبو حميدة، محمد (2008). جماليات المكان في ديوان "لا تعتذر عما فعلت" لـ محمود درويش، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، 22 (2)، 47.
- أبو ريان، م.ع (1966). تاريخ الفكر الفلسفي (أرسطو)، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.
- أبو غالي، م (1995). المدينة في الشعر العربي المعاصر، الكويت: سلسلة عالم المعرفة 196.
- اسليم، ف.أ (1998). الانتماء في الشعر الجاهلي (دراسة)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- الأصفهاني (1972). معجم مفردات ألفاظ القرآن، (تحقيق: نديم مرعشلي)، القاهرة: دار الكتاب العربي.
- "اكتشف اليابان" <https://2u.pw/i5OFVq>
- امرؤ القيس (2004). الديوان (ط2)، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.
- البدوي، ح (2013). تاريخ اليابان السياسي بين الحربين العالميتين (ط1)، بيروت: دار النهضة العربية.
- بدوي، ع (1984). موسوعة الفلسفة (ط1) (ج1)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- البصري، ابن دريد (1344هـ). جمهرة اللغة (ط1)، بيروت: دار صادر.

- تولستوي، ل (2009). أنا كارنينا (ط9)، (ترجمة إميل بيدس)، بيروت: دار العلم للملايين للتأليف والترجمة والنشر.
- الجاحظ (1965). كتاب الحيوان (ط2) (ج1)، (تحقيق وشرح: عبد السلام هارون)، القاهرة: دار مصطفى البابي الحلبي.
- جندراوي، إ (2001). الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا (ط1)، بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- رحلات ماركو بولو (1995). (ترجمة عبد العزيز جاويد)، (ط2)، (ج1)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ديورانت، و.و. قصة الحضارة- الشرق الأقصى - اليابان- (م1، ج5)، بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.
- ريشاور، أ (2000). تاريخ اليابان من الجذور إلى هيروشيما (ط1)، (ت: يوسف شلب الشام)، دمشق: منشورات دار علاء الدين.
- رايشاور، أ (1989). اليابانيون، (ت: ليلي الجبالي)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: سلسلة عالم المعرفة 136.
- الزبيدي، م.أ (ت1205هـ). تاج العروس من جواهر القاموس (ج9)، مصر: مطبعة بولاق.
- السماوي، أ (1997). عالم القصة في سرد طه حسين، تونس: التعاضدية للطباعة والنشر.
- الشوابكة، م. (1991). دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، 9(2)، 10.
- شونيسكي، ت (2011). التاريخ السياسي لليابان إبّان الحرب العالمية الثانية (ط1)، (ت: علاء علي زين العابدين)، المملكة العربية السعودية: وزارة الثقافة والإعلام.
- ضمرة، يوسف. أين اختفى الأدب الياباني، جريدة الإمارات اليوم - أبواب، <https://2u.pw/irZas1>
- عبود، ش (2015). معجم أدباء العالم. بيروت: دار المؤلف للطباعة والنشر
- العبيدي، ح.م (1987). نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- الفارابي، أبو نصر (1986). كتاب الحروف. (تحقيق: محسن مهدي). بيروت: دار المشرق، بيروت.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (1978). كتاب العين. (تحقيق: عبد الحميد هنداوي)، بيروت: دار الكتب العلمية.

قاسم، ع.ق. (1983). الشعر والتاريخ، مجلة فصول، 3(2) ع2، 235.
الكندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحق (1950). رسائل الكندي الفلسفية (ج1). (تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة)، مصر: دار الفكر العربي.

لمجداني، حميد (2000). بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي (ط3)، بيروت: المركز الثقافي العربي.

لوتمان، ي (1988). جماليات المكان (ط2)، الدار البيضاء: عيون المقالات للنشر، دار قرطبة.
ماينر، إ (1985). تاريخ الصمت - إطلالة على تاريخ الأدب الياباني، مجلة الآداب (ع33).

"مجلة عريق الإلكترونية"، (<https://2u.pw/a5vnmW>)

"مجلة المعرفة الرقمية"، (<https://2u.pw/f5Qf2d>)

مجموعة من الباحثين (2019). أطول يوم في تاريخ اليابان - التعصب الذي قاد اليابان إلى حافة القيامة (ط1). (ت: فدوى فاضل)، بيروت: دار المدى.

مجهول. صوت الماء - مختارات لأبرز شعراء الهايكو الياباني (1437هـ)، (ت: حسن الصلحبي)، الرياض: مجلة الفيصل.

مسلم، طاهر عبد (2003). عبقرية الصورة والمكان (التعبير- التأويل- النقد)، الكويت: وكالة المطبوعات.

موراكامي، هاروكي (2013). رواية نعاس (ط1)، تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع.

النصير، ياسين (1986). إشكالية المكان في النص الأدبي (ط1)، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

النصير، ياسين (2010). الرواية المكان (دراسة المكان الروائي)، دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

نعمة، أنطوان وآخرون (2000). المنجد في اللغة العربية المعاصرة (ط1)، بيروت: دار المشرق.

سلطة الصورة السياسية اليوم داخل الفضاء العمومي

The authority of the political image today in the public space

د.أ. ريم الشريف

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان/تونس

المايل: cherifryma03@gmail.com

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى القول بأن الصورة تعتبر من أهم الوسائل الاتصالية منذ القديم وإلى حدود هذه الساعة لما لها من فاعلية في التواصل بين مختلف شرائح المجتمع وفئاته المثقفة وغير مثقفة. إن الصورة اليوم أصبحت قناة عبور في فضاءات مختلفة، فضاءات هي الأخرى تنوعت بحكم الثورة التكنولوجية والإعلامية والسياسية، ولكن الصورة التي نبحث عنها اليوم هي الصورة السياسية الصورة التي تجوب الفضاءات المرئية والسمعية والبصرية التي تتجاوز كل القيود، الصورة اليوم أصبح يستعملها السياسي ليغزو بها كل المساحات المتاحة، ويربح بها كل القلوب، ولكن كيف لنا أن ندرك أن للصورة سلطة داخل الفضاء الافتراضي الذي هو بدوره يستطيع أن يحقق كل نسب النجاح.

الكلمات المفتاحية: الصورة - الفضاء - الفضاء العمومي - السلطة - السياسة

Outline.

This research aims to say that the image is considered one of the most important means of communication since ancient times and until this time due to its effectiveness in communicating between different segments of society and its groups educated and uneducated. The image has today become a channel of transit in different spaces. Spaces have also diversified thanks to the technological, media and political revolution. But the image we are looking for today is the political image, the image which travels through the visual, the audiovisual spaces which transcend all restrictions. The image is used today by the politician to invade all available spaces, and wins all hearts, but how do we realize that the image has power in the virtual space, which in turn can reach all success rates.

keyword : Image- Space- Public Space-authority-Politics

إن الإنسان كائن اجتماعي لا يعيش بمفرده بل وسط مجموعة تفرض أدوات من التواصل، هذه الأدوات ليست الكلمة أو اللغة فقط، بل وسائط أخرى يكون لها مفعول إيجابي في تبليغ الرسالة كالومضات الإشهارية والصور الفوتوغرافية التي تشد المشاهد أو المستمع باستعمالها أسلوب البساطة والطرافة وحتى الغرابة لتطلب هذه الأخيرة أن تكون متنوعة حسب رغبته وحسب المحيط الذي يتواجد فيه. وفي هذا الجانب يتفنن هذا الكائن في تبليغ رسالته عبر مختلف الوسائط المتاحة في زمنه، حيث يستطيع أن يميز بين الوسائل السمعية المنطوقة مثل اللغة والأصوات والوسائل المرئية مثل الحركات واللباس وتعبير الوجه. وعلى هذا الأساس إذن يمكن القول بأن التواصل اللغوي، هو مصدر القيمة التي تجعل الإنسان مميزاً ويمكن أن يتميز أكثر إذ أراد بلوغ هدف معين وخاصة إذ ما تحدثنا عن الجانب السياسي الذي يعد من أهم الحقول التي تستوجب من الفرد أن يتقن لغة التواصل وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن: "اللغة وعاء يحتوي أسمى ما يمكن أن يتعلق به الفرد من معانٍ" (عزي، 2009، ص75). فهي تخدم مصالح الفرد السياسية، والثقافية والاجتماعية، وهنا نجتمع على مبدأ أن مختلف أنماط التواصل تنوع في مختلف الحقول المعرفية، من أهمها الحقل السياسي وبالتحديد التواصل السياسي الذي يعرفه كل من "ديفيد إل سوانسون" و"دان نيمو" بقولهما: "انه الاستخدام الاستراتيجي للتأثير على معرفة الجمهور ومعتقداته وأفعاله بشأن المسائل السياسية." (Nimmo, 1990, 9)

التواصل السياسي هو الفضاء الذي تتبادل فيه الخطابات المتعارضة من قبل الفاعلين السياسيين الذين يتمتعون بشرعية التعبير عن رأيهم في السياسة وكل حسب موقعه. إضافة إلى التواصل السياسي نجد الصورة التي هي الأخرى تلعب دوراً كبيراً في العملية السياسية وهو ما يهمننا تحديداً، حيث تتم عملية تداول الصورة بسرعة كبيرة فتصل بذلك إلى عدد كبير من الجماهير على اختلاف طبيعتهم وثقافتهم وخاصة إلى الطبقة الغير مثقفة. إذن يمكن القول في هذا السياق بأن الصورة يمكنها أن تخلق العديد من الصراعات حول العالم وتوثق وتوطد العلاقات بين الدول والشعوب، فلذلك نجد أن سلطة الإعلام اختزلت تماماً في الصورة، ولم يعد هناك حاجة لنشر الآراء وشرح وتحليل المحتوى الإعلامي. وهكذا وإن أردنا التوضيح أكثر يمكن الإقرار بأن الصورة من منظور شاعري تكون مختلفة من منظور المصور الفوتوغرافي، وهنا يمكن ان نستدل بتعريف الجاحظ الذي يقول " الصورة هي صياغة وضرب من التصوير" وهذا يكشف عن بُعد مهم يحيلنا على ماهية الصورة في مختلف أبعادها. كيف تؤثر الصورة

السياسية في الفضاء الإعلامي؟ ما هي مفاهيم الصورة وسياقاتها الثقافية في العصر الراهن؟ أي علاقة يمكن أن تكون حاصلية بين الصورة والسياسي؟ وما هو الفضاء الذي تتأسس فيه؟

1- مفهوم الفضاء

إن الحديث عن نشأة الفضاء في مفهومه العام والخاص يكون قيد التدقيق والتفسير والبحث عن منشأه وتكوينه، فإذا ما كانت الانطلاقة من الحضارة الغربية فذلك يعود إلى الحقبة الإغريقية أين كانت تدار المداولات والنقاشات بين الفلاسفة في الفضاءات العامة وعلى سبيل الذكر كان "سقراط" من أهم الشخصيات التي كانت تجوب الشوارع للتعريف بقضية معينة أو لنقاش فكرة ذات أهمية كبيرة. فالفضاءات العمومية في القرن 18 عشر هدفها هو نشر الحرية والدفاع عن هيبة الدولة وأجهزتها القمعية، لذلك تواجدت المقاهي والصالونات التي تستضيف العديد من الأدباء والفلاسفة للتعبير بكل حرية عن مبادئهم، وعليه يمكن اعتبار أن المجتمع المدني كان محايداً بالنظر إلى السلطة، وعلى سبيل المثال لا يعدّ غريبا اشتغال "هايرماس" (Jurgen, 1988, p12) على تحديد جملة من المفاهيم الملازمة للعقلانية. فالفضاء العام (Espace Public) بالنسبة إليه لا يعدو أن يكون سوى مساحة تلاق بين الفلاسفة والعامة والحكام في الساحة العامة للحديث بكل حرية وبدون قيود.

وهكذا نفهم بأن نشأت الفضاء كانت نتيجة ظهور الصحف التي أنشأها المجال العمومي المتأدب على حسب تعبير "محمد المصباحي" يقول: "الدور الجوهري الذي لعبته وسائل الإعلام المكتوبة في الانتشار المبكر لنماذج اقتصاد السوق بعيدا عن مرتعها الأصلي، كما أن الطرق التجارية التي كانت تنقل مسافات بعيدة كان لها دور الريادة في نقل المعلومات والأخبار بنفس القدر الذي تنقل فيه البضائع..." (المصباحي، 2009، ص94) ذلك الفضاء الذي يتداخل فيه الفعل السياسي لتأطير الممارسة السياسية بواسطة الدعاية La publicité لتوجيه الرأي العام "l'opinion publique"، وجهة العمومية، بالفعل التواصلي، وهنا تصير العمومية معياراً لكل تفكير يحكم أي فعل إنساني في الزمان والمكان. حتى أن "هايرماس" يؤكد على أن الفضاء العمومي يحتل موقعا مركزيا في الفكر السياسي المعاصر باعتباره مجالا للمناقشة والإقناع والهيمنة للغوية والسلطوية. كما أنه يميز بين فضائين: الفضاء العمومي المهيكل الذي ارتبط بالكنيسة والبلاط والفضاء البورجوازي الذي يعمل على تشكيل طبقة خاصة تعمل على تكوين استقلال خاص بها اتجاه السلطة عن طريق تأسيس مبدأ الحوار والمناقشة العامة. وبالتالي فالفضاء العام كانت له ميزة خاصة وهي الارتباط المباشر وغير المباشر بجميع الفئات التي تدرك بأن المحيط التي تنفس

فيه وتعيش فيه ليس سوى حلقة لتتكامل فيه وتعمل معا على دمج سلطة معينة، فمثلا مرحلة الأنوار ميزت بين الحياة العامة والحياة الخاصة المتجلية في الأسرة نمط وجود خاص، أما نمط الوجود العام يظهر في دائرة المدينة "Le sphère de la polis" أي الفضاء المشترك بين المواطنين الأحرار الذين يعبرون عن مواقفهم السياسية بكل حرية وعن الدائرة الخاصة "Le sphère de l'oikos" أين يصبح الحوار مدروسا وفق مقاييس منهجية.

هذا الفضاء الذي يعمل على تكوين حلقة الحوار يؤسسها كل فرد من المجتمع حسب رغبته وتفكيره ولكن يصبح الفضاء أكثر خصوصية بالنسبة لرجل السياسة أين يعمل على أن يكون متواجدا فيه قدر المستطاع على أن يهيا هذا الفضاء وفق ما يصبو إليه. وبالتالي فإن عملية تداول مفهوم الفضاء العمومي "L'espace public" شاع استعماله في التحليل السياسي خلال سبعينات القرن الماضي وقد أصبح هذا المفهوم مرجعا لمن يطالبون بالديمقراطية التعددية. وفي هذا السياق نقدم بعض الفضاءات التي اختلفت فيها المطالب ولكن ما جمعهم هو نفس المطلب ونفس الفكرة وهي السياسة والمطالبة بالحرية والديمقراطية.

• بعض الأمثلة عن الفضاءات العامة:

		
<p>الصورة الثالثة²: لوحة جدارية ترسم جسد الأنثى في بلدان الحراك العربي جسد يخرج من الفضاء انلخاص إلى الفضاء العام</p>	<p>الصورة الثانية: ساحة البرلمان هايد بارك الرباط¹</p>	<p>الصورة الأولى: ساحة أغورا</p>

¹ www.alquds.co.uk. 1Avril2017

² يحيى بن الوليد {8-8-2017}، الجسد الأنثوي والحراك المحلي العربي: في استعادة التواريخ المحجوبة، رابط المادة معهد العالم للدراسات في أسئلة الواقع وإجاباته The Word Institute، للزيد من الاطلاع انظر الرابط التالي: file:///C:/Users/ACER/Downloads/alaalam.org-080817.pdf

وبناء على ما تقدّم فإنّ الاتصال العمومي يرتكز على الإعلام الذي يملك القابلية للانتشار أكثر، ويملك القابلية أيضا لأن يكون في متناول قطاع واسع من الجماهير. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ التواصل العمومي يفترض جملة من الوسائل الاتصالية تتغير بتغيّر الفضاء الإعلاميّ وتتغيّر ملامح الشخص الذي يبلغ الرسالة، وحتى ندقق الأمر أكثر يمكن أن نستدعي الشروط التي حددها "جاكسون" "Jakobson" (الغزالي، 2003، ص ص 14-15)³ والتي سماها أيضا "الخطاطة اللسانية" فقد قام بإدخال

مفهومين أساسيين وهما: المرجع (أو السياق) والصلة Contact التي يقصد بها تلك القناة أو ذلك الاستعداد النفسي الذي يربط بين الباث والمتلقي. فعلى سبيل المثال عندما قررت وكالة متخصصة في العلاقات العامة أن تتولى عملية تقديم مرشح عبر الوسائل مختلفة من بينها الصورة التي تستخدم الانطباعات البصرية لمظهر المرشح وخبراته في وسائل الإعلام المختلفة، بحيث يتم دمج هذه الصور في أذهان المواطنين لتلعب - لاحقا - دوراً في تحديد ميولا تهم كهذه الصورة (عدد4) التي اكتسحت العديد من شبكات التواصل



وأخذت رواجاً وفكرة واسعة عن المرشحة "هيلاري كلينتون" التي تفاعلت بكل عفوية وتلقائية من اجل أخذ صورة لها مع مؤيديها. بحيث أخذت الصحفية "أولاندو" المسؤولة عن ترويج الحملة الانتخابية لوزيرة الخارجية الأمريكية

الصورة الرابعة⁴

³ يعتبر "جاكسون" أحد أبرز اللسانيين خلال النصف الأول من القرن الماضي حيث أسس وهو لا يزال طالبا، حلقة بومسكو 1915 بمعمة أصدقائه. كما انه كان من الرواد الأوائل لحلقة "براغ" إلى جانب صديقه الروسي "تروبتسكوي". وظل رغم توجهه اللساني واهتمامه بقضايا اللغة مرتبطا بمبدأ "الشكلانية" التي كان أحد أعمدها. لا يتصور جاكسون قيام علم التواصل بدون الاستناد إلى علوم مجاورة وقريبة «كالانطولوجيا» ونظرية الأخبار {الإعلام} والرياضيات {حيث عبر جاكسون بنفسه عن هذا التداخل والارتباط العلمي الذي يربط اللسانيات بهذه العلوم. عبد القادر الغزالي {2003}، اللسانيات والتواصل رومان ياكوبسون نموذجا، دار الحوار للنشر والتوزيع/سوريا، ص ص 14-15

⁴ وليد عباس {2016-9-27}، صورة هيلاري كلينتون التي نثير الجدل، موقع مونت كارلو الدولية MCD، للمزيد من



الاطلاع انظر الرابط التالي: <https://www.mc->

doualiya.com/chronicles/emailmcd/20160927clone%D8%A5%D9%8A%D9%85%D9%8A%D9%84/20160927clone%D9%87%D9%84%D8%A3%D8%B5%D8%A8%D8%AD%D9%81%D8%A7%D9%

وحولت بذلك الصورة إلى منصة كبيرة يتهاوتون على التقاط صورة معها، وخاصة أن الأغلبية كانت من الطبقة الشابة التي راج عندهم منطق السلفي الذين يتباهون مع من يلتقطون الصورة. وبالتالي أصبح هناك استثمار ايجابي في عملية التجنيد والاستقطاب والتأييد الغير مباشر للمرشح لأن الصورة هي التي حكمت على من التقطها وروجها في مختلف شبكات التواصل وأصبح لها رمز مميز.

2- الفضاء والصورة السياسية

2-أ- تعريف الصورة

الصورة جمع صورٍ وصور: الشكل، كل ما يُصوّر يقال (صور الأمر كذا) أي صفته، النوع، الوجه، يقال (صورة العقل كذا) أي هيئته (الازوي 1976، ص 440) والصورة: الشكل والتمثال الجسم وأيضا يمكن أن نستدل بما قيل في القران الكريم قال تعالى : "الذي خلقك فسواك نعدلك في أي صورة ما شاء ربك"  (سورة الانفطار الآيات 7-8)، في حين تعيد معاجم الأصول اللغوية (Etymologie) الكلمة الانكليزية (Image) إلى أصل لاتيني فرنسي، استخدمت في المعاجم الانكليزية لتدل على المفاهيم الآتية المتشابهة، صنم الصورة... وليس من الضروري أن يكون بصرياً في الخيال أو الذاكرة.

أما في حقل آخر الصورة لغة من الصور بكسر الصاد جمع صورة وصوره تصويراً، فتصور وتصورت الشيء توهمت صورته فتصور لي والتصاوير التماثيل وصاره أصله من باب قال وباع وقرئ (فصُرهنَّ إليك) بضم الصاد وكسرهما، قال الأخفش يعني وجههن وصار الشيء أيضا من البابين قطعه وفصله (الرازي، 1995، ص 156) وصورة المسألة أو الأمر: صفتها وصورة الشيء ماهيته المجردة وخياله في الذهن والعقل.

كذلك تعني الصورة المحاكاة، وهي المجال السيكلوجي مترادفة مع التشابه أو النسج أو إعادة الإنتاج، وفي اللغة العربية تعني هيئة الفعل أو الأمر وصفته. وتعتبر الصورة مركزاً للتواصل الإنساني، ولإنتاج المعنى في الثقافة المعاصرة، ويتم توجه المشاهدين والمناورة والإيهام بها والتحكم في إنتاجها والترويج لها عبر وسائط وقنوات الصورة المرئية التي تجعل المشاهد يتساءل عن فحوى هذه الصورة وعن

المكان الذي أخذت منه. هذا هو حال الصورة (عدد5) التي يتصافح فيها كل من الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" والعاقل السعودي "محمد بن نايف"، مع عنوان كتب بالنظ العريض الذي يقول محتواه (شاهد صورة لولي العهد السعودي والرئيس "أوباما" يثير الجدل وتشتعل وسائل الاعلام العالمية)، إن ما يلفت الانتباه هو طريقة المصافحة التي تعني الكثير وخاصة أن اليد المهيمنة هي يد العاقل السعودي التي تدل على مبدأ الهيمنة والسيطرة وعلى عدم تجاوز الفضاء المتاح له وخاصة ان الرئيس الأمريكي هو من قام بزيارة السعودية، وبالتالي هنا مبدأ الهيبة والوقار حتي انه يمكن أن ندعم بما قاله احد المحللين السياسيين جابر نقاع عن هذه الصورة: "بدلالات وتدعم الجسد *Body Language* بن نايف يقول: نحن من يملئ الشروط الان، نحن اليد العليا" هذه الاجابة بملاح وجه العاقل السعودي التي تأكد هي الأخرى على أنه هو من يجب أن يسيطر وخاصة أن الفضاء الذي يتواجد فيه هو فضاء خاص، حيث أننا وفي هذا السياق يمكن أن نستشهد بدومينيك فولتون (Bernard,1995) الذي يفرق بين الفضاء المشترك الذي يمكن من التداول والتعبير في حين أن الفضاء العمومي هو الذي يضمن الحوار والنقاش والفضاء السياسي الذي يتيح القرار وهذا ما يمكن أن نستوعبه من هذا الفضاء الذي يعد مشتركاً للمشاورة السياسية ولكن المصافحة جعلته منه فضاء القوة والملكية الخاصة.



الصورة الخامسة⁶

إن عمليات تسويق الصورة ليست جديدة تماماً، فهي موجودة منذ القدم في الحكم، والسياسة فقد بدأت مع رسم الصورة البطولية في الأسطورة الشعبية، بإسباغ هالات من القدسية والسمات

⁵ <https://ye-voice.com/news91120.html>

⁶ www.Sahasha.ps/new/142491.html, Jeudi le 14/05/2015 à 19 :40h

الخارقة على بطل الأسطورة، سواء في اليونان أو الملاحم الشعبية العربية التي كانت تصور البطل الشعبي العربي وكأنه ملاك سماوي، أو أسطورة البطولة الحديثة في فترة الستينات مع "تشي جيفارا" حيث ترفع صورته كرمز للبطولة في كل ثورات العالم.

		
الصورة 8 جمال عبد الناصر	الصورة 7 لوحة جدارية لجيفارا	الصورة 6: قبعة جيفارا- دار شانيل

هذه المجموعة التي اخترناها تحمل العديد من الدلالات، مجموعة من التصورات والأحكام والانطباعات القديمة والموروثة والجديدة والمستحدثة الايجابية منها والسلبية التي يأخذها شخص أو مجموعة أو مجتمع عن الآخر ويستخدمها أساسا ومنطقا لتقييم صورة هذا الشخص ولتحديد موقعه وسلوكه، وهنا نذكر دور دار الأزياء الفرنسية "شانيل" (الصورة الموجودة في الأعلى على اليمين)⁷ التي قامت بإحياء ذكرى الأسطورة من خلال استعمال قبعته الشهيرة التي كانت علامة مميزة للمناضل الأرجنتيني وكان العرض في العاصمة الكويتية وبالتحديد في مسقط رأسه (هافانا). فصورة المناضل أصبحت لها سلطة مباشرة فهي محاكاة لتجربة حسية ارتبطت بعواطف معينة نحو شخصية معينة أو نظام معين وكذلك خرجت عن فضاءها وإطارها المعهود لتصبح رمزا متداولاً للجميع وليست مجرد قبعة لمناضل، فهذا العرض الذي قدمته دور الأزياء "شانيل" إنما هو تحدي وخروج عن المعتاد.

كذلك يمكن أن نلاحظ حضوراً آخر لصورة "جيفارا" على الجدار⁸ حيث رسمت صورة المناضل على مبني قديم وليس أي مبني وأي فضاء وإنما كان معتقل لبعض الشخصيات. هذه اللوحة الجدارية لها سلطة كاملة على فضاء تجاوز وظيفته العادية ليصبح رمزا ومسرحا تتسارع نحو العقول لأخذ صورة معه، رغم أنه فضاء بسيط ولكن برسم الصورة أصبحت له قيمة فنية كبيرة. كما يقول في هذا السياق

⁷ قبعة جيفارا- موضة شانيل، 6Mai2016، www. Alquds.co.uk

⁸ محمد رضا {2017-10-9}: بوليفيا تحتفل بالذكرى الـ 50 لرحيل جيفارا بحضور ابنته ونائب رئيس كوبا، تصوير {أ ف ب} الساعة 27: 07 موقع <https://www.youm7.com/story/2017/10/9/>

"Alvando Mutis". تبصر تبصر حتى تغيب عنك ذاتك " *Regarder, Regarder*, jusqu'à ne plus être soi même" في حين يقول Martine Joly "إن حضارة اليوم هي حضارة الصورة بحق إنها تميز حاضرتنا اليوم" (Joly, 1998, p5). وبالتالي فإن الثقافة البصرية اليوم أصبحت أشد وقعا وأكثر تأثيراً في العقول والنفوس من الخطابات الرنانة التي تستجدي مشاعر الجماهير، فلم يعد النص المكتوب، شعراً أو نثراً يعادل أهمية مكانة الصورة وتأثيرها وإن كان ثمة تلازم بين الصورة والنص.

فالصورة كانت حاضرة منذ القديم وفي جميع المجالات لما لها من رمزية فعالة في حوار الحضارات، فالفيلسوف أفلاطون يعرفها بدءاً "بأنها تلك الظلال، أضف إليها البريق الذي نراه في الماء أو على سطوح الأجسام الجامدة التي تلمع وتضئ وكل نموذج من هذا الجنس". (Joly, 1998, p8). فالصورة اختلفت تعريفاتها ولكن الهدف واحد ففي قاموس "روبير Robert الصورة هي: إعادة إنتاج طبق الأصل أو تمثيل متشابه لكائن أو شيء ما" أما في الاصطلاح السيميوطيقي فإن الصورة تنضوي تحت نوع أعم يطلق عليه، وهو يشمل العلاقات التي تكون فيها العلاقة بين الدال هنا Icone (الايقون والمرجع) قائمة على المشابهة والتماثل (العماري، 1998، ص 136).

أما تعريف الصورة في الحقل السياسي ليست مغايرة بدرجة كبيرة فقد استأنسنا بتعريف اللحياني "هي صورة تشبه إلى حد كبير مكعب (أوبيك) لها أوجه مختلفة تدخل في قضايا إنسانية ودينية واجتماعية وتجارية وتقنية، وغيرها، وكلها تحت التأثير الديناميكي تماماً كمكعب روبيك⁹ كل جزء فيه لغز يتطلب حلاً يختلف عن الآخر، وهذا ما تحتاجه الأهداف السياسية من الصورة. لأن الصورة تلعب دوراً هاماً ذا دلالة كبرى في تحفيز سلوكنا اليومي، إنها تتمتع بجميوية، بخيال خصب وقدرة على الإرغام تفوق قدرة الأفكار المجردة لأنها تولد مصاحبات عاطفية تترجم إلى أنشطة وطاقات قوية. فالصورة تجعلنا نعجز عن فك رموزها وبالتحديد إذ ما تم وضعها في غير سياقها وغير فضائها كبعض هذه العينات.

⁹ مكعب روبيك لغز ثلاثي الأبعاد اخترع في عام 1974 في قبل النحات والباحث المعماري إرنو روبيك. William Fotheringham 2007, Fotheringham's Sporting, Postimes, Anova, ISBN, 1-86105-953-1_P50



الصورة (9) (من فوق على اليمين) تحت عنوان، "امرأة سعودية تقود دراجة الهوائية بشرط وجود محرم"، صورة تظهر في شكلها الخارجي تستجيب لقانون السعودية في حين أن القراءة تكون مغايرة وفيها جانب من السخرية إذ ما تمي نشرها ووضعها في غير محلها على سبيل الذكر لو وضعت هذه الصورة في دولة أوروبية بشرط عدم كتابة النص المصاحب لها. فستكون القراءة مغايرة تماما لما هي عليه بمعنى تصبح صورة كاريكاتورية ترمز إلى السخرية من نظام سياسي معين أو قانون وقع سنه وإجبار المرأة أن تتعامل معه هذا من جانب، ومن جانب ثاني صورة تدل على ثقل الرجل في المجتمعات العربية التي تتكفل بجميع شؤون البيت والمجتمع والرجل ما عليه سوى الفرجة ومسيرة العادات والتقاليد التي تقول بأن المرأة يجب أن تتحمل المسؤولية في كل شيء حتى مسؤولية زوجها، وبالتالي يجب عليها عدم التذمر والتشكي. ولكن هذه الصورة وفي فضاءها العادي تحمل عديد الرموز والقراءات ولكن الصحفي تجنب الانتقادات والقراءات فوضع النص وترك للقارئ الحرية في التعبير.

أما الصورة (11) التي نشاهد فيها أطفال يلعبون، صورة تحمل بعض الغرابة لأن طريقة اللعبثير الحيرة، وخاصة الطفل الذي يحمل قيص الطفلة والذي بدوره يدل على رغبة هذا الأخير في اكتشاف ما تحت الفستان، ونحن نعلم أن الطفل منذ الولادة يحاول بشتى الطرق أن يكتشف ما حوله ولتأكيد على ذلك نستحضر المثل الذي يقول «علموا الأطفال وهم يلعبون» ولكن طريقة هذا الصبي مغايرة بعض الشيء وخاصة أن الطفلة في وضعية شجار مع صديقتها والطفلة ثالثة مغمضة العينين في ذهنها أن اللعبة مستمرة، وبالتالي نستخلص من هذه الصورة أن العناصر الأربعة (الأطفال) كلهم في صراع مع المحيط الذي يلعبون فيه والذي بدوره يحتوي على جملة من الأفكار والألعاب التي تجعلهم يتصارعون في نيل الجائزة من سيربح هذه اللعبة. الغريب في هذه الصورة ليس الأطفال بل النص الذي كتب في أعلى الصورة نص يقول فخاه "دائماً في الصراع بين طرفين هناك طرف ثالث مستفيد" وكأن ملتقط الصورة يجبر القارئ على فهم الصورة حسب نصها وحسب موعد التقاطها وفي أي فترة

التقطت. فهي صورة وضعت في مجالها السياسي ولكن العناصر المكونة لها ليست كما تنتظر أن تكون، فهي لعبة بين الحامل والمحمول بين ما يجب أن يكون وما يجب ألا يتوقعه، فكل شيء في العملية السياسية هو مغاير لما يصبو إليه المتلقي. وهذا هو ما عليه الصراع السياسي والتحويلات الإنتاجية وكأن يخرج الصورة يقول لا تصدق كثيرا ما يقوله المرشح وهنا يمكن أن نستدل بقولة "لقوبلز" "Goebbles" عندما أعلن في صيغة طريفة "الكذب، الكذب، الكذب"، ثم الكذب حتى يصدقك الناس" (الزعايني، 2013).

وهذا ما يعمل عليه الصحفي واللغة الصحافية التي تطورت وتسارع نسقتها حيث أن الصورة أصبحت تحتل مكانة هامة أكثر من النص المكتوب، لأنها معبرة أكثر، فحسب رؤية "داود بركات" الذي يؤكد على براعة الصحفي الذي يستطيع أن يقنع الآخر بصورة ملونة أو صورة بالأبيض والأسود: "... وبعد أن كان الصحفي البارع من يدبغ الفصل الطويل المشجع يملأ به صفحات جريدته وإن خلا من المعنى وضاع المراد منه في الحشو من الكلام. بات الآن من يعالج موضوعاته معالجة المصور يرسم ما يريد تصويره حتى يبرز لعين الناظر ما يريد قوله" (مروه، 2007، ص435). وهذا ما يمكن أن نلاحظه في الصورة (10) والتي نفهم من خلالها بأن اللغة المكتوبة ليست عائقا حتى وإن عجز القارئ على فك الرموز المكتوبة باللغة الأجنبية فإن الصورة كفيلة بشرح النص والكشف عن المسكوت عنه (الصورة التي ينظر فيها الرجل إلى العناق السياسي) والتي يعبر فيها المتفرج في ذهنه عن غرابة هذه الصداقة لأنه وحسب ما يسمعه وما يشاهده في مختلف الوسائل السمعية البصرية يجب أن تكون الصورة غير هذه.

إذن يمكن القول بأن الصورة دليل على سلطة وسائل الإعلام ونفوذها المتزايد في حياتنا المعاصرة، إذ انتقلت من كونها واسطة بيننا وبين الواقع والأشياء المادية من حولنا إلى إنتاج واقع يملك أهميته ومكانته أكثر من الواقع المرجعي نفسه الذي يجب أن تحيل الصورة عليه وتعطي الشرعية له بأن يتحدث كما يريد هو وفي المقابل الشعب يصدق هذا الخطاب من منطلق الصورة التي قدمها، فهو يتلاعب بعقلية المتلقي عن طريق إيهامه وكأنه يريد أن يقول له "أنا لست كما تعتقدون". وهي عادة دأب عليها الخطباء، وفي ذلك يقول رولان بارت: "الخطيب يقدم إخبارا، ويعلن في نفس الوقت، أنا هذا أنا لست ذلك." (Barthes, 1977, p212)، فهذه الصورة البلاغية تستلزم عملا ودقة في انتقاء الكلمة وفي ترسيخ الحضور في ذهن الرأي العام، قبل أن تكون غايته بناء صورة جديدة تفرض على الجمهور إمكانية التكيف معها. وهنا سنطرح بدورنا سؤال على المتلقي ماذا تشاهد في هذه الصورة؟

الصورة 13¹⁰

من خلال قراءة الصورة ندرك الجانب السياسي الخفي بأن هناك مفارقة كبيرة في عملية أخذ زمام السلطة ثمانية حكومات مرت على فرنسا، ثمان شخصيات اخذت الزمام ولكن الفضاء نفسه والوضعية نفسها وكأن التاريخ يعيد نفسه ويجبر المتلقي على طبع الصورة في ذهنه وهذا ما يسمي "بالصورة الذهنية" التي تؤثر في السلوك السياسي وتعطي الانطباع على أن الصورة لا تخفي شيء وأنها تقدم الحقيقة المطلقة. فهذه الصورة لا تخلو من الإكراه البنيوي الذي يميز اللغة بل إن الصورة آمرة أكثر من الكتابة باعتبار أنها تفرض الدلالة وتستنتق المعنى دون تحليل بل إنها تمارس هذا الاستنطاق دفعة واحدة ودون الالتجاء إلى قوانين وقواعد.

إن الصورة بقدرتها على التواصل وخاصة بالنسبة إلى الأشخاص الذين يجهلون القراءة، بل إنها تعتبر لدى الفنانين أعمق وأكثر تبليغا من الكتابة. إنها بمثابة الشاشة المصغرة التي تمارس الإخبار والإعلام دون الالتجاء إلى الضوابط الاتصالية المعقدة. وهذا ما جعل المحامل المكتوبة تركز في بعض الأحيان على حضور الصورة أكثر من النص، ويتفنن المخرج في اختيار الصورة والشخصية والمكان والفضاء، وهي كلها معطيات تملك قدرة استثنائية على التعبير. فالسياسة الفرنسية وهذا المسح التاريخي الذي قُدم في شكل صورة لم يجعل للمتلقي فرصة في أن يبحث في التاريخ بل قدم له الحكومة الثمانية في شكل صورة وليست أي صورة، صورة تخفي العديد من المعاني ولكن الهدف نفسه وهي غزو الفضاء بجميع معاييرها ونشرها في جميع الفضاءات ووسائل الاتصال.

¹⁰ Morad Abed-Aiad : les passations de pouvoirs de la Ve République, huit journées qui ont marqué l'histoire, 14-5-2017 à 16H13 Mise à jour à 16H41, De gauche à droite et de haut en bas ; les passations de 1959, 1969, 1981, 1995, 2007 et 2012. Depuis la création de la Ve République, 7 présidents se sont succédés à partir de demain Emmanuel Macron sera le 8e

خاتمة

لا شك في أن ثقافتنا المعاصرة هي ثقافة الصورة والمشهد، فعصرنا الراهن يكشف عن تقدم هائل في مستوى المعرفة العلمية الذي ترافق مع انفجار كبير في المستوي التقني والتكنولوجي، وهو انفجار تجسد في انتشار وسائل الاتصال والإعلام. وهي وسائل تستخدم بصورة مكثفة الصورة بما أن الصورة تعني الوساطة التي يتم تجسيدها حسيًا، فالجال البصري إذن هو مجال اشتغال الصورة وفضاء تظهيرها. وإذا أردنا أن نفهم أكثر حقيقة الصورة وآليات اشتغالها يتعين علينا أن نرصد مصادر الالتقاء والاختلاف بينها وبين اللغة. لعلهما يمثلان في كونهما أنظمة رمزية تعرب عن وساطة ممكنة بين الإنسان والعالم، بين الأنا والآخر وحتى بين الإنسان وذاته، لكنهما يختلفان في الأدوات المعتمدة لتأمين هذه الوساطة باعتبار أن اللغة ملفوظة أو مسموعة إنما هي تتأسس على مستوى لساني يوظف العلامات في حين أن الصورة تنبني على مستوى تقني ومجال اشتغالها هو مجال بصري حسي مرئي.

في عصر الشاشة عصر تسيطر عليه الصورة بمختلف فنون توظيفها لا يبحث المشاهد عن صورة الآلهة وإنما عن شخصية القائد الذي يفاجئنا بقدرته على خلق "المعجزة" رغم أن "المعجزة" هي اختراق عبثي للمعقول. فنحن عندما نشاهد الصورة فلا شك نلتزم الصمت، ولكننا عندما نسمع خطابًا نخرط في جدال وحوار قد يصل أو قد يرتفع إلى لحظة الصدام. أما المشهد فهو الموقف والتبرير والحجة والبرهان. فالصورة لا تكلمنا ولكن لا نستطيع مغالبة قوتها. إن الصورة، وخاصة في الثقافة المعاصرة، ارتفعت إلى مستوى السلطة في ممارسة التأثير سلطة تضاهي سلطة الكلمة أو سلطة القلم وحتى ندعم هذا التأويل يمكن أن نستحضر بعض الشخصيات السياسية أو الدينية التي كانت تملك موهبة خاصة في توظيف الصورة ووعيا استثنائيًا بأهميتها وقدرتها على النفاذ إلى العقول والقلوب. ولتدعيم هذا التأويل الذي ينص على بحث التأثير العميق للصورة في المتلقي يمكن استحضار "جون بودريار" *Jean Boudrillard*¹¹ الذي يؤكد أن المضمون غالبًا ما يجب عنا الوظيفة الحقيقية للوسيط، ذلك أن حضور الصورة سندا مكتوبا بصريًا يترجم ردود فعل إبداعية يمارسها الجسد، ردود فعل نلاحظها ونستكشفها على ملامح الوجه. فنبتن مثلًا ما تنتجه صورة جسدنا من تأثير في الآخر كل ذلك يكشف وبحق عن سلطة الصورة، بل إن وعينا العميق بتأثيره الاستثنائي.

¹¹ né le 27 juillet 1929-2007 Jean Baudrillard est un sociologue et philosophe français,

المراجع

- أديب مروه (2007) الصحافة العربية نشأتها وتطورها، منشورات دار مكتبة دار الحياة، بيروت
- راشد الزعابي (2013-10-29)، أكذب حتى يصدقك الناس، قناة العربية، 29-10-2013، www.alarabiya.net/ar/sport
- سورة الانفطار، الايتان 7-8
- عبد القادر الغزالي (2003)، اللسانيات والتواصل رومان ياكوبسون نموذجاً، دار الحوار للنشر والتوزيع/سوريا
- عبد الرحمن عزبي: الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ط 1، 2009، ص 75
- محمد العماري (1998)، الصورة واللغة: مقارنة سيموطيقية، مجلة فكر ونقد، السنة الثانية، العدد 13، دار النشر المغاربية، دار البيضاء، ص 136
- محمد رضا: (2017-10-9) بوليفيا تحتفل بالذكرى الـ 50 لرحيل جيفارا بحضور ابنته ونائب رئيس كوبا، تصوير (أ ف ب) الساعة 27: 07
- محمد المصباحي: فلسفة الحق كإنتاج والفلسفة المعاصرة، مقال: عز العرب حكيم بناني: مفهوم الفضاء العمومي بين كانط وهابرماس، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب 2007، ص 94
- قبة جيفارا- موضة شانيل، 6Mai2016 . [www. Alquds.co.uk](http://www.Alquds.co.uk)
- يحيى بن الوليد (2017-8-8)، الجسد الأثوي والحراك المحلي العربي: في استعادة التواريخ المحجوبة، رابط المادة معهد العالم للدراسات في أسئلة الواقع وإجاباته The Word Institute، للمزيد من الاطلاع انظر الرابط التالي: file:///C:/Users/ACER/Downloads/alaalam.org-080817.pdf
- Bernard Miège, L'espace public au -delà de la sphère politique, in HERMES, 17-18-1995irevues. Inist.fr/handle
- Fotheringham 2007, Fotheringham's Sporting, Postimes, Anova, ISBN A, 1-86105-953-1_P50
- Jurgen Habermas : le discours philosophique de la modernité, Paris, Gallimard, 1988

- Jean Baudrillard est un sociologue et philosophe français, né le 27 juillet 1929-2007
- Martine Joly, Introduction à l'analyse de l'image, Nathan université, France,1998,p5
- Morad Abed-Aiad : les passations de pouvoirs de la Ve République, huit journées qui ont marquée l'histoire,14-5-2017 à 16H13 Mise à jour à 16H41
- Roland Barthes : L'ancienne rhétorique, in communications, N16, 1977, p212
- Swanson,D. Nimmo : New direction in political communication , Resource Book, Thousand Oaks sage 1990, p9
- [https //abarab.co.uk.29/09/2016](https://abarab.co.uk.29/09/2016)
- www.alquds.co.uk.1Avril2017
- [https //abarab.co.uk.29/09/2016](https://abarab.co.uk.29/09/2016)
- www.alquds.co.uk.1Avril2017
- www.Sahasha.ps/new/142491.html, Jeudi le 14/05/2015 à 19 :40h

تقنيات الإقناع في الخطاب الإعلامي وأثرها في إنجاح المصالحة في المجتمع

Persuasion techniques in media discourse and their impact on national reconciliation

د. عبدالسلام ميلاد جبريل - كلية التربية - جامعة وادي الشاطئ - ليبيا

Email:a.mohamed@wau.edu.ly

ملخص

يدرس هذا البحث أهم تقنيات الإقناع في الخطاب الإعلامي، ويبين مدى تأثيرها في المصالحة والوطنية، وينطلق البحث من إشكالية تبدو في التساؤل التالي:
إلى أي مدى يكون لتقنيات الإقناع في الخطاب الإعلامي أثر في المصالحة الوطنية؟
ويهدف البحث إلى بيان دور الخطاب الإعلامي في المصالحة الوطنية.
وسار البحث وفق المنهج الوصفي المعتمد على تحليل ووصف الواقعة؛ وصولاً لتحقيق نتائج من أهمها: أن للخطاب الإعلامي المقتنع والمؤثر أثراً في المصالحة الوطنية اعتماداً على تقنيات مهمة منها: الموضوعية - الحياد - الحوار - والتوجيه.

الكلمات المفتاحية:

تقنيات - الإقناع - الخطاب الإعلامي - المصالحة الوطنية.

Abstract

This research studies the most important techniques of persuasion in the media discourse and shows the extent of their impact on national reconciliation. It stems from problems appearing in the following question: To what extent do persuasion techniques in the media discourse have an impact on national reconciliation.

The research also aims to explain the role of media discourse in national reconciliation.

It also proceeds according to the descriptive approach based on analyzing and describing the incident in order to achieve results such:

The persuasive and influential media discourse has an impact on national reconciliation, depending on important techniques such as objectivity, impartiality, dialogue and guidance.

Key words:

Techniques - persuasion - media discours - national réconciliation

المقدمة

ما لا شك فيه أن الاختلاف أمر أوجبه طبيعة الحياة بين البشر بحكم الجبلة والفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (من الآية 118 سورة هود)، وترتب على ذلك الاختلاف حدوث الخصام بين بعض الأطراف في المجتمعات الإنسانية في مستوى الأفراد وبين الأسر والعائلات وكذلك القبائل، بل حتى على مستوى الدولة الواحدة أو بين الدول.

واقضى ذلك وجوب الإصلاح والمصالحة بين الخصوم والمتنازعين باعتباره مقصد من مقاصد التشريع الإلهي.

وكما هو معروف أن كل صلح أو مصالحة قد تعترضها معوقات وتحديات تحتاج إلى أدوات ووسائل لتحقيقها وإنجاحها ولو مرحلياً، ويعد الخطاب الإعلامي من أكثر أنواع الخطاب تأثيراً في تقريب المصالحة وتحقيقها، ومن أهم الوسائل ولأدوات التي يحتاجها الخطاب الإعلامي — في تقدير الباحث — هو وسيلة الإقناع بما أتيح له من فضاء لممارسة اللغة والحديث لإقناع المتخاصمين والتأثير فيهم لقبول المصالحة، وجعلها من أولويات المجتمع.

فمن هنا جاءت إشكالية هذا البحث المتمثلة في التساؤلات التالية :

ما هي التقنيات والأدوات الإقناعية التي يمكن أن يوظفها الخطاب الإعلامي للتقليل من معوقات المصالحة بين المتخاصمين؟ وما هي أهم تلك التقنيات؟

ويعود السبب الأهم في اختيار هذا الموضوع هو قناعة الباحث بأهمية الدور الإقناعي بين الخصوم في إنجاح المصالحة الوطنية في ليبيا، ويضاف إلى ذلك الإفادة من المنهج الإقناعي بالحجج والبراهين في نجاح المصالحة عبر السياق التاريخي لحلحلة الخلافات لدى الرسل والأنبياء وكذلك تجارب كثير من المصالحين في التاريخ الحديث.

ويهدف البحث إلى الإسهام في التقليل من بعض المعوقات التي تحول دون تحقق المصالحة وذلك من خلال دور الإقناع وأثاره في الصلح والإصلاح.

سيتم اعتماد المنهج الوصفي في تتبع جزئيات هذا البحث مع الاستعانة بالمنهج التاريخي متى دعت الحاجة إلى ذلك، ورسمت خطة البحث في مقدمة تضمنت إشكالية البحث وأسباب اختياره وأهم أهدافه والمنهج المتبع فيه، وحوى المطلب الأول: مفهوم الإقناع في اللغة والاصطلاح، وخصص المطلب الثاني لبيان علاقة الإقناع بالخطاب الإعلامي، وأما المطلب الثالث فكان لعرض على أهم تقنيات الإقناع وأثارها على المصالحة، وأخيراً الخاتمة اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول/ مفهوم الإقناع في اللغة والاصطلاح.

المدلول اللغوي للفظ الإقناع:

تعددت دلالات الجذر اللغوي (قَنَعَ) في معاجم اللغة ومنها دلالة الرضا والقبول والتسليم؛ وقنع بالشيء واقنع وتقنع أي: رضي وقبل (الزخشري، 2000، ص525)، وأقنع إقناع زيدت الهمزة للإفادة والمشاركة في الفعل من الفاعل والمفعول كقولك: أقنع الوالد ابنه بقيمة العلم، وأقنعتك بالجواب؛ جعلتك تقبل به وترضى، والقناعة الرضا والتسليم بالقسم، وتقولك: جواب مُقنع ، ورجل قنوع (ابن منظور، 2000، ص360).

وفي هذا المعنى يقول لبيد:

فَنَهُمُ سَعِيدٌ أَخَذُ بِنَصِيْبِهِ وَمَنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيْشَةِ قَانِعٌ. (لبيد، 1988، ص55)

ومن هنا يمكن القول: إن المدلول اللغوي للفظ الإقناع يتضمن معنى التأثير بالقول، ويتضمن أيضاً مفهوم الخطاب الذي يقتضي وجود مخاطب ومخاطب ورسالة تجري بينهما في سياق محدد (موضوع الخطاب) لغرض التأثير وتعديل السلوك في متلقي الخطاب.

المدلول الاصطلاحي لمفهوم الإقناع وعلاقته بالخطاب الإعلامي

يركز المهتمون بدراسة الخطاب وتحليله على أهمية استراتيجية الإقناع في كل خطاب، وهي تمثل في رأيهم أهم عنصر من عناصر الخطاب ويعود السبب في ذلك إلى كونها تركز على هدف الخطاب وما ينتج عنه من تأثير في متلقي الخطاب (الشهري، 2002، ص444).

ويقصد بالإقناع هو: "إحداث تغيير في الموقف الفكري والعاطفي" (الشهري، 2002، ص444) ويركز البلاغيون العرب على مفهوم الإقناع، ونظراً لأهميته القصوى في نجاح الخطاب وأولاه البلاغيون العرب قدراً من الدرس والبحث وجعلوه قاعدةً أساسيةً في الكلام البليغ الفصيح؛ فالخطيب – مثلاً – يعد خطبته ويكتبها بهدف إقناع من يخاطبهم والتأثير فيهم (عتيق، د - ت ، 17) ، ومع تطور البحث في بلاغة الكلام صار الإقناع له حضور فاعل في نظريات تحليل الخطاب عند علماء البلاغة في الدرس الغربي، وتحول إلى هدف وغاية لدراسة أنواع الخطاب ومنها الخطاب الإعلامي في مختلف صورته المرئي والمكتوب والمسموع.

كيف يوظف الإقناع في الخطاب الإعلامي؟

يعد الخطاب الإعلامي من أكثر الخطابات التي تعتمد على الإقناع؛ أو بمعنى آخر إن الإعلام بوصفه خطاباً يتوجه به إلى متلقٍ يحتاج إلى أن يكون ذلك الخطاب مُقنعاً مؤدياً لرسالة التأثير، والتعديل من

السلوك، والاقناع بما يروم تحقيقه من أهداف، ولا يقتصر ذلك على نوع محدد من الخطاب الإعلامي فهو يدخل في الإعلام المكتوب والمقروء وفي الصحافة والكتب، وكذلك في الإعلام المرئي والمسموع. وكما هو معروف أن للإعلام المرئي المتمثل في القنوات الفضائية ذات الانتشار الواسع هو الأكثر ممارسة للإقناع والتأثير؛ بما له من خصائص ومميزات لتلك القنوات فاقت بها غيرها من وسائل الخطاب الإعلامي الأخرى.

ويكتسب الخطاب الإعلامي أهميته من القيمة التأثيرية في الجمهور والمتابعين بخلاف مستوياتهم وتبيان أحوالهم الثقافية والفكرية والاجتماعية؛ فهو إذاً مصدراً مهماً للتوجيه والتثقيف والإصلاح والمصالحة بل بإمكانه تشكيل ملامح المجتمعات سلماً وإيجاباً، وهو أيضاً الأقدر على توظيف ما يتاح له من إمكانات تخاطبية لإقناع المتابعين (كنعان، 2014، ص 12).

ويرتبط الإقناع بالحالة الاجتماعية أو السياق الاجتماعي أثناء توجيه الخطاب، وغالباً ما يتحقق الإقناع بغرض المتكلم وقصده من وراء خطابه؛ ويعني ذلك أن من يتصدى للإصلاح أن يجعل لكلامه غاية وهدف محددين؛ حتى يصل إلى تحقيق ذلك الهدف وهو إقناع طرفي الإصلاح بأقواله وكلامه؛ وبالتالي نضمن تحقق الهدف واستمرار النتائج وثباتها (عبدالحمن، 2000، ص 127). كما أنه مما يجب وضعه في الاعتبار أن الإقناع يتأسس على لغة مُقنعة بألفاظها ومعانيها وأساليبها، ويضاف لذلك مدى قدرة المصلح على توظيف الاستدلالات والمجج بعيداً عن الإكراه والتسلط والتخويف، وهنا يكون للكفاءة اللغوية والكفاءة التخاطبية في الخطاب الإعلامي دورهما الفاعل في الوصول إلى درجة من الإقناع يكون لها مكاناً مقبولاً في طرفي التنازع (الشهري، 2000، ص 446). ومما يؤكد الارتباط القوي بين الإقناع والخطاب الإصلاحي ما يمكن الوقوف عليه من الشواهد والأمثلة في السياق التاريخي في حياة المجتمعات من لدن آدم Σ حتى وقتنا الحاضر؛ فكم هي المواقف الاجتماعية التي احتاجت إلى الإصلاح اعتماداً على أسلوب الإقناع وما يرتبط به من آليات لغوية وأسلوبية حجاجية، من ذلك مثلاً:

1. فدعوات الأنبياء جاء في صورة خطابات إصلاحية اعتمدت على استراتيجية الإقناع لقبول الدعوة إلى الدين والدخول فيه.
2. المواقف والقصص التي تنارت في كتب السيرة النبوية مع رسالة الإسلام في إقناع الأعراب ومشركي مكة والناس كافة بأهمية الدين الإسلامي، وكانت تلك المواقف الإصلاحية في السلم والحرب.
3. ما تركه الأدب العربي من حكايات ومناظرات في المجتمع الجاهلي، وما كان يدور بين القبائل في تلك الفترة من محادثات قائمة على الإقناع (المهشمي، د - ت، ص 227).

4. منهج العلماء في العلوم المختلفة في الطب والرياضيات وعلوم اللغة والدين والمنطق وما نتج عنها من نظريات وقوانين احتاجت إلى براهين بغية إقناع المتلقين بها وقبولها.
5. ما يفعله المصلحون والمعلمون والمربون في إقناع من يُعلّمونهم ويصلحون بينهم.
6. تمثل وسائل الداعية والإعلان قديماً وحديثاً في حقل التجارة والاقتصاد من أهم الميادين التي نبتت على الإقناع لترويج السلع وبيعها، ويضاف إلى ذلك ممارسات الدعاية الانتخابية في مجال السياسة على مستوى عالمي.

والحاصل... إن الإقناع يعد مطلباً مهماً وهدفاً ملحاً في الخطاب الإصلاحي الاجتماعي بمختلف تنوعاته؛ لما له من قيمة كبيرة في نجاح الإصلاح وتحقيق نتائجه وثمراته الطيبة الثابتة المستمرة بين المختلفين والمتخاصمين على مختلف المستويات بدءاً من الإصلاح بين زوجين متخاصمين أو بين أسرتين أو بين قبيلتين أو حتى بين بلدين، فضلاً عن حاجة المجتمعات إليه على الصعيد الاقتصادي والسياسي، والسير في طريق الإقناع عند الإصلاح أنفع وأكثر فائدة من غيره من الوسائل الأخرى كالإجبار والتسلط والإكراه وغيرها.

المطلب الثالث / أهم تقنيات الإقناع في الخطاب الإعلامي

يعد الإقناع في جوهره ممارسة للخطاب بين المتكلم والسامع بين المخاطب والمخاطب، ويعني ذلك أن كل خطاب لا ينتهي إلا بهدف وهو إقناع متلقي الخطاب بناتج الخطاب بما يقدمه المخاطب من حجج وبراهين وأدلة كافية لتحقيق ذلك الهدف، ومن هنا يمكن القول: إن الإقناع يحتاج إلى آليات وأدوات وهي ما اصطلح عليه في هذا البحث بتقنيات الإقناع ونكتفي هنا بذكر أهمها:

أولاً- لغة الخطاب

تمثل لغة الخطاب عنصراً مهماً يمكن الاستفادة منه تقنية وآلية في الإقناع، والمقصود هنا أن يحسن المخاطب (رجل الإعلام) اختيار الألفاظ والكلمات المناسبة والمعبرة والمؤثرة في المخاطب بعيداً عن التعمية والتلغيز، بل يقتضي الأمر اعتماد لغة الوضوح والشفافية، فكم من كلمات أسيء توظيفها في سياقها أثارت حفيظة أحد الخصوم وأشعلت نار الغل والحقد في النفس؛ فيتحول الخطاب بمقتضى ذلك إلى خطاب معاندة وتحدي وشد وجذب، وفي مقابل ذلك كم أصلحت كلمات وتراكيب حال مخاطب شديد الخصام إلى صديق يستشعر مفهوم الحميمة في نفسه وقلبه، نعم... إنها اللغة بما تطوي عليه من ألفاظ وتراكيب تُسهم إسهاماً كبيراً في الإقناع بين الخصوم، لقد كانت اللغة آلية وأسلوب من أساليب الإقناع وإقامة الحجّة في الدعوة إلى قبول الرسالة المحمدية متمثلة في اللساني العربي الذي نزل به

القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾. (الشعراء 192 — 194).

فاللغة بوصفها تقنية من تقنيات الإقناع تفرض على رجل الإعلام أو من يمارس الخطاب الإعلام أن يضع في حسابه حال مخاطبه، وأن يستحضر في نفسه عدد من الأسئلة منها: من يخاطب؟ وكيف يخاطب؟ ومتى يخاطب؟

فكيف يخاطب يعني كيف يستطيع توظيف لغته وأسلوبه في الإقناع. فينبغي أن يكون المخاطب ذا كفاءة لغوية تساعد على أن يقنع من يستمع له أو يقرأ له أو حتى من يشاهده أن يكون مقنعا ومؤثرا (الغزاوي، 2006، ص24).

ومع ذلك فليست اللغة كافية للإقناع في الخطاب الإعلامي بل تظل الحاجة إلى ممارسة البعد التخاطبي للتأثير في المتلقي وإحداث التغيير في سلوكه للاقتناع بجدوى الخطاب الإعلامي في المسألة المطروحة. لذلك فهو بحاجة إلى وسائل وتقنيات أخرى منها المحاجة والحوار مثلا .

ثانياً – المحاجة

وتحدث هنا عن علاقة الحجج بالإقناع حيث إن الإقناع يحتاج إلى استحضار ما لدى صاحب الرسالة التخاطبية من أدوات وحجج يكون لها من الحجج القوية الناجمة المحققة للقصدي، فهي التي تسهم في تقريب مفهوم الإقناع وتقويه وتدعمه وتجعل المتخصصين أقرب إلى قبول النتائج والرضا والتسليم بها، ثم المبادرة والمسارعة للصلح (كامل، د - ت ، ص16).

وتبدو أهمية الحجج في الإقناع في كون الحجج يؤسس على " وجود اختلاف بين مرسل الرسالة اللغوية والمتلقي لها، ومحاولة الأول إقناع الثاني بوجهة نظره بتقديم الحجج والدليل على ذلك" (عيسى، 2006، ص37).

فعلى الخطاب الإعلامي أن يعتمد الحجج في الإقناع، ولتحقيق ذلك عليه النظر في طبيعة العقول والأفكار بين المتخصصين وعليه أيضا اختيار أفضل الطرق وأنجع السبل التي تعينه على توظيف المحاجة ضمن تقنياته الإقناعية وخصوصا حين يتعلق الأمر بالمصالحة والإصلاح.

ثالثاً — الحوار

من التقنيات المهمة التي تقود الخصوص إلى الإقناع والتسليم بالنتائج هي تقنية الحوار، فغالبا ما يعتمد الخطاب الإعلامي مبدأ الحوار بين طرفي الخطاب وخصوصا عندما تكون غاية الخطاب هو تقريب وجهات النظر والوصول إلى إقناع أحد الطرفين بوجهة نظر الآخر فيعتمد في ذلك الحوار بين الطرفين، ولكي الحوار مثمرا ومقنعا فإنه يقتضي طرح الأفكار بحرية تامة، يتمتع فيه المتحاورون بشخصياتهم

الفكرية المستقلة، تبادل فيه الأفكار باطمئنان وراحة بال ورحابة صدر بعيدا عن الغضب والشحناء (العمرى وآخرون، 2006، ص172).

وتأتى قيمة الحوار وثقافته بكونه بديلا إنسانيا عن كل ما يمارس من مظاهر الخلاف التي قد تنبني على الإكراه والعنف والتطرف؛ لذلك يقتضي الإقناع وجد علاقة كبيرة ومتينة بين الحوار والإقناع؛ لأن الحوار يعد بديلا مثاليا إنسانيا بين المختلفين، وهو من جهة أخرى يمثل أرقى التقنيات التخاطبية يتسم بالبعد الحضاري ويتغلغل في عمق التاريخ في مختلف الأزمنة والعصور (العزاوي، 2002، ص50).

لقد أكدت الأزمات والمواقف الخلافية مدى الحاجة للحوار والمعتمد على تبادل الآراء والتوسط في طرح القضايا، وما من شك في التحوار والتواصل والتفاعل المثمر سيقود بطبيعة الحال إلى تغيير الأفكار وتلين العقول لقبول النتائج والتسليم بها بسبب ذلك الحوار العقلاني المبني على قوة الإرادة في الاقتناع بما هو نافع ومرض للمجتمع (حرب، 2003، ص6).

رابعاً — المهارة والمهنية الإعلامية

من التقنيات المهمة والوسائل المفيدة التي تعين على تحقق الإقناع في الخطاب الإعلامي هي الممارسة المهنية والمهارة العالية في طريقة وأسلوب طرح المواضيع ومعالجتها، ومنها مثلا موضع المصالحة الوطنية في ليبيا، فيحتاج الخطاب الإعلامي إلى مهارة إعلامية تستند على جملة من المعايير المهنية الدقيقة المضبوطة بحيث تفرض على رجل الإعلام والمؤسسة الإعلامية إتباع منهج محدد يقوم على مبدأ أخلاقي عام يضاف إلى الأخلاق الشخصية لرجل الإعلام، وذلك ما ينسجم مع جوهر رؤية المؤسسة الإعلامية ورسالتها خاصة حين تُحدد تلك الرؤية والرسالة في التعامل مع الأحداث التي تدور في المجتمع.

وتعتمد المهارة المهنية في الخطاب الإعلامي على معايير منها:

1. الموضوعية: فهي والحال كذلك من المعايير المهمة التي تدعم إنجاح القضايا الإعلامية وخصوصا منها التي تقوم على الاختلاف بين طرفي الخصام، والموضوعية هنا هي ذلك السلوك الإعلامي الذي يظهر في صورة أعمال يعكسها رجل الإعلام في نتيجة كل عمل فني أو برنامج إذاعي أو مقال مكتوب أو حتى في نشرات الأخبار؛ ففي كل ذلك عليه أن يكون موضوعيا بعيدا عن التحريف والتزييف والتحيز الفكري .
2. الحيادية/ ونقصد بها التوازن والاعتدال والتجرد في الطرح اتجاه الموضوع المراد معالجته؛ لأن ذلك مما يقنع المتلقي ويؤثر فيه، ويندرج تحت الحيادية تبني الأفكار واحترام وجهات النظر والآراء؛ فالإعلامي الماهر يحمل على عاتقه مسؤولية الإعداد والتوجيه لكل المعلومات والمفاهيم التي يوجهها للمتلقي ويضع في حسابه اتجاهاتهم وميولهم ويحسن التعامل معهم في الموقف المعين بكل توازن وحياد (خليل، 1997،

ص 20 .

3. الدقة والتشويق / لأن ذلك من العوامل المهمة والأدوات الناجحة في إقناع المتلقي، تعني الدقة هنا؛ الدقة في اختيار موضوع القضية المراد التحدث فيها والعناية بما يقال لفظاً وأسلوباً، بحيث يبني الخطاب على الوضوح والشفافية بعيداً عن الغموض والتعمية؛ لأن دقة الموضوع سبب من أسباب الاقتناع به وبما يقال فيه ثم بعد ذلك القبول بنتائجه.

4. التثقيف والتوعية / حيث تقوم المؤسسة الإعلامية بتزويد الأفراد والجماعات داخل المجتمع بما يحتاجونه من التعريف بأهمية المصالحة الوطنية وأبعادها الدينية والاجتماعية والاقتصادية عن طريق الدعاية والإعلان والملصقات؛ لما لها من أثر كبير في الإقناع فينجم عن ذلك إسعاد الفرد وإحداث التنمية في المجتمع، ويضاف لذلك أيضاً القيم النفسية والاقتصادية والأمنية لمشروع المصالحة (خليل، 1997، ص33)؛ فالخطاب الإعلامي قد يكون مؤثراً ومقنعاً في إنجاح المصالحة الوطنية في المجتمع بتفعيل دوره في الدعاية والإعلان والتثقيف، ويدخل تحت تقنية التثقيف في الخطاب الإعلامي البعد عن ثقافة التآجيج وإثارة الفتن بين الأطراف المتنازعة؛ بل يستوجب الأمر تبني خطاباً إعلامياً توعوياً معتدلاً هادفاً مثمراً غايته دعم الشعور بالولاء للوطن الواحد، وإرادة الإصلاح والتأليف بين المتخاصمين، ونشر ثقافة التسامح والعتف والقبول والتسليم بنتائج المصالحة.

والحاصل أن الخطاب الإعلامي كي يكون مؤثراً ومقنعاً يلزمه اعتماد جملة من المعايير المهنية التي يقتضي توظيفها في معالجة قضايا المجتمع وخصوصاً منها التي تحتاج إلى جهد إعلامي كبير مثل قضية المصالحة الوطنية في المجتمعات عموماً والمجتمع الليبي خصوصاً؛ لأن الخطاب الإعلامي وما يتصف به من تنوع واختلاف من أكثر الوسائل التي لها تأثير في تقريب المصالحة بين الخصوم في المجتمع متى اعتمد على آليات وتقنيات مهنية عالية يكون لها دور فاعل في المصالحة الوطنية.

الخاتمة

تتضمن الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث ثم بعد ذلك تسجيل أهم التوصيات.

أولاً- أهم النتائج.

1. تبين من البحث أن الإقناع مفهوم قار في تحليل الخطاب وهو ثمرة من ثمرات الخطاب الإعلامي وغيره من أنواع الخطابات الأخرى.
2. الإقناع في الخطاب الإعلام يعني إقناع المتلقي بنتائج الخطاب بالرضا والقبول.
3. الخطاب الإعلامي يجب أن يوظف توظيفاً جيداً في المصالحة الوطنية لما له من تأثير كبير في تقريب وجهات النظر بين المختلفين.

4. لكي يكون الخطاب الإعلامي مؤثراً مقنعاً في المصالحة الوطنية يجب أن يعتمد آليات وتقنيات تستند إلى معايير مهنية إعلامية حضارية راقية من أهمها: الحجّة والبرهان، والموضوعية، والحيادية، والدقة، والتثقيف والتوعية، والحوارية المتزنة.

أهم التوصيات:

1. يوصي الباحث بضرورة تبني خطاب إعلامي معتدل ومتزن يقوم على معايير مهنية حضارية يضع في أولوياته خطة إعلامية تهدف إلى تحقيق المصالحة الوطنية.
2. على الخطاب الإعلامي المحلي والدولي والعالمي أن يعتمد تقنيات إقناعية تؤثر في المتخصصين وتنعّمهم بأهمية المصالحة بعيداً عن التآجيج وإثارة الفتن.

الهوامش

1. أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ط2، 2000، ص525.
2. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م، ج12، ص202، وكذلك مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، اعتنى به، أيمن عبد الرزاق، مكتبة ليبيا الجديدة، طرابلس، ط1، 2010، ص376.
3. ينظر: ديوان لبّيد، جمع/ محمد حسن، دار نهضة مصر، ط1، 1988م ص55.
4. ينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2002م ص444.
5. المصدر نفسه، ص444.
6. ينظر: عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، (د-ت)، ص17.
7. ينظر: علي عبد الفتاح كنعان، الإعلام والمجتمع، دار الباروني العلمية، عمان - الأردن، ط1، 2014م، ص12.
8. ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م، ص127.
9. عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص446.
10. ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في صناعة إنشاء العرب، دارف المحدودة، لندن، ط1، (د-ت)، ص227 -
11. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص24.
12. ينظر: فتحي كامل، الحجاج البلاغي في القرآن الكريم، ص16.

13. - ينظر : عبد الحليم عيسى، البيان المحججي في القرآن الكريم، سورة النمل أتمودجا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد102، السنة 2006، ص 37 .
14. ينظر: أحمد العمري وآخرون، الحوار ودوره في الدعوة التربية والثقافة، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن، ط1، 2006، ص 172.
15. ينظر : البلاغة والإقناع، ص 16 .
16. ينظر: علي حرب، العالم ومأزقه منطق الصدام ولغة التداول، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص 6 .
17. خيرى خليل، الاتصال ووسائله في المجتمع الحديث، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 1997، ص 20.
18. خيرى خليل، الاتصال ووسائله في المجتمع الحديث، ص 33

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، اعتنى به، أيمن عبد الرزاق، مكتبة ليبيا الجديدة ، طرابلس، ط1، 2010.
2. أبو بكر العزاوي، اللغة والمحاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م.
3. أحمد العمري وآخرون، الحوار ودوره في الدعوة والتربية والثقافة، دار الكتاب الثقافي، إربد-الأردن، ط1، 2006م.
4. أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في صناعة إنشاء العرب، دارف المحدودة، لندن، ط1، (د - ت) -
5. خيرى خليل، الاتصال ووسائله في المجتمع الحديث، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 1997.
6. الزمخشري جار الله، أساس البلاغة ، دار الفكر، بيروت، ط2، 2000.
7. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقل، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، ط2، 2000م.
8. عبد الحليم عيسى، البيان المحججي في القرآن الكريم، سورة النمل أتمودجا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد102، السنة السادسة والعشرون، 2006.
9. عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، (د - ت).
10. عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2002م.

11. علي عبد الفتاح كنعان، الإعلام والمجتمع، دار الباروني العلمية، عمان - الأردن ، ط 1 ، 2014م.
12. فتحي كامل، الحجاج البلاغي في القرآن الكريم، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 2001م
13. علي حرب، العالم ومأزقه منطق الصدام ولغة التداول، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2003.
14. محمد حسن، ديوانه، دار نهضة مصر، ط 1، 1988م .
15. ابن منظور، لسان العرب، ، دار صادر ، بيروت، ط 1 ، ج 12، 2000م.

بوموكاي وما حولها : دراسة في بعض الكتابات المحلية.

Boumougai and its environs: a study of some local writings.

د. النعمة بوشامة

باحث في تخصص علم الاجتماع

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

ملخص:

يحاول مقالنا هذا تقديم مقارنة علمية حول أبرز تجليات منطقة بوموكاي الواقعة في مجال الجنوب المغربي وبالضبط بمنطقة زيني التي تبعد بحوالي 40 كيلومتر بأقصى الشرق الجنوبي لإقليم الطنطان، حيث عرفت هذه المنطقة راهنا تحولاً فاصلاً نظراً لما فرضته عليها شروط التمدن وخروج أهلها للاستقرار في الحواضر المدنية المجاورة، فصرنا -بالمحصلة- أمام منطقة شبه فارغة بعدما كانت حاضرة زمانها، الأمر الذي حفزنا إلى البحث العلمي الدقيق حول بعض ما كانت تعيش على وقعه هذه المنطقة، مسلطين الضوء على بعض الوثائق القيمة التي تحصلنا عليها بمجال الدراسة، وذلك سعياً منا لمواصلة خدمة البحث العلمي والأكاديمي حول هذا المجال وأحواله.

الكلمات المفتاحية: القبيلة، التوطين، منطقة زيني.

summary:

Our article attempts to present a scientific approach to the most prominent manifestations of the BOUMOUGAY region, located in southern Morocco, specifically in the Zini region, which is about 40 kilometers away in the far south-east of the Tan-Tan province. This region has currently undergone a decisive transformation due to what was imposed on it by the conditions of urbanization and the departure of its people to settle in the neighboring urban cities. As a result, we were faced with an almost empty area after it was present at the time, which prompted us to conduct precise scientific research on some of the things that affected this area, highlighting some of the valuable documents that we obtained in the field of study, in an effort to continue the service of scientific research. And the academic about this field and its aspects.

key words:• Tribe, settlement, Zeni region.

مقدمة:

عرف المجال الممتد جنوب وادي درعة السفلى خاصة بمنطقة زيني الواقعة جنوب شرق مدينة الطنطان استقرار مجموعة من المجموعات القبلية الصحراوية التي امتنت العديد من المناشط الاقتصادية (الرعي، حرق وزراعة الأراضي/المعادر، امتنان الحراة، التجارة، الحرف التقليدية، اختصاص أهل الحل والعقد، التطيب الشعبي، الأدب ..)، حيث أفضى تمسكها بهذا المجال القاهر والمتسم بندرة الموارد الطبيعية انعكاسا مباشرا على بنيتها الاجتماعية والثقافية، هذه البنيات التي ستتحول مع عامل توطين هذه المجموعات الرحالة ودخولها حياة التمدن والاستقرار الى حالة جديدة أثرت عميقا في البنيات التقليدية الأولى التي عاشت على وقعها لقرون خلت والموسومة بقيم التضامن المشتركة. وتأتي هذه الورقة لتقديم مقاربة علمية أولية من وجهة سوسيولوجية لا نزع شموليتها وإنما حاولنا الاعتماد بالأساس على استقراء بعض الوثائق التاريخية على شكل بعض المخطوطات التي بحوزتنا تمكنا من الحصول عليها وإعادة تحقيقها، وهي معطيات تقدم بعض أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية لدى أهالي هذه المنطقة، بالإضافة الى الراهن بهذا المجال وما يعرفه من توفر شروط الاستقرار على موسميته بمختلف الدواير التاريخية بهذا المجال، فما هي أبرز المعالم والجزئيات المؤرخة لمنطقة بوموكاي وأحوالها؟

في البدء: تحديدات مفاهيمية:

التوطين: يعد التوطين عملية موجهة وفق تخطيط مسبق يسعى للاندماج الاجتماعي، يروم خلق تنمية اجتماعية واقتصادية وسياسية متكاملة، وتسعى هذه المخططات التوطينية الى استقرار الانسان البدوي، مما يؤدي الى خلق تغيير على مستوى البنيات الحضارية والثقافية ورفع المستوى الاجتماعي، وبذلك يتم ادماج المجموعات البدوية ذات النمط الترحالي والرعوي في البنيات القانونية والسياسية والاقتصادية الجديدة للمجتمع الحديث، فيضحون مواطنين لهم حقوق وواجبات وجزء من أساسيات التنمية البشرية المعول عليها في النهوض بالمجتمعات الخارجة من نمط عيش الظعن والترحال.

القبيلة: "وفق النظرة الإرتقائية- التطورية للمجتمعات البشرية التي تدشنها بشكل واضح في تاريخ الأنثروبولوجيا أعمال لويس هنري مورغان، فإن النظام القبلي يعود إلى طور خاص من التطور هو طور البربرية التي تقع بين القوم المميز لطور الوحشية وبين الدولة التي يعتبر ظهورها معاصرا لطور الحضارة" (عبد الودود ولد الشيخ، القبيلة والدولة في أفريقيا، ترجمة: محمد بابا ولد أشفع، الدار العربية للعلوم ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات، ط1، 2013 ص. 15)، ويطلعنا حقل الأنثروبولوجيا الثقافية أن القبيلة هي وحدة اجتماعية تجمع عدة معاشر أو عشائر أو مجتمعات محلية أخرى، وتنتشر في المجتمعات

شبه البدائية بصورة شبه شاملة، وتتميز القبيلة بمكان محدد وبلغة واحدة وبحضارة واحدة.. ويشغل أفراد المجتمعات المحلية التي تتكون منها القبيلة أرضا مشتركة ويتكلمون لغة واحدة ويطبّقون أنماط ثقافية مشتركة، ويترتب عن ذلك سهولة التفاعل الاجتماعي بين أعضاء القبيلة الواحدة لاشتراكهم في المكان واللغة والحضارة.

منطقة زيني : تقع في أقصى جنوب شرق إقليم الطنطان جنوب المملكة المغربية على بعد حوالي أربعين كيلومترا وتضم مناطق (بوموكاي، تافراوت، تانولمي، تلهزون، لمسيد..)، ف "الى الشمال من جبل زيني حيث توجد الكثير من ينابيع المياه، كما توجد بها أماكن تخزين المنتوجات الفلاحية المحلية" (Manuel Mulero Clemente. Los territorios españoles del Sahara y sus grupos nomadas. El Siglo. Las Palmas de Gran Canaria. 1945. P.34)، ومن حدود جبل زيني تنتمي المنطقة للصحراء الأطلسية، والتي تمتد من وادي درعة شمالا إلى لكويرة جنوبا، والحدود الجزائرية شرقا، والمحيط الأطلسي غربا. وكانت منطقة زيني تحت الاحتلال الإسباني من سنة 1884م حتى خروج آخر جندي إسباني منها سنة 1976م، أي أنها منطقة كسائر الجنوب المغربي خضعت للاستعمار قرابة قرن من الزمن، كانت تقطنها مجموعة من القبائل وهي قبائل أيتوسى الرقيبات يكوت وأيت لحسن وأولاد أبي السباع.. إلخ.

1. بوموكاي: المجال والإنسان:

الرقعة الجغرافية التي ستشملها دراستنا هذه هو مجال بوموكاي وأريافه، الواقع بين منطقتي درعة السفلى وإقليم الطنطان، حيث تحده شمالا سلسلة جبال الواركريز وشرقا منحدرات حمادة درعة، وغربا إقليم الطنطان وجنوبا أرياف (تافراوت، اغوينم، غانم، اخنيك اعلي..)، وتتموقع منطقة بوموكاي ضمن مجال زيني والذي تتخلله مجموعة من الجبال التي تدخل ضمن سلسلة جبال زيني المرتفع نسبيا بارتفاع يصل الى حوالي 250 متر عن سطح البحر، حيث تحيط به هذه الجبال من جميع الجهات وتتخللها بعض الوديان الجافة والموسمية الجريان، والتي تصب أثناء جريانها في وادي درعة السفلى، كما تتفصل منطقة زيني هذه عن منطقة "أيدار" وهي أراضي أقل ارتفاعا من أبرزها: سبخة لمحاكن ولمسيد، كما تمتد شرق سلسلة جبال زيني سلسلة جبال الواركريز التي تعد مدخلا باتجاه منطقة لحمادة الكبرى، هذه الجبال التي يتموقع على حافتها الغربية قدم لحمادة ومجال "رق لبياض" التي تتخلله أودية "اكينفيدة وأكساء".

ترجع أصول تسمية "بوموكاي" بحسب ما تداولته بالاجماع الرواية الشفهية المتعددة الى جذور تاريخية تعود الى الحقبة الصنهاجية ما قبل الهجاء العربي المعقلي، اذ تعتبر هذه القبائل الى جانب قبائل زناتة ومصمودة ينحدرون من "بربر الصحراء" وهي المجموعات البربرية الصنهاجية من بقايا المرابطين، وهم

من عرق يميل الى السواد كان يستوطن المنطقة المقابلة لجزر الخالدات والتي كانت قديما عبارة عن سهوب خضراء تتوفر فيها المياه بشكل كثيف مما سهل الحياة وسهل وجود تجمعات بشرية، حيث نجد أن جميع هذه المناطق المحيطة بهذه المنطقة تحمل أسماء ذات مرجعية صنهاجية (وادي بولغمام، بوعلاكة، تافراوت، تانولمي، تابولعجيت، تارماست، تيفلفال، تيغيسيت، أمزكدي، تالليت..)، وتأتي ترجمة اصطلاح بوموكاي الى ما معناه "مربي الأبقار" حيث يقال بأنها منطقة كانت معروفة بتربية الأبقار قبل ما يسمى بالتغريبة العربية المعقلية و الذي استعاضت عن ذلك بعد هذا الحضور الاثني العربي الجديد بقطعان الابل، وهناك من يرجعها الى ذلك الرجل الخبير في صنع "الحبال" التي تجلب موادها من أشجار النخيل (أو شجر لكطف) أو جلود المواشي، حيث توظف هذه الحبال في مختلف المناشط الاقتصادية المحلية (ربط المواشي والابل، جلب الماء من الآبار، ربط الخيام..)، كما شكلت منطقة بوموكاي تاريخيا محط جذب الرحل خلال مرحلة الترحال نظرا لموقعها الزراعي الهام المتمم بوفرة آبار المياه العذبة، واللافت للنظر هو حجم استصلاح الأرض من خلال غرس حقول الصبار الشاسعة، وكذا تحصن الأهالي من الغارات الخارجية حيث كان أغلب الأهالي يعيشون على سفوح جبال بوموكاي لتحقيق المراقبة المستمرة من أي هجوم خارجي مفاجئ، حيث مكن موقعها الاستراتيجي الحماية من أي غزوات قبلية خارجية نظرا لوعورة تضاريسها الجبلية.

وتتكون ساكنة منطقة بوموكاي من مجموعة من الاثنيات الصحراوية (مقابر الهلالين، أهل اعزى ويهدى، أيتوسى، الركيبات، أولاد أبي السباع، أهل أبا حازم..) تعيش بالقرب منها مجموعة من الوحدات القبلية المجاورة التي تربطها علاقات تاريخية (أيت لحسن، يكو، أزركين..)، وهو ما أكده موليرو بوجود "الرقبيات وأهل الشيخ ماء العينين وأيت أوسى وأيت لحسن ويكو وأزركين ولفويكات وتوبالت وغيرها" (Morales Flores Angel. Razas del Sahara espanol . In africa.) (Madrid. Num. Nov-Dic.1948. p.56) كانت تنتقل في هذا المجال أثناء ترحالها الدائم بحثا عن المراعي لقطعان مواشها وابلها، نظرا لما يزرع به من مؤهلات طبيعية خاصة خلال الفترات المطرية حيث تكثر أصناف الوحيش والطيور بالإضافة الى تواجد آبار الماء (حسيان تانولمي، معراضة، أمزكدي، تيغيسيت، عيون تيفلفال، حسيان تارماست..)، الأمر الذي أفضى الى تنمية هذا المجال من خلال غرس حقول الصبار حيث كانت "توجد جنوب درعة آيت لحسن وأيت أوسى الذين يترحلون ويرعون المواشي ويزرعون أشجار الصبار "أكاري" (los poderosos Ait Ussa)، ينتقلون بقطعانهم من الماشية في المنطقة الاسبانية ويجنون ثمار زراعة العديد من لكرار كما ينتفعون من مغارس الصبار التي يعيشون عليها خلال الصيف.. إننا بصدد قبيلة محاربة جمعت ما بين الحراة وممارسة الزراعة الظرفية

(لكرار، لمعادر) وغراسة الشجر المثمر (أكاري) وهذا قل ما تحقق لقبيلة صحراوية" (محمد دحمان، دراسات حول الصحراء (التراث- الإقتصاد- المجتمع)، آسا وما إليها في الكتابات الاسبانية، 2019، ص. 84)، بالإضافة إلى استغلال أشجار الأركان وثماره وتربية النحل وتوظيف الأعشاب الطبيعية في التداوي الشعبي وتشييد البنايات العتيقة سواء للسكن أو للمراقبة الحربية، وهي معطيات من شأن الاستثمار الحقيقي والفعال فيها أن يعود على أهالي هذه المنطقة بالتنمية المنشودة.

إلا أن عملية توطين هؤلاء الأهالي سواء بفعل توالي سنوات الجفاف وتدايعات حرب الصحراء أدى الى نزوح غالبيتهم للهدن المجاورة (الطنطان، كليميم، العيون، السمارة..)، مما وفر بعض شروط الإقامة لها بهذه الحواضر الناشئة، إلا أنه استقرار كان له الأثر السلبي على حاضرة بوموكاي التي لم تعد فيها الحياة متجددة إلا خلال فترة الصيف من كل سنة، وبالضبط خلال مجيء بعض الأهالي لقضاء فترة العطلة والاجتماع مع ذوي القربى، أو كأقصى تقدير محاولة تجديد الارتباط بالأرض بما تجمله من حمولات ثقافية وتاريخية، إلا أن كل هذا يبقى في حدود الحنين للماضي وما يحمله من تاريخ يضمير ويظهر انطلاقا من المناسبة التي تمليه (موسم المعروف السنوي، انتخابات محلية، مبادرات الإدارة، تجمعات القبيلة..) إلخ، وقد نعزو كل هذه المتغيرات الراهنة الى تأثيرات التمدين حيث تراجعت القيم المشتركة أمام سطوة قيم السوق وضغوط واقع العمل المأجور، ومختلف تفاصيل الحياة المدنية التي تكاد لا تنتهي.

إن ما دفعنا الى محاولة توثيق جوانب من الحياة البدوية لمنطقة بوموكاي هو حصولنا على بعض المخطوطات التاريخية الهامة التي صارت بحوزتنا، وكذا انتمائنا الذاتي أساسا الى هذا المجال الرعوي، بالإضافة الى أن الوقوف عند بعض مميزات هذه المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وقيميا، ومعاينتنا عبر آليات المشاركة اليومية أو الملاحظات المباشرة، كل هذا من شأنه أن يفيد في توثيق هذا التراث الثقافي المحلي في أفق استثماره في مشاريع التنمية المنشودة في بلادنا، فما هي أبرز الملامح الثقافية والاجتماعية التي شهدتها منطقة بوموكاي وأحوالها؟

2. قراءة في بعض المخطوطات التاريخية بمنطقة بوموكاي:

يضم المخطوط الأول الذي بحوزتنا (أنظر في ملحق المقال مقتطف من هذا المخطوط الذي بحوزتنا والذي تحدث عن جوانب من حاضرة بوموكاي) على معطيات جد قيمة حول جوانب من تاريخ منطقة بوموكاي، حيث نجد أن كاتب هذا المخطوط وهو للإشارة أحد قضاة قبيلة أيتوسى المسمى قيد حياته "مولاي عمر بهنين" (تحدث هذا القاضي الذي له مؤلفات عديدة تؤرخ لقبيلة أيت أوسى

الصحراوية أنه كان يقوم بتحفيظ النشئ كتاب الله القرآن الكريم، ومنهم ابنه نور الدين محمد بن مولاي عمر وأنه قرأ كتاب الله وتعلم على يده الحط والجمع والضرب) قد افتتحه بهذه الكلمة المؤثرة: "نعم وإني أطلب من الله ثم منك إذا نظرت ما كتب هنا يكتب في دفتر وتكون نسخة منه عند: لحسن ولد الهادف اليعرابي الجعفري الهاشمي الوعباني الأيتوسي ونسخة منه ثانية تتركها في خزانة مع ما عندي من الكتب..". (مقتطف من المخطوط الأصلي الذي بحوزتنا)، ونستشف من هذه الكلمة حجم أهمية ما سيقدمه لنا هذا الكاتب من معطيات تاريخية حول مجال بوموكاي وما يحيط به من أحواز، مردفا بعد ذلك قائلا: "نعم إن قبيلة أيت أوسى لهم رجال رأينا منهم من أعراش إداومليل الكثير.. الجنة تحت ظل السيوف، عرش أنفليس أهل إبراهيم اعلي أهل بجرينف أهل بل أحامد أهل اسعيد هؤلاء أنصار أبناء موسى بن نصير، الطلبة أبناء سيدي حبوب من ذرية سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، إداومستر أبناء السيد يعقوب بن نصير كلهم أنصار سيدنا يعقوب بن نصير مدفون في مدينة آسا كانت مدينة علم وقراءة القرآن"، وهنا حاول الكاتب بشكل دقيق ومفصل أن يقدم لنا ما يدخل ضمن علم الأنساب الشجرة القرابائية للوحدات الاثنية المكونة لقبيلة أيت أوسى (أنفالس، أيت وعبان، أيت إدر، إيداوتيا، أيت بوجمة، ايمغلاي، باقي اعراش ايداومكيت)، بل بلغ به الأمر أنه عمل حتى على تحديد أصولها وانتسابها، وما كانت تمتهنه تاريخيا من مناشط اقتصادية (التجارة، الزراعة، العلم، الحراية..).

وينتقل بنا نفس الكاتب الى المجال الترابي الذي نحن بصدد دراسته في ورقتنا هذه والذي سماه ب"مرست بومكاي" تشبيها لها بتمركز بشري كان يعرف استقرار ونمط عيش رعوي، على شاكلة إرساء بشري برقعة جغرافية معينة، وهي من الاصطلاحات المحلية التي تعطي للمناطق التي كانت أهلة بالسكان والحركة الرعوية والزراعية في المرحلة الترحالية الطاعنة للمجتمع الصحراوي، مفصلا بدقة ما يحيط بها من أحواز سماها كالتالي: "مرست لحجار، معدر الأركان وأبركان، معدر واد العيون، معدر أكويدير، مرست تتولم، مرست تبولعجت، أرسيس، أم البرد تافراوت، معادر واد درعة من قصر إدلون الى مكب واد لعيون، مكب واد متدين".

كما تحدث هذا الكاتب في جانب من هذا المخطوط كذلك عن جوانب من امتهان اقتصاد الحراية، إذ نجده على سبيل المثال يفصل لنا احدى الوحدات العشائرية المكونة لعرش أيتوعبان التابعة لقبيلة أيتوسى المسماة ب"أعرابات" محمدا أصلها الى عرب "أولاد امبارك" من "أولاد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب"، حيث ذكر أبناءهم كل من "البر بن سر كوح" و "لحسن بن سر كوح" و "عيلال بن سر كوح" .. ومنهم "لحسن ولد الهادف" وأخوانه، معتبرا أن "امبارك وحسن (بتشديد النون)

وأعرابات هم قسمة في مكون أيت وعبان، مبرزاً نشاطهم الحربي تاريخياً بدقة قائلاً: بأنهم كانوا "أهل البنادق ورجال الحرب".

ويضيف في مقام آخر أثناء معرض حديثه عن المجلس التنظيمي الذي يُوَظِر القبيلة وخاصة موسمها السنوي وهو ما يسمى محلياً بـ "مجلس أيد أربعين" (مجلس أيت أربعين: أي حكم الأربعين وهو عبارة عن مجلس يتكون من أعيان القبيلة ووجائها إذ تم العضوية داخله على أساس المعطى القبلي وتكون غالباً رئاسته متداولة بين الأعضاء، كما أن قراراته صادرة بالإجماع بناء على العرف المحلي وعلى ما تمليه العقيدة الإسلامية. ويعمل هذا المجلس على سن القوانين الملزمة للجميع وعلى الدفاع عن المجال الخاص بالقبيلة والدفاع عن المراعي، وحماية أبار المياه، وصيانة الأماكن الصالحة للحرث والإشراف على توزيعها وحدود التماس مع القبائل المجاورة. كما أنه مفوض للتفاوض باسم القبيلة. وتتنوع التأويلات المقدمة لاصطلاح أيت أربعين أو مجلس الأربعين كما يسميه البعض، فهناك من يرجع التسمية إلى عدد الأعضاء حيث أنه كان يتكون من أربعين عضواً، وهناك من يعزو كلمة أربعين كونها مرتبطة بعمر العضو إذ لا تعطى العضوية في المجلس إلا بعد بلوغ سن الأربعين) أو "اجماعة" قائلاً أنه: "وذلك من الجماعة وحين صلحت جماعة أيت أوسى جعلوا نصيب من العشور أظنه الثلث تأكل منه الطلبة في مسجد سيدي يعقوب الأنصار ومنهم الذين يقرؤون العلم في المدرسة وجعلوا عليها اسم الزاوية وقالوا يلزمنا أن تلتقي هنا في السنة مرة واحدة جميع جماعة أهل الحل والربط من القبيلة نتفاهم ما يصلح لقبيلتنا واتفقوا على أن يكون له موسم سوق يعمر يوم تسع وعشر واحدى عشر واثنى عشر في ربيع الثاني تشتري قبيلة أيت أوسى عرشاً منها ناقة وتخرها إكراماً لزيادة سيدنا محمد صل الله عليه وسلم الربيع للجماعة وثلاثة أرباع للزاوية أهل العلم والمسجد قراءة القرآن وكان استمرارهم هكذا من قال غير هذا فقد كذب على قبيلة أيت أوسى..". (مقتطف من مخطوط في حوزتنا حول قبيلة أيت أوسى الصحراوية القاطنة بالجنوب المغربي)، وهنا يحدثنا الكاتب عن أدق تفاصيل تنظيم الشأن الديني والعلمي داخل مؤسسة الزاوية باعتبارها كانت تشكل أبرز مربعات ديمومة الذهنية الاعتقادية لدى المجتمع المحلي، والذي كان يحاول تكريم حملة العلم من فقهاء وطلبة العلم من خلال توفير المسكن والمعيش اليومي مقابل تحصيلهم لمختلف صنوف العلم الشرعي، ويتوج هذا بتخليد ذكرى عيد المولد النبوي باحتفالية تشرف عليها القبيلة من خلال نحر النوق وختم القرآن ونشر ثقافة التقدير والرفق بأبنائه المتعلمين خاصة حملة كتاب الله وعلومه الفقهية.

ووفق هذا السياق المعرفي نجد في نفس هذا المخطوط مواضع أخرى للأدب من خلال توثيقه لنا لبعض من الأبيات الشعرية ناشداً:

"لك ذروة العلوم بين العباد
حرزت كل المعالي والله يوم المعاد
ملكتم السفارة بالعلم والتقنى
ولم تكتم علما خوفا من يوم اللقا
كلامك يشفي كل عليل
نفرنا لنا بك أيها السيد النبيل
الله لك بكل شفاء بين الورى
مؤيد بسرياء وسيد بين القرى
لك بالناصر تجد المعالي والحقوق
تهيا وافرح وانبد العقوق
نصر من الله أيها الفرقد
نفر لك بتلاوتك للكاتب تسعد
أمسكت موطأ أماننا
وقطعت به رقاب كل معايد وخائنا
رب العباد حباك في كل مشهد
وأناك كل نفر وعز على كل معاند".
ويضيف في معرض مدحه للنبي المصطفى محمد صل الله عليه وسلم قائلا:
"سل عن سبط الأفانر الكرام والسنن
يروق حسنا بين الأنام والفظن
علوا وسددا أيها الناصر المؤتمر
دامت سعادة عاملنا الأبر
مذهب الخنا عن البلاد مشتهر
مشى المجد بين يدي الناصر مبتسما
له سبقا في التنظيم والعمائم
حزت كل المفانر بالعلم والتقنى
بشرى لك أيها الناصر يوم اللقا
مشيت سفيرا لشعبة الفخيم

بكل عز وشجاعة ونخر عظيم
دام لك العز والفخر بين الأنام
أيها الناصر لذ بكل شرف واحترام
أعطيت دروسا للمسلمين
ونبهت كل غافل من المحسنين".

وأما الوثيقة الثانية التي اطلعنا عليها فتتعلق بنسخة من عقد تصرف توثق لأحد ساكني حاضرة بوموكاي، حيث وصفت مالكةا بأنه: "يتصرف في ملك يعرف بأغوينم بمزارع بوموكاي، يحده شرقا علي واحماد وغربا أملاك القبيلة يمينا وشمالا الجبل.. يتصرف المالك في ملكه بلا منازع له فيه ولا معترض طول المدة المذكورة ولازال يتصرف فيه الى الآن قالوا ذلك وتقلدوا كل ذلك وعلمهم به المخالطة والمجاورة والاطلاع على غالب الأحوال"، وهذه الوثيقة تبين أن الأهالي بجمال بوموكاي كانوا يعملون على توثيق أملاكهم عند الأشخاص المختصين في العقود معتمدين في ذلك على ما يسمى باللفيف العدلي المشتمل على أزيد من اثنا عشر رجلا مشهود لهم بالشهادة القانونية والشرعية، وكذا ما عملوه من استصلاح للأرض (غرس، حفر الآبار، حرث لمعادرو..) وهي وثائق عرفية محلية تساعدنا اليوم في فهم جوانب من نمط عيش المجموعات الاثنية التي كانت تعيش في منطقة بوموكاي وأحوازها.

وأما الوثيقة الثالثة التي اطلعنا عليها فتتعلق بملكية ما يصطلح عليها محليا ب"الجنان" أي تلك الضيعة الفلاحية التي تكون في ملكية الأهالي، وهو عبارة عن توثيق تاريخي دأب سكان بوموكاي على كتابة أراضيهم وتحديد حدودها، حيث يخبرنا نفس الكاتب موثق هذه الوثيقة "مولاي عمر بهنين" وبموافقة من شيخه القاضي "علي بن ماء العينين العتيق" أنه "وفي اثنين وعشرون من صفر الخير سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وستون هجرية 1367هـ قام اعبيد وأخيه علي وأهم امعييف بنت محمد اسعيد الوعراب قام ببيع جميع الجنان الذي هو لهما إرث من أبيهم محمد بن اعبيد الكائن في أم البرد بمرست بوموكاي بحدوده شرقا فريق الماء وقبلة الشارع الطريق وغربا الطريق الممتد الى جهة "مرزيدان" وجنوبا حسين بن محمد اسعيد، اشتراه بثمن مبلغه خمسمائة ريالا سكة الوقت، وكذلك باع أحمد وأمه امعييف حظ أخواته ام الرجال وامبيريك بوكالتهم لأخيهم أحمد وبذلك وقع البيع القاطع للجنان وأحلوه محلها كحلول ذي مال في مال وعلى السنة والمرجع بحضرة الشيخ الحسن بن القايد وامبارك ولد العالم ومحمد سالم ولد إبراهيم ولد احماد أشياهو ومحمد ولد القايد اعليات.

وأما الوثيقة الرابعة فتتعلق بعقد زواج بحضور والد الزوجة يحمل بعض الشروط التي توافق عليها الزجان قبل عقد القران، كما توضح وثيقة أخرى في نفس الموضوع حكما فقهايا قام القاضي "ماء العينين

بن العتيق" باستصداره حول نازلة تتعلق بإعادة عقد الزواج لسيدة كانت مطلقة من ساكني منطقة بوموكاي، حيث أفتى للزوجين بما جاءت به الشريعة الإسلامية بخصوص تحديد مدة العدة، وأمر بحضور ولي من جهة الزوجة حتى تمت عملية عقد القران من خلال توثيقه رسمياً.

ويحدثنا بشكل مفصل القاضي "بهنين مولاي عمر" في وثيقة خامسة عن أن "أرض بوموكاي لم تكن يوماً ما أرض موات بل كانت أرضاً عامرة والرجوع في ذلك إلى العرف، حيث كانت الأبل تسقى منها دائماً، ويذكر أن إحياء الأرض وملكها يكون على رأي أبي حنيفة وأحمد بن حنبل بتحويلها وأن يتخذ لها دار ويتعهدا بالبناء والغرس وحفر بئر وغير ذلك، ومع قول الشافعي ان كانت للزرع فيلزم اخراج ما بها وان كانت للسكنى فتقطعها بيتا وتسقيها ومن ذلك قول أبي حنيفة .. وما قاله شيخنا الشيخ ماء العينين في كتابه "دليل الرفاق على شمس الاتفاق": وجوز احياء أرض ميتة لمسلم بالاتفاق، ولو ترى موات بأرض الإسلام، وغير ذلك فيه اختلاف الاعلام، انتهى، وعلى هذا تجز خدمة الأمصار المذكورة في وادي درعة في بقعة يسقيها لهم أحد.."، واستطرد القاضي في ذلك مالكي هذه الأرض شخصاً بشخص حتى وصل في نهاية الوثيقة إلى ختمها بعبارة: "وبهذا وقع تملك هؤلاء الأنفار كما طلبوا مني".

وضمن نفس السياق، نصب قائد قبيلة أيت أوسى آنذاك قاضياً له بالنيابة من داخل منطقة بوموكاي وهو الرجل الورع المسمى قيد حياته "بوزيد ولد امبارك ولد البر" الملقب بكنية "بوشامة" حيث كانت أحكامه الفقهية حول مختلف النوازل والقضايا التي تعرض عليه قاطعة بما تمليه الشريعة الإسلامية، وبذلك ترك لنا هو الآخر أرشيفاً كاملاً من الوثائق المحلية النادرة والمهمة (مخطوطات لعائلة القاضي أهل بوزيد بوشامة ولد امبارك ولد البر في حوزتنا)، حول مختلف الأحكام التي حكم فيها بما فيها وثائق تفصل الإرث بين الاخوة والأسر (مخطوطات بحوزتنا حول تقسيم الإرث بين عائلة أهل اعليات ولد مبارك ولد البر بمنطقة بوموكاي من توثيق القاضي بوزيد بوشامة)، وقد كانت رقعة "المصلى" وهي عبارة عن أول مسجد كانت ساكنة بوموكاي تقيم فيه صلاتها مكاناً لاستصدار الأحكام وتدارس المشاكل الداخلية لأهالي بوموكاي وما جاورها من أرياف.

ونقف بشكل مدهش جداً أمام الوثيقة السابعة وهي للإشارة كذلك مخطوط جد هام يتعلق بإعطاء الضوء الأخضر لأحد رجال منطقة بوموكاي لمزاولة مهنة التطبيب الشعبي، لأهالي الصحراء عامة وليس مجرد ساكني منطقة بوموكاي، جاء فيها: "وبعد، فقد اجتمعت على أمر من المسلمين من قبائل شتى أهل الحل والربط والديوان وأمروا أن أكتب لحاملاً أبورقعة بن أبيه المغلاوي الأيتوسي أنه مشتهر الطب فيه مصالح المسلمين معانية مرة بعد مرة إلى ما تبين وأكثر من ذلك لأنه طيب مجرب في كل

عضو من الانسان ولحمه والبهائم، ويصف لنا هنا كيف قام بعلاج رجل يدعى "محمد بن اسعيد الوعباني" قدم اليه يعاني من كسر، حيث قام بتثبيت قصب على موضع الكسر وجعل عليهم لفة من الشعر وتبارى عليها اللحم وصار الكسر كأن لم يكن، كما أنه السيدة المسماة "التالية بنت حمد بن جاع ويسى" وكانت رجلها سقيمة لا تنام معها من شوكة قد شرب العظام منها وشق رجلها ونزع من أصل العظم أربعة أنامل وبرأت عظامها كأنها لم تكن، وبعد ذلك أتاه "امبارك بن الأطرش الحسني" وقد ضربه الرصاص في الركبة وصار في أشد التعب وفرت الأحبة منه وأتاه وشق ركبته وسلخ عن اللعابة يمينا وشمالا وبرم اللعابة حتى نزع ما تحتها من العظام المنكسرة واللحم الميت ورد اللعابة لموضعها ورجع كأنه لم يكن، وبعد ذلك أتاه جلال بن اسعيد السلامي الرقيبي بابنته ارقية سقيمة البصر غم (بضم حرف الغين) على بصرها حتى لا تبصر شيئا وشق جوانب عينيها وأخرج منها الغطا وأبصرت كل شيء كأنها لم يجري عليها العمى، وبعد ذلك نزع أربعة ضلوع من أحمدنانة بن احمد بن اعقيدة الوعباني وبره أحسن البرء، وبعد ذلك أتاه اعلي سالم بن محمد بن عبد الله اليكوتي بزوجته كبولة سقطت عليها اركيزة فضربتها على الرأس وشرم العظم وشق ما عن العظم وما انتشر منه..")، مخطوط بحوزتنا حول كيفية التطيب الشعبي الذي كان يقوم به أحد المختصين في هذا الشأن من ساكنة بوموكاي)، وتضيف وثيقة أخرى في نفس الموضوع "الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعد، هذا وليعلم الواقف عليه ومن انتهى أمره اليه ممن يتولى القضاء في هذه الأزمنة الخالية من العلماء العاملين والأئمة المحققين أن ما سطره الكاتبون أعلاه وحوله من شهادتهم على الطيب بوركع من الطب ونحوه صحيح وما استشهدوا به صريح لأنه مشهود به في بلاد العرب وغيرها وبه كتب شاهدا به من استكتب، بتاريخ أعلاه وحوله" (مخطوط بحوزتنا حول شهادة التطيب المسلمة لأحد ساكنة بوموكاي في الحقبة الترحالية).

وفي وثيقة ثامنة أخرى توثق لجوانب من حياة أهالي منطقة بوموكاي يحدثنا الكاتب "محمد صالح بن بوجمعة" على أنه "وفد علي الأمين بن المحجوب بن الرقيبي وأخاه عبد الله وأحمد بن إبراهيم بن لعربي وعبد الواحد مع ابنهم مع جامع بن يحيى المغلاوي من جهة الجمل لرب المال أحمد بن إبراهيم وتفصلوا فيها نطق الاختصاص من كليهم عبر الزمان ونصروا أن يبقى بينهم الخير والإحسان بحضرة جمع غافر من المسلمين منهم محمد بن الرك وبوجمعة بن أيوب ولحسن كنو عليه شعطاوغيره من المسلمين، وقع الرسم في شعبان، عبد ربه محمد صالح بن بوجمعة وقاهم الله من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة" (مخطوط بحوزتنا حول صلح بين بعض أهالي منطقة بوموكاي وبعض أبناء القبائل الصحراوية المجاورة).

وأما الوثيقة التاسعة فتعود لسنة 1325هـ وتعلق برسيم الحدود بين أبرز قبيلتين صحراويتين تعيشان في منطقة زيني، ويتعلق الأمر بمخطوط يوثق للصلح بين كل من قبيلة أيت أوسى وقبيلة يكوت

المجاورة لها، وهما للإشارة قبيلتان كسائر قبائل الصحراء يجمعهما أكثر مما يفرقهما نظرا لمعطيات عديدة مشتركة لا حصر لها (وحدة المعتقد، اللسان العربي الحساني، الثقافة البيطانية، الجوار، علاقات دموية وعلاقات النسب..)، حيث يخبرنا الفقيه "اليزيد بن باه" و القاضي "الخليل بن عبد الحي" وكاتب المخطوط السيد "الحبيب بن الحسين بن عبد الحي": "وبعد فقد أتتني جماعة أيتوس وجماعة يكوت مختلفين في ملك منطقة زيني، كل منهم يزعم أنه له من دون الآخر، فطلبت منهما البيئة على الملك، لأن البيئة تين من فيهم وتوضح ما اشتكل لأن كلا منهما مدعيًا. فأرיתיهم الصلح والصلح خير فقبلاه وتراضيا عليه، من الجبل شرقا لأيتوس من عند مكسم الفرنان الى واد أعبر مع الجانب الشرقي لأيتوس لا مدخل فيه ليكوت ومن الجانب الغربي ليكوت وقته الجبل هو الحدادة من مكسم الفرنان الى الشبيكة ليكوت، موافقا للفرقتين لأن أيتوس بل ويكوت أيت الجمل.. فقبله تراضيا عليه بطوعهم ورضاهم فصار من عند مكسم الفرنان الى واد أعبر لأيتوس لا كلام فيه ليكوت ومن تكلم فهو ظالم ومتعد، ومن مكسم الفرنان من الجانب الغربي ليكوت لا كلام فيه لأيتوس الى الشبيكة قتراضيا عليه وقبلاه" (المخطوط الأصلي في حوزتنا)، وقد تم تعريف هذا المخطوط بتاريخ 23 ديسمبر سنة 1977م من قبل القاضي المقيم بمدينة تنغير المغربية "أديب عبد الوهاب"، شاهدا بأن هذا المخطوط صحيح وبأن كاتبه آنذاك مشهود له بالعدل والاستقامة وكان حين تاريخه قاضيا بالصحراء وأحكامه بها كثيرة ومشهورة.

ونختم هذا المحور بوثيقة عاشرة لا تقل أهمية عن سابقتها حول تفويض ضيعة فلاحية في منطقة بوموكاي للأخ الأكبر لاحدى عائلات منطقة بوموكاي تحدث القاضي "امريه رب بن سيد أحمد بن باه" عن تفاصيل هذه الواقعة جاء فيها: "الحمد لله وحده، هذا وكانت أبناء محمد العبيد فوضوا الأمر لأخيم أحمد العبيد في أمر الجنان في مرصت أم صميد فاض وماض أمره بإذن معييف وأبنائها الذكور أحمد ونخير علي والبنات أم الرجال امبيريك علي سيدي الحسن وابيه وأخيه الحوسين ومحمد لمحمد، امريه رب بن سيد احمد بن باه، غفر الله له ولوالده وللمسلمين وللحسان ويقر عليك أخيك في الله المسلم ألف سلام والحمد لله رب العالمين" (مخطوط في حوزتنا حول كتابة ضيعة زراعية لأسرة بمنطقة بوموكاي).

لقد تين من مختلف هذه المخطوطات التي حاولنا -قدر المستطاع- تحقيقها وتحليل ما جاء فيها من معلومات مختلفة وغزيرة أن نقف عند جوانب من نمط عيش ساكنة منطقة بوموكاي وأحوالها، سواء تعلق الأمر بتملك الأرض أو استصلاحها وبناء الدور العتقية أو عقود الزواج والطلاق أو النوازل الفقهية التي كانت آنذاك تحاول فك بعض المشاكل الداخلية للأهالي، أو ما يتعلق بالتطبيب الشعبي الصحراوي، أو تصيب أطباء وقضاة مختصين في هذا المجال، أو جوانب من حياة الأدب والثقافة..

وهي بذلك ثروة لامادية توثق لتاريخ أهالي هذه المنطقة وتوصل لسيرورة حركتهم وطبيعة حياتهم وعلاقاتهم مع مختلف القبائل الصحراوية المجاورة، الأمر الذي من شأنه أن يساهم في ديمومة استثمار هذه الوثائق مستقبلا في عملية توثيقها وتوظيفها في مختلف الأوراش التنموية بمنطقة بوموكاي وما جاورها من أرياف.

3. التحولات الاجتماعية والثقافية بمنطقة بوموكاي وأحوازه:

أدى الاستعمار الاسباني الذي شمل منطقة بوموكاي (مخطوط بحوزتنا يعود الى الحقبة الاستعمارية الاسبانية حيث توجد عليه ختم الإدارة الاسبانية يوثق لجوانب من الحياة اليومية بمنطقة بوموكاي) ، وما جاورها من أرياف الى فرض وضعية إدارية غير مسبوقة بالمنطقة، ولذلك حاولنا استقراء بعض ما كتبه ضباط الإدارة الاستعمارية الاسبانية حول منطقة بوموكاي، إذ يصف لنا في هذا الصدد الضابط الاسباني "إينريكي كارمونا" الذي زار منطقة زيني سنة 1953م "لقد وصلنا الى منطقة بوموكاي وأماكن أخرى من زيني توجد بها مئات من الخيام تكسوها خضرة الصبار في حقول تفصلها أسوار من الحجارة وتنتشر بها بنايات عتيقة، فلم نستطع كبح دهشتنا أمام هذا المنظر الفريد في ذلك الوادي المغطى بشجر الصبار وأسراب الخيام، فهؤلاء الناس من أطفال ونساء ورجال الصحراء جاؤوا هذا الصيف مثل الصيف السابق من مناطق بعيدة جدا وقطعوا مسافات هائلة للاستمتاع برطوبة مناخ منطقة زيني ولتذوق فاكهة الصبار الحلوة والشهية.. فنذ ما يزيد عن تسعين سنة تم غرس هذه الأشجار بمنطقة تانولي وبوموكاي ومناطق أخرى من زيني، وهي زراعة ازدهرت بفضل هذا المناخ الخاص، منذ ذلك الحين أناس من أيت لحسن وأهل ماء العينين وأزركيين والرقيبات وخاصة من يكوت وبطن أيت وعبان من أيت أوسى يقدمون كل صيف الى هذه المنطقة، ولا يكتفون بالاستمتاع ولكنهم يقومون بغرس نقلات جديدة من الصبار ويبنون الأسوار والحدود وينشئون البنايات الصغيرة لحفظ الجيوب ولحفظ الماشية وعزلها.. لقد رحب بنا في بوموكاي رجل مسن من أيت أوسى من أوائل الذين غرسوا الصبار بهذا المكان، إنه رجل مسن وموقر، وجهه ضاعن في السن وله نظرة حادة، يتكلم ببطء فلم أتمكن من الحصول منه على معطيات كثيرة لأن ذاكرته أصبحت ضعيفة جدا ولكنه لم يخف نغره بأنه أحد المؤسسين الذين جعلوا من منطقة زيني منطقة الصيف بالساحل الشمالي من الصحراء.. إن هذا الفرح الطفولي الظاهر على رجال الصحراء في هذه العطل الصيفية بمنطقة زيني ربما لا يكون مرحبا به وجيدا بالنسبة لقراي ولكن بالنسبة للصحراوي الذي يعيش كل سنة على أرض شاقة تكابد الجفاف وضربات الرياح فوق أرض عارية من أي غطاء نباتي تحيط بها المضايقات ويلفها التقشف يكون قضاء أسبوع بوموكاي أو تانولي هو خروج للتلذذ بما هو غير معتاد، فالمناخ بجبل زيني رطب وهائل والماء جيد

وكثير وفاكهة الصبار حلوة كالعسل " (Carmona Enrique). El veraneo en La region del)
 .(Zini. In : Africa. Num. 303. Febrero 1953. P.p.36-37

كما يخبرنا الاسباني إينريكي كارمونا في موضوع حفلات الزفاف وما يتخللها من رقص شعبي بمنطقة بوموكاي تحديدا قائلا: "لا بد أن نعترف أنه لا توجد رقصة من رقصات الصحراء قد أثارت انتباهنا غير رقصة (الهرمة) وهي رقصة رجالية مليئة بالقوة وبالأحاساس الحقيقي، فهي تبدأ بإيقاع طفيف وبعدها لا بأس به من الرجال الواقفين في صف واحد ويقف أمامهم الشخص الذي يوجه رقصهم، وشيئا فشيئا يتطور الرقص وبشكل رتيب، ودون التظاهر باكتشاف الهرمة فاني أجروء على الإشارة أن هذا الرقص هو تعبير عن الشغف الذي يشعر به رجل الصحراء تجاه الجمل، لأن إيقاعه مأخوذ من صديق الرحل بالصحراء، إنها رقصة "الميهارستا" ورمزيتها واضحة رغم أنه من غير المعروف إذا كان أيت وعبان سيتوقفون أم لا للتفكير بهذه الأشياء" (Carmona (Enrique). El veraneo)
 .(en La region del Zini. P.p.38-39
 وتبدأ هذه الرقصة (الهرمة) مع (الكوطرة) وهي تشبه بداية حركو مشي الجمل، ليتم الانتقال الى درجة ثانية تسمى (إيترك) أي الهرولة المستمرة ببطء، ثم تأتي مرحلة (أكران) وهي درجة أكثر سرعة لتنتقل هذه الرقصة الى مرحلة (أخاتم)، وتختتم بأقصى سرعة تسمى ب (الربعة)، وأحيانا عندما تصل هذه الرقصة لأقصى درجاتها قد تصبح رقصة حرية بامتياز لا تختلف عن حالة "الغزي" أي الحملة الحربية التي تروم الهجوم على قبائل أخرى وغنم ممتلكاتها، وهكذا "مرت هذه الشهور بسرعة، فالصحراوي يعود مرة أخرى الى جفاف الصحراء والرعي الذي لا مفر منه بحثا عن المراعي وعن الماء، وسينتقل عبر مسافات طويلة الى جهات عديدة ويواجه الرياح والرمال و(إيريفي) على أساس العودة الى زيني في الصيف المقبل" (Carmona (Enrique). El veraneo)
 .(en La region del Zini. P.p. 38-39
 وهي أماكن بعيدة عن مجال جنوب درعة بين جبال زيني تصل أحيانا الى الساقية الحمراء وقد تصل حدود مجال تيرس وزمور في مجال وادي الذهب بل وفي حالات جد خاصة حتى دواخل القطر الموريتاني (منطقة الحوض).

كما تناول "إينريكي كارمونا" كيفية إقامة حفلات الزواج وما يصاحبها من أهازيج ورقصات بمنطقة زيني قائلا: "سوف تكون هذه التلال بمثابة مسرح للوضاء لتنشيط الضيوف كما لو كانت ساحة أي قرية اسبانية مليئة بسكان ريفيين، ففي وقت متأخر من مساء يوم أحد، وبعد ساعات من حلول الليل حيث يبدأ القمر في سفك خيوطه الفضية فوق أشجار الصبار، عندما يبدأ الرذاذ يتساقط من السماء كغبار النجوم فيصبح كل شيء تحت شاعرية شفافة، يجتمع الفتية عند باب الخيمة للإحتفال بهذه الليلة وقد بدأ قرع (اطبل) بشكل بطيء ومتقطع، طبل مصنوع من (تازوة) مغطاة بجلد، يتم قرعه

بالأيدي، ويجتمع حوله النساء قادمين من الفرکان" (Carmona (Enrique). El veraneo en La region del Zini. P.p. 34-35)، ذلك أن صوت الطبل يجلب الأهالي من بعيد، فتجد المرأة مزينة بمختلف أنواع الحلي التقليدية (الخرز، الأساور، القلائد، الخلاخل الفضية الملونة..)، كما يقمن بوضع الحناء بشكل عادي جدا مع ظفر شعورهم بعناية، بينما ينبري الرجال الى لبس دراريهم ذات الألوان الزرقاء والبيضاء مع سلاهم مصنوعة من قماش أزرق داكن.

تجلس النسوة في مكان خاص بهن حيث ينادى على بعضهن للرقص وبعد الالحاح عليها لدرجة جلبها بالأيادي لمركز دائرة غالبا ما تشكل من الشباب، فتجلس على ركبتيها وتبدأ في الرقص ببطء موظفة حركات جسدها العلوي، من خلال ابداء حركات ملتوية تتم عبرها تحريك الرأس والكتفين والأصابع والذراعين، يواكب ذلك ارتفاع صوت (الكدره) والتصفيق القوي لزيادة تشجيع الفتاة على الرقص، وعندما يشعر الشباب بقرب اعياء أو احراج الراقصة يتم فسح المجال لها للخروج من الدائرة لترك الفرصة لفتاة أخرى، مع زعاريت التشجيع المستمر، والجميل في كل هذا هو انطلاق مشاهد أدبية تتخلها أغاني الفرح والأغاني الحربية والدينية، وهي تعبير عن ما كانت تعيش على وقعه أهالي منطقة بوموكاي من بساطة وعفوية أثناء احياء احتفالاتهم الفرجوية، وهي لحظات للتنفيس عن قهر مجالهم ومحاولة إعطاء لون إيجابي لبيئتهم المحيطة.

وأضاف نفس الضابط الاسباني "إينريكي كارمونا" في معرض حديثه حول طبيعة المعيش اليومي لساكنة منطقة بوموكاي معتبرا بأنه في الوقت الذي يقضي الأطفال والنساء فترة الصباح في جمع فاكهة الصبار Chumbos يعمل الرجال على رعي المواشي و"بوصول أي زائر يرحب به الجميع ويحيط به الرجال الموجودين في الخيام، وبعد الترحيب بتحايا مطولة وملينة بالتكرار ومهذبة ورسمية جدا يسألون الوافد الجديد عن الأخبار كالتالي: أش كاين من الأخبار ؟ إنه سؤال اعتيادي، ويحرك الزائر رأسه قليلا ويرفع حاجبيه ويبدأ بإعطاء القليل من الأخبار المهمة، وإذا كانت الأخبار مميزة سيتخذ صوته شكل معين والكل يركز نظره عليه بدون أدنى لفتة محسوسة أو فارق بسيط، فإذا كان ما يقوله يسبب الجدل يتدخل حينها الكثيرون فيتصاعد إيقاع الحديث بشكل غير عادي ولكنهم يعودون للسكوت ولقطع الكلام، وفي هذه الأثناء يقوم المضيف باعداد الشاي والكسكس، وإذا كانت الزيارة تم أحد الأشخاص البارزين أو بعض الشيوخ يتم نحر جمل أو ذبح شاة على شرفه" (Carmona (Enrique). (El veraneo en La region del Zini. P.p. 37).

وفي الحقيقة أن هذا الاستعمار الاسباني على الرغم من طول مدته التي ناهزت القرن من الزمن لم يعمق بأي إعمار حقيقي من شأنه أن يساهم في خلق تنمية اقتصادية واجتماعية، بل عمل على جعل هذه

المنطقة وما يحيط بها مجرد مراكز شبه عسكرية تابعة لنفوذهم الاستعماري وتوظيفها بحسب ما تقتضيه مصالحهم، وهكذا لم يتجاوز عملهم بهذه المنطقة سقف تصيب بعض الشيوخ التابعين لهم، قصد إعادة تشكيل بعض الوثائق الثبوتية لهؤلاء الأهالي، أو تسوية بعض الأماكن المخصصة لنزول الطائرات العسكرية كما كان الحال فوق قبة/كعدة بوموكاي، وفي أقصى تقدير تجنيد بعض أبناء هذه القبائل في سلك الخدمة العسكرية، وكل هذا من أجل فرض حالة من المراقبة المستمرة لهؤلاء البدو شبه المستقرين، وتفاديا لأي غارات حربية من شأن أن ينظمونها ضدهم، لتكون المحصلة النهائية وباختصار تسهيل استنزاف مذكرات المنطقة ومواردها الطبيعية لا غير قصد نقلها خاما للقطر الاسباني.

ويبقى العامل البارز الذي شكل معطى موضوعيا عجل في انقلاب البنات الاجتماعية والثقافية للمجتمع المحلي بمنطقة بوموكاي وما يحيط بها من أرياف عديدة (تافراوت، تانولمي، تارماست، تابولعجنت، اغويم، غانم، تالليت..) هو قهر ظروف الطبيعة القاسية حيث توالي سنوات الجفاف، مما انعكس سلبا على مساحات شاسعة للغطاء النباتي، الأمر الذي أدى الى تراجع قطعان المواشي باعتبارها كانت تشكل أبرز موارد معيشة هؤلاء الأهالي، مما دفع بالكثير منهم الى الهجرة الى ضواحي المراكز الاستعمارية الناشئة، مما سرع في تشكل ديمغرافي جديد تغلب عليه العشوائية ضمن هذه التجمعات الصحراوية، لم يعمل على إعادة تنظيمها إداريا وسياسيا الا الدولة الوطنية التي حاولت بعد استرجاع المنطقة ترتيب التوازنات الاقتصادية والسياسية، على الرغم من ما شاب هذه الترتيبات من إعادة انتاج سلطة القبيلة التي ظلت حاضرة خاصة على مستوى استمرار العلاقات القرابية والدموية والتي لازالت تؤثر على علاقات الانتماء الحزبي والسياسي، كما أنه لازال يتم توظيف هذه العصبية كذلك من أجل التقرب من دواليب السلطة، وأحيانا ابتزازها خلال تأزم الحصول على مراكز انتخابية أو سياسية، ولذلك نجد أن العمليات الانتخابية و"العصبية الترابية" المتعلقة بانفجار الصراع حول الأرض والحدود الترابية خاصة خلال موسم حرث الحقول/المعادر، وتوريط البعض من الجيل الحالي لفئة الشباب من قبل كبار السن في هذه العصبية القبلية التقليدية، إلا قرائن على الكيفية التي يتم بها إعادة انتاج سلطة القبيلة واستمرار ديمومتها الى اليوم.

خاتمة:

انتقل المجتمع المحلي بمنطقة بوموكاي وما يحيط به من أرياف قروية الى وضعية مجتمعية جديدة فرضتها ظروف حياة التمدن، مما أدى الى تتهقر أشكال اجتماعية وثقافية تقليدية لصالح قيم جديدة تطغى عليها في مجمل الأحوال حياة الفردانية، مما انعكس سلبا على تنمية هذه الربوع والأرياف، إلا أن كل هذا لم يقطع الصلة بتاتا مع منطقة زيني وخاصة أرياف بوموكاي وأحوازها، وهو ما عايناه من

خلال بعض المبادرات الإدارية والحكومية والمحلية (شق الطرق، دعم الرعاة والفلاحين، انشاء جمعيات المجتمع المدني، مواكبة إدارية لحياة الأهالي، معالجة حقول الصبار المتضررة من بعض الأمراض، ترميم المنازل العتيقة..). كما أنه وبالرغم من أن الكتّابات المحلية سواء في شكل مخطوطات حول منطقة بوموكاي أو الكّابة الاستعمارية الاسبانية التي حاولت مقارنة هذا المجال وساكنته على نذرتها وضعف تكوينها الأكاديمي، إلا أنها قدمت بعض التفاصيل المرتبطة بتاريخ هذه المنطقة ونمط عيش سكانها، وهو ما ساعدنا اليوم باعتمادها كمادة مصدريّة لتدوين جزء من تاريخ منطقة بوموكاي وأحوازها، آمليّن من خلال ورقتنا هذه أن يأخذ مستقبلا بعين الاعتبار ما تزخر به منطقة بوموكاي وما جاورها من ثروات طبيعية ومعادن نفيسة ورأسمال رمزي أثناء وضع البرامج التنموية حتى تستهدف إعادة احياء حاضر هذه المنطقة، حتى تصير قطبا انتاجيا من شأنه أن يعيد التعايش بين مختلف شرائح المجتمع واثنياته المختلفة في اطار التعدد الثقافي المحلي الذي من شأنه أن يساهم في آفاق تنموية واستثمارية واعدة ببلادنا.

قائمة بعض المراجع المعتمدة:

المخطوطات:

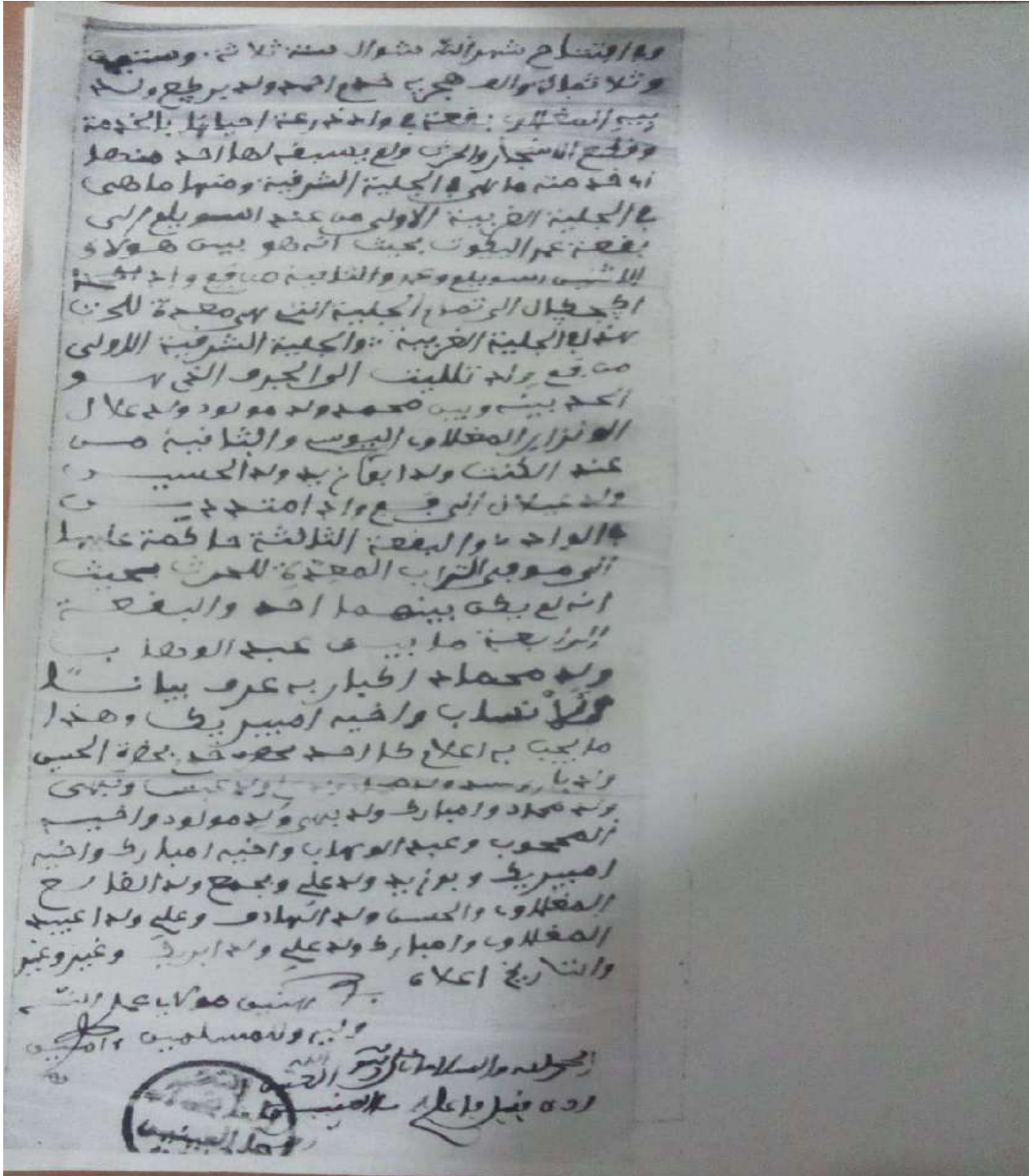
- مخطوط بحوزتنا يتحدث عن جوانب من حاضرة بوموكاي.
- خطوط في حوزتنا حول قبيلة أيت أوسى الصحراوية القاطنة بالجنوب المغربي.
- مخطوطات لعائلة القاضي أهل بوزيد بوشامة ولد امبارك ولد البر في حوزتنا.
- مخطوط بحوزتنا حول تقسيم الإرث بين عائلة أهل اعليات ولد مبارك ولد البر بمنطقة بوموكاي من توثيق القاضي بوزيد بوشامة.
- مخطوط بحوزتنا حول كيفية التطبيب الشعبي الذي كان يقوم به أحد المختصين في هذا الشأن من ساكنة بوموكاي.
- مخطوط بحوزتنا حول صلح بين بعض أهالي منطقة بوموكاي وبعض أبناء القبائل الصحراوية المجاورة.
- مخطوط في حوزتنا حول كّابة ضيعة زراعية لأسرة بمنطقة بوموكاي.

المصادر:

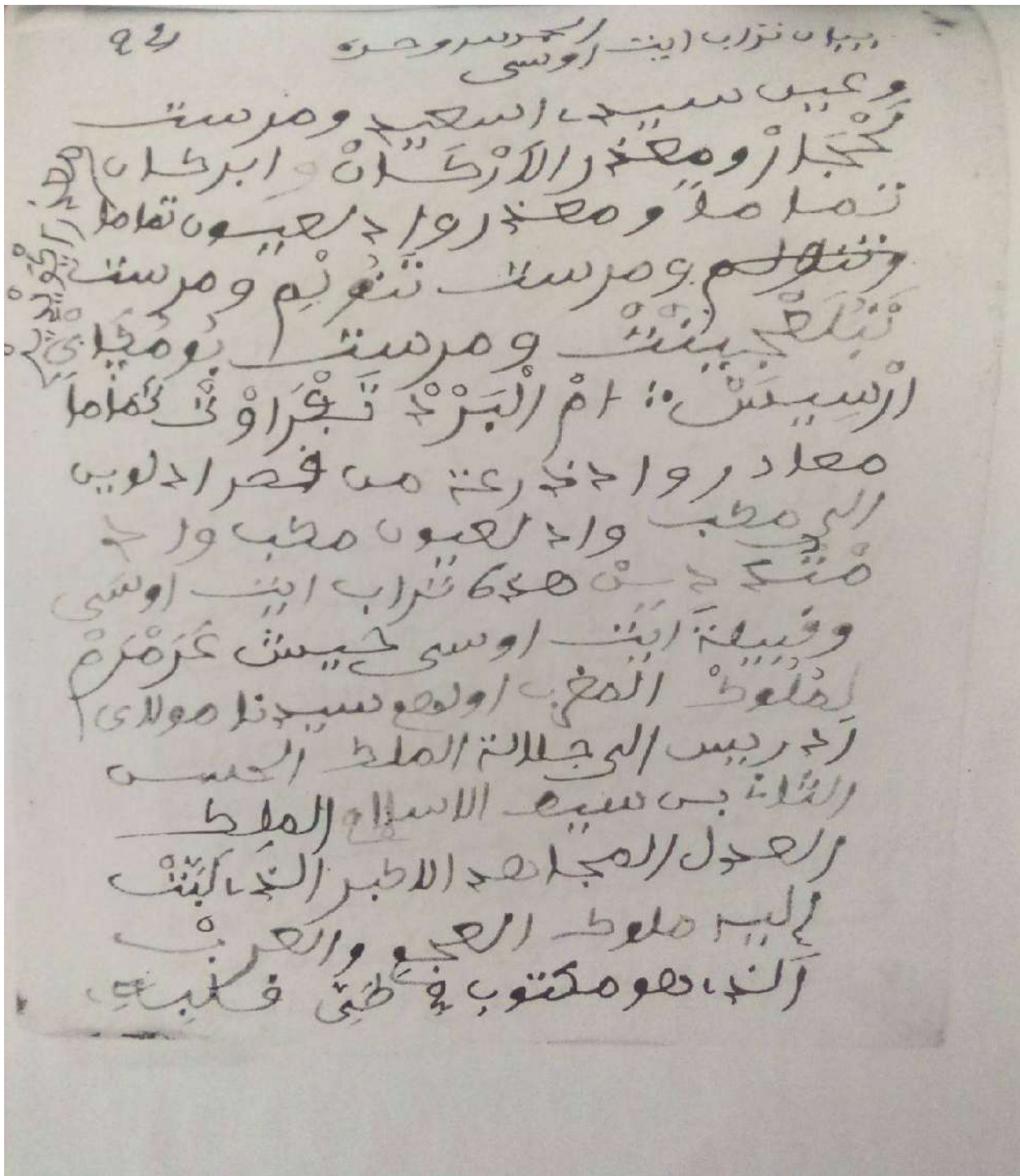
- محمد دحمان، دراسات حول الصحراء (التراث- الإقتصاد- المجتمع)، آسا وما إليها في الكتّابات الاسبانية، 2019.

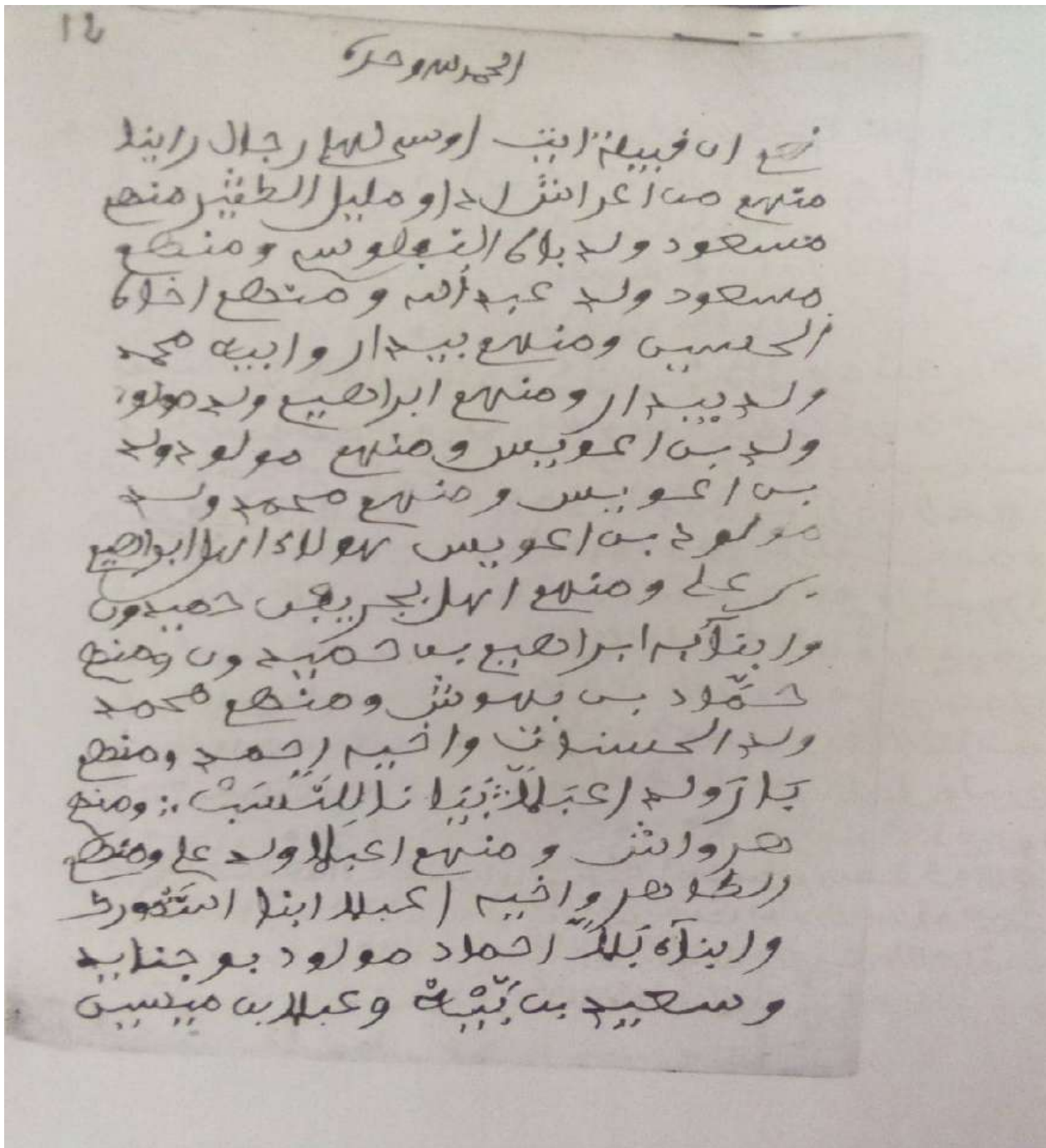
- عبد الودود ولد الشيخ، القبيلة والدولة في أفريقيا، ترجمة: محمد بابا ولد أشفع، الدار العربية للعلوم ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات، ط1، 2013.
- Morales Flores Angel. « Razas del Sahara espanol » . In africa. Madrid. Num.83.84. Nov-Dic.1948.
- Carmona (Enrique). El veraneo en La region del Zini. In : Africa. Num. 303. Febrero 1953.
- Manuel Mulero Clemente. Los territorios espanoles del Sahara y sus gruposnomadas. El Siglo. Las Palmas de Gran Canaria. 1945.

ملحق صور بعض المخطوطات المعتمدة:

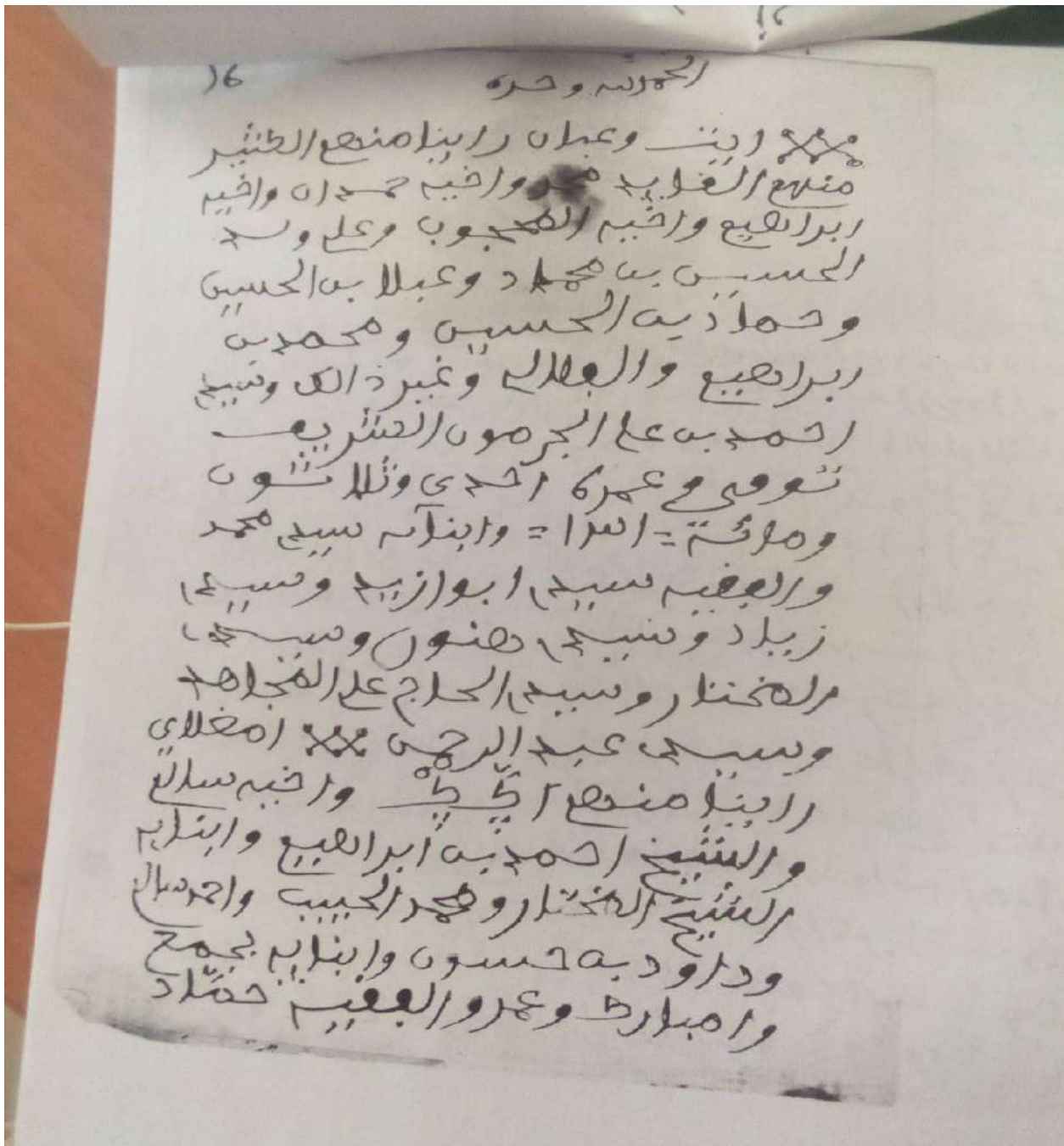


وفي اقلية وعشرون سنة صغر الخبير سنة العون ثلاثمائة
 وسبعة وستون هجرية 1366 - اشترى بحول الله مع فوته الشاي
 المظفر احمد ولد بورطاج ولد بيب المخلو والابن يوسف من ابي
 البارقي احمد ولد محمد ولد عبيد واخيه علي واصغ
 امعبيد بنت محمد اسعيد العراب فيبيع الجنان
 التي هو لها ارتبها ابيهم محمد بن عبيد الطايبة في امر
 بمرسنة بومطاي محمد وده بشرق افريق الماء وقيل الشار
 بالقرية الممتدة الرخيمة من زراضان وجو فاحسية في
 محمد اسعيد الشترية ثم صبلغ فمساكن ربا الاسطة
 الوقت وكذا باع احمد واخيه امعبيد في افوا
 ام ارجال وامبيريت بوكالتصو لاخير مع احمد وبند الط وفتح
 البيع الفالح للجنان الجايز المنحور منه غير شرط بعد
 البيع ولا تشيلا ولا اختيار واصلو في كل ما كان
 وعلى السنة والمرجع بالدر في حفرة الشيل الحسب من القايد
 وامبارك ولد العال وحمد صالح ولد ابراهيم ولد احمد اشيد
 وحمد ولد القايد اعليات وارث شيخ الاعلى
 الحمد والسلام على من سوا
 رد من قبل ما علم من العقب
 الحسين هو كاي على الله وليه
 والله المستعان





أولاً طرقت
كأنت معز سلاع
تسربل تزييم
رشد وانه تيطليت
كبره الطططرة
الطلاح بنفخيم
ربلا وانه الموت
الذي لا يلد بيننا
الذي تزييمه
الذي كجرت
مه اداوتني
يومنا هذا
اييت اوسى
اييت كسه
ارفع الي
اييت رحي
الكلاب

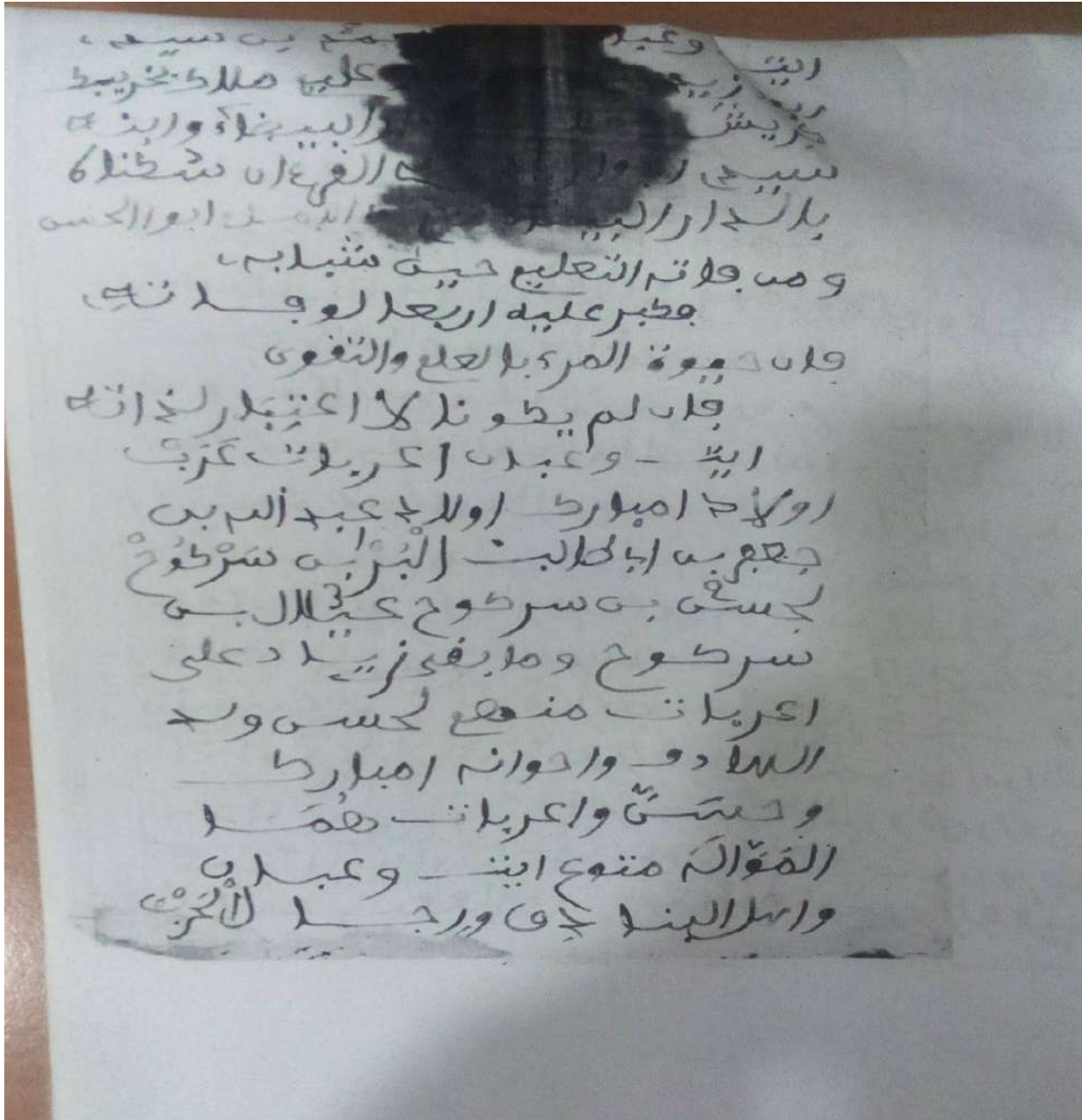


36

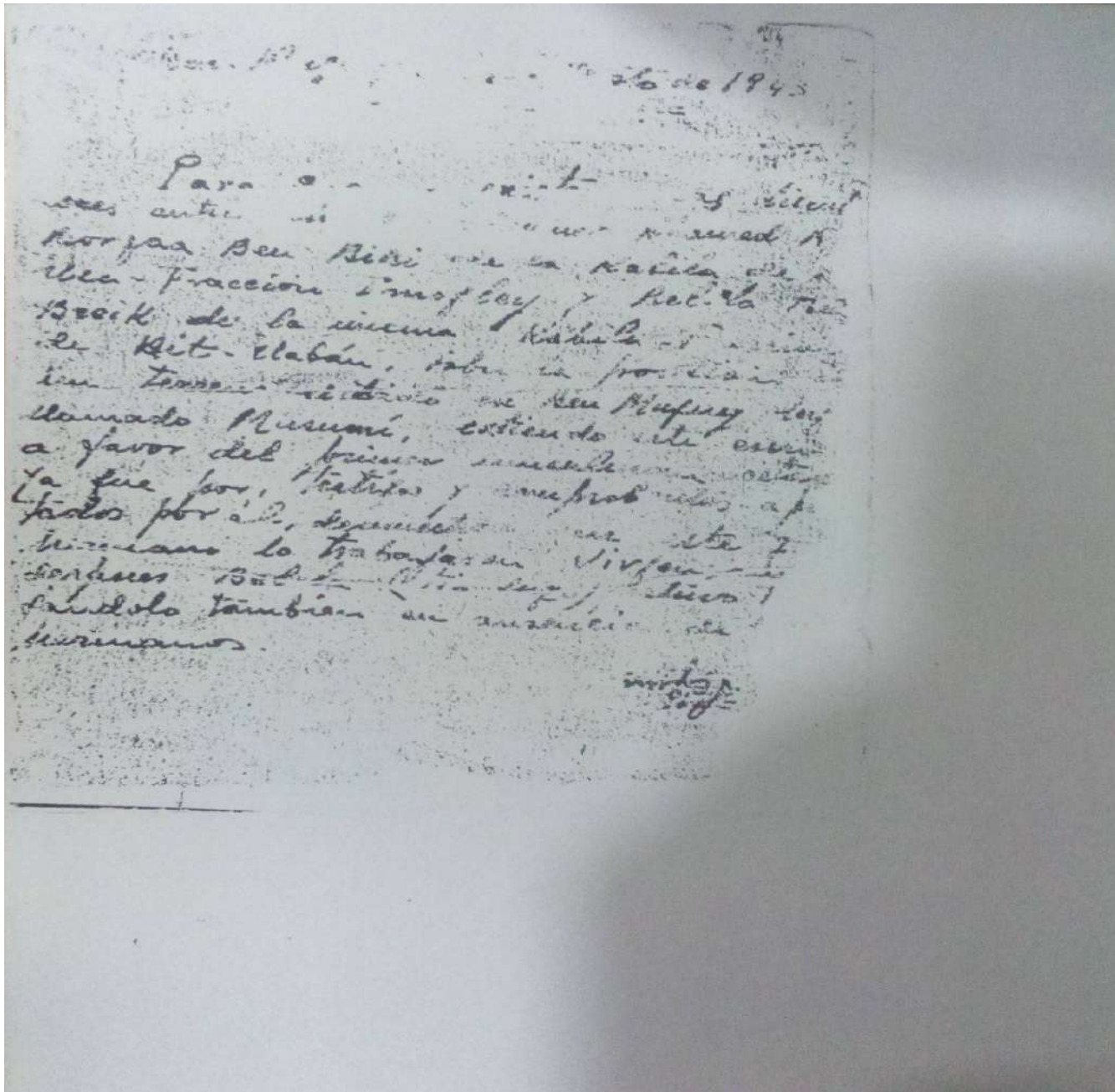
الحمد لله وحده

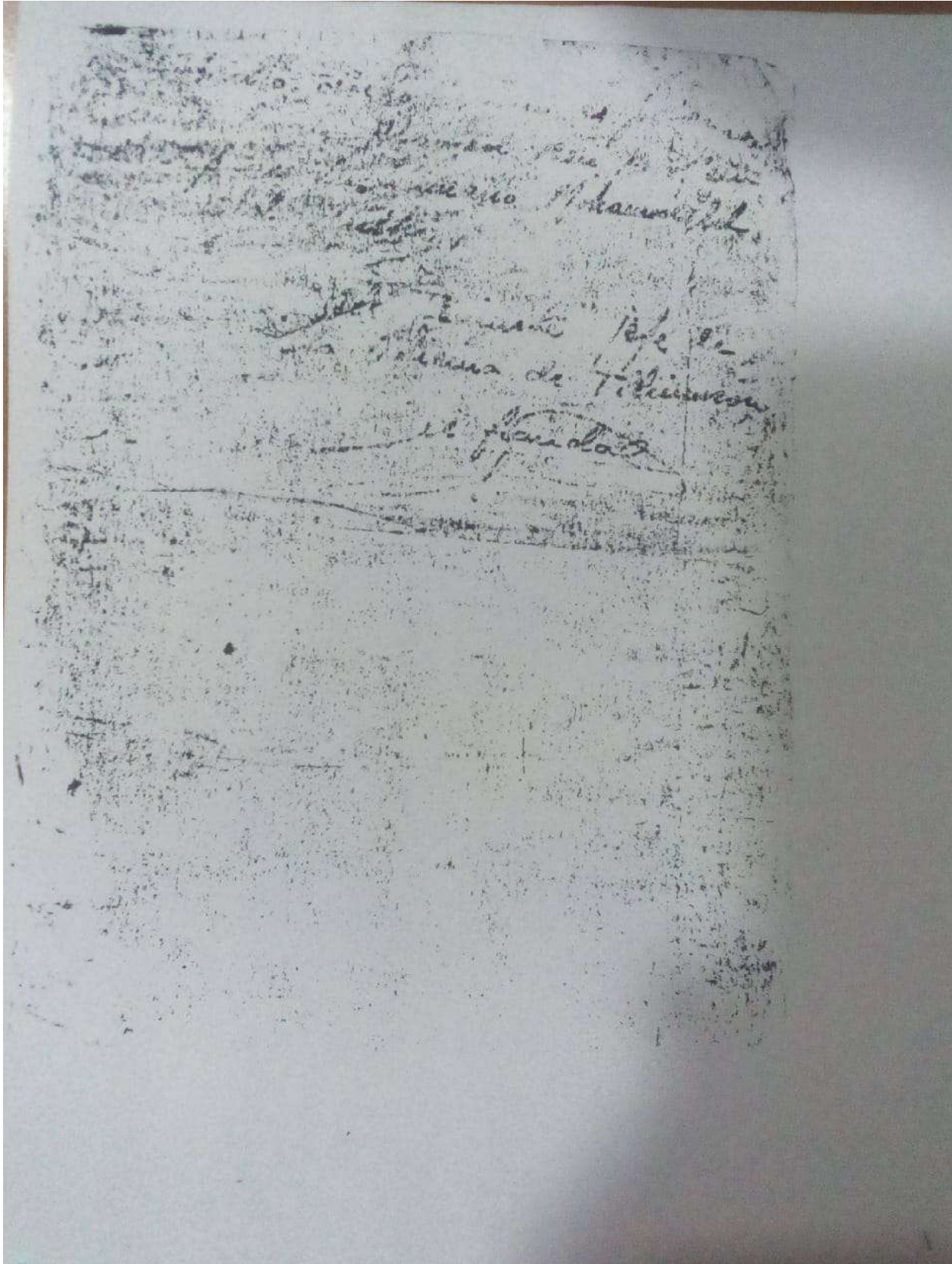
زمان الاستعمار وبفت ساقية عيسى
أيت اوسى حتى رفع الملك تسدتها
الجمهورية شرحت الخدم لجميع البلدان
وشرحت الخدم لعين انت اوسى
الربيع وثمانون ٤٤ سنة اما ثلاثون
يومه 30 . الجميع عشر يوم ما
وقد استمدت ٤٤ سنة والى ٥٥ - وكان وقوعنا
الكلية وبفت العين على كل هذا
كما كانت اول مرة مع زمان الاستعمار
الاستعمار ووقع في هذا الكلاس يمين
كثير ودارت مع اظانر الجماع
لا تلهي ولا تضرب والى

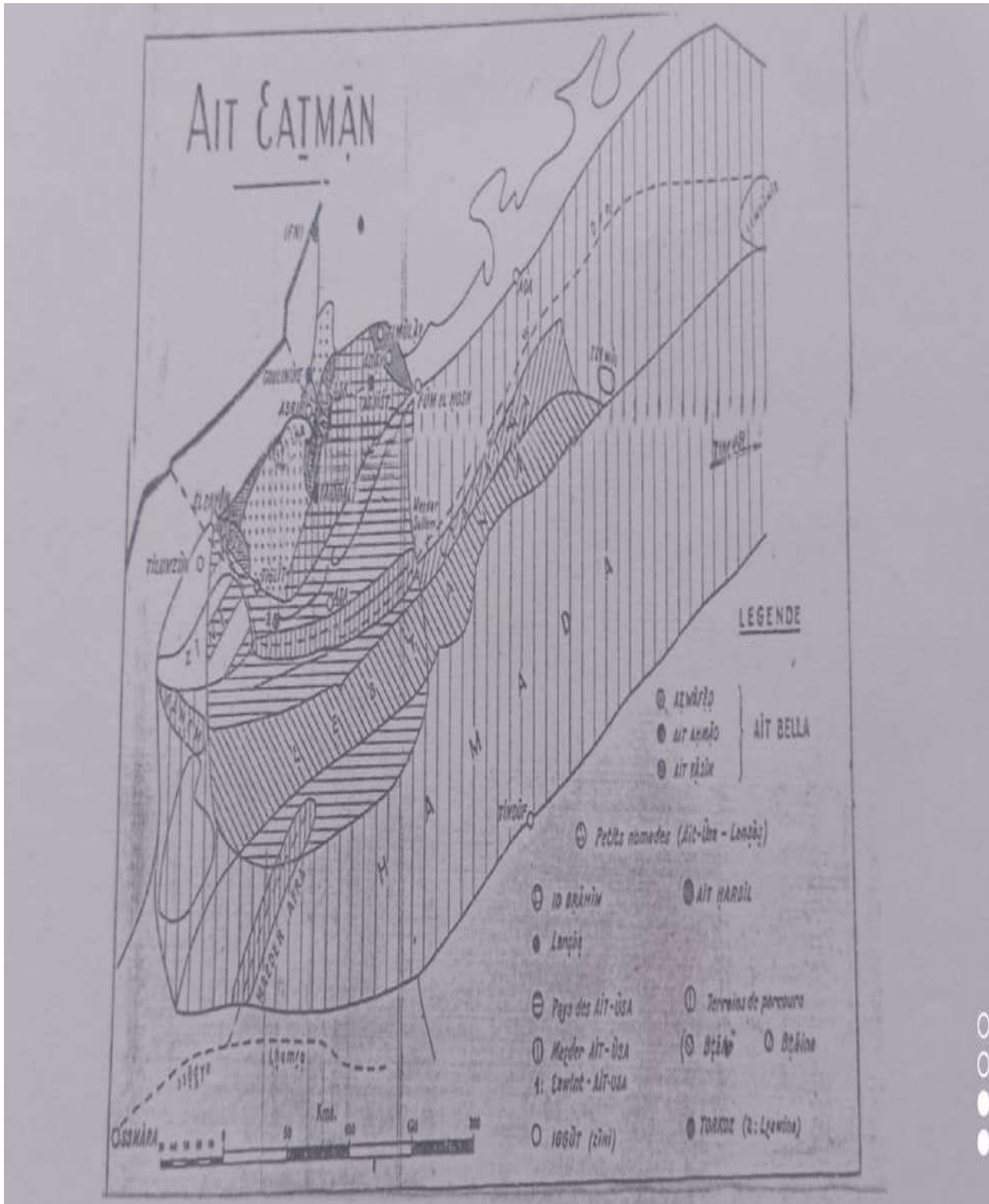
الحمد لله وحده
٥٥٤٤



وثائق من الحقبة الاستعمارية الاسبانية حول منطقة بوموكاي:







التناصّ الدينيّ في قصيدة النيرّ التبريزيّ العربيّة في مدح أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

Religious intertextuality in the Arabic poem of Al-Naiier Al-Tabrizi in praising Amir al-Mu'minin, Ali bin Abi Talib (pbuh)

مجتبى عمراني پور، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران

emranipour@ut.ac.ir

محسن فريدينيا/طالب مرحلة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، إيران

mohsenfaridnia.m365@gmail.com

الملخص: يستمدّ التناصّ أهميته من كونه ظاهرةً ديناميّةً تمنح الشاعر سعةً تعبيريةً متزايدةً. فهو يشارك مع شعره، مرجعيّاته في الأدب والثقافة والعلم والمعرفة، ويجعلها عوناً له في صياغة أفكاره وتعايره. يُعنى هذا البحثُ بدراسة التناصّ الدينيّ في قصيدة النيرّ التبريزيّ في مدح أميرالمؤمنين عليّ (ع) المنظومة باللّغة العربيّة، ويعتمد فيها على المنهج الوصفيّ التحليليّ. يسعى البحث إلى اكتشاف أنواع التناصّ الدينيّ ونماذجه الثرة في القصيدة والأطّلاع على أنواع آيّاته ورصد العملية التناصية التي قام بها الشاعر في حدود العلاقات التفاعلية والإحالية. تبين من خلال الدراسة أنّ القرآن الكريم والحديث يشكّلان أبرز وأعرق المرجعيات التناصية في قصيدته وأنّ نزعة الشاعر التعبيرية شديدة الصلة بالتناصّ وآيّاته، وقد أجاد توظيفها على مستوى العرضين التعبيريّ والذاتيّ واجتهد في تعميق العملية التناصية بحيث شهدت الإحالة بشتى أنواعها عمقاً غائراً في قصيدته.

الكلمات الدليلية: التناصّ، النيرّ التبريزيّ، العلاقات التفاعلية والإحالية، القرآن الكريم، الإمام عليّ بن أبي طالب (ع)

Intertextuality derives its importance from being a dynamic phenomenon that gives the poet an increased expressive capacity. He participates in his poetry with references to literature, culture, science and knowledge, and makes them help him formulate his thoughts and expressions. This research is concerned with the study of the religious intertextuality in the poem of Al-Naiier Al-Tabrizi in praising the Commander of the Faithful, Ali, peace be upon him, in the Arabic language, and it relies on the descriptive and analytical approach. The research seeks to discover the types of religious intertextuality and its many models in the poem, to identify the types of its mechanisms, and to monitor the overlapping process carried out by the poet within the limits of the interactive and referential relationships. Through the study, it was found that the Holy Qur'an and the Prophet's hadith constitute the most prominent and deepest intertextual references in his poem, and that the poet's expressive tendency is closely related to the intertextuality and its mechanisms. He was good at employing these mechanisms at the level of expressive and subjective presentation, and he strived to deepen the intertextual process, so that referral of all kinds witnessed a profound depth in his poem.

Keywords: intertextuality, Al-Naiier al-Tabrizi, interactive and referential relations, the Holy Qur'an, Imam Ali bin Abi Talib (pbuh).

المقدمة

إنّ التناصّ بشقّي أنواعه عرفته عَفْوِيَّةُ القريحةِ البشريَّةِ، فاكْتَسَى أهميَّةً وجدانيَّةً واستأنستهُ الآدابُ والفنونُ التي تُتوسَّلُ بكافَّةِ الوسائلِ لتفجيرِ الطَّاقةِ التعبيريَّةِ المتاحةِ على أشكالها المتنوّعةِ مثلَ اللُّغةِ والنَّحتِ والرَّسْمِ والعمارةِ. وبالرغم من ذلك فإنَّ اهتماماً من نوعٍ آخرٍ تناول التناصّ بالدراسةِ المعمّقةِ نسبياً في الشطرِ الثاني من القرنِ العشرين وقام بمركزةِ الأضواءِ على هذه الظاهرةِ النوعيةِ لتتجلّى قيمتها التعبيريةِ في المنظومةِ الأدبيَّةِ. فهذه "جوليا كريستيفا" الرائدةُ البلغاريَّةُ، تمثّلت عندها صورةُ النصِّ لوحةً فسيفسائيَّةً تراصّت فيها نصوصٌ سابقةٌ أو متزامنةٌ بتقنيَّاتٍ وآليَّاتٍ متعدّدة.

شعرت جوليا أنّ هذه الظاهرة يمكن أن تتحوّل إلى عمليَّةٍ تعبيريةٍ بديعةٍ إن أحسن الكاتب توظيفها في أعماله فبدأت بالتنظير لها وإحصاء أنواعها. وأطلقت عام 1966م على هذه الظاهرة اسم "Intertext" أي التبادل النصّي والذي ترجم فيما بعد إلى العربيَّةِ بالتناصّ، إنذاراً بولادتها في حِجْرِ الساحةِ النقديَّةِ، والتناصّ عندها يمثّل: "تقاطع نصوص، ووحدات من نصوص، في نص، أو نصوص أخرى وأصبح النصّ في منظورها "لوحة فسيفسائيَّة من الاقتباسات، فكل نصّ يستقطب ما لا يحصى من النصوص، التي يعيدها عن طريق التحويل، والنفي، أو الهدم، وإعادة البناء (حفظ الله واصل، 2010: 15). وهكذا رأت جوليا أنّ هناك عمليَّةً فنيَّةً تعمل على تحويل النصّ ونفيه أو هدمه وإعادة بناءه. ومن هذا المنطلق سعت إلى وضع قوانين لها وإدراجها ضمن قائمة الناقد الأدبي كأحد فنون التعبير المميّزة.

ولقد تطلّع الشعراء منذ وقت مبكّرٍ جداً لهذه الظاهرة وجماليَّاتها الفنيَّة واستغلَّوها في قصائدهم ومن هنا تنبع أهميَّةُ المقاربات الأدبيَّةِ التي تدخل في هذا الإطار. ولعلّ من أبرز هؤلاء الشعراء الذين اتَّخذوا من التناصّ درباً في قصائدهم، الشاعرُ الإيرانيُّ الميرزا محمد تقي بن محمد التبريزي المامقاني المتخلّص في شعره بـ "النير". فلو أجلنا النظر ووقفنا وقفةً تأمليّةً في أعماله الشعريَّة لوجدنا الشيء الكثير من النصوص المتعلّقة استلهمها من موروثه الديني الضخم وعرسها في أرض خصبة لتُغلّ إنتاجاً تعبيرياً مميّزاً يلامس الذوق ويؤنس المشاعر.

خلفية البحث

نشرت "كاوش نامه ادبيات تطبيقي" المنتمئة لكلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بجامعة رازي في مدينة "كرمانشاه" الإيرانيَّة عام 2012 في العدد 8، مقالاً يحمل عنوان "تأثير ادبيات عربي بر قصايد عربي نير تبريزي". يستعرض المقال عدداً من الاقتباسات والتليحات الواردة في القصائد العربيَّة للشاعر إلاّ أنّه أغفل كماً كبيراً من النماذج التناصية التي استوظفها الشاعر في قصائده، مضافاً إلى أنّ المقال لم يتعرّض لدراسة الآليَّات والعمليَّة التناصية التي خلق بها الشاعر صورته الشعريَّة البديعة.

منهجية البحث

بنينا بحثنا هذا على أساس المنهج الوصفي والتحليلي لأنه يتماشى وموضوع الدراسة حيث يهدف إلى وصف وتحليل العيّنات المستمدة من القصائد. وإذا كان لابداً للتحليل - أيّ تحليل - أن يتلون بلونٍ فيجدر هنا أن يصطبغ بصبغة أسلوبية وفنية مع الاهتمام بأسباب التوظيف والطريقة التي وظفت بها ومدى خدماتها للمعاني المقصودة.

العرض اللغوي التعبيري والعرض اللغوي الذاتي

تمثل منظومة الإنسان الفكرية والثقافية التي يكسبها في حياته، فسيفساء متشابكة الأجزاء تستعرض مكونات شخصية الإنسان وتعبّر عن موروثه المعرفي والثقافي. واللغة كإحدى أهم وسائل التعبير الإنساني تقع عليها عادةً مسؤولية عرض هذه الفسيفساء وسوقها إلى الواجهة. نطلق على هذا العرض، العرض اللغوي التعبيري (الفكرة)، لأنه يرتبط بالجانب التعبيري للغة. فاللغة بوصفها أداة تعبير، تعكس كمرآة هذه الفسيفساء المتخفية وتعبّر عنها.

وإذا نظرنا في النص ذاته بعيداً عن دوره التعبيري، وجدنا أنها تمثل أيضاً فسيفساء أخرى تتداخل فيها الكلمات والعبارات والتراكيب اللغوية من مرجعيات متعددة، غير أنّ هذا التداخل يتم على مستوى لغوي داخلي (شكلي - دلالي - إيقاعي)، ونسمي هذا العرض الثاني عرضاً لغوياً ذاتياً. هكذا تظهر أمامنا - بناء على ما مرّ - فسيفساءان اثنتان، تجسّد أولاهما التعلق على مستوى العرض اللغوي التعبيري والثانية التعلق على مستوى العرض اللغوي الذاتي.

حدود العملية التناصية (العلاقات التفاعلية والإحالية)

تدخل الأجزاء الفسيفسائية، تارةً في علاقة مع بعضها وتارةً أخرى في علاقة مع مرجعياتها. تربط هذه الأجزاء بعضها ببعض، علاقة تفاعلية شاملة على مستوى العرض الذاتي. وتوضيح ذلك أنّ صورة تلك الأجزاء بعد مغادرة مرجعياتها والتحاقها بموطنها الجديد، لا تحيا فيه كنوع من التطفل عليه، بل تبدأ حياةً جديدةً مترابطةً ومتماسكةً مع أخواتها من مرجعيات أخرى. ويتمّ هذا الترابط بقيام علاقات تفاعلية بين الأجزاء على نحو من أنحاء التفاعل. وأمّا العلاقة التي تربط الأجزاء المترابطة بمرجعياتها ومصادرهما فهي علاقة إحالية، لأنّ كلّ جزء بذاته ينادي ويكي موطنه الأول ويحيل إليه.

إنّ طبيعة العلاقات القائمة بين القطع الفسيفسائية، تفاعلية اندماجية. تقع هاته العلاقات التفاعلية على مستوى العرض الذاتي، حيث تتكاتف معدّات الإنتاج اللغوي لتصوغ المعاني في قوالب إبداعية. ويتوقّف تشكيل صورة الفسيفساء النهائية على تفعيل هكذا نوع من العلاقات، وكذلك الحال بالنسبة إلى

النصوص فيتم تشكيلها من خلال تفعيل هذه العلاقات التي تتمثل في الآليات الثلاث: الصياغة أو الترتيب أو التصوير.

ومن هذه الناحية فإن العملية هي نفس ما تجري في اللغة وتوسع عالمها الرحب من صرفه ونحوه وبلاغته بأقسامها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع). إنما الفرق في كون الكاتب يشارك مع نصه نصوصاً من مرجعيات أخرى، ويحاول عن طريق دمج هذه النصوص مع نصه، خلق صورة تعبيرية جديدة. فمرة يحور في بنية النص الوافد المورفيمية والنحوية وتارة يحول صورة بلاغية إلى صورة بلاغية أخرى وطوراً يغير في محسناتها البديعية، فيعيد بذلك كله الصياغة أو الترتيب أو الصورة.

أما العلاقات الإحالية فقد تلعب الدور الريادي في العملية التناسية، حيث إن الكاتب يستطيع عبرها أن يشحن نصه الجديد بشيء من النصوص المرجعية على مستوى العرض اللغوي التعبيري (السياق أو المضمون). نقصد بالإحالة هنا حالة نقل القارئ من النص الجديد إلى النص المرجع أو النصوص المرجعية. يُحال إليها لكي يعود إلى النص الجديد بشيء من المعاني أو الدلالات أو لغاية معينة. قد ينشئ الكاتب الإحالة إلى مرجعية واحدة:



وقد ينشئها إلى حقل مرجعي يتكون من مرجعيتين أو أكثر:



وقد ينشئها إلى مرجعية عابرة يفيد منها القارئ شيئاً ثم يتجه نحو مرجعية أخرى ثم يعود إلى النص الجديد.



بعد أن تم الإحالة إلى المرجعيات يحاول القارئ إجراء عملية الموازنة ليستكشف المناسبات بين النصّ الجديد والنصوص المُحال إليها، وبذلك ينتهي إلى الغاية الجمالية أو المفهومية التي يسعى إليها الكاتب.

أشكال التناص

نظراً لضرورة ضبط وتصنيف النماذج التناصية في بحثنا، نضطرّ هنا إلى تنويع التناص باعتبار تواجده في النصّ الجديد. وسنختار التصنيف الذي يذكره الدكتور أحمد طعمة حلبي في إحدى مقالاته (حلبي، 2007م: 60-83):

- التناص الاقتباسي الكامل المنصص: هو أن يقتطف الشاعر نصّاً مستقلاً ومتكاملاً بذاته دون أن يغير في بنيته الأصلية.
- التناص الاقتباسي الكامل المحوّر: هو أن يقتطف الشاعر نصّاً مستقلاً ومتكاملاً بذاته مع تغيير في بنيته الأصلية.
- التناص الاقتباسي الجزئي: هو أن يقتطف الشاعر نصّاً غير مكتمل ويضعه في نصه اللاحق.
- التناص الإشاري: هو أن يستحضر الشاعر نصّاً عن طريق الإشارة المركزة.
- التناص الامتصاصي: هو أن يستلهم الشاعر مضمون نصّ ما ثم يقوم بإعادة صياغته بعد امتصاصه وتثريته.

وسنورد الأبيات التي تضمّ أكثر من شكلٍ واحدٍ من الأشكال الآنف الذكر، تحت عنوان "التناص المركّب" ونحدّد فيه أشكاله.

لمحة موجزة عن حياة الشاعر وشعره

حجة الإسلام الميرزا محمد تقيّ التبريزيّ المامقاني (1248هـ - 1312هـ) هو الابن الثاني للملا محمد المامقاني، ولد عام 1248 هـ في مدينة تبريز. بدأ تعليمه مع والده واستمر في تعلم المقدمات حتى عام 1269 هـ، عندما فقد والده. غادر في سنّ الثانية والعشرين، إلى النجف الأشرف للدراسة وعاد إلى تبريز بعد أن نثله على الأساتذة هناك. كان محدثاً مجتهداً من مشاهير علماء الشيعة واشتهر بأشعاره وقصائده التي نظمها بثلاث لغات هي: الفارسية والعربية والتركية. يتخلّص في شعره بـ «النير» وتضح قصائده التي أنشدها في المراثي بالحماس واللوعة والأسى. النير التبريزي هو أحد الشعراء البارزين ومن بين أولئك الذين كرّسوا كلّ قصائدهم تقريباً لموضوع أهل البيت عليهم السلام، لا سيّما وقعة الطف وبيان معاناة الإمام الحسين (ع) وأصحابه المخلصين، بحيث يمكن أن نلقبه بـ "حافظ عاشوراء" (نير تبريزي، 1386هـ.ش: 17).

له مؤلفاتٌ عديدةٌ منها: أشهرُ مؤلفاته صحيفَةُ الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار، وهو مقسم لقسمين: المناقب، والمعجزات، ومطبوعٌ في خمس مجلدات، مفاتيحُ الغيب، كشفُ السبحات في تحقيق الصفات، علمُ الساعة، لمحُ البصر، نصرَةُ الحقِّ، رسالةٌ حول الألف باء، تفسيرُ آية ما خلق الجنَّ والإنس (الطهراني، 1403: 5/1، 332/4، 15/15، 305/21، 38/18، 321/15، 321/21، 175/24، 241/19، 175/19). جُمعت بعض قصائد النير في ديوان اسمه "آشكده" أي معبد النار وسبب شهرته بهذا الإسم هو أن الشاعر ينظم قصائده بحُرقة وحماس في أحداث كربلاء المأساوية فيأخذ القارئ معه إلى النيران المضرمة في أرض كربلاء حيث يعطي الحب والتضحية مباشرة معناهما الأصيل والصادق بعيدا عن أي شائبة تدنسهما.

لمحةٌ عن القصيدة

يمدح الشاعر الإمام علي بن أبي طالب في قصيدة عربية تتكون من واحد وثمانين بيتا (نير تبريزي، 1386هـ. ش: 305-308) مطلعها:

سَحَّ طَرْفِي الدُمُوعَ حَتَّى تَنَحَّلِي وَفُؤَادِي مِنَ الْجَوَى لَا يُسَلِّي

والقصيدة منظومةٌ على البحر الخفيف. تشتمل على مقدمةٍ غزليةٍ يشكو فيها الشاعرُ لوعةَ الفراق وانهمار الدموع ونفاد الصبر. ثم يتحرَّقُ شوقاً إلى أرضِ الغرَّيبين ومعرَّسِ الأنسِ بها، ويمدحها مدحاً. ثم يبدأ بمدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ويذكر فضائله وأحقَّيته في الخلافة. ثم يقف عند قبر النبي (ص)، ويناديه ويشكو إليه ما حلَّ بالدين بعد وفاته. ثم يعرِّج على أحداث الخلافة انتهاءً إليه (ع) ويثني عليه. وفي النهاية ينادي أمير المؤمنين (ع) ويخاطبه ويسأله أن يتقبَّل منه بضاعته ويجود عليه.

أشكال التناص الديني في القصيدة:

التناصُ الاقتباسيُّ الكامل المحور

يقول الشاعر في مقدمته الغزلية:

لَا تَصُدَّنَّ طَرْفَ عَيْنِكَ عَنِّي هُوَ وَاللَّهِ قَاتِلِي لَيْسَ إِلَّا
سُلَّ بَيْنَ الْجُفُونِ مِنْهُ سَيْوْفٌ وَدَمُ النَّاطِرِينَ فِي الْبَيْنِ طُلَّا
أَعْدِرُ أَنِّي فِي ثَائِرٍ لَا يُرَاعِي مِنْ ذِمَامٍ وَلَا يُرَاقِبُ إِلَّا

يستدعي الشاعرُ في البيت الأخير قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (التوبة: 8) أو ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (التوبة: 10). تحمل هاتان الآيتان رسالة تحذير للمؤمنين من غدر المشركين الذين لا يثبتون على ميثاقٍ ولا يوفون بعهده (مكارم الشيرازي، 1426هـ: 539/5).

يقتطف الشاعرُ على مستوى العرض اللغوي الذاتي (الصيغة اللغوية والدلالية)، عبارةً مستقلةً من الآية ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ بشيءٍ طفيفٍ من التحوير في البنية الشكلية. فيحتفظ بفعليّة الجملة ويشفع الفعل "لا يرقبون" بفعل آخر هو "لا يراعي" ويغيّر في البنية المورفيمية للكلمتين ﴿ لا يرقبون ﴾ و﴿ ذمّة ﴾ ليصبحا بعد ذلك "لا يراقب" و"ذمام". وبالرغم من هذا التغيير على المستوى الشكلي، فإنّ مقومات البنية الدلالية تظلّ هي ذاتها دون تغييرٍ يذكر. وأمّا على مستوى العرض اللغوي التعبيري (المضمون) فيجرد الشاعرُ العبارة من سياقها في الآية ليضعها في سياقٍ آخر جديد يتلاءم مع الفكرة التي يقدمها نصّه الجديد.

يقدم الشاعرُ في مطلع القصيدة سلسلةً مترابطةً معنويًا من الأبيات الشعرية ليضطلع هنا في براعة بتوثيق الهيئته والدلالة الجمالية عبر هذا الاستدعاء القرآني ذي المرونة الساحرة. فيصور أهداب الجفون على شكل سيوفٍ مجردة لا ترمقها عينٌ إلا وسفح دُمها. وكثُر ما أهرقت العيونُ مهبج المغرمين لترديهم طلقاتها قتلى الشغف والهيام. ولكن هل لقتيلٍ حبٍّ حقٌّ أن يثارَ لنفسه فلا يرقب في المحبوب ذمّةً ولا يحفظ عهداً؟

لا يريد الشاعرُ إهمال خطاب الفكرة المعروضة في الآية وإنّ سياقها لم يختفِ تماماً بكلّ حذافيره عن النصّ الجديد، ولكنه اعتمد مساراً آخر للربط بين الفكرة في السياقين. ففي هذا الصدد ينشئ علاقةً إحاليةً وثيقة من خلال هذا التواجد الشكلي والدلاليّ الجلي، ليحيل القارئ إلى وجوه الشبه بين السياقين. وهنا تظهر براعة الشاعر النوعية، فقد أنشأ ترابطاً ذهنياً بديعاً بين المشهدين وترك للقارئ القيام بإجراء عملية استنتاج عقلي، ليقارن بين نصّ الشاعر ونصّ الآية فيكتشف وجوه الشبه التي افترضها الشاعر بين النصين. وبذلك أولاً يختصر في تعبيره لأنّه لم يذكر الدلالة المقصودة بالألفاظ حتّى تشغل حيزاً مكانياً في البيت وثانياً سيكون تأثير الصورة التي يعرضها أعمق على عواطف القارئ. وبعبارة أخرى فإنّ القارئ عن طريق هذه الإحالة، يستمدّ من النصّ المرجع دلالةً أو مفهوماً لطبقها في النصّ الجديد. فإذا كانت الآية توجه خطابها إلى المؤمنين تحذيراً لهم من المشركين الكفار الناكثين للعهود، فقد تمّ توجيه خطاب هذا البيت إلى المحبوب اعتذاراً له وكأنّه يحذر نفسه أن يخاطب قوماً لا تخلو

سلوكهم من شائبة الشرك أو الكفر عند شريعة المحييين لأنهم لا يحفظون للحب عهداً فينتهكون حرمة المحبوب ويتربصون للثأر منه مجرد أن تشبَّ في قلوبهم نيران الجوى واللوعة.

وضمن مقدمته الغزلية يسلم النير للمحبيب مطلق العنان ويناديه بخطاب بديع:
فَاقْضِ يَا ذَا الْقِصَاصِ مَا أَنْتَ قَاضٍ قَدْ مَلَكَتِ الرَّقَابَ عَقْدًا وَحَلًّا

في لمح البرق تحضرنا الآية الكريمة: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه:72) التي تتضمن رد السحرة على وعيد فرعون في حجة بالغة مفهوماً ومنطوقاً (الطباطبائي، 1997: 255/5). تتمتع فقرة الآية ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ بصيغة شكلية بديعة ربما هي من أهم الحوافز التي رغبت الشاعر في توظيفها، حيث تجمع بين إيقاعية الكلمات المتألفة وبين اختزالية التعبير. فأمدّها بـ "يا ذا القصاص" ليضيف في دلالة النص بما يتفق مع السياق.

وأما بالنظر إلى الفكرة عند النص المرجع فلم يقطع الشاعر العبارة من سياقها قطعاً باتاً ولم يجعل حياة النص قاصرة على مستوى صياغي ودلالي بحت. يحيل القارئ إلى مضمون الآية ولكن ليس أيما إحالة. يحيله فيوسع في نطاق إنتاجية النص ويتبع بخياله الشعري المنح مساراً مفهوماً معاكساً لما جاء في الآية، لتدب في النص حياة متجددة تفيض بمشاعر الحب والإخلاص. فإن السحرة لما آمنوا لموسى (ع) وهدهم فرعون بالقتل شر قتلة، فقد قاصوا من دائرة قضاءه واعتبروه محدوداً بالحياة العاجلة ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وألغوا له ملكية الرقاب التي كان يدعيها لنفسه ويقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مُضْرٌ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف:51).

لكن الشاعر على خلافهم يوسع من هذه الدائرة ويثبت للمحبيب ملكية الرقاب بمفهومها الرحب وهكذا يعتبر له ملكية مفاتيح الحل والعقد. هذه الإحالة قد لا تطير بالقارئ إلى النص المرجع ليسحب منه خطاباً أو مفهوماً مباشراً أو دلالة إضافية إلى نصه الجديد، لكنها تريد أن تضع القارئ أمام علاقة تقابلية بين الشخصيتين في خطاب الآية وفي خطاب هذا البيت. يقف في ناحية الخطاب الأول فرعون الطاغية الذي ينفى عنه القضاء إلا في الدنيا ويلغى له ملكية الرقاب، ويقف في الناحية المقابلة له المحبوب الفاتن الذي يثبت له مطلق القضاء وملكية الرقاب والقصاص. فالإحالة هنا تكشف للقارئ عن أسلوب تعبيرى مميز يعرف بـ "التقابل" أو "المقابلة" أو "الطباق"، يقوم على أساس مبدأ التضاد أو التناقض بين المعاني والألفاظ أو الشخصيات، من أجل غايات بلاغية وفكرية. فشدّة مبغوضية

الشخصية في الآية وضيق دائرة اختياراته تجعل القارئ ينتقل إلى مدى محبوبية الشخصية في بيت الشاعر وسعة دائرة اختياراته.

يصف الشاعر أرض الغريين:

حَبْدًا وَقَفْفَةً بِنَهْرِ الْمَعْلَى وَنَجُومٍ مِنْ أَفْقِهِ تَتَجَلَّى
وَعُهودٌ خَلَّتْ بِأَرْضِ الْغَرِيِّينِ سِنِ سَقَتِهَا الْحَيَاءِ وَبَلَاءٍ وَطَلًّا

جمالية أخرى خلقها الشاعر على صعيد التناص القرآني. يوحي البيت الأخير بقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَثُبَاتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُفَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: 265).

الوبل شديد المطر والطلُّ رذاذه (مختار الصحاح، مادة: "وبل" و"طل") ويقصد بـ "الغريين" أرض النجف المقدسة التي تشرفت بمضجع الإمام علي بن أبي طالب (ع). يقتطع الشاعر عبارة متكاملة من سياق النص القرآني ثم يعيد الترتيب فيها "جنةً أصابها وابلٌ أو طلٌّ". وفي الخطوة التالية يقوم بإجراء تغيير واسع ومعقد نسبياً على مستوى البنية الشكلية والدلالية، فيحلل "وابل" إلى "مطر" و"وبل" ويستبدل بـ "المطر" الحياء وبـ "الجنة" أرض الغريين. وهكذا يصطف في نص الشاعر عدد من الكلمات بالتوازي مع عدد من الكلمات في الآية. وبذلك يحول الشاعر الصورة الفنية في النص المبدأ إلى صورة فنية أخرى تعتمد التشبيه كمصدر جمالي لها. وبفضل العلاقة الإحالية التي يقيمها بين النصين، تبدأ رحلة القارئ من "أرض الغريين" إلى "الجنة" ومن "الحياء" إلى "المطر"، أي من مشبه به حسي إلى حسي آخر ومن مشبه به عقلي إلى مشبه حسي.

تقلب هذه الإحالة تقنية الاستعارة إلى تقنية التشبيه، فبالاعتماد على نص الشاعر وحده، لا أثر لأحد طرفي التشبيه فيه، الأمر الذي يجعل القارئ يحكم بادئ الأمر باستعارية الألفاظ. ثم بعد تفعيل عملية الإحالة ونقل القارئ إلى الآية، تبدل هذه التقنية عنده إلى التشبيه، إذ يبدو النص وكأنه جمع بين المشبه والمشبه به في ثانيا نفسه. وربما نستطيع تسمية هذه الإحالة بـ "إحالة التشبيه" لأنها في الواقع تمثل حبل الربط بين طرفي التشبيه في نصين مختلفين لتؤدي ما يؤديه ولكن بطريقة تحتاج إلى استحضار وتمعن وإعمال الفكر، وهي أبلغ من التشبيه ذاته لما يذهب إليه أحمد الهاشمي في كتابه "جواهر البلاغة": "تنشأ بلاغة التشبيه: من أنه ينتقل بك من الشيء نفسه، إلى شيء طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثله

وكلّما كان هذا الانتقال بعيداً، قليل الخطور بالبال، أو ممتزجاً بقليلٍ أو كثيرٍ من الخيال، كان التّشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها" (الهاشمي، 1999: 245).

يجري القارئ بعد أن تمّت إحالته إلى النصّ المرجع، محاولاته لاكتشاف وجوه الشبه ليستعين بها على تخيل الصورة الفنيّة وعناصرها في النصّ فيستخلص في نهاية المطاف إلى: أنّ هذه الأرض جَزَلَةٌ العطاء تنبُضُ بالحياة وتُدْرُ بالخلود. وهي جنةٌ لم يزل الحياءُ يرويها وبلاً أو طلاً على مَرِّ العُصور لتغدق ثمارها أضعافاً مضاعفةً.

ويوجه هنا السؤال إلى القارئ:

فهل النجم إذ تهاوى إلى الأرو... ض إلى بيت من هوى وأدلاً

تجسّد في البيت الآية الأولى من سورة النجم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم:1) بشكلٍ واضحٍ وصرحٍ. فن الناحية الشكلية يتراءى للقارئ حضوراً ملموساً لأجزاء هذه الآية في نصّ الشاعر. فقد أحضر كليتي: "النجم" و"هوى" بالصيغة نفسها وأتى بكلمة "إذ" الظرفية لتكون بديلاً عن "إذا" الشرطية في الآية. وقد يشعر القارئ بادئ الأمر بغرابة تجاه هذا الاستدعاء القرآني. فإنّ الذاكرة القرائية تتفاوت من قارئ لآخر والقارئ لكي تمّ إحالته إلى مرجعيّات النصوص لا بدّ له أولاً أن يتحدّ مع أفق رؤية الشاعر وثقافته.

فحسب الرؤية المفهومية والتفسيرية المألوفة عند عامة الناس لـ "النجم"، تأتي هذه الآية لتصور مشهداً من المشاهد المروعة يوم القيامة فهي تصور سقوط النجم وانتثاره في ذلك اليوم (الطبرسي، 1995: 287/9). وهذه الصورة ربّما هي أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ عادةً، وقد تقف عائقاً في طريق العملية الإحالية القائمة بين نصّ الشاعر ومفهوم الآية. وقد يحسّ القارئ غير المثقّف تفسيرياً هنا، بعدم القدرة على التّماهي مع الشاعر وأغراضه. لكنّ الشاعر لا يتوخّى أبداً إحالته إلى هذه الرؤية المألوفة وإنما يروم إحالته إلى نظرة تفسيرية أخرى، والنجم عنده في هذا البيت، ليس ذلك الجرم السماويّ المضيء في الفضاء، بل عنى به "القرآن الكريم" وقد عبّر عنه بالنجم لأنّه نزل نجوماً خلال ثلاث وعشرين سنةً أي في مراحل وفواصل (مكارم الشيرازي، 1426هـ: 206/17). فكأنّ الشاعر يقول: أسأل القرآن إذ نزل، إلى بيت من نزل؟ وهذا السؤال لم يطرحه على القارئ اعتباطاً، بل يطرحه عليه ليحيله مجدداً ولكن ترى أين ستكون الوجهة الثانية؟

يحيله هذه المرة إلى قول من قصده هذه القصيدة شغفاً به وحباً له، ليحتكم إليه في الإجابة على هذا السؤال. أي يحيله إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) فيما روي عنه: "نحن أهل البيت لا يُقاس بنا أحد، فينا نزل القرآن وفينا معدن الرسالة" (ابن بابويه، 1984: 220).

فكأن الشاعر أراد أن يعطي المعنى من وراء حجاب، فاعتمد أسلوب التورية (الإيهام) وجعله يتردد بين مرجعين مختلفان في تفسير الآية. فأصبحت الآية الإحالة مترددة، تارة إلى هذه وتارة إلى تلك.

يرفع الشاعر يد الحاجة إلى مولاه منادياً إياه:

صِلْ وَجُدْ أَيُّهَا الْعَزِيزُ وَأَوْفِ الْكَيْلَ وَازِدْهُ مِنْ نَوَالِكَ كَيْلًا

فيه إحالة واضحة إلى الآية ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيَضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (سورة يوسف: 88). يبدأ الشاعر بمخاطبة أمير المؤمنين (ع) ويناديه بـ "أيها العزيز" ليشعر القارئ بالمرتبة التي يحتلها من خلال إقامة إحالة مقارنة تبعث القارئ على البحث في خصائص الشخصية في الآية ليعود بها إلى الشخصية في بيت الشاعر. فقد كان يوسف نبياً مخلصاً جمع الله له النبوة والإمامة والحكم في الدنيا. وجمع أيضاً الإمامة والحكم لعلي (ع) ولم يكن نبياً لأنه انتفت الحاجة إلى رسالة جديدة بعد خاتم الأنبياء" (مكارم الشيرازي، 1428: 375/1).

وربما في كلمة "العزيز" إلماعة إلى ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: "الإمام المَاءُ الْعَذْبُ عَلَى الظَّمَا وَالذَّالُّ عَلَى الْهُدَى الْإِمَامُ الْمُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ الْمُطَّلَعُ عَلَى الْغُيُوبِ الْإِمَامُ هُوَ الشَّمْسُ الطَّالِعَةُ عَلَى الْعِبَادِ بِالْأَنْوَارِ فَلَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى وَعِزَّتُهُ فَالْعِزَّةُ لِلنَّبِيِّ وَلِلْعِتْرَةِ" (المجلسي، 1983: 169/25).

يسأل الشاعر الإمام صاحب العزة (ع) أن يصل ويجود عليه والعبارة "أوف الكيل" تحيل إلى الآية لينزل نفسه منزلة إخوة يوسف (ع) ويقول يا أمير الوري إنني مسني الضر وحيث لك ببضاعة مزجاة فأكرمني كما أكرم النبي يوسف عليه سلام إخوته وتقبل منهم بضاعتهم المزجاة، وأوف لي الكيل كما أوفى لهم وزدني من عطائك كَيْلًا آخِرًا.

التناص الإشاري

ويقول ضمن سلسلة أبيات يصف فيها أرض الغريبيين:

وَطُورًا عَلَى الْغُصُونِ يُغْنِي نَحْنُ لُحُونَ الزَّبُورِ فَصَلًا فَفَصَلًا

ولم يلبث أن تسمو بنا الإشاراتُ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّالِ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (سبأ:10) و﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا حُكْمًا وَعَلَّمُوا صَخْرَتَنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:79). يستدعي الشاعرُ هاتين الآيتين من خلال إشارات متناثرة مبثوثة في ثنايا بيته. ويعيد إلى ذاكرة القارئ قول الإمام الصادق (ع) عند ذكر قصة النبي داوود (ع): "إنه خرج يقرأ الزبور وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا أجابه" (الطباطبائي، 1997: 367/16).

ينتقي الشاعر من المرجعيّات المذكورة أعلاه إشارات متمثلةً في "طيور" و"يغني" و"لحون الزبور" ليحيل - عبر هذه الإشارات الصريحة نوعاً ما - إلى القصّة المحكيّة في الآيتين والرواية المذكورة. فهي تسرد لنا لقطةً من قصّة النبي داوود (ع)، لما سخر الله معه الجبال والطيور ليقطنن به ويسبحن بتسبيحه. لم تكن الصيغة الشكليّة أو الدلاليّة في هذه النصوص لتشغل اهتمام الشاعر بقدر ما شغلته روح الفكرة، وهذا ما شجعه على اختيار آليّة تطلق له العنان وتترك له الحرية في توثيق عرى العلاقات التفاعليّة القائمة بين الألفاظ أو دلالاتها وفقاً لسياق نصّه. أما آليّة الإحالة فإنّها تملك الكفاءة الكافية لنقل القارئ إلى مرجعيّات النصّ على جميع مستوياتها، مهما تقلّصت نسبة وضوح الإشارات فيها. تسير الإحالة بالقارئ إلى الآية لتدفعه إلى إجراء موازنة بين سياقها وسياق نصّ الشاعر. فموضوع سياق الآيتين يدور حول النبي داوود (ع) بينما يدور موضوع سياق بيت الشاعر حول عليّ بن أبي طالب (ع). والقاسم المشترك بين السياقين هو تغنية الطيور بلحون الزبور الذي هو ذكر الله وتسبيحه. وهذه الإحالة الموازيّة تشغل ذهن القارئ ليبحث عن وجوه الشبه التي تربط بين الشخصيتين. فإن كانت الطير تغرد مع داوود (ع) وتسبح فلا غرو من ذلك لأنّه نبيٌّ من أنبياء الله، ولكن من هو عليّ (ع) لتغني الطيور وتسبح في مضجعه؟ تتفعل هنا ذاكرة القارئ الدينيّة لتتذكّر حديث النبيّ (ص) حيث قال لعليّ (ع): "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي" (ابن حنبل، 1983: 566/2). وهكذا يحاول الشاعر الإشارة إلى مرتبة ومنزلة صاحب هذه البقعة الطاهرة من خلال هذه الآليّة المعتمدة.

هذه إثمًا وليكمُ اللّهُ تُمَادِي بِهِ نَهَارًا وَوَلِيًّا

يرسل الشاعرُ أبياتاً عن جلاله هذه البقعة المشرفة ليرسو عند مصدرٍ هذا المجد والعظمة بإيماءة قرآنية رائعة. فإن هذه البقعة التي تؤمُّها العيون وتتعطش إليها الأفتدة يربض فيها مرقدُ أسد الله الغالب علي ابن أبي طالب (ع) الذي أنزل الله تعالى في شأنه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (سورة المائدة: 55).

أما على مستوى التركيبة الصياغية، فيستحضر الشاعر مطلع الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ ليس فقط ليرمز إليها على المستوى الدلالي، بل لينوب منابها على المستوى التمثيلي أيضاً بمعنى أن هذه الإشارة المركرة تمثل الآية بعينها في نص الشاعر وقد أبقى على هويتها مثلما هي في الآية تماماً، فلم يتم تجريدُها عن سياقها الأول وقد أحضرها بكل خصائصها ودلالاتها وأغراضها.

إذن تعمل هذه الإحالة على إعطاء الإشارة دور المرجعية بهويتها الكاملة في نص الشاعر بدلاً من أن تذكر فيه مباشرة. فهذه آية الولاية التي تنادي من احتضنته هذه البقعة المباركة آتاء الليل وأطراف النهار، أو قد يكون المراد أن هذه الأرض هي أرض هذه الآية التي نزلت في حق من رقد فيها فتنادى (هذه الأرض) بها ليلاً ونهاراً.

بأبي مصدرُ الوجودِ ولولاه لعادت أم القوابل ثكلي

يشهد هذا البيت إنتاجيةً على نطاقٍ واسع، تشمل العلاقات التفاعلية والإحالية على كلا المستويين الذاتي والتعبيري. يحيلنا سياق البيت مباشرةً إلى حديث "لولاك": روي في الحديث القدسي عن الله عز وجل أنه قال: "يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما" (التمازي الشاهرودي، 1419: 243/8).

يتناول الشاعر الحديث فيجري عليه عملية الهدم على المستوى الشكلي والدلالي، ثم يبني هيكلاً شكلياً ودلاليّاً جديداً لمضمون الحديث ليقدمه بأسلوبه الخاص به. تحمل لفظة "لولاه" في البيت صفة الصراحة وتعتبر حضوراً فيزيائياً للنص المرجع في النص الجديد وقد أتت لتسهل على القارئ انتقاله إلى المرجعية المطلوبة. يتجسد المقطع الأول من الحديث في الشطر الأول من بيت الشاعر. أما الجزء الثاني فيقابل الشطر الثاني من البيت ولكن مع إدخال تغييرات أساسية على مستوى العلاقات التفاعلية. يبقى الشاعر على المفهوم ويعيد بناء الصورة الدلالية للحديث، بمعنى أنه يحول فيه الصورة البيانية إلى صورة بيانية

غيرها. ويضيق في دائرتها ليجعل خلق الكون، خلق الإنسان فقط. فيقول: لولا علي لأجهضت الأمهات وأصبحن ثكلي.

صورة أنزعية من رآها كبر الله ذا العلي وأهلاً

يحيل وصف الشاعر أمير المؤمنين (ع) بـ "صورة أنزعية" القارئ إلى حقيقة لا يعرفها إلا واسع المعرفة بالتأريخ وحقائقها، وربما هذا هو السبب وراء محاولة الشاعر لإزاحة اللثام عن هذه الحقيقة. فقد اتخذ العملية التناسية سبيلاً ليثقف القارئ البسيط ويطلع على واقع مضرب أظلمته عتمة التأريخ المنقول والأعيبه.

وصف أمير المؤمنين (ع) في التأريخ بأنه كان أنزع. ونزع نزاعاً: انحسر شعره عن جانبي جبهته، فهو أنزع، وهي نزاع. ونسب إليه أنه أصلع شديد الصلع ونسبوا إلى ابن مسعود قوله لأبي الطفيل: "لم تر إلى رأسه كالطست، وإنما حوله كالخفاف". "وإن ذلك غير صحيح، بل يقصد منه تقديم صورة بشعة تسمت من النفوس، وتجتأ الأذواق، رغبة في تنفير الناس منه وعنه والصحيح: أنه (ع) كان أنزع" (العالمي، د. ت: 354/1).

أما الشاعر فينزه له الصورة ويمجدها ليحيل إلى واقع الأمر. فقد وصف أمير المؤمنين (ع) بأنه "الأنزع البطين"، وروي عن الإمام الرضا، وعن الإمام الهادي، عن آباءه، عن الإمام الصادق عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام: أن رسول الله (ص) قال: "يا علي، إن الله عز وجل قد غفر لك، ولأهلك، ولشيعتك، ولحبي شيعتك، فأبشر. فإنك الأنزع البطين: المتزوع من الشرك، البطين من العلم" (الخوارزمي، 1411: 294).

وهو قطب الرحي تدور عليه دوائر الأكوان علواً وسفلاً

يلتقي الشطر الأول بما يحويه من معاني مع ما روي عن أمير المؤمنين (ع) علي بن أبي طالب (ع) في الخطبة الشمشقية في نهج البلاغة حيث قال: "أما والله لقد تمصها فلان وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي...". (نهج البلاغة، 2004: 41). فهو أحق بالخلافة من غيره.

وما روي عنه (ع) حيثُ قال: "أنا سرُّ الأسرار، أنا شجرةُ الأنوار، أنا دليلُ السَّمَاواتِ أنا أنيسُ المسبَّحات، أنا خليلُ جبرائيل، أنا صفيُّ ميكائيل، أنا قائدُ الأملاك، أنا سمندلُ الأفلاك، أنا سريرُ الصراح أنا حفيظُ الألواح، أنا قطبُ الديجور، أنا البيتُ المعمور، أنا مزن السحاب أنا نورُ الغياهب ...". (الحسيني الميلاني، 1426: 81/12).

ذكر الزبيدي في تاج العروس للديجور عدّة معانٍ، قال: "الديجور: التراب الأغر الضارب إلى السواد كلون الرماد ...". (تاج العروس، مادة "دجر"). وعليه يحيل الشاعر ليذكر القارئ بهاتين المرجعيتين ويقول: "إنَّ عليّاً هو المحور الذي يدور عليه سائر ما خلق الله من التراب وخاصةً الإنسان والأخص منه شيعة عليّ (ع). ويدلُّ عليه الكنية التي كآها به رسول (ص): "أبو تراب"، وفيه إشارة إلى قوله عز وجل: ﴿ويقول الكافريا ليتني كنت ترابا...﴾ (النبا: 40) أي يومئذٍ يتمنى الكافر لو كان من شيعة عليّ بن أبي طالب كما ورد ذلك في بعض تفاسيرنا" (مركز الأبحاث العقائدية).

يسأل النبر أمير الوري (ع) أن يقبل بضاعته المزجاة:

فتقبّل منه بضاعة عافٍ لم يجد للوفود غيرك أهلاً

ويلتقي هذا البيت مع الآية: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف: 88)، ومع ما روي عن سلمان الفارسي أنه خطَّ على كفته الأبيات التالية (النوري الطبرسي، 1411: 139):

وفدت على الكريم بغير زاد من الحسنات والقلب والسليم
وحمل الزاد أقبح كل شيء إذا كان الوفود على الكريم

فأحال إلى هاتين المرجعيتين ليعطي للقارئ معنى بديعاً من خلال مشاركة دلالاتهما ومضمونهما مع سياق أبياته. ويعني بقوله "بضاعة عافٍ" بضاعة من جاءك طالباً منك الكرم والفضل. وكأنه يقول: البضاعة التي أفد بها عليك مزجاة ولكنك مكرام معطاء مفضل فحمل الزاد إليك أقبح كل شيء لأنَّ الكريم يعطي من دون أن يطلب مقابلاً لهذا العطاء، كما كانت بضاعة إخوة يوسف مزجاة ولكنهم عندما وفدوا على أخيمهم الكريم يوسف (ع)، أجزل عليهم العطاء ولم يخيب لهم الرجاء.

التناص المركب (الكامل المحور- الإشاري)

ويشير إلى حقيقة الإمام النورية بقوله:

صعقا من سناه لما تجلّىذاك نور الله الذي خرّ موسى

تمّ عملية تعالق النصوص في هذا البيت عبر ثلاثة مصادر مختلفة. وقد نضحت بها ثقافة الشاعر الدينية وصيغت في قالب شعريّ يتمتع ببساطة محببة، تحرك مشاعر القارئ الدينية بمشاهد حسية قوية. فيستدعي من القرآن، الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:143). ويستدعي من الحديث ما روي عن الإمام موسى بن جعفر (ع) حيث قال: "إنّ الله تبارك وتعالى خلق نور محمد (ص) من اختراعه، من نور عظمته وجلاله، وهو نور لاهوتيته الذي تبدّى وتجلّى لموسى (ع) في طور سيناء، فما استقرّ له ولا أطاق موسى لرؤيته، ولا ثبت له حتى خرّ صعقاً مغشياً عليه، وكان ذلك النور نور محمد (ص) فلما أراد أن يخلق محمداً (ص) منه قسم ذلك النور شطرين: نخلق من الشطر الأول محمداً (ص)، ومن الشطر الآخر علي بن أبي طالب (ع)، ولم يخلق من ذلك النور غيرهما." (المجلسي، 1983: 28/35).

وفيما يتصل بالآية يقتطع الشاعر منها ﴿خرّ موسى صعقاً﴾ و﴿لما تجلّى﴾ للإحالة إلى المشهد الرهيب الذي تصوّره الآية، وتمدّها من بعدها إحالة أخرى بـ "نور" كإشارة مكثفة إلى قصة التجلّي بتفاصيلها الكاملة. فلم تذكر الآية أنّ نور اللاهوتية هو ما تجلّى للنبيّ موسى (ع)، فكان لا بدّ من اكتمال الصورة عند القارئ من خلال هذه الإحالة المزدوجة التي شددت أزر بعضها البعض. سيفتح الشاعر في هذه المرحلة نافذة جديدة لتكون الحلقة الأخيرة للمكتملة للسلسلة الإحالية. وهذه النافذة تتمثّل في الإسناد الذي يوثقه في مطلع بيته "ذاك نور الله الذي" التي تنفتح - بالإضافة إلى ما مرّ في الرواية السابقة - على ما روي عن رسول الله (ص) أنه قال: "خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ نُسِجَ اللَّهُ يَمِينَةَ الْعَرْشِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ آدَمَ بِالْفَنِيِّ عَامٍ" (النيسابوري، د.ت: 129/1).

وهكذا يضع الشاعر القطعة الأخيرة في اللوحة السيفيسائية. والذي قد يثير إعجاب القارئ في العملية التناصية هذه، هو أنّ الشاعر ينطلق به في سلسلة إحالية هي في الحقيقة حجج وأدلة نقلية على الفكرة التي يقدمها. هذه السلسلة هي:

○ تجلّى ربّه للجبل نحرّ موسى صعقاً بناءً على الآية

○ تجلّى نور محمد (ص) الذي خلق من نور عظمة الله وجلاله، اعتماداً على الرواية الأولى.

○ تجلّى نور عليّ (ع) لأنه والنبيّ (ص) خلقا من نور واحد، اعتماداً على الروايين.

ويحتجّ على الأمة فيقول:

فليجيزوا	فعال	أمة	موسى
حيث	كانوا	أشدّ	رُكّاء وأقوى
حين	ما	قلّدوا	الإلهة
عجلا	عجلا	وأعذر	قولا
عده	منهم		

يوجي الشطر الثاني من البيت الأول بقصة العجل التي روتها الآية: ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: 51) والآية: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (أعراف: 138).

يشير الشاعر هنا إلى قصة العجل التي تطرّق لها القرآن الكريم في عددٍ من آياته. وربما تبدو للقارئ الهاوي غير المتعمّق أنّه يريد إحالته إلى الآيتين آنفتي الذكر اللتين ترويان هذه القصة في القرآن الكريم، وتغيّب عنه إشارات الشاعر في الشطر الأول والثاني اللذين ينطلق منهما في عملية تناصيّة إلى مرجعيّة أخرى. ولقد مرّ فيما سبق أنّ القارئ ليفكّ شفرات النصّ لا بدّ أن يطّلع على أفق الشاعر الفكريّ والثقافيّ وأن يتتقّف به جزئيّاً على الأقلّ.

ففي عبارته "فليجيزوا فعال أمة موسى" إحالة لما روي في شأن الآية الثانية من رواياتٍ مثل ما روي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله (ص) قبل حنين، فمرنا بسدره، فقلت: يا نبي الله اجعل لنا هذه ذات أنواط¹، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدره، ويعكفون حولها. فقال النبي (ص): الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، إنكم تركبون سنن من قبلكم" (الترمذي، 1975: 75)، وما روي عن عبد الله - يعني ابن مسعود - قال: قال رسول الله (ص): أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل، لتركبن طريقتهم حدّو القدّة بالقدّة، حتّى لا يكون فيهم شيءٌ إلا كان فيكم مثله" (المهيتمي، 1994: 261/7).

خيوط الإحالة التي يربطها الشاعر هنا، تصل بالقارئ إلى ذاكرته القرائيّة حول تفسير الآية وما روي في شأنها، فأشار إلى أمة موسى (ع) ليحيل إلى مضمون الروايين الذي يفيد بأنّها أشبه الأمم بأمة النبيّ

¹ ناط الشيء ينوطه نوطاً، علّقه. والأنواط ما يعلق على اليهودج أو غيره، وهي المعاليق. ذات أنواط: شجرة كانت تُعبد في الجاهليّة؛ "قال ابن الأثير: هي اسم سمرّة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها بسلاحهم، أي يعلقونها بها ويعكفون حولها". (ابن منظور، لسان العرب، مادة "نوط")

(ص) في فعالهم، وأنَّ الأخيرة سترتكب كلَّ ما ارتكبه الأولى. هذه الإحالة عقدها الشاعر لتذكّر الأمة بما تنبأ به النبيّ (ص) في حقّها وما وقع بالفعل بين أفرادها.

أما البيت الثاني فعلى المستوى الشكليّ والدلاليّ السطحيّ يحضر إلى ذهن القارئ آيتين هما: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود:80)، و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مِن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص:78). فقد استفاد الشاعر من الألفاظ الواردة في هاتين الآيتين مثل ﴿ركنٍ شديدٍ﴾ و﴿أشدُّ منه قوَّةً﴾ ومن روح الدلالة في عبارة ﴿أكثرُ جمعاً﴾ ليحوّلها إلى "أقوى منهم عدّة".

وعلى مستوى الفكرة والمضمون يقيم الشاعر الإحالة إلى الآية الثانية بكلّ ما تؤدّيه من معنى وفحوى. فالآية تتناول "قارون" أحد شخصيات قوم موسى الباغي والطاغية الذي زعم أنّه جمع المال بعلمه وحسن تدبيره وأنّه سوف يستطيع الإفلات من قبضة العذاب الإلهي. وهكذا يحاول الشاعر ليربط بين موقفين وقفهما بعض من أمة موسى (ع) وبعض من أمة النبيّ (ص) امتداداً لما انتهى إليه البيت الأوّل. وبالنظر إلى قوم موسى فيراهم الشاعر أشدّ ركباً وعدداً من هذه الأمة فقد كانوا كثيري العدد وكانوا يمتنعون بدعم أشدّ وأقوى مثل قارون الذي كانت له ثروة عظيمة قلّ لها نظير بين الأمم وكانت أيضاً حجّتهم أعذر من غيرهم ربّما بسبب طول معاناتهم القاسية في مصر على مدى سنين، ولم يمنع كلّ هذا من أن يحلّ بهم العذاب وأن يلقوا مصيرهم المحتوم.

لا ومن شقّ جانب البيت حتّى
فتخلّت عن أسبح هاشميّ
دخلت فيه أمه وهي حُبلى
بوركت حاملاً وبورك حملاً

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى قصة ولادة أميرالمؤمنين (ع) في الكعبة. وهذا قد لا ينبغي أن يعدّ تناصاً حيث أنّه لا يعدو عن كونه تقريراً لحادثة تاريخية معينة والتقرير ليس تناصاً بأي حال من الأحوال. أما الشاهد فهو المصراع الثاني الذي يحيل إلى الآية ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:8).

يريد الشاعر أولاً التنبيه إلى قدسيّة البيت الذي ولد فيه الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) تماماً مثل الأرض التي وطأتها قدما موسى (ع). هذه الآية وإن لم تكن قد أشارت إلى هذه الأرض بصورة مباشرة إلا أنّها تناولت جزءاً من قصة النبيّ موسى (ع) التي ذكرت سائر تفاصيله في الآيات الأخرى،

فإمكانها أن تؤدي دور هذه الآيات فيما يخص هذا الجزء. فهي "تحاكي قوله من سورة طه ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه:12) (الطباطبائي، 1997: 343/15).
والإحالة الثانية تحيلنا مباشرة إلى الآية وكأنّ صدى هذه المناذرة يتردد مرةً أخرى ولكن هذه المرة في المكان والتوقيت المختلفين. في الكعبة تلك الأرض المقدّسة وعند ولادة مولود مبارك.

التناص المرّكب (الكامل المحوّر - الامتصاصي)

يوجه إلى المخاطب بأسلوبه الاحتجاجي:

وَسَلِّ الشَّمْسَ مِنْ أَقَامَ فَنَاهَا بعد ما كُوِّرَتْ فقامَ وصَلِّ

يتناص بيت الشاعر مع الآية ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:1). يعيد صياغتها النحوية فيفصل بين كلمتي "الشمس" و"كوّرت" ويستعيز عن الشرط (إذا) بـ"الظرف (بعد ما)". وعلى مستوى السياق فإنّ الآية تصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة المرعبة، عندما تُكوّر الشمس أي تزول ويذهب بضياءها (الزخشي، 1996: 707/4). ويتناص أيضاً بيت الشاعر مع مرجعية أخرى، تروي لنا حادثة ردّ الشمس المعروفة. يروي الحموي في كتابه فرائد السمطين عن أسماء بنت عميس "أن رسول الله (ص) كان رأسه في حجر عليّ (ع)، فكّره أن يحركه حتّى غابت الشمس ولم يصلّ العصر، ففرغ رسول الله (ص) وذكر عليّ (ص) أنه لم يصلّ العصر، فدعا رسول الله (ص) أن يردّ عليه الشمس، فأقبلت الشمس ولها خوارٌ حتّى ارتفعت على قدر ما كانت وقت العصر، قالت: فصلّى ثم رجعت" (الماحوزي البحراني، 1417: 419). فالصياغة الشكلية التي اختارها الشاعر هنا للإحالة إلى المرجعية الثانية، تمّ امتصاصها وتدويرها في النصّ وقامت مقامها الدلالة المفهومية التي مفادها "من أقام فناها - فقام وصلّي".

إنّ الآلية الإحالية التي يلجأ إلى توظيفها الشاعر في خصوص هذا البيت، مذهلةٌ جداً. فإنّه يريد في الأساس أن يحيل القارئ إلى حادثة ردّ الشمس. ولكن قبل أن يتمّ هذا، يعبرُ به من خلال مرجعية أخرى ثانية. مرجعية تشبه في بعض ملاحظها هذا الحادث الجلل الذي سوف يقع عند قيام الساعة. فيعبرُ به من خلال الآية ليدرك مهابة الموقف وعظمتها فيأخذ معه هذا المعنى ثمّ يتجه نحو الرواية وهكذا بدلاً من أن يمضي به قدماً باتجاه المستقبل في سياق الآية، يقلب الاتجاه ليسير به نحو الماضي في سياق الحديث الذي يسرد لنا قصة ردّ الشمس.

التناص المرکب (الإشاري - الامتصاصي) جلّ نفس الرسول عن أن تسامى ضلّ قومٌ بغوا لمثلك مثلاً

من عادة الشاعر أن يملأ أبياته بمعطياته الثقافية والمعرفية الفائضة تتجلى بشكلها أحياناً وتختفي بمضمونها المبطن أحياناً أخرى. يذكرنا الشطر الأول بآية المباهلة المعروفة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: 61). وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في شأن أصحاب الكساء الخمسة بمن فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). ويراد بـ "أنفسنا" علي (ع) وهذا إن دلّ على شيء ف"يدل على غاية الفضل، وعلو الدرجة والبلوغ منه إلى حيث لا يبلغه أحد، إذ جعله الله نفس الرسول. وهذا ما لا يدانيه فيه أحد، ولا يقاربه" (الطبرسي، 1995: 311/2). ولذلك فلا يسامى أي لا يمكن مقارنة هذه الشخصية التي هي تمثل نفس الرسول (ص) بأي شخصية أخرى ولا يجوز أن نلتمس لها مثلاً وههنا تعود بنا إحالة ثانية إلى ما روي عن رسول الله (ص): أنا وعلي من شجرة واحدة، والناس من أشجار شتى (الخوازمي، د.ت: 143-165).

الخلاصة والنتائج

من خلال البحث لاحظ الباحثان أن النبر التبريزي شاعرٌ قديرٌ في توظيف آليات العملية التناصية على كلا المستويين الذاتي والتعبيري. وقد بلغ مستوى إنتاجيته التناصية، ذروته في قصيدته المنظومة في مدح أمير المؤمنين (ع) فيشهد القارئ بوضوح عمق هذه الآليات بشتى أنواعها في القصيدة. يستخدمها الشاعر وهو في طور إنتاج صورة تناصية قرآنية وحديثية في حدود العلاقات التفاعلية والإحالية لإفراز حقائق عن منزلة أمير المؤمنين (ع) وشخصيته العظيمة وأحقيته المطلقة. تؤدي آليات الإحالة في هذه القصيدة دوراً غايةً في القوة والمتانة، تجعل القارئ في تراوح مستمر بين الأبيات ومرجعياتها. تارة رحلات متوازية إلى مرجعيات متعددة وأخرى رحلات إليها متلاحقة، تحمل القارئ في غالب الأحيان على أعمال عقل وتحليل ومحاولات ربط القرائن لمعرفة دوافع الشاعر ومقاصده. يأخذ الطابع الإحالي في العمليات التناصية التي طبّقها الشاعر، ألواناً مختلفة. فقد طبع أحياناً بالتشبية وأحياناً أخرى بالمقابلة والطباق وحيناً بالمساواة. وكذلك أخذت الإحالة في بعض المواقف طابع الاحتجاج وفي بعضها الآخر طابع التوثيق أو تحديد المصداق وغيرها.

وقد أتى ظهور الإحالات في الآيات بدرجات مختلفة أيضاً. تارةً تكون المرجعية واضحة الملامح وتارةً أخرى تشهد انخفاضاً في نسبة ظهورها إما قليلاً أو كبيراً.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله. (1960م). شرح نهج البلاغة. مصر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه. د. ط.
- ابن بابويه، محمد بن علي بن الحسين. (1984م). عيون أخبار الرضا (ع). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ابن حنبل، أحمد. (1983م). فضائل الصحابة. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط1.
- ابن منظور. محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب.
- الترمذي، محمد بن عيسى. (1975م). سنن الترمذي. مصر: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. د. ط.
- الحسيني الميلاني، حامد. (1426هـ). نفحات الازهار في خلاصه عبقات الانوار للعلم المحجة آيه الله السيد حامد حسين الكلهنوي. قم: مركز الحقائق الإسلامية. د. ط.
- حلي، أحمد طعمة. (شباط، 2007م). "أشكال التناص الشعري: شعر البياتي أمودجاً. مجلة الموقف الأدبي، العدد 430.
- الحوارزمي، الموفق بن أحمد البكري. (1411هـ). المناقب. قم: مؤسسة النشر الإسلامي. د. ط.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح.
- الريشهري، محمد. (1425هـ). موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ. قم: مركز بحوث دار الحديث. د. ط.
- الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس.
- الزنجشيري، محمود بن عمر الحوارزمي. (1966م). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. د. ط.
- الشريف الرضي، محمد بن الحسين. (2004م). نهج البلاغة. بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع. ط4.

1. الطباطبائي، محمد حسين. (1997م). الميزان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ط.
- الطبرسي، فضل بن حسن. (1995م). مجمع البيان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. د. ط.
- الطهراني، آغا بزرك. (1409هـ). الذريعة إلى تصانيف الشيعة. بيروت: دار الأضواء. ط 2.
- العاملي، جعفر مرتضى. د. ت. الصحيح من سيرة الإمام علي (ع). بيروت: دار المركز الإسلامي للدراسات، دار الأيام. ط 1.
- المحوزي البحراني، سليمان بن عبد الله. (1417هـ). الأربعون حديثاً في إثبات إمامة أمير المؤمنين (ع). قم: مطبعة أمير. ط 1.
- المجلسي، محمد باقر. (1983م). بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. بيروت: مؤسسة الوفاء. ط 2.
- مكارم الشيرازي، ناصر. (1426هـ) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. قم: مدرسة الامام علي بن أبي طالب (ع).
- المنازي الشاهرودي، علي. (1419هـ). مستدرک سفينة البحار. قم: مؤسسة النشر الإسلامي. د. ط.
- النوري الطبرسي، حسين. (1411هـ). نفس الرحمن في فضائل سلمان. طهران: مؤسسة الآفاق. د. ط.
- نير تبريزي، محمدتقي. (1386هـ.ش). ديوان أشعار. تهران: انتشارات بين الملل. ط 3.
- النيسابوري، محمد بن الفتح. د. ت. روضة الواعظين. قم: منشورات الرضي. ط 1.
- الهاشمي، أحمد. (1999م). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع. المكتبة العصرية. ط 1.
- الهيثمي، نور الدين. (1994م). مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. القاهرة: مكتبة القدسي. د. ط.
- حفظ الله واصل، عصام. (2010م). التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر: أحمد العواضي أئموذجاً. عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع. ط 1.
- مركز الأبحاث العقائدية. (2022، ٢ ديسمبر) <http://www.aqaed.com/faq/8222>.

تمظهرات التراث الأدبي القديم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث
Manifestations of the ancient literary patrimony
in the modern Algerian poetic discourse

الدكتور: إبراهيم لقان
أستاذ محاضر قسم "أ" بمعهد الآداب واللغات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف
ولاية ميله، الجمهورية الجزائرية.
البريد الإلكتروني:
b.leguene@centre-univ-mila.dz

ملخص

يهدف هذا البحث إلى إبراز تمظهرات التراث الأدبي القديم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث وأسباب ذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الكشف عما اكتسبته النصوص الشعرية من دلالات فكرية. ونظرا لسعة المتن الشعري في المرحلة التي هي موضوع البحث، فإن هذه الدراسة ستكون انتقائية، قوامها الذوق الخاص، وتقتصر على نماذج شعرية مختارة معبرة عن مضمون عنوان البحث.
الكلمات المفتاحية:
تمظهرات؛ التراث الأدبي القديم؛ الخطاب الشعري؛ الجزائري الحديث.

ABSTRACT

This research aims to reveal the manifestations of the ancient literary heritage in modern Algerian poetic discourse and the reasons for this, on the one hand, and on the other hand, to reveal the intellectual connotations that poetic texts have acquired.

Because of the amount of poetry at the stage that is the subject of the research, this study will be selective, based on personal taste, and limited to selected poetic examples that express the content of the research title.

Keywords:

Manifestations; ancient literary patrimony; poetic discourse; modern Algerian.

أولا - تمهيد

يمثل التراث القديم مرجعية معرفية للشاعر الجزائري في الفترة التي هي موضوع الدراسة، لذا فإن العلاقة بينهما علاقة تلازم، فلا مجال للتخلل منه ولو تعددت العوامل التي تريد تحييده أو القضاء عليه. ويعد هذا الأمر مظهرا من مظاهر الالتزام الفني لدى شعراء الجزائر، إذ إن الموروث الشعري القديم يمثل الظلال الوارفة لنصوصهم، فلم يقتصر الاقتباس على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وإنما شمل التراث الأدبي القديم لاسيما الموروث الشعري ومحركاته، وهذه الظاهرة ليست من خصائص اللغة الشعرية عند شعراء المدرسة التقليدية فحسب، بل هي موجودة بشكل جلي عند شعراء جيل الثورة.

ونظرا لكثرة شعراء الفترة موضوع البحث، فقد عمدتُ إلى انتقاء خمسة شعراء منهم، يمثل شعرهم همزة وصل بين الماضي والحاضر، أنتقي ما هو مناسب من أشعارهم التي تعتبر أكثر تفاعلا مع النصوص الأدبية القديمة في مضامينها وقولها الفنية.

ثانيا- تعريف التراث لغة واصطلاحا

أ- التراث لغة

كلمة التراث في اللغة مأخوذة في معجم اللغة العربية القديمة من الفعل الثلاثي (وَرِثَ) ، يقال وَرِثَ الرَّجُلُ يَرِثُ وِرَاثَةً، وَتَرَاثًا، وأما التراث فأصل الفاء فيه (الواو). (بن دريد، ج3، ص43) أبدلت التاء من الواو المضمومة (ينظر: الشوكاني، ج5، ص429)، فهو الوِراث من وَرِثَ ، كما قالوا في تجاه، والأصل وجه، ومن اشتقاقات وَرِثَ أيضا الميراث، وفي الآية: "وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا.." سورة الفجر، الآية 19، ويعني: الميراث (ابن كثير، 1423هـ/2002، ص3091) : وأصله مُوراث، انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها: وإراثا، الألف منقلبة عن واو.

والفعل وَرِثَ يتعدى ب (من) مثل قوله تعالى: "يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ.." ويتعدى بنفسه إلى مفعول واحد، مثل ("يَرِثُنِي"). سورة مريم، الآية 6. وإلى مفعولين مثل: ورثه مالا" (الكفوي، 1998، ص946).

ومن مشتقاته: الموروث والإراث: وهو الميراث والأصل والأمر القديم توارثه الآخر عن الأول، والبقية من الشيء، ومعنى قوله تعالى: "وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" سورة آل عمران، الآية 180. معناها أنه الباقي بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فيموتون ويرثهم، ونظيره: "إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ" سورة مريم، الآية 41.

والموروث والميراث والإرث قد يكون ماديا يتعلق بما يتركه الخلف للسلف، وقد يكون معنويا كالجد والأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة. وقد تكرر الفعل ورث في معلقة عمرو بن كلثوم بمعنى الوراثة المعنوية كما في قوله:

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدُّ نَطَاعِنَ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا
وَرِثَانَهُنَّ عَنْ آبَاءِ صَدَقٍ وَنُورِهَا إِذَا مَتْنَا بَيْنَنَا

(عمر ابن كلثوم، 1416هـ/1996)، صص 75، 86).

"فالجد الفعال الصالح الكثير، ويقال: مجَّد إذا كَرَّم، والمعنى أن لآبائنا فعلا صالحا، فنحن نُرِّبُه لأنه ينسب إلينا ولا نستتر بسوء أعمالنا" (ابن النحاس، د، ت، ص 101).

مما سبق من تعريفات يتبين أن المصطلحات: تراث، ميراث، إرث تدل كما دل سياقها اللغوي على وراثة متعلقة بالمادي من الحياة، وبالمعنوي كذلك الذي يشمل كل ما هو متوارث من معارف دينية وثقافية ممتدة في الحاضر.

ب- التراث اصطلاحا

المدلول اللغوي لكلمة تراث حسب التعريفات السابقة يشير إلى أن الكلمة تحمل معنيين: الأول معناه الموروث أو التراث المادي الذي يؤول إلى الأحياء بعد موت الأسلاف. والثاني تتسع فيه المفردة لتشمل إرث العلم والنبوة والحسب والنسب والمجد الذي يصبح من باب الاستعارة بمثابة المال الذي يتعاقب من آباء إلى الأبناء.

وقد اتسع معنى هذا اللفظ في العصر الحديث بعد عصر النهضة العربية الحديثة، في مواجهة المد الاستعماري وما واجهته الشعوب من محاولات المسخ الثقافي وتذويب الهوية، وارتبط بقضية الأصالة والمعاصرة، وبقضية هوية الشعوب وتاريخها، وصار ملاذا للأدباء والشعراء به يحتمون من موجات الغزو الثقافي كشكل من أشكال الانتماء الحضاري والتمسك بأصالة الشعوب.

فالتراث بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والعلمي، "وهو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل خطابنا العربي المعاصر، يشير إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم، لتجعل منهم جميعا خلفا لسلف" (مروة، ط 3، د، ت، ص 35).

وما دام النظر إلى التراث كشيء في الماضي يتم بمنظار معاصر وبمنهج وأدوات بحث جديدة فقد تعددت الاتجاهات الفكرية في التعامل مع الموروث وتنوعت بين: نظرة سلفية دينية محافظة، ونظرة عصرية تنويرية علمانية، وأخرى توفيقية بين الأصالة والمعاصرة. (ينظر: رفعت، 1990، ص 12).

فمن الدارسين حسن حنفي الذي يرى "التراث تراكما دينيا بمعنى القديم والإلهيات التي دامت في القرون السبعة الأولى، وغطت جوانب التفكير القديم، وتعني مواطن الأصالة والابتكار كما هو واضح في مناهج التفكير عند الأصوليين" (حنفي، د،ت، ص22).

فالتراث هو "المرتکز على العقيدة في الشريعة كما عرفها السلف الصالح، وأهمية أية ظاهرة تراثية، تكتسب بالأساس من مدى اقترابها أو ابتعادها عن المركز الديني، وهنا يفقد الوجود الاجتماعي قبل الإسلام اعتباره حتى يكاد يقارب العدم" (رفعت، 1990، ص17).

وهناك نظرة علمانية مادية تاريخية جدلية للتراث نتفق في حدودها العامة وتميل إلى الاعتداد الواضح بالوجه الفلسفي والعلمي للتراث، وبالجنب السياسي للصراعات الاجتماعية التي نشأ في ظلها التراث، وعلاقة التيارات الفكرية التراثية بهذه الصراعات، وبدأ الاعتداد واضحاً في أعمال العقل لا النقل، وفي التأويل لا التقليد (ينظر: المرجع نفسه، ص14).

ومن الدارسين من نظر إلى التراث نظرة توفيقية، "رى التراث في دائرة العربية والإسلام، أو الاثنين معا مشتملا على عناصر العلوم والمصنوعات والقيم، وهو إنجاز إنساني له شروطه الاستمولوجية والاجتماعية والتاريخية" (جدعان، 1985، ص16).

وعليه فإن التراث من المنظور الإصلاحي "هو بمثابة الإنتاج الحضاري الذي ينحدر من خصائص أمة من الأمم المتفاعلة مع البيئة التي نشأت فيها بكل ما تحتوي عليه من تجارب وأحداث طبعتها بصفة خاصة، وبالتالي أسبغت عليها ملامحها الثقافية ومميزاتها الحضارية التي ميزتها عن الأمم الأخرى" (عبد الحميد، 1405هـ/1985، ص10).

نخلص مما سبق إلى أن تراث كل أمة هو ما أنجزه سلفها في مجال الفكر والثقافة وتوارثته الأجيال، وأضافت إليه ما أمكنها ذلك عبر الحقب التالية.

ثالثا- عوامل توظيف التراث في الشعر الجزائري الحديث

إن توظيف التراث الأدبي في الشعر الجزائري الحديث ذو أهمية كبيرة، وقد أصبح لدى الشعراء ضرورة حضارية أملت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي تعيشها البلاد تحت وطأة الاستعمار، وأضحى مبدءا يعبرون من خلاله عن أبعادهم الفكرية، وهو يحمل دلالات على أصالتهم وارتباطهم بجذورهم التاريخية وقيمهم الحضارية، ويحمل بالنسبة إليهم طاقات إيجابية كثيرة منها: كونه مصدر مناعة وحفاظ على الهوية المهددة بفعل الاستعمار، ومنها: كون هذا التراث خزاناً للبطولة المفقودة التي يبحث عنها الشاعر الجزائري في حفريات التاريخ. وقد تعددت العوامل التي دفعت الشعراء إلى ذلك ما بين:

أ- عوامل فنية

يرجع سببها إلى إحساس الشعراء بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية والمعطيات والنماذج التي تستطيع أن تمنح القصيدة طاقات تعبيرية كبيرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن: "المعطيات التراثية تكسب لونا خاصا من القداسة في نفوس الأمة ونوعا من اللبوق بوجودها، لما للتراث من حضور دائم في وجدان الأمة (ينظر: عشري، 1417هـ/1997، ص16). والشاعر حين يعمد إلى ذلك يكون قد ضَمِن قوة التأثير في وجدان المتلقي.

وعلى هذا الأساس، فإن الشكل الشعري الذي اختاره الشعراء هو موقف الثبات من أحداث الواقع الذي فرضه الاستعمار "والذي يريد أن يستجيب إلى أشكال الثبات في الواقع فإنه يلوذ - أدرك أو لم يدرك- بأشكال الثبات العمودية في الشعر، والعكس صحيح. إذ من يتردد على الأولى لا بد أن يتردد على الثانية" (المقالح، 1985، ص198).

وبناء عليه، فهناك فإن الكثير من شعراء الجزائر اختاروا الثبات على القيم الوطنية، وبالتالي الثبات على شكل الموروث الذي يغذي هذه القيم كشكل من أشكال الأصالة، فلجأوا إلى روائع الشعر العربي القديم ينهلون منها يوظفون معاجمها ويحاكونها في الأساليب والأخيلة.

ب- عوامل ثقافية

تتمثل في تأثير حركة إحياء التراث، والدور الذي قام به رواد هذه الحركة في الكشف عن كنوز العطاء التراثي الذي شهدته الأمة العربية، ولفت الأنظار إلى ما ينطوي عليه من قيم روحية وفكرية وفنية صالحة للبقاء والاستمرار، فراحوا يستلهمون منه ليحققوا حضوره في وجدان الجماهير.

ولهذا تأثر هؤلاء الشعراء بأعلام مدرسة البعث والإحياء كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومعروف الرصافي وغيرهم، وقد صرح غير واحد منهم بذلك. يقول محمد الهادي السنوسي الزاهري: "من منّا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى (14-18) على ما ظلت تنتجها مدرسة إسماعيل صبري، وحافظ، وشوقي، وطه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، والمنفلوطي، والزيات، وغيرهم من رجال الرعيل الثاني للنهضة الأدبية في الأقطار العربية... كان أساتذتنا لا يفتأون يتخيرون لنا من منظومهم ومنثورهم ما يؤثرنا به لتثقيف عقولنا، وإصلاح أسنتنا، وتبصيرنا بما تجود به المدرسة الحديثة في عالم الغرب" (ناصر، 1985، ص52).

ج- عوامل قومية

لقد أحس الشعراء الجزائريون بالغرابة الثقافية في وطنهم وخاصة في عهد الاحتلال، "إذ كانت الثقافة الدينية ضعيفة: غُلِّوا في الجمود أو إفراطا في التحلل من الدين أو الدعوة إلى الاندماج والتجنيس

والانقطاع عن الماضي والارتقاء في أحضان الحضارة الغربية، إلى جانب الضعف في اللغة العربية لأسباب عديدة أحس الشعراء -نتيجة ذلك- بخطور داهم يهدد اللغة العربية والإسلام بالتبع بما نتج عن ذلك من مزالق فكرية أصابت الأصالة في العمق، فعملوا على تدارك الأمر وإتخاذ الموقف، واتخاذ أية وسيلة في هذا المجال، فهداهم تفكيرهم إلى محاكاة الأساليب البيانية العالية في الكتابة كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأدب العربي القديم" (بوجمام، 1999، ص 38).

يضاف إلى ذلك أن المرحلة التي عاشها هؤلاء الشعراء كانت مرحلة بعث في المشرق العربي، مما جعلهم يتمسكون بقوة بكل ما يشدهم نحو تراثهم ويذكرهم بأجدادهم، فكان "الأسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة بني العرب، كان في ذاته ظاهرة قومية اتسمت بالإجلال والتقديس فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي نزوع جاد نحو قطع الصلة أو إضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب" (الدقاق، 1977، ص 452).

وهكذا نستنتج أن الاستعانة بالمورث الأدبي القديم من طرف الشعراء عملية مقصودة، وهي شكل من أشكال المقاومة نظراً لما أصاب اللغة العربية من تدمير على يد المستعمر، "فشعراء الإصلاح باعتبارهم رجال علم وفكر ديني إصلاحية رأوا في اللغة أمراً مقدساً، لأنها لغة القرآن، فالتجديد فيها، أو الخروج عن مقاييس القدماء أو الثورة على قوالبها يعد خروجاً على المقدسات" (بوقرورة، د، ص 195). و يمكن اعتبار احتذاء الشعراء الجزائريين، النموذج القديم في شكل القصيدة ولغتها وأسلوبها هو نوع من البعث الحضاري الذي لا ينطلق إلا على أسس كما هو شأن كل نهضة أدبية.

رابعاً- نماذج شعرية

ونظراً لكثرة الشعراء وسعة المتن الشعري الجزائري الحديث، فإنه من المحتم على الباحث أن يلجأ إلى انتقاء ما يراه من نماذج تكون أكثر تفاعلاً مع النصوص الأدبية القديمة في مضامينها وقوالبها الفنية، وهذا ما جعلني أقف على نتاج مجموعة من الشعراء مثل شعرهم هذه الظاهرة خير تمثيل.

1- محمد العيد آل خليفة

يعد محمد العيد آل خليفة من أكثر الشعراء الجزائريين تمثيلاً لظاهرة توظيف التراث الأدبي القديم إذ إن اتجاهه الأدبي هو اللغة البيانية القديمة التي ألفناها عند الكثير من الشعراء القدامى، وقد استطاع بفضل تكوينه العربي الإسلامي أن يملك ناصيتها ويروض قوافيها، وهو يعد من القلة القليلة التي استثمرت التراث الأدبي واقتدت به في أساليبه البيانية الرائعة، يقول محمد ناصر: "والعجيب في الأمر أن أغلبية الشعراء في هذه المرحلة لم يستطيعوا استثمار التراث الأدبي والإقتداء به في أساليبه البيانية

الرائعة...ولا يمكن أن نستثني من هذا الحكم سوى بعض الممتازين مثل محمد العيد" (ناصر، 1985، ص281).

والواقع أن الإنتاج الشعري - ومنه شعر محمد العيد- المصوغ باللغة الفصيحة المتحررة من الركاكة والتكلف، والقيود اللفظية التي طبعت أدب تلك المرحلة هذا الإنتاج "يعد دفاعا علميا عن اللغة وقدرتها على الوفاء بالتعبير عن كل ما هو جدي في الحياة، وهذا الدفاع العلمي لا يقل شأنًا - إن لم يزد - عن الدفاع المباشر، ويعد ذلك من أدب المقاومة لمحاولات القضاء على لغة العرب ومحاربة وحدتهم" (خضر، 1968، ص82).

والمصنف لديوان محمد العيد يلاحظ ارتباطه بالمعجم اللغوي للشعر العربي القديم، حتى وإن كانت الموضوعات التي يعالجها حديثة، ومن أمثلة الشعر الذي يشبه معجم القصيدة القديمة بكل خصائصها الفنية قوله في قصيدة (يا فتية العلم شدوا العزم):

اليوم أسدي على نول الأدب	مطاري من خيوط الشمس للشهب
الأثوب أهدي تحياتي ومواظمتي	إلى العباقرة الصيابة النخب
النازلي كقطر الغيث منسكباً	في ظل قطر لهم بالبشر منسكب
الزاحفين لغارات النهى طلباً	والجامعين عليها لهم في الطلب (محمد
(آل خليفة، 1967، ص231).	العيد،

فإن من يتأمل لكثير من الكلمات التي وظفها الشاعر هنا يدرك أنها كانت متداولة في قصائد أبي تمام، خاصة قصيدته (في فتح عمورية) والمتنبي وغيرهما مثل (الشهب، مطاري، خيوط الشمس) هذا بالإضافة إلى القدرة على التصوير التي تجلت في التشبيه المفصل (تشبيه العباقرة بقطر الغيث)، وفي طرق تحسين الكلام (كالتصريح) في البيت الأول، والجناس بين (قطر، قُطر) بالإضافة إلى جزالة وقوة الألفاظ مثل (العباقرة، الصيابة، النازلي، الزاحفين).

ومن مواضع التعالق النصي في شعر الشاعر ما ورد في قصيدته (يا وفد) التي يقول فيها:

صادف رضى والتى رفدا	يا	وفد	بوركت	وفدا
أوردتها مثل (سعد)	لا	بل	تجاوزت	(سعدا)

(المصدر نفسه، صص 300-399).

فإن البيت الثاني بصدده وعجزه مأخوذ من قول الشاعر:

أوردها سعد، وسعد مشتمل	ما هكذا	يا سعد	تورد	الإبل
------------------------	---------	--------	------	-------

(المصدر نفسه، ص300).

فإن هذا البيت يُضرب مثلاً في كل من يعمل عملاً بطريقة غير صائبة ولا مناسبة. فيقال له: ما هكذا تورد الإبل. أي ليس هذا هو الوجه الصحيح في عملك، ولكن الشاعر استعمله بعكس الضرب، فن وجهة نظره أن الوفد المنبثق عن المؤتمر الإسلامي الذي توجه إلى باريس قد قام بالمهمة التي أوكلها إليه الشعب الجزائري على الوجه الصحيح.

ومن ملاحظ توظيف الموروث الأدبي القديم عند الشاعر كذلك مطالع بعض قصائده، فقد برع في استهلاكها على شاكلة شعراء الجاهلية وخاصة امرؤ القيس في مطلع معلقته التي خاطب فيها رفيقا دربه:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول
يقول محمد العيد في قصيدة (تحية الشهاب للشباب) محتذيا هذا التقليد:
خليا عنكما حديث احتجابي عرجاني على العلا عرجاني
اركبا بي النجاح وخوضاً بي عباب الإصلاح فهو عبابي
واطلبوا بي رغائب الشعب إني في سبيل العلى وقتت طلابي
(المصدر نفسه، ص 87).

فهو يخاطب صاحبيه الحقيقيين أو المفترضين كما جرى ذلك التقليد بين الشعراء القدامى. وحين يستلهم محمد العيد من الشعر العربي القديم، يستروح نسائم التراث بملكة فنية كبيرة لتأمل قوله في قصيدة (استوح شعرك):

من فيكم يحيي خلالات أربعا يحيي الجزائر بالخلال الأربيع
صدق (العتيق) وعزة الفاروق في حلم (ابن عفان) وعلم الأصلع
(الفاروق) (المصدر نفسه، ص 149).

فهو اقتباس من قول أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم الخليفة العباسي حيث يقول:
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
(شرفي، 1978، ص 20).

وقد كانت المرحلة التي عاشها الشاعر وأمثاله مرحلة بحث، لا قوا خلالها كثيرا من المحن المتعلقة بمصير هويتهم كغيرهم من الشعراء العرب، مما جعلهم يتمسكون بقوة بكل ما يشدهم نحو تراثهم ويذكرهم بأجدادهم، فكان "الأسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة بني العرب، كان في ذاته ظاهرة قومية التمسك بالإجلال والتقديس فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي نزوع جاد نحو قطع الصلة أو إضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب" (الدقاق، 1997، ص 492).

2- رمضان حمود

على الرغم من أن الشاعر رمضان حمود قد فارق الحياة في ربيع شبابه إلا أن بصماته في الشعر الجزائري الحديث واضحة جدا تنظيرا وتطبيقا، فقد كان من دعاة الحفاظ على الشكل الشعري القديم المطالبين بالتجديد في المضامين بما يتلاءم وحالة الشعب الجزائري، وقد تجلى تأثره بالموروث الأدبي القديم منذ بداية النهضة الشعرية، يقول في إحدى قصائده محاكيا لامية العجم:

أعانت الحق في قول وفي عمل وأنهض القوم، إن مالوا إلى الكسل
فلا عمل لهم في قومهم وهم اقترعوا ذنبا يلبس وجه الحق بالخجل
ولا يعرفون عيش بأرض الذل مكتئبا فالذل من شيمة الأندال و السفلى
(الزاهري، 2007، ص 277)

فالشاعر يدعو إلى النهضة ويرفض الذل ويحث قومه على مواجهته، ولا يداري قومه، وقد قلّد الطغرائي* في الاعتزاز بالنفس والثقة بها واحتقار الأخطار وتحدي الصعاب وهذه القطعة فيها الكثير من معاني وألفاظ قصيدة الطغرائي (لامية العجم) التي يقول فيها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيرا ومجدي أولا شرع والشمس رآد الضحى كالشمس في الطفل
و إنما رجل الدنيا و واحدنا من لا يعول في الدنيا على رجل
(المصدر نفسه، ص 5).

3- مفدي زكرياء

أما مفدي زكرياء، فهو شاعر وطني مغاربي قومي نخبور بلغته وبتراثه غيور عليه، له قدم راسخة في توظيف التراث الشعري القديم لفظا ومعنى، ولعل ما جرى به لسانه في قصيدة (ألا في سبيل المجد) خير دليل على ذلك:

ألا في سبيل المجد حلي وترحالي و لله ما لا قيت من عُمر أهوال
ولو أنما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلا من المال
لكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي
(الزاهري، ج1، ص 259).

* - الطغرائي (الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، شاعر ولد بأصفهان وعاش بين (849-911هـ - 1495م) أشهر شعره قصيدة (لامية العجم)، تنظر ترجمته في: جلال الدين السيوطي: شرح لامية العجم للطغرائي، تدقيق، أحمد علي حسن، مكتبة الآداب، (د ط)، القاهرة، مصر، 1923، ص 3

فقد نسج الشاعر قصيدته على منوال البحر الطويل وعلى حرف الروي (اللام) وعلى نفس قافية قصيدة امرئ القيس التي أخذ الشاعر منها البيتين الثاني والثالث ومطلعها.
أما شعراء جيل الثورة فكان منهم من يبدو تأثره بالأدب العربي القديم قويا، وقد يصل عند بعضهم حدا يفوق ما وصل إليه عند بعض الشعراء من جيل الإصلاح، وهذا يتجلى بشكل كبير في ديوانيّ (أطلس المعجزات) لصالح خرفي، و(الروابي الحمر لصالح خباشة).
(بن زاوي، 1408هـ/1988، ص 107).

ولعل وضوح الظاهرة عند الشاعرين يعود إلى طبيعة الثقافة العربية الأصيلة التي خضعا لها في حياتهما الدراسية، والتي أساسها حفظ القرآن الكريم، ومن أجل ذلك ظلّا مرتبطين بهذه النزعة المحافظة في إنتاجهما الشعري، وبقيتا متمسكين بالعمود الشعري تمسكا قويا، في حين نجد زملاءهما من الشعراء الشباب آنذاك من أمثال أبي القاسم سعد الله، وأبي القاسم نحرار، ومحمد الأخضر عبد القادر السائحي، ومحمد صالح باوية، وغيرهم من المعاصرين لهما، لم يلتزموا الشعر العمودي وحده، ولم يحافظوا في شعرهم على التراث هذه المحافظة المتشددة، وإنما سعوا إلى تطوير فهم الشعري لغة، وتصويرا، وبناء (ناصر، 1985، ص 301).

إن القارئ لبعض مقطوعات الشاعرين (صالح خباشة وصالح خرفي) يشعر أنهما يتنفسان في جو قصائد الجاهلية كما يتجلى في فيما يلي:

4- صالح خباشة

عندما نتصفح ديوان هذا الشاعر حين يتحدث عن الحرب التحريرية، ترد في لغته أسماء أماكن وأحداث مرتبطة بالحياة المعاصرة، ولكن براعة الشاعر تجعله يقدمها في هيكل معلقة عمرو بن كلثوم، ويحاكيه في قواله التعبيرية "ولا يأتي الفعل الثوري عند بعض الشعراء إلا بصيغ موروثية يستعيرها الشاعر في إطار المحاكاة التي تجعله يكرر ما قاله الأسلاف، فتتحول صورة الفرنسي السفاح إلى معادل لها في الماضي، فيغدو (لاكوست) السفاح مثلا عند صالح خباشة (عمرو بن هند)، ويغدو خباشة نفسه (عمرو بن كلثوم)، يقول في قصيدة (مأساة القصة) (بوقورة، 2010، ص 20).

أيا "لاكوست" إن الأمر جد	ولسنا مثل ظنك هازلينا
فإن قناعتنا "لاكوست"	على الأعداء قبلك أن تلينا
أعليك "لاكوست" أنذرناك شرا	فنحن نذكُّ عرش الطامعينا
متى كنا نهاب؟ وأي عصر	تذللنا، فتطمع أن
متى أصبحتم قواد حرب	لأينا عفوا، نسينا فاعذرونا

عرفناكم" بموسكو" * حين أبتم بنور الانتصار منحجلينا
(خباشة، 1971، ص50).

وفي الموضوع نفسه يستعين خباشة بقصيدة جرير العينية في هجاء الفرزدق موظفا قوالها اللغوية وصورها التي هي مزيج من الهجاء والتحدي والسخرية فيقول:

أربع ساعات توعدنا بها (لاكوست) أين وعيده المتميع
أو للهشيم مع اللهب تطاول إن الجبان لبا التوعد موع
زعم المغفل أ، سيمحو شعبنا فابشر بطول سلامة يا مربع
(المصدر نفسه، ص 156).

وكما هو ملاحظ فإن البيت الأخير مقتبس من قول جرير متحديا الفرزدق:
زعم الفرزدق أن سيقتل أبشر بطول سلامة يا مربع
وفيها قصيدة (أخي الطالب) الصادرة بتونس سنة 1956، الموجهة إلى الطلبة المضربين تضامنا وكفاحا مع جيش التحرير الوطني الجزائري وجبهته القوية، يقتبس الشاعر خباشة معنى بيت المتنبي التالي:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
يقول صالح خباشة:
فالدين يأمر والدماء تحضنا إما حياة في الورى كرماء
أو مودة الأحرار أشرف منزلا من أن نعيش عبيدهم، وإماء
(المصدر نفسه، ص22).

5-صالح خرفي

لصالح خرفي علاقة قوية بالتراث القديم، ومن يطالع ديوان (أطلس المعجزات) يدرك مدى قوة هذه العلاقة، التي تتجلى في توظيفه اللغة الشعرية بطريقة تجعلها أقرب إلى الشعر القديم منها إلى الشعر الحديث، ولتأخذ أمثلة على ذلك هذه الأبيات من قصيدة (أوراس) التي كتبها سنة 1955، واستهلها بالحكمة التي مفادها تجيد القوة، والإشادة بدور السيف :

مجد البلاد تشيده (أوراس) والنار في نهج العلا نبراس
وإذا تنكر للمطالب غاصب ونبا به يوم التفاوض راس
حكّم غرار السيف فيه وإنما الرأس المكابر بالفرنند ياساس
إيه فرنسا، إن توعدنا (كلي) ب) من بنيك فكلنا (جساس)

* - يشير الشاعر هنا إلى انهزام قوات نابليون أمام الروس في عام 1812، وعجزهم عن احتلال موسكو

(خرفي، 1968، ص 14

ولا يجد صالح خرفي حرجا في أخذ بيت المتنبي التالي، ليبنى عليه قافية قصيدة من واحد وعشرين بيتا موسومة ب (العيد والجزائر الدامية) ألقاها سنة 1956 بتونس منها:

عيد بأية حال عدت يا بما مضى أم لأمر فيك تجديد
 طلي أراك يثقل الظل في وطني يشين وجهك في الأنظار تحديد
 وطلي المصدر نفسه، ص33).

ويصف الواقع العربي في سنة 1961، بقصيدة ملأى بالعبارات والألفاظ القديمة مثل (وطء، بحافل، صارم، غاض، الردي وصادر) التي لا نجد لها نظيرا إلا في دواوين أبي تمام والبحري والمتنبي وغيرهم. يقول الشاعر:

ما لنا وانخلاف تحت ظلام من قتام الوغى ووطء الحوافر
 بريء النصر من بحافل شعب بأسها صارم من الخلف باسر
 غاض نبع الحياة، فالحر منكم وارد يسقي الردي غير صادر
 (المصدر نفسه، ص215).

ويرى محمد ناصر أن "ارتباط صالح خرفي بالتراث، والتصاقه به، قد لفته الشعرية عن الانطلاق، وجعلها تبدو في أذن المتلقي أكثر قربا إلى الشعر القديم منها إلى الشعر الحديث، وأن تراكيبه اللغوية، وصوره الشعرية تدل دلالة واضحة على بروز هذه الظاهرة في شعره".

(ناصر، 1985، ص301).

ويلعل عبد الملك مرتاض ارتباط الشعراء الجزائريين بالموروث القديم قائلا: إنه "ليس عيبا أن يحفظ الأديب والكاظم فيتأثر بما يحفظ، فيخرج لنا إنتاجا متينا فيه جزالة القدم ومثانة الجدّة، وفيه معانٍ حسان وألفاظ ظراف" (مرتاض، د،ت، ص 59).

خامسا- خاتمة

خلاصة القول إن استدعاء التراث الأدبي القديم في الشعر الجزائري الحديث، كان ظاهرة بارزة لأن هذا الموروث كان مصدر إلهام لدى الشعراء فتح لهم آفاق التعبير الشعري، وأعطاهم طاقات إيجابية كبيرة تجلت في تنوع الموضوعات والأخيلة الشعرية.

وقد مثل هؤلاء الشعراء بداية انطلاق الشعر الحديث، وتمثلت أول خطواتهم نحو التجديد بالعودة إلى التراث والتركيز عليه شكلا ومضمونا، والوقوف بين متونه خائفين من تجاوزه، رغبة في حفظ الهوية الوطنية، فانحصر شعرهم من الناحية الموضوعية في القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية التي التزموا بها، وأخذوا على عاتقهم الدفاع عنها.

بهذا المسلك الذي سلكه الشعراء استطاعوا أن يؤكدوا عروبة بلدهم وأن يوطدوا عرى الأخوة بينها وبين العالم العربي، وأن يجعلوا من هذه العروبة الحاجز الأكبر بينهم وبين المستعمر. وقد كان للحركة الإصلاحية التي نشأ جل الشعراء مرابطين في صفوفها مناضلين بسلاح الكلمة، كان لها دور كبير في ربط هؤلاء الشعراء بمحيطهم العربي والإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- آل خليفة، محمد العيد، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1967.
- 2- أبو تمام، (حبيب بن أوس الطائي)، الديوان، ج1، شرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبد عزام، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د،ت).
- 3- جدعان، فهمي، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1. عمان، الأردن، 1985.
- 4- بوحمام، محمد ناصر، الشعر والهوية والقومية، منشورات التبيين، الجاحظية، سلسلة الدراسات، (د ط). الجزائر، 1999.
- 5- حنفي، حسن، في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، (د، ط). القاهرة، مصر، (د،ت)،
- 6- خباشة، صالح، الروابي الحمر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د ط). الجزائر، 1971.
- 7- نحرفي، صالح، أطلس المعجزات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.
- 8- خضر، عباس، أدب المقاومة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1968.
- 9- ابن دريد، (أبو بكر)، جمهرة اللغة، ج3، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، (د،ت).
- 10- الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي، جامعة حلب، ط3، سوريا، 1977.
- 11- رفعت، سلام، بحثا عن التراث العربي، نحو نظرية نقدية منهجية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
- 12- الزاهري، محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط2، قسنطينة، الجزائر، 2007.
- 13- بن زاوي، محمد، ثورة التحرير في الشعر الجزائري الحديث، رسالة ماجستير في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة الأسكندرية، مصر، 1408 هـ - 1988.
- 14- السيوطي، (جلال الدين)، شرح لامية العجم للطبرائي، تدقيق: أحمد علي حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1923.

- 15- شرفي، أحمد، الشعر الوطني الجزائري (1925-1954)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 1978.
- 16- الشوكاني، (محمد بن علي بن محمد)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، دار المعرفة . (د، ط). بيروت، لبنان، (د، ت).
- 17- عشري، زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1417هـ-1997.
- 18- بوقرورة، عمر، الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945-1962، منشورات جامعة باتنة، (د، ط). بابتة، الجزائر. (د، ت).
- 19- بوقرورة، عمر، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر (الشعر وسياق المتغير الحضاري)، شركة دار الهدى، عين مليلة، قسنطينة، الجزائر، 2004.
- 20- ابن كثير، (أبو الفدا اسماعيل بن عمر)، تفسير القرآن العظيم، م4، (الصفات - الناس)، دار ابن حزم للطباعة النشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1423-2002.
- 21- الكفوي، (أبو البقاء)، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2، 1998.
- 22- محسن، عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ط). القاهرة، مصر، 1405هـ-1985.
- 23- مرتاض، عبد الملك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ت).
- 24- مروة، حسين، دراسات في ضوء المنهج الواقعي، دار الفارابي، ط3، بيروت، لبنان، (د، ت). 1990.
- 25- المقالح، عبد العزيز الشعر بين الرؤيا والتشكيل، دار طلاس للدراسات والنشر، ط2. دمشق، سورية، 1985.
- 26- ناصر، محمد، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان. 1985.
- 27- ابن النحاس، (أبو جعفر بن محمد بن إسماعيل النحوي)، شرح القصائد المشهورات، الموسومة بالمعلقات، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ت).

الأشكال الجديدة للتدين الشعبي بالجنوب المغربي

New forms of popular religiosity in southern Morocco

مولود سنادي /باحث في علم الاجتماع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي تطوان/المغرب

البريد الإلكتروني: mouloudsannadi@gmail.com

ملخص:

جاءت هذه الدراسة للبحث في أشكال التدين الشعبي بالمجتمع الصحراوي بالجنوب المغربي في مرحلة الترحال من جهة ومرحلة الاستقرار من جهة أخرى، حيث بعد استقرار المجتمع في المراكز الحضرية شهدت ظاهرة التدين الشعبي دينامية جديدة تتماشى مع المرحلة الجديدة بالحفاظ على الرابط بين المجتمع والصلحاء، عبر المواسم الدينية عوض الزيارة التقليدية، والجمعيات المدنية عوض الجماعة التقليدية وغير ذلك من التحولات التي شهدتها هذا المجال.

الكلمات المفتاح:

التدين الشعبي، الصلحاء، الأولياء، الزوايا، الزيارة التقليدية، الموسم الديني.

summary :

This study aimed to investigate the forms of popular religiosity in the Sahrawi community in southern Morocco during the nomadic stage on the one hand and the settlement stage on the other hand, where after the stability of the community in the urban centers, the phenomenon of popular religiosity witnessed a new dynamic in line with the new stage of preserving the link between the community and the righteous, through religious seasons. Instead of the traditional visit, and civil associations instead of the traditional group, and other transformations that this field witnessed.

Keywords :

Popular religiosity, saints, zawiyas, traditional visitation, religious season

تقديم:

بالرغم من التحولات التي عرفها المجتمع الصحراوي بالجنوب المغربي ظل السلوك الديني يشكل أحد الميكانيزمات المحركة له، فالسلوك الديني الذي هو موضوعنا هو التدين الشعبي الذي يرتبط بالعادات والتقاليد ويختلف باختلاف المجتمعات ويضم مخزوناً ثقافياً ذي دلالة رمزية ودينية، وينتج عن تمثيلات ومعتقدات وذهنيات تبلور ثقافة المقدس وتؤمن بخوارق وكرامات، لجأت إليها مؤسسات دينية لتأكيد قوتها وتوسيع سيطرتها داخل المجال.

فالتدين كسلوك في المجتمع الصحراوي كان تديناً فطرياً بسيطاً غير معقد، وكان الصحراويون ولا زالوا يرتبطون بالدين الإسلامي، وبعيدا عن التشدد والتزمّت من جهة، والتزامهم بالشعائر الدينية بشكل مستمر من جهة ثانية، حتى أصبحت الصلاة مثلاً من المسلمات التي لا تناقش بل ويجرم تاركها ولا يؤكل معه في إناء واحد.

حتى أصبح هذا السلوك مرتبطاً بالأولياء والصلحاء باعتبارهم وسيطاً يوصل طلباتهم ومتمنياهم، ليصبح تصوفاً شعبياً أو تديناً شعبياً بخلاف التصوف الطريقي المبني على سند وورد.

وبالتالي فالتدين الشعبي أو تقديس الأولياء والصلحاء والزوايا، موضوع يبدو من الوهلة الأولى أن الحديث عنه بالتحليل والتفسير أمر عادي، لكن ما إن يتغلغل الباحث في ثناياه حتى يعرف أنه داخل عنصر معقد ومركب يتماهى فيه الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي في آن واحد، لينتقل من الظاهرة البسيطة إلى ركب الظواهر المعقدة التي تحتاج للتأني والتريث.

1. أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة الأشكال الجديدة التي استمر ويستمر بها التدين الشعبي بأشكاله المتنوعة بمجتمع الصحراء بالجنوب المغربي في ظل الحداثة التي يشهدها وظاهرة المدينة التي أصبحت تطبعه.

2. أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من خلا توضيح الأشكال الجديدة للتدين الشعبي بمجتمع الصحراء بالجنوب المغربي بعدما كانت في قوالب وأشكال بسيطة متوارثة، لتصبح ظاهرة مركبة ومعقدة يتداخل فيها الديني والاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي.

3. التمثل الاجتماعي للولاية والصلاح

ترتبط شخصية الولي الصالح بالبعد الديني بكونها هوية دينية (الدحيمي محمد، ، 2006. ص: 265)، فهو شخص يتميز بالصلاح والحكمة والكرامة، ما يضيف عليه طابع القداسة. رغم أنه إنسان

عادي، إلا أنه ليس عاديا فهو قادر على قهر نفسه والقسوة على جسده (محمد جنبوبي، 2004، ص: 08) كما يتميز بشخصية مفعمة بصورة مركبة من عناصر متباينة، منها ما ينتمي إلى مرحلة الولاية ومنها ما أخذ من الطريقة الصوفية، ومنها ما يعود لتمثلات المجتمع حول شكل ضريحه أو حتى شكله في الحياة.

يقصد إذن بمفهوم الولي الصالح بحسب ما جاء في الرواية الشفوية المحلية المستقاة: الولي الصالح هو ذلك الشخص الذي حفظ القرآن الكريم، وكان على دراية واسعة بمختلف العلوم الشرعية الإسلامية على وجه الخصوص، ويعرف بورعه لدرجة زيارته من قبل القبائل الصحراوية حتى بعد مماته، حيث تقام "عملية الزيارة" أو ما يصطلح عليه بلمعروف وهي الأخرى طقس جماعي أو فردي يتم من خلاله إحياء شعائر تبركية حوله، حيث يتم رفع الدعاء لله ولأوليائه الصالحين المعروفين ببركتهم وكراماتهم قيد حياتهم. لذلك قد تكون الكرامة شرطا أساسيا للشرعية داخل المجموعة الاجتماعية، وقد تكون شعبية على شكل عمل خارق، إلا أن هناك تعريفا للشيخ محمد فاضل ولد الحبيب يعتبر توفر الكرامة يتطلب: "الكرامة هي أن تبقى على الله وحده دون غيره" (محمد فاضل ولد الحبيب اليعقوبي، 2017، ص: 273) وهو تحديدا مقارب للتوحيد أو مطابق له حسب التعريف، كما يجب التفريق بين المعجزة والكرامة، فهذه الأخيرة التي تتم عن حاجة، وتأتي بإذن من الله تعالى وبوعونه ورضاه وليس بقوى الإنسان، لأن الله تعالى هو السامع والمبصر والمتصرف في كل شيء (نقوري ادريس، 2018، ص: 56).

يأتي إذن ظهور الأولياء من جهة لتصحيح دروب وانشغال الناس عن الطريق السليم والابتعاد عن الدين، ولتجديد الدين من خلال الإحياء والظهور في حلة جديدة لا تمس أصوله ولا تغير جوهره من جهة ثانية، لذلك كان لزاما على الولي التسلح بالاستقامة والتقوى والكرامة التي تختلف كليا عن المعجزة والفراسة والاستدراج والسحر وغيرهم (المهطي محمد سالم ومحمد سالم صدق، 2019، ص: 36/30).

4. الساقية الحمراء: مصدر لإنتاج الولاية والصلاح

ينتشر بعموم الصحراء أولياء وصلحاء وزوايا تعود أصولها للساقية الحمراء، من خلال حياة السياحة العلمية والترحلية، فنجد مثلا أبناء وحفدة الأولياء مؤسسي القبائل يتواجدون في مناطق مختلفة من الصحراء، فسيدي أحمد الركبي مثلا يوجد هذا الاسم في مناطق مختلفة تعبيرا عن حضوره الرمزي عبر حفدته وسلالته، كذلك هو الشيخ سيدي أحمد لعروسي وسيدي أحمد بوغنيور، بل يمتد ليصل صحراء الجنوب الجزائري حيث تنقلوا بغية نشر القيم الدينية كالتسامح والتعايش بين الناس، فيستقرون بها

ليصبحوا أولياء تلك المجالات بناء على أصولهم التي تعود للساقية الحمراء. كذلك هي قبائل بالصحراء الجزائرية التي تعود أصولها حسب الرواية الشفهية إلى الساقية الحمراء، وبالتالي فهذه الأخيرة تعتبر المزود الرئيسي للولاية والصلاح بجمال البيضان بشكل عام، وتجاوزته لتعم إفريقيا جنوب الصحراء، فزاوية سيدي إبراهيم بن صالح بقرية "المتيوة" التابعة لجماعة "واوزكان" وهي تعتبر نفسها أسرة إدرسية من الساقية الحمراء بالصحراء (رواية شفهية)، إنتقلت قديما إلى شمال المغرب، ونزلت أولا بقبيلة "بني يطف" الواقعة بين صنهاجة وغمارة، وكان استقرار أبنائها بقرية "اسنادة" القريبة من جزيرة بادس على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهي حاليا متواجدة قرب الساحل البحري "الجبهة" بشمال المملكة.

كما يمكن وفي هذا الاتجاه أن نذكر الزاوية "البصيرية" التي ذاع صيتها في جميع الأقطار العربية والإسلامية متجاوزة المجال المحلي، وتنتمي الزاوية "البصيرية" إلى "نغدة المودنين" (قبيلة الرقيبات)، ويرجع سبب تسمية المودنين إلى سماع الأم الغيلانية خلال حملها التوأمين يرددان الهيلالة "لا إله إلا الله والآخر يردد الآذان، فسردت الواقعة لزوجها، فاتخذ قرار أن من يخرج أولا سيسميه "الهلل" والآخر "المؤذن" فسمي منتسبه بالمؤذنين (bassir Abdelmoghite, 2015 p :26).

كما سبق للشيخ سيدي إبراهيم، إنطلاقا من زاوية والده بالأخصاص عمالة إقليم تيزنيت، أن أسس عدة زوايا بكل المناطق التي كان يقيم بها لنشر الدعوة الإرشادية، لكن الظروف التي كان يعيشها المغرب آنذاك مع بداية القرن العشرين وفرض معاهدة الحماية وتأثيرات نتائج الحرب العالمية الأولى كانت سببا في تراجعها.

كلها كانت عوامل كافية لتضييق الخناق على الداعية الشيخ سيدي إبراهيم، مما دفعه إلى تغيير أماكن إقامته تفاديا للاصطدام بنفوذ وسلطة المستعمر، بل إنه لم يسجل عليه قط أن خلف خلفه خرابا و فراغا، بل على العكس كان يعين من يخلفه على تلك الزاوية من المردين المخلصين في كل المناطق التي أقام بها.

5. الصلحاء والأولياء وأشكال الاستمرارية

إن الحديث عن المقدس بالمجتمع الصحراوي بالجنوب المغربي خصوصا الصلحاء والأولياء هو حديث عن جزء من هوية الجماعة، وهو حديث عن جزء من تاريخ المنطقة، فلكل ولي أو صالح أو صالحة قصة ورواية أو كرامة خلقت له شرعية داخل جماعته وقبيلته في مستوى أولي، لتطور شرعيته ويزداد نفوذه بعد وفاته، فيصبح قبلة لجماعته وقبيلته عبر زيارة غير منظمة تقوم على الدعاء له والتبرك منه، وهو ما حصل معنا مرات عديدة، فالدعوة إلى زيارة ضريح الولي هي فرصة للتعرف بشكل أكبر على طريقة التواصل بين الأموات والأحياء، عبر التبرك بالأضرحة والأولياء.

يمكن اعتبار الزوايا التاريخية للصحراء المصدر الأساس لبناء اللبنة الأولى لفئة الزوايا التي تعمم الانتماء لها على جل القبائل بل وحتى أنفاذ القبائل، وعائلات ممتدة... فما هو إذن الدافع للانتماء لفئة الصلحاء والأولياء والزوايا؟ وما هو السر وراء هذا التدافع نحو المجال الولوي الصلاحي؟

شكلت مرحلة الاستقرار لبدو الصحراء عاملا مهما وأساسيا في تراجع الانتساب والانتماء إلى رقعة جغرافية تمثل هويته وهوية جماعته، الأمر الذي استدعى حضور بناء مؤسساتي يربطه بالبادية والرقعة الجغرافية التي هي جزء من انتمائه وهويته، بما يفيد في الربط الدائم والموسمي بين الانسان والمجال، وهو ما تجسد في أضرحة الأولياء والصلحاء، على اعتبار أنها تؤكد على روابط الانتماء لذلك المجال.

إن هذه العودة لمجال إنتاج الولاية والصلاح بعد فترة فتور شهدها المجتمع أثناء الحقبة الاستعمارية، تلتها عودة للمقدس بشكل تدريجي، دون أن نزع الفصل التام مع هذه الأشكال، فهي ليست مرحلة تخلي عن المقدس، بل يعني أن دعم الدولة وتشجيعها لهذا النوع من الانتماء ساهم في التدافع نحو بناء جسر جديد يربط بين القبيلة أو الفخذ وأحد رجالها الذي يشهد له المجتمع بالصلاح والكرم، وفي بعض الأحيان الجهاد ضد المستعمر، وهو ما يؤكد عبد الله حمودي في كتابه "الشيخ والمريد" "إن الأضرحة استعادت قوتها انطلاقا من سنوات الستينات، بفضل التشجيع المادي والمعنوي الذي قدمته السلطة المركزية" (عبد الله حمودي، 2000، ص: 176).

كما شمل تطور هذه الظاهرة عدد الأولياء والصلحاء الذين تطور عددهم بشكل كبير، ولم يقتصر على ذلك، بل امتد هذا التطور وهذه الدينامية لتشمل طريقة التواصل بين الأحياء والأموات، وطريقة الاحتفال وزيارة هؤلاء الأولياء.

فالعرف القبلي التقليدي والتدين التقليدي هما آليتين من آليات الجماعات التقليدية للسهر على استمرار قدسية ولي صالح، ولهما أدوار يقومون بها في تنظيم الحياة والضبط الاجتماعي، وإضفاء الوحدة والتماسك بين أعضاء الجماعات العرقية والدينية المتمايزة (محمد عبده محبوب، د ت، ص: 126).

بالموازاة مع ذلك، تشكلت فئة تقول إن هذا التدين الشعبي هي معتقدات لا علاقة لها بالدين الإسلامي، وأنها سلوكيات أبداع البشر في بلورتها وخلقها على شكل طقوس تتنافى مع مبدأ التوحيد الذي يتقدم فرائض الدين الإسلامي، وبالتالي فالممارس لهذه الطقوس يقع في الشرك، حيث برزت هذه الفئة على شكل مجموعات تحضر المناسبات والتجمعات القبلية لتقدم دروسا في الموعظة حول ممارسة الطقوس والدعوة للتخلي عنها وتجنبها، غير أنه لازال المجتمع يمارس طقوسه المعتادة التي ما فتئ يعتبرها تقليدا متوارثا عن السلف، بل ظهرت مواسم حضرية استجابة لأغراض سياسية أملت أن تشكل نخبة حضرية

اتخذت من السلفية إطارا نظريا وإيديولوجيا لمواجهة الزوايا والطرق، وربط محاربة الاستعمار الفرنسي بمحاربة الطرقيين، وبرنامجها يعتمد على تنوير العقول والخروج من وضعية التخلف ونقد البدع والطقوس بما فيها المواسم من موقف الخروج عن الشرع (الريس المصطفى، شتبر 2016، ص: 81).

6. من الزيارة التقليدية إلى الموسم الديني:

تمكن المجتمع الصحراوي بالجنوب المغربي من رسم طريقة خاصة في زيارة وتقديس الصلحاء، رغم بعض أوجه التشابه مع الجانب الشمالي والجنوبي، عبر توطيد العلاقة بينه وبين أشخاص عاشوا حياة صالحة وتركوا آثارا طيبة أصبحوا بذلك يتداول صلاحهم وينتفع من بركتهم التي لا تنضب، وبذلك أصبحوا جزءا لا يتجزأ من المنظومة الروحية والاستشفائية للمجتمع.

أ) الجانب الاجتماعي للزيارة:

إن كلمة "الصلّاح" أي الصلحاء، هو اعتراف ضمني بوجود صلحاء وأولياء داخل المجال، وأن لهم بركات قد تشمل كل من يُقدس ويُتبرك به، وقد تتحول لسخط وعقوبة (تازبة) لكل من يعتبر وجودهم غير نافع أو ضار، فالمجتمع هو من يُنتجهم ويُعيد إنتاجهم.

بالموازاة مع دخول الإنسان الصحراوي لمجال جديد يُعترف ضمنيا بأن كل أرض أو قرية أو مدينة أو موقع جغرافي له رجالته الذين رغم وجودهم تحت التراب، إلا أنهم لا زالوا يمتلكون سلطة ويتحكمون في المجال، وأي تطاول سيؤدي لا محالة إلى انتقام قد لا تُحمد عقباه.

لذلك فالزيارة التقليدية الممارسة من طرف الإنسان الصحراوي لها أهداف مختلفة خصوصا التداوي والعلاج، العلاج العضوي والعلاج النفسي.

العلاج العضوي والتداوي: فمثلا يسعى المريض أو أهل المريض إلى محاولة الاستشفاء من مجموعة أمراض استعصت على الطب الحديث، فيلتجئ أهل المريض إلى الصلحاء والأولياء من أجل علاج المريض خصوصا الأمراض الجلدية وأيضا الأمراض العضوية، فيصطحب أهل المريض أو الفريك قربانا عبارة عن رأس من الغنم تيمنا بالضريح، وكلما زادت قيمة الذبيحة إلا كان الشفاء سريعا.

إضافة إلى الأخذ من تراب الضريح خصوصا الموجودة عند رأسه، ورميها على المريض وعلى العضو المصاب، وعلى جميع المشاركين في الزيارة، بل محاولة استفادة الجميع من بركة الولي، حيث يؤخذ من التراب والطعام للأفراد الذين لم يتسن لهم حضور الزيارة.

العلاج النفسي: فالضريح حسب المستجوبين ملاذ للتفريغ عما يزعجهم، كأن الإنسان يُصرح له بما يعانیه وما يتطلع له، فهو تتوفر فيه السرية كشرط، وبذلك يلعب دور الطبيب النفسي، هذا الأخير الذي يشهد ندرة وغيابا بمدن الصحراء، ويبقى الملاذ هو أضرحة الصلحاء.

تغدو الزيارة مبيتا في حالات معينة كالإصابة ببعض الأمراض النفسية، ويُقام هذا النوع من العلاج النفسي عند "بوغنبور" ب"الزربية" قرب مدينة بوجدور، حيث يُترك المريض النفسي حسب رغبة أهل المريض قريب أو بعيد من الضريح.

(ب)المواسم الدينية:

كانت المواسم الدينية "امكّاكير" (جمع امكار) تقوم على التبرك وإحياء الصلة الروحية، حيث تنطلق المواسم الأربعة بواد نون بموسم أسيرير "موسم سيدي محمد بن عمرو، يليه موسم لقصابي "موسم سيدي اعمر وعمران"، ثم موسم كليم "موسم سيدي الغازي"، لتختتم بموسم "لمعليل" أي المكرر بأسيرير، وهي مواسم تقوم على الجانب الديني أكثر منه للتجارة (اللهمي محمد سالم ومحمد سالم صداق، 2019، ص: 79).

ساهمت مظاهر الاستقرار و الحداثة والتحول المجتمعي في تراجع الزيارات التقليدية الممارسة بشكل مستمر، لتصبح على شكل مواسم دينية حديثة، يُستعد لها بشكل كبير وتُرصَد لها مبالغ كبيرة، عبر مساهمات أفراد القبيلة أو نخب سياسية أو دعم من الدولة... والهدف إحياء موسم ديني على شكل احتفالية كبيرة، تُظهر من خلاله القبيلة قدرتها على التنظيم من جهة أولى، وحضور عددها الكبير لإبراز هيبته أمام القبائل الأخرى عبر إطعام الحاضرين من منتمين للولي والزواوية أو المدعوين من خارج المجموعة المنظمة والداعمين بهدية "تعركية" أو دعم مادي، فسلطة المثل "اطعم تشكر أخدم تشكر" حاضرة أي أنك عند إطعامك للناس سيشكرونك بخلاف إذا خدمتهم سيحتقرونك، فالقادم مجبر على تقديم الهدية والمستقبل يصبح شريكا "نحن نعطي الهدية لأننا مجبرون على ذلك، لأن مستقبل الهدية أو الممنوح يصبح له الحق فيما يمتلك المانح" (Marcel Mauss 1923-1924, p : 19) ، الأمر الذي يجعل هذه التبادلات لغة تعبر فيها مجموعة بُنى خفية تتحرك داخل النسق الرمزي بشكل متبادل، كما يهدف إلى وضع حد للصراعات القبلية حول المجال، فالمجال جزء من وجود القبيلة، فإن لم تستطع القبيلة الحفاظ على مجالها عبر الحرب، تلجأ للصحاء لأجل ترسيم الحدود والدلالة على امتلاك المجال المحيط به.

إن الموسم الديني المُقام حول ضريح ولي صالح، هو الاسم المتداول بشكل كبير، وهو يهدف ضمان استمرارية الارتباط بالزمان والمكان، ف"المعروف" أو "إمكار" أو "الموسم" أو "الزيارة" هي مجموعة مسميات حسب حجم الاحتفال المقام حول ضريح الولي، من أجل تجديد الولاء للولي والاستفادة من بركته اللامحدودة، وبالرغم من حداثة المجتمع الصحراوي، وشروعه في عصرنة حياته الاجتماعية، وتأثره بالتحويلات العميقة، لكن طقس "التعركية" في المواسم لازال عادة وضرورة.

• البعد السياسي للموسم الديني:

لا مجال لإخفاء الطابع السياسي للموسم، فهو جزء من تطورها، فبعد الزيارات التقليدية التي كان يحرص الأعيان عليها، يتم الشروع في تنظيم وإقامة الموسم حيث تذبذب الذبائح وتخر الإبل والجمال عند أضرحة الأولياء المحليين فتجد لكل فرقة وليها الصالح (شرقي محمد، 2009، ص: 177)، وحيث يتغاضى جل الأعمال عن الجانب السياسي "فأغلبها تناول الموسم في سياق فهم الهوية الدينية وأشكال التدين عند المغاربة وتمثلهم الأنساق الرمزية في حياتهم اليومية، لكن الدراسات والأبحاث التي أشارت إلى أهمية الموسم داخل النسق السياسي العام قليلة، فهي الكيفية التي توظف فيها طقوس الموسم وأنساقها الرمزية المقدسة إلى ممارسات تخدم أغراضا سياسية محضة" (الريس المصطفى، شتبر 2016، ص:75).

إن هذه العودة إلى إعادة الإنتاج الولوي الصلاحي والزواياتي بعد فترة فتور شهدها المجتمع أثناء الحقبة الاستعمارية تلتها عودة للمقدس بشكل تدريجي، خصوصا العقدين الأخيرين مع غياب للطابع القدسي والتحول إلى مناسبة للاستعراض (شرقي محمد، 2009، ص: 178)، يُعزى لدعم الدولة ومشاركتها ومباركتها لهذا النوع من الانتماء، ونتيجة لذلك بدأ التدافع نحو بناء جسر جديد يربط القبيلة أو الفخذ أو العرش بأحد رجالها أو نساءها، الذين يشهد لهم المجتمع بالصلاح والكرم والتشبث بمكارم الأخلاق والدين الإسلامي الحنيف، وفي بعض الأحيان الجهاد ضد المستعمر. إلا أن الشرط الأساسي في الولاية هو "الكرامة" (العمل الخارق) وهو ما لم يتوفر عند مجموعة مشهورة من الصلحاء والأولياء... لذلك فصلحاء وأولياء الصحراء أخذوا شرعيتهم من: الزهد والتدين أو الجهاد أو العلم أو صحة العالم أو المتصوف أو الكرامة...

إن المجتمع الصحراوي مجتمع قبائلي ولكل قبيلة مجموعة "أنفاذ وأعراس" تُسهل عملية التعرف على أفرادها من داخلها، كما تساعد في عملية جمع المساهمات السنوية إما مثلا بغرض "الدية" أو لتنظيم موسم يليق بمكانة القبيلة داخل المجتمع.

لقد أصبحنا أمام مكون الزوايا فقط مع بداية الموسم الدينية، والتي في أغلبها تنظم في فصل الصيف أو العطل المدرسية بهدف ضمان الحضور المكثف، وأمام مكون المحاربين فقط في حالة الصراع على المجال، وأمام مكون اللحمية في حالة التدافع نحو البحث عن العمل، وبالتالي أصبحت معظم القبائل تجمع الصفات الثلاث بدلا من زوايا الشمس التي كانت تجمع بين حمل السلاح و"التازويت"، وبالتالي أصبحت أوراق تحظر وقت الحاجة. إضافة إلى التسمية الجديدة، فبدل القبيلة المتعارف عليها ظهرت

تسمية قبائل، إذ نجد "قبائل... تنظم موسمها الديني تحت شعار..."، وهكذا برز البعد الثقافي في فقرات الموسم.

• مشاركة النخب السياسية في المواسم:

بالموازاة مع العودة القوية للمقدس بشكله الجديد برزت مشاركة النخب السياسية أو المنتخبين في المواسم الدينية، فقد بدا لهذه النخب الاستفادة من التجمعات القبلية بهدف البروز الاجتماعي والسياسي، خصوصا مع اقتراب الاستحقاقات الانتخابية. كما يوجد نوع من التناقض بين خطاب المنتخبين والأعيان، فرغم الخطاب المضاد لاستمرارية الأولياء والصلحاء والمواسم وهاجس الشرك المطروح في الخطاب المضاد، إلا أنهم لم يتخلوا عنها، بل يذهب بعضهم إن لم نقل غالبيتهم إلى توحيد صفوف القبيلة أو الفخذ نظرا لصعوبة توحيد القبيلة في الزمن الراهن، لذلك التجأ بعض الأعيان والنخب إلى تمويل وتنظيم نسخة أو نسخ من المواسم المنظمة حول ضريح الولي.

فتتحول الزيارة إلى موسم، والموسم إلى حملة انتخابية يراد منها توحيد الصفوف وضمان القاعدة الشعبية من أبناء العمومة، والانفتاح على القبائل الأخرى بالحضور الشخصي أو الهدية المقدمة وهي في الغالب تكون عبارة عن رأس من الإبل "تعريكية"، لذلك ما لم يستطع فعله الأحياء، استطاع الأموات القيام به. (شرايبي محمد، 2021 ص: 08).

إن السلطة السياسية تنطلق من التحكم في السلطة الدينية والرمزية، إضافة إلى توفر السلطة المادية، لذلك فالأعيان يحاولون استثمار الرمزي عبر إحصار "النخيرة" أو "التعريكية"، التي أصبحت شعيرة مقدسة في الموسم الديني للأولياء والصلحاء بالجنوب المغربي، ف"النخيرة" التي يتكفل بشرائها شخص نافذ وتداول خبر تمويله، يساعده في رفع نسبة الشعبية الاجتماعية والسياسية، حيث يتنافس الجميع لدرء السمعة السيئة، وبالتالي فالربط بين قدرة الولي الصالح والنجاح الاجتماعي والسياسي، هي جدلية حاضرة في المتخيل الشعبي للأعيان والمجتمع ككل.

إذ أن المتخيل الشعبي والإنساني لدى عموم أهل الصحراء جعل رجالا ونساء بصموا في تاريخ الصحراء، أشخاص صالحين، بيد أن المجتمع في بداوته قبل مرحلة الاستقرار تميز أهله في جلهم بالكرم والصلاح والمروءة والصدق، وحتى تشبثهم بمكارم الدين والاتصاف بحسن الخلق.

7. أشكال استمرارية التدين الشعبي بالمجتمع الصحراوي

أ) جمعيات الصلحاء والأولياء:

برز ونحن نعاين الظاهرة عن قرب شكل جديد لتدبير وتنظيم المواسم الدينية حول أضرحة الأولياء والصلحاء والزوايا -نظرا لزيادة الفئة المتعلمة والمثقفة داخل البنية الاجتماعية- ألا وهي جمعيات

المجتمع المدني كآلية لتأطير المشاركين في الموسم من جهة أولى، والوسيط بين الدولة والمجتمع من جهة ثانية، فالجماعة التقليدية التي كانت تسهر على الإعداد للزيارة أو الموسم بشكله التقليدي، أصبحت تتراجع أمام التنظيمات الجديدة والحديثة المبنية على قيم التضامن والتطوع في خدمة الجماعة، إضافة إلى التعبير والدفاع عن مصالح الجماعة المشكلة لها.

انطلاقاً من التحولات التي عرفها المجتمع الصحراوي، وظهور جمعيات خاصة بمكون قبلي واحد وتهدف إلى تعزيز البناء القبلي وتقوية التماسك الاجتماعي والتنظيمي، على اعتبار أن المجتمع الصحراوي يقوم على تقسيم قبلي محض، غير أن العمل الجمعي لا يقتصر على القبيلة في شكلها التقليدي فقط، بل نجده كذلك في الميدان الديني الاجتماعي، أي جانب الأولياء والصلحاء والزوايا، فقد يكون شكلاً مؤسساتياً يُسهل على الدولة ضبط المواسم الدينية ومتابعتها والمشاركة فيها بعض الأحيان، عبر تمثيلات تختلف حسب الوزن القبلي والتاريخي لكل ولي صالح أو زاوية.

ب) من المشروع الديني إلى المشروع الاقتصادي:

يظهر أن الدينامية التي يشهدها الميدان الصلاحي تسير بشكل متردد، تارة تذهب بشكل متسارع، وتارة تشهد فتوراً وتراجيحاً في الإنتاج، فقد ظهرت مجموعة من المشاريع الاقتصادية التي جعلت من الولي الصالح قاعدة للانطلاق إما عبر تمويل الدولة التي تدعم هذا المجال الصلاحي والرمزي، أو عبر استغلال اسم مشهور داخل المجال تيمناً به ورغبة في تقريب الاسم الذي تُشدُّ له الرحال، وبذلك فزيارتك لهذا المحل الاقتصادي أو التجاري يمكن أن تشابه زيارة لهذا الولي الصالح.

ب) العيون المقدسة:

لم يقتصر التقديس والتبرك على أولياء الله الصالحين، بل تعتبر العيون المائية من بين أهم المقدسات نظراً لندرة المياه بالصحراء، إلا أن هذه المياه الجوفية في غالبيتها غير صالحة للشرب نظراً لاختلاطها بمعادن، فاستغلها الإنسان الصحراوي في شفاء مجموعة من الأمراض الجلدية، كـ"عين أباينو" المتواجدة شمال مدينة كلميم، والتي شهد محيطها حركة ونشاطاً اقتصادياً ملحوظاً كالمنشآت السياحية، ومواد ولوازم مرتبطة بالاعتسال والعلاج، فأصبحت تلقى قدسية دينية وسياحية، فالارتباط بين السياحة والتدين الشعبي بات واضحاً وعنصراً اقتصادياً مهماً، فقد أصبحت تجمع بين الأسطورة والمعالجة والسياحة.... كذلك العين المائية التي توجد بالمدخل الشمالي لمدينة العيون تُسمى عين الساقية الحمراء، تدخل في خانة العيون المحلية، حيث تعتبر مشهورة محلياً بخلاف العيون الكونية والعيون الوطنية، وتُزار كل يوم جمعة للتداوي من الأمراض الجلدية، خصوصاً الساكنة الوافدة من مجالات تُقدس فيها العيون المائية أو لشهرتها بأنها تُخدم الأجنبي "تُعطي للبراني" أكثر من أهل الصحراء بالجنوب المغربي، وهو ما

يُشتهر به " سيدي أبو الليوث" بقلب الدار البيضاء كذلك، فهو يُمنُّ على الأجنبي أكثر من "أولاد البلاد" أي ساكنة الدار البيضاء، ويشترك "أبو الليوث" (جمع الليث وهو اسم من أسماء الأسود) مع جد قبيلة أبي السباع في ترويض الأسود، وهو كذلك ما يُحكى عن لالا يَطُو الموجودة غير بعيد عن ضريح لالة عيشة البحرية والتي ظهرت كرامتها عند سجنها من طرف السلطان مع أسد استطاعت ترويضه، فتفاجأ السلطان ليكرم وفادتها ويُطلق سراحها، لذلك فهي ظاهرة مستقرة في الوعي الجمعي والتاريخي للمجتمع.

ج) أسماء المواليد والأزقة بالصلحاء:

• المواليد:

يسمي أهل الصحراء أسماء مواليدهم بأسماء الأولياء والصلحاء تيمنا واعتقادا في بركتهم، فمثلا نجد سيدي أحمد منتشرة بشكل كبير مقارنة بأسماء أخرى نسبة ل "سيداحمدات" الثلاث (نسبة لسيدي أحمد لعروسي وسيدي أحمد الركيبي وسيدي أحمد بوغنبور)، والحاج نسب للحاج أحمر اللحية، كذلك محمد مولود نسبة لدفين وين مذكور قرب مدينة الطنطان.

• الأزقة والأماكن:

كذلك نجد أزقة ومرافق وأحياء تسمى بأسماء أولياء وصلحاء بمدن الصحراء، كلعب الشيخ محمد الأغظف بالمدخل الجنوبي لمدينة العيون، إضافة لأزقة مسماة بأسماء كزقاق زاوية الشيخ بمدينة العيون، وزقاق ريب بلاو الموجودة بمدينة العيون وهي موقع ضريح الشيخ بلاو.

مدينة الداخلة كذلك تشهد هذا النوع من المسميات، فنجد إحدى شوارعها الرئيسية باسم شارع سيدي أحمد العروسي اعترافا بقيمة هذا الشيخ الدينية، إلى جانب هذا الشارع هناك ساحة تسمى كذلك باسم الشيخ العروسي.

يبدو واضحا شكل استمرارية هذا التدين الشعبي في المتخيل والتمثل الجمعي للمجتمع الصحراوي وداخل المنظومة الإدارية التي تُدخل هذا النوع من الأسماء في تسمياتها.

خاتمة

شهد المجتمع الصحراوي كغيره من المجتمعات مجموعة تغيرات اتجهت نحو حداثة وعصرنة نمط عيشه وعلاقاته الاجتماعية خصوصا في مرحلة الاستقرار التي تلت مرحلة ترحال رعوي بحثا عن الماء والكلاء، الأمر الذي فرض على المؤسسات الدينية ممثلة في أضرحة الأولياء والصلحاء وحتى الزوايا الاستجابة لهذا التغيير من أجل مواكبة حياة الاستقرار التي طبعت غالبية مدن الصحراء، وهو ما نتج عنه تداخل الديني والاجتماعي وحتى السياسي والاقتصادي، لتستمر هذه الأضرحة والزوايا في قالب

يتماشى مع التطور الحالي، وتخدم السياسي والاقتصادي خصوصا، دون إغفال حضورها الدائم والمستمر في المتخيل الجمعي لسكان الجنوب المغربي.

المصادر والمراجع:

- 1- محمد فاضل ولد الحبيب اليعقوبي، الضياء المستبين في كرامات شيخنا الشيخ محمد فاضل بن مامين 1869م، تحقيق الحضرمي ولد الشيخ سيدي بوي ولد أجودنا ولد محمد فاضل بن مامين، منشورات جمعية شيخنا الشيخ محمد فاضل بن مامين للتربية والثقافة والعلوم، 2017.
- 2- نقوري ادريس، أولياء وصلحاء الصحراء، منشورات مؤسسة مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، أكتوبر 2018.
- 3- اللطفي محمد سالم ومحمد سالم صدق، نون رحلة في تراث وتاريخ الصحراء ووادي نون، مطبعة المدينة كلهم 2019.
- 4- محمد الترسالي، دينامية التحولات الاجتماعية والثقافية بالمجتمع الصحراوي من البداوة إلى التمدين، أطروحة لنيل الدكتوراة في علم الاجتماع، 2016 كلية الآداب ظهر المهرزاز فاس.
- 5- الدحيمي محمد، مقارنة سوسيوأنثروبولوجية لمجتمعات البدو سكان الصحراء نموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، عين الشق الدار البيضاء، 2005-2006.
- 6- محمد جنوبي، الأولياء في المغرب، الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية، حياة سير بعض مشاهير أولياء المغرب، منشورات كمال اوجوردوي، الرباط، 2004.
- 7- عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد بحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2000.
- 8- محمد عبده محجوب، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية (منهج وتطبيق)، وكالة المطبوعات، الطبعة الثانية، د.ت.
- 9- الرئيس المصطفى، إضاءات حول الزوايا والطرقية زمن الحماية، سلسلة شرفات، منشورات الزمن، العدد 74، شتنبر 2016.
- 10- شرقي محمد، التحولات الاجتماعية في المغرب من التضامن القبلي إلى الفردانية، أفريقيا الشرق، 2009.
- 11- شرايبي محمد، جمعيات الأموات واللعب بأوراق الوفيات، الديني والاجتماعي بالصحراء من خلال زاوية آيتايعزوايهدى، مقال غير منشور

12- Abdelmoghitebassir, **les zaouiasdarqawiyyas au maroczaouia d'al-basir comme exemple**, Thèse de doctorat de : études arabes, civilisations islamiques et orientales sous la direction de M. Pierre lory, Directeur d'études, Soutenue le 17 Novembre 2015, l'École Pratique des Hautes Études

13- Marcel Mauss, Essai sur le don. Forme et raison de l'échange dans les sociétés primitives, l'Année Sociologique, seconde série, 1923-1924

الاتجاهات الحالية لتوطين ألعاب الفيديو:

الرهانات الاقتصادية والثقافية

Current Trends in Video Game Localization:

Economic and Cultural Challenges.

د. ريم القريوي /أستاذة مساعدة بالمعهد العالي لإطارات الطفولة

(جامعة قرطاج، الجمهورية التونسية)

g_rym@hotmail.com

ملخص

تبحث هذه الورقة في موضوع تم تجاهله إلى حد كبير في دراسات الترجمة والمتمثل في الاتجاهات الحالية لتوطين ألعاب الفيديو إلى اللغة العربية والكشف عن العوامل التي تتحكم في هذه العملية. وقد يزداد الأمر تعقيدا في الألعاب المشحونة ثقافيا والموجهة للناشئة خصوصا، مما يضع المترجم أمام جملة من الخيارات: فإما أن يحافظ على المكونات الثقافية للعبة الأصل، وإما أن يطوع اللعبة بما يتناسب مع ثقافة المتلقي أو قد يختار التوليف بينهما. وفي هذا الإطار تطرح هذه الورقة الأسئلة التالية: فيما يمثل واقع الاتجاهات الحالية لترجمة ألعاب الفيديو؟ وكيف يتظاهر هذا الواقع ضمن السياقين الاقتصادي والثقافي؟

الكلمات المفتاحية: ألعاب الفيديو، الترجمة السمعية البصرية، التوطين، مستويات التوطين، التكيف الثقافي.

Abstract

This paper looks at a topic that has been largely overlooked in translation studies, namely the current trends of localizing video games into Arabic and revealing the factors that control this process. This may become more complicated in culturally charged games aimed especially at young people, placing the interpreter before a variety of options: either preserving the cultural components of the original game, or volunteering the game to suit the recipient's culture or choosing to synthesize them. In this context, this paper asks the following questions: What is the reality of current trends in video game translation? How does this reality manifest itself in economic and cultural contexts?

Key words : Video games, audio-visual translation, localization, localization levels, cultural adaptation.

مقدمة

أحدث التطور التكنولوجي والعلمي الذي حققته البشرية في القرن الماضي الكثير من التغيرات الجذرية التي مست عادات الأفراد وأنماط عيشهم بشكل واضح وجلي، ولعل أكثر الممارسات تأثيراً على المشهد البشري هي تعميم استعمال الحواسيب والهواتف الذكية وما وصلت إليه من تطور وهي التي تعرف إقبالا متزايداً بغض النظر عن العمر أو الجنس أو الوضع الاجتماعي. أسفر هذا التطور عن زيادة إنتاج المعارف والمعلومات والمحتويات الفنية والترفيهية بلغات أجنبية وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية التي تعد لغة الحضارة والتطور العلمي والتكنولوجي. ومن هنا كانت الحاجة، أمامنا نحن العرب، للترجمة لتلقف العدد الهائل من الإنتاج الغزير والمتزايد في شتى المجالات ونقلها إلى أكبر عدد ممكن من الجماهير. وهو أمر على كونه يحز في الذات، إلا أنه لا مفر منه لأن اللغات اعتادت على مر التاريخ تبادل المعارف والابتكارات والخبرات وتحقيق التواصل المثمر في شتى المجالات.

ومع ازدهار الصناعات الترفيهية تمكنت حركة الترجمة أن تدخل من أبواب جديدة قصد ضمان التواصل بين الشعوب والثقافات بما في ذلك رواج مجال ترجمة ألعاب الفيديو، أو ما يعرف اليوم بتوطين ألعاب الفيديو، باعتبارها عملاً إبداعياً يجاري العصر. غير أن الإشكال الحقيقي يكمن في الهوة الثقافية العميقة التي تفصل وتباعد بين هويتنا العربية الإسلامية المستهلكة لهذه المنتجات وهوية المجتمعات الغربية المصنعة لها والتي عرفت مسارات تاريخية وحضارية تختلف عنّا، لاسيما عندما يتعلق الأمر بترجمة الألعاب المشحونة بمضامين ثقافية وأيديولوجية. إذ أن ألعاب الفيديو كغيرها من الوسائل السمعية البصرية تحمل في طياتها ثقافة اللغة المصدر وأيديولوجيات مصمميها ومنتجها. فاللعبة مهما كانت حيادية إلا أنها لا تخلو من سمات الثقافة التي أنتجت فيها. فيجد المترجم نفسه أمام مفترق طرق يضع أمامه جملة من الخيارات خاصة عندما يتجسد المنتج الثقافي في الصوت والصورة؛ فإما أن يحافظ على الهوية الثقافية للعبة المصدر تاركاً للاعب العربي مهمة الانتقال نحو الآخر، أو يحاول على العكس من ذلك تقريب المفاهيم وتطويعها حتى يتسنى لهذا اللاعب تقبل اللعبة واستساغتها وتمثلها بما يتوافق مع بيئته وهويته وانتماءاته، كما أنه قد يضطر في بعض الأحيان إلى التوليف بين كلا الاتجاهين إذا ما اقتضت أهدافه ذلك.

وضمن هذه الاعتبارات تستكشف الورقة الحالية في مرحلة أولى، مختلف الاتجاهات لترجمة ألعاب الفيديو كون هذه الأخيرة من أبرز المنتجات الترفيهية التفاعلية المميزة لهذا العصر، "فالقرن الحادي والعشرين هو قرن المرح" على حد قول "إريك زيمرمان" (Zimmerman, 2013, p. 19)، ثم ترصد في مرحلة ثانية مستقبل ريادة الأعمال في هذا المجال على المستوى العربي ببعديه الاقتصادي والثقافي

وما يحيط بهما من فرص وما يحده من تحديات وذلك من خلال تحليل الواقع ومراجعة الدراسات الحديثة المنشورة حول الموضوع. ففيما يمثل واقع الاتجاهات الحالية لترجمة ألعاب الفيديو؟ وكيف يتظهر هذا الواقع ضمن السياقين الاقتصادي والثقافي؟

I. الخلفية النظرية

تضاعفت شعبية ألعاب الفيديو على مدى العقود القليلة الماضية، وأصبحت واحدة من أضخم مجالات الترفيه التفاعلية في العالم إذ بلغ عدد اللاعبين حول العالم 3,2 مليار شخص بحلول سنة 2023 أي ما يعادل 39% من سكان العالم (Newzoo, 2022). فاشتدت المنافسة بين المطورين لولوج أسواق جديدة ولتلبية الطلب عليها، مما فرض إنشاء تخصص حديث منبثق عن دراسات الترجمة السمعية البصرية تحت مسمى "توطين ألعاب الفيديو". وفي هذا الصدد، يشير "برنال مارنو" (Bernal-Merino, 2014, p. 86) إلى أن توطين ألعاب الفيديو "هو عملية تكيف للمنتج بحيث يصبح ملائماً من ناحية اللغة والثقافة كما يجب أن يراعي الاعتبارات القانونية والتقنية حتى يكون مقبولاً لدى المتلقي". ومن الخصائص المميزة لتوطين ألعاب الفيديو أن "المترجم مطالب بنقل نفس متعة اللعب المتواجدة في النسخة الأصل إلى النسخة الهدف" (O'Hagan & Mangiron, 2013, p. 4). ولذلك كان من الضرورة أثناء الترجمة الحرص على ضمان تجربة لعبية مرحة وتفاعلية مشابهة لما كانت عليه في النسخة الأصلية. إذ لا يجب أن تكون هنالك أية عناصر غريبة أو دخيلة تفسد تجربة اللعبة التفاعلية، وهذا هو السبب الرئيسي في منح مترجمي ألعاب الفيديو حرية شبه مطلقة في تعديل وحذف وحتى إضافة أية عناصر يرونها ضرورية لتقريب اللعبة من اللاعبين ونقل الشعور الأصلي للعبة وبذلك يتم تجاهل المفهوم التقليدي للترجمة الآمنة أو الولاء للنص الأصل. وبالتالي يصبح من الضرورة انتهاج أسلوب الترجمة الإبداعية بدل الترجمة التقليدية في توطين ألعاب الفيديو. إذ تساهم الترجمة الإبداعية في دفع المنتج نحو ثقافة أخرى ليحقق الربح ويتردد صدها بنفس التأثير الأصلي المراد بلوغه. وهنا يبرز الاختلاف بين ترجمة ألعاب الفيديو وترجمة بقية المنتجات الفنية الأخرى كالروايات والأفلام والمسلسلات.

ولا تقتصر عملية التوطين على ترجمة واجهة المستخدم والوثائق المرفقة فقط بل تتعدى ذلك إلى عدة مسائل تقنية أخرى معقدة، فعلى سبيل المثال قد يضطر الفريق العامل على توطين لعبة فيديو ما إلى إعادة تصميم الشخصيات لتتوافق مع مقتضيات الثقافة الهدف، وأحياناً قد يتطلب ذلك حذف بعض المحتويات أو تغيير التصميم في النسخة الهدف تفادياً إلى أية مشاكل ثقافية من محتوى غير لائق أو تفاصيل أخرى غير مرغوب فيها في النسخة الأصلية. لذلك تختلف مستويات توطين ألعاب الفيديو لارتباطها بعوامل مثل الآجال الممنوحة لفريق الترجمة والميزانيات المرصودة والتوقعات الربحية المنتظرة

من السوق المستهدفة. حيث قامت "شاندلر" (Chandler & Deming, 2011, p. 8) بتصنيف عملية توطين ألعاب الفيديو إلى أربعة مستويات أساسية وهي:

- اللاتوطين: يتم خلالها تسويق ألعاب الفيديو في نسختها الأصلية في الأسواق الأجنبية وذلك للتقليل من تكاليف عملية التوطين الباهظة. وتهيمن ألعاب الفيديو بدون توطين على السوق العربية لأن شركات الألعاب تثق في أن اللاعبين العرب الناطقين باللغة الإنجليزية يحبذون ممارسة الألعاب بلغتها الأصلية. وقد مهد هذا النقص في عمليات التوطين الطريق لظهور مترجمين هواة يترجمون إلى اللغة العربية ألعابهم المفضلة أو يقدمون إرشادات وتعليقات حول اللعبة على مواقع التواصل الاجتماعي مثل اليوتيوب.
- توطين غلاف اللعبة والوثائق المرفقة: "Box and docs" يتم الحفاظ على لغة اللعبة الأصلية ويتم خلالها توطين غلاف اللعبة وكتيب الإرشادات فقط دون توطين اللعبة. يتخذ هذا الإجراء لخفض مستوى التكاليف خاصة عندما يتوقع من اللعبة أن لا تحقق مبيعات كبيرة في الأسواق.
- التوطين الجزئي: يقع خلاله ترجمة غلاف اللعبة والوثائق المرفقة والملفات النصية وواجهة المستخدم في اللعبة بينما يتم الإبقاء على الحوارات الصوتية المتواجدة في النسخة بلغتها الأصلية والاكتفاء بتوفير الترجمة المرئية فقط.

- التوطين الكلي: يتم توطين جميع محتويات اللعبة انطلاقاً من غلاف اللعبة وصولاً إلى خدمات دعم اللاعبين، حتى أن الموقع الرسمي للعبة على الإنترنت يتم توطينه بالكامل. يعد هذا النوع من التوطين الأكثر تكلفة من الناحية المادية ويتطلب عبئاً أكبر ووقتاً طويلاً في الإنجاز. عادة ما يرتبط هذا المستوى من التوطين بالألعاب ذات ميزانيات الإنتاج المرتفعة.

وفي هذا الصدد، لا تزال البحوث الميدانية المتصلة بتفضيلات اللاعبين العرب وتصوراتهم لمستويات توطين ألعاب الفيديو تمثل فجوة في دراسات الترجمة والترجمة إلى اللغة العربية بالتحديد. فهناك حاجة لمزيد من الدراسات في هذا المجال من أجل سد أي تفاوتات محتملة بين مشاريع توطين ألعاب الفيديو وانتظارات اللاعبين.

II. المسار التاريخي لتوطين ألعاب الفيديو

يعدّ المسار التاريخي لتوطين ألعاب الفيديو قصير مقارنة بغيره من المنتجات الفنية ووسائل الترفيه الأخرى. وبالرغم من انطلاقته المتعثره إلا أنه تم إيجاد أساليب ناجعة لتكييف الألعاب وإيصالها إلى أسواق أجنبية مختلفة بالتوازي مع التقدم التكنولوجي وازدهار صناعة ألعاب الفيديو.

1. مرحلة ما بين 1980 إلى منتصف التسعينيات

خلال هذه المرحلة، وعلى الرغم من كونها مهد حضارة ألعاب الفيديو، لم توفق اليابان في ترجمة منتجاتها إلى اللغة الإنجليزية. حتى أنه تم توثيق الأمثلة التي تعبر عن ضعف الترجمة خلال هذه المرحلة في كتاب يحمل عنوان "This Be Book Bad Translation Video Games" لصاحبه مانديلين وكوشار (Mandelin, 2017). وتعود هذه الأخطاء حسب أوهاقان (O'Hagan & Mangiron, 2013, p) إلى "عدم إشراك مترجمين أكفاء وكذلك غياب آليات توطين مناسبة لألعاب الفيديو". لكن مع نمو صناعة التوطين، بدأت حالات ضعف الترجمة تظهر بشكل أقل.

2. مرحلة التطور: من منتصف التسعينيات إلى أواخر التسعينيات.

خلال هذه الفترة، أدرك المصنعون أن إنتاج ألعاب الفيديو بلغات مختلفة هو " استثمار صغير يجعل من منتجاتهم تصل إلى مستهلكين أجنبى ويزيد من إيراداتهم بسهولة" (Bernal-Merino, 2011, pp). فعلى غرار اليابانية والانجليزية شملت ألعاب الفيديو لغات جديدة مثل: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية. كما عرفت هذه المرحلة في أواخر سنة 1994 إنتاج وحدة الألعاب ذات المعالج bit-32 الذي مكن من تشغيل الأقراص المضغوطة ذات مساحة التخزين المقدرة ب 640 ميغابايت وضاعف من مساحة التخزين إلى 100 مرة لما كانت عليه وقت سابق.

3. مرحلة النضج: ما بين 2000 إلى 2005

عرف القرن الواحد والعشرين قفزة نوعية فيما يخص مساحة التخزين وذلك بعد الانتقال من استخدام ال CD ROM إلى استخدام ال DVD-ROM والذي جلب معه الكثير من الإمكانيات على غرار صيغ التخزين المتاحة للملفات وأنواعها، إلا أنّ مساحة التخزين المحدودة المخصصة للترجمة البصرية لم تتغير ومع ذلك فإن ظهور بعض التقنيات مثل استخدام الأصوات البشرية وتقنية الصور ثلاثية الأبعاد والمقاطع السينمائية قد ساهم في تحسين متعة اللعب التفاعلية وجعل منها أكثر واقعية وتشويقاً.

4. مرحلة النهوض والتقدم: انطلاقاً من 2005 إلى يومنا هذا

تميزت هذه المرحلة بزيادة الحرص على تحقيق الانسجام بين الصوت والصورة واللغة والثقافة، وما إلى ذلك. كما أصبحت وحدات ألعاب الفيديو مدعومة بخاصية الاتصال بالإنترنت واشتهرت هذه المرحلة أيضاً بظهور نموذج الشحن المتزامن أو ما يعرف ب ship-sim حيث يتم إصدار اللعبة الأصلية واللعبة المترجمة في نفس الوقت.

III. توطين ألعاب الفيديو: الفرص والتحديات

1. المجال الاقتصادي

• طبيعة السوق العربية

- تعدّ البلدان العربية سوقاً مهمةً لا يمكن تجاهلها لذلك تم تنظيم العديد من الفعاليات في المنطقة كدليل على قوة سوق الألعاب فيها. كما تحركت أنظار الشركات العالمية للوطن العربي بإطلاق الألعاب للعالم العربي بحتوى مترجم وآخر مدبلج.
- مجتمع ألعاب نشط وتنافسي، لخصوصية التركيبة السكانية الشابة والبارعة في استخدام التكنولوجيا والمنفتحة على التغيرات السريعة التي تعد من خصائص صناعة الألعاب، مما يجعل منها الصناعة الرئيسية التي يستهدفها مطورو تطبيقات الألعاب. كما لوحظ اتجاه عددا من الشباب العربي إلى هذا المجال كعمل رئيسي لهم وذلك بإقامة مؤسسات ناشئة في هذا المجال.
- أهمية السوق العربية
- من حيث نسبة الإقبال: تحظى المنطقة العربية بـ"مجتمع الألعاب الأكثر نشاطاً في العالم" وتمتلك منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أعلى معدل في اقتناء ألعاب الفيديو، إذ توقع التقرير الصادر عن شركة Niko Partners أن يصل عدد اللاعبين في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى 85.76 مليوناً في عام 2025 في مقابل نحو 65.32 مليون ما كان عليه في عام 2021 (Niko, 2023).
- منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الأعلى في استخدام الجوال والإنترنت: اعتباراً من عام 2017، شهد الشرق الأوسط معدل انتشار للإنترنت بلغ 60% تقريباً. ومن المتوقع أن يستمر هذا الرقم في النمو، فيما يتزايد استهلاك الألعاب عبر الإنترنت بشكل كبير، حيث تواصل منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تحقيق معدلات دخول أكبر للشبكة العنكبوتية. وتعتبر سوق الهاتف المحمول واحدة من أكبر منصات الألعاب في المنطقة، حيث إن معدلات استخدام الهواتف الذكية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تعتبر من الأعلى في العالم.
- غياب استراتيجية اقليمية تدفع بالسوق العربية في قائمة "أكبر أسواق الألعاب الإلكترونية"
- رغم ما تحمله صناعة ألعاب الفيديو من إمكانيات كبيرة في عالم الاقتصاد الرقمي، إلا أنها مثل كل المنتجات الرقمية الترفيهية، تحتاج إلى استراتيجية على المدى الطويل والمتوسط لضمان استدامة الصناعة ونموها. كما تستوجب تشجيع ودعم المطورين والفنانين لإنتاج محتوى يثري التجربة للاعبين ونشر الثقافة الرقمية والاستهلاك الذكي لألعاب الفيديو لتوعية الجمهور بأهمية الترفيه الرقمي وسلامته. إضافة إلى أهمية وضع أنظمة فعالة تحمي حقوق الملكية الفكرية وتعزز النزاهة في الصناعة.
- لا تزال الشركات العربية تتحسس طريقها في هذه الصناعة، ولا يزال جيل مبرمجي الألعاب العرب يستكشفون هذا العالم الكبير ويعانون من نقص الاستثمار وهجرة الكفاءات التي تجتذبها كبرى شركات العالم لتنتج ألعاباً تتحدث العربية. وكما أن الفرص كبيرة في هذا المجال، فإن التحديات أيضاً كبيرة.

2. المجال الثقافي

يؤكد نيومارك أن "دور المترجم لا يقتصر على نقل بنية النص من الثقافة المصدر إلى الثقافة المستهدفة لتوفير فهم دقيق وشامل، بل يلتزم المترجم أيضا بأداء دور الوسيط بين مختلف العناصر الثقافية المكونة للنص". (Newmark, 1991, p. 74). وعلى هذا النحو، تسعى عملية التوطين إلى جعل ألعاب الفيديو أكثر ملاءمة وموائمة للثقافة المستهدفة، لتجنب أي خلافات ثقافية أو جغرافية.

- تعزيز المشاركة والإقبال على المنتج
- من شأن إنشاء محتوى يراعي ثقافة ما ويعكسها بشكل ملائم أن يعزز مشاركة وإقبال اللاعبين عليه، إذ يعتمد نجاح أي لعبة في الغالب على مدى توطئتها لتناسب جمهورها المستهدف. فاللغة المسيئة والخطاب الذي لا يراعي الثقافة والمفاهيم الأجنبية أو الغريبة تجعله يخسر أسواقا أجنبية.
- إدراج وتصحيح بعض الخصوصيات الثقافية
- تمنح عملية توطئ ألعاب الفيديو للمترجم "تفويضا مطلقا" (Costales, 2012, pp. 385-408) لإجراء التعديلات التي يعتبرها ضرورية مثل القيام بتغييرات على الحوارات والرسائل اللفظية والرسومات وحتى سيناريو القصة يمكنك حذف الألفاظ المسيئة ووضع ألفاظ أكثر قبولا. لكن هناك حالات أخرى قد تتطلب إجراء تغييرات جذرية مثل إزالة بعض الشخصيات التي تقوم بأفعال مرفوضة. وهو ما يتيح أيضا الفرصة لتصحيح أو إدراج مفاهيم وتفسيرات مختلفة عن الثقافة الإسلامية والعربية وعن التاريخ المحلي وعن الأساطير والأدب والثقافة الشعبية في مجال الترفيه التفاعلي.
- توفير فرص عمل للمترجمين المحليين
- يعد المترجمون الذين لغتهم الأم هي العربية أكثر قدرة على إدارة مشاريع توطئ الألعاب بنجاح. فهذه المهمة لا تتطلب إتقان اللغة العربية فحسب، بل تتطلب أيضا خبرة ثقافية وعملية. فالمترجمون الذين تكون اللغة العربية هي لغتهم الأم أقدر على التعامل مع توطئ اللعبة. وذلك لأنهم على دراية بالثقافة المراد الوصول إليها، كما أن باستطاعتهم اتخاذ القرارات اللغوية اللازمة لينال المحتوى استحسان الجمهور المستهدف. عادة ما ينشأ تحدٍ يتعلق باختيار اللهجة المناسبة عند توطئ المقاطع الصوتية والمرئية. لذا عادة ما يختار مطورو الألعاب اللغة العربية المعاصرة نظراً لعالميّتها، لكن بعض الحالات قد تتطلب استخدام اللهجات العامية لتقديم محتوى أكثر أصالة.
- يمثل توطئ الألعاب للعربية مجموعة من التحديات التي قد لا تجدها اللغات الأخرى
- تشغل أحرف الأبجدية العربية مساحة أكبر بنحو 25٪ من تلك الموجودة في الأبجدية اللاتينية. يمكن أن تمثل هذه المسألة تحديا إضافيا لمترجمي ألعاب الفيديو حيث تؤدي الأبجدية العربية إلى زيادة كثافة النص

وبالتالي تقليل مساحة الشاشة المتاحة للعب. يتطلب هذا الأمر من مترجمي الألعاب العمل بعناية أكبر على ضغط النص واختيار الكلمات بدقة للحفاظ على المعاني والمفاهيم الأصلية وضمان التناسق والسلاسة في التجربة اللعبة، بالإضافة إلى مراعاة استخدام خطوط وأحجام الخط المناسبة للتأكد من قراءة النص بوضوح على الشاشة.

- تعد اللغة العربية من اللغات القليلة التي تكتب من اليمين إلى اليسار، لذا تتطلب طبيعة هذه اللغة اهتماماً خاصاً عند الترجمة إليها. لذا يجب ضبط اتجاه النص في اللعبة بحيث يتوافق مع الكتابة من اليمين إلى اليسار. يشمل هذا الأمر ترتيب النصوص والشعارات والأزرار على الشاشة. ونظراً لأنه في بعض الحالات الأمر قد يتداخل النص مع صورة معينة أو قد لا يظهر على شاشة اللاعب على الإطلاق، لذا فإن وضع نوع الخط في الحسبان عند التوطين أمر بإمكانه ضمان تقديم أفضل تجربة لعب ممكنة إلى اللاعبين.

خاتمة

لا تزال عملية توطين ألعاب الفيديو فرعاً فتياً من فروع دراسات الترجمة، ولا يزال أمامها أشواطاً طويلة لكي تقطعها من الجانبين التطبيقي والنظري. وفي هذا الإطار من المهم أن لا ننسى نقطتين مهمتين: الأولى التقدم الهائل الذي يحدث في صناعة ألعاب الفيديو تماشياً مع التطور التكنولوجي والذكاء الاصطناعي وأهمية الفرص المتاحة للمنطقة العربية. والثانية أن منطقتنا العربية بحاجة ماسة بل وقادرة على الصناعة لا إلى الاستيراد من غيرها. ولا يعني هذا ضرورة التوقف عن الأقلمة والتوطين إنما هو حلم بازدهار عربي نستقيه من أنفسنا لا من غيرنا من الأمم.

البيبلوغرافيا

- Bernal-Merino, M. Á. (2011). A brief history of Game Localisation. TRANS: Revista de Traductología, 15(15), 11-17.
- Bernal-Merino, M. Á. (2014). Translation and Localisation in Video Games: Making Entertainment Software Global. Routledge.
- Chandler, H., & Deming, S. O. (2011). The Game Localization Handbook. Jones & Bartlett Publishers.

- Costales, A. F. (2012). Exploring translation strategies in video game localization. *MonTI - Monografías de Traducción e Interpretación*, 4, 385-408. <https://doi.org/10.6035/monti.2012.4.16>
- Mandelin, C. (2017). *This Be Book Bad Translation, Video Games ! : A Guided Tour of the Funniest and Strangest Translation Mistakes Throughout Video Game History*.
- Newmark, P. (1991). *About Translation. Multilingual Matters*.
- Newzoo. (2022). *Global games market report*. Retrieved from <https://newzoo.com/resources?type=trendreports&tag=all>
- Niko. (2023, janvier). *MENA-3 Games Market Report*. Consulté le 20 mars 2023, à l'adresse <https://nikopartners.com/middle-east-north-africa-games-market/>
- O'Hagan, M., & Mangiron, C. (2013). *Game Localization : Translating for the global digital entertainment industry*. John Benjamins Publishing.
- Zimmerman, E. (2013). *Manifesto for a Ludic Century*. Retrieved from <http://kotaku.com/manifesto-the-21st-century-will-be-defined-bygames-1275355204>
-

المؤسسة الدينية الإسلامية والنص الأتمودج. النص السردي أتمودجا

The Islamic religious institution and the model text. Narrative text as a model

د. نصر الدين بن عطية. جامعة سيدي بلعباس. الجزائر

البريد الإلكتروني: benattinasreddine11@gmail.com

ملخص:

قامت قاعدة التمييز بين النص المقبول والنص المرفوض (اللانص) على معايير وأسس أرسها المؤسسة الدينية الإسلامية التي بلورت رؤية دينية للنص (الأتمودج)، ولم تتسامح هذه الرؤية أبداً مع النصوص الخارجة عن المعايير الموضوعية من قبلها، واعتبرتها تعبر عن ثقافة العامة الموسومة بكل نقيصة في مقابل الثقافة العاملة التي يمثلها العالم الفقيه. وقد زادت حدة الرفض مع أنواع السرد المتمثل في القص الذي قبول بهجوم عنيف من قبل العلماء نظراً لارتباطه باختراع أحداث تتعارض مع الحقيقة الدينية، وبما تحمله من بدع وخرافات تؤثر على عقل المسلم ودينه. فنشرت تلك المؤسسة فكرة استهجان السرد والقصص ودعت إلى الابتعاد عن مجالسه. وبذلك عدّ السرد النص المرفوض في نظر هؤلاء.

كما تدخلت المؤسسة الدينية في نسيج النصوص الثرية وعدلت دلالاتها بما يوافق نظرة الإسلام ويخدم هدفه، كما أعيد إنتاج معظم النصوص السردية بما يناسب السياق السياسي والثقافي المفروض. الكلمات المفتاحية: النص، السرد، الثقافة العاملة، الثقافة الشعبية.

Abstract:

The rule of distinction between the accepted text (the text) and the rejected text (the text) was based on criteria and foundations established by the Islamic Religious Foundation that developed a religious vision for the text (the model) This vision has never tolerated texts outside the standards set by it, and considered it expresses the culture of the public tagged with each deficiency in exchange for the knowledge culture represented by the jurist scientist. The intensity of the rejection has increased with the narrative types represented in the storytelling, which was met by a violent attack by scholars, since it was related to invented events and that contradict religious truth. And the tolerance and myths it endures affect the Muslim's mind and religion. So the organization spread the idea of booing the narration and stories and called for moving away from its councils. Thus, the narration counted the rejected text in the eyes of those.

The religious establishment has interfered in the fabric of prose texts and modified its connotations in a way that corresponds to the view of Islam, and employed it to serve its purpose, so most of the narrative texts were reproduced the way that suit the imposed political and cultural context.

Key words: Text, narrative, scholarly culture, popular culture.

تمهيد:

لطالما وجدت علاقة بين الدين والأدب ولم تتقطع هذه العلاقة على مر العصور مهما طرأت على حياة الإنسان من تغيرات وأحوال. وتفاعلهما الدائم هو الأصل الذي لا عدول عنه. فالأمر الذي لا شك فيه أن الدين كان يلجأ إلى الأدب ليؤثر في الناس، ويتجلى هذا بوضوح في الدين الإسلامي كما هو معروف عنه في صدر الدعوة والعلاقة التي قامت بين الدعوة الجديدة وشعرائها الذين نالوا عنها ضد سهام العدو. وقد توسل الرسول صلى الله عليه وسلم الجانب الأدبي أو الفني من اللغة ورآها مناسبة لعرض دعوته. كذلك يمكن أن ينأى الأدب فيخدم بعض القضايا بما يتعارض مع الدين فيؤدي ذلك إلى رفض الدين لهذا النوع من الأدب.

1. مفهوم المؤسسة الدينية:

دار جدل واسع حول وجود مؤسسة دينية في الإسلام من عدمه، فلا نكاد نجد اتفاقاً على دلالة هذا المصطلح لدى مختلف الأطراف المتجادلة، فمن يستعمله في مفهومه المسيحي الكنسي ينفي بشكل قاطع أن تكون الممارسة الدينية في الإسلام عرفت هذه المؤسسة. ومن هؤلاء محمد عابد الجابري فهو يعتقد أنه "لم يكن هناك في التاريخ الإسلامي في أية فترة من فتراته مؤسسة خاصة بالدين متميزة من الدولة، فلم يكن الفقهاء يشكلون مؤسسة، بل كانوا أفراداً يجتهدون في الدين ويفتون فيما يعرض عليهم من النوازل أو تفرزه تطورات المجتمع من مشاكل" (الجابري، 1996، ص 62). أما من يستعمل هذا المصطلح في مفهومه الذي يقرره علم الاجتماع الديني فيؤكد وجوده في الثقافة وفي الممارسة الإسلامية شأنها شأن سائر المجتمعات الدينية، ومن هؤلاء محمد أركون الذي يعتبر أن دور المؤسسة الدينية هو الدفاع عن الرؤية الرسمية للدين، وأن تلك المؤسسة "نعثر عليها بأشكال وإجراءات متنوعة في جميع الديانات التوحيدية والمتعددة الآلهة. نحن إذن بإزاء وظيفة ذات مدى أنتروبولوجي (أركون، 1996، ص 105). ويضيف "إن الإسلام وإن خلا من التنظيم التراتبي للسلطات الروحية (قبل الفصل بين الكنيسة والدولة في الغرب) إلا أن هناك هيئة من علماء الدين من اللاهوتيين الذين يشرفون على الدين الحق وعلى تطبيق الشريعة الدينية في علاقتها مع سلطة الدولة". (أركون، 1996، ص 106).

ومهما يكن الجدل فإن وظيفة المؤسسة الدينية في المجتمعات الكلاسيكية قارة، في حين أن الهيكلة ونمط الأدوار وطبيعة الفواعل متغيرة. إننا بذلك نتعامل من خلال التمييز بين مستويين: مستوى الوظائف المحددة التي تحتكر القيام بها جماعة أو جهة بعينها من ناحية، وهذا هو الثابت، ومستوى التنظيم أو الإطار الخارجي من ناحية ثانية، وهذا هو المتحول. ويبقى جوهر المؤسسة الدينية إنتاج معرفة دينية رسمية لها دور أساسي في تكوين النظام الاجتماعي.

والمؤسسة الدينية هي هيئة ذات نسق من المعايير أو الأدوار الاجتماعية المنظمة يتولى القائمون عليها من المتخصصين في الدين توفير وتقديم الإجابات الضرورية على كثير من الأسئلة النهائية المتصلة بالحياة الدنيوية والدينية. وذلك بالإضافة إلى الثقافة الدينية التي تحيط المتدينين علما بماهية العلاقة بما هو غيبي مقدس وبين الإنسان، وكذلك تحديد المقصود ب"المقدس وما هي العلاقة الملائمة التي ينبغي أن تقوم بين المقدس". (زيدان، 1981، ص 215)

وتمتاز هذه المؤسسة بطبيعة اجتماعية خاصة، حيث تتخذ لنفسها مجموعة أو نسقا من العادات والأعراف والتقاليد الدينية ومستويات السلوك والصور التنظيمية (....) وما إلى ذلك من أنماط السلوك التي ينصب اهتمامها وتبرر وجودها على كل ما هو مقدس، وهذا النسق الاجتماعي للدين يلتزم به المتدينون داخل المؤسسة وخارجها. (زيدان، 1981، ص 215)

فالمؤسسة الدينية هي وحدة أو تركيبة أو بناء داخل النسيج الاجتماعي ككل، تلعب دورا حيويا وهادفا، وهذا الدور قد تؤديه المؤسسة في إطار رسمي مهيكّل القواعد والقوانين مما يجعل من الأفراد الذين ينتمون إليها التزام حدود المسؤوليات والوظائف، والمهام المخولة لهم وممارستها بشكل طبيعي، وفي إطار من النظام والانتظام الذي يمكّن المؤسسة الدينية من أداء رسالتها ذات الأبعاد المختلفة على الوجه الأفضل (الجوهري، 2006، ص 128)

2. مفهوم النص:

لقد كان وما يزال مفهوم النص محل بحث وكشف خاصة إذا ما ارتبط بالأدب حيث يزداد تأثيره وتعظم غرابته. وقد تنبه إلى خصوصيته المتلقون واجتهد الباحثون في فك عقده عسى أن يصلوا إلى بعض أسراره ومنبع سخره، فتعددت آراؤهم وتوعدت رؤاهم كل يدلي دلوه مما حواه معينه.

أ- عند العرب:

جاء في لسان العرب: النص: رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا: رفعه، وكل ما أظهر فقد نص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلا أنصّ للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند. يقال نصّ الحديث إلى فلان أي رفعه، وكذلك نصصته إليه، ونصّت الظبية جيدها: رفعته. والمنصة: الثياب المرفعة والفرش المطواة. ويقال نصصت الشيء: حرّكته. وفي حديث أبي بكر حين دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو ينصنص لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد. (ابن منظور، 2000، ص 271).

وفي تاج العروس، النص: التوقيف، والنص: التعيين على شيء ما، والنص بمعنى الرفع والظهور.

(الزبيدي، 2005، ص 369).

وعند الأصوليين لقي هذا المصطلح اهتماما كبيرا باعتباره طرفا أو جهة من جهات معادلة "علاقة اللفظ بالمعنى" والتي كان لها حظ الأسد من الاهتمام عندهم، فنجدهم - جراء ذلك - أطلقوا على بعض الألفاظ مصطلحات عديدة تبعا لدرجة ظهور المعنى فيها وخفائه. أمّا الذي يرتبط بوضوح المعنى فذلك هو الظاهر والنص والمفسر والمحكم، وأمّا الذي يرتبط بغموض المعنى فذلك هو الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه. (الغفار، 1981، ص 144-145) ومدار حديثنا في هذا المقام هو "النص الذي نجد فيه زيادة ووضوح، إذ يفهم منه معنى لم يفهم من الظاهر". (الغفار، 1981، ص 144) وفي تعريف آخر "هو ما دل على معنى سيق الكلام لأجله دلالة تحمل التأويل أو التخصيص أو النسخ". (سعد، 1987، ص 367)

ب- عند الغرب:

تعددت تعريفات الغرب للنص حسب التوجهات المعرفية والنظرية للباحثين واختلاف مقارباتهم، بل قد تعدد تعريفات الباحث الواحد حسب توجهاته النقدية المختلفة. فلولان بارت مثلاً "تعددت تعريفاته للنص الأدبي بتعدد المراحل النقدية التي مرّ بها، منذ المرحلة الاجتماعية، وحتى المرحلة الحرة، مروراً بالبنوية، والسيمائية. (عزام، 2001، ص 14) وهذا التنوع في تعريف النص يدل على عدم استقرار المفهوم من جهة وتباين طرقه الإجرائية في حقول معرفية مختلفة من جهة أخرى" (نحمري، 2007، ص 35) بل "إن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص مسألة غير منطقية من جهة التصور اللغوي. ويؤكد ذلك الاختلاف بين علماء اللغة الذين ينتمون إلى مدارس لغوية مختلفة حول حدود المصطلحات التي تتركز عليها بحوثهم" (بحيري، 1997، ص 107) ويرى فان ديك أنّ النص بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية دلالية عميقة (زنيك، 2003، ص 56) أمّا هاليداي فيرى أنّ: "النص شكل لساني لتفاعل اجتماعي، وهو تبعا لذلك ترهين للمعنى المحتمل". (م.ن، ص 18) في حين تعرّفه جوليا كريستيفا على أنه "جهاز نقل لساني يعيد توزيع نظام اللغة واضعا الحديث التواصلي في علاقة مع ملفوظات مختلفة سابقة أو متزامنة". (كريستيفا، 1997، ص 101).

3. النص والانص في الثقافة العربية:

شكل عصر التدوين إطارا مرجعيا للعقل العربي "لأن ما نعرفه وما عرفه أجدادنا عن الجاهلية وصدر الإسلام إنما يرجع الفضل فيه إلى تلك العملية الشاملة، عملية البناء الثقافي التي تمت خلال عصر التدوين (الجابري، 1985، ص 60). وقد تعرضت كثير من المرويات في هذه المرحلة إلى انتقائية خضعت لمرجعية المدون الدينية العقائدية، كما خضعت كذلك لأنساق السلطة العباسية السياسية الناشئة التي ازداد وعيها بأهمية تنظيم مجالات الأدب والسيطرة عليها عن طريق ضبط مدونته المرجعية وتحديد

مكاتها في الثقافة السائدة، ومكانة الفاعلين القائمين على هذه المدونة. ولهذا فإنّ مصطلح "المصفاة الإسلامية" الذي استخدمه فاروق خورشيد للتعبير عما تعرضت له الأساطير الجاهلية من غربلة و"أسلمة" كي توافق الدين الإسلامي هو مصطلح يعبر عن حقيقة ما تعرضت له تلك المرويات خاصة السيرة من القص والغربة والتشذيب. (خورشيد، 1994، ص 105)

وقبل ذلك استعانت السلطة السياسية الأموية بكاتب الديوان سعيًا منها لتدوين نصوصها، أي لممارسة سلطتها الثقافية. ويبدو أن انتصار حملة العلم الشرعي من فئة الفقهاء وأصحاب الحديث في عصر التدوين جعل البون شاسعًا بين عرف السلطة الديني وسنن التدوين وأعرافه "فالتدوين الانتقائي الذي سعت إليه السلطة الأموية لم يخلق خطابًا سلطويًا موحدًا، فقد تشكل إلى جانب هذا التدوين الانتقائي تدوين متسع لنصوص متعددة كانت (السنة) مشكّكها الرئيس. وهذا يعني أن خطاب الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة قد أقصي من هذا التناول" (السيد، 1997، ص 133).

إن إشكالية النص واللائق وثيقة الصلة بالجدلية القائمة والناشئة بين النخبوي والشعبي في الثقافة العربية قديمًا وحديثًا ولها صلة وثيقة بالتمثيلات البلاغية والنقدية والثقافية للسرديات العربية. وقد رسخت البلاغة الرسمية التي سادت منذ القرن الثاني للهجرة الفارق بين البلاغتين، بلاغة الخاصة وبلاغة العامة. يقول عبد الحميد الكاتب وهو بصدد إرساء تقاليد سلطانية تشمل أركان التلقي كافة من مبدع ومتلقي ونص "البلاغة هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة" (الحموي، 1997، ص 335). ونجد الأصول الأولى لمبدأ موافقة الحال ما يجب لكل مقام من المقال في صحيفة بشر بن المعتمر (ت 210)، الذي أكد دور السياق الخارجي في البلاغة لافتًا الانتباه إلى وظيفتها النفعية من خلال قوله "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال" (الحموي، 1997، ص 136).

وتحكمت الأصول العقائدية في حد البلاغة عند ابن المعتمر، فبدأ العدل الاعتزالي يؤكد أن العقل الذي هو حجة الله على عباده أعدل الأشياء توزعًا بين الناس، وأنه لا فارق بينهم إلا بالتقوى وأن الإنسان بالتعلم والتكلف، وبطول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكمة يوجد لفظه ويحسن أدبه " (الحموي، 1997، ص 86). وقسم ابن وهب الكاتب (ت 335هـ) الكلام إلى صنفين هما: الكلام الجزل وهو كلام الخاصة والعلماء والعرب الفصحاء والكتّاب والأدباء. والكلام السخيف كلام الرعاع والعوام الذين لم يتأدبوا، ولم يسمعوا كلام الأدباء، ولا خالطوا الفصحاء" (الكاتب، 1967، ص 248).

وقد ساهمت بلاغة السلطان في خلق جو من النور والقمع لنتائج العامة جميعها. فأبو عقاب الكاتب يؤلف كتابا في أخلاق العوام، والقاضي محمد بن إسحاق الصيمري (ت275هـ) يؤلف كتابا آخر عن مساوئ العامة وأخبار السفلة والأغنام. والسراج الطوسي (ت378هـ) يعقد بابا في كتابه "اللمع" في ذكر جماعة المشايخ الذين رموهم بالكفر. (متز، 1957، ص 394)

وإلى جانب تلقي العامة / الخاصة يندرج التلقي المتعالي أيضا في مقولة النص النموذج واللائق. وفي إيجاد أنموذج أعلى تقاس عليه سائر النماذج. "وقد انصبت العملية النقدية والبلاغية العربية منذ القديم على التمييز بين الإبداعات، فتم الاعتراف ببعضها والتركيز عليها، وهي التي وافقت شروط المؤسسة الرسمية فدخلت في دائرة (النص)، وما ذلك إلا لأنها نالت "الحظوة والقبول، وبحكم هذا الموقع يكون له دور النموذج أو المؤثر في باقي الفعاليات النصية التي تنتج في نطاقه، أو تدور في فلكه. قد تجسد هذه النصية في أجناس أو أنواع متعددة يتم قبولها بناء على توفرها على المقومات التي تتحقق في "نص" نموذج، أو في تصور ما ينبغي أن يكون عليه النص" (يقطين، 1997، ص 52) وأغفلت قطاعات أخرى مما لا يتوافق مع تلك المؤسسة وجعلت في دائرة (اللائق) وهي "كل النصوص التي تنزاح بأية صورة عن "النصية المركزية". (يقطين، 1997، ص 52)

وقد استجلى سعيد يقطين الأسس التي ينهض على قاعدتها التمييز بين النص واللائق كما جاءت عند ابن وهب الكاتب و"هي مبنية على ثنائيات متراكمة ومتواترة في مختلف المصنفات والمؤلفات البلاغية: هذه الوجوه أو الثنائيات هي: الجد والهزل- السخيف والجزل- الحسن والقبيح- الفصيح والملحون- الصواب والخطأ- الصدق والكذب- النافع والضار- الحق والباطل- التام والناقص- المقبول والمرذول- المهم والفضول- البليغ والعيي". (يقطين، 1997، ص 55)

ولو تأملنا جيدا هذه الثنائيات لوجدناها في تصور محمد عبده وهو يعدد مجموعة من الكتب التي يجب أن تقرأ، وهي الكتب التي تستهدف تنوير الأفكار وتهذيب الأخلاق من هذا القبيل كتب التاريخ وكتب الأخلاق العقلية، والحث على الفضائل، والتنفير من الرذائل.

كما يقرن محمد عبده بين كتب التاريخ غير الرسمية وبين الكذب. وتشكل هذه الكتب عنده الثقافة الشعبية أو "اللائق" وهو يقصدها، في المقابل يسعى إلى إرساء أسس الثقافة العالمة أو النص الأنموذج الذي ينبغي أن يسعى إليه المتلقي لترين ذاتيته. وبذلك ينصب نفسه وصيا على الثقافة الرسمية الجادة، لذا نجده ينقح التراث ويهذبه ويغربله كي يقدمه للمتلقي بما يتسق مع المنظومة الذوقية التي رسختها الأنساق الثقافية السلطوية في عصره.

هكذا كان تمييز النص عن اللانص قائماً على قاعدة أن الأول يخضع للقيم النصية الجمالية والمعرفية المتعارف عليها، وهي بوجه عام قيم سامية، وتسير في اتجاه النموذج المعرفي السائد، وتوجهه تراكمات تاريخية ترتبها إلى قبولها التحول في نطاقه. أما الثاني فيتأسس على كونه يتحقق على هامش النموذج المعرفي" (يقطين، 1997، ص 57-58).

4. القصص تحت الرقابة:

نشأ القص في الإسلام في فضاء المسجد، ولهذا نسبت طائفة من القصص الدينيين إلى هذا الفضاء فقيل "المسجدين" (بليغ، 1982، ص 369). وكانت المساجد تمتلئ بحلقات القص كما ورد في حديث ابن عون الذي قال: "أدركت هذا المسجد مسجد البصرة وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا حلقة واحدة تنسب إلى مسلم بن يسار، وسائر المسجد قصاص" (ابن الجوزي، 1983، ص 186). وقد شكل فضاء المسجد منظورا عقديا يتحكم في تشكيل المرويات السردية وفقا لأوامر السلطة الدينية ونواهيها "فلا بأس على القاص أن يقرأ القراءات على وجه الترتيل والتحزين لا على طريق الألحان" (م.ن، ص.ن). مما جعل السلطة السياسية تنتبه منذ وقت مبكر إلى وظيفة القاص، فأرادت أن تنضوي هذه الوظيفة تحتها وليس خارجا عنها. فقد أجاز علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاصا عندما تبين له ورعه وتقواه من أحاديثه التي كان يحدث الناس بها. إذ "كان علي بن أبي طالب يدخل السوق ويده الدرّة (٠٠٠) ونظر إلى رجل يقص فقال له: أتقص ونحن قريبو عهد برسول الله؟ لأسألتك فإن أجبتني وإلا خفقتك بهذه الدرّة. ما ثبات الدين وزواله؟ قال: أما ثباته فالورع وأما زواله فالطمع. قال: أحسنت فقص فمثلك فليقص" (ابن الجوزي، 1983، ص 89-90). في حين كان رد علي بن أبي طالب على القاص الجاهل الذي لا يعرف النسخ والمنسوخ أنه قال له: هلكت وأهلكت" (ابن الجوزي، 1983، ص 79).

وكانت السلطة تستقطب القصاصين ذوي الشهرة الذائعة الصيت، حيث إن بعض الخلفاء كان يعين من يملك موهبة السرد لوعظ الناس، فقيل إن معاوية بن أبي سفيان استقدم "عبيد بن شربة الجرهمي وطلب منه رواية أيام العرب وأمر بتدوين ما يرويه، ثم اتخذ قاصا له (سلام، 1988، ص 65-66)، كما أنه عين "سليم بن عتر" قاضيا وقاصا بمصر، أنه هو نفسه كان حريصا على سماع القصاصين وأخبارهم التي ارتبطت بالبيئة العربية وأخلاق وعادات. (نجم، 2010، ص 89). كما أجرى فقيه مصر الليث بن سعد (ت 175هـ) على القاص البغدادي المنصور بن عمار ألف دينار كي يقيم في مصر حتى يكون قصه محتويا من قبل السلطة (نجم، 2010، ص 17).

كان هذا الإشراف من قبل السلطة مزدوج الأبعاد، فمن ناحية كان يضمن عدم خروج القاص عن الحدود والغايات التي سمح القص لأجلها وهي الغايات الدينية، ومن ناحية أخرى كان هذا الإشراف لمراقبة القاص حتى لا يخرج سياسياً عن نظام الدولة، فيثير الناس ويفتنهم حول الحكام (صحراوي، 2008، ص 129).

ونكاد نجد عند ابن الجوزي صياغة نظرية لموقف الإسلام من القص فقد أسهم بصورة كبيرة في توظيف الحديث النبوي والموروث السلفي الثقلي من أقوال الصحابة والتابعين في بلورة رؤية دينية للقص. فيرى أن النص يجب أن يتوفر على المقومات المتحققة فيما يمكن تسميته بـ "النص الأتمودج"، أو في تصور ما ينبغي أن يكون عليه النص. ولعل النص الأتمودج الذي كان ينظر إليه لاحداثه والنسج على منواله هو القصص الديني المستخلص من الكتاب والسنة، أما ما دونهما من القصص فهو مكروه ولا يلتفت إليه ذلك " أن في القرآن من القصص، وفي السنة من العظة ما يكفي عن غيره مما لا تيقن صحته" (يقطين، 1997، ص 59).

ويبدو أن الثنائيات التي وضعها ابن وهب الكاتب هي نفسها تكرر عند ابن الجوزي، فالصدق والصحة، والصواب واليقين والعلم (النص). والكذب والفساد والخطأ والشك والجهل (اللانص). ومن هذا المنطلق اعترض ابن الجوزي على بعض الأخبار والحكايات لمخالفتها الحقيقة، فقد كان مروجو هذا النمط من السرد لا يتقيدون بضوابط الرواية ولا شرائط النقل كما ضبطها المحدثون، ولا يلتزمون الأوامر والنواهي كما حققها الأصوليون. ولذلك جاءت مروياتهم التي مدارها على أخبار الأنبياء، مخالفة لمقررات الشريعة، ومجافية للحقيقة الدينية والتاريخية لاعتمادها على الأحاديث الضعيفة والروايات المرسلّة. وفي ذلك انحراف عن طريقة العلماء المحققين الذين وضعوا شروطاً دقيقة لمن تؤخذ عنه الرواية خاصة المتصلة بمسائل الدين والعقيدة. ولم تكن هذه الحقائق لتخفى على القصاص. فقد كانوا يعتمدون سلاسل إسناد وهمية تضيي الشرعية على نصوصهم بحيث يلبس الأمر على المتلقي ويحسبها موثوقة.

وقد أورد ابن الجوزي جملة من هذه المرويات المصنوعة، ونبه على ما فيها من زيف، كما اعترض على اهتمام القصاص بتفاصيل محددة من قصص الأنبياء التي يطيلون الوقوف عندها لأنها تصادف هوى في نفوس المتلقين، وإذا لم يسعفهم القصص القرآني في اجتذاب مخاطبيهم استعاضوا عن ذلك بتخييل أحداث غريبة، وأضافوا تفاصيل جديدة تفرضها الغاية التأثيرية التداولية. وقد مثل التخييل ضرورة من ضرورات القص وحاجة من حاجات المتلقين.

ومن الطبيعي أن يجابه هذا الصنف من السرد بالاعتراض والإنكار من قبل ابن الجوزي الفقيه الأصولي لأنه يرى فيه حيلة من حيل إبليس التي يبتغي من ورائها نشر البدع والفتن. مما يؤدي إلى الابتعاد عن مبادئ الدين ومقررات الشريعة. لقد غدا القصص جنداً لإبليس الذي لبس عليهم، وجعل يتكلم بلسانهم.

هكذا أصبح فضاء المجلس الديني بؤرة لتشكيل القصص العجائبي من مبالغات هؤلاء القصص وتحويلهم النص الديني بما يتناسب مع الأنساق الثقافية التي يصدرون عنها، أي أدب العامة المسكوت عنه. فبعدما انتهى عصر القصص من التابعين ظهرت "الطبقة التي أخذت عنها العامة، وقد اضطربت الفتن وكثر الكلام وفتت الأكاذيب في الحديث، وفي أخبار العرب وفي الشعر، فصار هم القاص أن يجيء بالغرائب، ويكثر من الرقائق لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية ولم يبق في حلقات القصص إلا العامة وأشباههم" (الرافعي، 1997، ص 328).

إذاً ففروج القصص عن هذه المرجعية العلمية الموضوعية هو ما أثار استياء ابن الجوزي، فالنص القصصي ينبغي أن يلتزم بما جاء في القرآن والسنة النبوية. وتشكل نصوص القصص بمعزل عن هذه المطابقة الحرفية لا ينظر إليه على أنه تشكل للعجائبي في سياقات إبداعية، وإنما ينظر إليه على أنه ثقافة العوام الدنيا. فبعد أن كان الحضور في مجالس القاص للمميزين من الناس "تعلق بهم، أي بالقصص العوام والنساء فلم يتشاغوا بالعلم وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة، وتنوعت البدع في هذا الفن". (ابن الجوزي، 1983، ص 177) وقد تحدث عن ألوان البدع التي أوجدها القاص، ومنها تغيير الهيئة والتكرار لإقناع المتلقين بصدق حديثه ومروياته.

هذا الضبط لم يكن لدم القصص في حد ذاته وإنما لأجل ما يتعلق بالمقصد العام منه، ذلك "أن القصص القرآنية تمثل النص النموذج، كان الذين يسيرون على منواله من العلماء جديرين بأن يقصوا لأنهم يحافظون على القيم (النصية) الجوهرية ولهم قصد سامٍ ونبيل لأنهم يرومون هداية الناس، وإرشادهم بخلاف غيرهم من القصص الذين يحدثون ويتدعون لأن قصدهم الأساس هو التأثير على عقول وقلوب العوام، وسلب أموالهم" (ابن الجوزي، 1983، ص 60). وسيتبع التالون لابن الجوزي هذه الثقافة النخبوية، فالسبكي (ت771هـ) يحدد مصادر القاص في قوله: "لا بأس بقراءة إحياء علوم الدين للغزالي وكتاب رياض الصالحين والأذكار للنووي، وكتاب سلاح المؤمن في الأدعية لابن الإمام، وكتاب شفاء السقام في زيارة خير الأنام للشيخ الإمام الوالد، وكتب ابن الجوزي في الوعظ لا بأس بها ولا يخفى ما يحذر منه هؤلاء من كتب أصول الديانات ونحوها" (السبكي، 1978، ص 114).

5. السيرة الشعبية: التغيب بفتوى.

تشكلت النصوص في الثقافة العربية الإسلامية بوصفها نصا ثقافيا منفتحا على آليات متعددة منها: السياسي، والمعرفي، والديني، والجمالي، والمهمشي. فحظيت بعض النصوص بوصف النص المعتمد في حين بقيت نصوص أخرى خارج الثقافة الرسمية. ومن تلك النصوص التي همشت السيرة الشعبية رغم انتشارها ورواجها بين المتلقين. ووراء هذا التهميش جملة من الأسباب منها اللغوي ومنها الثقافي. مثلت السيرة الشعبية مجالاً للبحث عن المتخيل العربي الإسلامي بوصفه خزانا رمزياً مؤسساً لأنساق ثقافية فاعلة شكلت النظرة إلى الذات والآخر في الثقافة العربية الإسلامية. وهي نص ثقافي منفتح على مختلف ما أنتجه العربي في تاريخه في شتى السياقات الحضارية والثقافية، وللذات العربية في مختلف بناها الذهنية والفكرية.

وهي تنتمي حسب الفرز النخبوي العربي القديم إلى الثقافة الشعبية أي الثقافة غير العالمة. ولا شك في أن انتماء السيرة الشعبية إلى مرويات العامة هو الذي جعلها تتشكل في منأى عن الثقافة المتعالية التي كانت تعنى إجمالاً بأخبار الخاصة، ورعتها المؤسسة الثقافية بدعم من المؤسسة السياسية "الأمر الذي أفضى إلى عدم العناية بهذه المرويات تدوينا ووصفاً" (إبراهيم، 2000، ص 154). فغيب النقاد العرب القدامى السيرة الشعبية، فلم يؤثر عنهم أنهم أفردوا أبواباً أو فصولاً من مصنفاتهم للحديث عنها لعدة أسباب منها ما هو ديني، ومنها ما هو لغوي.

كما أرخت السيرة الشعبية لمعرفة وحقائق مضادة لحقائق المؤسسة السلطوية وهيمنتها "لأن علاقة السلطة في أي مجتمع من المجتمعات متعددة ومخترفة ومميزة ومكونة للجسد الاجتماعي. ولا يمكن فصلها أو إقامتها أو توظيفها من دون إنتاج أو مراكمة وتوزيع وتشغيل أو توظيف لخطاب الحقيقة التي تشتغل انطلاقاً من السلطة ومن خلالها، نحن خاضعون بواسطة السلطة لإنتاج الحقيقة ولا يمكن لنا ممارسة السلطة إلا بواسطة إنتاج الحقيقة. وهذا ما ينطبق على كل المجتمعات" (فوكو، 2003، ص 50).

ولاشك في أن المؤسسة الثقافية الرسمية لها من الوسائل والإمكانات التي تحكم بها سطوتها، وتحدد الرسمي المعتمد عليه، وتميزه عما هو دون ذلك كالتقص العجائبي والمرويات السيرية، وعديد من أنواع القص الأخرى التي لم تمثل في معظمها إلى تلك الأحكام. وكان حضورها بارزاً في النصين الشفاهي والكلامي. فالسارد الذي يقدم رؤية مغايرة لما تحددته السلطة يوازي المثقف الثوري الذي يقف بالضد من مثقف السلطة التبريري الذي يكون بقاؤه رهين وجود السلطة السياسية التي يدعمها، في حين يتجرأ المثقف الثوري بشكل مضاد ليؤسس منطق المغايرة والاختلاف، وعوالمه الإبداعية أقرب إلى الاختلاق السردي الذي يتلاعب بالرمز في تصوير صراعه مع السلطة المهيمنة السياسية والدينية.

لذا ستلجأ المؤسسة السياسية لعقد تحالف مع المؤسسة الدينية، وتستعين بها لإقصاء هذا النسق المعارض مما يؤكد حرص السلطة على إيجاد فئة من هؤلاء لتكفل بمهمة الدفاع عن المعرفة التي تريد تأسيسها ونشرها بين الناس. في عملية حصار معرفة تمردت على المعرفة الرسمية وخططها التبريرية طلبا لتنظيم معين، ومشروعية تضمن بها السياسة الفعلية المتبعة.

فقد ساهم البعد الديني في تقنين بعض المعايير النقدية بالنسبة لأنواع الكلام وفنون القول، سواء ما كان منها شفهيًا أم مكتوبًا، وأدى ذلك بالطبع إلى اعتبار بعض الأشكال التعبيرية من قبل الكلام المحمود الذي يمكن النظر إليه والاهتمام به، وإدراجه ضمن النصوص المسموحة والرسمية، في حين عدّ غيره من الكلام مذمومًا، وجب التحذير من قوله وسماعه وقراءته لما في ذلك من استباحة الكذب، والاشتغال بما يفسد القلوب ويبعدها عما فيه صلاحها.

كان ذلك التقنين والحرص على تأسيس معايير يضبط بها الكلام عائد للسلطة الواضحة التي يمتلكها العامل الديني على المجال المعرفي والثقافي عموماً، وقد أخذت السيرة الشعبية مساحة معتبرة من فتاوى الفقهاء والمشتغلين بأمور الدين، فاعتبرت عندهم كذبًا واقتراءً، وحتى بعد فترات طويلة بعد أن دونت وطبعت بقيت من الكتب السخيفة التي لا يجوز بيعها ولا النظر إليها.

فهذا الإمام أحمد ابن حنبل (ت241هـ) يصدر فتواه الشهيرة التي قال فيها: "ثلاثة لا أصل لها: السِّر والملاحم والمغازي" (السيوطي، 1980، ص 178). ونفس الفتوى نجدها عند ابن كثير (ت774هـ) في تعليقه على أحاديث البطل (ابن كثير، 1982، ص 232). كما أن الونشريسي (ت914هـ) وهو أحد فقهاء المغرب الإسلامي أورد فتوى ابن قداح عن كتب الخرافات والشعوذة "إذ سئل بعضهم عن كتب السخفاء والتواريخ المعلوم كذبها ككاريخ عنتره ودلهمة والهجر والشعر... ونحو ذلك، هل يجوز بيعها أم لا؟. فأجاب: لا يجوز بيعها ولا النظر فيها. وأخبر الشيخ أبو الحسن البطرني أنه حضر حلقة فتوى ابن قداح . فسئل عن يسمع حديثاً عنتره هل تجوز إمامته؟ فقال: لا تجوز إمامته ولا شهادته، وكذلك حديثاً دلهمة لأنهما كذب ومستحل الكذب كاذب" (الونشريسي، 1981، ص 70). إن الجامع بين تلك الفتاوى هو وصف السير بالكذب أي أنها تعني الأباطيل التي لا أصل لها، ومقولة الكذب لها أبعاد عميقة في المنظور الديني. وبذلك تتساوى مع كتب الشعبة والدجل والتنجم. وهو حكم قيمة لا يختلف عن الحكم الذي أصدره ابن لبابة (ت330هـ) في منع المقامات. حتى محمد عبده وهو من شيوخ الأزهر الحدائين تصبح مرويات السير الشعبية عنده مندرجة في إطار ثقافة الكذب، وتشكل هذه الكتب الثقافة غير العاملة أو اللانص، ويقصمها في مقابل إرساء أسس الثقافة

العالمة (النص الأتمودج) الذي ينبغي أن يسعى إليه المتلقي لتمرين ذائقته. والنص الأتمودج كما يرى محمد عبده هو كتب التاريخ الصحيحة.

إن المعيار الذي يعتمدونه ليس معياراً فنياً، وإنما معيار أخلاقي يتمثل بالأساس في مبدأ الصدق في الكلام ونقل الأخبار، وقد تأكدوا من مخالفة قص هذه السير لهذا المبدأ، واستقر في أذهانهم فهم يسعون إلى الحد منه من خلال النصوص التي يقدمونها في تحريمها.

هكذا كان للنزعة الدينية الصارمة إلى جانب الرؤية الفقهية والوعظية التي ميزت كتب التخويف من القصص (كتاب ابن الجوزي) الدور الأكبر في إقصاء بعض النصوص السردية وتغييبها، مما أدخل نصوصاً عدة تشكلت في هذه الثقافة في إطار الثقافة الشعبية غير المعترف بها.

الخاتمة:

لا خلاف في أن الدين يمد الأدب بكثير من الموضوعات لكن تناول الدين لبعض الظواهر يبين تناول الأدب لها فتفترق غاية كل منهما في ذلك. لذلك سنرى هذا السجال يدور حول بعض النصوص بين الدين والأدب.

وقد أبان الإسلام عن موقف واضح وصریح من فعل القص؛ حيث ربط فاعلية السرد عموماً بخدمة أغراض دينية واجتماعية ثابتة، لذلك قوبل السرد العجيب بالاستهجان لأنه تعارض مع معايير الرؤية الدينية الأصولية التي أخضعته لمقاييس صارمة، فلم ترفيه تبعاً لذلك إلا خرقاً لما يقرره العقل ومخالفة لمطلق الحقيقة وتجايفاً عنها. وهو ما يؤكد أن محاكمة أصناف السرد بشكل عام ارتهن في سياق الثقافة العربية إلى معيار الصدق والكذب. فالقصص عند علماء الدين أخبار صادقة وحقائق واقعة ثابتة، وهو مطلوب على سبيل الحكمة والاعتبار. أما القصص الذي لا يحتكم إلى معايير المؤسسة الدينية فهو أحق بأن لا يلتفت إليه بل ينبذ لأنه يصرف عن طلب العلم النافع، ويغري بالانصراف في سبيل الضلال.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم صحراوي: السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
2. إبراهيم عبد الله: السردية العربية بحث في البنية السردية لهوروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2000.
3. ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: القصص والمذكرين، تح: قاسم السامرائي، دار أمية للنشر والتوزيع، الرياض، 1403هـ/1983.

4. ابن حجة الحموي تقي الدين أبو بكر بن علي الأزاري: ثمرات الأوراق، ج1، تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط3، 1997.
5. ابن كثير إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، ج9، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط3، 1982.
6. ابن منظور محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، ج14، دار صادر، بيروت، لبنان، 2000.
7. ابن وهب الكاتب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم: البرهان في وجه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، جامعة بغداد، ط1، 1387هـ/1967م.
8. أحمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند الأصوليين، مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية، ط1، 1401هـ / 1981م.
9. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ج1، نقله إلى العربية: عبد الهادي أبو ريذة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1957.
10. تاج الدين عبد الوهاب السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1407-1987.
11. توفيق محمد سعد: دلالة الألفاظ عند الأصوليين، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1407هـ/ 1987م.
12. جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن كمال الدين: الإتقان في علوم القرآن، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1980.
13. جوليا كريستيفا: علم النص، تز: فريد الزاهي، دار توبقال، المغرب، ط2، 1997.
14. حسين نحري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر-الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007.
15. رضوان السيد: الجماعة والمجتمع والدولة: سلطة الإيديولوجيا في المجال السياسي العربي الإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997.
16. زيتسلاف واورزنيك: مدخل إلى علم النص، تز: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، 2003.
17. سعيد بحيري: علم لغة النص المفاهيم والتجليات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان- الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1997.
18. سعيد يقطين: الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب- بيروت، لبنان، ط1، 1997.

19. السيد نجم: الحكى والقص في التراث العربي والإنساني، مجلة الرافد، الشارقة، العدد 154، 2010.
20. عبد الباقي زيدان: علم الاجتماع الديني، مكتبة غريب، مصر، 1981.
21. عبد الهادي الجوهري: قاموس علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط5، 2006.
22. فاروق خورشيد: أدب السيرة الشعبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان- الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1994.
23. محمد أركون: نافذة على الإسلام، ترجمة: صياح الجهيم، دار عطية للنشر، بيروت، لبنان، 1996.
24. محمد توفيق بليغ: المسجد والقصص والمذكرون، عالم الفكر، مجلد 12، العدد 4، يناير، فبراير، مارس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1982.
25. محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة، دار النهضة، القاهرة، 1988.
26. محمد عابد الجابري: الدين والدولة وتطبيق الشريعة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1996.
27. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1985.
28. محمد عزام: النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
29. مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ج9، تح: علي بشري، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2005.
30. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج1، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط1، 1997.
31. ميشال فوكو: يجب الدفاع عن المجتمع، تز: الزواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
32. الوئشيسي أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المقرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس، ج6، خرجه: جماعة من الفقهاء، بإشراف محمود حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1981.

التوافق النفسي وعلاقته بالشعور بالعزلة الاجتماعية من وجهة نظر عدد من طلاب مركز الأمل للصم وضعاف السمع ييفرن

Psychological adjustment and its relationship to the feeling of social isolation from the point of view of a number of students from the Al Amal Center for the Deaf and Hard of Hearing in Yafran

عبد السلام سالم مسعود البوسيفي

قسم السمع والنطق - كلية التقنية الطبية صرمان - جامعة صبراتة

z1843795@gmail.com

الملخص :-

يعد التوافق النفسي من المفاهيم الأساسية والهامة في علم النفس والصحة النفسية، لذلك عكف الكثير من الباحثين والمهتمين بفئة الصم وضعاف السمع ويعلم النفس على دراسته، لما له من دور بارز في حياة الفرد وخصوصا على الجانب الاجتماعي وعلى جانب التواصل مع الآخرين وتفاعل الفرد مع مجتمعه وبيئته المحيطة به، واستكمالاً على نهج من سبقونا وبجثوا في هذا الجانب وسيرا على خطاهم، قام الباحث بإجراء هذه الدراسة التي تهدف لتسليط الضوء أكثر على ما تعانيه فئة الصم وضعاف السمع وخصوصا على الجانب النفسي والاجتماعي، والتعرف اكثر على العلاقة التي تربط بين مستوى التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب ذوي الإعاقة السمعية، بعينة بلغت (40) طالبا وطالبة من مرتادي مركز الأمل للصم وضعاف السمع ييفرن ، واستخدم الباحث لبلوغ أهداف الدراسة مقياس التوافق النفسي ومقياس العزلة الاجتماعية كأداة للدراسة، كما استخدم الباحث المنهج الارتباطي المقارن، كما استخدم عددا من الأساليب الإحصائية للإجابة عن تساؤلات الدراسة وهي المتوسط الحسابي والانحراف المعياري والوزن النسبي ومعامل الارتباط بيرسون ومعامل الثبات ألفا كرونباخ ومعامل الثبات بطريقة التجزئة النصفية واختبار (ت)، وأسفرت النتائج عن وجود علاقة ارتباطية سالبة تربط بين مستوى التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية أفراد عينة الدراسة، كما أسفرت نتائج الدراسة عن عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية لاستجابات أفراد عينة الدراسة على مقياس التوافق النفسي والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور/إناث)، كذلك وجود فروق ذات دلالة إحصائية لاستجابات أفراد عينة الدراسة على مقياس العزلة الاجتماعية والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور/إناث) لصالح الإناث.

الكلمات الرئيسية: التوافق النفسي - العزلة الاجتماعية - الصم - ضعاف السمع - ييفرن.

Abstract :

Psychological compatibility is one of the basic and important concepts in psychology and mental health, so many researchers and those interested in the deaf and hard of hearing category and psychology have devoted themselves to studying it, because of its prominent role in the life of the individual, especially on the social side and on the side of communication with others and the interaction of the individual with his community And its surrounding environment, and to complement the approach of those who preceded us and researched this aspect and followed in their footsteps, the researcher conducted this study, which aims to shed more light on what the deaf and hard-of-hearing suffer, especially on the psychological and social side, and to learn more about the relationship between the level of psychological adjustment And social isolation among students with hearing disabilities, with a sample of (40) male and female students who attended the Al-Amal Center for the Deaf and Hearing Impaired in Beveren. To achieve the goals of the study, the researcher used the measure of psychological adjustment and the measure of social isolation as a tool for the study. The researcher also used the comparative correlational approach, as well as a number of methods. Statistics to answer the questions of the study, which is the arithmetic mean, standard deviation, relative weight, Pearson's correlation coefficient, Alpha Cronbach's stability coefficient, stability coefficient by half-term method and test (T). The results of the study also resulted in the absence of statistically significant differences in the responses of the study sample on the measure of psychological adjustment, which is attributed to the gender variable (male / female), as well as the presence of statistically significant differences in the responses of the study sample on the measure of social isolation, which is attributed to the gender variable (male/female) in favor of female.

the main words: Psychological adjustment - social isolation - deaf - hard of hearing - Yafran..

المقدمة:

يشهد عالمنا نهضة وتطور لا مثيل له في جميع مناحي الحياة، والذي استوجب على مجتمعاتنا ان تسير هذا التطور الحاصل في جميع دول العالم ، ومن ضمن ذلك التطور والتقدم هو ذلك التطور الحاصل في الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة بصفة عامة.

ويعتبر عدم الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة تخلفا حضاريا وثقافيا ومشكلة تهدد سلامة المجتمع وتزيد من هدر طاقاته المادية والبشرية (مفلح وآخرون، 2010، ص: 15) وتعد قضية الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة ليست قضية فردية تخص أفرادا بعينهم، بل هي قضية المجتمع بأكمله وتحتاج إلى استنفار موضوعي متكامل من مختلف المنظمات العامة والخاصة للحد من تلك الآثار السلبية المنبثقة عن تلك الإعاقات على حاملها وعلى المجتمع . كما أن تأهيل وتعليم وتدريب الطفل ذوي الاحتياجات الخاصة في مؤسساتنا التربوية الحالية للتكيف مع مجتمعه يعتبر غير كافيا، حيث يجب تكييف البيئة المدرسية لتلبي احتياجاته ومتطلباته مع تعزيز البرامج المقدمة له حتى يكون دور ذوو الاحتياجات الخاصة فاعلا في المجتمع (بن عقاب، 2018، ص: 15) . ومن ضمن تلك الإعاقات الإعاقة السمعية التي انتشرت مؤخرا بشكل كبير في مجتمعاتنا، ولا يخفى على أحد ما تلعبه حاسة السمع من دور كبير في حياة الفرد، وما يسببه غيابها من تأثيرات سلبية على الفرد وعلى المجتمع ككل، لذلك عكف الكثير من الباحثين والمهتمين بهذه الفئة بإجراء العديد من الدراسات التي تبحث في هذه الإعاقة واسبابها والمشاكل المنبثقة عنها، وفي كل ما يخص هذه الفئة ، في محاولة منهم للحد من معاناتهم، ودمجهم في المجتمع أسوة بأقرانهم العاديين.

فالإعاقة السمعية بشكل خاص لها تأثير كبير على نفسية الطفل الأصم لأن فقدان الاتصال ليس هو الخسارة الوحيدة للشخص الأصم، بل إن الصمم ينتج عنه أضرار نفسية كبيرة، حيث يميل هؤلاء الأفراد الى مقارنة أنفسهم بالآخرين، فيشعر بالعجز وقلة الحيلة وهو ما يزعزع بناءه النفسي ويدفعه إلى أنماط مختلفة من السلوك ألا توافقي (فهمي وآخرون، 1999) ويعد التوافق النفسي من المفاهيم المهمة، كما انه من الموضوعات الحيوية التي استهوت الكثير من العلماء والباحثين في مجال علم النفس، ولأهميته في حياة الفرد يقوم الفرد باستمرار بتغيير سلوكه للبحث عن علاقة أكثر توافقا بينه وبين نفسه من جهة وبينه وبين البيئة من جهة أخرى (فهمي، 1979، ص: 21) حيث ينظر إلى الصحة النفسية باعتبارها عملية توافق نفسي ويتحدد ما اذا كان التوافق سليما او غير سليم تبعا لمدى نجاح الأساليب التي يتبعها الفرد للوصول إلى حالة التوازن النسبي مع بيئته ونجاح العملية يؤدي إلى حالة من التوافق النفسي التي تعتبر محور الصحة النفسية (زهرا، 2005، 27) ولقد أثبتت الدراسات النفسية

أن الأطفال ذوي الإعاقات الشديدة يعانون من مشكلات اجتماعية وتعليمية بالإضافة للمشكلات النفسية كالرغبة في الانعزال والقلق والخوف ومشاعر الإحباط، أو فرض نفسه على الواقع المحيط به بقوة من خلال النزعة العدوانية والانفعال والغضب، (حمزة وآخرون، 1995 ص: 122) ويرى البعض أن الإعاقة تؤدي بالطفل إلى الانعزال عن الأفراد فيصبح متباعد غير متجاوب مع المحيطين به، وفي الحالات الزائدة قد يحدث للطفل الامتناع عن الكلام أو النكوص كأن يمص إبهامه أو يستسلم لنوبات الغضب، كما أن رفض الآباء لأطفالهم المعوقين وحرمانهم من الرعاية يؤدي إلى الشعور باليأس الانفعالي والاكتئاب الأمر الذي من شأنه ان ينتج لدى هذا الطفل اضطرابات سلوكية وانفعالية (القمش، 2006 ، ص: 185) وتؤكد صعوبات الاتصال اللفظي التي تظهر عند إقامة علاقات اجتماعية أن المعوقين سمعياً يحاولون تجنب مواقف التفاعل الاجتماعي في مجموعة ويميلون إلى مواقف التفاعل التي تتضمن فرداً واحداً أو فردين وبشكل عام يمكن القول أن الأطفال المعوقين سمعياً يميلون إلى العزلة نتيجة لإحساسهم بعدم المشاركة أو الانتماء إلى الأطفال الآخرين وحتى في العابهم يميلون إلى الألعاب الفردية التي تتطلب مشاركة عدد محدود من الأفراد (سليمان، 2001، ص: 109) ومما لا شك فيه أن الإنسان يعد بطبعه كائناً اجتماعياً ينشأ في جماعة معينة سواء أكانت تلك الجماعة هي جماعة كبيرة أو حتى جماعة صغيرة، ينتمي إليها، ويتفاعل ويتواصل مع أعضائها بكل أشكال التفاعل الاجتماعي الممكنة، فيتم على أثر ذلك الأخذ والعطاء بينه وبينهم مما يمكنه من العيش بينهم وفي وسطهم. وتلعب حاسة السمع دوراً مهماً وبارزاً في هذا الصدد حيث تسمح للفرد بسماع الأصوات والكلمات التي ينطق بها الآخرون من حوله، فيشرع في محادثتها وتقليدها مما يساعده بالتالي على تعلم اللغة السائدة في جماعته فضلاً عن تلك اللهجة التي تميز هذه الجماعة عن غيرها . فيتمكن على أثر ذلك من التعامل والتفاعل والتواصل مع أفراد الجماعة ، إذ ينقل أفكاره اليهم ويستمتع إلى أفكارهم وآرائهم وهو الأمر الذي يسهم بدور فاعل في تطور سلوكه الاجتماعي وذلك على النحو الذي يسمح له بالتوافق معهم، كما يساعده على جانب آخر في فهم البيئة المحيطة بما فيها ومن فيها، فيتعرف بالتالي على ما تتضمنه من جوانب إيجابية، وينتفع بها ويتطور فيها، ويتعرف كذلك على ما تضمنه من مخاطر فيعمل جاهداً على تجنبها ، ويتحاشى تلك المواقف التي قد تدفع به الى مثل هذه المخاطر أو غيرها، وإلى جانب ذلك فإن فهمه للآخرين وفهمه للبيئة المحيطة به، ومشاركته في الأنشطة المختلفة، وتطور سلوكه الاجتماعي يمكنه من السيطرة على انفعالاته والتعبير المناسب عنها وهو الأمر الذي يؤثر على نحو واضح على شخصيته ككل ويساعده في تحقيق التكيف والتوافق الاجتماعي (دانيال وآخرون، ٢٠٠٨ ، ص: ٥٣٢) ومن هذا

المنطلق قام الباحث بإجراء هذه الدراسة لتسليط الضوء اولا على هذه الفئة، والبحث ثانيا في العلاقة التي تربط بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى ذوي الإعاقة السمعية.

مشكلة الدراسة :

إن التوافق النفسي ما هو إلا نتيجة لانسجام الفرد مع محيطه الذي يعيش فيه والمتمثل في قدرته على إشباع حاجاته ومتطلباته الجسمية والاجتماعية، ولذلك فإن الفرد يعمل وفق اتجاه محدد في بناء توافقه النفسي حيث يعمل على ذاته من خلال تغيير سلوكه ليحدث علاقة أكثر توافقا بينه وبين نفسه من جهة وبينه وبين البيئة من جهة أخرى (موسى، ١٩٩٢) وهو الدافع الرئيس الذي يلعب دورا هاما في نمو الطفل وتشكيل شخصيته لتحقيق السعادة مع نفسه ومع الآخرين، أما الطفل ذو الإعاقة السمعية فإنه يعيش في مجتمعه الخالص به بعيدا عن الآخرين، فاقتدا لكل أنواع التواصل بينهم، ولذلك فهو في حاجة للمساعدة والرعاية فهو غالبا ما يميل إلى العزلة وهذا ما يؤدي إلى تكوين شخصية منطوية غير ناضجة اجتماعيا وانفعاليا مما يجعل هذا الطفل يشعر بالنقص والدونية، الأمر الذي يؤثر على توافقه الشخصي والاجتماعي، والذي يظهر بشكل مشكلات سلوكية وتدني في الدافعية للتعلم ومشاكل أخرى خاصة بالتحصيل علميا (زهران، 1980) ولهذا يرى هنري سميث أن التوافق الجيد هو مؤثر إيجابي ودافع قوي يدفع المتعلمين للنجاح من ناحية، ويرغبهم في المدرسة ويساعدهم على إقامة علاقات متناسقة مع الزملاء والمدرسين من ناحية أخرى، فقدرة المراهق على تكوين علاقات مرضية في المدرسة ومع رفاقه والبيئة المدرسية، بما يتماشى وحاجاته ومشاركته في الأنشطة الاجتماعية، يؤثر بشكل كبير في صحته النفسية والتكامل الاجتماعي الذي يحقق له التوافق الدراسي (عيسوي، 1995، ص:41) وعلى الجانب الاجتماعي فإن ضعف السمع يحد من مشاركته وتفاعله مع الآخرين ويبعده عن ممارسة نشاطاته العادية، ويحد من قدرته على التوافق والتكيف السوي مع أفراد مجتمعه، فسوء التوافق الذي يعاني منه الطفل المعوق سمعياً يمتثل في عدم القدرة على تكوين علاقات سهلة مع الآخرين وهذه المشكلة ينشأ عنها سوء التوافق الشخصي وما يترتب عليه من صراعات وتوترات وعدم الثقة بالنفس والضييق والقلق كما تسبب أيضاً سوء التوافق الاجتماعي وما يترتب عليها من عزلة، مما يؤثر سلباً على التوافق الاجتماعي وعلى مدى اكتسابه المهارات الاجتماعية الفردية اللازمة للحياة في المجتمع، وإن الأساس في المشكلات التي قد ترتبط بالإعاقة ليس هو الإعاقة في حد ذاتها، إنما هو الإطار الاجتماعي والاتجاهات الاجتماعية والمنزلية والمدرسية والقوالب سابقة التجهيز، التي تحتم على المعوقين أن يتقبلوا فيها بغض النظر عن ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لهم، والتي تفرضها توقعات المجتمع وتصورات الشائعة أو المتوازنة فرضاً على المعوقين ومن هنا تكمن صعوبة عملية التوافق لهؤلاء المعوقين مع مجتمعاتهم (كجاجة وآخرون،

2008، ص: 16). وهذا ما أكدته بعض الدراسات السابقة التي بحثت في هذا الجانب، والتي حاولت أن تسلط الضوء على تلك المشكلات التي يعانيها الطفل الأصم وضعيف السمع والتي انبثقت نتيجة غياب حاسة السمع لديهم ومن تلك الدراسات دراسة عطية احمد وآخرون (2022) التي هدفت إلى دراسة العلاقة بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لذوي الإعاقة السمعية والتي أسفرت عن وجود علاقة ارتباطية سالبة دالة إحصائياً بين درجات التوافق النفسي ودرجات العزلة الاجتماعية لدى الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية، وهذا ما يؤكد على وجود حالة من عدم التوافق التي يعيشها المعاق سمعياً، وتأثير عدم التوافق على حياة الفرد الأصم وضعيف السمع اجتماعياً ونفسياً بل وعلى جميع الأصعدة والمستويات، ونتيجة وانطلاقاً لما ذكر سابقاً والذي أوضح بشكل كبير الارتباط الوثيق بين الإعاقة السمعية والتوافق النفسي لدى الطفل المعاق سمعياً وتأثير عدم التوافق الذي نبع من فقدانه لحاسة السمع على حياته وعلى التواصل والجانب الاجتماعي بشكل خاص، كانت هذه الدراسة التي هدفت لطرق أحد الأبواب التي تشكل حجر عثرة أمام المعاقين سمعياً وانخراطهم في العملية التعليمية، وفي المجتمع وفي البيئة المحيطة بهم لنفتح ملفاً آخر في إطار خطة لدعم هذه الفئة والتخفيف من معاناتهم، ومن خلال ملاحظة الباحث للعزلة الاجتماعية التي يعيشها هؤلاء الأطفال وما جمعه الباحث من ملاحظات ومعلومات أيدت كلها أهمية هذه الدراسة، كانت هذه الدراسة والتي حاولت الإجابة على التساؤل التالي: ما العلاقة التي تربط بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب ذوي الإعاقة السمعية؟.

أهمية الدراسة :

توضح أهمية الدراسة الحالية في عدة نقاط وهي :

- 1- تسعى الدراسة الحالية إلى تسليط الضوء على التوافق النفسي وتأثيره على جانب التواصل الاجتماعي لدى الأطفال الصم وضعاف السمع .
- 2- أصالة الدراسة إذ تعد هذه الدراسة من الدراسات القلائل إن لم تكن الأولى في بيئتنا المحلية التي تدرس العلاقة بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لذوي الإعاقة السمعية.
- 3- تحسيس الرأي العام داخل المجتمع الليبي بما يعانيه حاملي هذه الإعاقة وخصوصاً على الجانب الاجتماعي .
- 4- إمكانية الاستفادة من نتائج هذه الدراسة وتوظيفها لحل تلك المشاكل التي تواجه الأطفال الصم وضعاف السمع وخصوصاً على جانب التواصل والتفاعل الاجتماعي.

5- توجيه أنظار الباحثين إلى ضرورة إجراء المزيد من الدراسات تكون أكثر تعمقاً وأكثر شمولية في

موضوع الدراسة.

أهداف الدراسة:

حيث تهدف هذه الدراسة إلى:

1- التعرف على طبيعة العلاقة التي تربط بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب الصم وضعاف السمع .

٢- التعرف على مدى وجود فروق دالة إحصائية بين درجات استجابة أفراد عينة الدراسة على مقياس التوافق النفسي وفقاً لمتغير الجنس (ذكور / إناث).

3- التعرف على مدى وجود فروق دالة إحصائية بين درجات استجابة أفراد عينة الدراسة على مقياس العزلة الاجتماعية وفقاً لمتغير الجنس (ذكور / إناث).

4- التوصل إلى بعض التوصيات والمقترحات التي من شأنها إفادة المختصين والمسؤولين في الهرم التعليمي والقائمين على رعاية هذه الفئة من الصم وضعاف السمع في بناء خطط وبرامج لعلاج كل تلك المسببات التي أدت إلى انعزال هذه الفئة عن محيطهم ومجتمعهم والتي أدت بدورها إلى زيادة معاناتهم وحالت دون دمجهم في مجتمعهم .

فرضيات الدراسة:

وتتمثل فرضيات الدراسة في النقاط التالية :

1- وجود علاقة ارتباطية سالبة تربط بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب الصم وضعاف السمع .

2- وجود فروق ذات دلالة إحصائية لدرجة استجابة افراد عينة الدراسة على مقياس التوافق النفسي والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور / إناث) .

3- وجود فروق ذات دلالة إحصائية لدرجة استجابة افراد عينة الدراسة على مقياس العزلة الاجتماعية والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور / إناث) .

مصطلحات الدراسة:

الإعاقة السمعية :- هي المشكلات السمعية التي تتراوح شدتها من البسيط الى المتوسط ويسمى بالضعف السمعي (وهدان وآخرون، 2014)

التعريف الإجرائي للإعاقة السمعية :- هو فقدان جزئي أو كلي للسمع مما يحول الطفل دون سماع الأصوات بشكل جيد، أو يحول دون سماعها بشكل نهائي.

تعريف الصمم: هو عدم القدرة على السمع جزئياً أو كلياً ، حيث قد يكون الصمم خلقياً يولد به الشخص أو مكتسباً في أي وقت بالعمر ، وقد يحدث في إحدى الأذنين أو كليهما ، لذلك عادة ما يعاني الصمم من ضعف السمع أو انعدامه.(الموقع الإلكتروني. ar.m.wikipedia.org

التعريف الإجرائي للصمم: هو فقدان القدرة على السمع كلياً .

التعريف الاجرائي لضعف السمع :- هو فقدان القدرة على السمع جزئياً وينقسم ضعف السمع الى ضعف سمعي بسيط ومتوسط أو شديد .

العزلة الاجتماعية : هي خبرة غير سارة أو مؤلمة للفرد تنتج عن عدم إشباع الحاجة إلى الألفة والارتباط الوثيق بالآخرين، حيث يشعر الفرد بالعزلة لعجزه عن إقامة علاقات اجتماعية مع المحيطين به (محمد ،2000) فهي خبرة وجدانية ضاغطة تؤثر على شخصية الفرد وعلى علاقاته نتيجة إحساسه بالرفض.(صالح ، 2010)

التعريف الإجرائي للعزلة الاجتماعية: هي الدرجة التي يحصل عليها أفراد عينة الدراسة على مقياس العزلة الاجتماعية.

تعريف التوافق النفسي: هو عملية دينامية مستمرة تناول السلوك والبيئة الطبيعية والاجتماعية بالتغيير والتعديل حتى يحدث توازن بين الفرد وبيئته، كما يتضمن كذلك التوافق لمطالب النمو في مراحل المتابعة (زهران ، ٢٠٠٥، ٢٧)

التعريف الإجرائي للتوافق النفسي: هي الدرجة التي يحصل عليها أفراد عينة الدراسة على مقياس التوافق النفسي.

تعريف يفرن : مدينة ليبية تقع في أعالي جبل نفوسة على بعد 130 كم جنوب طرابلس وتعتبر ثاني أكبر مدن جبل نفوسة ويتكلم أغلب سكانها اللغة الأمازيغية.(الموقع الإلكتروني. ar.m.wikipedia.org)

حدود الدراسة:

الحد الموضوعي: ويتمثل في التوافق النفسي وعلاقته بالعزلة الاجتماعية لذوي الإعاقة السمعية من وجهة

نظر عدد من طلاب مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن .

الحد المكاني: ويتمثل في مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن .

الحد الزمني : حيث أجريت هذه الدراسة في العام 2022م.

الحد البشري : ويتمثل في عدد من مرتادي مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن .

الإطار النظري:

الإعاقة السمعية:

نسبة انتشار الإعاقة السمعية:

تعدد الأسباب المؤدية لانتشار الإعاقة السمعية، فقد تكون تلك الأسباب وراثية نتيجة لزواج الأقارب، وقد تكون نتيجة لمشكلات حدثت للأم أثناء فترة الحمل كتناول أدوية دون إشراف طبي و غيرها من المشكلات. حيث أشارت الدراسات في الدول الغربية إلى أن حوالي (٥%) من طلاب المدارس لديهم ضعف سمعي إلا أن هذا الضعف لا يصل مستوى الإعاقة، أما بالنسبة للضعف السمعي الذي يمكن اعتباره إعاقة سمعية فتقدر نسبة انتشاره بحوالي (٠,٥%) وتقدر نسبة انتشار الصمم بحوالي (٠,٧٥%)، أما فيما يتعلق بالإعاقة السمعية في الدول النامية لا يستطيع أحد أن يقدم معلومات دقيقة عن أعداد الأطفال المعاقين سمعياً في الدول النامية، فقد أشارت بعض التقارير إلى أن نسبة حدوث الإعاقة السمعية بمستوياتها المختلفة قد تزيد عن (٥%) بل وقد تصل إلى (١٠%) في بعض الدول النامية (الخطيب، ١٩٩٨، ص: ٣٩-٣٥) أما في الدول العربية فإنه لا توجد إحصاءات دقيقة وشاملة عن انتشار الإعاقة السمعية وتجاهل هذه الإحصاءات في معظم هذه الدول يدل على أن مشكلة الإعاقة السمعية لم تطرح نفسها كقضية اجتماعية تستحق التعامل معها على أساس من التخطيط الجيد لها لمواجهتها. مواجهة بشكل علمي، وإنما تواجه الآن بأسلوب جزئي (عبد الواحد، ٢٠٠١)

يرى الباحث أن نسبة انتشار الإعاقة السمعية وخاصة في عالمنا العربي تعد من أكبر نسب انتشار هذه الإعاقة في دول العالم، نتيجة انخفاض نسبة الوعي بهذه الإعاقة واعراضها وطرق التعرف عليها، كذلك الوسائل القديمة التي يستخدمها الأخصائيين في الكشف عن مثل هذه الإعاقات، وعدم الاستفادة من خبرات الدول المتقدمة في هذا المجال، وغياب دور المؤسسات التعليمية والصحية في القيام بدورها في التوعية والعلاج والتوجيه كل تلك الأسباب أدت إلى زيادة نسبة انتشار هذه الإعاقة في مجتمعاتنا.

أنواع الإعاقات السمعية:

1- الإعاقة الضعيفة: لا يستطيع الأطفال الذين يعانون من صعوبة سمع طفيفة من سماع الأصوات الخافتة أو البعيدة مع عدم وجود صعوبات في التعلم و من الضروري الانتباه إلى تطوير مفرداته وتوفير مقاعد وإضاءة جيدة في الفصول تساهم في تحسين العلم وقد يستفيد الأطفال من تعلم الشفاه وقد يحتاجون إلى تصحيح الكلام.

2- الإعاقة المتوسطة: يفهم الأطفال الذين يعانون من صعوبة سمع متوسطة أحاديث الآخرين عندما يكونون وجها لوجه على مسافة قريبة تقدر بثلاثة إلى خمسة أقدام، أما إذا الكلام خافتاً أو ليس في

مستوى نظرهم فقد يفقدون نحسون في المائة من فهم الحوار مع العلم أن مفرداتهم محدودة ومصاحبة باضطراب في كلامهم ويرى البعض أنه إذا وجدت مدارس مختصة لهذه الفئة يفضل الحاقهم بها لتحقيق الاستفادة من المعين السمعي وانه لا بد من الحصول على مقعد في مكان جيد في الفصل مع القيام بالتدريبات خاصة لتطوير المفردات والقراءة وقراءة الشفاه.

3- الإعاقة الملحوظة : لا بد من التحدث مع الاطفال من هذه الفئة بصوت مرتفع لكي يستوعبوه هؤلاء الأطفال الذين يعانون صعوبة واضحة في الكلام واللغة الاستقبالية والتعبيرية مع العلم أن مفرداتهم محدودة ولا بد أن يلحقوا بمدارس مختصة تتعامل مع هذا النوع من الضعف السمعي ليحصلوا على تدريبات خاصة لتحسين مهاراتهم في القراءة والكتابة وقراءة الشفاه وتصحيح النطق.

4- الإعاقة الشديدة : يسمع الاطفال من هذه الفئة الأصوات العالية التي تبعد قدما واحدا عنهم وقد يتعرفون على اصوات البيئة من حولهم ويمتازون ببعض الأصوات العالية في اللغة والكلام ولذلك فهم بحاجة الى الحاقهم بمدارس الصم مع التأكيد على تطوير مهارات اللغة والكلام وقراءة الشفاه والتدريب السمعي باستخدام المعين السمعي.

5- الإعاقة التامة : قد يسمع الاطفال من هذه الفئة بعض الأصوات العالية ولكنهم في الحقيقة يدركون اهتزاز الصوت أكثر من معرفته ويعتمدون على قدراتهم البصرية عوضا على القدرات السمعية للتواصل مع الآخرين وهذا النوع من الضعف يعد اعاقا حقيقية للغة والكلام لذلك فهم بحاجة الى الحاقهم بمدارس الصم التي تشمل برامجها تطوير مهارات اللغة وقراءة الشفاه والكلام وتدريبات التآزر بين الاتصال الشفهي والإشارة وتدريب السمع الجماعي أو الفردي (عبد الرحيم، 1990)

تصنيف الإعاقة السمعية :

يمكن تصنيف الإعاقة السمعية بحسب:

أولاً: من حيث العمر عند الإصابة، ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1.إعاقة سمعية ولادية congenital بمعنى أن الفرد قد يولد وهو ضعيف السمع منذ لحظة ولادته الأولى.

2.إعاقة سمعية ما قبل تعلم اللغة prelingual أي أن الإعاقة التي تحدث عند الفرد قبل تعلم اللغة واكتسابها، أي ما قبل سن الثالثة من العمر، ويتميز أفراد هذه الفئة بعدم القدرة. على الكلام، لأنهم لم يتمكنوا من سماع اللغة.

3.إعاقة سمعية بعد تعلم اللغة: وهي تشمل الأفراد الذين أصيبوا بها بعد تطور الكلام، واللغة لديهم.

4. إعاقة سمعية مكتسبة: وتشمل الأفراد الذين فقدوا حاسة السمع بعد الولادة، وفقدوا قدرتهم اللغوية التي كانت قد تطورت لديهم، إذا لم تقدم لهم خدمات تأهيلية خاصة (العزة 2001 ، ص: 23) ثانياً: من حيث موقع الإصابة:

الإعاقة السمعية التوصيلية (Conductive) Hearing Loss : تنتج الإعاقة السمعية التوصيلية عند أي اضطراب في الأذن الخارجية أو الوسطى، وذلك لأنه يمنع الموجات أو الطاقة الصوتية إلى الأذن الداخلية، لذلك فالحد الأقصى للضعف السمعي الناتج عن الإعاقة السمعية التوصيلية هو (60) ديسبل، لأن الأصوات السمعية التي تزيد شدتها عن (60) ديسبل تؤثر على القوقعة مباشرة، وتتخطى الأذن الوسطى (الخطيب، 1998 ، ص: 29) ولكي تمنع حدوث مثل هذا الصمم يمكن علاجه طبياً وجراحياً، والإهمال في العلاج المبكر يؤدي إلى التهابات في الإذن الوسطى، تؤدي إلى الصمم العصبي نتيجة انتشارها في الأذن الداخلية أو المخ (عبيد، 2000، ص: 42)

الإعاقة السمعية الحسية العصبية (sensorineural Hearing loss) : وتشير إلى الإعاقة السمعية الناتجة عن خلل في الأذن الداخلية، أو العصب السمعي. (أبو النصر، 2005 ، ص: 74) ومن الصفات المميزة للضعف السمعي الحسي العصبي الناجم عن اضطرابات القوقعة : الصفة الأولى : اضطرابات نغمات الصوت (Diplacucis) حيث تكون النغمة ذات الذبذبات المتشابهة ترددات مختلفة بشكل ملحوظ في كل أذن.

الصفة الثانية: هي ازدياد شدة الصوت بشكل غير طبيعي، وغير منسجم مع الزيادة الحقيقية في شدته. ومن الصفات الأخرى لهذا النوع من الضعف السمعي، هو أن الشخص يجب أن يتكلم بصوت مرتفع نسبياً ليسمع نفسه مما يجعله يتكلم مع الآخرين بصوت عال (الخطيب، 1998، ص: 30) الإعاقة السمعية المركزية:

وتكمن المشكلة في التفسير الخاطئ لما يسمعه الإنسان، بالرغم من أن حاسة السمع قد تكون طبيعية، والمشكلة تكون في توصيل السوائل العصبية من جدع الدماغ إلى القشرة السمعية الموجودة في الفص الصدغي في الدماغ، وذلك نتيجة وجود أورام أو تلف دماغي، والمعينات السمعية في هذا النوع تكون ذات فائدة محدودة (العزة، 2001 ، ص: 25).

ثالثاً: من حيث شدة فقدان السمع:

وهذا النوع يتحدد حسب درجة الإعاقة لدى الشخص المعاق، وفي ضوء درجة ضعف حاسة السمع لدى الشخص، يمكن تصنيف هذه الإعاقة إلى فئات خمس وهي:

-الإعاقة السمعية البسيطة جداً:

ويتراوح فقدان السمع ما بين (27) - (40) ديسبل، وأهم ما يميز هذه الإعاقة لدى صاحبها صعوبة سماع الكلام الخافت أو عن بعد، أو تمييز بعض الأصوات، ولا يواجه الفرد صعوبات تذكر في المدرسة، وقد يستفيد من المعينات السمعية والبرامج العلاجية. (العزة، 2001، ص: 25)

-الإعاقة السمعية البسيطة:

ويتراوح شدة فقدان السمع بين (41) - (55) ديسبل، ونجد ان الأشخاص الذين لديهم هذا المستوى من فقدان السمع لا يسمعون جيداً إلا إذا كان الصوت عالياً (كجال، 2007، ص: 127).

-الإعاقة السمعية متوسطة:

ويتراوح فيها فقدان السمع لدى الشخص المعاق بين (56 - 70) ديسبل، ولا يستطيع الشخص فهم المحادثة إلا إذا كانت بصوت عال، ويواجه صعوبات كبيرة في المناقشات الصفية الجميلة، وقد يعاني من اضطرابات كلامية ولغوية، وقد تكون الذخيرة اللفظية محدودة (الخطيب، 1998، ص: 34).

-الإعاقة السمعية الشديدة:

ويتراوح فقدان السمع في هذه الحالة بين (71 - 90) ديسبل، وصاحب هذه الإعاقة لا يستطيع سماع حتى الأصوات العالية، ويعاني من اضطرابات في الكلام واللغة، ويحول دون تطور اللغة لدى الطفل إذا كان عنده منذ السنة الأولى، ويحتاج الطفل إلى مدرسة خاصة بالمعاقين سمعياً، وليتدرب على السمع وقراءة الشفاء ويكون بحاجة إلى سماعة طبية، إن صاحب هذه الإعاقة يعتمد على حاسة البصر (العزة، 2001، ص: 26).

-الإعاقة السمعية الشديدة جداً:

وفيها يتراوح فقدان السمع لدى الشخص المعاق أكثر من 90 ديسبل. (أبو النصر، 2005، ص: 75) وهذا النوع يشكل إعاقة شديدة، حيث أن الشخص قد لا يستطيع أن يسمع سوى بعض الأصوات العالية، فهو يعتمد على حاسة البعد أكثر من السمع، ويكون لديه ضعف واضح في الكلام واللغة، وهو يحتاج إلى دوام كامل في مدرسة للأشخاص الصم تكون مزودة بالوسائل الخاصة، وتستخدم أساليب خاصة لتطوير الكلام واللغة وتوظيف طرق التواصل اليدوي والتدريب السمعي (الخطيب، 1998، ص: 35).

العوامل المؤثرة في أنشطة المعاقين سمعياً:

ومن تلك العوامل ما يلي :-

مهارات التواصل : حيث إن سلوك التواصل للشخص المعاق سمعياً يعتمد بدرجة كبيرة على حاجات التواصل، وقدرتهم على التفاعل مع البيئة المحيطة.

الظروف النفسية الاجتماعية : حيث إن المظاهر الاجتماعية والنفسية للتكيف الشخصي تؤثر على التواصل والتفاعل مع الآخرين، ووجود مظاهر لا تكيفية تحرم الشخص المعاق سمعياً من أنواع العلاقات الاجتماعية، والأهداف المهنية التي تعطي معنى للحياة. (الزريقات ، 2009 ، ص: 228)

مشكلات التدريب والتأهيل : وهي تتمثل في صعوبة وجود فرص التوجيه المهني المناسب، والتدريب على مهنة تناسب ظروف الإعاقة، وتلقي القبول من ذوي الإعاقة السمعية، خاصة أن ذوي الإعاقة يصعب عليهم الحركة وحيداً ، ويتطلب الأمر تدريب كافٍ في مؤسسة تتوفر فيها الشروط المناسبة من كفاءة مهنية، وقرب المكان لسهولة الوصول إليها (ابو النصر، 2005 ، ص: 86)

خصائص المعاقين سمعياً :

يختلف الطلاب ذوي الإعاقة السمعية عن بعضهم البعض في بعض الخصائص؛ نظراً لاختلاف وشدة الإعاقة السمعية، وهناك مجموعة من الخصائص المشتركة لهؤلاء الطلاب المعاقين سمعياً، وهي :

الخصائص اللغوية: يعتبر تطور اللغة أمراً هاماً بالنسبة للأطفال المعاقين سمعياً، ويحتاج الأطفال إلى تطوير لغتهم ما أمكن بهدف الوصول إلى النمو المناسب (صديق ، ٢٠٠١) وأي تأخير في النمو اللغوي للطفل سوف يظهر ذلك في المراحل المتأخرة من العمر، ويتأثر الأطفال المعاقون سمعياً بمدى التدريب المبكر ونوعه، ومتى استخدمت المضخات الصوتية، والعوامل الذكائية والانفعالية والبصرية، وفقدان الدعم الأسري والثقافي والعمر عند التشخيص ، وخدمات التدخل (Silvestre,Ramspott&Pareto,) (2007) .

وأشارت (أسماء ، ٢٠٠٩ ، ص: ١٥٠) أن من خصائص المعاقين سمعياً، ما يلي:

الشخصية والنضج والتكيف الاجتماعي لدى المعوقين سمعياً: اهتم الباحثون بدراسة خصائص المعوقين سمعياً واستعداداتهم العقلية واللغوية والشخصية والتحصيلية الأكاديمية وحظي جانب الشخصية بنصيب وافر من دراساتهم، وقد أسفرت النتائج على أن أطفال الصم الذين يتعلمون بالطريقة الشفوية كانوا أكثر توافقاً اجتماعياً من أقرانهم الذين يستخدمون طريقة الإشارة، وأن الأطفال الصم الذين ينتمون إلى أسر ليس بها أطفال صم آخرون، كانوا أقل توافقاً من نظرائهم الذين توجد في أسرهم حالات صمم أخرى.

الخصائص العقلية: كشفت نتائج البحوث المبكرة التي استخدمت اختبارات ذكاء شفوية أو لفظية عدة خصائص للمعاق منها وجود فروق في مستوى الذكاء بين الصم والعاديين، وقد رأى بعض الباحثين مثل هذه الاختبارات غير ملائمة لقياس ذكاء الصم وأن معدل ذكائهم وإن كان ينخفض عن معدل ذكاء العاديين فإن أدائهم يتحسن ويصل إلى المستوى العادي على الجزء العملي والذي لا يستلزم مستوى عالياً من المهارات اللغوية.

التحصيل الأكاديمي: يتأثر أداء الأطفال المعوقين سمعياً بشكل سلبي في مجالات التحصيل الأكاديمي، كالقراءة والعلوم والحساب نتيجة تأخر نموهم اللغوي وتواضع مقدراتهم اللغوية إضافة إلى تدنى مستوى دافعتهم وعدم ملائمة طرق التدريس المتبعة، ويبدو ذلك واضحاً في الانخفاض الملحوظ في معدل التحصيل القرائي خاصة.

طريقة الوقاية من الإعاقة السمعية:

وتتمثل طرق الوقاية في :-

- الوقاية من الصمم الوراثي بعدم تشجيع زواج الاقارب ، كذلك سن تشريعات تمنع الزواج من المرضى الذين يؤدي زواجهم إلى ولادة الأطفال المعوقين
- العناية بصحة الام الحامل ووقايتها من الأمراض والعوارض وامتناعها عن تناول العقاقير الضارة و المخدرات والمسكرات وتوفير التغذية الضرورية لها واتخاذ الاجراءات الحديثة لمعالجة تنافر فصائل الدم بين الوالدين ، العناية في الولادة العسرة و اتباع الطرق الصحيحة لتجنب كل ما يعرض الوليد للشدة والاختناق عند المحاولة لانقاذ الام.
- الوقاية من أمراض الطفولة بالتحصين ضد الأمراض باللقاح اللازم.
- معالجة امراض الاذن والامراض التي لها أثر سيء على الاذن والسمع بوقت مبكر.
- وقاية السمع من التعرض الى الانفجارات والضجيج الذي يكون متواصل اثناء العمل اليومي.
- عدم الافراط في التدخين والكحوليات و الامتناع عن تناولها.
- التشخيص المبكر لأعراض الاذن و اكتشاف الحالات التي تؤدي الى فقدان السمع وحالات الصمم بالمسح لسمع الطلاب والاطفال بصورة عامة .
- توعية الاباء وتوجيه المعلمين لاكتشاف حالات ضعف السمع أو الصمم بين الاطفال.
- توفير العلاج اللازم في الأدوار المبكرة للإصابة بأمراض الاذن (عبيد ، 2000) يرى الباحث أن من أهم طرق الوقاية من الإعاقة السمعية هو بتوعية أفراد المجتمع بالأضرار الناجمة عن الإعاقة السمعية وطرق تفاديها والحد من تأثيرها على الفرد واسبابها واعراضها وكيفية التعرف عليها ، وذلك عن طريق بث المحاضرات التوعوية والندوات والبرامج المرئية والمسموعة ، كذلك عدم سماع الموسيقى والاغاني بصوت مرتفع وخاصة عن طريق السماعات، العمل على توفير أجهزة قياس السمع في كل المستشفيات العامة مجاناً، كذلك العمل على تدريب وإعداد أخصائيين ذو كفاءة عالية ، توفير أخصائيي السمع في كل المؤسسات التعليمية.

التوافق النفسي:

يعتبر التوافق النفسي المجال الأساسي من مجالات التوافق حيث يعمل على الصعيد الذاتي للفرد والطريقة التي ينبغي أن ينظر بها الفرد إلى نفسه ومجتمعه، كما يتضمن النفس والثقة بها، والرضا عنها والشعور بقيمتها والتمتع بالأمن الشخصي والسلم الداخلي، والشعور بالحرية في التخطيط للأهداف وتوجيه السلوك ومواجهة المشكلات الشخصية وحلها وهو ما يحقق الأمن النفسي (سري، 2000)

أبعاد التوافق النفسي :

- **التوافق الجسمي:** تعتبر الصحة الجسمية مصدرا هاما وضروريا للصحة النفسية، حيث أن وجود أي مرض أو خلل في الجسم يؤدي بالضرورة إلى خلل في مختلف وظائف الجسم، أي أن كلما كان الخلل كبيرا كلما كان تأثيره أعمق وبالتالي يمتد إلى الوظائف النفسية المختلفة بحيث أن التكوين الجسمي والنفسي يشكلان وحدة جسمية نفسية وأي خلل في الجانبين يؤدي إلى تعطل أداء الفرد نفسيا وجسميا. (عباس، 1996، ص: 46).

- **التوافق مع الذات:** تعتبر فكرة الفرد عن ذاته من الركائز الأساسية للشخصية وبلا شك في عملية التوافق.

ويرى فهمي أن الذات لها ثلاث أبعاد هي:

أ- فكرة الفرد عن نفسه أي أن الشخص له كيان ذو قدرة على التعلم وقوة جسمية وعلى العكس يشعر بأنه فاشل أو ضعيف القدرات.

ب- فكرة الفرد عن نفسه من خلال علاقته بالآخرين فقد يرى الشخص أنه مرغوب أو غير مرغوب فيه.

ج - نظرة الفرد إلى ذاته كما يجب أن تكون وهي الذات المثالية (الظاهر، 2004، ص: 29)

فإذا تطابقت فكرة الفرد عن ذاته مع فكرته عن واقعه فإنه يكون متوافقا مع نفسه والآخرين، أي أن الفرد المتوافق ذاتيا لا يتعارض مع الواقع، ويستطيع أن يصل إلى النجاح والقدرة على إشباع حاجاته وتحقيق رغباته عكس الفرد غير المتوافق ذاتيا فإنه لا يستطيع تحقيق رغباته وبالتالي فشله في إقامة علاقات اجتماعية جيدة، ويرى "روجرز" أن الذات عامل أساسي في الشخصية وكذلك في تجاه السلوك، وأن تقدير الذات وتقبل الآخرين يتصل كل منهما بالآخر، ويلعب دورا هاما في الصحة النفسية والتوافق (عزيزة، 2008، ص: 368)

ويرى طه عبد العظيم حسين أن التوافق مع الذات هو الرضا عن الذات وإشباع الدوافع والحاجات الفطرية والمكتسبة، كما أنه يتضمن خلو الفرد من الصراعات الداخلية والتحرر من الخوف والقلق، كما يتضمن تحقيق مطالب النمو المختلفة، كما يرى علماء النفس في هذا الإطار أنه لكي يتوافق الفرد مع ذاته

فعليه أن يتقبل ذاته كما هي عليه، وأن تكون المسافة بين مستوى طموحه وما لديه من إمكانيات، واستعداداته مناسبة وإن تكون لديه درجة مناسبة من المرونة والمبادأة، وأن يتسم بدرجة مناسبة من الاتزان الانفعالي، وأن يتمتع بدرجة مناسبة من الأمن والقدرة على مواجهة الضغوط والاحباطات. (حسين ، 2010 ، ص : 27)

التوافق الانفعالي:

إن فقدان التوافق الانفعالي لدى الفرد يعني فقدان التوازن كاختلال في السلوك أو اضطراب في النشاط، ويشير هذا الانفعال الحاد إلى سوء استعداد الفرد وتأهبه، ولياقته لأداء عمل ذو أهمية (المليجي 2000 ، ص : 174) ولهذا يتطلب من الفرد أن يكون متوافقا انفعاليا في مواجهة مختلف المشكلات ، والتوافق الانفعالي كما يرى "إجلال محمد سري" يتمثل في الذكاء الانفعالي والهدوء والاستقرار والضبط الانفعالي، والسلوك الانفعالي الناضج، والتعبير المناسب لمثيرات الانفعال، والتماسك في مواجهة الصدمات الانفعالية، وحل المشكلات الانفعالية (سري ، 2000 ، ص : 37)

ويعتبر التوافق الانفعالي سمة تميز الشخص المتوافق وتمثل في قدرة الفرد على تناول الأمور بأناة وصبر وعدم انفعال كما أن الشخص الثابت لا يستفز أو يستثار من أحداث ومواقف تافهة، ويتسم حامل هذه السمة بالرزانة في مواجهة الأمور والمواقف كما أن هذه السمة تنمو في ظل ظروف بيئية اجتماعية مناسبة. (العبيدي، 2009 ، ص : 18-19)

التوافق الاجتماعي:

ويتمثل التوافق الاجتماعي في قدرة الفرد على المشاركة الفعالة وشعوره بالمسؤولية الاجتماعية، وامثاله لقيم المجتمع الذي يعيش فيه وشعوره بقيمته ودوره الفعال في تنمية مجتمعه، وقدرته على تحقيق الانتماء والولاء للجماعة من حوله والدخول في منافسات اجتماعية بناءة مع الآخرين والقدرة على إقامة علاقات طيبة ايجابية مع أفراد المجتمع في جو من الثقة والاحترام المتبادل معهم، وشعوره بالسعادة والامتنان لانتمائه للجماعة واحتلاله مكانة متميزة من خلال ما يؤديه من عمل اجتماعي تعاوني (حمودة وآخرون، 2011 ، ص : 11) ، فالمسؤولية الاجتماعية مثلا تؤثر في التوافق الدراسي للطلاب، فعرفة الطلاب لمسئولياتهم تؤدي إلى بذل المزيد من الجهد والدافعية نحو موضوع التعلم، وزيادة التحصيل تؤدي إلى فعالية التفاعل وايجابية بين طلاب الصف (الراشد 2011، ص:715) وتعني كذلك أن ينشئ الفرد علاقة منسجمة مع البيئة التي يعيش فيها، ويرى "وولمان" في تعريفه "أن تحقيق الانسجام الداخلي في الشخصية شرط لتحقيق الانسجام مع البيئة الخارجية وتضمن السعادة مع الآخرين والالتزام بأخلاقيات

المجتمع ومعاييرها الاجتماعية وتقبل التغيير الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي السليم والعمل لخير الجماعة والمشاركة في النشاط الاجتماعي مما يؤدي إلى تحقيق الصحة الاجتماعية. (علي، 2004، ص: 127)

التوافق الأسري:

يعني الميل النفسي المعبر عن المحبة والود والاتفاق والعلاقة الطيبة السليمة بين الزوجين وبقية أفراد الأسرة وبالتالي تحقيق السعادة الأسرية، كما أن السعادة الأسرية لا تتحقق إلا بتحقيق التوافق الزوجي والانسجام الشخصي بحيث يكون كل واحد منهما منجذبا للآخر (الكندري، 2005، ص: 182) كما يتضمن التوافق الأسري السعادة الأسرية والتي تتمثل في الاستقرار الأسري، والتماسك الأسري، والقدرة على تحقيق مطالب الأسرة، وسلامة العلاقة ما بين الوالدين والعلاقات ما بين الأولاد بعضهم البعض الآخر، حيث يسود الحب والثقة والاحترام المتبادل بين الجميع ويمتد التوافق الأسري ليشمل سلامة العلاقات الأسرية مع الأقارب وحل المشكلات الأسرية (سري، 2000، ص: 36) بالإضافة إلى شيوع التفاهم والتواصل السليم بين أفراد الأسرة (حسين، 2010، ص: 28)

التوافق المدرسي:

يقصد به العملية الدينامية المستمرة التي يقوم بها الطالب لاستيعاب مواد الدراسة والنجاح فيها وتحقيق التلائم بينه وبين البيئة الدراسية ومكوناتها الأساسية التي تتمثل في الأساتذة والزملاء وأوجه النشاط الاجتماعي ومواد الدراسة والوقت سواء في الدراسة أو الفراغ أو المذاكرة (علي، 2004، ص: 131)

النظريات المفسرة للتوافق النفسي :

النظرية السلوكية:

تؤكد هذه النظرية أن معظم السلوك متعلم وأن الفرد يتعلم السلوك السوي والسلوك غير السوي ويتعلم التوافق وعدم التوافق في سلوكه، ويتضمن ذلك أن السلوك المتعلم يمكن تعديله (عبد الجابر، 1999، ص: 58) كما أن للمواقف البيئية دور هام في بناء شخصية الفرد وتوافقه ولذلك ينبغي أن يدرك الفرد السلوك على أنه خاص بموقف معين، إذ يرى دولار "ميلر" أن أنماط التوافق وسوء التوافق تعد متعلمة أو مكتسبة وذلك من خلال الخبرات التي يتعرض لها الفرد، والسلوك التوافقي يشمل على خبرات تشير إلى كيفية الاستجابة لتحديات الحياة والتي سوف تقابل بالتعزيز أو التدعيم (العبيدي، 2009، ص: 28) ويستند السلوكيين إلى نظرية التعلم والتي تتمحور حول كون أن الفرد ليس في حاجة إلى أن يتعلم فقط إنما يدفعه حب الاستطلاع إلى محاولة أن يتعلم كيف يتعلم، فالطفل إنما يتعلم تبعاً لقوانين التعلم والقواعد السلوكية المقبولة اجتماعياً من قبل الوالدين، فما يعاقب عليه يتلاشى وينطفئ، وما يدعم عليه ويثاب يعزز. (عبد الواحد، 2010، ص: 220)، ويؤكد السلوكيين أن السلوك بصفة عامة ناتج عن

مثير واستجابة وأن التوافق أو الشخصية السوية يكون رهن بتعلم عادات صحية سليمة، وتجنب اكتساب العادات السلوكية غير الصحيحة، والصحة والسلامة هنا تتحدد بناء على المعايير الاجتماعية السائدة المحيطة بالفرد وبذلك فإن مظاهر الشخصية السوية والتوافق هي أن يأتي السلوك المناسب في كل موقف حسب ما تحدده الثقافة التي يعيش في ظلها الفرد (علي، 2004، ص: 158)

نظرية التحليل النفسي:

يعتقد فرويد أن عملية التوافق الشخصي غالباً ما تكون لا شعورية أي أن الأفراد لا تعي الأسباب الحقيقية لكثير من سلوكياتهم، ويرى فرويد أن العصاب والذهان ما هو إلا عبارة عن شكل من أشكال سوء التوافق ويقرر أن السمات الأساسية للشخصية المتوافقة والمتمتعة بالصحة النفسية تتمثل في ثلاث مسميات هي: قوة الأبناء، القدرة على العمل، القدرة على الحب (العبيدي، 2009، ص: 24) كما ربط اريكسون Erikson التوافق بالنمو، ويرى أن الشخصية تمر عبر مراحل نموها بأزمات، وعلى الفرد أن يجتاز هذه الأزمات وأن نجاحه في اجتياز أزمة في مرحلة ما يؤدي إلى التوافق، ومن ثم مواجهة أزمة أخرى، وإن الفشل في اجتياز أزمة من الأزمات يؤدي إلى سوء التوافق (سفيان، 2004، ص: 167). ويرى "أدلر" في هذا الإطار أن السلوك يتحدد على نحو أولي بالدوافع الاجتماعية، كما أنه طرح مفاهيم مهمة وتمثل فيما يلي:

أ- الكفاح من أجل التفوق ويتمثل في السعي وراء التفوق بحيث أنه يمثل وسيلة تعويضية عن مشاعر النقص.

ب- التأكيد على الذات المتفردة.

ويرى "يونغ": أن مفتاح التوافق والصحة النفسية يكمن في استمرار النمو الشخصي دون توقف أو تعطل، كما أكد على أهمية اكتشاف الذات الحقيقية، وأهمية التوازن في الشخصية السوية المتوافقة (العبيدي، 2009، ص: 25)، ويرى فروم "frou mm" أن الشخصية المتوافقة هي التي تكون لديها تنظيم موجه في الحياة، وأن تكون مستقبلة للآخرين ومنفتحة عليهم، ولديها القدرة على تحمل الثقة. (عبد اللطيف، 1990، ص: 87)

نظرية علم النفس الإنساني:

يرى أصحاب هذه النظرية وعلى رأسهم "روجرز" أن الأفراد الذين يعانون سوء التوافق يعبرون عن بعض الجوانب التي تقلقهم فيما يتعلق بسلوكياتهم غير المنسقة مع مفهومهم عن ذاتهم (العبيدي، 2009، ص: 25) وقد وضع مواصفات للشخص المحقق لذاته والتي تتمثل في:

أ - أن يستمتع الفرد بكل لحظة من لحظات حياته.

ب- أن يثق بنفسه.

ج- أن يكون مبدعا .

د- أن يشعر بالحرية.

ه- أن يتوافق مع تغير البيئة التي يعيش فيها. (الداهري ب س، ص: 87-88). كما يوضح ماسلو أن تقدير الذات السوي هو الذي يسمح للفرد بالتكيف أو التوافق، وبالتالي يجلب له الإحساس بالأمن ويسمح له بتوظيف طاقاته النفسية نحو معرفة حقائق الحياة (عزيزة ، 2008، ص: 369) كما قام بتصنيف الحاجات الإنسانية في هرم متدرج أساسه الحاجات الفسيولوجية الأساسية وقتته الحاجة إلى تحقيق الذات، والحاجات الأساسية التي يتحدث عنها "ماسلو" تتمثل في:

أ- الحاجات الفسيولوجية كالطعام والشرب.

ب- الحاجة إلى الأمن وهو أن يكون الفرد في بيئة اجتماعية تمتاز بالاستقرار والهدوء.

ت- الحاجة إلى الانتماء والحب وهي التي تدفعنا إلى إقامة علاقات طيبة متبادلة.

ث- الحاجة إلى كسب الاحترام والتقدير وهي والتي تدفعنا إلى تكوين فكرة طيبة عن أنفسنا والتمسك بها وإقناع الآخرين بأحقيتنا في تقديرهم واحترامهم (أحمد، 2000، ص : 55-56)

العزلة الاجتماعية:

أسباب العزلة الاجتماعية:

عوامل مرتبطة بالفرد:

الانخيل : ويشير الانخيل إلى الشعور بعدم الارتياح وصعوبة التعبير عن الذات والرغبة في تجنب مواقف التفاعل الاجتماعي، وقد يرجع ذلك الانخيل إلى مشاعر النقص التي تعترى الفرد، أو التأخر الدراسي ومستوى التحصيل، كذلك تدعيم الآباء لسلوكيات أبنائهم الانخولين مما يجعلهم يتمسكن بسلوك التجنب، أو افتقاد الشعور بالأمن والطمأنينة وغيرها.

الخوف من المواقف الاجتماعية (الفوبيا الاجتماعية): الخوف الاجتماعي يولد لدى بعض الأفراد نوع من القلق قد يعقبه أو يلازمه اضطراب في السلوك الاجتماعي.

ضعف الثقة بالنفس : وهو يؤثر على المهارات الاجتماعية للأفراد في علاقاتهم الاجتماعية مما يساعد في انفصالهم وانعزالهم، وبالتالي الإحساس بالوحدة.

الحساسية الزائدة : وهي ترتبط بانخيل فالشخص انخول شديد الحساسية للآخرين.

معاناة الفرد من بعض العيوب الخلفية أو امتلاكه لبعض الصفات البدنية المتطرفة كالعصر الشديد أو الطول الفائق أو النحافة أو السمنة.

- عوامل ترتبط بالبيئة الخارجية :

وتمثل في:

-عوامل أسرية وترتبط بالتنشئة الأسرية كعدم تفهم الوالدين لرغبات وحاجات الفرد، كذلك تؤثر ثقافة الوالدين كثيرا في العزلة، فهناك أسر تعتبر مجالات النشاط الرياضي والاجتماعي مضيعة للوقت، وعلى التلميذ أن يهتم بدروسه فقط ويذاكر لينجح، كذلك وترجع بعض الأسباب إلى الحالة الاقتصادية للأسرة، فالأسرة الفقيرة تعاني من معوقات في إشباع حاجيات الأبناء من ملابس ومصروف ونشاط خارجي.... إنج.

-جماعة الأقران : عدم تقبل الأقران قد يخلق لدى الفرد إحساسا بالنبذ والرفض، فيكون تأثير ذلك على نفسه سيئ.

وهناك عوامل أخرى تمثل في ما يلي : تلقي النقد والتوبيخ من الآخرين يوميا، وربما السخرية، (زكي، 2002 ، ص: 63-64).

مظاهر العزلة الاجتماعية ومؤشراتها:

يمكن تحديد مظاهر العزلة الاجتماعية فيما يلي:

الشعور بالحساسية للذات، والتعاسة والانشغال بالذات، مع صعوبة تحقيق الاتصال الناجح مع الآخرين.

الشعور بالقلق وعدم الارتياح في المواقف التي تتضمن مواجهة من الناس.

زيادة الوعي والانتباه، والخوف من تركيز انتباه الآخرين والحساسية من النقد بوجه عام.

عدم الثقة في النفس من حيث القدرة على التفاعل مع الآخرين.

عدم القدرة على تكوين صداقات مع الآخرين.

الميل لتجنب العلاقات الشخصية مع الآخرين بصفة عامة، ومع أفراد الجنس الآخر بصفة خاصة .

الميل لقضاء وقت أطول في الانشغال بالذات وتقييمها.

الميل لقضاء وقت أقل في الحديث (أورباخ، 2006، ص: 14)

ليس لدى المنعزل ثقة بكفاءته الاجتماعية.

الامتناع عن المبادرة في الحديث أو اللعب أو الاهتمام بالبيئة، يقتنع بالمشاهدة دون المشاركة.

عدم المشاركة في النشاطات مع غيره من الأطفال.

عدم اللعب الجماعي أو تجنبه.

التعامل بطريقة بعيدة عن الود والمحبة.

تجنب المبادرة والتفاعل مع الآخرين.

قضاء معظم الوقت منفردا. (هربرت ،1980، ص : 48)

كذلك نجد من آثار العزلة الاجتماعية على الفرد شعوره بالضيق في وسط المجتمعات الكبيرة.

كذلك نجد الفرد لا يرغب بإظهار مواهبه لتردده ، وعلى ذلك فإنه يحرز نجاحا أقل من زملائه.

كما نجد للعزلة آثار سيئة على صحة الفرد النفسية والعقلية. (صبار ، 2010، ص : 219)

أشكال العزلة الاجتماعية:

تنقسم العزلة الاجتماعية إلى قسمين هما:

1-العزلة الاجتماعية البسيطة : وتتمثل في الانعزال والابتعاد عن الآخرين وعدم إقامة علاقات صداقة معهم والامتناع عن المبادرة بالحديث بشكل مستمر، وعدم اللعب مع الآخرين، وعدم الاهتمام بالبيئة المحيطة، بالإضافة إلى أنه يتصف بالحمول، وعدم النضج كما يقتنع بالمشاهدة دون المشاركة ولكنه لا ينسى المحيط.

2- العزلة الاجتماعية الشديدة : وتنتج عن تعديل خاطئ في الانفعالات، حين يرى الطفل أو الشاب الآخرين أنهم مصدر ألم وعدم راحة ، يلجأ للانعزال عن الآخرين ويكون هذا النوع من المنعزلين اجتماعيا سوء تكيف وقد يؤدي إلى ظهور اضطرابات سلوكية شديدة في حال عدم التدخل في الوقت المناسب (مصطفى نوري القمش ، خليل عبد الرحمن المعاينة، 2007 ، ص : 236)

النظريات المفسرة للعزلة الاجتماعية:

يوجد العديد من النظريات التي تفسر العزلة الاجتماعية كأحد الاضطرابات السلوكية، وسوف نعرض بعض منها على النحو التالي:

نظرية الذات : (théorie self)

ويعد مفهوم الذات جوهر الشخصية عند روجرز، وينشأ سوء التوافق والاضطراب لذي الفرد عندما لا تتفق الخبرات التي تمر به بما مع ذاته بالإضافة إلى تعارضها مع المعايير الاجتماعية ، لذلك فإن الفرد يلجأ إلى الانسحاب والعزلة الاجتماعية لكي يتجنب الخبرات السلبية. (عبد الله، 2016 ، ص : 307-308)

النظرية السلوكية:

تعتقد النظرية السلوكية أن السلوك الإنساني ما هو إلا مجموعة من العادات تعلمها الفرد أو اكتسبها أثناء مراحل نموه المختلفة، وطبقا لهذه النظرية فإن من الأسباب التي تقود إلى لجوء الفرد إلى العزلة

الاجتماعية هي النقد المستمر والعتاب الشديد اللذان يتعرض لهما الأطفال خلال تربيتهم (حسن وآخرون، ، 2014 ، ص : 284)

بعض الاستراتيجيات للحد من العزلة الاجتماعية والوقاية منها:

أشار بطرس (2014) إلى بعض الطرق للوقاية أو الحد من العزلة الاجتماعية وهي:

- معرفة الأسباب وطرق الحد منها أو السيطرة عليها.
- يحتاج الطفل إلى المدح والثناء والدفء العاطفي بحيث يشعر أنه شخص مهم عنده جوانب مضيئة ، وأنه مقبول وله قيمة كشخص خلقه الله تعالى في أحسن تقويم.
- فتح قنوات الحوار والمصارحة بين الطفل ووالديه لتعزيز الثقة وكشف أسباب معاناة الطفل.
- رواية الكبار لتجاربههم للأطفال، فالمواقف التي تسبب لنا الحرج الزائد تجعلنا أحيانا نتجنب الحياة الاجتماعية ونخشى مواجهة الناس.
- رواية الحكايات الواقعية والتاريخية والرمزية وسيلة هامة لعلاج الأطفال المنعزلين لأنها تدفع الاقتداء بالناجحين.
- لا بد للأسرة والمدرسة من تدريب الطفل على المهارات الحياتية الخاصة ببناء العلاقات الاجتماعية الناجحة بطريقة منظمة مع استبعاد الأحاسيس السلبية في نفس الطفل.
- يجب أن نعلم أن الانعزال لبعض الوقت ومن البيئات الخطرة قد يكون علاجاً مناسباً يلجأ إليه الطفل أحيانا لعلاج مشكلاته.
- جنب الطفل النصيحة العلنية لأنها تورث الجراًة على الاعتزال وتدفع إلى الإصرار على الخطأ.
- الترهيب بذكر الاختلاط بالناس والترهيب ببيان آفات العزلة.
- تصويب الأخطاء طريق النجاح.
- ينبغي تشجيع الأطفال على مهارات إبداء الرأي وأخذ المبادرات.
- تشجيع الأبناء والبنات على الالتحاق بالأندية الثقافية والرياضية.
- لا بد من مراجعة المختصين في حالة تفاقم السلوك الإعتزالي عند الطفل أو الشباب (حافظ ، 2014 ، ص: 229-231)

و طور يونج (Young) نموذجاً لعلاج مشكلة العزلة، ويتضمن برنامج يونج ست مراحل متدرجة وهي :
 أن يشعر الفرد بالرضا عن نفسه. / أن يشترك في نشاطات مع الأصدقاء. / إرساء علاقة حميمة مع صديق مناسب من خلال الإفصاح عن الذات / أن يشترك في إفصاح متبادل عن الذات مع صديق موثوق فيه/ دعم الشعور بالالتزام الوجداني لصديق أعتز بصدافته. (عثمان ، 2001 ، ص : 156)

الدراسات السابقة :

بعد اطلاع الباحث على عدد من الدراسات والتي حاول أن تكون موافقة لموضوع هذه الدراسة لم يجد الباحث الا دراسة واحدة توافق موضوع هذه الدراسة على حد علمه .
دراسة عطية احمد وآخرون (2022):

حيث تهدف الدراسة إلى دراسة العلاقة بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لذوي الإعاقة السمعية الملحقين بكلية التربية النوعية، وقد استخدمت الدراسة المنهج التجريبي لذلك، بعينة بلغت (٣٠) طالب وطالبة من الطلاب ذوي الإعاقة السمعية بالجامعة، واستخدمت الدراسة مجموعة من الأدوات : مقياس العزلة الاجتماعية، مقياس المستوى الاقتصادي والاجتماعي اختبار الذكاء، وقد أسفرت الدراسة عن أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات الذكور والإناث من الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية الملحقين بكلية التربية النوعية علي مقياس التوافق النفسي (الأبعاد والدرجات الكلية) لصالح الإناث، توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات (الذكور والإناث) من الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية الملحقين بكلية التربية النوعية علي مقياس العزلة الاجتماعية (الأبعاد والدرجات الكلية) لصالح الإناث، لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات منخفضي ومرتفعي المستوى الاقتصادي من الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية الملحقين بكلية التربية النوعية علي مقياس التوافق النفسي، لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات منخفضي ومرتفعي المستوى الاقتصادي من الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية الملحقين بكلية التربية النوعية علي مقياس العزلة الاجتماعية (الأبعاد والدرجات الكلية) لدى الطلاب والطالبات ذوي الإعاقة السمعية الملحقين بكلية التربية النوعية.

التعليق على الدراسات السابقة ومقارنتها بالدراسة الحالية :

تأتي هذه الدراسة تكملة لمشوار من سبقونا وبحوثنا في هذا الجانب، كما تأتي هذه الدراسة موافقة لموضوع الدراسة السابقة شكلا ومضمونا، حيث جاءت الأهداف واحدة في كلا الدراستين، وهي البحث في نوعية العلاقة التي تربط بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب الصم وضعاف السمع، أما أدوات كلا الدراستين فكانت واحدة، وهي مقياس التوافق النفسي ومقياس العزلة الاجتماعية، أما أعداد العينات فجاءت متقاربة حيث بلغت عينة هذه الدراسة (40) طالب وطالبة ، أما في دراسة عطية احمد وآخرون (2022) فكانت (30) طالب وطالبة، أما النتائج فكانت متوافقة بشكل كبير، حيث أسفرت كلا الدراستين عن وجود علاقة ارتباطية سالبة تربط بين مستوى التوافق النفسي لدى

الطلاب الصم والعزلة الاجتماعية لديهم، كما اسفرت دراسة عطية احمد وآخرون (2022) عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية على مقياس التوافق النفسي والتي تعزى لمتغير الجنس، في حين لم تظهر دراسة الباحث عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية على مقياس التوافق النفسي والتي تعزى لمتغير الجنس، أما على مقياس العزلة الاجتماعية فجاءت النتائج متوافقة، حيث أظهرت كلا الدراستين عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية على مقياس العزلة الاجتماعية لصالح الإناث، وبمقارنة هذه الدراسة بالدراسات السابقة نجد أن ما يميز هذه الدراسة عن الدراسات الأخرى هي أنها تعتبر من الدراسات القلائل ان لم تكن الأولى في بيئتنا المحلية والعالمية على حد علم الباحث التي تدرس العلاقة بين مستوى التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب ذوي الإعاقة السمعية.

إجراءات الدراسة :

منهج الدراسة: وللإجابة عن تساؤلات الدراسة استخدم الباحث المنهج الارتباطي المقارن باعتباره المنهج المناسب للدراسات التي تهدف إلى دراسة العلاقة بين متغيرين.

مجتمع الدراسة:- والذي يعرف على أنه (هو مجموعة من العناصر أو الأحداث المتشابهة التي تكون بجميع عناصرها موضوعاً لدراسة علمية ما). (الموقع الإلكتروني (ar.m.wikipedia.or

ويتكون مجتمع هذه الدراسة من جميع مرتادي مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن.

عينة الدراسة: حيث تعرف على أنها) هي مجموعة جزئية من المجتمع الإحصائي، يتم اختيارها بحيث تكون ممثلة تمثيلاً صادقاً للمجتمع الإحصائي التي سميت منه). (الموقع الإلكتروني (ar.m.wikipedia.org

حيث تم اختيارها عن طريق تواصل الباحث مع عدد من مرتادي مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن عينة الدراسة، وقد تم اختيار العينة بطريقة عشوائية، وتمثل عينة هذه الدراسة في:

- 1- العينة الاستطلاعية: وتشمل على عدد (10) من طلاب مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن
 - 2- العينة الفعلية: وتشمل على عدد (40) من طلاب مركز الأمل للصم وضعاف السمع بيفرن .
- أداة الدراسة: وتمثل في الاستبانة بعدد (2) مقاييس وهي :

1-مقياس التوافق النفسي: بعدد (60) فقرة حيث تم اخذ هذا المقياس من دراسة بعنوان التوافق النفسي وعلاقته بالدافعية للتعلم لدى تلاميذ سنة أولى ثانوي جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي قسم العلوم الاجتماعية ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ، للباحثين فاطمة بابة، كريمة مقاوسي وسيتم تحكيمها قبل تطبيقها.

مقياس العزلة الاجتماعية: بعدد (30) فقرة، حيث تم اخذ هذا المقياس من دراسة بعنوان مستوى الاكتئاب لدى المراهق المنعزل اجتماعيا دراسة ميدانية لأربع حالات بولاية بسكرة، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في علم النفس العيادي، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم العلوم الاجتماعية، إعداد الباحثين: ميلود شيقير، السعيد فتوح .
صدق وثبات أداة الدراسة :

- 1- الصدق الظاهري: حيث تم عرض المقاييس على عدد من المحكمين من ذوى الاختصاص والخبرة لإبداء الرأي في فقرات هاذين المقياسين، بعدد (5) محكمين ثم أخذ آرائهم بعين الاعتبار.
- 2- صدق الاتساق الداخلي: والذي يعرف على أنه (هو قياس الارتباط بين العناصر المختلفة في نفس الاختبار أو نفس المقياس الفرعي في اختبار أكبر في الإحصائيات والبحوث، وهو يقيس ما إذا كانت عدة بنود تقترح قياس نفس البناء العام تنتج درجات مماثلة (الموقع الإلكتروني، ar.m.wikipedia.org)

حيث تم تطبيق أداتي الدراسة على عينة استطلاعية قوامها (10) من مرئادي مركز الأمل للضعاف السمع بيفرن ، وتم استخدام معامل ارتباط بيرسون في حساب مدى ارتباط كل عبارة بالمقياس الذي تتبعه، فكانت النتائج كالتالي:

أبعاد مقياس التوافق النفسي	معامل الارتباط بيرسون	الدلالة الإحصائية
التوافق الشخصي والانفعالي	0.780	0.01
التوافق الأسري	0.840	0.01
التوافق الاجتماعي	0.730	0.01
الدرجة الكلية	0.783	0.01

الجدول رقم (1) يوضح متوسط قيم معامل ارتباط بيرسون لمقياس التوافق النفسي يوضح الجدول السابق أن متوسط قيم معامل ارتباط بيرسون التي تتبع محور التوافق الشخصي-الانفعالي يساوي (0.780) وهذا يعني وجود علاقة ارتباطية طردية موجبة متوسطة ودالة إحصائياً عند مستوى دلالة (0.01)، كما أن متوسط قيم معامل ارتباط بيرسون التي تتبع محور التوافق الأسري يساوي

(0.840) وهذا يعني وجود علاقة ارتباطية طردية موجبة متوسطة ودالة إحصائياً عند مستوى دلالة (0.01). كما أن متوسط قيم معامل ارتباط بيرسون التي تتبع لمحور التوافق الاجتماعي يساوي (0.730) ، بمتوسط عام بلغ (0.783) وهذا يدل على أن مقياس التوافق النفسي يتمتع بدرجة مرتفعة من الصدق .

مقياس العزلة الاجتماعية:

أبعاد مقياس العزلة الاجتماعية	معامل الارتباط بيرسون	الدلالة الإحصائية
الحرمان	0.820	0.01
فقد الأصدقاء	0.790	0.01
المعاناة	0.825	0.01
ضعف التواصل	0.857	0.01
الدرجة الكلية	0.823	0.01

الجدول رقم (2) يوضح متوسط قيم معامل ارتباط بيرسون لمقياس العزلة الاجتماعية ومن خلال النتائج المتحصل عليها من الجدول السابق نستطيع القول بأن مقياس العزلة الاجتماعية يتمتع بدرجة مرتفعة من الصدق، حيث بلغ معامل الارتباط بيرسون لهذا المقياس (0.823) وهذه القيمة تدل على أن المقياس يتمتع بدرجة عالية من الصدق .

ثبات الاستبانة:

وتم التأكد من ثبات الاستبانة باستخدام كلاً من:

1-معامل الثبات الفاكرونباخ: تم استخدام معامل الثبات (الفاكرونباخ) لحساب ثبات أداتي الدراسة ، وذلك باستخدام البرنامج الإحصائي Spss للبيانات التي تم الحصول عليها من العينة الاستطلاعية فكانت النتائج كالآتي:

مقياس التوافق النفسي:

أبعاد المقياس	معامل الثبات الفاكرونباخ
التوافق الشخصي الانفعالي	0.760
التوافق الأسري	0.850
التوافق الاجتماعي	0.830
الدرجة الكلية	0.813

الجدول رقم (3) يوضح معامل ثبات الفاكرونباخ لأبعاد مقياس التوافق النفسي من خلال نتائج الجدول السابق نستطيع القول أن مقياس التوافق النفسي يتمتع بدرجة مرتفعة من الثبات.
مقياس العزلة الاجتماعية:

أبعاد المقياس	معامل الثبات الفاكرونباخ
الحرمان	0.880
فقد الأصدقاء	0.790
المعاناة	0.836
ضعف التواصل	0.825
الدرجة الكلية	0.832

الجدول رقم (4) يوضح معامل ثبات الفاكرونباخ لأبعاد مقياس العزلة الاجتماعية من خلال نتائج الجدول السابق نستطيع القول أن مقياس العزلة الاجتماعية يتمتع بدرجة مرتفعة من الثبات.
2- بطريقة التجزئة النصفية:-

حيث تمت تجزئة عبارات الاستبانة إلى نصفين العبارات الفردية في مقابل العبارات الزوجية وتم استخدام معامل ارتباط بيرسون في حساب مدى الارتباط بين النصفين وجرى تعديل الطول بمعامل سبيرمان وبراون وبمعامل حساب جثمان كما هو موضح بالجدول التالي :-
مقياس التوافق النفسي:

محاور الاستبانة	معامل الارتباط بيرسون	الثبات جثمان	سبيرمان وبراون
التوافق الشخصي الانفعالي	0.780	0.848	0.912
التوافق الأسري	0.840	0.915	0.870
التوافق الاجتماعي	0.730	0.863	0.850
الدرجة الكلية	0.783	0.875	0.877

جدول رقم (5) يوضح حساب ثبات محاور مقياس التوافق النفسي باستخدام طريقة التجزئة النصفية يتضح من الجدول السابق أن معاملات الثبات لمحاور الاستبانة بمعامل الثبات سبيرمان وبراون تراوحت بين (0.850) و (0.912) وبمعامل جثمان تراوحت بين (0.848) و (0.915) حيث تؤكد هذه القيم على أن أبعاد المقياس تتمتع بدرجة مرتفعة من الثبات.
مقياس العزلة الاجتماعية :

عدد فقرات المقياس	معامل الارتباط بيرسون	الثبات جثمان	سبيرمان وبراون
الحرمان	0.820	0.740	0.715
فقد الأصدقاء	0.790	0.760	0.828
المعاناة	0.825	0.890	0.850
ضعف التواصل	0.857	0.917	0.950
الدرجة الكلية	0.823	0.826	0.835

جدول رقم (6) يوضح حساب ثبات مقياس العزلة الاجتماعية باستخدام طريقة التجزئة النصفية

يتضح من الجدول السابق أن معاملات الثبات لمحاو الاستبانة بمعامل الثبات سبيرمان وبراون تراوحت بين (0.715) و (0.950) وبمعامل جثمان تراوحت بين (0.740) و (0.917) حيث تؤكد هذه القيم على أن أبعاد المقياس تتمتع بدرجة مرتفعة من الثبات.

جمع البيانات : ويقصد بجمع البيانات (هي عملية جمع وقياس المعلومات حول المتغيرات المستهدفة في نظام قائم، والذي يمكن الفرد بعد ذلك من الإجابة على الأسئلة ذات الصلة وتقييم النتائج (الموقع الإلكتروني ar.m.wikipedia.org) حيث تم جمع البيانات عن طريق عدد (2) من المقاييس حيث تم إرسالهم ورقيا لعدد من الطلاب الصم وضعاف السمع المترددين على عدد من مراكز تأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة بطرابلس، وتم إرجاع عدد (30) استبانة من عدد (30) استبانة موزعة .
تحليل بيانات : ويقصد بها (هي عملية الفحص والتدقيق للبيانات، وتمشيطها لتكون أكثر دقة، وإعادة تشكيلها، وتخزينها أيضا لنحصل ونستنبط في النهاية على معلومات يمكن على أساسها اتخاذ وتحديد القرارات) (الموقع الإلكتروني ar.m.wikipedia.org) ولتحقيق أهداف الدراسة والإجابة عن أسئلتها والتحقق من فرضياتها قام الباحث باستخدام برنامج تحليل البيانات الإحصائية (SPSS) لمعالجة البيانات الإحصائية وقد استخدم الباحث لذلك الأساليب الإحصائية الآتية المتوسط الحسابي، الانحراف المعياري، والوزن النسبي، والنسبة المئوية، والتوزيع التكراري، واختبار (ت).

نتائج الدراسة:

سعى الباحث إلى التحقق من فرضيات هذه الدراسة المتمثلة في :

- 1- وجود علاقة ارتباطية سالبة تربط بين مستوى التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب الصم وضعاف السمع.
- 2- وجود فروق ذات دلالة إحصائية في مستوى التوافق النفسي لدى أفراد عينة الدراسة والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور / إناث).
- 3- وجود فروق ذات دلالة إحصائية على مقياس العزلة الاجتماعية لدى أفراد عينة الدراسة والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور / إناث).

الفرضية الأولى:

والتي تنص على :

- وجود علاقة ارتباطية سالبة تربط بين مستوى التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لدى الطلاب الصم وضعاف السمع.

التوافق ككل	التوافق الاجتماعي	التوافق الأسري	التوافق الشخصي الانفعالي	أبعاد مقياس العزلة الاجتماعية
-0.358	-0.608	-0.397	-0.070	الحرمان
-0.384	-0.649	-0.432	-0.072	فقد الأصدقاء
-0.246	-0.465	-0.263	-0.010	المعاناة
-0.350	-0.643	-0.392	-0.016	ضعف التواصل
-0.334	-0.591	-0.371	-0.042	الدرجة الكلية

الجدول رقم (7) يوضح معاملات الارتباط بين درجات التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية (الأبعاد والدرجات الكلية) لدى أفراد عينة الدراسة يتضح من الجدول السابق أن:

- (1) وجود علاقة ارتباطية سالبة بين درجات التوافق الشخصي -الانفعالي، ودرجات العزلة الاجتماعية (الأبعاد، والدرجة الكلية)، وجميعها دالة إحصائياً عند مستوى (0.01).
 - (2) وجود علاقة ارتباطية سالبة بين درجات التوافق الأسري، ودرجات العزلة الاجتماعية (الأبعاد، والدرجة الكلية)، وجميعها دالة إحصائياً عند مستوى (0.01).
 - (3) وجود علاقة ارتباطية سالبة بين درجات التوافق الاجتماعي، ودرجات العزلة الاجتماعية (الأبعاد، والدرجة الكلية)، وجميعها دالة إحصائياً عند مستوى (0.01).
- ومن خلال النتائج المتحصل عليها من الجدول السابق نلاحظ وجود ارتباط سلبي دال إحصائياً بين محاور مقياس التوافق النفسي ومقياس العزلة الاجتماعية، أي أن العلاقة التي تربط بين مستوى التوافق

النفسي الذي يعيشه الطفل وشعوره بالعزلة عكسية، حيث أنه كلما ازداد مستوى التوافق النفسي لدى الطفل الأصم وضعيف السمع انخفض شعوره بالعزلة وازداد تواصله وتفاعله مع بيئته المحيطة به والعكس صحيح، وهذه النتيجة يمكن تفسيرها بأن تمتع الطفل المعاق سمعياً بتوافق نفسي كبير يساعده على تقبل ذاته ومجتمعه والمحيطين به، وبذلك تتوفر لدى الطفل الرغبة والاستعداد للتواصل مع أقرانه من الأطفال العاديين ومع بيئته المحيطة به ومجتمعه الذي يعيش فيه، فسوء التوافق النفسي لدى الطفل يزعزع ثقة الطفل بنفسه ويجعله يشعر بالنقص والدونية، مما ينعكس ذلك سلبياً على جميع جوانب حياته بشكل عام وعلى تواصله وتفاعله مع الآخرين بشكل خاص، فغياب هذا الجزء من حياة الإنسان يشكل اضطراباً في حياته وتفاعلاته مع الآخرين، مما يجعله ينسحب بعيداً عنهم ويعيش في وحدة وعزلة، ومن الصعب فصل ما يملكه الطفل الأصم وضعيف السمع من توافق نفسي وعن تكيفه الاجتماعي وشعوره بالعزلة وطريقة تواصله وتفاعله مع الآخرين، وهذا ما يتوافق بشكل كبير مع نتائج دراسة عطية احمد وآخرون (2022) التي أشارت في نتائجها إلى وجود علاقة ارتباطية سالبة بين مستوى التوافق النفسي لدى الطلاب والطالبات الصم والعزلة الاجتماعية لديهم .

الفرضية الثانية:

والتي تنص علي :

وجود فروق ذات دلالة إحصائية في مستوى التوافق النفسي لدى أفراد عينة الدراسة والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور / إناث) .

العينة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	متوسط الفروق	قيمة ت	القيمة الاحتمالية	الدلالة
ذكور		121.69	18.31	-2.98	0.70-	0.48	غير دال
إناث		118.71	19.40				

الجدول رقم (8) يوضح الفروق في درجات استجابة أفراد عينة الدراسة على مقياس التوافق النفسي والتي تعزى لمتغير الجنس

يتضح من النتائج المتحصل عليها من الجدول السابق أن الفروق بين قيمة متوسط درجات التوافق النفسي عند الذكور البالغ ب (121.69) بانحراف معياري (18.31)، وقيمة متوسط درجات التوافق النفسي عند الإناث البالغ ب (118.71) بانحراف معياري (19.40)، فروق غير حقيقية وغير دالة

احصائياً، وعليه من خلال النتائج المتحصل عليها نستنتج أنه لا توجد فروق دالة احصائياً عند مستوى الدلالة (0.05) في مستوى التوافق النفسي تعزى لمتغير الجنس ، وهذا ما ينفي صحة فرضية الباحث ، ويرجع ذلك من وجهة نظر الباحث إلى تشابه الظروف التي يعيشها كل من الذكور والإناث والتي أدت إلى وجود مستوى متقارب على مقياس التوافق النفسي.

الفرضية الثالثة :

والتي تنص على :

وجود فروق ذات دلالة إحصائية على مقياس العزلة الاجتماعية لدى أفراد عينة الدراسة والتي تعزى لمتغير الجنس (ذكور / إناث).

العينة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	متوسط الفروق	قيمة ت	القيمة الاحتمالية	الدلالة
ذكور	83.04	16.93	9.25	2.25		0.03	دال
إناث	92.29	19.56					

الجدول رقم (9) يوضح الفروق في درجات استجابة أفراد عينة الدراسة على مقياس العزلة الاجتماعية والتي تعزى لمتغير الجنس

يتضح من الجدول السابق أن الفروق بين قيمة متوسط درجات استجابة أفراد عينة الدراسة على مقياس العزلة الاجتماعية عند الذكور ب (83.04) بانحراف معياري (16.93)، وقيمة متوسط درجات استجابة أفراد عينة الدراسة عند الإناث ب (92.29) بانحراف معياري (19.56) فروق جوهرية ودالة احصائياً كما تؤكد ذلك نتيجة الاختبارات (9.25) بقيمة احتمالية (0.03) أصغر من مستوى الدلالة (0.05) وعليه نستنتج وجود فروق دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (0.05) على مقياس العزلة الاجتماعية لصالح الإناث، وهذه النتيجة تؤكد وثبت صحة فرضية الباحث، ويرجع ذلك من وجهة نظر الباحث إلى طبيعة كل من الذكور والإناث فالإناث نتيجة لطبيعتهم يكونون أكثر حساسية من الذكور وأكثر تأثراً بالضغوط والمشكلات التي قد تعترضهم مما يجعلهم أكثر استجابة لتلك العوامل وأكثر تأثراً بما يحيط بهم، كما أن التركيبة النفسية لدى الإناث تختلف تماماً عن الذكور، فالإناث أقل صلابة نفسية من الذكور ولذلك نجد أن الإناث أكثر انعزالاً من الذكور.

التوصيات :

- توفير بيئة اجتماعية ونفسية وأسرية داعمة لتوافق الفرد النفسي، بعيدا عن تلك الضغوط الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والأسرية التي يعاني منها طلابنا الصم وضعاف السمع.
- العمل على إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية والاساسية للطلاب ذوي الإعاقة السمعية، والذي يساعد المعاق سمعيا على الرفع من مستوى توافقه النفسي.
- تحسيس الرأي العام الليبي بأهمية التوافق النفسي للفرد بشكل عام ولذوي الاحتياجات الخاصة من المعاقين سمعيا بشكل خاص، واهميته في عملية التواصل الاجتماعي لدى هذه الفئة وفي عملية الحد من عزلتهم والمساعدة في عملية دمجهم في المجتمع .
- زيادة الوعي بأهمية التوافق النفسي عن طريق عقد الندوات والمحاضرات التي تبين أسبابه ومظاهره ومفاهيمه وابعاده وطرق التحسين من مستواه.
- العمل على دمج هذه الفئات في المجتمع للتقليل من مستوى الشعور بالعزلة لديهم .
- العمل على إشراك ذوي الاحتياجات الخاصة وعلى رأسهم ذوي الاعاقة السمعية في البرامج الرياضية والترفيهية.
- العمل على تفعيل دور الأسرة في دعم هذه الفئة أولا والرفع من ثقافتها بذاتها والتحسين من تكيفها الاجتماعي ، والحد من عزلتها الاجتماعية.
- توفير اخصائيين نفسيين و اخصائيين اجتماعيين في كل المؤسسات التعليمية ومراكز التريبة الخاصة.
- دعم هذه الفئة بكل الأساليب والامكانيات المتاحة ماديا ومعنويا .
- تقديم برامج إرشادية لذوي الإعاقة السمعية وذويهم بهدف التخفيف من حدة الاضطرابات النفسية والاجتماعية التي قد يتعرض لها الطفل المعاق سمعيا.

المقترحات :

يقترح الباحث:

- 1- إجراء العديد من الدراسات التي تبحث في موضوع الدراسة بشكل اكثر دقة واكثر تعمقا.
- 2- على المسؤولين في الهرم التعليمي والمسؤولين على فئة الصم وضعاف السمع اخذ نتائج هذه الدراسة ونتائج الدراسات السابقة والتي ستليها بعين الاعتبار ووضعها في إطار البحث.
- 3- تكوين عدد من اللجان العلمية والمتخصصة في كل مجال على حدة لوضع كافة الحلول الممكنة لمعالجة كل تلك المشكلات التي تزيد من عزلة الطفل الأصم وضعيف السمع اجتماعيا، والتي تحول دون السماح للطفل الأصم وضعيف السمع من تلقي العلم والتعليم بالشكل الذي يحقق الأهداف المرجوة من العملية التعليمية ، ووضع هذه الحلول في إطار التنفيذ.

المراجع :

1. الزريقات ، إبراهيم عبد الله فرج (2009) الإعاقة السمعية مبادئ التأهيل السمعي والكلامي والتربوي، دار الفكر، عمان.
2. الكندري، أحمد (2005) علم النفس الأسري، بيروت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط 2.
3. الخطيب، جمال (1998) مقدمة في الاعاقة السمعية ، دار الفكر للنشر.ص:35-39.
4. المليجي، حلبي (2000) علم النفس المعاصر، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط 8.
5. أحمد، سهير كامل (2000) التوجيه والإرشاد النفسي، مصر، مركز الإسكندرية للكتاب.
6. احمد، عطية ، ومحجوب، نيرة ، والجلاد هالة (2022) العلاقة بين التوافق النفسي والعزلة الاجتماعية لذوي الإعاقة السمعية للمحققين بكلية التربية النوعية ، مجلة دراسات وبحوث التربية النوعية، المجلد الثامن، العدد الرابع مسلسل العدد (18) - أكتوبر 2022.
7. القمش، مصطفى نوري ، المعاينة، خليل عبد الرحمن (2007) الاضطرابات السلوكية والانفعالية، دار المسيرة للنشر والتوزيع.
8. القمش، مصطفى نوري (2006) المشكلات السلوكية الشائعة لدى الأطفال المعوقين عقليا داخل المنزل من وجهة نظر الوالدين وعلاقتها ببعض المتغيرات، مقال منشور في مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية، المجلد الثمن عشر، العدد الثاني.
9. العبيدي، محمد جاسم (2009) مشكلات في الصحة النفسية، عمان، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
10. الراشد، محمد يوسف أحمد (2011) التوافق الدراسي والشخصي والاجتماعي بعد توحيد المسارات في مملكة البحرين دراسة ميدانية على طلبة المرحلة الثانوية بالمحافظة الوسطى، مجلة جامعة دمشق المجلد، 27 ملحق (701-740).
11. الحربي، معوض ، و ابراهيم، محمد وهشام، عبد الله (2016) فعالية برنامج إرشادي قائم على اللعب في خفض العزلة الاجتماعية لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، معهد الدراسات العليا، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، مكتبة الأنجلو المصرية.
12. ابو رياح، مطاوع ، عبد الواحد، محمد مسعد (2006) المشكلات السلوكية لدى التلاميذ مرتفعي ومنخفضي القابلية للاستهزاء، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، كلية التربية، جامعة الفيوم.
13. ابو النصر مدحت (2005) الإعاقة السمعية، المفهوم والأنواع وبرامج الرعاية، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ص:74-86.
14. الظاهر، قطان أحمد (2004) مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع.

15. الفرخ، كاملة ، و تيم، عبد الجابر (1999) مبادئ التوجيه والإرشاد النفسي، عمان ، دار صفاء للنشر والتوزيع.
16. الداهري، صالح حسين (بدون سنة)، علم النفس العام، الأردن، دار الكندري للنشر والتوزيع.
17. الموقع الإلكتروني ، ar.m.wikipedia.org
18. العزة ، سعيد حسني (2001) الإعاقة السمعية واضطرابات الكلام والنطق واللغة، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ، ص:23-26.
19. بطرس حافظ (2014) طرق تدريس الطلبة المضطربين سلوكيا وانفعاليا، عمان: دار المسيرة.
20. بن عقاب، مسفر (2018) مقدمة في التربية الخاصة، ط1، بنها، دار شعلة الإبداع للطباعة والنشر.
21. حمودة ايت ، فاضلي أحمد سبيلي رشيد (2011) أهمية المساندة الاجتماعية في تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي لدى الشباب البطال، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد الثالث (1-38).
22. حمزة، جمال مختار (1995). دور الأخصائي النفسي مع فريق العمل في تناول حاجات المعوقين عقليا، مجلة علم النفس، العدد 35 الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
23. حسين، طه عبد العظيم (2010) الصحة النفسية ومشكلاتها لدى الأطفال من الأزاريطه ، دار الجامعة الجديدة .
24. دانيال ب هالاهان ، جيمس . م . كوفمان . (٢٠٠٨) سيكولوجية الأطفال غير العاديين وتعليمهم، ترجمة: عادل عبدالله محمد، الأردن ، دار الفكر ناشرون وموزعون.
25. ربيع وهدان سرينا ، خليفة، وليد السيد (2014) التعلم النشط لدى المعاقين سمعياً في ضوء علم النفس المعرفي (المفاهيم ، النظريات ، البرامج) دار النشر مكتبة الوفاء القانونية.
26. زهران، حامد (٢٠٠٥). الصحة النفسية والعلاج النفسي، الطبعة الرابعة، عالم الكتب.
27. زهران، حامد (١٩٨٠) التوجيه والإرشاد النفسي، عالم الكتب، القاهرة.
28. زكي، صفاء عبد العزيز. (2002) مدى فاعلية برنامج يستخدم للعب لترقيق حدة السلوك الانطوائي لدى ضعاف السمع، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا الطفولة، جامعة عين الشمس.
29. سليمان، عبد الرحمن سيد (٢٠٠١) سيكولوجية ذوى الاحتياجات الخاصة الجزء الثالث ذو الحاجات الخاصة (الخصائص والسمات)، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق.
30. سفيان، نبيل (2004) المختصر في الشخصية والإرشاد النفسي القاهرة، ايتراك للنشر والتوزيع.
31. سراج الدين، أسماء (٢٠٠٩) تأهيل المعاقين، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ص:150
32. سري ، إجلال محمد (2000) علم النفس العلاجي، القاهرة، عالم الكتب للنشر والتوزيع،

33. صبار، أسيل. (2010) الخجل وعلاقته بسلوك العزلة لدى عينة من طالبات جامعة الأنبار، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد الثاني، 2010 ، ص: 209_ 229.
34. صالح، نانسي كمال (٢٠١٠) مقياس العزلة الاجتماعية، ط ٢، مجلة الإرشاد النفسي ، مركز الارشاد النفسي، العدد (٣٣)، القاهرة، ديسمبر.
35. عبد الواحد، سليمان (2010) سيكولوجية ذوي الإعاقة الحسية، القاهرة، ايتراك للنشر والتوزيع.
36. علي، صبره محمد (2004) الصحة النفسية والتوافق النفسي، مصر، دار المعرفة الجامعية
37. عيسوي، عبد الرحمن (1995) علم النفس النمو، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع.
38. عنو عزيزة (2008) مدى فاعلية العلاج النفسي الديني، الجزائر، دار هومة للنشر.
39. عباس، عوض (1996) الموجز في الصحة النفسية، القاهرة، دار المعارف، ط2.
40. عبد السلام، نعمة ، وحسن، محمد ، ومحمد، عبد الله ، وشرف، إيمان . (2014) فاعلية برنامج قائم على الأنشطة المكتملة لخفض العزلة الاجتماعية لدى الطفل الموهوب، كلية التربية ، جامعة السويس .
41. عبد الواحد، محمد (٢٠٠١) الإعاقة السمعية وبرنامج إعادة التأهيل العين ، دار الكتاب.
42. عبيد، ماجدة السيد (2000) السامعون بأعينهم، دار الصفا للنشر، عمان، الأردن، د ط، ص: 26.
43. فاروق، عثمان . (2001) القلق وإدارة الضغوط النفسية، القاهرة: دار الفكر العربي.
44. فهمي ، سامية وآخرون . (1999). رعاية المعاقين سمعياً، ط1، الاسكندرية: المكتب العلمي للنشر.
45. فتحى، عبد الرحيم (1990) سيكولوجية الأطفال الغير عاديين ، دار القلم للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط 4.
46. فهمي، مصطفى (١٩٧٩) التوافق الشخصي والاجتماعي القاهرة، مكتبة الخانجي.
47. كمال، طارق (2007) الإعاقة الحسية المشككة والتحدي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص: 127.
48. بكاجة، نعيم ، وكراز، باسم (2008) تقدير مدى التوافق لدى الأطفال الصم في ظل الحصار من وجهة نظر المعلمين، جمعية أطفالنا للصم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الخامس لبرنامج غزة للصحة النفسية.
49. كوافحة ، تيسير مفلح عبد العزيز و فواز عمر (2010) مدخل إلى التربية الخاصة، ط 4 عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
50. موسى ، رشا عبد العزيز (١٩٩٢) الفروق في بعض القدرات المعرفية بين عينة من الأطفال ذوي الإعاقة السمعية وأخرى من عاديي السمع، مجلة مركز معوقات الطفولة، جامعة الأزهر، العدد الأول، ص ٢٣٣ - ٢٥٩ .

51. مدحت، عبد الحميد عبد اللطيف (1990) الصحة النفسية والتفوق الدراسي، بيروت، النهضة العربية للطباعة والنشر.

52. محمد، عادل عبد الله (٢٠٠٠) بعض الخصائص النفسية المرتبطة بالعزلة الاجتماعية لدى الشباب الجامعي، دراسات الصحة النفسية - الهوية - الاعتبار - الاضطرابات النفسية، القاهرة، دار الارشاد، ص: 191.

53. محمد صديق (٢٠٠١) سيكولوجية الطفل المعاق سمعياً وأساليب تواصله مع الآخرين، مجلة علم النفس ع (٥٧) ص: ٦٠٥٠٢٥.

54. مارتن، هوبرت (1980) مشكلات الطفولة، ترجمة عبد المجيد نشواني، منشورات وزارة الثقافة دمشق، دون طبعة، وشفير ملهان مشكلات الأطفال والمراهقين وأساليب المساعدة فيها. (ترجمة داود، نسيمه وحمدي نزيه) منشورات الجامعة الأردنية.
المراجع الأجنبية:

1-Silvestre, Nuria, Ramspott, Anna, Pareto, Irenka. (2007). Conversational Skill in a Semistructured Interview & Self-Concept in Deaf Students, Journal of Deaf Studies & Deaf Education, 12(1), PP38-5.

الملاحق :

مقياس العزلة الاجتماعية:

- يقف عدد لا بأس به من الأصدقاء معي في وقت الشدة.
- لا يوجد هناك اتصال مباشر بيني وبين كثير من جيراني.
- انقطعت علاقتي كل أصحابي منذ وقت طويل.
- لا يوجد سوى القليل من الأفراد فقط هم الذين يمكنني أن أتحدث معهم في مختلف الأمور.
- أتحدث مع عدد كبير من الأفراد ممن يسكنون في نفس الشارع الذي أسكنه كأنا أعضاء في أسرة واحدة.
- لا يوجد لدي صديق حميم.
- يقبلني عدد كبير من الأفراد بما أنا عليه.
- أشعر بالحزن لعدم وجود صحبة من الأصدقاء لي
- أرى بأن الآخرين بما فيهم أفراد أسرتي يسيئون فهمي
- أشك في موقف كثير من أصدقائي ملي وفي علاقتهم بي.

- يبدي الآخريين درجة عالية من الفتور واللامبالاة تجاهي
- غالبا ما أشعر أنني مرفوض من الآخريين
- عدد الأفراد الذين أشعر بالسعادة لوجود علاقة مباشرة بيني وبينهم قليل للغاية.
- حينما أكون في حالة جيد أشعر أنني أصبح مرغوب من الآخريين ولكن الأمر يختلف تماما إذا ما كنت أشعر بالحزن والكآبة.
- لا يوجد من يشغل بالدين وبأموري.
- يوجد عدد كبير من الأصدقاء أتبادل معهم الزيارات والآراء.
- أشعر كأني أعيش في فراغ اجتماعي دون أي إنسان من حولي.
- أشعر بتجاهل من جبراني.
- يمكنني الاعتماد على عدد كبير من الأفراد اعتماداً كلياً في تصريف أموري
- أشعر بأني سجين في منزلي.
- ليس لدي في الواقع أي أصدقاء حقيقيين بمعنى الكلمة.
- لا يوجد سوى القليلون فقط هم الذين يتحملون المشقة من أجلي.
- لم أعد أتوقع أن أنال أي اهتمام حتى من أفراد أسرتي
- لا أجد أشخاص مخلصين من حولي.
- عادة ما يوجد شخص ما قريب مني
- يمكنني أن أتحدث معه عن مشاكل اليومية.
- هناك العديد من الأفراد يمكنني اللجوء إليهم وطلب المساعدة منهم إذا ما صادفتني أي مشكلة.
- يرى كثيرون أن أسلوبني في التعامل غير مرجح بالنسبة لهم مما يجعلهم يتعدون عني .
- لا أجد في الواقع الشخص المناسب الذي أرغب في أن يشاركني أفراحي وأحزاني.
- أعرف أن دائرة معارفي وأصحابي محدودة.
- أشعر أنني قريب من عدد كبير من الأفراد.
- مقياس التوافق النفسي:
- المحور الأول : التوافق الشخصي – الانفعالي:
- هل لديك ثقة في نفسك بدرجة كافية؟
- هل أنت متفائل بصفة عامة؟
- هل لديك رغبة في الحديث عن نفسك وعن إنجازاتك أمام الآخريين؟

- هل أنت قادر على مواجهة مشكلاتك بقوة وشجاعة؟
- هل تشعر أنك شخص له فائدة ونفع في الحياة؟
- هل نتطلع لمستقبل مشرق؟
- هل تشعر بالراحة النفسية والرضا في حياتك؟
- هل أنت سعيد وبشوش في حياتك؟
- هل تشعر أنك شخص محظوظ في الدنيا؟
- هل تشعر بالاتزان الانفعالي والهدوء أمام الناس؟
- هل تحب الآخرين وتتعاون معهم؟
- هل أنت ناجح ومتوافق مع الحياة؟
- هل أنت قريب من الله بالعبادة والذكر دائماً؟
- هل تشعر بالأمن والطمأنينة النفسية وأنت في حالة طيبة؟
- هل تشعر باليأس وتهبط همتك بسهولة؟
- هل تشعر باستياء وضيق من الدنيا عموماً؟
- هل تشعر بالقلق من وقت لآخر؟
- هل تعتبر نفسك عصبي المزاج إلى حد ما؟
- هل تميل إلى أن تتجنب المواقف المؤلمة بالهرب منها؟
- هل تشعر بنوبات صداع أو غثيان من وقت لآخر؟
- المحور الثاني: التوافق الأسري:
- هل تشعر أنك متعاون مع أسرتك؟
- هل تشعر بالسعادة في حياتك وأنت مع أسرتك؟
- هل أنت محبوب من أفراد أسرتك؟
- هل تشعر بأن لك دور فعال وهام في أسرتك؟
- هل تحترم أسرتك رأيك وممكن أن تأخذ به؟
- هل تفضل أن تقضي معظم وقتك مع أسرتك؟
- هل تأخذ حقلك من الحب والعطف والحنان والأمن من أسرتك؟
- هل التفاهم هو أسلوب التعامل بين أسرتك؟
- هل تحرص على مشاركة أسرتك أفراحها وأحزانها؟

- هل تشعر أن علاقاتك مع أفراد أسرتك وثيقة وصداقة؟
- هل تفتخر أمام الآخرين أنك تنتمي لهذه الأسرة ؟
- هل أنت راض عن ظروف الأسرة الاقتصادية ؟
- هل تشجعك أسرتك على اظهار ما لديك من قدرات ومواهب ؟
- هل أفراد أسرتك يقفون بجوارك ويخافون عليك عندما تتعرض لمشكلة ما ؟
- هل تشجعك أسرتك على تبادل الزيارات مع الأصدقاء والجيران؟
- هل تشعرك أسرتك انك عبء ثقيل عليها؟
- هل تمنى احيانا ان تكون لك اسرة غير اسرتك ؟
- هل تعاني من كثير من المشاكل داخل اسرتك؟
- هل تشعر بالقلق أو الخوف وأنت داخل اسرتك؟
- هل تشعر بأن اسرتك تعاملك على انك طفل صغير ؟
- المحور الثالث: التوافق الاجتماعي:
- هل تحرص على المشاركة الإيجابية الاجتماعية والترويحية مع الآخرين؟
- هل تستمتع بمعرفة الآخرين والجلوس معهم؟
- هل تشعر بالمسؤولية تجاه تنمية المجتمع مثل كل مواطن؟
- هل تمنى أن تقضي معظم وقت فراغك مع الآخرين؟
- هل تحترم رأي زملائك وتعمل به إذا كان رأيا صائبا ؟
- هل تشعر بتقدير الآخرين لأعمالك وإنجازاتهم ؟
- هل تعتذر لزميلك إذا تأخرت عن الموعد المحدد؟
- هل تشعر بالسعادة الأشياء قد يفرح بها الآخرون كثيرا؟
- هل تشعر بالولاء والانتماء لأصدقائك؟
- هل تربطك علاقات طيبة مع الزملاء وتحرص على ارضائهم؟
- هل تسعدك المشاركة في الحفلات والمناسبات الاجتماعية؟
- هل تحرص على حقوق الآخرين بقدر حرصك على حقوقك؟
- هل تجد متعة كبيرة في تبادل الزيارات مع الأصدقاء والجيران؟
- هل تحاول الوفاء بوعدهم مع الآخرين لأن وعد الحردين عليه؟
- هل تفكر كثيرا قبل أن تقدم على عمل قد يضر بمصالح الآخرين (أو ترفضه) ؟

- هل تفتقد الثقة والاحترام المتبادل مع الآخرين ؟
- هل يصعب عليك الدخول في منافسات مع الآخرين حتى ولو كانوا في مثل سنك؟
- هل تخجل من مواجهة الكثير من الناس (أو ترتبك أثناء الحديث أمامهم)؟
- هل تتخلى عن إسداء النصح لزميلك خوفا من أن يزعل منك؟
- هل تشعر بعدم قدرتك على مساعدة الآخرين ولو في بعض الأمور البسيطة ؟

القيم التربوية والعناصر الجمالية في مسرحية أطفال الغابة لـ "جاسم محمد صالح"

Educational values and aesthetic elements in the play Children of the Forest by "Jassim

Muhammad Salih

"

فاطمة عبد الرحمن / أستاذة التعليم العالي جامعة حسبية بن بو علي - الشلف - الجزائر-

الإيميل: fatima.1977@hotmail.fr

سامية غشير / أستاذة محاضر - أ-

جامعة حسبية بن بو علي - الشلف - الجزائر-

ملخص:

إن الكتابة المسرحية للطفل تتميز بطابع تربوي بالدرجة الأولى، كما تتسم بخصائص فنية وعناصر جمالية خاصة، والكتابة المسرحية عند "جاسم محمد صالح" تعكف على ربط الطفل بوطنه، ومحيطه، وتراثه الأصيل، والمبادئ الإسلامية، والقيم التربوية الأصيلة، كما يظهر عليها طابع التجريب والتمرد، فالكاتب قد أبدع نصوصا في غاية التميز والأهداف السامية، والتأثير الإنساني العميق، وهذا ما وجدناه في مسرحية "أطفال الغابة"، والتي اتخذناها نموذجا للدراسة. الكلمات المفتاحية: الكتابة المسرحية، العناصر الجمالية، القيم التربوية، الأهداف السامية، التأثير الإنساني.

summary:

Children's playwriting is characterized primarily by an educational character, as it is characterized by special artistic characteristics and aesthetic elements, and the playwriting of "Jassim Muhammad Saleh" works to connect the child with his homeland, his surroundings, his authentic heritage, Islamic principles, and authentic educational values, as it shows the character of experimentation and rebellion. The writer has created texts with the utmost distinction, lofty goals, and deep human impact, and this is what we found in the play 'Children of the Forest', which we took as a model for the study.

Keywords: playwriting, aesthetic elements, educational values, lofty goals, human influence.

1- تمهيد حول مسرح الطفل:

لقد ظهرت كتابات مسرحية موجهة إلى الطفل، وقد أسّمت بطابعها التربويّ التوعويّ التوجيهي، وعادة ما تقدّم عروضاً في المدرسة، أو قاعات المسرح، وفي مناسبات كثيرة جداً، فالكتابة للطفل تعدّ من أكثر الكتابات صعوبة؛ لأنّها تتطلب وعياً وحكمة من قبل الكاتب الذي يراعي أن تكون الأفكار والمقاصد ملائمة لعمر الطفل، فيبتعد كلّ البعد عن الطابوهات والمحظورات؛ لأنّها تضرّ الأطفال، وتفسد سلوكياتهم. إضافة إلى إثراء الملكة الإبداعية، وتطوير معارف وخبرات الطفل، والسعي إلى تنشئته تنشئة صحيحة قويمه، تعدّه للمستقبل، وتجعله يسهم في بناء مجتمعه ووطنه ثقافياً وفكرياً واجتماعياً.

2- العناصر الجمالية والقيم التربوية في مسرحية "أطفال الغابة":

2- أ- القيم الجمالية في مسرحية "أطفال الغابة":

تميّز الكتابات المسرحية للطفل بخصائص فنية تميّزها عن باقي الكتابات الأدبية الأخرى؛ فهي كتابات متخصصة ومناسبة للفئة العمرية للطفل، تراعي تشكيلته الفيزيولوجية والنفسية والعقلية، وتمثّل في اللغة والشخصية والمكان والزمان والحبكة والعقدة والحلّ.

2- أ- 1- الفكرة:

تقوم المسرحية الموجهة للطفل على فكرة واضحة مفهومة تناسب عمره وفكره، إذ يبتعد الكاتب على التعقيد والغموض، ويعالج عادة موضوعات مهمة ذات أفكار تربوية ثقافية مهمة تساعد في التنشئة السليمة للطفل، فيقترب الكاتب من موضوعات تثير اهتمامه وانتباهه وخياله، فيتفاعل معها، ويحاول ربطها بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه.

في المسرحية ركّز الكاتب على فكرة جوهرية جداً أساسها إبراز الصراع بين الخير والشر، وتحجيب الأطفال في الخير، وضرورة تجنب الشر؛ فقد بينت المسرحية أنّ إرادة الخير المتمثلة في شخصية "جلجامش" رسول الحب والجمال والإنسانية تتفوق على الشر المتمثل في الساحر الشرير المرعب الخيف في نهاية المطاف

"جلجامش: الغابة للأطفال تبقى، فهم الأقوى، وهم الأزهى.

(يقترب من الأطفال)

الأطفال: نحبك يا جلجامش، لقد طردت الشر وانتصرت عليه.

الساحر الشرير: لن أترككم أبداً، لن أترك الغابة.

أنكيدو: أيها اللعين سأعاقبك الآن بكلّ قوة.

(يركض وراء السّاحر ويخرجان، ويجتمع الأطفال حول جلعامش، وهم يغنون ويرقصون، ويعود الفرح إلى الغابة من جديد)" (محمّد صالح، 2020، ص 239)
 إنّ المسرحيات ذات الطّابع التّربويّ التّثقيفيّ تُسهم في تنمية وثقافة ذهن الطّفل من جهة، ومن جهة أخرى تغرس فيه القيم، وتبرز أمامه السلوكيات التي يجب أن يتحلّى بها؛ لأنّها تساعد في تشكيل شخصيته وذهنه، وترقية فكره، وتقويم تصرفاته، والسلوكيات التي يلزم أن يتجنّبها؛ لأنّها تضرّ بتشكيله النفسيّ والسلوكيّ والذهنيّ.
 2- أ- ب- اللّغة:

الطفل". (خليف خضر الحيّاني، 2017، ص 41)
 اتّسمت لغة المسرحيّة بالفصاحة والمباشرة والوضوح، والبعد عن التّعقيد والخيال، كون المسرحيّة تحمل رسائل واضحة مفهومة، وقد تظهر ذلك في الحوار بين الشخصيات:
 "الطفل الأوّل: (أسمع السّاحر يغني، وينتبه الآخراّن إليه، ويتابعان مصدر الصوت، يزداد صوت السّاحر أكثر وأكثر)
 الطفل الثاني: أرى يا صديقي أن نفشل فرحته ونعود إلى مكاننا للعب.
 الطفل الثالث: كيف نعود إلى مكان اللعب؟ إنّه أقوى منا.
 الطفل الأوّل: لنعد إلى مكاننا ونطرده؛ لأنّ صوته أشع لن يخيفنا، وشكله المخيف لن يدخل الرعب في قلوبنا، هيا بنا لتوجّه إليه ونطرده." (محمّد صالح، 2020، ص 228)
 2- أ- ج - الشخصيات:

يراعى في كتابة النّصوص المسرحيّة أن تكون شخصياتها محدّدة واضحة قريبة إلى فهم الطّفل، فيبتعد الكاتب عن البناء التّعقيدّي للشخصيات، وعادة ما يهدف إلى وصل الطّفل بتاريخ وطنه وأمتّه، حتى يغرس فيه الانتماء منذ الصّغر، فيجب أن تكون هناك "عناية بتسميات الشخصيات، ومقاربة اسم الشخصية مع صفات الشخصية ليتعاطف الطّفل مع الشخصية الخيرة وينبذ الشخصية الشريرة،

فالوضوح والتحديد والاختيار والواقعية، والعدد المناسب من الشخصيات، وانتقاء الأسماء بعناية، كل هذا من الرسم الجيد للشخصيات في أدب الأطفال. (محمود رضوان ونجيب، 1982، ص 29)

وانطلاقاً من طابع المسرحية العالمي، فقد وظف الكاتب شخصيات لها تأثير إنسانيّ وشعبيّ مثل شخصية الساحر المرتبطة بالثقافة الشعبية، والتي ترمز إلى الشرّ والسوء، وتحمل صفات البشاعة والقبح، وشخصية الأطفال التي تحمل مدلولاً اجتماعياً يرمز إلى البراءة والجمال والسلام والصفاء، والمستقبل، وانتصار الخير. فالكاتب يعي أهمية توظيف هذه الشخصيات في إثراء فكر وذهن الطفل، وإبراز جانب الخير المتمثل في الأطفال، وضرورة الاقتداء بهم، وجانب الشر المتمثل في الساحر، وضرورة الابتعاد عنه؛ لبشاعته، وسوء تصرفاته، وترهيبه للصغار.

كما وظّف الكاتب شخصيتين لهما أثر بارز في الخيالة الشعبية العالمية وهما "جلجامش"، و"أنكيدو"، وما تميّزا به من خصائص ومواقف إنسانية مشرّفة، وصور التضحيات والكفاح من أجل الحياة والصدّاقة والحبّ.

إنّ الشخصيات المسرحية ليست شخصيات ورقية فقط بل هي شخصيات تحمل قيماً ومواقف، وتعبّر عن مشاعر وقضايا متعدّدة من صميم الحياة الواقعية، لذلك يجب على الكاتب دائماً أن يجيد عملية انتقائها، وتوظيفها في نصّه حسب السياق الدرامي.

2- أ- د- الفضاء الزمكاني:

يختلف الفضاء الزمكاني في المسرحية الموجهة للطفل عن باقي الأعمال الإبداعية الأخرى، فالكاتب يجب عليه أن يوظف فضاءً زمكانياً محدّداً واضحاً قريباً إلى فهم الطفل، فالمسرحية "ذات أبعاد زمانية ومكانية، تتخذ لها الزمن مساراً لتمتدّ في فلكه، والمكان موضعاً لتموضع فيه، ممّا يجعلها تجسّد حياة ألصق ما تكون بالحياة الإنسانية على سبيل الإطلاق، أو ألصق ما تكون بالحياة اليومية، وحدوها الجغرافية" (خليل عطية، 2010، ص 29)

يتمظهر المكان في المسرحية في الغابة التي احتضنت الأحداث والوقائع، فكانت بؤرة الصراع بين الأطراف المتصارعة ("أطفال يلعبون قرب أسوار مدينة أوروك، أشجار هنا وهناك، رقص، لعب، مرح، من بعيد ينظر إليهم الساحر بخبث وكراهية")، فالمكان في المسرحية عادةً لا يتحدّد بصورة واضحة مباشرة، بل قد يكون مجازياً تحدّده الإشارات والحركات وانفعالات الممثلين "إنّه العرض الجسديّ أو التصويريّ الماديّ أو الوهميّ للفضاء فيه يتمّ الحدث الدرامي، إنّه المكان المحسوس أو المجازيّ للشخصيات". (بوعطيط، 2012، ص 74)

أمّا زمن المسرحية فيتمثل في الزمن الماضي الممتدّ في الحاضر، فالمسرحية صالحة لكل زمان، فقصتها وفكرتها، والعبرة المأخوذة منها تجعلها أ نموذجاً حياً قد يحدث في أي وقت وظرف، فهذه القصة نجد مثلها قصصاً متشابهة في واقعنا المعيش.

2- أ- ه- الصراع:

يكون الصراع عادةً في المسرحية الموجهة للطفل متّسماً بعدة خصائص أبرزها: أنه يكون ملائماً لذهن الطفل، بحيث لا يزرع فيه الخوف والذعر، بقدر ما يقوم على الصراع الظاهر بين قيم الخير والشر، والاهتمام بتقديم صورة البطل المنتصر في الأخير على قوى الشر.

في المسرحية تظهر الصراع بين الخير الذي مثله الأطفال، وبين الشر الذي تمثل في شخصية الساحر الشرير في المشاهد الأولى، ثم يتصاعد الصراع عبر أحداث المسرحية في حوار عنيف شديد، خاصة مع تدخل شخصيات أخرى "جلجامش" و"أنكيديو"، ف "جلجامش" أراد الانتصار للخير، من خلال دعم الأطفال، ومحاربة الساحر، وإبطال أعاجيبه السحرية، في مقابل ذلك نجد شخصية "أنكيديو" التي وظفها الساحر لهزيمة "جلجامش" والأطفال، وطردهم من الغابة.

"جلجامش: من ناداني؟ أنا جلجامش الذي يحب الأطفال ويزرع الخير في كل مكان. (يقترب من الساحر الذي

يخاف منه ويتراجع)

عدوي هو الشر اسحقه وأحطمه وانثره في الهواء (يقترب من أنكيديو)، لا أحد يقف في وجهي، إنا ابن أوروك صديق الأطفال صديق الحب، والخير، والسعادة، والسلام (يتراجع أنكيديو)، وأنتم يا أصدقائي الأطفال لقد سمعت صياحكم من يجرؤ أن يؤذيكم وأنا موجود، أوروك غابة المحبة والسلام.

الأطفال: مرحبا بك يا صديقنا، أنت الذي تنقذنا لقد آذانا الساحر وأرعنا، وخذع أنكيديو حتى صار ضدنا جلجامش: لا أحد يقترب منكم، هذه الغابة لكم (يشير إلى الساحر وأنكيديو) وليست لهما، أتحدّي الشر أن يمسك بسوء (يتحرك)

الساحر الشرير: يا جلجامش لا تتحدّي من هو أقوى منك، نحن الأقوى، اذهب اذهب لا تبقي، أنكيديو هو الأقوى". (محمد صالح، 2020، ص 237)، فالظاهر أنّ الصراع كان بأسلوب يتسم بالقسوة والقوة، والعنف النفسي والجسدي كون المسرحية تبرز الصراع الحاد من أجل تملك الغابة، لينتصر في الأخير الحق على الباطل، فطبيعة الصراع تجعل الطفل ينتصر لقيم الخير والحق، فيميز السلوكيات الصائبة ويتجمل بها، مقابل ذلك يبتعد عن السلوكيات السيئة وينفر منها، ومن أصحابها.

2- أ- و- الحكمة:

(1982، ص 29)

وعادة ما تكون المسرحية الموجهة للطفل تحتوي على عقدة واحدة فقط تميل إلى الانفراج، كون عقل الطفل غير قادرٍ على استيعاب الحكمة المعقدة ذات المشكلات المتشعبة. فالحبكة البسيطة تسهل عليه عملية فهم الأحداث، والتفسير المنطقي لكيفية حدوثها، كما تسهل عليه أيضا ربط الأحداث بالواقع والشخصيات المألوفة في حياته اليومية.

في المسرحية تظهت الحكمة في تأزم الصراع واحتدام الحوار بين جلامش والساحر "جلامش: لا أحد يقترب منكم، هذه الغابة لكم (يشير إلى الساحر وأنكيدو) وليست لهما، أتحدى الشر أن يمسمكم بسوء (يتحرك)."

الساحر الشرير: يا جلامش لا تحدى من هو أقوى منك، نحن الأقوى، اذهب اذهب لا تبق، أنكيدو هو الأقوى.

الأطفال: الشر ليس هو الأقوى، الخير دوما يبقى.

الساحر الشرير: هيا أنكيدو أريهم القوة، صدرك هو الأقوى، صوتك هو الأعلى (يقترب أنكيدو من جلامش) " (محمد صالح، 2020، ص 237)

2- أ- ز- العقدة:

إن العقدة تنتج عادةً عن تصاعد الأحداث فيحدث التأزم، فالمسرحية تقوم على هذه التقنية الهامة جداً. وقد تظهت العقدة في المسرحية في مناداة الأطفال على جلامش بعد اشتداد الصراع، واحتماء "الساحر" ب "أنكيدو" الذي يملك قدرات خارقة عجيبة تمكنه من هزيمتهم، وطردهم من الغابة " (يعود الأطفال للصراخ) جلامش يا صديق الأطفال أين أنت ؟" (محمد صالح، 2020، ص 237)

2- أ- ح- الحوار:

يعدّ الحوار من أهمّ عناصر العمل المسرحي، ويرتبط ارتباطا كثيرا بالنص الدرامي، وهو من عناصر البرنامج المسرحي الخاص بالمدرسة القائم على لعب الأدوار والارتجال مما يجعله مكملا للتشخيص وفن التمثيل. " (مجموعة من المؤلفين، 2011، ص 46)

وهناك نوعين من الحوار، الحوار الخارجي (Dialogue) يقوم على تحاور عدّة شخصيات مع بعضها البعض، وهناك الحوار الداخلي (Monologue) الذي تتحاور فيه الشخصية مع ذاتها، فالحوار يظهر من خلال اللغة التي تنقل المحمول الإيديولوجي والفكري والنفسي للشخصيات، كما يبرز الصراع ويشدّد أكثر من خلال الحوار.

إنّ مسرحيّة أطفال الغابة" تقوم على الحوار بين عدّة شخصيات بشريّة (الأطفال، أنكيديو) وخرافية (جلجامش، السّاحر)، وقد جاء الحوار بلغة فصيحة راقية مفهومة، فيها صور ورموز وأماكن (تاريخية)، فقد اكتشفنا هواجس وأهواء ورغبات وتوجّهات الشخصيات من خلال الحوار الذي بين أفكارها وطموحاتها ومشاعرها وعواطفها.

كما أسهم الحوار في تأجيج الصراع وتقويته، فجاءت اللغة حادة عنيفة أدّت دورها البلاغي في توصيل الرّسالة.

"(يتصارعان فترة السّاحر يشجع أنكيديو، والأطفال يشجعون جلجامش)

لن يقف في وجهي، ولن يطرد الأطفال من الغابة.

أنكيديو: بقوتي تُطرد، وستعرف ذلك الآن (يتصارعان)

السّاحر الشرير: أنكيديو... أنت الأقوى، لا تنس ذلك، لا تنس.

الأطفال: الخير هو الأقوى، الحب هو الأبقى.

(يزداد الصراع بينهما، يبدأ أنكيديو بالتراجع رغم تشجيع السّاحر له).

جلجامش: ها قد هزمت يا أنكيديو، لن يفيدك السّاحر أبداً، فالشر به متعلق.

أنكيديو: لا لن اهزم، إنّي الأقوى (يتصارعان). " (محمّد صالح، 2020، ص 238)

2- أ- ط- حلّ العقدة:

تأتي في نهاية كلّ فصل من فصول المسرحيّة، لتكون نهاية وخاتمة، وعادة ما تكون النهاية في المسرحيّة الموجهة للطفل هادفة قوامها الموعظة والاعتبار، والتّوجيه والإرشاد، فالحلّ يقصد به "النهاية الهادئة المقنعة المنطقية المتدرّجة بعد الموقف العصيب والتي لا تأتي بصورة مفاجئة." (بوكروخ، 2013، ص ص 31- 32)

وقد كانت نهاية المسرحيّة جميلة، حملت لنا صورة إنسانيّة راقية عن انتصار الحبّ على الكراهيّة، والحقّ على الباطل، والجمال على القبح.

فالمسرحيّة قدّمت لنا صورة مشرقة على التعلّق بالأرض (الغابة) التي تمثّل موطن الحياة والفرح والجمال والمحبة للأطفال، وأبرزت تضحياتهم وتصديهم للسّاحر الشرير من أجل الحفاظ عليها. كما أعطتنا

قيمة إنسانية رائعة جدًا تكمن في ضرورة التعاون الاجتماعي الذي به نحافظ على مجتمعنا ووطننا وأحبّتنا، فالأطفال بتعاونهم وإيمانهم هزموا العدو الشرير.

خاتمة:

تفيض مسرحية "أطفال الغابة" بالأبعاد التربوية والإنسانية، الهادفة إلى توجيه الطفل وتوعيته، وترشيده، وتنمية فكره، وغرس الفضائل، والخصال الحميدة فيه.

لقد نحا الكاتب إلى بناء المسرحية بناءً درامياً يتسم بجماليات فنية تلائم عمر وعقل الطفل، وتهدف إلى إثراء معجمه اللغوي، وتحسين ذهنه، وتنمية فكره، وثبيت القيم الجميلة فيه، ودفعه إلى الإبداع والاكتشاف والبحث، والفهم، وهذا يعدّ من أهداف المسرحية الموجهة للطفل الراقية التي تسمو بنفس وعقل وروح الطفل.

تُحظى الكتابة المسرحية الموجهة إلى الطفل بأهمية كبيرة جدًا، وتحتاج إلى المزيد من الدراسات النقدية الجادة؛ لما تشتمل عليه من أبعاد فنية وتربوية، تُسهم في تنشئة الطفل تنشئة صحيحة، وتعدّه للمستقبل، وتجعله فرداً صالحاً في المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

1- محمد صالح، جاسم. (2020). ط3. مسرحياتي للأطفال. دار الرفاه للطباعة والنشر. بغداد. العراق.

ب- المراجع:

2- خليل عطية، عطية. (2010). ط1. أسس التربية، دار البداية ناشرون وموزعون. عمان. الأردن.

3- بوعطيط، سفيان. (2012). "القيم الشخصية في ظلّ التغير الاجتماعي وعلاقتها بالتوافق المهني". مذكرة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم النفس العمل والتنظيم، جامعة منتوري قسنطينة 1. الجزائر.

4- مجموعة من المؤلفين. (2012). (د. ط). القيم في الظاهرة الاجتماعية. دار البشير للثقافة والعلوم. مصر.

5- محمود رضوان، محمد ونجيب، أحمد. (1982). (د. ط). أدب الأطفال. مبادئه ومقوماته. دار الفكر العربي. دار المعارف. مصر.

6- خليف خضر الحياني، محمود. (2017). (د. ط). سيماء الصورة البصرية في قصص الأطفال. الإستراتيجية والتكنيك. دار غيداء للنشر والتوزيع. الأردن.

7- بوكروخ، مخلوف. (2010). (د. ط). التلقي والمشاهدة في المسرح: مقامات للنشر والتوزيع. الجزائر.

نحو إتمام كفاية معجمية لدى متعلمي السلك الابتدائي

development of a lexical competence among learners Towards

Primary wire

د. محمد مياة، أستاذ التعليم العالي مساعد

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الدار البيضاء-سطات/ المغرب

drmayat2000@hotmail.fr

الملخص:

تتجه الدراسات الحديثة في تعليم اللغات و تعلمها نحو التأكيد على أهمية الرصيد المعجمي و ضرورته في تنمية مهارتي الفهم و الإنتاج ، في أفق تحقيق كفاية تواصلية.

وإذا كان الهدف من تعليم و تعلم اللغات هو بناء كفاية تواصلية تشكل الكفاية المعجمية جزءا منها، يصبح التساؤل حول آليات بناء الكفاية الأخيرة تساؤلا مشروعا، و التقصي حولها في خضم مستجدات مناهج اللغة العربية، من أجل تحقيق الكفايات الختامية ، خاصة تلك المتعلقة بالتواصل السليم بلغة عربية فصيحة نهاية السلك الابتدائي.

الكلمات المفتاحية:

رصيد معجمي - كفاية تواصلية - كفاية معجمية - قدرة معجمية - معرفة معجمية.

Abstract :

Modern studies in teaching and learning languages tend to emphasize the importance of the lexical balance and its necessity in developing comprehension and production skills, on the horizon of achieving communicative competence.

And if the goal of teaching and learning languages is to build a communicative competence that the lexical competence is part of, then the question about the mechanisms of building the latter competence becomes a legitimate question, and investigating them in the midst of the developments of the Arabic language curriculum, in order to achieve the final competencies, especially those related to proper communication, In fluent Arabic, at The end of the primary wire.

Keywords :

Lexical balance - communicative competence - lexical competence - lexical ability - lexical knowledge.

مقدمة:

أثارت مجموعة من الدراسات في مجال تعليم اللغات و تعلمها ، الأهمية البالغة التي تشكلها المعرفة المعجمية في اكتساب اللغة و التواصل بها ، مؤكدة على أن الكفاية المعجمية هي جزء أساس من الكفاية التواصلية للمتكلم (Norbert Schmitt 2000). حيث أصبح التحكم في المعجم لا يقل أهمية عن التمكن من النحو في تنمية الكفاية التواصلية..

و نشير إلى أن موضوع هذه الورقة ، يندرج ضمن سياق المستجدات التي عرفها المنهاج الدراسي المغربي للتعليم الابتدائي في صيغته الأخيرة (يوليوز2020)، حيث انخرط في مشروع التعليم المبكر للقراءة، و اعتماد مقاربة منهجية تدريسها في المستويات الأولى، هي القراءة المقطعية لتمكين المتعلمين و المتعلمين من تنمية قدرتهم على القراءة بكيفية فعالة، وذلك استجابة لتنزيل الرؤية الاستراتيجية للإصلاح (2015-2030)، و معالجة مشكلة ضعف المستوى القرائي الذي أفرزته نتائج التقييمات الوطنية و الدولية (المجلس الأعلى للتعليم و تقويمات (PIRLS)). فضلا عن كون مخرجات المدرسة المغربية نهاية السلك الابتدائي كانت تطبعها بعض الاختلالات:

- يواجه المتعلم صعوبات في التعبير عن فكرة، أو تبليغ رسالة معينة.
 - عدم قدرة المتعلم على تطبيق النسق الفصيح أثناء التواصل الشفهي و الكتابي.
 - معجم اللغة العربية الفصيح لدى المتعلم (ة) معجم هزيل جدا.
 - عدم تملك كفاية معجمية يؤدي إلى التعثر الدراسي ثم إلى الهدر المدرسي.
 - غياب منهجية ترسيخ المعجم العربي الفصيح.
- و يعتمد التعليم المبكر للقراءة خمسة مكونات أساسية للقراءة هي : الوعي الصوتي - المبدأ الألفبائي - الطلاقة - المفردات - الفهم. و يهمننا من هذه المكونات - في هذه الورقة - ،مكون المفردات (الرصيد المعجمي) في علاقته بالفهم و الإنتاج وفق استراتيجيات محددة. كما كان من المستجدات تخصيص وضع اعتباري للشفهي من خلال اقتراح مكون (الاستماع و التحدث) اعتبارا لقيمة هاتين المهارتين في تعليم اللغة و تعلمها، و تمكين المتعلم (ة) من استضمار البنات اللغوية و الأسلوبية و تطوير رصيده الوظيفي الذي تستلزمه عمليتا فهم المسموع و الإنتاج الشفهي (مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، 2020، ص53).
- و تتضمن أنشطة مكون الاستماع و التحدث استثمار الحكايات و الوضعيات التواصلية لتنمية مهارتي الاستماع و التحدث.

وقد اهتم المنهاج من خلال المجالات المضمونية ، تزويد المتعلم بالرصيد الذي يحتاجه في مجال الأسرة و المدرسة و الهندام و التغذية والنظافة و البيئة الطبيعية و علم الحيوانات و الأعياد... وكذا لائحة من الأفعال الكلامية ، من خلال تدبير الوضعيات التواصلية، لتمكينه من الجانب التداولي للغة. السؤال الأساس هو: إلى أي حد تسهم هذه المستجدات في إنماء الكفاية المعجمية لدى متعلمي السلك الابتدائي؟

فروض الدراسة:

- عدم تمكن المتعلم من الرصيد المعجمي يؤثر على عمليتي الفهم و الإنتاج.
- استراتيجيات تعلم المفردات المعجمية ، و أنشطة التعليم الصريح ، وتخصيص معجم مدرسي ، آليات تسهم في إنماء الكفاية المعجمية.

أهداف الدراسة:

توخى هذه الدراسة رصد إسهام كل من مكون الاستماع و التحدث و مكون القراءة ، في تناغم مع معجم مدرسي خاص ، في إنماء الرصيد المعجمي و الاستراتيجيات الموظفة لهذا الغرض، في أفق إنماء الكفاية المعجمية.

الكفاية المعجمية:

تعددت التعريفات التي خصصت للكفاية المعجمية، ومنها ما جاء به "هنري أوليك" Henri Holec 1995 عندما قال: "هي قدرة المتعلم على الفهم الشفهي و الكتابي وعلى توظيف ما يحتاجه وما يتعرض له من وحدات معجمية في وضعيات تواصلية معينة" (وهاس هشام 2020، ص10). كما ذهب "روبنسون" (1989) إلى كون هذه الكفاية تقتضي معرفة المتعلم معنى أو معاني اللفظة، وكيفية توظيفها في تركيب جمل جديدة (ن.م، ص10).

لقد ورد في إحدى المجلات التربوية الكندية 15 (وهاس :2020، ص10) تعريف مفصل للكفاية المعجمية، إذ تشير المقالة إلى أن معرفة الكلمة والتحكم فيها يتمظهر على الشكل الآتي:
-فهم المفردة شفويا يشير الى تمتع المستمع بمعارف ومكتسبات معجمية.
-القدرة على التلطف بأشكال لغوية سليمة وتوظيفها في وضعيات تواصلية، دليل على امتلاك معارف لغوية تخول إمكانية الإنتاج اللغوي.

-فهم المفردة أثناء القراءة يؤكد قدرة القارئ على تعرف اللفظة في شكلها المكتوب.

-توظيف المفردة كتابة في منتج لغوي كتابي دليل على كفاية لغوية وتمكن من المفردة على

المستوى الكتابي لا الشفهي فحسب..

و يتضمن مفهوم الكفاية المعجمية القدرة المعجمية و المعرفة المعجمية معا، فالقدرة المعجمية تركز على السياق لتحديد معنى المفردات، و تتكون من المكونات التالية:

- سياق توظيف المفردة.
 - معرفة المفردة و سيروراتها الأساس.
 - استراتيجيات مافوق المعرفة لاستعمال المفردة.
- يتصل المكون الاول بتحديد المتعلم للمعاني المختلفة للمفردة وفق سياقاتها المختلفة، مثلا تتغير معاني المفردة بتغير المقام و باختلاف الأجيال و بحسب تأويل التباينات بين اللغات... أما المكون الثاني فيقسمه Chappelle الى ثلاثة اقسام:
- سعة المعرفة المعجمية و معرفة خصائص المفردة من حيث شكلها و نطقها و خصائصها التركيبية....
 - تنظيم المفردة داخل المعجم الذهني.
 - السيرورة الرئيسة للمفردة.
- اما المكون الثالث فيتعلق بالكفاية الاستراتيجية، التي تقوم بدور اساس في انتاج اللغة و استقبالها (تخمين و استنتاج المعنى- توظيف القاموس...) و ميز Chappelle بين القدرة المعجمية و المعرفة المعجمية، حيث تركز الاولى على:
- السياق لتحديد معنى المفردات، في حين تركز الثانية على المفردات و سعتها (الرصيد المعجمي). اما مفهوم الكفاية المعجمية فيتضمن القدرة المعجمية و المعرفة المعجمية معا، و يشمل ما يلي (عبد النوري:2018، ص5):
 - سعة الرصيد المعجمي للمتعلم.
 - تنظيم المفردات داخل معجمه الذهني
- فيما تركز المعرفة المعجمية على المفردات و سعتها (الرصيد المعجمي). ولا تتضمن مجموع مفردات اللغة و انما تتضمن المستعمل منها، و من مكوناتها ما يلي :
- المفردات المألوفة، و تتحكم فيها شروط الاستعمال و الرواج.
 - مفردات للاستثناس: و تعد امتدادا للصنف الأول، و تدخل ضمن مهام المدرسة التي تعمل على خلق وضيعات لغوية تتضمن هذا النوع من المفردات.
 - المفردات الغريبة: التي زالت غرابتها عندما أقيمت في نطاق المصطلحات الجديدة للتعبير عن المفاهيم التي استجدت في اللغة8، و يتطلب، في المقابل، استقبال مفردة ما معرفة معناها من خلال القراءة او

الاستماع دون المرور إلى مرحلة انتاجها. ويعتبر انتاج المفردة صعب المنال و صعب التعلم في الان نفسه، كما يسبق دائماً البعد الاستقبالي البعد الإنتاجي. ويشمل مفهوم الكفاية المعجمية:

- سعة الرصيد المعجمي للمتعلم.

- تنظيم المفردات داخل معجمه الذهني.

لقد اهتم المتخصصون في الدراسات المعجمية، وعلى رأسهم الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري بمفهوم المعجم، وعمل على توضيحه وتمييزه عن القاموس، معتبرا الأول قدرة لغوية يمتلكها الفرد، تخول له إمكانية صياغة الكلام والتواصل به. بينما اعتبر القاموس كتابا جامعا لمعظم مفردات لغة بعينها، مصحوبة بشروحات وتفسيرات. ونورد هنا ما جاء على لسان الباحث بخصوص القاموس، حيث قال: "إنه الصناعة التي نتوق إلى حصر المفردات ومعانيها"، ويقول عن المعجم: "هو المخزون المفرداتي الذي يمثل جزءا من قدرة المتكلم المستمع اللغوي". وفي السياق ذاته يوضح الدكتور علي القاسمي ما يميز معجم الفرد عن القاموس قائلا: "معلوم أن رصيد الفرد الواحد من المفردات يقل بكثير عن مفردات معجم متوسط مهما كانت ثقافة ذلك الفرد، كما تقل مجموع مداخل المعجم، مهما كان كبيرا، عن مجموع المفردات المفترض الذي تمتلكه الجماعة اللغوية". إنه تمييز يؤكد الفرق بين المعجم والقاموس، ويعتبر لا محالة مجموع ما يمتلكه الفرد من مفردات جزءا من كفاية لغوية خاصة، ترتبط في ثرائها بتجاربه الشخصية، وبمدى تفاعله والمحيط الذي يحيا ضمنه. هذا الخزان أو الرصيد المفرداتي ينعته الدكتور الفاسي الفهري بالمعجم الذهني، ويصفه بالآلة الذهنية التي يستطيع المؤول بواسطتها أن يصدر قرارات وأحكاماً معجمية تمكنه من الحكم على كلمة بأنها تنتمي إلى معجم لغته أو لا تنتمي. أي أنه يستقبل من حين لآخر كلمات لا تشبه الكلمات التي سمعها من قبل، سواء من الناحية الصوتية أو التركيبية أو الدلالية أو في المقام الذي توضع فيه، ومع ذلك يدرك أنها كلمات، وبالطريقة نفسها يسمع متواليات صوتية ويعرف أنها ليست كلمات وذلك بواسطة ذهنه (وهاس:2020، ص3).

روافد تنمية الكفاية المعجمية:

يعنى الاهتمام بتعليم اللغة العربية الفصحى في المرحلة الابتدائية - من بين ما يعنى به - بالثروة اللغوية الإفرادية التي تشكل خلال مسارها التعليمي المتدرج والمتطور الرصيد اللغوي للتلاميذ الصغار لاسيما فترة السنوات الأولى من التعليم الابتدائي، وذلك باعتبار أن تلك المفردات اللغوية تؤدي دورا أساسيا وفعالا في تشكيل معارف الطفل وتوسيعها وبناء تصورات له للواقع الذي يتوقف إدراكه له على تلك المفردات اللغوية الحسية منها والمجردة، بل إن ذلك الواقع سيتميز بالتأكيد من خلال نوع المفردات

والمجالات المفهومية التي يتوقف عليها التوجيه المعرفي والفكري للطفل، فتتكون بعض خصائص توجهاته الفكرية والفنية والعلمية هذا، من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المادة الإفرادية تشكل في جزء منها الروابط المعنوية والشكلية للعبارة اللغوية التي يتعاطاها الطفل في حياته اللغوية الأولى وبالتالي في بلورة جزء من ملكته اللغوية الأساسية.

إن الرصيد اللغوي الخاص بهذه المرحلة التعليمية هو قائمة مفتوحة من المفردات التي يفترض أن يحكمها ضابط الحاجة إلى الاستعمال في واقع الحياة والمشاهدات اليومية للطفل التي تشكل المحيط الذي يتفاعل معه، ذلك المحيط الذي يتكون من محسوسات ومدركات وتصورات يجري اكتسابها تبعاً للنمو النفسي والعقلي للطفل، ويتجلى ذلك دون شك في نمو النظام اللغوي للفرد، وتبعاً لذلك يشكل التعليم الصريح للمفردات أهمية بالغة لاتقل عن تعليم الجوانب اللغوية الأخرى، وذلك رغم أن هذا الجانب لم يحظ بالاهتمام الذي خصت به تعليمية القواعد مثلاً (ابن عليّة: 2016، ص 5).

1- مكون الاستماع والتحدث (لماذا الحكاية؟): دشنت وزارة التربية الوطنية مشروعها الإصلاحي انطلاقاً

من إدراج مجموعة من المستجدات الخاصة بالمنهاج الدراسي للسلك الابتدائي، حيث استهدف قطب اللغات تمكين المتعلم (ة) من قدرات و مهارات و معارف و قيم و مواقف متصلة باستعمالات اللغة الشفهية و الكتابية من خلال التمكن من مهارات الاستماع و التحدث، و القراءة، و الكتابة. و قد تبني المنهاج مدخل الحكاية في سياق مشروع التعليم المبكر للقراءة، باعتبارها:

- منطلقاً للمتعة و التسلية، من جهة،
- وسيلة لتنمية مهارات القراءة و الرصيد المعجمي منذ السنوات الأولى من التمدريس.
- تسهم في تطوير الوعي الصوتي و تميته.
- تغني الرصيد اللغوي بمفردات اللغة العربية الفصيحة و تراكيبها.
- تكسب الهياكل الأساس و البنيات المستعملة في الحكاية.
- تسهم في تطوير الطلاقة و الفهم.
- تنمية اتجاهات إيجابية لدى المتعلم نحو القراءة من خلال أنشطة الاستماع و التحدث.
- تساعد على استعمال المعجم مع توظيف استراتيجيات الفهم.

فاعتماد المقاربة النصية في ديدكتيك اللغات، جعلت المستوى المفرداتي يستمد مشروعية وجوده بشكل قوي، ذلك أن النص/الحكاية يوفر المناخ الأنسب لاستعمال المفردات في مواقف تعبيرية لغوية حقيقية تساعد المتعلم على فهم تلك المفردات في المقام الأول و توظيفها فيما بعد.

1-1- آليات تنمية الرصيد اللغوي باستثمار الحكاية:

- إعادة سرد الحكايات فرديا وفي مجموعات أو جماعيا بإشراك الفصل كله.
- الاستعانة، خلال إعادة السرد، بالإيماءات والحركات الجسدية التي تجسد شخصيات الحكاية وأحداثها، مما يعزز الاستمتاع بالحكاية وتذكر أحداثها.
- تقوية مهارات الوعي الصوتي انطلاقا من أنشطة محددة ومتنوعة.
- استعمال مؤشرات بصرية ونصية لإعادة سرد الحكايات. ما دامت قدرة المتعلمين والمتعلمين على القراءة محدودة في السنوات الأولى (خاصة السنة الأولى).
- استثمار الصور المصاحبة للحكاية في مختلف المراحل (لبناء فرضيات القراءة وتوقع أحداثها وللتدرب على إعادة حكي القصة).
- استثمار مختلف أنشطة الحكاية لاكتساب المفردات.
- تشخيص الحكاية أو مقطع منها مع ترويح معجم الحكاية والكلمات البصرية...
- إثراء الرصيد اللغوي باستعمال استراتيجيات متنوعة، مثل استراتيجيات خريطة الكلمة، وشبكة الكلمات، والمعاني المتعددة...

1-2- طرائق تعلم الرصيد المعجمي:

- احتدم النقاش بين الباحثين حول طرائق تدريس المفردات، هناك من يقر بفعالية التعليم الصريح من خلال أنشطة تعليمية تعليمية؛ بينما يذهب باحثون آخرون الى ان التعليم الضمني للمفردة هو الذي يحقق نتائج جيدة (مستجدات المنهاج ، ص73).
- أ- تعلم المفردات ضمنا: ان اكتساب المفردات و معانيها يتم بطريقة لا واعية اثناء مجابهة المتعلم لها وفق سياقات مختلفة، ومن خلال إغماس المتعلم في الأنشطة اللغوية خاصة القراءة و الاستماع دون معرفة سابقة من المتعلم و دون توجيه من قبل المدرس، الشأن نفسه في تعلمه للغة الام. وعموما تكتسب اللغة عن طريق فهم العبارات و الرسائل اللغوية، لأن وعي الانسان يركز على معنى العبارات و ليس على شكلها؛ وهذا ما يسميه (Krashen: 1989) بالتعلم المفاجئ.
- ب- تعلم المفردات بطريقة صريحة: و يقتضي معرفة المتعلم بقائمة المفردات التي يسعى المدرس تعليمها له في حصة معينة، أي ان تعلم و اكتساب المفردات يكون بسيطا من خلال وضعها في مقطع تدريسي و الانطلاق من المفردات المتضمنة في المعجم الأساسي للتواصل. وتجعل هذه الأنشطة المتعلم واعيا بدوره و مسؤوليته في فعل التعلم و توظيفه لاستراتيجيات اكتساب/ تعلم المفردات، خاصة الاستراتيجيات ما

فوق المعرفية مثلا: ملاحظة أن هذه المفردة غير مألوفة، أو محاولة استنباط المعنى من خلال السياق أو من خلال القاموس، ومحاولة تكرار معنى هذه المفردة في سياقات مختلفة...

2- المكون القرآني (التعليم المبكر للقراءة):

يرتكز برنامج مشروع التعليم المبكر للقراءة على تعليم القراءة وتعلّمها في السنة الأولى وفق مجموعة من التدابير: - تطوير تدريس اللغة العربية باعتماد الطريقة المقطعية المدعمة بالطريقة الصوتية (الوعي الصوتي) كطريقة فعالة للتدريس المبكر للقراءة.

- اعتماد الكلمات البصرية لتمكين المتعلم من اكتساب رصيد من الكلمات و الروابط اللغوية المتواترة في الاستعمال، الشيء الذي يسهل عليه القراءة والفهم والتواصل.

- استثمار حكايات تروج معجما وأساليب وتراكيب لغوية تساعد المتعلم على تنمية رصيده اللغوي وعلى اكتساب الطلاقة وتحصيل الفهم بشقيه (فهم المسموع والمقروء).

- تنمية الاستراتيجية و المهارات القرائية بالتدريج (مهارات لتنمية الوعي الصوتي و المبدأ الألفبائي و المفردات و الطلاقة و الفهم).

و يقتضي التعليم الصريح سواء فيما يخص مجال الحكاية أو القراءة ، من أجل بناء الكفاية المعجمية، الاشتغال بطريقتين:

1- طريقة التفويض التدريجي لمسؤولية بناء التعلّمات.

2- طريقة استراتيجيات المفردات.

فالطريقة الأولى تتدرج ضمن المبادئ المتداولة في تدريس القراءة و هما: "مبدأ التفويض التدريجي للمسؤولية" و "مبدأ التدريس الصريح و المباشر لمهارات القراءة". إنهما مبدأان يتيحان الانتقال التدريجي لمسؤولية بناء التعلّمات من المدرس (ة) إلى المتعلم (ة) لتمكينه من امتلاك مفاتيح القراءة بدل اكتفائه بتلقي الشروح التي يقدمها المدرس (ة).

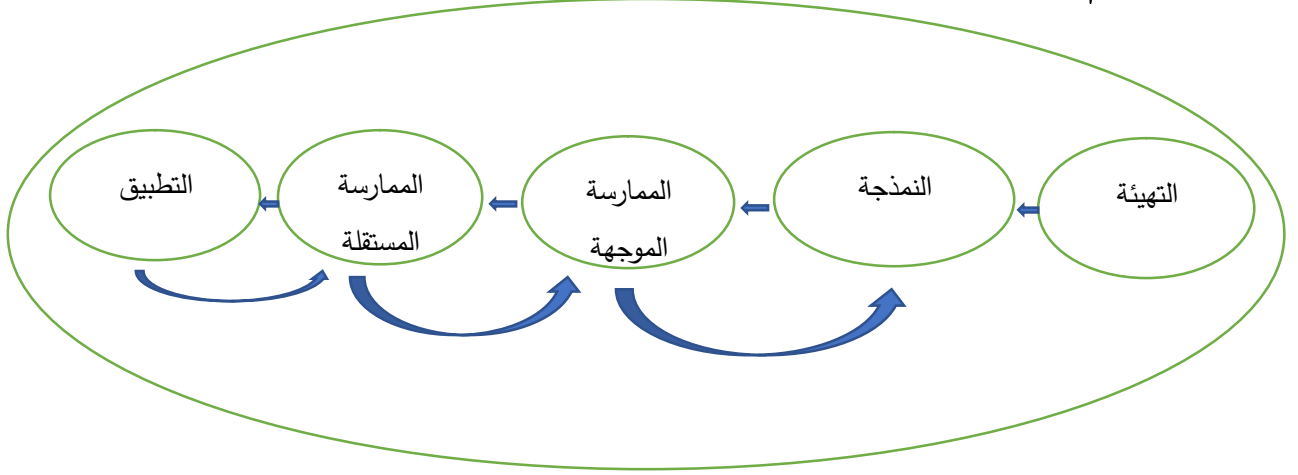
و ذلك من خلال صيغتين بحسب طبيعة موضوع التعلم.

• صيغة استخدام الخطوات الإجرائية لتنمية مهارات القراءة، حينما يكون موضوع التعلم محصورا في عنصر محدد، كما هو الأمر في تعلم مهارات الوعي الصوتي و الربط بين الحروف و الأصوات. و ترسيخ المعجم....

• صيغة استراتيجيات القراءة، حين يتعلق الأمر بمهارات تتطلب عمليات مركبة يحصل تنوع في إنجازها، مثل التحليل و التأويل و الاستنتاج و التركيب و التقويم (وهاس: 2016، ص: 12).

و يمكن التمثيل للخطوات الإجرائية بالخطاطة التالية (وفق ما ورد في المنهاج الدراسي : يوليو 2021):

بيئة تعلم آمنة



التهيئة: يوضح الأستاذ(ة) للمتعلمين والمتعلمات المهارة التي سيتعلمونها لمساعدتهم على تحديدها.
النمذجة: يقدم الأستاذ(ة) نموذجا توضيحيا لكيفية أداء المهارة أو تطبيق الاستراتيجية.
الممارسة الموجهة: يقوم المتعلم (ة) بممارسة المهارة أو الاستراتيجية للمرة الأولى بدعم من الأستاذ(ة)،
الممارسة المستقلة: يمارس كل متعلم (ة) المهارة بصورة مستقلة، مع استمرار الدعم من الأستاذ(ة) متى
كانت هناك حاجة إليه.
التطبيق: يطبق المتعلم (ة) المهارة المتعلمة في مواقف جديدة حتى يتم إتقانها.

اما الطريقة الثانية، الخاصة باستراتيجيات المفردات، فتتحدد فيها الاستراتيجيات كالتالي:

مثال	توصيفا	الاستراتيجية															
	أضع كلمة "مرض" وسط دائرة على السبورة. كما في المخطط الشمسي. ثم أطلب من المتعلمين والمتعلمين ذكر جميع المفردات ذات الصلة بالكلمة المفتاح.	شبكة المفردات															
	أضع الكلمة في وسط الدائرة وفق الشكل المقابل. وأطلب من المتعلمين والمتعلمين البحث عن نوعها ومعناها ثم ضدها وتوظيفها في جملة	خريطة الكلمة															
<table border="1"> <tr> <td>معدود</td> <td>مُعَدَّ</td> <td>يُعَدُّ</td> <td>أُعَدُّ</td> <td>عَدَّ</td> </tr> <tr> <td>محسوب</td> <td>مَحْسُوب</td> <td>يَحْسُبُ</td> <td>أَحْسَبُ</td> <td>حَسَبَ</td> </tr> </table>	معدود	مُعَدَّ	يُعَدُّ	أُعَدُّ	عَدَّ	محسوب	مَحْسُوب	يَحْسُبُ	أَحْسَبُ	حَسَبَ	توليد مشتقات صرفية من كلمة معينة. ومن استخدام معلومة يقدمها النص لاكتساب معلومات أخرى تغي معجم المتعلمين والمتعلمين.	الاشتقاق (عائلة الكلمة)					
معدود	مُعَدَّ	يُعَدُّ	أُعَدُّ	عَدَّ													
محسوب	مَحْسُوب	يَحْسُبُ	أَحْسَبُ	حَسَبَ													
<table border="1"> <tr> <td>هادئة</td> <td>صغيرة</td> <td>بسيطة</td> <td>في مدينتي بيوت</td> </tr> <tr> <td>ضيقية</td> <td>شاسعة</td> <td>نظيفة</td> <td>شوارع مدينتي</td> </tr> <tr> <td>قديمة</td> <td>كبيرة</td> <td>رائحة</td> <td>بركة مدينتي</td> </tr> </table>	هادئة	صغيرة	بسيطة	في مدينتي بيوت	ضيقية	شاسعة	نظيفة	شوارع مدينتي	قديمة	كبيرة	رائحة	بركة مدينتي	إضافة صفة لتخصيص كلمة معينة (كلمة + صفة).	الصفة المضافة			
هادئة	صغيرة	بسيطة	في مدينتي بيوت														
ضيقية	شاسعة	نظيفة	شوارع مدينتي														
قديمة	كبيرة	رائحة	بركة مدينتي														
<table border="1"> <tr> <th>المعنى في السياق</th> <th>الكلمة</th> <th>الجملة</th> </tr> <tr> <td>تصبي</td> <td>أخذ</td> <td>أخذني أبي إلى السينما</td> </tr> <tr> <td>بدأ</td> <td></td> <td>أخذ يكتب على الدفاتر</td> </tr> <tr> <td>يعمل به</td> <td></td> <td>يأخذ للتعليم برأي الأستاذة</td> </tr> <tr> <td>نال</td> <td></td> <td>أخذ الجائزة جائزة</td> </tr> </table>	المعنى في السياق	الكلمة	الجملة	تصبي	أخذ	أخذني أبي إلى السينما	بدأ		أخذ يكتب على الدفاتر	يعمل به		يأخذ للتعليم برأي الأستاذة	نال		أخذ الجائزة جائزة	جرد معان متعددة للكلمة الواحدة. وهو ما يوصف لغويا بالمشارك اللفظي.	المعاني المتعددة
المعنى في السياق	الكلمة	الجملة															
تصبي	أخذ	أخذني أبي إلى السينما															
بدأ		أخذ يكتب على الدفاتر															
يعمل به		يأخذ للتعليم برأي الأستاذة															
نال		أخذ الجائزة جائزة															
<table border="1"> <tr> <th>المعنى</th> <th>مفاتيح السياق</th> <th>الجملة</th> </tr> <tr> <td>أطلق</td> <td>فلقول خرطوم</td> <td>من فلقول خرطوم</td> </tr> <tr> <td>ساعده</td> <td>الحسن - العون</td> <td>من الحسن يد العون المحتاج</td> </tr> <tr> <td>يسط</td> <td>رحله - كرسي</td> <td>من رحله فوق الكرسي</td> </tr> <tr> <td>أعطى - زود</td> <td>درهم - ألي</td> <td>من ألي درهم</td> </tr> </table>	المعنى	مفاتيح السياق	الجملة	أطلق	فلقول خرطوم	من فلقول خرطوم	ساعده	الحسن - العون	من الحسن يد العون المحتاج	يسط	رحله - كرسي	من رحله فوق الكرسي	أعطى - زود	درهم - ألي	من ألي درهم	استيعاب معنى كلمة من خلال سياق الجملة.	مفاتيح السياق
المعنى	مفاتيح السياق	الجملة															
أطلق	فلقول خرطوم	من فلقول خرطوم															
ساعده	الحسن - العون	من الحسن يد العون المحتاج															
يسط	رحله - كرسي	من رحله فوق الكرسي															
أعطى - زود	درهم - ألي	من ألي درهم															

فكل استراتيجية من استراتيجيات المفردات تتيح للمتعلم إمكانية فهم المفردة معجميا و سياقيا و ترسخ لديه - من خلال التطبيق - القدرة على استرجاعها وفق مقامات تواصلية جديدة.

ونظرا لعدم تمكن الطفل من القراءة والكتابة في بداية مشواره التعليمي ، فإن المفردات اللغوية لا يمكنها أن تظهر إلا في الخطابات الشفوية كالحكايات و الروايات سواء من طرف المدرس مباشرة أو باستعمال بعض الأجهزة السمعية البصرية، و كذا الصور الثابتة التي تسعف في فهم المضمون للكلمة أو العبارة أو النص (الخلوفاي: 2014، ص 12).

كما يتم اقتراح طريقة أخرى، حين يصبح المتعلم قادرا على القراءة و الكتابة، وهي ظهور المفردة بارزة في سياق لغوي سواء أكان جملة أو نصا. كما يمكن للمفردة أن تظهر معزولة عن السياق اللغوي مصحوبة بصورة أو بدونها مما يجعل المتعلم يركز اهتمامه عليها ويسهل تخزينها في معجمه الذهني. إن اكتساب كفاية معجمية يؤشر عليه كون المتعلم يصبح قادرا على:

- التعرف على المفردة شفويا عبر الاستماع و القراءة؛

- كتابتها؛

- تمييزها في الاستعمالات المتعددة؛
 - استنتاج المعنى من خلال قرائن سياقية؛
 - توظيف المفردة في سياق تواصل شفهي و كتابي؛
 - استعمال المفردة وفق الاستراتيجيات المدرجة في الجدول أعلاه.
- و معلوم أن الأنشطة التعليمية الصريحة تمكن من تحسين تعليم و تعلم المعجم و تنمية الكفاية المعجمية للمتعلم، و من ثمة تنمية المهارات الأساسية كالفهم و الإنتاج بلغة سليمة.
- و عليه ، و في إطار الأنشطة التعليمية التي تستهدف بناء الكفاية المعجمية، ينبغي اعتماد تدابير تراعي استراتيجيات المفردات و استراتيجيات القراءة و العلاقات الدلالية القائمة بين الوحدات (معنى المفردة معزولة و في سياق ، معنى حقيقي و معنى مجازي...) و ذلك بشكل صريح في إطار تعاودي وفق ما تقره المقاربة بالكفايات.

3- المعجم المدرسي ودوره في إثراء الرصيد المعجمي للمتعلم:

خص المنهاج الدراسي المغربي للسلك الابتدائي برامح مادة اللغة العربية بستة مجالات مضمونية لكل سنة دراسية ، مخصصا لكل مجال (وحدة تعليمية) معجما وظيفيا ينبغي تملكه بعد أربعة أسابيع من التعلّمات ، قابلا للامتداد حسب مستويات المتعلمين. حيث يشكل هذا المعجم الوظيفي في النهاية ، بوابة لاستيعاب مختلف مجالات المجتمع مستهدفا تلبية حاجات المتعلم وفق مستواه المعرفي و التواصل. إلا أن الحاجة ماسة إلى معجم مدرسي متخصص للسلك الابتدائي ، يستهدف إثناء المهارات اللغوية للمتعلم ، وإثراء رصيده المعجمي ، بالإضافة إلى تزويده بمعارف و معلومات عامة و متنوعة تثري رصيده الثقافي (- لبوخ ، تارش: 2015-ص 159). فوظيفته تتجاوز كونه يشرح مفردات اللغة و يبين معانيها ، إلى تزويد المتعلم بالمعلومات الصوتية و الصرفية و التركيبية و الإملائية للمفردات؛ فبين البنية الصوتية للمفردة و طريقة نطقها، و كيفية كتابتها، كما يبين وظيفتها الصرفية و معرفة اشتقاقات الكلمة، فضلا عن كون بني القدرة الإنتاجية و الإبداعية للمتعلم، و إكسابه الملكة اللغوية اللازمة التي تمكنه من التعبير عن آرائه وأفكاره و مشاعره، و بالتالي تنمي فيه القدرة التواصلية مع محيطه في مختلف الظروف و المقامات و المواقف الخطابية الطارئة في حياته اليومية (نادية زيد الخليل: 2021، ص 6). و الجدير بالملاحظة أن المتعلم حين تعترضه صعوبات تواصلية في وضعيات مختلفة، فإن لا يعود بالضرورة إلى القواعد التركيبية أو الصرفية ، و إنما يعود إلى المعجم لاستقصاء معاني المفردات، تماشيا أيضا مع المقاربة الفاعلية (Approche actionnelle) التي تهتم بالمعنى ضمن مهام لغوية. فالمتعلم يكتشف النظام اللغوي حين يمارس الأنشطة التي يتعلم منها كيفية التواصل باللغة المعنية، وليس من خلال تعلم الأنظمة

اللغوية ثم استخدامها في عملية التواصل. ويلبي تعليم اللغة وتعلّمها القائم على المهام، خصائص المقاربة التواصلية و المقاربة الفاعلية، إذ تتضمن المهمة استخدام اللغة بهدف التواصل مع توجيه انتباه المتعلم إلى المعنى وليس إلى الصيغة اللغوية لكن من دون إنكار أهمية قواعد اللغة أو إهمالها. (محمد مياة:2023، ص1).

و المعجم المدرسي من هذا المنظور، ينبغي أن يقوم على مبدأ التدرج البيداغوجي في انسجام مع المجالات المضمونية للمناهج الدراسي، وفي توافق مع المستوى الدراسي للمتعلم أو مع الفئات العمرية التي تغطي المرحلة الابتدائية حسب شروطها التمهئية، حيث يتم استحضار الارتقاء عبر السنوات انطلاقاً من عمليات الترادف و التضاد و الاشتقاق وصولاً إلى الكلمات الأقل استعمالاً. و تقتضي السيرورة التعليمية أن يتم تحيين المعجم المدرسي وإغناؤه باستمرار بالمفردات الجديدة و الأكثر شيوعاً في التواصل اليومي لتيسير انفتاح الفصل الدراسي على المجتمع و استحضار المجتمع في قلب الفضاء المدرسي، على حد تعبير (جون ديوي).

خاتمة:

تم عملية بناء الكفاية المعجمية عبر تحكّم المتعلم في كل من القدرة المعجمية و المعرفة المعجمية، من منطلق تخزين لأثمة من المفردات بشكل نسقي داخل معجمه الذهني، و باستهداف فهم ظواهر التعدد المعنوي و فهم الترادف مما ينتج عنه تحكّم في مهارات الفهم و الإنتاج . كما يمكن التأكيد على أن الأنشطة التعليمية الصريحة التي تأخذ بعين الاعتبار الانطلاق من معجم اللغة الأم و جعله مطية لاكتساب اللغة المستهدفة، يسهم في تملك المتعلم (ة) لثروة لفظية تسعفه في إثراء كفايته المعجمية.

المراجع:

- 1- ابن علية عبدالسلام ، تعليمية المفردات اللغوية في المرحلة الابتدائية- مقارنة صرفية في تثبيت الملكة الإفرادية لدى المتعلم، مجلة المدونة، المجلد 3 عدد2. (2015).
- 2- الحاج صالح عبد الرحمان ، الرصيد اللغوي للطفل العربي و أهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحاضر، مجلة الممارسات اللغوية، المجلد الأول، العدد الأول، الجزائر، 2010.
- 3- خسارة ممدوح محمد ، التنمية اللغوية: طريق إلى المعاصرة ، مجلة قضايا لغوية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، العدد الرابع، 2017.
- 4- الخلو في فاطمة ، "أثر الكفاية المعجمية في التمكن من اللغة. تطور معايير التمكن من تخزين مفردات اللغة إلى بناء كفاية معجمية"، جامعة محمد V، كلية علوم التربية - الرباط. 2014.
- 5- عبد النوري الحسن ، "دور المعرفة المعجمية في التمكن من اللغة و استعمالها"

- مجلة اللغة و الاتصال ، المجلد 13، عدد 2018، 21 .
- 6- عبد النوري الحسن ، "الثروة اللفظية و انعكاساتها على شخصية المتعلم و قدرته التعبيرية " ، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية ، تصدر عن المركز العربي الديمقراطي برلين، ألمانيا، عدد 29 شتبر 2023.
- 7- لبوخ بوجملين، جموعي تارش، "المعجم التعليمي: مفهومه، خطوات صناعته، المعلومات المقدمة فيه"، مجلة الاثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ديسمبر 2015 م، ع 23 .
- 8- مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي (نسخة يوليو 2020 و 2021) ، وزارة التربية الوطنية و التعليم الأولي و الرياضة ، مديرية المناهج، المملكة المغربية. ص 53.
- 9- مياة محمد ، "أثر مكون الاستماع و التحدث في إنماء الكفاية التواصلية لدى متعلمي السنوات الثلاث الأولى من التعليم الابتدائي "، كتاب أبحاث المؤتمر الدولي السادس عشر للمجتمع التربوي، تركيا، 2022.
- 10- مياة محمد ، " التعليم والتعلم القائم على المهام واكتساب اللغة العربية بالسلك الابتدائي" مداخلة قيد الطبع تم تقديمها ضمن المؤتمر الدولي السابع عشر للمجتمع التربوي يوم 2 نونبر 2023، أنطاليا تركيا، صفحة المؤتمر على الانترنت: www.education-community.org.
- 11- نادية زيد الخير ، دور المعجم المدرسي في تنمية الرصيد اللغوي و المعرفي للمتعلم في المراحل التعليمية الأولى، مجلة الممارسات اللغوية ، المجلد 12، العدد 4، ص 172، ديسمبر 2021.
- 12- وهاس هشام ،"الكفاية المعجمية و استراتيجيات تعلم المعجم"، مجلة الإبراهيمي للدراسات النفسية والتربوية، المجلد 1، العدد 3، شتبر 2019.
- 13- Dodigovic, M & Pilar Agustín-Llach, M. "Introduction to Vocabulary-Based Needs Analysis". in: Vocabulary in Curriculum Planning: Needs, Strategies and Tools. Edited by Marina Dodigovic María Pilar Agustín-Llach. Palgrave macmillan, 2020.
- 14-Schmitt,N (2000) : Vocabulary in language teaching, cambridge-University of Nottingham... Cambridge University Press, 2000.

الجسد في "أوراق حياتي" لنوال السعداوي

The body in "My Papers, My Life" by Nawal El Saadawi

د. أحلام الطويل

جامعة تونس

ahlamattawil@gmail.com

تلخيص:

تناول في هذا المقال نموذجاً من الكتابات النسوية السير ذاتية في مقاربة جندرية تعرض لوضع المرأة في المجتمع العربي، وذلك من خلال "أوراق حياتي" لنوال السعداوي التي لفتت الانتباه إلى التعاطي الجندي مع صورة المرأة على ضوء الثقافات السائدة التي تحتل وجودها في رؤية أنثوية ضيقة. ونقف على خصوصيات التجربة الإبداعية النسوية في علاقة بموضوع الجسد ومحاذير التطرق إليه من وجهة نظر ذكورية. وإن اختيارنا لجنس السيرة الذاتية يبرره ما في هذه الكتابة من حميمية يختلط فيها المرجعي والتخييلي، وهو ما يهيئها لحمل هموم الذات النسائية، ويجعلها قادرة على أن تضطلع بمشروعها التحرري.

الكلمات المفتاحية: الكتابة النسوية- السيرة الذاتية- الجسد- صورة المرأة المشروع التحرري-

Abstract :

In this article, we discuss an example of autobiographical feminist writings in a gendered approach that presents the status of women in Arab society, through "My Papers of My Life" by Nawal El Saadawi, which drew attention to the gendered treatment of the image of women in light of prevailing cultures that reduce their existence to a narrow feminine vision. We examine the specificities of the feminist creative experience in relation to the issue of the body and the prohibitions of approaching it from a male point of view. Our choice of the genre of autobiography is justified by the intimacy of this writing in which the referential and the imaginative are mixed, which prepares it to carry the concerns of the female self, and makes it able to carry out its liberation project.

Keywords: feminist writing - autobiography - the body - the image of women - the liberation project -

المقدمة:

إنّ واقع المرأة العربيّة المتردّي والذي هو نتاج لواقع حضاريّ عربيّ عامّ قد حصر وجودها في مجال أنثويّ ضيق. إذ تضافرت المعطيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من أجل تكريس صورة الضعف والدونية التي أظهرت المرأة كائناً محتاجاً إلى وصاية الرجل. وإنّ المتأمل في الكتابات التي تناولت وضع المرأة ومكانتها في المجتمع العربيّ يلاحظ دون عناء أنها كانت كتابات ذكورية حدّدت لنا ملامح صورة المرأة التي لم تتجاوز حدود منظور الرجل وسنن خطابه.

وإنّ هذه الكتابات لم تختزل صورة المرأة في كونها ذات تابعة وغير منتجة فحسب بل حوّلتها إلى موضوع كتابة اختزل النظر إليها باعتبارها جسدا يفتن به الرجل فيتنافس الشعراء والمبدعون في وصف جماله إلى حدّ إخراجها من وحدته وتفكيكه إلى أجزائه للتغنيّ بكل عضو منه على حدة. وهكذا تتراجع القيم الإيجابية التي تجعل من المرأة كائناً حياً له فكر وإرادة، وترسخ صورتها في ثقافة القيم السائدة والتي يحتزلها نيتشة (1844-1900) في قوله: "سعادة الرجل هي- أنا أريد - و أما سعادة المرأة فهي - هو يريد" (غازي الخليلي، المرأة الفلسطينية والثورة، ص19). وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات فإنّ "الكتابة النسائية"، على حدّ تعبير بياتريس ديديه، كانت ممكنة مع اختلاف في شكل التعبير الذي انطلق من اختلاف في البنية السوسيو-ثقافية التي تجعل من الكتابة النسائية تجربة ذات خصوصية في التعامل مع الذاكرة والجسد. فهذه الكتابة هي خرق لصمت السنين، وصيحة فزع لذات ناءت بمحملتها النفسية، وإعادة صياغة للذاكرة وللحقل الذي استبيح على مر العصور. فكان تأسيساً لنمط إبداعي جديد متمرد "بدأ يعلن عن وجوده ويسجل حضوره في الحقل الأدبي الذي كان حكراً على الرجل أو يكاد" (سعاد المانع، النقد النسوي في الغرب وانعكاساته في النقد العربي المعاصر، ص73-74). فالمرأة بدخولها مجال الكتابة تغيّر سؤال هويّتها من موضوع إلى فاعل ومن تابعة إلى منتجة. ولعلّ الجنس السيرذاتي فيه من الحميمية واستكناه الذات ما يجعله أقدر الأجناس على الاضطلاع بهمومها وعلى حمل أعباء المشروع التحرريّ النسويّ، فحين تقول إحدى الكاتبات "كل شيء داخلي يتخالف لكي يمنع عني الكتابة: التاريخ، تاريخي، أصلي، جنسي، كل ما يشكل أناي الاجتماعي الثقافي"

(Jean Dejeux, Littérature magrébine de langue française, p83)

فإنها تعلن عن تمردها على كل المعيقات وعزمها على امتلاك آليات اللغة والكتابة وكفرها بكل ما من شأنه أن يثقل كلمتها. ويمتزج المرجعيّ بالتخييليّ من أجل تحقيق التقارب بين جسد المرأة وواقعها داخل موازنات جديدة تعمد إلى تثوير السائد والمتوارث وإرساء رؤية تحررية ترتقي بالمرأة جسداً وفكراً.

في هذا المجال يتنزل بحثنا محاولة منّا لملاسة مفهوم الجسد عند إحدى رائدات التحرر والتمرد النسويّ الطيبية والأدبية المصريّة" نوال السعداوي" (1931-2021). ولقد اخترنا له عنوان "الجسد في ثلاثية أوراق حياتي لنوال السعداوي" وذلك عبر مقارنة جنديّة، دافعنا في ذلك: -الوقوف على خصوصيّات الكتابة النسويّة وتجربة المرأة الإبداعية. -الاقتراب من كتابات الرائدة نوال السعداوي وجرأتها على تمزيق الشرنقة الذكورية التي نسجتها عصور الاستعباد والتّمكك حول فكر المرأة وجسدها. -الاهتمام بموضوع الجسد بالذات لأنه ظل دائما موضوعا مغيبا لا يسهل، في ظل السائد والموروث، التّطرق إليه أو معالجة قضاياها وتقييم النظرة الذكورية إليه وتقويمها. -مقاربة كتابة الجنس السّيرذاتي عند نوال السعداوي في ضوء المقاربة الجندريّة وما طرحته من إشكاليّات وقضايا في مستوى المفهوم والممارسة.

ولا شك في أن أولى الصعوبات التي تعترضنا في تناولنا لمسألة الجسد في سيرة نوال السعداوي الذاتية هي جدّة هذا الجنس الأدبي وقلة الدراسات التي تناولته بالتّحليل والنّقد. أمّا ثاني هذه الصعوبات فهي أنّه مبحث يفتح على عديد المباحث الأخرى: مبحث "تحرير المرأة"، مبحث "السيرة الذاتية"، مبحث "الكتابة النسوية"، مبحث "الجسد في الأدب العربي" ولذلك فلن يكون من السهل علينا المرور بين هاته المواضيع من أجل الظفر بما وضعناه من أهداف دون الإغراق في إحداها مما قد يشعّب أماننا مسالك البحث. ولقد قننا بتقسيم مقالنا هذا إلى مبحثين: أمّا المبحث الأوّل وعنوانه "السيرة الذاتية النسائية" فننظر خلاله في تناول المرأة لهذا الجنس الأدبي وكيف كتبت المرأة عن ذاتها بعد أن كانت مقصيّة مبعدة، كما نظرنا في تناول نوال السعداوي لسيرتها الذاتية في "أوراق حياتي"، ودوافع هذه كتابتها وموقف الكاتبة من القضية النسوية. وأمّا المبحث الثّاني وعنوانه "قراءة في مفهوم الجسد عند نوال السعداوي" فنقترب فيه من مفهوم الجسد ومن الجسد المجنسن وكيف أعادت الكاتبة تركيب هذا المفهوم.

1-السيرة الذاتية النسائية:

أ-سياق نشأة السيرة الذاتية النسائية:

لقد صنّفت المرأة منذ عصور ضمن تمييز تاريخي جنسي لم يكن يرى فيها أكثر من أداة ووسيط يخدم الآخر. غير أنها منذ انخراطها في العمل السياسي والنضالي في بداية القرن العشرين مع حركات التحرر ضد المستعمر بدأت تخوض حركة تحرر موازية تتمثل في محاولات إثبات الذات والتخلص من

الهيمنة الذكورية. وهو ما جعل كتاباتها وخاصة فيما تعلق بسيرتها الذاتية حاملة لمشروع تحقيق هويتها وتأسيس مكانها بمعزل عن تسلط الرجل وقهر المجتمع الذكوري الذي يحاصر عالمها كله. ولقد ظهرت مناضلات عديدات منهن من أصدرن المجلات والصحف وأقن الصالونات الأدبية وأشهرها صالون مي زيادة الذي كان مركز إشعاع ثقافي وأدبي. وتنامت الحركة النسوية بأطراد مع "هدى الشعراوي" التي أسست الاتحاد النسائي المصري، كما برزت في كتابة السيرة الذاتية العديد من الكاتبات وخاصة اللواتي لهن تاريخ نضالي ضد الثقافة الذكورية وذلك منذ بدايات عصر النهضة العربية وصولاً إلى ثمانينات القرن العشرين مع سيرة "لطيفة الزيات" "حملة تفتيش أوراق رسمية" وسيرة "نوال السعداوي" "أوراق حياتي" والتي تمثل موضوع بحثنا هذا.

وداخل هذا المجتمع الذي يسمها بالدونية ويعتبر كل شيء فيها عورة حتى صوتها، لا يؤخذ خطابها بجديّة ولا يتم الإصغاء إليها باعتبار أنها لا يجب أن تكون أكثر من "جسد"، "كوني جميلة واصمتي" حسب العبارة المستوحاة من الحركة التي تميز "المتحذقات" في القرن السابع عشر. فحين نرصد طبيعة الإيديولوجية المتحكمة في معظم الأمثال والأقوال العالمية المتمحورة حول المرأة نجد أنها تهدف في معظمها إلى تحجيم قدرات المرأة على الفكر والعمل.

ب- الكتابة النسائية: دواعيها وتطورها

يرتبط فعل الكتابة عند المرأة بقضية تحررها. فلرأه وجدت في التخييل مجالاً لانعتاقها من رتبة الموروثات والمسلمات الاجتماعية. وترتبط الكتابة أيضاً بتجربة الذات مع الذات وتجربة الذات مع العالم الخارجي، فتكتسب العملية الإبداعية خصوصية تلون كل عمل إبداعي بلون مميز، لونه له علاقة بمرجعيات المؤلفة وبذاتها المنتجة وأيضاً باختلاف أدوات الرؤية وتجدها لديها، ولذلك فإن العديد من النقاد يرون أن الكتابة عند المرأة تأخذ طابع الكتابة الإبداعية، كما سنلمس ذلك عند نوال السعداوي، وهذا ما يؤكده الباحث التونسي محمد صالح الجابري في قوله: "إن أدبنا ينقصه ما بإمكان المرأة أن تعطيه، ينقصه نبض الحب... ونبض الشرايين المقطوعة منه منذ أزمان... و أزمان" (محمد صالح الجابري، دراسات في الأدب التونسي، ص 27). ويقول الشاعر والمسرحي الفرنسي كلود جوزيف دورا Claude Joseph Dorat (1734-1780) منوهاً بخصوصية الكتابة النسوية: "تحتفظ أغلب النساء الكاتبات في أسلوبهن بطابع من الحنان والحاذية يميزهن، فلهن، إذا أحسن القول، قلوب أكثر ليونة وتمتلكن أفضل من الفن الكبير، فنّ الإنشاء. نستطيع القول بأن فتنة جنسهن تظهر في أعمالهن." (Claude Joseph Dorat, Prôneurs ou Tartuffes littéraires, I)

Prôneurs ou Tartuffes littéraires, I)

ولقد عرفت الكتابات النسائية تطوّرا عبر مراحل تاريخها وصلت بها إلى جنس السيرة الذاتية إذ أن المجتمع، كما ذهبت إلى ذلك بياتريس ديديه (Beatrice Didier, Le journal intime, p 17)، على ما يبدو يفرض على المرأة أجناسا معينة بحكم موقعها داخل بنية النظام العام للمجتمع فكانت المراسلة ملجأ للإبداع النسائي كما كانت اليوميات تحت أسماء مستعارة مرفأ لذات عانت القهر والانكسار. ولئن ارتبطت الكتابات النسائية في بلدان المغرب العربي ومصر بالتطور الاقتصادي والتنموي وبالانفتاح على العالم الخارجي فإن بلدانا أخرى مثل فلسطين تأثرت فيها الكتابات بالنضال وبقضية الوطن. وهكذا فإن الإبداع يصبح لدى المرأة واجهة تعبر من خلالها عن واقعها وعن اختلاجات نفسها.

ج-نوال السعداوي و"أوراق حياتي":

منحت نوال السعداوي عنوان "أوراق حياتي" لسيرتها الذاتية التي قدّمتها في ثلاثة أجزاء. جعلت الكتابة لديها مرتبطة بالحياة ومعادلة لها في "كوجيتو" جديد: "أنا أكتب إذن أنا موجود". هي حياة تولد وتنفّح وتدرك كنه الوجود على الورق بل لا يكون لها وجود خارجه. فيصبح الورق هو الفضاء الوحيد المتاح الذي يمكن المرأة من أن تحلق داخله وتمارس تجربة الحرية كما لم تمارسها من قبل، وإن كانت تجربة صعبة كصعوبة فعل الكتابة نفسه.

تفتتح سيرتها قائلة: "القلم بين أصابعي والصفحة تحت يدي بيضاء. يتحرك القلم دون أن يكتب شيئا." (نوال السعداوي، أوراق حياتي، ص 16) في عملية تكاد تسقط في العبثية وانعدام الجدوى. إذ ما جدوى قلم يتحرك على ورقة دون أن يخط شيئا. وقد يتعلّق الأمر هذه المرة بكتابة شيء مختلف، وبرسم حياة لم تكن سهلة بالمرّة. إنها حياة امرأة أدركت أنّ "اللغة حروفها مقدّسة تخاطب المرأة بصيغة المذكّر". وأدركت "أنّ كلّ شيء مذكّر حتى الإله والشيطان والموت." (نوال السعداوي، أوراق حياتي، ص 16) فنذ البدء تحيلنا الكاتبة على الخاصية الذكورية للكتابة إذ أنّ لغة الكتابة نفسها هي لغة ذكورية تعيش واقع استلاب أدركت نوال السعداوي فظاعته وأدركت أنّ مهمة الكتابة لا بد أن تمرّ أولا بتحرير اللغة من الطابع الذكوري الذي طبعت به.

إنّ الكتابة التي تماهى لدى نوال السعداوي مع الحياة هي كتابة مستلبة وعبثية ولا يكون لها معنى ما دامت لا تستطيع أن تمتلك أدوات صياغتها. فيصبح هاجسها الأوّل هو استرداد وسائل التعبير وإطلاق الكلمات من معاقلها كي تلتمس لها كيانا وتكتسب معاني الوجود.

و حين قالت نوال السعداوي في حوار أجرته معها نجاة نخري مرسي بعنوان "الدكتورة نوال السعداوي في الإبداع والتمرد": "إنّ الأدب النسائي هو ما كتبه النساء بأقلامهنّ وليس ما يكتب عنهنّ وإن كان هناك نساء يكتبن أدبا مختلفا ومعاديا لحرية المرأة فلا يمكن أن نسمي ذلك أدبا نسائيا بالمعنى

الصحيح لأن الأدب النسائي في رأيي هو الأدب الثوري الذي يؤدي إلى التحرر والانطلاق والخلاص من القيود وليس الاستمرار في العبودية والقهر... فهي قد حددت تصورا لما يجب أن تكون عليه الكتابة النسائية أدبا وثقافة وسلاحا ثوريا وثويريا لحلحلة واقع التردّي والرداءة الذي ينغمس فيه قلم المرأة. ولعل ذلك كله قد تزامن مع ما شهدته مصر من أحداث في فترة الستينات من غليان سياسيٍ أحرزت خلاله المرأة مكاسب في قضيتها كالتوانين المنظمة للأسرة وتلك التي وفرت لها فرص التعليم والعمل والمشاركة في الحياة العامة. ولقد قوبلت هذه الحركات بالقمع وتصفية أصوات المعارضة وإضعاف حركة المقاومة ولا سيما الحركات النسوية. ولم تكن نوال السعداوي بمعزل عن هذه الأحداث التي مثلت محطات هامة في حياتها الأدبية وحتى الخاصة. وإنّ "أوراق حياتي"، من هذا المنطلق، لم تكن سيرة تسرد مسيرة حياة امرأةٍ فحسب بل هي رصد لغليان مجتمع بأسره خلخلت خلاله ثوابت ضاربة في القدم، ثوابت قامت عليها دعائم ثقافة توارثتها الأجيال المتعاقبة وسيجتها بكلّ المنوعات والمحرمات. فأسست نوال السعداوي باعتبارها رائدة للحركة النسوية في كتابها "المرأة والجنس" وكتابها "الرجل والجنس" لما يمكن أن نصطلح عليه بالمعالجة "الجنسانية" للرجل والمرأة. فكانت أعمالها رسدا لقضايا ومشاكل المفاضلة بين الجنسين وذلك بتأسيس مساحة للمساواة. ولم تفصل نوال السعداوي بين تحرير المرأة وتحرير الوطن وتحقيق تطوره اجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا فدفعت في سبيل ذلك الكثير من التضحيات التي لمست حياتها الخاصة وحياتها المهنية، فقد منعت في بداية حياتها العملية من ممارسة مهنتها كطبيبة كما فصلت من رئاسة تحرير المجلة الطبية "الصحة". كل ذلك بسبب صدور كتابها "المرأة والجنس" في مطلع الستينات الذي أثار حفيظة الأزهر والطبقة السياسية الحاكمة آنذاك. ورغم ذلك فإنها لم تتوان عن التصريح بأفكارها والاستماتة في الدفاع عنها، فقد تجرأت على عيد الثوابت التي مثلت على مرّ العصور دعائم المجتمع العربي الإسلامي، لدرجة أنّها اعتبرت بعض الشعائر الدينية وثنية وارتدادا إلى عهود التخلف والانحطاط فنادت بالنسوية في الميراث وحتى بنسبة الولد إلى أمه كما عارضت تعدد الزوجات بل عارضت عقد الزواج نفسه واعتبرته صفقة رخيصة لبيع المرأة. ولقد سجنت في عهد السادات لمعارضتها لمعاهدة السلام مع إسرائيل وكتبت من سجنها "مذكراتي من سجن النساء". ووضع اسمها ضمن قائمة الموت حيث اتهمت بالردة. ولقد تفتّح وعيها منذ الصغر على واقع التفرقة بينها وبين إختها الذكور إذ تقول في إحدى مقابلاتها: "في بيتنا عندما كنت صغيرة كان يستفزني كثيرا أن يميّز أخي في المعاملة عني وأن تلقى فتيات الأسر الثرية في المدرسة من الاهتمام ما لا ألقاه فكنت أثور ضد التفرقة الجنسي وضد التفرقة في المعاملة داخل الفصل، لقد ثرت وأنا طفلة في السابعة، لقد ولدت نسوية وولدت أمي نسوية وجدتي كذلك..." (نوال السعداوي، مقابلة صحفية بعنوان "نحن بحاجة لتغيير

جذري للنظام، 2010). ولئن حَقَّقت نوال بعض المكاسب من مسيرتها كصدور قانون تجريم ختان الإناث الذي صودق عليه سنة 2008 إلا أن هذه المكاسب لا ترقى للتعبير عن حجم النضالات التي خاضتها هاته المرأة وهو ما يدلّ على حجم الصعوبات التي تواجهها المرأة العربية ومدى التحدّيات التي تجابهها.

ولقد عبّرت نوال السعداوي عن وعيها التّام بالمكانة الدّونية للمرأة في المجتمع الذّكوري وعن معاناتها الشّخصية في ظلّ هذا المجتمع تقول: "لقد ولدت أنثى في عالم لا يريد إلا الذّكور" (نوال السعداوي، أوراق حياتي، ص 47). ولقد كرّس الخطاب الفلسفي والنّفسي والسّوسولوجي هذه النظرة الدّونية للمرأة ف"أرسطو" اعتبرها كائنا ناقصا وحضورها في "جمهورية" "أفلاطون" كان مرتبطا بالأعمال الوضيعة. أمّا عند "فرويد" فالمرأة تظلّ راغبة بصورة لا واعية في أن تصبح ذكرا، بسبب العامل البيولوجي الذي يجعل منها كائنا مخصيا. ولقد أخرج بعض المفكرين والباحثين تحليل "فرويد" هذا من السياق العامّ المنتج للنظرية والمرتبطة بفتنة معينة من النّساء المريضات اللواتي اهتمّ "فرويد" بحالاتهنّ، ليستطوّه على المرأة عموما ويعملوا بذلك على إقصائها. ويقول "شوبنهاور": "إنّ المرأة لا تصلح إلا لحفظ النّسل وتدوير السّاعة وغسل الصّحون." (غازي الخليلي، المرأة الفلسطينية، ص 19) ولذلك فكلمها تجاوزت حدود ما هو مخصّص لها كلّها اتهمت بالمروق والفساد وبخرق القوانين والدّساتير والتقاليد. فالفتاة يقع إدراجها ضمن منظومة تربية تتعلّم خلالها كيف تكون زوجة وأمّا وابنة... وغيرها من الأدوار التي لزام عليها أن تتقنها، في نطاق الجنس التّابع.

وهكذا تبلور مظاهر الدّونية وتنغرس في المجتمع وتتشكّل تراكما يجعل منها حقيقة لا يرقى شك إلى مصداقيتها فتتحدّد النظرة إلى المرأة باعتبارها جسدا يغري الرجل ويمتعه، فلا يصبح مادّة بيولوجية وواقعا طبيعيا فحسب بل يكون أيضا صنّعة ثقافية واجتماعية. ومن هذا المنظور كان الجسد حاضرا جسما مادّي وقيمة ثقافية ورمزا دينيا على مرّ العصور.

2- قراءة في مفهوم الجسد عند نوال السعداوي:

أ- اختلاف المقاربات في مفهوم الجسد:

من الصّعب أن نعرّف الإنسان باعتباره جوهرًا مجردًا من دون المرور عبر بوابة "الجسد"، فالهوية الشخصية مرتبطة "بالهوية الجسدية"، وللجسد طرق خاصة للتعبير والتواصل، ولغة يمتزج فيها الإيحاء والحجاز. ولعلّ الجسد، بهذا المعنى، هو من يمنح الوجود الإنساني حضوره المادي، فيصبح الوجود الإنساني، بذلك، وجودًا جسديًا. والإنسان عموما يجهل هذا الجسد، يقول "شونتال جاكيت" Chantal (1956): "يجهل الإنسان كلّ شيء، تقريبا، عن جسده، فهو لم ير قطّ أمعاه ونادرا ما

يشاهد دمه، وحتى إن رآه فهو يظل حائراً، ولا تسمح له الطبيعة أن يعرف شيئاً عدا أطرافه وحدود جسده... ولا شيء أكثر فداحة وإثارة للدهشة من قدرة الإنسان على أن يجي في الغموض والجهل بكل ما يلمسه عن قرب وفي العمق" (Chantal Jacquet, Le corps, l'introduction). ويتحدّد الجسد في عموم دلالاته باعتباره صيغة للحضور المادّي الإنسانيّ في العالم وباعتباره واقعا تجسدياً ينتقل بالإنسان من المستوى تصوّري المرتبط بوعيه بذاته إلى المستوى الواقعيّ الجسد للذات في العالم. ولذلك يمكن أن نحدد دلالة الجسد انطلاقاً من سجلات نظرية مختلفة:

أ- الجسد من المنظور الميتافيزيقي:

يعتبر الجسد موطن الشرور وبؤرة الدنس والرذيلة ولذلك لا بد من امتنانه واحتقاره والتعامل معه باعتباره ضرباً من الحضور المخرج الذي يجب التحكم فيه وإخماده. ومع ذلك فقد وجدت شعوب قدّست الجسد وتعاملت معه تقيداً واحتفاءً بقدراته (الفراغنة نموذجاً).

ب- الجسد من المنظور الجينيولوجي:

لقد قام تصور نيتشة على مراجعة جذرية للميتافيزيقا وانتهى به الأمر إلى اعتبار الجسد مرجعاً أصلياً لكل القيم فالجسد بالنسبة لنيثشة هو "كلية عضوية" متألّفة من قوى فعل تؤدّي إلى تجميد كل ما هو حيويّ وغرزيّ، ومتألّفة أيضاً من وقوى ارتكاسية تفضي إلى استهجان الحياة.

ج- الجسد حسب المنظور الفلسفي:

لقد اعتبر "سقراط" أنّ الجسد متعفن وأنّ الرّوح طاهرة، بل إنها هي من تحفظ للجسد طهارته لكنه حالما يتعفن فهي تغادره بالموت إلى نبعها الطاهر. ولذلك لا بدّ من التّمرن على تجنب الشهوات الجسدية واعتزالها وتفضيل الموت طريفاً للانفصال النهائي عن الجسد لإدراك الجواهر في ذاتها وصفاتها، فهو يعتبر أنّ الموت ما هو إلا حياة مؤجلة لا تعدو أن تكون انفصلاً للرّوح عن الجسد، فما الحياة إلا موت بالقوة يمارسه الفيلسوف بإهماله التام لكل ما يتطلّبه الجسد من ملذّات وعناية بالمأكل والمشرب والملبس والجري المبالغ فيه وراء المتع والشهوات.

أمّا فلسفة باروخ سبينوزا فيحتلّ الجسد فيها موقعا مركباً. فالإنسان حسب سبينوزا، يتكون من نفس وجسم. لذلك دعا إلى ضرورة السعي إلى المعرفة الدقيقة بتركيب الجسد، واكتساب معرفة تامة وكاملة بانفعالاته. ويعرّف سبينوزا الجسم بمقدرته على التّأثر والتأثير في الأجسام الخارجية، فكلمها كان للجسم قابلية من هذا النوع، كانت النفس أقدر على الإدراك. وتشير عملية التّأثير والتأثر إلى طبيعة الجسد من حيث مقدار قوته وجلده وشدّته، وإلى خاصية الحركة أو السكون والسرعة أو البطء التي تميزه، ومدى استعداده لإقامة علاقات ممتدة في الزّمن مع أجساد أخرى.

ويشدد سبينوزا على كل ما يصدر عن الجسد من حركة وسكون وسرعة وبطء تربط بين أجزائه العضوية، وتصله بالعالم الخارجي، فلا يتحدد الجسد بواسطة جنسه أو نوعه، أو بواسطة أعضائه ووظائفها، وإنما بواسطة ما يكون قادرا عليه، وبواسطة العواطف التي يطلقها، سواء كان ذلك في الانفعال أو في الفعل. ولهذا ينبغي، حسب سبينوزا، ألا تُحتزل قوة الجسد في الجهاز العضوي، وألا تُحتزل قوة الفكر في الوعي المحدود. فالإنسان هو رغبة ووعي وإدراك للرغبة أي إدراك لنزوع الجسد وميوله.

د- الجسد من المنظور الاجتماعي:

لئن كان الجسد كينونة طبيعية، فإن الثقافة المجتمعية قد منحتة دلالات جديدة، فنظرة الشعوب إلى الجسد - شأنها شأن مقاييس التعامل معه - متعددة ومختلفة باختلاف ثقافات المجتمعات، وتعتبر عمليات التجميل والختان وغيرها... سلوكيات ثقافية الغرض منها إضفاء طابع الثقافة على الجسد. بذلك نخلص إلى أن الجسد يتحدد كصيغة للحضور المادي للإنسان في العالم، فالجسد هو تجسيد، أي انتقال من المستوى التصويري اللامادي المرتبط بوعي الإنسان بذاته إلى المستوى الواقعي المادي. إلا أن هذا التعريف لا ينبغي أن يفهم منه اختزالية الإنسان في الجسد، لأن ارتباطه بالعالم يتحدد على مستويات متعددة وشديدة التعقيد.

ه- الجسد حسب المقاربة الجندرية:

لقد اتسع استعمال مصطلح "الجندر" وانتشر في الأدبيات العالمية خلال فترة الثمانينيات من القرن الماضي التي اتسمت بمناقشات محتمة حول أوضاع المرأة وتناولت مسألة التفرقة بين الذكر والأنثى على أساس الدور الاجتماعي لكل منهما تأثيراً بالقيم السائدة. وفي هذا السياق، تتطلب عملية استجلاء مفهوم الجندر أو "النوع الاجتماعي" التمييز بينه وبين مفهوم الجنس أو "النوع البيولوجي". فبينما يقتصر مصطلح "جنس" على الفروق الثابتة بين الرجل والمرأة، فإن مصطلح الجندر مفهوم دينامي تتفاوت فيه الأدوار التي يلعبها الرجال والنساء تفاوتاً كبيراً بين ثقافة وأخرى ومن جماعة اجتماعية إلى أخرى في إطار الثقافة نفسها، فالعرق، والطبقة الاجتماعية، والظروف الاقتصادية، والعمر، كلها عوامل تؤثر على ما يمكننا أن نصطلح عليه بالتصنيف الجندري. وتبعاً لذلك يمكننا أن نعتبر أن طرح مفهوم الجندر بديلاً لمفهوم الجنس يهدف إلى التأكيد على أن جميع ما يفعله الرجال والنساء وكل ما هو متوقع منهم، فيما عدا وظائفهم الجسدية المتميزة جنسياً، يمكن أن يتغير بمرور الزمن طبقاً للعوامل الاجتماعية والثقافية المتنوعة. ويدلّل الجندر أو النوع الاجتماعي على اجتياز آخر الحواجز على طريق تحقيق العدالة بين الرجال والنساء لأنه يشمل التحول في المواقف والممارسات في كافة المجتمعات. ولقد انفتحت المقاربة الجندرية على النظريات ما بعد النيوية وتبنت الكثير من مفاهيمها

كالنظرية "التفكيكية". ومثل هذا الانفتاح عامل إثراء للجندرية مكنها من دراسة الجوانب النفسية واللغوية والاجتماعية والسياسية والتغلغل في خصوصية الكتابة النسوية. وتقول الناقدة الأمريكية "هيلين سكسو": "إن النقد النسوي لا يشكل منهجا قائما بذاته، لأنه منهج انتقائي استفاد من جميع النظريات السابقة والمعاصرة له." (مفيد نجم، النقد النسوي من الأحادي إلى التعدد في الاتجاهات والمفاهيم والمنطلقات).

3- الجسد في "أوراقي حياتي":

تصدر قضية الجسد لدى نوال السعداوي قائمة كل القضايا التي حملتها سيرتها الذاتية فعرضت في مستهلها جسدا مسجى ومكبلا "جسدي مصلوب فوق منضدة الجراحة في غرفة العمليات. أو ربما هي منضدة المشرحة في كلية الطب. مربوطة الذراعين والساقين بخراطيم من المطاط." (نوال السعداوي، أوراقي حياتي، ص 16). لقد انطلقت الكاتبة من حركة عودة إلى "جسدها"، فالتدقق الأتوبيوغرافي لا يعتمد في هذا المطع على العودة إلى الطفولة والغوص في ذاكرتها، لأن الفضاء الطفولي لا يمثل لنوال السعداوي المجال الأنسب للانطلاق والتدقق السردى الذي قد يتيح لها التنقل بحرية في أزمنتها الخاصة، مثلما هو الشأن بالنسبة لغيرها من كاتبات السيرة الذاتية. ذلك أن الفضاء الطفولي بالنسبة لها هو مساحة ضيقة لا تسمح لها بإثارة القضايا الحقيقية التي تضجّ بها نفسها وهي التي آلت على نفسها أن تحوّل جميع المساحات المحظورة إلى فضاءات للكتابة. ولعلّ حضور الجسد في هذه السيرة هو محاولة من الكاتبة لتحريره من صورة الجسد "المجنس".

أ- تقويض الجسد المجنس:

تصدت نوال السعداوي للثقافة المكرسة لسلطة الجسد والحط من قيمة المرأة واحتزالها في وظائف بيولوجية وفيزيولوجية مجردة دون الالتفات لفكرها. ففي كتابها "المرأة والجنس" بينت أن الفتاة منذ طفولتها يتم تنشئتها على أنها وعاء جنسياً فحسب، إذ أنّها تعرف كيف تكون جسداً جميلاً لا فكر لها ولا عقل. وهي تقول في هذا الإطار: "يربون البنت الصغيرة منذ طفولتها على أنها جسد فقط فتنشغل به طوال حياتها ولا تعريف أنا لها عقلاً يجب أن تنميه". (نوال السعداوي، المرأة والجنس، ص 63) فالجسد يحتزل كل وجودها باعتبارها مصدر المعرفة والعاطفة والإحساس والإدراك واللذة والألم. وقد ظلّ عبر التاريخ الإنساني محاطاً بهالة قدسية له طقوسه الخاصة وحرمة ومرجعياته ووسائله في إخضاع ظواهر السحر والتعذيب وطقوس التطهر والزواج والختان، الخ... فأضحى الجسد البشري يدور في فلك المقدس والمدنس. ولقد وضعت السلطة المجتمعية في أبعادها الأسطورية والدينية والثقافية والعائلية والقبلية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية آلياتها وقوانينها المتنوعة لإخضاع هذا الجسد للرقابة والكتب

والقمع والإمعان في تغريبه عن ذاته وترسيخ حالة الاستلاب التي يعيشها. ولقد تفتّح وعي نوال السعداوي منذ طفولتها على حالة الاغتراب هذه إذ أنّها كانت شاهدة على عمليات انتهاك للجسد الأنثويّ وكانت هي نفسها عرضة لهذا الانتهاك عبر ختانها، وقد يكون مطلع السيرة محيلا على هذه الحادثة من خلال صورة الجسد المسجّى على منضدة التشريح. وتقدّم الكاتبة حالة ولادة "الجسد الأنثويّ" باعتباره حادثا مفزعا. تقول عن الداية لحظة ولادتها: "تكون أول من يطلق الزغرودة إذا ما سقطت عيناها فوق القضيّب، العضو العليّ المبجلّ شبه المقدّس الممنوح للذكور وحسب، أو تكون أول من تتكّس الرأس بوجه كظيم وتصمت صمت الموتى، إذا لم يكن هناك إلا الشقّ، الفرج. التّعيس الملعون منذ حواء." (نوال السعداوي، أوراق حياتي، ص 11) فالوجود الأنثويّ بحدّ ذاته إثم.

لم تكتف الكاتبة بتفكيك قضايا الجسد وسبر أغواره بل مضت إلى إعادة تركيبه وإعطائه مفهوما جديدا بعيدا عن الصورة المتوارثة للجسد "المجنس". فيصبح عرض الجسد، بذلك، في "أوراق حياتي" عرضا لجسد متنام فاعل متحرر. ب-إعادة تركيب الجسد:

إنّ أكبر هواجس المرأة هو هاجس الجسد الذي طالما أوعز لها الإثم والخطيئة. فالحيث العائلي والاجتماعي والتربويّ والدينيّ يجمع بشكل أو بآخر قدرة هذا الجسد على التوّ، وهو ما يحول بينه وبين التعبير عن شواغله وأفكاره. ولقد هيأ الفهم الدينيّ الخاطي والقراءات الضيقة للنصوص الشرعية لتشكّل هذا الإدراك المحدود لأبعاد الجسد الإنسانيّ وإنكار حضوره، الأمر الذي أسس إلى استسلام المرأة للمعتقدات التي تقمع حرّيتها من جهة، وتأسرها في سجن الأنثوية بغضّ النظر عن كيانها الإنسانيّ، من ناحية ثانية. فتعيش داخل هذا السجن باعتبارها أنثى وتغفل عن تحقيق ذاتها باعتبارها امرأة.

ولقد حرصت نوال السعداوي على إعطاء مفهوم جديد لهذا الجسد عبر امتلاكه. تقول: " في الصّباح أفتح عيني فتغمري سعادة مجهولة، أقفز من السرير أندھش من خفة جسمي." (نوال السعداوي، أوراق حياتي، ص 36) لقد أخضعت جسدها للتجربة الإنسانية والاختبار الحياتيّ بكل ما تحمل الكلمة من معنى حين علمت أنّ الجسد جزء لا يتجزأ من الكيان الإنسانيّ، بل هو الحقيقة التي منها نطلق لنبلغ عمق كياننا. وهو قيمة مقدّسة تحتاج إلى فكر حرّ ونقاء قلبيّ وصدق مع الذات لإبراز جماليّاتها. ولذلك فقد تعاملت مع جسدها باعتبارها جسدا قويا، فاعلا، وقادرا على أن يضطلع بما تتوق نفسها لتحقيقه فنجدها تهجر كلّ أدوات الزينة وتنثني الملابس الرجالية وتندرب على حمل السلاح، لأنّ مفهومها للجمال الحقيقي ارتبط بجمال التحرر والاعتناق من ربقة السنن والموروثات. وكان سلاح تحررها هو القلم تمزق به الشرنقة التي تعيق نموها ككائن جدير بالحياة. تقول: "كنت جالسة أكتب تلك

الليلة من شتاء عام 1960، حين دخل زوجي إلى غرفتي. أمامي فوق المكتب تراكت الأوراق، رواية طويلة سهرت عليها طوال الليالي والشهور والسنين، كانت تنمو في أحشائي كالجنين، أحوطها بذراعي، أهدهدها في سكون الليل، رأسي يسقط وينام فوقها وأنا جالسة، أهبط معها إلى بطن الأرض حيث الصمت داخل الصمت كانت الرواية تأخذني إلى عالم آخر، أنسى فيه نفسي وابنتي وإخوتي وأقرب الناس من دمي ولحمي، فما بال رجل ليس من دمي ولا لحمي ولا يربطني به شيء، إلا ورقة زواج." (نوال السعداوي، أوراق حياتي، ص 46) تتحول لحظة الكتابة عندها إلى لحظة ولادة متعسرة، ورحلة داخل الذات وانقطاع عن كل ما من شأنه أن يعيق سريان الدم في العروق الميتة وتدقق الحياة فيها، يأخذ الجسد شكلا جديدا ليصبح مصدر المعرفة والعاطفة والإحساس والإدراك واللذة والألم والوجود.

الخاتمة:

يتّضح لنا في خاتمة هذا البحث أنّ مفهوم "الجسد" يظلّ، عبر المقاربات المختلفة، مشوبا بكثير من الغموض الذي لا يضاويه إلاّ غموض إبداع الكتابة نفسه. وكلّما ازددنا إيغالا في سيرة نوال السعداوي، ازددنا ضربا في مسالك وعرة قد تفضي بنا إلى مجاهل الكتابة النسوية التوّاقة إلى تفجير القوالب الجاهزة وتأسيس حركة تحرّرية نابعة من وعي عميق بضرورة تجاوز التّصورات السائدة وبناء كيان إنسانيّ متحرّر من ربة الاجتماعيّ والثّقافيّ المكرّس. ويصبح الجسد من هذا المنظور كينونة تقول ذاتها عقلا وقلبا وحواسا. ولقد خبرت نوال السعداوي تضاريس هذا الجسد فعمدت إلى تخليصه من غلالات الاستبداد الثّقافيّ ومن قهر المسلمات الاجتماعيّة، وجعلت منه قيمة جمالية لا تنحصر مدلولاتها في تضاريس فيزيائية معيّنة، إنّما تتأثّر وتؤثّر في المنظومة الوجودية برمّتها وتكون بؤرة انفعالات قوية وإيحاءات إبداعية.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- نوال السعداوي، أوراق حياتي، ج3، ط1، مؤسسة هنداوي سي آي سي، 2017.

المراجع العربية:

- سعاد المانع، النقد النسوي في الغرب وانعكاساته في النقد العربي المعاصر، المجلة العربية للثقافة، تونس، ع32 لسنة 1997.

- غازي الخليلي، المرأة الفلسطينية والثورة دراسة اجتماعية ميدانية تحليلية. مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، حزيران (يونيو)، ط1، 1977.
- محمد الصالح الجابري، دراسات في الأدب التونسي، الدار العربية للكتاب، 1978.
- مفيد نجم، النقد النسوي من الأحادية إلى التعدد في الاتجاهات والمفاهيم والمنطلقات، مقالة صدرت بصحيفة تشرين في 17- 11 - 2007
- نوال السعداوي، المرأة والجنس، ط4، دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية، 1990.

المراجع الأجنبية:

- Beatrice Didier, le journal Intime, Edition Cérès.
- Chantal Jacquet, Le corps, Presses universitaires de France, 2001.
- Claude Joseph Dorat, les prôneurs ou le Tartuffe littéraire, Librairie, 1777, I, 1
- Jean Dejeux, Littérature Magrèbine d'expression française, In Revue, juillet 1992.

التذوق الجمالي عند أبي حيان التوحيدي

Aesthetic taste at Abi Hayyan al- Tawhidi

د. يوسف عابدات، باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب.

Dr. Youssef Abidate, Researcher in rhetoric and discourse analysis, Morocco.

Yosf3abidat@gmail.com

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استقصاء بعض النظرات الجمالية في تراثنا العربي، من خلال التوقف عند أحد أبرز المؤسسين لعلم الجمال العربي أبي حيان التوحيدي، واستجلاء مظاهر فلسفته الجمالية؛ باعتباره مفكرا وفنانا وناقدا وفيلسوبا فنيا، جمع بين النقد الأدبي والتفكير الفلسفي، واهتم بشتى فنون الكتابة إلى جانب اهتمامه بموضوع الفن وعلم الجمال والتذوق الجمالي. من هذا المنطلق تقارب هذه الدراسة الإشكالية الآتية: ما آليات التذوق الجمالي في فلسفة أبي حيان التوحيدي الجمالية؟ وتنتزع عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة التي تؤطر مسارها؛ منها ما يرتبط بالجانب المفهومي، ومنها ما يقصد إلى جوهر الدراسة فيما يتعلق بآليات التذوق الجمالي ومظاهرها وتجلياتها، مع الاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي، من خلال عرض جملة من الآراء الجمالية في فكر أبي حيان التوحيدي، وتحليلها لاستجلاء آليات التذوق الجمالي عنده وما تسم به من مميزات وتجليات.

الكلمات المفتاحية: التوحيدي، علم الجمال، التذوق الجمالي، الانفعال، الإدراك.

Abstract :

This study seeks to investigate some aesthetic views in our Arab heritage, through shedding light on one of the most prominent founders of Arab aesthetics, Abu Hayyan al-Tawhidi, and depicting the aspects of his aesthetic philosophy; As a thinker, artist, critic and art philosopher. He was also interested in the various arts of writing, in addition to his interest in the subject of art, aesthetics, and aesthetic taste.

Respectively, this study approaches the following problematic: What are the mechanisms of aesthetic taste in the aesthetic philosophy of Abi Hayyan al-Tawhidi? A number of questions that branch out its course stem from this problem. Some of them are related to the conceptual aspect, while others are intended to study the depth of the mechanisms of aesthetic taste and their manifestations. We will also use the descriptive analytical approach, by presenting a number of aesthetic opinions in the thought of Abi Hayyan al-Tawhidi, and analyzing them in order to clarify the mechanisms of his aesthetic taste, and its characteristics and manifestations.

Keywords : al-Tawhidi, Esthétique, Beauty philosophy, Aesthetic taste, Emotion, Perception.

مقدمة:

اتسم الفكر الجمالي الفلسفي العربي والإسلامي بغزارته؛ مما ساهم في تأصيل نظرية جمالية ذات أسس متميزة، قائمة بذاتها ومستمدة من خصائص المجتمع العربي الذي نشأت فيه، في إطار عملية فكرية مواكبة ومعاصرة للمنحى التشكيلي والجمالي للفنون الإسلامية عموماً.

ومن الجدير بالذكر، أن المفكرين المسلمين الذين أسسوا لهذا العلم كالجاحظ، والكندي، والفارابي، وابن سينا، والآمدي، والتوحيدي، والغزالي، وابن عربي وغيرهم، تناولوا مفاهيم الجمال ومقوماته ومواضيعه، فتركوا لنا مادة جمالية ثرية تسم بالوحدة الفكرية التي تجمع كل النوع في طياتها؛ حيث عرضوا لمفهوم الجمال، وطبيعته، وخصائصه، وعناصره، ومعاييره، وقيمه، واللذة الجمالية، والمعاشة الجمالية، والتلقي الجمالي، والتقويم والتذوق الجماليين، والإبداع، والإلهام، والمحاكاة، والصورة الجمالية، والصورة الفنية، وغيرها من المفاهيم الجمالية التي لازالت تحظى بالاهتمام والبحث إلى حدود اليوم.

من هذا المنطلق، تسعى هذه الدراسة إلى استقصاء بعض النظرات الجمالية في تراثنا العربي، ستوقف هذه الدراسة عند أحد أبرز هؤلاء المؤسسين أبي حيان التوحيدي، لاستجلاء مظاهر فلسفته الجمالية؛ باعتباره مفكراً وفناناً وناقداً وفيلسوفاً فنياً، ومن أوائل العرب الذين اهتموا بوضع علم الجمال العربي، وإغنائه بآراء وأفكار متميزة، تم عن موسوعية ثقافته الجمالية، وعن الذروة التي بلغتها الحضارة العربية الإسلامية في عصره؛ لذلك سنحاول تبيين آرائه الجمالية التي نثرها في كتبه نثر اللؤلؤ بين حبات العقد، سيما في "الإمتاع والمؤانسة" و"الهوامل والشوامل" ثم "المقابسات".

ومن تم تنشأ إشكالية هذه الدراسة حول: ما آليات التذوق الجمالي في فلسفة أبي حيان التوحيدي الجمالية؟ وتنفرد عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة التي توطن مسارها من قبيل: ما المقصود بعلم الجمال وفلسفة الجمال والتذوق الجمالي؟ أين تتجلى أصول هذا العلم في التراث العربي والإسلامي؟ كيف ساهم التوحيدي في إغنائه وبلورة مبادئه؟ وما آليات التذوق الجمالي عنده؟ وأين تتجلى مظاهرها؟

سعيًا إلى الإجابة عن هذه الإشكالية والأسئلة المتفرعة عنها، سيتوسل الباحث بالمنهج الوصفي التحليلي، من خلال عرض جملة من الآراء الجمالية في التراث الإسلامي عموماً، وعند أبي حيان التوحيد

التوحيدي خصوصاً، وتحليلها لاستجلاء سمات التذوق الجمالي في فكره الجمالي، وهو ما سيتم طرحه وفق خطة منهجية تُتأسس على أربعة مباحث تنامي تدريجياً؛ يتناول أولها تحديدات مفهومية تتعلق بفلسفة الجمال، وعلم الجمال، والتذوق الجمالي، ويقدم المبحث الثاني إشارات عن أصول الفكر الجمالي عند العرب والمسلمين، ثم نعرض في المبحث الثالث على حياة أبي حيان التوحيدي ونشأته لاستحضار جوانب من حياته الاجتماعية والعلمية التي وقفت وراء تكوين نظريته الجمالية، والمبحث الرابع يختص بتبين آليات التذوق الجمالي عند التوحيدي عبر مفهومين مركزيين هما الانفعال الجمالي والإدراك الجمالي، ليتم الختم بملخص مقتضب عن مساهمة التوحيدي في بلورة وإغناء نظرية جمالية في الفلسفة العربية من خلال بعض الاستنتاجات المستقاة من منطوق بعض نصوصه الجمالية.

المبحث الأول: تحديدات مفهومية:

قبل الشروع في تقصي بؤادر الفكر الجمالي وأصوله عند العرب، لابد من الاستهلال بالتمييز بين مفهومين أساسيين غالباً ما يتم تناولهما بنفس المعنى، وهما فلسفة الجمال وعلم الجمال، ثم مفهوم ثالث يشكل جوهر الدراسة ومحورها وهو "التذوق الجمالي". فما المقصود بهذه المفاهيم؟

أ- فلسفة الجمال:

فلسفة الجمال نظريات لفلاسفة بحثوا في تفسير الجمال، حيث أشار "فيثاغورس" إلى أن الجمال يقوم على أساس النظام والتماثل والانسجام، بينما "ديمقريطس" يخضع الجمال إلى الأخلاق وربطه بالاعتدال، وأقرنه "سقراط" بالخير والمنفعة، في حين اعتبره "أفلاطون" صورة عقلية تنتمي لعالم المثل، وربطه "أرسطو" بالتآلف والنقاء والإشعاع والتوازن والنظام، وأقرنه "أوغسطين" بتناسق الأجزاء وتناسب الألوان (شاكر، 2001، ص 8).

أما الفلسفة الجمالية الإسلامية فهي نظريات الفلاسفة المسلمين التي تختص في بحث ماهية الشعور الجمالي وإبانة المعايير الأساسية التي تتحكم في قيادة الشعور الجمالي للمتلقي عند إدراكه لمعايير التشكيل الجمالي للمنجز الفني.

ب - علم الجمال:

ظهر علم الجمال على يد باومجارتن الفرنسي حين أصدر كتابه الذي أسماه الإستيطيقا Aesthetic في جزئين عام 1750 م وعام 1780م، وكان يقصد به علم الجميل في الطبيعة وعلم الفن، رغم أن إرهاصات هذا العلم وجدت منذ أن وجد الإنسان، وقد تأثر عند ظهوره علماً بالمذاهب والاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة آنذاك مثل الفلسفة والتحليل النفسي وعلم الاجتماع والاتجاه التاريخي (اليعقوبي، 2011، ص 132).

وفيما يلي بعض التعاريف التي طرحت حوله:

- هو علم الأحكام التقويمية التي تميز بين الجميل والقيح (لالاند، 2001، ص 367)؛
- هو شعبة في الفلسفة تبحث في طبيعة الجمال والتعبير عنه كما في الفنون الجميلة؛
- هو شعبة من الميتافيزيقا في الفلسفة الكنتية تتعلق بقوانين الإدراك؛
- هو مبحث في دراسة الانفعالات النفسية من حيث حس الجمال و التجارب الفنية؛
- هو إدراك ما هو جميل أو ما فيه ذوق في؛
- هو القدرة على الإدراك والإحساس.

ج- التذوق الجمالي:

كان لفلاسفة الإسلام مفاهيم متعددة في الجمال، ومن أشهر هذه المفاهيم التذوق الجمالي الذي شكل مفهوماً مركزياً في النظرية الجمالية. فما المقصود به؟

ليس هناك اتفاق في تعريف التذوق الجمالي، لاتصاله بمجموعة من المجالات التي تختلف فيما بينها، كالفن، والاقتصاد، والتسويق، والأدب، وعلم النفس وغيرها. إلا أننا يمكن أن نعرض لمجموعة من التعاريف التي نتقارب فيما بينها لنستشف على ضوءها الأسس التي يقوم عليها التحديد الاصطلاحي للتذوق الجمالي.

من الناحية اللغوية، فقد ورد في لسان العرب أن الفعل "تذوق" يشير إلى ما يدركه المرء من خلال حواسه ووجدانه (ابن منظور، 1414هـ، 10 / 111-112)، واصطلاحاً يشير التذوق الجمالي إلى:

- "ملكة الحكم على الأعمال الفنية عن طريق الإحساس والتجربة الشخصية دون تقييد بقواعد معينة، وكثيرا ما تدخل في هذا الحكم ميول الفنان وهواياته" (مذكور، 1983، ص 89).

- "القدرة على استمداد السرور واللذة من الأشياء الطبيعية والفنية، والقدرة على تمييز خصائص الأشياء" (Boşca, 2011, p 26).

- وحسب ماركوس نادال فهو: "القدرة التي تمكن الإنسان من تقسيم العالم إلى أشياء جميلة وقيحة، وهي قدرة مبنية على العمليات الإدراكية والعاطفية الموجودة من قبل" (Nadal, 2007, p .IV)

مما سبق، يمكن أن نستشف مجموعة الأسس التي يقوم عليها تعريف التذوق الجمالي، وهي كالاتي:

- التذوق الجمالي ملكة أو قدرة؛

- ينبثق عن حواس المتلقي ووجدانه؛

- يتعزز بخبرات وتجارب وثقافة وتربية.

المبحث الثاني: أصول الفكر الجمالي عند العرب والمسلمين:

إن محاولة تتبع الأصول الفلسفية لمفاهيم الجمال عند العرب، يتطلب معرفة بروح العصر الذي نشأت فيه، والذي سترجم في أفكار الفلاسفة والمفكرين العرب الذين أنشؤوا البنية العامة للمفاهيم الجمالية الفنية في ظل فلسفة جمالية إسلامية متميزة.

يرى محمد علي عوض أن تقدير العرب للجمال قبل الإسلام كان مقتصرًا على الأشياء المادية الحسية مثل جمال المرأة والبعر والفرس والأطلال، واستشهد لرأيه بما ذكره شوقي ضيف في كتابه "العصر الجاهلي" وغيره من النقاد الذين تحدثوا عن الجمال في النقد في العصر الجاهلي (غوري، 2011، ص 129)؛ وإن كان هذا الأمر حقيقة إلا أنها ليست كاملة، حيث عرف العرب - منذ العصر

الجاهلي - الجمال المعنوي أيضا، متمثلا لديهم في الكرم والشجاعة والصبر والبطولة والذكاء والفطنة، وما إلى ذلك...

وحين جاء الإسلام وجه الحس البشري إلى الجمال في كل شيء، وسعى إلى تحريك الحواس المتبدلة لتتفاعل مع كل شيء في هذا الكون. يقول محمد قطب: "الفن الصحيح هو الذي يهين اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كقائيق الوجود" (قطب، د.ت، ص 6).

كما حرص القرآن على تربية الذوق الجمالي في الإنسان المسلم، فوجهه إلى أن يلاحظ الانسجام بين الأشياء، وما فيها من أسرار الجمال، ويتأمل في الآفاق ليرى التناسب والانسجام في خلقه تعالى؛ يقول عز وجل: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" [الغاشية: 17] ، وقوله أيضا: "وَلَكُمُ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" [النحل: 6]، ويقول عز من قائل: "وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ" [الملك: 5]...

فهذه الآيات وغيرها توقظ في الإنسان الحس بجمال الأشياء التي تحيط به، والتي قد لا ينتبه إليها لرتابة الحياة من حوله.

كما حرص النبي صلى الله عليه وسلم أيضا على إيقاظ هذا الحس في المسلمين في غير ما من موضع؛ فقال صلى الله عليه وسلم: "إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه، فإن الله جميل ويحب الجمال" (البغدادي، 1983، ص 141)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا" (ابن بطال، د.ت، 446/9)؛ والسحر دائما يقترن بالجمال. وقد روي أن أعرابيا حين سمع قوله تعالى: "فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ" [الحجر: 94]، لم يتمالك أمامها إلا أن سجد، وحين سئل عن ذلك، قال: سجدت لجماله" (غوري، 2011، ص 132).

المبحث الثالث: أبو حيان التوحيدي ونظريته الجمالية:

1- حياته ونشأته:

التوحيدي، علي بن محمد بن العباس أبوحيان، شيرازي الأصل وقيل نيسابوري، صوفي السميت والهيئة، وكان يتأله (يتعبد) والناس على ثقة من دينه، قدم بغداد فأقام بها مدة ومضى إلى الري، وصحب الصحاب أبا القاسم إسماعيل بن عباد وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يجمدهما وعمل في مثاليهما كتابا، وكان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقاه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية وفيلسوف الأدياء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان، سخيף اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والثلب دكانه، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدودا محارفا يشتهي صرف زمانه، ويبيكي في تصانيفه على حرمانه (الحموي، 1993، 1923/5-1924).

ولأبي حيان تصانيف كثيرة منها: كتاب "رسالة الصديق والصدافة"، كتاب "الرد على ابن جني في شعر المتنبي"، كتاب "الإمتاع والمؤانسة"، كتاب "الإشارات الإلهية"، كتاب "الزلفه"، كتاب "المقاسبات"، كتاب "رياض العارفين"، كتاب "تقريظ الجاحظ"، كتاب "ذم الوزيرين"، كتاب "الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي"، كتاب "الرسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة"، كتاب "الرسالة البغدادية"، كتاب "الرسالة الصوفية" أيضا، كتاب "الرسالة في الحنين إلى الأوطان"، كتاب "البصائر"، كتاب "المحاضرات والمناظرات" (الحموي، 1993، 1925/5)...

بالرغم من هذا الإنتاج الغزير والوفير، إلا أنه لم يصلنا من كتبه إلا النزر اليسير - بعدما أحرقتها - وقد التزم في معظمها أسلوبا واحدا، وهو أسلوب المحاوره والمسامرة (إبراهيم، د.ت، ص 88). وفي بغية الوعاة أنه لما انقلبت به الأيام رأى أن كتبه لم تنفعه، وضم بها على من لا يعرف قدرها، فجمعها وأحرقتها، فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق (السيوطي، 1965، 190/2).

اختلف في سنة ولادته كما في سنة وفاته، وقد حاول الناقد التونسي محمد الحبيب الحمادي - بالاعتماد على تحليل أقوال للمؤلف أشار فيها إلى عمره - تدقيق سنة ولادته على شبه يقين بين 317هـ و319هـ (حمادي، 1978، ص 24)، وبالنسبة إلى سنة وفاته ذكر البعض أنها كانت سنة 400هـ، ورجح آخرون أنها كانت سنة 414هـ بعد حياة مضطربة وأيمة (شبيب، 1993، ص 14).

2- نظريته الجمالية:

قدم أبو حيان التوحيدي - في إطار فلسفته الجمالية- رسائل مهمة عن القضايا الأساسية التي كونت على الجمال، وعلى الأخص في كتبه: "الإمتاع والمؤانسة"، و"الهوامل والشوامل" ثم "المقابسات"، التي نثر فيها مجموعة من الملاحظات والآراء الفلسفية حول موضوع الجمال، من حيث طبيعته، ومفهومه، ومعايره وقيمه.. والتي مهد بها الطريق أمام العديد من نظريات الجمال الحديثة والمعاصرة، فأين تتجلى معالم نظريته الجمالية؟

يرى الباحث حسن الصديق أن نظرية الجمال عند التوحيدي تقوم - في جانب منها - على أسس دينية صوفية، حيث يقرر التوحيدي أن صفات الله وأفعاله: "هي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات، لأنها هي سبب حسن كل حسن، وهي التي تفيض الحسن على غيرها، إذ كانت معدنه ومبدأه، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن والجمال والبهاء منها وبها" (التوحيدي، 2001، ص 69).

يعتبر التوحيدي هنا أن جمالية الأشياء مستمدة من الجمال الإلهي الذي يفيض بالحسن على الأشياء كلها؛ لأنها من معدنه، وصدرت منه، فهي تستمد جمالها من جمال مصدرها، وهنا نلحس اختلافا لطبيعة الجمال في نظرية كل من التوحيدي وأفلاطون: "فأفلاطون يرى أن الجميل لا وجود له في هذا العالم بل هو موجود في عالم المثل، والجميل في الأرض إنما هو محاكاة للجميل في عالم المثل، ويستمد جماله منه، بينما يرى التوحيد أن صفات الله وأفعاله هي المثل الأعلى في الحسن وأن الأشياء كلها تستمد جمالها من تلك الصفات والأفعال" (الصديق، 2003، ص 94).

إذا كان التوحيدي في تحديده لطبيعة الجمال قد اعتمد على تربيته الدينية والصوفية أساسا، فإنه في تحديده لمعايير الجمال ومقاييسه قد نحا نحو المنهج الذاتي أو العقلي (الدوقي) أحيانا، حيث ركّز على نسبة الجمال والقبح، فتحدث عن تذوق الجمال، وأنه نسبي ومتغير، إذ لكل إنسان ذوقه الفني والجمالي، كما تحدث عن الأسس التي يقوم عليها الحكم الجمالي بصفة عامة، وفي ذلك يقول التوحيدي: "فأما الحسن والقبح فلا بد له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور، فيرى القبيح حسنا، والحسن قبيحا،

فيأتي القبيح على أنه حسن، ويرفض الحسن على أنه قبيح. ومناشئ [معايير] الحسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي، ومنها بالعادة، ومنها بالشرع، ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة" (التوحيدي، 1424هـ، 112/1).

يلبس التوحيدي هنا خمسة عناصر أو أساسات، تشترك في تكوين الجميل وتؤثر في تقديره، وقد شرحها الدكتور عز الدين إسماعيل على النحو التالي (إسماعيل، 1974، ص 117-118):

1 - العنصر الطبيعي: وهو أن الجميل قد يكون جميلا بحكم تكوينه الطبيعي، كما أن الطبيعة عند التوحيدي هي مصدر الإلهام والإبداع لجميع الفنون.

2- العنصر الاجتماعي: وقد يكون جميلا لأن الناس في المجتمع اعتادوا أن يروا فيه جمالا، وهم يطلقون عليه هذا الوصف.

3- العنصر الديني: وقد يكون جميلا لأن الدين دعا أو ألقت إليه.

4- الأساس الفكري (أو العقلي): قد يكون جميلا لأن البصيرة أو العقل قد أدركا فيه هذا الوصف.

5- عنصر الشهوة: وقد يكون جميلا لأنه يسد الرغبة الشهوانية في الإنسان.

كما برزت جذور هذه النظرية ومعلمها بصورة أوضح لديه، عندما كتب إلى زميله مسكويه في رسالة "الموامل والشوامل" محاولا تفسير ماهية الجمال، ومتسائلا: "ما سبب استحسان الصورة الحسنة؟ وما هذا الولوع الظاهر والنظر والعشق الواقع في القلب والصبابة المتيمة للنفس، والفكر الطارد للنوم والخيال المائل للإنسان؟ أهذه كلها من آثار الطبيعة، أم هي عوارض النفس، أم هي دواعي العقل؟ أم هي من سهام الروح؟ أم هي خالية من العلل الجارية على الهذر" (التوحيدي، 2001، ص 176).

بناء على ما تقدم، تبرز بعض ملامح النظرية الجمالية لدى أبي حيان، وهي نظرية جمعت بين الواقعية والمثالية العقلية الميتافيزيقية، متأثرة بعدة عوامل: تكوينه الديني الصوفي، ونزوعه العقلي الفلسفي، واستطاعت أن تقف جنبا إلى جنب في مصاف النظريات الجمالية الحديثة والمعاصرة بالرغم من تقدمها عليها بمئات السنين.

المبحث الرابع: التذوق الجمالي عند التوحيدي:

ينشأ التذوق الجمالي إزاء الموضوع الجمالي من تقويمات جمالية عند الإنسان مكتسبة من الواقع، ومن الثقافة الاجتماعية، تختلف من إنسان لآخر ومن بيئة لأخرى، كما تجسد في مواقع مختلفة إزاء الموضوع الجمالي، "فالتذوق الجمالي فعل منعكس، يصدر عن النفس التي تستجيب للموضوع الجمالي، الذي يثير فيها خبرتها وتقويماتها الجمالية التي اكتسبتها من العيش في الواقع، وجاءت الثقافة لتصلقها وتميها" (الصديق، 2003، ص 184).

إن عملية التذوق تقتضي وجود طرفين، الطرف الأول هو الإنسان والطرف الثاني هو الموضوع الجمالي، وعندما يتم الاتصال بين هذين الطرفين، يصدر عن الإنسان فعل منعكس يعبر عن تفاعل ذاته مع الموضوع الجمالي، فتتعطل ملكاته العادية وتوقف عن التفكير لتنجذب إلى هذا الموضوع وتغرق فيه، ووسيلتها في ذلك كله الحس والكشف المفاجئ الشبيه بالحدس، وتعبّر النفس عن هذا كله بسلوك انفعالي يظهر نفورها من الموضوع، أو تعلقها به، أو وقوفها منه موقف اللامبالي، فالتذوق الجمالي يبدأ أولاً بالحس، ويعبر عنه بالانفعال ثم ينتقل إلى العقل في عملية الإدراك والتقويم الجمالين. وعليه يتأسس هذا التذوق على شقين: الانفعال الجمالي والإدراك الجمالي. فكيف يفسر التوحيدي دور هذين السلوكين في الوعي بالموضوعات الجمالية وتذوقها؟

1- الانفعال الجمالي:

يعتبر الانفعال الجمالي مشتركاً بين الناس جميعاً، وقد تشاركهم فيه بعض الحيوانات فتحس ببعض أنواع الجمال، ولاسيما الأصوات، وتختلف درجة الانفعال به والقدرة على التعبير عنه من إنسان إلى آخر بحسب عوامل كثيرة، تعود إلى طبيعة الفرد، وثقافته، وخبرته، والظروف التي يمر بها، والزمان والمكان، كما تعود إلى البيئة الاجتماعية والتاريخية، والظروف السياسية والفكرية التي يعيش فيها (الصديق، 2003، ص 137).

ينبه التوحيدي على الفرق بين أنواع الانفعالات، ويبين أن أثرها يختلف في الجسد باختلاف أنواعها، فانفعال الطرب غير انفعال الخوف، وانفعال السرور غير انفعال الحزن، ولكل من هذه الانفعالات مظاهر معينة تبدو على جسد الإنسان المنفعل، وتظهر في سلوكه، يتساءل التوحيدي "لم صار من يطرب الغناء ويرتاح لسماع يمدُّ يده ويحرك رأسه، وربما قام وجال، ورقص ونعرَ وصرخ، وربما عدا

وهام. وليس هكذا من يخاف فإنه يقشعر ويتقبّض، ويواري شخصه، ويغيب أثره، ويخفّض صوته، ويقبّل حديثه؟" (التوحيدي، 2001، ص 375).

فتساؤل التوحيدي هنا يوحى بمظاهر التأثير الانفعالي في النفس إزاء موضوع معين، حيث يؤثر هذا الانفعال في الجسد تأثيراً يولد تغيرات حيوية في الجسم، تختلف مظاهرها من انفعال إلى آخر ومن شخص إلى آخر، وتهدف إلى السيطرة على الموضوع الجمالي الذي أثار ذلك الانفعال، محاولة تملكه إيجابياً عن طريق التعلق به أو سلبياً عن طريق العزوف منه.

وقد علق أبو علي مسكويه على هذه المسألة بقوله: "إن النفس عند السرور تبسط الدم في العروق إلى ظاهر البدن، وإنما عند الغم تحصره، وبانحصار الحرارة إلى عمق البدن وإلى منشئها من القلب ما يكثر هناك البخار الدخاني ويبرزه إلى ظاهر البدن" (التوحيدي، 2001، ص 376). ومؤدى هذا الكلام أن النفس البشرية تعترها حالتان اثنتان: إما أن تكون مسرورة فينبسط بذلك الدم من القلب إلى سائر البدن ويشعر معه الإنسان بالراحة والطمأنينة، أو تكون مغتمة فينحصر بذلك الدم في منشئه وهو القلب، وتولد عنه حرارة تنقبض معها النفس، فيكون البدن في حاجة إلى تنفس شديد يطرد به الفضلة الدخانية التي فيه، ويجلب عبره هواء جديداً صافياً يروح به حرارته الداخلية.

وفي السياق ذاته، تعدد انفعالات النفس إزاء الموضوع الجمالي وتختلف في شدتها، بحيث لا يمكن حصرها أو وضع قانون لها، وتدخل في ذلك عوامل متعددة منها: المزاج، وطبيعة النفس المتلقية، والظروف المحيطة بالتلقي. ويضرب لذلك التوحيدي مثلاً طرب أحد الصوفيين على غناء إحدى الجوارى، فيقول راسماً صورة ساهرة له: "فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض، وتمرغ في التراب وهاج وأزبد، وتعفر شعره، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه، ومن يجسر على الدنو منه، فإنه يعصّ بنابه، ويخمش بظفره، ويركل برجله ويخرق المرقعة قطعةً قطعةً، ويلطم وجهه ألف لكمة في ساعة، ويخرج في العبادة كأنه عبد الرزاق المجنون صاحب الكيل في جيرانك بباب الطاق" (التوحيدي، 1424هـ، 2/271).

يتضح من قول التوحيدي أن النفس قد تصدر حكماً جمالياً إزاء موضوع جمالي معين، فتتفاعل معه بدرجات متفاوتة، ويتخذ هذا الانفعال مظاهر شتى يترجم إلى حركات غير مألوفة قد تخرج صاحبها

عن طوره وتقربه من الجنون، وليس ذلك إلا من شدة انفعاله الناجم عن مدى تأثره أو تذوقه للموضوع الجمالي الذي أثار انفعاله، وفي ذلك اعتراف من التوحيدي بقوة الانفعال الجمالي وأثره في سلوك الإنسان.

2- الإدراك الجمالي:

يعتبر التوحيدي أن الإدراك الجمالي لا يكون واحدا عند كل المتذوقين بل هو نسبي، كما أن المتذوق لا يستطيع أن يحس بالجمال ويدركه إلا بجهد واع، يعتمد على التجربة الإنسانية المكتسبة من الواقع، والمصقولة بالثقافة التي تأتيه عن طريق تزويد العلم والممارسة للعقل بالأسس التي يعتمد عليها في تقييمه وإدراكه لجمالية الموضوع الجمالي، يقول التوحيدي في الإمتاع: "فأما الحسن والقبيح فلا بد له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، فيأتي القبيح على أنه حسن ويرفض الحسن على أنه قبيح. ومناشئ الحسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي، ومنها بالعادة، ومنها بالشرع، ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة، فإذا اعتبر هذه المناشئ صدق الصادق منها، وكذب الكاذب، وكان استحسانه على قدر ذلك" (التوحيدي، 1424هـ، 112/1).

فالتوحيدي يرى أن للحسن والقبيح أشكالا مختلفة باختلاف المنشأ؛ لذا، كان الإدراك الجمالي نسبيا ومختلفا بقدر التفاوت القائم بين الناس في الخبرة والثقافة والعلم والتجربة. ويزيد من حدة هذا الاختلاف اعتماده على الحس فقط، و"شأن الحس أن يورث الملل والكلال، ويحمل على الضجر والكلال، وعلى السامة والابتداع" (التوحيدي، 1929، ص 194-195)، وإذا اعتمد على العقل لا يكون الأمر كذلك؛ لأن "العقل لا يعتريه الملل، ولا تصيبه الكلفة، ولا يمسه اللغوب، ولا يناله الصمت، ولا يتخيفه الضجر" (التوحيدي، 1929، ص 195)؛ فتكون أحكامه أبدية واجبة على حال أزلية لا تتغير (التوحيدي، 2001، ص 354). على هذا الأساس يكون الإدراك الجمالي المبني على الحس سريع الانقضاء والإضمار، ومختلفا من فرد لآخر، وإن بني على العقل فإنه يكون ثابتا وموحدا ومتشابها عند الجميع.

إن للإدراك الجمالي طرفين أساسيين هما: الإنسان المتذوق والموضوع الجمالي المتذوق. فما العناصر التي يستعين بها الطرف الأول لإدراك البعد الجمالي في الطرف الثاني؟

يرى التوحيدي أن للحواس دورا هاما في الإدراك الجمالي، ويخص منها السمع والبصر، معتبرا إياهما أخص الإحساسات بالنفس، يقول: "وما يجب أن يعلم أن السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما النفس في السرّ والعلانية، ومؤنساها في الخلوة، وممداها في النوم واليقظة، وليست هذه الرتبة لشيء من الباقيات، بل الباقيات آثارها في الجسد الذي هو مطية الإنسان" (التوحيدي، 1424هـ، 2/212) ؛ ومؤدى هذا القول أن الحواس مطية للعقل لإدراك جمال الأشياء، وفي مقدمة هذه الحواس السمع والبصر اللذان تبوءا مرتبة عليا عند التوحيدي، وهكذا يتقرر لديه أن إدراك الجمالي الداخلي يكون بالعقل، وإدراك الجمال الظاهري يتأثى بوساطة الحواس، وفي الحالين معا يكون هذا الإدراك نسبيا كما أن الإبداع نسبي كذلك.

إلى جانب أثر الحواس في الإدراك الجمالي، يضيف التوحيدي عاملا حاسما في هذا الإدراك وهو النفس، فما أثر النفس في ذلك؟

يجعل التوحيدي للنفس الأثر الأهم في الإدراك الجمالي؛ إذ إنها تتماهى مع الموضوع الجمالي، وتسعى إلى الاتحاد به والذوبان فيه، فترى في الموضوع ذاتها ورغباتها ونوازعها وشتى مظاهر إحساساتها، وتهدف من ذلك إلى إعادة خلقه من جديد، عن طريق إسقاط ما فيها عليه، لتجعله على صورتها ومثلها، ولتجد فيه معينا لها على اكتشاف جوهرها (الصديق، 2003، ص 161-162)، يقول التوحيدي: "إنّ من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة مُتناسبة الأعضاء في الهيئات والمقادير، والألوان، وسائر الأحوال، مقبولة عندها، مُوافقة لما أعطتها الطبيعة اشتاقت إلى الاتحاد بها، فنزعتها من المادة، واستتببتها في ذاتها، وصارت إياها كما تفعل في المعقولات" (التوحيدي، 2001، ص 178).

فالنفس من منظور التوحيدي تسعى إلى إدراك جمال الأشياء من خلال تذكر الصور الكاملة في ذاتها حول هذه الأشياء، فتشتاق إلى الاتحاد بها إذا رأت فيه كمالها الأول قبل نزولها إلى العالم الأرضي، مع ما يصاحب ذلك من لذة جمالية توفر للإنسان شعورا بالتفوق والاستقرار الداخليين. كما قد يؤدي هذا الإدراك إلى نفورها أحيانا وابتعادها عن الموضوع، إذا رأت فيه ما لا يلائم كمالها، ويعيقها عن تذكر عالمها الأول (الصديق، 2003، ص 162).

ومجمل القول، فالإدراك الجمالي عند التوحيدي آلية مركبة ومعقدة، تتدخل فيها الحواس والنفس، وتتأثر بظروف الواقع الخارجي للإنسان، وما يلفه من أبعاد دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية فضلا عن عاملي الزمان والمكان، وما استقر في ذهنه من تمثلات وتصورات حول طبيعة الأشياء المحيطة به.

خاتمة:

انطلاقاً مما تقدم يمكننا الوقوف عند بعض الاستنتاجات المستقاة من فكر التوحيدي الجمالي نحو:

- إدراك الإنسان للجمال نسبي إذا ما قورن بإدراك الخالق للجمال؛ لأن الخالق يمثل الجمال ذاته.
- يمكن القول أن أبا حيان منح دوراً للمتلقي في جدلية الإدراك الجمالي، رغم أنه لا يمنحه صفة مطلقة؛ لأن إدراك المتلقي يتأثر بإمكانية اجتماع الظروف الممكنة لإدراك الجمال بصورته الكاملة؛
- الجمال واحد لاخلاف فيه، وإنما يكمن الخلاف في تذوقه والإحساس به، وهذا التذوق خاضع للظروف المختلفة التي يعيشها الإنسان؛
- التذوق يبتدئ بالانفعال، وينتهي عند الإدراك؛
- إدراك الجمال المطلق يكون عن طريق العقل وحده، أما إدراك الجمال المادي فيكون عن طريق العقل وبمساعدة الحواس و الطباع و العادات، وبالتالي يكون تذوق الجمال المادي نسبي.

إن هذه الاستنتاجات تمثل نزراً يسيراً من ملاحف فلسفة التوحيدي الجمالية، وهي تعكس إلى جانب ما نثره من أفكار وآراء جمالية في باقي نصوصه إرهابات نظرية فنية وجمالية عربية متميزة، أغنت على نحو متقدم القضايا الأساسية التي شكلت مادة علم الجمال، وبصمته بخصوصية هذا المفكر العربي الفذ.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأمريكية، مصر، 1983.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط 2، 2001.
- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1، 1965.
- جمال مختاري، النظرية الجمالية في فلسفة أبي حيان التوحيدي، جسر المعرفة، مج 8، ع 1، 2022.
- الحبيب شبيل، المجتمع والرؤية، قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1993.
- حسن الصديق، فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي، دار القلم العربي - دار الرفاعي، حلب، ط 1، 2003.
- أبو حيان التوحيدي:
- الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، بيروت، ط 1، 1424هـ.
- المقابسات، تحقيق وشرح حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط 1، 1929.
- الهوامل والشوامل، تحقيق سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2001.
- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، 1983، ج 1.
- زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر- دار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، د.ت.
- عبد الحميد شاكر، التفضيل الجمالي: دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 267، 2001، ص 8.

- عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، القاهرة، دار الفكر العربي، ط 3، 1974.
- علي بن خلف بن بطلال، شرح صحيح البخاري، ضبط نصه وعلق عليه: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، د.ط، ج 9.
- محمد الحبيب حمادي، التوحيدي وقراءة جديدة في الإمتاع والمؤانسة، نشر شركة صفاء للنشر والتوزيع والصحافة، تونس، ط 1، 1978.
- محمد علي الغوري، مدخل إلى نظرية الجمال في النقد العربي القديم، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، باكستان، ع 18، 2011.
- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، د.ت.
- مصطفى عبده، فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1999.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414هـ.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993، ج 5.
- Boşca, I. The Role Of Culture In Shaping Aesthetic Taste and Attitude, Euromentor Journal, Volume Ii, N° 1 Bucharest., 2011, p 26.
- Nadal, M. R. Complexity And Aesthetic Preference For Diverse Visual Stimuli, Doctoral Thesis, Departament de Psicologia Universitat de les Illes Balears, 2007, p IV.

تطور الخطاب النقدي في الجزائر

The Evolution of Critical Discourse in Algeria

د. لبيّة زياني، المركز الجامعي صالحى أحمد النعامة-الجزائر-

Ziani.lebna@cuniv-naama.dz

ملخص:

يتجلى تطور الخطاب النقدي في الجزائر في مراحل متنوعة؛ بداية بفترة الاستعمار، والتي ارتبط النقد فيها بالمقاومة والتعبير عن الهوية الجزائرية تحت الظروف القاسية للحكم الاستعماري. أما بعد الاستقلال، فقد شهد الخطاب النقدي تحولات كبيرة، بحيث اتجه النقد نحو المناهج النقدية في تحليل الأدب والثقافة بما يعكس التطلعات لبناء هوية ثقافية جديدة. فيما يتعلق بالنقد الحدائى، أظهرت المرحلة اللاحقة للاستقلال توجهاً نحو اعتماد مناهج متطورة والتفكير بشكل منهجي في تحليل الأدب والثقافة. مع مرور الوقت، أخذ النقد ما بعد الحدائى يلقي نظرة نقدية على التقاليد الأدبية ويتسم بالتجديد في الأساليب والمفاهيم.

بشكل عام، يمكن القول إن مسار تطور الخطاب النقدي في الجزائر معقد وغنيّ بالتحديات والتغيرات فكرياً ومنهجياً. الكلمات المفتاحية: تطور، الخطاب، النقد، الجزائر، الحدائى.

abstract:

The evolution of critical discours in Alegria unfolds through diverse stages. Beginning with the colonial period, criticism became intertwined with resistance, expressing Algerian identity under the harsh conditions of colonial rule. Post-independence witnessed significant transformations in critical discourse, as critics shifted towards adopting critical methodologies in analyzing literature and culture, reflecting aspirations to construct a new cultural identity.

Concerning modernist criticism, the later stage of independence revealed a tendency towards adopting sophisticated methodologies and systematic thinking in analyzing literature and culture. Over time, postmodern criticism in Algeria has taken a critical view of literary traditions, characterized by innovation in methods and concepts.

In general, it can be said that the trajectory of the evolution of critical discourse in Algeria is complex and rich with intellectual and methodological challenges and changes.

Key words: evolution; discours; critic; Algeria; modernity.

1. مقدمة:

شهد النقد في الجزائر تطوراً ملحوظاً من حيث الرؤية والمضمون والأسلوب والممارسة، فتغيرت ملامحه الفكرية وتبدلت آفاقه المنهجية نتيجة انفتاحه على الثقافة النقدية العربية والغربية؛ ترجمة وتظييراً وتأليفاً، ويعود الأصل في هذا التحول والتطور إلى ظهور المناهج النقدية التي تعاقبت على النصوص الأدبية وتلاقت فيما بينها لتخلق نسيجاً معرفياً يسمح بمكاشفة النصوص.

وقد أدى هذا التطور إلى التباين في الرؤى والممارسة النقدية، وانعكس على مضامين الخطاب النقدي؛ إذ انتقل تدريجياً من خطاب انطباعي ينتمي في نسقه المعرفي إلى النقد الكلاسيكي، إلى خطاب ما بعد حداثي يؤسس لنفسه فضاء معرفياً، وإطاراً مرجعياً، ويحاول بناء هوية نقدية في خضم التراكم الذي تشهده المعرفة الإنسانية.

لقد استلهم النقد في الجزائر مقولات الحدائث وما بعدها، فانتعشت طرائق النقاد في استكناه دلالات النصّ وبنياته الشكلية وجمالياته الفنية، وأخذ الخطاب النقدي يتكوثر فعلياً بفضل الثقافة، مما ولد فكراً ووعياً نقدياً لدى عصابة من النقاد والباحثين في المجال الأكاديمي والتأليفي بشكل عام.

وعليه، فم تمثّل تحولات الخطاب النقدي في الجزائر؟ وكيف أثرت على بنيته وخصوصيته؟

2. تعريف الخطاب النقدي:

أضحى النقد فاعلية إنسانية، ومعرفة من طبيعة خاصة؛ ذلك أنه يبني على فعلي القراءة والكتابة ويتأرجح بينهما لتحدّد طبيعة الفعل النقدي الذي يتدرّج من استثارة المشكل إلى تشخيصه فمعالجته، وهذا في الحقيقة مدار النقد ومساره منذ تشكّله إلى يومنا هذا، وقد تطوّر النقد من التقييم إلى التقييم، وارتقى إلى بناء خطاب مواز للنصّ الأدبي.

يشير مصطلح الخطاب النقدي إلى أنواع مختلفة من الاستخدام اللغوي التي تؤسس الهويات وتبرز الأحكام القيمة والجمالية للنصّ الأدبي، وهو حقل معرفي " يمثّل مجموعة من الممارسات النقدية والأحكام النسبية التي تتمظهر بحسب الزمان والمكان وثقافة المجتمع ورؤى النقاد" (يوسف، 2015، ص12)

ويتأسس هذا المصطلح على الفروق الفردية التي تميّز النوع الأدبي، فهو نشاط وفعل وقول في الآن ذاته يصدر من فرد أو جماعة، في حقبة زمنية، ويكون بمثابة خلاصة تجربة مشتركة عن موضوع أو جنس نقديين، ويرد الخطاب النقدي بوصفه تعليقا وتحليلا لعناصر العمل الأدبي انطلاقاً من معايير نسبية أو سياقية (يوسف، 2015، ص23)، فيتجلّى في شكله النهائي الذي يعبر عن رأي أو وصف أو تقييم، أو أفكار نظرية أو تطبيقية.

والخطاب النقدي ممارسة ونشاط إنساني يصدر من ناقد عارف بطبيعة النصّ الأدبي ومقوماته بمسأله انطلاقا من قراءة معيّنة، وقد يتسم بطابعه المحلي أو العالمي، التراثي أو الحدائثي، لأنه وليد تجربة إنسانية ولحظة زمانية.

ومما سبق نتساءل ماذا يقصد بالخطاب النقدي في الجزائر؟ هل هو خطاب مؤسس على هوية وطنية لنصوص جزائرية؟ أم يقصد به خطاب من لدن ناقد جزائري سواء كان تنظيريا أو تطبيقيا؟ هل خصوصية هذا الخطاب نابعة من بيئة جزائرية وفكر عربيّ فيمكن أن نصفه بالنقد الجزائري الخالص؟ أم هو خطاب أكاديمي لا يمتّ بالصلة للأدب الجزائري؟

سنفترض بداية أنّ الخطاب النقدي في الجزائر؛ كلّ ما كتب من لدن ناقد جزائري، سواء كانت المدونة النقدية أو الأدبية جزائرية أو عربية أو غربية، سواء كان هذا الخطاب أكاديميا أو مؤلفا يعبر عن فكر صاحبه ويؤسس له تنظيرا وممارسة.

وللتوضيح أكثر سنعرض مراحل تأسيسه وتطوره.

3. تشكل الخطاب النقدي في الجزائر:

ترجع أصول النقد في الجزائر إلى القرن الخامس للهجرة، وتعزى بداياته التأسيسية إلى الناقدين عبد الكريم النهشلي المسيلي وتلميذه الحسن بن رشيق الملقب بالقبرواني، حيث تجسّدت صورة النقد لديهما في الكتابة والشعر وقد كانت نابعة من أصول الدرس النقدي العربي القديم (بسو، 2015، ص 128)، كان النقد في هذه الفترة الزمنية على خطى الأولين متمثلا مقولة الصناعة والدائقة الفنية والأحكام الذاتية النابعة من لدن الناقد، ويعتبر امتدادا للنقد العربي القديم في مضامينه ومعايره.

ويشير عبد الله الركبي في كتابه تطور النثر الجزائري إلى أنّ النقد في بلادنا مرّ بثلاثة مراحل، تمتدّ المرحلة الأولى من القرن التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الثانية، أما المرحلة الثانية فتبدأ من بعد الحرب العالمية الثانية إلى الثورة التحريرية، ويؤرّخ للمرحلة الثالثة من الاستقلال إلى يومنا هذا (جديد، 2016، ص 127)، وخلال هذه المراحل شهد النقد في الجزائر تحولات فكرية ومنهجية تنظيرا وتطبيقا، وتطورا معرفيا ملحوظا لغة وأسلوبا وكتابة وممارسة.

يشكل الخطاب النقدي في الجزائر نقطة أساسية في فهم التطور الأدبي والثقافي لهذا الوطن، بدأت بداياته تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي أثر بشكل كبير على الهوية الثقافية للبلاد، فقد تأسس الخطاب النقدي في ذلك الوقت كوسيلة للتعبير عن تحديات المجتمع ومعاناته تحت الاحتلال.

وتعكس بدايات الخطاب النقدي في الجزائر رغبة الكّتاب والنقاد في فهم وتحليل التأثيرات الاستعمارية والتعبير عن رفضهم لها، لذلك تمحور الخطاب حول استكشاف الهوية الجزائرية والتصدي

للظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة. بمرور الوقت، أصبح تأسيس الخطاب النقدي في الجزائر خطوة أساسية نحو بناء هوية ثقافية قوية ومستقلة، حيث ازداد الاهتمام بتطوير مناهج تحليلية متطورة تعبر عن تحولات المجتمع وتطلعاته.

1.3 النقد الكلاسيكي:

تزامن النقد في الجزائر خلال الاستعمار مع الظروف الصعبة التي عاشتها الجزائر، فجاء هشا غير واضح المعالم نتيجة ضعف الأدب آنذاك واقتصر عمل الناقد على تصحيح وتصويب الأخطاء، فكانت الرؤية النقدية جزئية ومقتصرة على الموضوع على حساب الأسلوب والبناء الفني، (يسو، 2015، ص130)، ولم نشهد خطابا نقديا متخصصا وإنما إسقاطا للأحكام الذاتية على الأعمال الأدبية ومحاولات لوضع معايير فنية تحدد خصائص الجنس وتوسى إلى الفصل بين الأنواع الأدبية من خلال النظر في محدداتها اللغوية والأسلوبية .

ولعلّ النقد في هذه الفترة لا يعدو أن يكون مرحلة أولية غير ناضجة أو مكتملة المعالم لأنه عبارة عن " انطباعات نقدية احتضنتها الصحافة ضمن نشاطاتها المختلفة" (شريط، 1999، ص35)، فكان الاهتمام منوطا بالشعر وجوانبه الشكلية برصد الأخطاء اللغوية والتعبيرية، حتى وسم هذا النقد بالانطباعي، ويؤكد يوسف وغيلسي بأن هذه " المحاولات قد جاءت في شكل مقالات مقتضبة، يعوزها التصور النظري والإطار المنهجي، تقوم على النظر الوظيفي (الرسالة) إلى النص الأدبي، برؤية تجزيئية تقوم على تصحيح الأخطاء اللغوية والعروضية التي تعتري النصوص، إضافة إلى بعض التعليقات السطحية العامة (البلاغية خصوصا)، التي تفتقر إلى الشواهد الكافية، فضلا عن نزعة توجيهية صارمة..." (وغيلسي، 2002، ص09)

لقد أسهمت الصحافة في بلورة النقد والممارسة النقدية من جوانب مختلفة، فقد كان لجريدة المنتقد لابن باديس الفضل في نهضة الحركة الأدبية والنقدية، ومثلت مجلة الشهاب منبرا إعلاميا لقضايا متنوعة، في حين خدمت مجلة البصائر حركتي الأدب والنقد بشكل واضح من خلال صدور مقالات تهتم بالأدب والأدباء، وبرزت أعمال نقدية اهتمت بالشعر والنثر، إلا أن الملاحظ على هذه المحاولات أنها تندرج ضمن النقد الصحفي الذي يهتم بتصويب الأخطاء اللغوية دون الخوض في مسائل وقضايا نقدية عميقة تتجاوز هذا المعطى الجاهز.

في فترة الاستعمار في الجزائر، تجسد النقد الكلاسيكي تحديات هائلة تواجهها الأدب والفكر الجزائري. كانت الأعمال الأدبية خاضعة للرقابة الشديدة من قبل السلطة الاستعمارية، مما أثر بشكل كبير على

الخطاب النقدي. ساد الانقسام بين الأدب الذي يخدم الهدف الاستعماري وبين الكتاب الذين سعوا إلى التعبير عن معاناة الشعب الجزائري.

أسم النقد الكلاسيكي في تلك الفترة بالتحفظ والتأني في التعبير عن الانتقادات. فقد كان النقاد يتناولون القضايا بشكل عام ضمن إطارات أدبية مألوفة للسلطات الاستعمارية، وذلك لتجنب التصعيد والمواجهة المباشرة. ورغم ذلك، لم يتردد بعض الكتاب والنقاد في إيجاد مساحات صغيرة للتعبير عن رفضهم للاستعمار واستنكارهم للظلم الذي تعرض له الشعب الجزائري بشكل عام، حتى أضحى النقد في تلك الفترة يعكس حالة من التضييق والقيود التي كانت مفروضة على الفكر والتعبير في ظل الاستعمار. يتضح مما سبق أن طبيعة الخطاب النقدي في الجزائر إبان فترة ما قبل الاستقلال انطباعية لا تتجاوز حدود القراءة السطحية، ومرد ذلك واقع تلك المرحلة وحالة الأدب فيها وقلة البعثات العلمية إضافة إلى تدهور الوضع العلمي والثقافي، لكن لا مناص من القول إنها مرحلة تمهيدية لبناء هوية نقدية تعبر عن وعي وفكر في بدايات تشكله.

2.3 النقد المنهجي الأكاديمي:

بعد الاستقلال أو ما يعرف بالنقد الحديث لا يختلف في بداياته الأولى عما سبقه، ذلك أنه اتخذ مقولة الشكل والجنس الأدبي على عاتقه، ويختلف النقاد في التأريخ للنقد الحديث في الجزائر، فمنهم من يجعل الستينيات بداية النهضة النقدية، بظهور التفكير المنهجي والانفتاح على المناهج الغربية، ومنهم من يجعل السبعينيات بداية ذلك، ومن بين هؤلاء محمد مرتاض يقول في هذا الشأن " النقد الجزائري الحديث قد يؤرخ له بالسبعينيات بعد انتشار مراكز العلم والثقافة، وفتح دور النشر لأبوابها على مصارعها إزاء المثقفين الجزائريين بخاصة، وكثرة تنظيم الملتقيات على المستوى الوطني في المدن الكبرى شرقا وغربا... وهذا معناه أن الحركة الثقافية كانت مزدهرة، وبازدهارها ازدهر النقد الأدبي واهتم به جامعيون بدأوا بمحاولات قد لا ترتقي إلى هذا المفهوم أول الأمر، لكنها رويدا رويدا طفقت تنافس ما ينتج في المشرق والمغرب العربيين" (مرتاض، 2014، ص 270، 269).

وتنصف هذه المرحلة بهمنة النقد الأكاديمي الذي يعتبر بادرة مهمة في تطور النقد في الجزائر، ويعزى أمره إلى جهود الدارسين والباحثين في الجامعات فمنهم من تلقى تعليمه في الخارج فعاد إلى الجزائر حاملا المعارف النقدية بلغتها الأم ومنهم من درس في الجامعات العربية فانفتح على الفكر النقدي في المشرق، وبهذه الصورة انتعش النقد وتغيرت ملامحه، لأن البحوث الجامعية تكشف تعددا ثقافيا وتلاقا فكريا، وتسهم في متابعة الاتجاهات الأدبية والنقدية والمناهج والمصطلحات ومن ثم التأسيس لفكر نقدي.

وتبنى العملية النقدية في بدايات هذه الفترة على " طقوس القراءة الأكاديمية النمطية التجميعية الجامدة التي قصارها الظفر بشهادة جامعة عليا... " (وغليسي، 2002، ص10)، وتنقسم قسمين، قسم يهتم بالشعر حيث توجه النقد إلى النص الشعري " محلّينه بطرائق مختلفة لكنّها لم تك تنأى عن التقليديّة غالباً، ولا أدلّ على ذلك من أنّهم كانوا يقفون عند بيت القصيد، أو لفظ مثير أو صورة برّاقة... وكان أحمد حوحو، وهو الكاتب الأديب، قد ترك بعض اللّمحات النّقدية في الشعر؛ حيث إنّه كان يميل إلى جمال اللّغة، وصحّة الوزن، ولكن من غير أن يعدّ هذين العنصرين هما المقياس الحقيقي للشعر؛ بل إنّه كان يرى أنّ هذه الأدوات لا تكتمل إلاّ بالصدق في التعبير عن المشاعر والإحساسات وخلجات النفس " (مرتاض، 2014، ص261، 260)

وقسم يهتم بدراسة النثر وتحليله فقد عني الناقد " بتحليل النصوص الروائية أو القصصية التي اهتمت بموضوع الأرض والفلاح مجارة للفترة التي كتبت فيها الدراسة، والتي كانت انعكاساً للكلمات القصصية والروائية " (مرتاض، 2014، ص262)، ومردّد هذه الإجراءات النّقدية الاستفادة من المناهج الغربيّة.

أسهمت جهود محمد مصايف، وأبي العيد دودو وعبد الله الركبي وعبد الملك مرتاض، في وضوح الرؤية النقدية ولم تخلو في الآن ذاته من ضبابية المفاهيم وتعقيداتها واضطرابها، لأننا لا نقف " على مناهج نقدية كاملة حسبما هو متعارف عليه في الأوساط النقدية شرقية كانت أو غربية، ولكننا في الحقيقة نجد أنفسنا أمام ملاحح منهجية متفاوت في بروزها ووضوحها من ناقد جزائري إلى آخر " (بن زايد، 1990، ص124)

اتجه النقد إلى التحليل التاريخي والنفسي والاجتماعي، أي ما يعرف بالمناهج السياقية، وقد عرفت هذه الفترة هيمنة النقد الاجتماعي الذي استثمر في النصوص السردية، كما عرفت ظهور البنيوية كمنهج نقدي، وتمّ الانتقال إلى النقد المنهجي الذي يخضع النصوص الأدبية لطرائق وإجراءات تكشف عن جمالياته الفنية.

وتعتبر فترة الثمانينات مرحلة رائدة في النقد الجزائري؛ لأنها تميّزت بتبني المنهج البنيوي في دراسة النصّ الأدبي، فقد عكف النقاد على تمثله تنظيراً وتطبيقاً، وأنتجت بحوث أكاديمية في الجامعة ونشرت كتب علمية تختلف من حيث المضمون، تضمّن بعضها ترجمة للفكر البنيوي، وتضمّن البعض الآخر استثمار مقولات المنهج في تحليل الأدب، ومن رواده عبد الملك مرتاض، وعبد الحميد بورايو، ودليلة مرسل، ورشيد بن مالك، وحسين نحري، ولا بدّ من الإشارة إلى التّباين المعرفي والفكري والمنهجي في

تمثل المنهج البنيوي من ناقد إلى آخر، ذلك أنّ هذه الفترة تعدّ تأسيسية ولا تخلو من التداخل المصطلحي.

هذا وتميّزت فترة التسعينيات " وما بعدها بتوجه النقد الجزائري إلى الممارسة التطبيقية والتركيز على التحليل أكثر من التطبيق، كما نلاحظ بقاء إشكالية تعدد المصطلحات واضطرابها، وكذلك تعدد المناهج وأحيانا تداخلها في الدراسة الواحدة، غير أنّه ما يحمّد لنقد هذه المرحلة التوجه بقوة نحو الأدب الجزائري وبخاصة في الدراسات النقدية الأكاديمية، ولعلّ هذا التوجه هو خطوة فعلية في سبيل الاهتمام بالأدب الجزائري وبالتالى تطويره والدفع من خلاله بالبحث عن خصوصيات وقضايا تؤسس لما يعرف بالنقد الجزائري" (جديد، 2016، ص130)

ما أنتج خلال هذه الفترة يعدّ تطورا حقيقيا في المنجز النقدي في الجزائر؛ لأنه ركّز على المدونة الجزائرية، لكنّه لم يكن نقدا مؤسسا على أبعاد نظرية من عمق الثقافة الجزائرية، ومردّد ذلك تمثل الناقد الجزائري مقولات المنهج النقدي الغربي وتطبيقها على النصّ الأدبي، إلاّ أنّه لا يمكن أن ننكر القفزة النوعية التي تحققت في البحوث الأكاديمية وفي تأليف الكتب التي أضحت مرجعا أساسا للدارسين والمهتمين وطنيا ومغاربيا وعربيا.

إنّ الانتقال التدريجي للخطاب النقدي في الجزائر من المستوى النظري إلى التطبيقي، تولّد شيئا فشيئا نتيجة تطوّر المناهج النقدية الوافدة إلينا، والتي استثمرها النقاد وتبنوها منهجيا في التحليل، معتمدين الانتقاء، بيد أنّ الملاحظ على هذه التجارب أنّها لا تحمل فكرا نقديا، وإنما تطبيقا لمقولات بعينها، ولم يكن هذا النقد نابعا من خصوصية النصّ الشعري أو الأدبي، لقد تمّ التركيز على تطعيم النقد بالإجراءات والرؤى.

لم يبق الخطاب النقدي في بلادنا على حاله، نجده اكتسب مفاهيم وتصوّرات جديدة وجهازا مصطلحيا، اتّصف في أحيان كثيرة بالفوضى والكثرة لاختلاف مشارب النقاد ومرجعياتهم الفكرية، فقد أسّس بعضهم لمصطلح تراثي، واعتمد آخرون الترجمة بأنواعها.

وفي الشقّ الأخير من البحث سنحاول الوقوف على علاقة الخطاب النقدي في الجزائر بالحدّثة وما بعدها وكيف تأثر بها وأثرت فيه؟ وهل توجد حدّثة نقدية في الجزائر؟

4. حدّثة الخطاب النقدي الجزائري: تأثير وملاحم وجهود:

شهد النقد الجزائري في السنوات الأخيرة، تحولات ملهوسة نحو حدّثة الخطاب الثقافي فقد تأثر النقد الجزائري بشكل كبير بالحدّثة، حيث أصبحت أفكار ومفاهيم هذا التيار الفكري تشكل جزءا

حيوياً من منهجيات النقاد، وتتجلى ملامح الحداثة في النقد الجزائري في التحرر من القيم التقليدية واستكشاف أساليب تحليل مبتكرة للنصوص الأدبية.

لقد كان لجهود النقاد الجزائريين دوراً بارزاً في تشكيل الخطاب النقدي الحداثي، حيث قاموا بتبني مناهج تحليلية جديدة تسلط الضوء على التنوع الثقافي والتحوّلات الاجتماعية في الجزائر. بفضل مساهماتهم، تمكن النقد الجزائري من تجاوز القيود التقليدية والتحديات التي فرضها التاريخ الاستعماري. في واقع الممارسة النقدية الحداثيّة، يظهر تركيز النقاد على تفكيك القوالب التقليدية وفهم النصوص بأبعاد متعددة، يمتزج فيها النقد بروح التحدي والابتكار، حيث يسعى النقاد إلى إلقاء نظرة نقدية على التراث الأدبي بروح مبتكرة تعكس تحديات العصر الحديث وتسهم في بناء تراث جزائري حديث يعبر عن تنوع وتطور المجتمع.

تتجلى الحداثة النقدية في ظهور البنيوية كمنهج نقدي يتعامل مع النصّ الأدبي في ذاته ولذاته، ومن ذلك جاء الإقصاء المنهجي للسياق، وتمّ في المقابل اعتماد النموذج اللغوي بموت المؤلف، فالبنيوية تدعو إلى استقلالية العمل الأدبي مستبعدة المعنى ومقصّدة المؤلف، مركّزة على الطابع التجريدي الذي قامت عليه اللسانيات، وبهذه الطريقة انتقلت المفاهيم والتصورات إلى النقد في الجزائر فجدد النقد تصوراتهم وطرائق تعاملهم مع النصّ الأدبي.

أدى انتقال المناهج النقدية الحداثيّة إلى تحديث العقل العربي وتخليصه من شوائب الدراسات السياقية، وهو الأمر الذي عرفه الخطاب النقدي في الجزائر خاصة المنهج البنيوي الذي تمثله عبد الحميد بورايو سنة 1978 في دراسة رائدة، لتتوالى الدراسات مع عبد الملك مرتاض في منجزه الموسوم (بالأغاز الشعبية الجزائرية)، و(النصّ الأدبي من أين وإلى أين؟)، وتأتي هذه المحاولات البكر نقطة تحوّل في التعامل مع المناهج الحداثيّة النسقيّة.

أما المنهج السيميائي فقد نال عناية كبيرة من النقاد الجزائريين ترجمة وتنظيراً وتطبيقاً، وظهر التباين في تعاملهم مع السيميائية في الشعر والنثر، فنجد رشيد بن مالك والسعيد بوطاجين وبورايو، وحسن نحري، ونلح نصيبا وافر من البحوث الأكاديمية في الجامعة الجزائرية التي عنيت بالدرس السيميائي وحاولت التأريخ والتأسيس له انطلاقاً من مفاهيمه الغربية وحاولت التأسيس له عربياً، وصولاً إلى الجانب المصطلحي والممارسات التطبيقية، وتفاوتت هذه البحوث بين النقد ونقد النقد، لكنها لم ترق بعد إلى فكر واضح المعالم.

تطوّرت الدّراسات السّردية في الجزائر من القصص الشّعبي والأمثال إلى القصّة والرواية، وهو تطوّر تزامن مع الإقبال الكبير على السّيميائيات مغاريا وعربيا.

5. الخطاب النقدي ما بعد حدائي في الجزائر:

إذا كانت الحدائة ك مفهوم غربي ملتبس وغير واضح، فإنّ ما بعد الحدائة أشدّ تعقيدا وغموضا وتداخلا، ولعلّ المتبّع لمسار النّقد في الجزائر يجد أنّ النّقاد ينتقلون تلقائيا من مرحلة إلى أخرى، ومن منهج إلى آخر، في ظلّ غياب الوعي النقدي والفكر المؤسّس على قواعد المنطق والعقل، لكنّ هذا الخطاب استفاد " من الإجراءات والنّظريات التي أفرزها النّقد ما بعد الحدائي من نزعة التّفكيكية المتجاوزة لحدود النص، ونظريات التلقّي والهيرمينوطيقا التّأويلية، والنّقد الثقافي، وكذا التّحليل التّداولي للخطاب الأدبي، وهي التي نأمل أن تعزّز النّقد الجزائري، وتحدّد معالمه كمشروع معرفي قد يؤدي إلى بلورة تيار نقدي جزائري "يسو، 2015، ص 141) .

تمثّل ما بعد الحدائة في النّقد الجزائري فترة مثيرة ومعقدة، حيث شهدت تطورات اجتماعية وثقافية، وتحولات جذرية في الفكر والممارسة، فقد تأثرت المرجعية الفكرية لهذه الحقبة بتأثيرات فلسفية متعددة، حيث استخدمت أفكار مفكرين مثل فوكو ودريدا لفهم التحولات الثقافية والهويات المتعددة التي طبعت المجتمع الجزائري. اعتمد النقاد في هذا السياق على المناهج ما بعد الحدائية لفحص وتحليل النصوص الأدبية والثقافية بطرق جديدة.

في إطار المناهج ما بعد الحدائية، سعى النّقاد الجزائريون إلى فكّ رموز النّصوص واستكشاف الجوانب المظلمة والمتناقضة في الواقع الاجتماعي، و تحورت مجهوداتهم حول التّشكيك في القوالب الثقافية التّقليدية واستكشاف طرائق جديدة للتعبير عن تجاربهم الفردية والجماعية.

في تسليط الضوء على النقاد المذكورين، تظهر ما بعد الحدائة بوضوح في مجهوداتهم التي مزجت بين التّأصيل الثقافي الجزائري والتأثير الواضح للفلسفة الما بعد حدائية، فاندجت رؤاهم في تشكيل الخطاب النقدي الجزائري الحديث، مما يبرز دورهم الكبير في توجيه التفكير نحو تجاوز القيود التقليدية وفهم التحولات المعاصرة.

نلس في الخطاب النقدي ما بعد الحدائي في الجزائر جهودا فردية ومشاريع فكرية حقيقية، تختلف في بنيتها ونسقتها المعرفي عمّا كان سائدا من قبل، حيث نجد وعيا نقديا وفهما للخطابات المؤسّسة لهذه المشاريع، ومن أمثلة ذلك اشتغال محمد شوقي الزين على التّفكيكية محاولا توضيح ما آل إليه فكر البنية، ففي كتابه (تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر)*، محاولة رائدة للتعريف بهذا التوجّه من منبعه الفلسفي؛ إذ تضمّن تنقيبا عن نقد المركزية الغربية ورهان العقل المضاد، وتأكيدا على

الكتابة وتفكيك البلاغة ومفاهيم أخرى كالإزاحة، وينبع هذا المشروع الفكري من الاشتغال على فكر جاك دريدا قراءة وترجمة، فشوقي يعمل على معرفة سؤال العقل في سياسة التفكيك والتعامل مع المعنى اللاتباقي.

ومن خطابات ما بعد الحداثة في الجزائر نجد اشتغال وحيد بوعزيز* في كتابه (جدل الثقافة مقالات في الآخرة والكولونيالية والديكولونيالية)، وهي دراسة رائدة في حقل الدراسات الثقافية في الجزائر التي تواكب حركة التجديد ومحاولة التأسيس لنقد ثقافي جزائري، فقد تناول الناقد الحقل التنظيري للدراسات ما بعد الكولونيالية، والاستشراق والثقافة الامبريالية، وتناول فكر مالك بن نبي ونقده للاستشراق، وقد كانت هذه الدراسة من أهم المراكز المعرفية في النقد الجزائري، حيث استلهم إشكاليته الناقد لوئيس بن علي في كتابه عن الاستشراق معيدا الاعتبار لإدوارد سعيد.

إن حركة النقد الثقافي في الجزائر مختلفة عن نظريتها من الخطابات، لما تشهده الساحة من إنتاج علمي وفكري، نجده في أعمال عبد القادر فيدوح* ضمن كتابه الموسوم ب(تأويل المتخيل، السرد والأنساق الثقافية)، اشتغل الناقد على تحليل مدونات أدبية من منظور النقد الثقافي مقتفيا أثر الأنساق المضمرة فيها. كما نجد عمل طارق بوحالة (أسس النقد الثقافي وتطبيقاته في النقد العربي المعاصر) من أهم الدراسات التي مزجت بين الجانب النظري والتطبيقي، وميز فيها بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية، كما أنه أولى عناية خاصة بمشروع محمد بوعزة في كتابه سرديات ثقافية وأثنى عليه.

وغير بعيد عن ذلك، تتصدر أعمال حفناوي بعلي النقد ما بعد الحداثي في كتابه (النقد ومدارات ما بعد الحداثة)، وكتابته (مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن).

إن الحديث عن خطابات ما بعد الحداثة في بلادنا، يقودنا إلى استحضار مؤلف الناقد والباحث محمد بكاي الذي يحمل عنوان (أرخبيلات ما بعد الحداثة)، وهو كتاب تأسيسي وتأريخي لمفهوم ما بعد الحداثة، تمثل الناقد مقولاتها ومناهجها وركز على المنجز الغربي المؤسس لها، في محاولة للتعريف بها.

تتصدر دراسات الناقدة الأكاديمية آمنة بلعلي* ما يمكن أن نسميه النقد النسوي في الجزائر، حيث عكفت على التأسيس لمشروعها الفكري والنقدي منذ البداية، وتجاوزت مقولات النسق المغلق إلى الانفتاح على المناهج النقدية الحداثية وما بعدها، ففي كتابها (الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي) تبنت مقولات التداولية في تحليل الخطاب، وفي كتابها (خطاب الأنساق، الشعر العربي في مطلع الألفية)، تناولت حداثة النص الشعري، وقدمت إضاءات فكرية عن استراتيجية التأويل وتلقي الشعر وفي ذلك نقد مباشر للنبوية، فخصصت جزءا لنموذج شعري جزائري، كما أنها تحدثت عن الرؤية الشعرية النسوية في الخطاب النسوي الجزائري.

تعاقت المناهج النقدية ما بعد الحداثية على النقد في الجزائر، وحظيت باهتمام النقاد أنفسهم، فتباينت دراساتهم بين التنظير والتطبيق، وتجاوزوا حدود الانبهار بها إلى التأسيس لفكر نقدي جديد من أجل صياغة نموذج يقوم على الحوار الجدلي البناء والنقد الإبداعي الموازي للنص الأدبي دون المغالاة في التطبيق التعسفي وأجراً المفاهيم وتقويضها.

6. خاتمة:

إن حركة النقد في الجزائر لا تختلف عن النقد العربي، فهي حركة تعبر عن مسارات التطور الفكري والمنهجي، والانتقال من الخطاب النقدي الانطباعي إلى ما بعد الحداثة، ومن ثم الاهتمام بالعمل الأدبي شعراً ونثراً، وفيما يلي بعض النتائج التي توصل إليها البحث:

- الخطاب النقدي في الجزائر قديم جداً، تمتد أصوله إلى القرن الخامس للهجري إلى يومنا هذا؛

- ينقسم الخطاب النقدي في الجزائر ثلاثة أقسام تتمثل في النقد الكلاسيكي الذي امتد خلال فترة الاستعمار وأتم بتصويب الأخطاء اللغوية والأسلوبية وظهر بشكل تدريجي في الصحافة؛

- يمثل القسم الثاني في النقد الأكاديمي وقد تزامن مع العصر الحديث وتطور المناهج النقدية العربية، وبشكل هذا القسم التطور المنهجي في النضج الفكري والمنهجي تنظيراً وتطبيقاً؛

- ويندرج القسم الثالث في نقد الحداثة وما بعدها، وهو نقد أكاديمي تمثله عصابة من النقاد الجزائريين ترجمة وتأليفاً وفي بحوثهم وتدرّسهم انطلاقاً من البنيوية والسيميائية وصولاً إلى مشاريع لبناء نقد واع يعنى بقضايا الأنساق والإنسان والتأويل والثقافة؛

- واكب الخطاب النقدي في الجزائر التطور المنهجي في المشرق والغرب، لكنه لم يتمأسس بعد ليصنع هويته النقدية المحلية القائمة على خصوصية الأدب الجزائري ونسقه العربي وتراثه الثقافي،

- لا يزال الخطاب النقدي في الجزائر تابعاً للمناهج الغربية وتصورات الحداثة وما بعدها، ولم يرتحن بعد لبناء منظور نقدي، أو صياغة نظرية، فلا يعدو أن يكون تجارب بعضها يخدم الجانب الأكاديمي للنقاد كالتريقات، أو التأليف الأكاديمي؛

- إن النقد في بلادنا يعيش حالة تكوثر عقلي وتطور منهجي.

* محمد شوقي الزين مفكر وناقد و مترجم جزائري، كتابه، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، وكتاب سؤال العقل في سياسة التفكيك، فيها توضيحات ومقاربات فكرية ونقدية للتفكيك ومفاهيمه في التصور الغربي.

*وحيد بوعزيز، مفكر وناقد جزائري، صاحب مؤلف جدل الثقافة، مقالات في الآخريّة والكولونياليّة والديكولونياليّة، دار ميم للنشر، اهتم الناقد بالتأسيس لفكر ما بعد حداثي.

*عبد القادر فيدوح، ناقد جزائري، أستاذ بجامعة قطر سابقا، كُتبه تأويل المتخيّل، السرد والأنساق الثقافيّة، منشورات الجمل، يضمّ الكتاب دراسات تطبيقية عن تمركز الذات في مواجهة الآخر. وله مقال آخر بعنوان الدراسات الخمليّة والتقد الثقافي صادر في مجلّة ذي قار العراقيّة.

*آمنة بلعلي، أستاذة وباحثة وأكاديمية وناقدة جزائرية، تعمل أستاذة بجامعة تيزي وزو، من رواد النقد الجزائري، وباحثة مقتدرة في تحليل الخطاب، والتأسيس لفكر نقدي عربي.

7. قائمة المراجع:

- حمزة بسو، الخطاب النقدي الجزائري والتحوّلات المنظوريّة، مجلّة فتوحات، الجزائر، ع01، -جانفي 2015،
- شريط أحمد شريط، النصّ النقدي الجزائري من الانطباعيّة إلى التفكيكيّة، مجلّة الكتابة، الجزائر سكيكدة، ع02، 1999،
- صالح جديد، تجربة النقد الأدبي الجزائري الحديث من التنظير إلى التطبيق، مجلّة -إشكالات، تمنغست، الجزائر، ع10، ديسمبر 2016،
- علي حسين يوسف، إشكاليات الخطاب النقدي العربي المعاصر، بغداد العراق، الرّوسم -للصحافة والنشر والتوزيع، 1436هـ-2015م
- عمّار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، 1990،
- محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي (بين القديم والحديث)، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2014،
- يوسف وغليسي، النقد الجزائري من اللانسونيّة إلى الألسنيّة، الجزائر، إصدارات رابطة إبداع الثقافيّة، 2002

التضمنين في التواصل.

Implication in communication.

حمزة رشيد/جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب.

Hrachid012@gmail.com

ملخص:

يتم التواصل عبر هيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون وكل ما يشمله آخر ما تم في المكان والزمان". ويصفه عبد الرحيم السوني بأنه تعريف شامل للعالم العملية والواقعية ، الذي يعتبر - من هذا المنطلق-شكلا من أشكال العلاقات الاجتماعية التي توجد فيها مشاركة واعية للأفراد والجماعات ، بحيث لا يمكن التفريق بينهما بحال من الأحوال إلا مجازا في إطار الوجود والمعطيات الفعالة للكائن الحي بحيث يشكلان وحدة لا تتجزأ. ولعل التضمنين من هذا المنطلق، أساس في توجيه العملية التواصلية. كلمات مفتاحية: تضمنين ، تواصل ، عملية تواصلية.

Abstract :

Communication takes place through body forms, movements, tone of voice, words, writings, publications, trains, telegraphs, telephones, and everything that includes the latest happenings in space and time." Abdul Rahim Al-Souni describes it as a comprehensive definition of practical and realistic features, which is considered - from this standpoint - a form of social relations that exist It involves the conscious participation of individuals and groups, such that it is not possible to differentiate between them in any way except metaphorically within the framework of existence and the effective data of the living organism, so that they form an indivisible unit. Perhaps implication, from this standpoint, is a basis for directing the communicative process.

Keywords : implication, communication, communicative process.

مقدمة:

التواصل مفهوم متسع يختلف من خلال تناوله في علم النفس أو في علم الاجتماع أو في الاقتصاد أو في التاريخ... لكنه في عامة الأمر عملية إبلاغ أو نقل الأفكار والمعلومات أو التجارب أو المشاعر، بين طرفين أو أكثر بحيث لا يتم التواصل إلا ضمن بنية اتصالية محددة يأخذ فيها كل طرف وضعية اتصالية

معينة، إما وضعية الإرسال، أو وضعية الاستقبال، أو هما معا بحيث يكون التواصل بشكل تفاعلي ، إما على جهة الموافقة أو على وجه الاختلاف والتعارض، وعليه فإن التضمن يندرج وجوبا ضمن العملية التواصلية.

التضمن في التواصل / العملية التواصلية:

يرى عبد الرحيم السوني أن مفهوم التواصل تعرض لتنوع في التعاريف اختار منها ما جاء في علم الاجتماع حيث وجده تعريفا "جامعا لكل معالم التواصل في أبعاده العملية والواقعية" (السوني، ص2)، وقد اعتمد تعريف عالم الاجتماع الأمريكي شارل كولي Charles Cooley (1864-1929) الذي جاء فيه ما يلي: "التواصل ميكانيزم بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتطور، إنه يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان، فالتواصل حالة من الفهم المتبادل بين نظامين أو كيانين. يكون أحد هذه الأنظمة مرسلًا وقتنا ما ومن ثم يكون الآخر مستقبلاً وفي وقت آخر يتبادل كلا الطرفين المواقع من حيث الإرسال والاستقبال.

بناء على ما سبق، فإن التواصل سلوك إنساني داخل الحياة الاجتماعية، ذلك أن كل سلوك ما هو إلا رسالة ، والرسالة تعني وجود التواصل. بالكلام أو بالصمت، مادام ثمة ما يوجب التأثير في الآخر ولو كان صراخ طفل في مهده.

إن التواصل ظاهرة اجتماعية ترتبط بطبيعة الإنسان وهو ضرورة حتمية للتفاهم والتفاعل مع الآخرين، وهو أي سلوك يؤدي بين المرسل والرسول إليه. وهو أي سلوك لغوي أو غير لغوي مقصود من جانب المرسل الذي ينقل المعنى المطلوب إلى المستقبل ويؤدي إلى الاستجابة بالسلوك المطلوب منه. أما الدكتور طه عبد الرحمن، فيطلق لفظ التواصل على كل ما يتداول بالألسن في القطاعات المعرفية المختلفة ويميز فيه بين:

- نقل الخبر : وهو ما سماه (الوصل)
- نقل الخبر مع اعتبار المتكلم : وهو ما سماه (الإيصال)
- نقل الخبر مع اعتبار المتكلم والمستمع معا : وهو ما سماه (الإتصال). (عبد الرحمن، 1994، ص: 5)
- ومنه كان التواصل سيرورة مستمرة دينامية تشكل نظاما متكاملا، تفاعليا، آنيا متغيرا، غير قابل للتفادي أو التراجع، قصديا تعاقديا، ذا أبعاد متعددة، يجمع بين نية المتكلم وقصدية المخاطب. (البصروي، 2020)
- أما العملية التواصلية فعل منظم غير مرتجل، وهي تتكون من العناصر التالية:
- المرسل : وهو الذي وقعت الرسالة "بحسب أحواله عن قصده وإرادته واعتقاده"
- المرسل إليه: وهو المتلقي المقصود بالرسالة، المعنى بتحليلها وتفسيرها.

- الرسالة : وهي مجموع المعاني المراد توصيلها.
- القناة: وهي الوسيلة التي من خلالها تمرر الرسالة، لغة، صورة، إشارة، أو غيرها.
- السنن: وهو القواعد التعبيرية التي تحكم المرسل في إنتاج رسالته التي يشتركها بالضرورة مع المرسل إليه، بحيث يعبر بنفس لغته.
- الترميز: وهو تحويل المعاني النفسية إلى وحدات رمزية بإمكان المتلقي فكها انطلاقاً من التواضع الجامع بينه وبين المرسل ، سواء كانت كلمات أو ما يصاحبها من أداء صوتي، أو حركات أو إشارات وإيماءات...
- حل الترميز: حيث يقوم المستقبل بحل عقد لساني أو غير لساني يصدره المرسل على أساس نظام مشترك بينهما.
- السياق: هو جو الاتصال المتمثل في مناسبة الرسالة ومحدداتها النفسية والمادية.
- التغذية الراجعة: وهي إشارات المتلقي التي تكشف عن مدى تمكنه من فهم الرسالة.
- التشويش: وهو كل ما من شأنه أن يغير مسار الرسالة ويشوش عليها.
- وفي هذا السياق، لا يمكن إغفال ما جاء به اللساني الروسي رومان ياكوبسون في ما يخص عناصر العملية التواصلية، فبفضل مبادئه في دراسة الظاهرة اللغوية ، وجدت اللسانيات والعلوم الإنسانية الأخرى الطريق مفتوحاً لها لتحرز تقدماً سريعاً. (ياكوبسون، ص: 21)
- يعود الفضل إلى ياكوبسون في انبثاق المقاربة التواصلية أو الوظيفية حول وظيفة التواصل اللساني، التي حدد من خلالها عناصر العملية التواصلية الستة: (Barry , P :9)
- المرسل l'émetteur
- المرسل إليه le destinataire
- السياق le contexte
- قناة الإرسال le canal de transmission
- الوضع اللغوي le code linguistique
- الرسالة المنجزة text réalisé
- فالمرسل يرسل رسالته إلى المرسل إليه، ولكي تكون هذه الرسالة فاعلة ، فإنها تقتضي سياقاً تحيل عليه، سياقاً قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظياً أو قابلاً لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة بعد ذلك، سنناً مشتركاً كلياً أو جزئياً بين المرسل والمرسل إليه، وتقتضي الرسالة أخيراً اتصالاً أي قناة فيزيقية وربطها نفسياً بين المرسل والمرسل إليه، اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه.

وقد قدم ياكوبسون في هذا الصدد وظائف للعناصر التواصلية:

– الوظيفة التعبيرية الانفعالية : وظيفة مركزة على المرسل وهي تعبر بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه.

– الوظيفة الإفهامية: وهي ما تبحث فيه الرسالة عن فرض رد فعل معين، أو التأثير في المتلقي أو القارئ.

– الوظيفة المرجعية: وهي ما يحدد الرجوع و السياق والعلاقات بين المرسل والشئ أو الغرض الذي ترجع إليه.

– الوظيفة الانتباهية: وهي ما يربط بقناة التواصل ويسعى إلى إقامته وتمديده أو فضه.

– الوظيفة اللغوية الواصفة : وهي ما يسمح بتحليل اللغة كظاهرة للدراسة باللغة نفسها.

– الوظيفة الشعرية: وهي ما نركز فيه على الرسالة (الخطاب) في حد ذاته.

وعودة إلى مقال "قوانين الخطاب في التواصل الخطابي" لمحو الحاج ذهبية، نجد أنها تركز على التصور السياقي لتأويل الملفوظات اللغوية، واستعمال اللغة في التواصل وفي الخطاب بواسطة مبادئ عامة على أساس تداولي.

وأشارت في هذا الصدد إلى نظرية "بول غرايس" التي خلقت طريقة جديدة للنظر إلى مشكل التواصل: تتمثل المساهمة الأساسية لـ"غرايس" على المستوى النظري في إدخال مفهوم "التضمين"، والذي يسمح بتفسير الاختلاف بين دلالة الجملة ومعنى الملفوظ، أما على مستوى التواصل، يقترح "جريس" مبدأ عاماً، وهو مبدأ "التعاون".

بناء على ما سبق، فإن مفهوم (التضمين)، جزء من العملية التواصلية الذي يشكل الفارق بين الدال والمدلول، بحيث ينشأ الفارق بين ما يفهم من الملفوظ، وما يقصده المتكلم.

يؤدي مبدأ التعاون إلى التواصل والتفاعل فيما بيننا مهما كانت الظروف المعتمدة والأهداف المتوخاة، فانطلاقاً من ممارستنا للغة، نجد أنفسنا في دائرة التفاعل سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، وسواء رغبتنا في ذلك أو لم نرغب، من هذا الجانب يقتضي الفعل التواصل من المتخاطبين عمليتين متوازيتين: الإنتاج والتأويل، يحيل الإنتاج إلى التلّفظ الذي يرتبط بالمتكلم بالدرجة الأولى، في حين يتطلب التأويل من المتلقي الاستناد إلى عدة وسائل لسانية وغير لسانية. (حمو الحاج، ص: 220)

يعتبر مفهوم "المؤول L'interprétant" بالنسبة لـ"بيرس Peirce" في مركز تعريف التداولية، بحيث انطلاقاً منه يمكن بناء نظرية للكفاءة التواصلية التي تفسر الطرق التي يمارسها المرسلون والمتلقون لغرض الفهم والإفهام.

إن نجاح التأويل يرجع إلى اكتساب الكفاءة اللسانية إلى جانب كفاءات أخرى، وحتى وإن اختلفت في محتواها إلا أنها تشكل نسيجاً متشابكاً يسمح إلى الوصول في بعض الأحيان إلى ما هو غير مصرح به أي الضمني من الأقوال.

يتضمن الدخول في عملية التواصل فكرة أننا نحترم قواعد اللعبة، وهو ما يتحقق بعقد تصريح، فنحن أمام معرفة متعارف عليها بالتعاون. ليست هذه القواعد بإخبارية ولا واعية مثل قواعد التركيب والصرف، ولكن هي مواضع صريحة. تعرض لهذه الإشكالية عام 1960 ، غرايس بعنوان "البيدييات التخاطبية". (حمو الحاج، ص: 220).

ينبغي على المتخاطبين طبقاً لهذا المبدأ تقاسم نوع من الإطار والمشاركة في إنجاح العملية التواصلية حيث يعترف كل واحد منهما بنفسه مثلما يعترف للآخر ببعض الحقوق والواجبات، فيمكن الحديث عن مجال استعمال واستغلال القوانين الذي يتبين من خلال هذه الأمثلة :

أ - إن سيارتي فارغة من البنزين .

ب - هناك محطة لذلك في الشارع المجاور .

نستنتج من هذا المثال المستعمل من طرف غرايس توظيف قانون التوارد Loi de pertinence ، فإذا كان (أ) يفترض أن (ب) يحترم مبدأ التعاون، فإن (أ) يستنتج أن المعلومة التي قدمها له (ب) مفيدة، أي أن المحطة مفتوحة والبنزين متوفر.

يمكن أن يتبين استعمال قانون الكمية Quantité بواسطة (أ) الذي يتضمن (ب)، يفترض المخاطب أن المتكلم قد احترم القانون الأول للكمية، إذ أعطى المعلومة الأكثر قوة، ويستنتج أن العلم في المثال الموالي لا يحمل لوناً آخر

1- العلم أبيض.

2- العلم أبيض كاملاً.

3- العلم أبيض وأسود

4- العلم أبيض جزئياً

5- العلم أسود جزئياً.

نشير إلى أن هذا التضمن لم يبلغ بواسطة (3) ، وكنتيجة لذلك فإن (2) ليست بتضمنين ل (3) وبالعكس (3) يتضمن (4).

وأخيراً يوجد (6) كاستعمال لقانون النظام، إنالمعنى غير الثابت لحرف العطف (و) لا يدخل في دلالتها اللسانية، ولكن لهذا المعنى تضمنين تحادتي (7):

6 - صرخ عمر وبكت أمينة .

7- صرخ عمر ثم بكت أمينة.

وقد ذكرت ذهبية أمثلة على قوانين التواصل الخطابي من بينها:

الصدق والتواضع.

الشمولية والإخبارية.

الشمولية والإفادة.

تؤدي هذه القوانين في انسجامها أحيانا إلى تحقيق الفعل التواصلي، أي أن باحترامها يحقق التواصل أغراضه.

تسمح القوانين الخطابية بالحساب التأويلي للدلالات الضمنية المتفرعة عن الدلالة الجانبية ، فهي تبين أن اللغة لا تعمل على أنها وضع فقط، بحيث تفترض التعبير عن كل المحتويات بطريقة صريحة.

إن قوانين الخطاب أو أحكام المحادثة ليست بقواعد أخلاقية، ولا بقواعد نحوية، ولكن يسمح عملها بانزياح الدلالات "غير المصرح بها"، وبصفة عامة تمكننا من إعادة بناء التبادلات بطريقة لا تخرجها عن الانسجام ولا عن الاتساق.

خاتمة:

يعتبر التواصل عملية تعاقد مبرم بين المتكلم والمتلقي، ينبغي أن تتناسب فيه اللغة مع مقصدية كلا الطرفين، وفيه وجب على المتكلم أن يحترم ما ينتظره هذا المتلقي حتى تتحقق خاصيتي التوافق والتواطؤ.

إن للخطاب في بعده التواصلي سلطة، ذلك أن التحكم في عمليات الفهم والاستيعاب والإدراك يبرهن على أن الفعل التواصلي منظم وليس ارتجالي، ولعل مسألة إنتاج الخطاب المراد توصيله إلى المتلقي تظهر كيف أن تضمين معان مختلفة يؤثر في سيرورة الفهم ، ذلك كون المتكلم يعزز من توصيل ما يريد أو يعيقه عن طريق نوع التلفظ المستعمل في الفعل التواصلي.

المصادر والمراجع:

ذهبية، حمو الحاج ، قوانين الخطاب في التواصل الخطابي.

رومان، ياكوبسون، ست محاضرات في الصوت والمعنى.

سمية ، البصراوي ، محاضرات في الخطاب والتواصل، جامعة محمد الخامس ، 2020.

عبد الرحيم ، السوني، مقدمات في تقريب علم التواصل، منصة الرائد الإلكترونية،

طه ، عبد الرحمن ، التواصل والحجاج، جامعة ابن زهر ، أكادير، 1994.

BARRY ،Alpha Ousmane ، les textes de methodologie.

الرسم المتحركة العربية كصناعة إبداعية، بين رهانات التطوير ونسق الاستهلاك:

Arab Animation as a creative industry, between the commitments of developing and the system of consumption

مصطفى حربال: جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب

البريد الإلكتروني : almustafamouradi2222@gmail.com

ملخص :

أضحت الصناعات الإعلامية والابداعية، من أهم القطاعات الاستثمارية التي تدمج الثقافة، الترفيه، والتعليم بتكنولوجيا الاتصال والتواصل. نسعى من خلال مقالنا هذا، إلى رصد تطور صناعة الكرتون على المستوى العربي، والعوامل المساهمة فيها. بحيث أن إخراج الأعمال المتخصصة الموجهة لجمهور الأطفال يتطلب من الشركات والأفراد العاملين في المجال، مراحل ومهارات متعددة في عملية إبداع المنتج النهائي، فالمنتج الواحد يتطلب من الدقة والمهارة حيزا هاما من الزمن والمجهود، بالإضافة إلى الجوانب المادية والتقنية، وعمليات ما بعد الإنتاج من تمثيل صوتي ومؤثرات وغير ذلك. فالعملية في شموليتها تنطلق من الفكرة والتصميم وتنتهي بالتقنية والإخراج والعرض. ولعل هذا ما يفسر تأخر الاستثمار في هذا المجال في غالب الدول العربية. فما الذي يميز صناعة الكرتون عربيا؟ كيف تطورت هذه الصناعة؟ وماهي أبرز شركات إنتاج الكرتون المشغلة في الميدان؟

كلمات مفتاحية : رسوم متحركة، صناعة، صناعات إبداعية، إعلام موجه، استهلاك، ترفيه، عولمة، تطوير، رأسمال قيمي.

Abstract :

Nowadays, media industries considered as one of the most important investment field that links between culture, entertainment, and education, along with communication technologies. In this article we tend to search the animation industry across the Arab World, through investigating the development of this industry and its consumption. As this specialized productions are prepared for children, the whole operations necessitate from companies and individuals working on it, so many steps and proficiency; and also many techniques, to finally the effects and post production process . All of these may show the time-lag to a local independent industry in the Arab World. So, what characterized the animation production in the Arab World? How it is started? And what are the major animation companies in the region?

Key Words : animation, industry, creative industries, directed media consumption, entertainment, globalization, value capital.

تمامي خلال العقدين الأخيرين عدد القنوات التلفزيونية العامة والمتخصصة، وبرز جماهير مستهلكة، صعبة المراس، لا يتحقق استقطابها بسهولة إلا من خلال أصناف مدروسة من البرامج المتخصصة، الإخبارية والخدمية والترفيهية بالخصوص. ولقد لقيت أصناف هذه البرامج التلفزيونية، وغيرها من الفئات الأخرى التي يتم إنتاجها وفق رغبات الجمهور المتزايدة، نجاحا واسعا، ويعتبر هذا العامل من أهم العوامل الكامنة وراء إقبال أرباب الأعمال على الاستثمار في مجال الصناعات الإعلامية والثقافية.

وفي سياق التوجه العالمي نحو مجتمع المعرفة وسعى دول العالم قاطبة إلى تحقيق التطبيق التكنولوجي والاستفادة من هذه التطبيقات (الجمال، 2009، 382)؛ أصبح الاستثمار في وسائل نشر المعرفة، لا سيما وسائل الاعلام، أحد أهم التحديات، نظرا لما تعرضت له على مدى العقود الماضية لثورات وتطورات هائلة أثرت على اقتصاديات الاعلام بشكل عام، الأمر الذي جعل مواكبتها ضرورة حتمية لهذا النوع من الاقتصاد، الذي يقوم في أساسه على نشر المعرفة عبر هذه الوسائل بشتى أنواعها وأساليبها) بن ضميان العنزي، ب، ت، ص (16).

الجدير بالذكر أن مدرسة فرانكفورت، أول من أدرج قضايا الاتصال، الواسع النطاق، ضمن التنظير الثقافي الحديث، بهدف الوصول إلى نظرية اجتماعية تبلور الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية خصوصا، لنظم الاتصال هذه (جميل اسماعيل، 2012، ص 9) فالثقافة والتكنولوجيا ليستا منفصلتين، ولكنهما متصلتان (كيه نايار، 2019، 17).

تبين الدراسات أن عدد الفضائيات في العالم خلال العام 2007/2008، قد تجاوز خمسة آلاف قناة، منها 3212 قناة غربية مشفرة، ونجد في العالم العربي، أن نسق التزايد لعدد القنوات الفضائية العربية قد فاق الوتيرة الجارية في مختلف بلدان العالم، إذ ظهرت في ما بين 2004 و 2006، 263 قناة مجانية على عربسات ونايلسات، وتنصدر بلدان الخليج العربي طليعة البلدان الحاضنة لأعلى نسبة من هذه الفضائيات (الجمال، 2009، ص 133).

فيما يخص اعلام الطفل، وبالرغم من التطور الضئيل للإنتاج الإعلامي العربي في هذا الاتجاه، تعد التوجهات الحالية التي عرفها القطاع مجالا للتنافس والإبداع والتطوير بين المستثمرين في مجال الاعلام والاتصال، وهذا ما دلت عليه بوادر العمل في هذا التوجه الاستثماري، حيث مكنت بعض الاعمال القيمة المخصصة للأطفال، من التوجه نحو صناعات إبداعية وثقافية واعدة يؤطرها مستثمرون موهوبون." واليوم هنالك العديد من قنوات الأطفال المتميزة، والتي تسعى إلى كسب ثقة جمهور الأطفال وجذبهم" (ADAM SAYFO, 2014,2).

في ظل هذا السياق السائر نحو تطوير الصناعات الإعلامية والإبداعية العربية، وخلق فرص الابتكار والابداع، أضخى الاهتمام بالبرامج والأعمال المتخصصة ضرورة ملحة، وفرصة للمستثمرين العرب للعمل على خلق فضاءات إعلامية وترفيهية مناسبة لجمهور الأطفال، خاصة مع تزايد التعايش مع تكنولوجيا الاتصال.

لقد أصبحت قنوات الأطفال اليوم، أكثر تنوعاً، بعد أن كانت تقتصر على الانتاجات المستوردة، فظهرت قنوات متخصصة، تنتج أعمالاً محلية وأخرى مشتركة، مع استمرار عمليات الاستيراد وإعادة الانتاج والديبلجة. فهذه القنوات الجديدة، "ممزوجة بأفلام الكارتون والبرامج المختلفة وال فقرات المتنوعة التي تساهم في تطوير معارف الأطفال وادراكاتهم، وتنمية رصيدهم العلمي والثقافي؛ كما أصبحت قنوات الاطفال وسيلة اعلامية مهمة بما لها من أدوات توظيفها في توعية الناشئة ودفع عجلة النمو الفكري ومنحهم اقصى قدرأ من المتعة والرفاهية" (منير، 2021). إن الصناعات الإعلامية جزء مهم ضمن حقل الصناعات الابداعية، والتي يندرج في اطارها كل من التلفزيون والراديو والألعاب، النشر والتأليف، التصميم، العمارة والفنون (محمد يوسف وجودة، 2017 ، ص 20)¹. فما هي الصناعات الابداعية وما خصائصها؟

الصناعات الابداعية مصطلح ارتبط ظهوره بحكومة " توني بلير" ببريطانيا في أواخر التسعينيات من القرن العشرين، ثم بدأ ينتشر في أوروبا، آسيا، وأمريكا اللاتينية، ومنطقة البحر الكاريبي، وأستراليا، ونيوزيلندا، ومؤخرا في أفريقيا.

لكن المصطلح اكتسب زحماً كبيراً من خلال دراسة الاستشاري البريطاني " تشارلز لاندرى" عن المدينة المبدعة creative city ()، (ثم اكتسب أهمية أكبر مع ظهور أعمال رائد الدراسات الحضرية " ريتشارد فلوريدا" عن الطبقة المبدعة؛ وكذلك بظهور كتاب "الاقتصاد الإبداعي economy creative لرائد الاعلام البريطاني " جون هوكنز " ، ثم تبعه كتاب الصناعات الإبداعية: كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا والعولمة للأسترالي " جون هارتلي" (محمد يوسف، جودة، 2017، ص 20).

وحسب تعريف الأستاذ وعميد كلية الصناعات الإبداعية بجامعة كوينزلاند *² جون هارتلي " Jhon Hartley"، "الصناعات الإبداعية"، تسعى إلى توضيح التقارب المفاهيمي والعملية بين الفنون الإبداعية (الموهبة الفردية) والصناعات الثقافية (النطاق الجماهيري)، في إطار تقنيات إعلام جديدة داخل اقتصاد معرفة، يستخدمها مواطنون - مستهلكون تفاعليون جدد. لقد نشأت فكرة الصناعات الإبداعية بين طرفي نقيض: مستهلك اللعب والثقافة، والسوق والمواطنة. ومن المؤكد أن فكرة الصناعات الإبداعية تجمع - وتغير بصورة جذرية- بين مصطلحين أقدم عمرا- الفنون الإبداعية والصناعات الثقافية (هارتلي، 2007، ص13).

ضمن هذا السياق، يشكل تناول برامج التلفزيون ومنها البرامج الموجهة للأطفال بشكل خاص، كصناعة إبداعية، أهمية داخل الاقتصادات الجديدة المرتكزة على المعرفة والتكنولوجيات الجديدة. ففي عصر يتسم بالرقمنة أصبحت الثقافة الالكترونية مرادفة للاستهلاك والاجتماع المعاصرين. وكما يشير برامود كيه نايار، أن من طُرق فهم الثقافة الاستهلاكية وفهم وسائلها الجديدة تحديد موضع دور المستخدمين. باتباع قراءة ديفيد مارشال يشير الكاتب، " أفترض أننا بحاجة إلى أن نرى المستهلكين، باعتبارهم «منتجين» أو «منتجين مستهلكين». يقترح مارشال أن العامة منخرطون في جوهر «عملية» الإنتاج الثقافي" (كيه نايار، 2019، ص118).

بالنسبة لبدايات الرسوم المتحركة العربية، فان تاريخ انتاجها في العالم العربي مرتبط بمدى التأثير والاهام الذي أحدثته التدفقات العالمية للمحتوى والتكنولوجيا. ويرجع تاريخ عرض الانتاجات الأمريكية في الاسكندرية والقاهرة إلى ثلاثينات القرن الماضي؛ حيث ألهم النجاح الواسع لميكي ماوس والقط فليكس الفنانين المحليين الشباب لتقديم أعمالهم الخاصة. وكان أولى افلام السيليلويد تنتج في مصانع الاخوة فرانكلين، الأبناء الثلاثة لمهاجرين من اسرائيل وروسيا. كما عرض أول فيلم كرتوني، الحمار مانكا، سنة 1935 (Adam sayfo, 2017, p, 75). وعندما تلقت انتقادا قويا لكونها تستنسخ الانتاجات الأمريكية، ظهرت سلسلة مشمش أفندي، باللون الأبيض والأسود. وما بين 1937 ورحيل الاخوة فرانكلين إلى فرنسا سنة 1950، أنتج الأخوان تسع حلقات من السلسلة وعددا من الدعايات السينمائية. ومنذ ذلك الحين، اهتم المنتجون العرب بإبداع برامج مرتبطة ثقافيا بالجماهير العربية، وفي نفس الوقت تكون بديلا للعملاق العالمي والت ديزني.

*- جون هارتلي : هو عميد كلية الصناعات الإبداعية بجامعة كوينزلاند للتكنولوجيا. له ما يزيد عن 12 كتابا في مجالات الاعلام والصحافة، والدراسات الاقتصادية، من بينها تاريخ موجز للدراسات الثقافية (sage, 2003)، دراسات الاتصال والاعلام والدراسات الثقافية: المفاهيم الأساسية عن دار (Routledgs).

منذ بداية تأسيس الفضائيات المحلية في دول الخليج، في الستينات والسبعينات، كان إنتاج محتوى محلي هدفا مهما للسلطات الوطنية، خاصة في المملكة العربية السعودية، حيث طالب نخبة من المواطنين المحافظين بإنتاج مواد محلية للأطفال في الغالب يعتبرون كجمهور مستهدف له مكانة، وكانت مهام القنوات الحكومية في ذلك ملء هذا الفراغ ببعض المضامين الرخيصة. وبالرغم أن الرسوم المتحركة تعتبر كبرامج طفولية، كان التفكير ضئيلا في إحداث استديوهات عمل خاصة. علاوة على ذلك، اعتمدت الفضائيات المحلية على انتاجات مستوردة من أوروبا واليابان والولايات المتحدة الأمريكية، مدبلجة ومكيفة أخلاقيا مع التقاليد والقيم المحلية. وبعد خروج القنوات العربية إلى الواقع، كبرت أجيال عديدة من الأطفال العرب على مشاهدة برامج كرتونية أجنبية الصنع، وكان اختيار مصادر الاستيراد قبل سنوات التسعينيات في الغالب قرارا سياسيا، عكس ما توجهت إليه الدول الاشتراكية كسوريا وليبيا والعراق الذين فضلوا الإنتاجات الفرنسية الأوروبية الشرقية؛ في حين اهتمت الدول الخليجية الأكثر رأسمالية، باستيراد المنتجات الأمريكية، بالضبط مسلسلات ديزني والرسوم المتحركة اليابانية (Adam sayfo2017,p 70).

إن غياب أشخاص مؤهلين ومدربين وبنية مؤسسية، منع كثير من المنتجين من إنتاج أعمال محلية. ومع سنوات السبعينات حتى وقت قريب، فضل منتجون من العربية السعودية ودول الخليج الاستعانة بأطر ومصادر خارجية، أو الانتاج بأكمله داخل استديوهات أجنبية. ومن أجل الحفاظ على سيطرة مستمرة على إنتاجاتهم، اختار عدد من المنتجين والمدربين تأسيس مقر أعمالهم في الخارج والاشرف على الأطر المدربة بأنفسهم. وقد ساهم اشراك فنانيين أجانب في عرقة إبداع أعمال سعودية وخليجية ذات خصائص مشتركة (sayfo,2017,p71) Adam .

في سنة 1979 أنتج أول عمل كرتوني لدول الخليج ؛ على شكل كبسولات من دقيقة إلى دقيقتين، باسم افتح يا سمس، و كان هدفها تعليم الأطفال الحروف العربية والأرقام، وهو الاقتباس العربي للنموذج العالمي الناجح شارع سمس، Sesame Street. وعلى خطى هذا الأخير تم من خلال افتح يا سمس نهج أهداف تربوية، تتماشى مع النظم المحلية. وقد تم إنتاج السلسلة من طرف مجلس التعاون الخليجي، ومؤسسة (jppi) في أبوظبي في 4 يناير 1976، وبدعم من وزارة المعلومات بدولة البحرين، الكويت، عمان، قطر، والعربية السعودية (Adam Sayfo,2017 p 72).

ابتداء من سنوات التسعينات، عمل كثير من الفنانين المصريين على انتاج مسلسلات كرتونية مرتبطة بالثقافة المحلية. وقد كانت مصر أول دولة تقدم تعليما عاليا في الفن، مدرسة الفنون الجميلة سنة 1908. والتي عرفت فيما بعد اشرفا من قبل عدد من المؤسسات المدعومة وطنيا؛ حيث تم إحداث وحدة

للأفلام الكرتونية في التلفزيون المصري، سنة 1961 (Adam Sayfo,2017, p 76). وفي منتصف التسعينات عملت كثير من المؤسسات الخاصة والمنظمات الدينية من المملكة العربية السعودية ودول الخليج على دخول هذا المجال عبر إنتاج سلسلات كرتونية ذات صبغة إسلامية، مع استحضار قصص من التاريخ الإسلامي أو مقتبسة من الأدب العربي (Adam (Sayfo, 2017, p73).

قبل تسعينيات القرن الماضي لم يكن هنالك أي استديوهات إنتاج للرسوم المتحركة في العالم العربية، ونفس الأمر كان بالنسبة لعملية الرسم التي كانت يدوية ويتم تحريكها بتقنية (Adam (Sayfo,2017,p11) 2d. لكن بمطلع الألفية الثالثة، سيعرف الإنتاج الكرتوني العربي موجة جديدة، مع زيادة في نسبة الجودة وعدد الإنتاجات. وساهم في هذه الزيادة ثلاث عوامل رئيسية : ارتفاع عدد القنوات العربية، سياسيات التحرير لعدد من الحكومات فيما يخص ملكية وسائل الاعلام، و بروز تكنولوجيات رقمية حديثة في مجال الرسم (Adam Sayfo,2017) p76).

في الساحة العربية، يتواجد اليوم عدد مهم من الشركات الناشئة في مجال الرسوم المتحركة، شركات تنتج سلسلات كرتونية جديدة وقصصاً قصيرة معبرة. ويشير عدد مشاهدي مواقع هذه الشركات إلى ازدياد صلابة البيئة الحاضنة لهذا النوع من الفن في العالم العربي والتي تشجع الرسامين والمصممين والمنتجين على تحويل أفكارهم الخلاقة إلى محتوى عربي أصلي وإلى وسيلة ترفيه . فيما يأتي نذكر أهم هذه الشركات، وبعض النماذج الناجحة لصناعة الكرتون عربياً:



شركة لم ترى LAMMTARA : أسس محمد سعيد حارب شركة "لم ترى استوديو" عام 2005 في الإمارات. وأول مشروع كبير لها كان المسلسل الكرتوني " فريج Freej "والذي بث في البداية على التلفزيون الإماراتي عام 2006، يعالج قصة أربع نساء كبيرات في السن تواجهن تعقيدات الحياة في مدينة تتوسع من حولهم. بعد أن جمعت الشركة شركاء ريفعي المستوى وفريق تطوير قوي، يهدف فريق

لم ترى إلى أن يكون هذا العمل أكثر من مجرد مسلسل كرتوني، بل يريدون أن يصبحوا علامة تجارية للعائلات (دالاكان، 2010).

عرض مسلسل فريج على شكل حلقات من المغامرات والكوميديا الشعبية. وتعد السلسلة من بنات أفكار الرسام الاماراتي ، محمد سعيد حريب MOHAMMED SAEED HARIB. وقد تم عرض السلسلة في رمضان 2006 على شاشة سما دبي SAMA DUBAI حيث لاقت اقبالا ونقدا كبيرين. وعتت كظاهرة ثقافية غمرت الامارات وعديدا من الدول العربية (Adam sayfo, 2012).

تجسد السلسلة، مظاهر الصدمة الثقافية بين الحداثة والتقاليد، بين الحديث والقديم، وهاجس ضياع التراث الشعبي، حيث أسست الحكومة سلطة خاصة بالثقافة والتراث، من أجل حفظ وتثمين التراث الوطني عبر كافة الوسائل والامكانيات (Khalifa Al- Ghufli,2010,P,6).



[/https://fullmoonanimation.com](https://fullmoonanimation.com)





النقيب خلفان : مسلسل في 3 أجزاء يعرض على قناة ماجد الإماراتية، من إنتاج Fullmoon animation studios. أبطال السلسلة هم: النقيب خلفان والملازم مريم والمساعد فهمان...فريق متميز من أبطال الشرطة الذين لن يتذوقوا طعم الراحة إلا بعد تطهير المدينة تماماً. مغامرات مليئة بالإثارة والتشويق والمحطات التي تحبس الأنفاس. في عالم أصبح فيه المجرمون أكثر دهاءً واحتيالاً، باتت مهمة إنقاذ العالم من قبضة الشر في أيدي 3 أبطال يسعون ليل نهار لإعادة النظام والانتصار على الشر) (majed.ae).

تجمع سلسلة الذوق والإبداع الإماراتي بعالم الاثارة المقرب للأطفال، وتعرض عبر قوالب مختلفة عصرية ومتجددة من خلال ما تقدمه من أحداث وجرائم ، والتي غالباً تنتهي بقالب كوميدي ساخر مع المساعد فهمان. وهذا النوع من الإنتاج قليل مقارنة ببعض الانتاجات الأخرى، خاصة المستوردة منها.

شعبية الكرتون :



<http://hnauae.com>

شعبية الكرتون : هو عمل آخر بارز وناجح من إنتاج شركة فنار للإنتاج، FANAR Productio، وللكاتبة محمد حيدر. عرض المسلسل في كل من قناة دبي، وسما دبي. وهو يقدم شخصيات مختلفة الجنسيات في حوارات وقوالب كوميدية طريفة، ويضم 16 عشر جزءاً بعد أول عرض له سنة 2006. شركة مانجا للإنتاج MANGA PRODUCTION: هي أحد الشركات التابعة لمؤسسة محمد بن سلمان (مسك) الخيرية وتختص في صناعة المحتوى الإبداعي من خلال إنتاج الرسوم المتحركة وألعاب الفيديو والقصص المصورة ذات الرسالة الهادفة والجودة والاحترافية والتي تستهدف مختلف شرائح المجتمع محلياً وعالمياً.

تعد شركة مانغا برودكشن من الشركات السعودية الواعدة في مجال الرسوم المتحركة. ويمثل "حكايات في قادم الزمان"، أول مسلسل سعودي بأسلوب الأنيمي، من إنتاج شركة مانغا برودكشن MANGA Production التابعة لمؤسسة مسك الخيرية، والتي عازمت على تجسيد الابداع الفني في السعودية، وذلك بشراكة مع استوديو توي أنيميشن المنتج للأنيمي ون بيس الشهير، وتقدم أحداث سلسلة أساطير في قادم الزمان، على هيئة أحداث تاريخية جرت في أزمنة مختلف (see, 2020). وهو "عمل عائلي يستشرف المستقبل، ويعكس أفكارا في التطور التكنولوجي والعلمي؛ فهو يوسع من مدارك الأطفال وآفاقهم وخيالهم، ويربط الواقع والحاضر بروح التاريخ وأحداثه، تقول الفنانة دينا خانكان" (مانجا برودكشن، 2020).



<http://series.egybest.tv/series/future-folktales/?ref=home-tv>

وتقدم السلسلة الكرتونية عبرا، ومعلومات مفيدة. تقول الفنانة دينا خانكان والتي أدت دور الجدة في المسلسل، " مهم بالنسبة للطفل العربي أن يطلع على عاداتنا العربية الأصيلة، التي اشتهرت بها الجزيرة

العربية، والأفلام الوافدة من الغرب تركز لأفكار غريبة والعنف فيها بارز جدا، وأتمنى أن يتعد أطفالنا عن مثل هذه الأفلام. وأدعوا الأطفال جميعا لمتابعة إنتاجات شركة مانجا برودكشن، لأن هذه البرامج تساعد الأهل على تربية أطفالهم، بكل فكرة وبكل صورة تقدم لهم. فهي مربية إضافية مع الأهالي" (مانجا برودكشن، 2020).



<https://animetherapy.net/4337>

تستهدف شركة مانجا إنتاج مجالات وكتب للقصص المصورة بمعايير عالمية وبشخصيات ذات طابع محلي ومحتوى قصصي فريد من نوعه ليتم عرضها على الجمهور العربي والعالمي عن موقع الشركة. ومن أبرز الإنتاجات التي قدمتها الشركة بشراكة مع مركز توي أنيميشن سلسلة "أساطير في قادم الزمان" وفيلم الرحلة (مانجا برودكشن، الموقع).

لقد ساهم التطور الذي حصل في صناعة الرسوم المتحركة في تعزيز المنتج المحلي لدول الخليج. فقد انتشرت شخصيات معروفة في الأدبيات العربية ككليخة ودمنة وحما، وشخصيات إسلامية تاريخية شهيرة كصلاح الدين، وتتخذ شخصيات الأبطال من دول الخليج أمكنة وتحدث لهجاتها المختلفة. إن الموجة الجديدة من أفلام الكرتون لا تستهدف الأطفال فقط، بل البالغين على حد سواء، طالما أنها تحمل رسائل مرتبطة بالحياة الاجتماعية كما السياسية أيضا؛ كسلسلة فريج مثلا، والتي أضحت قصة ناجحة سواء على التلفاز أو المسرح أو كعلامة تجارية (Adam sayfo, 2012 p 15).

على هذا الأساس، شهدت بداية الألفية الجديدة، بروز عدد من سلسلات الرسوم المحلية الصنع، أهمها السلسلة الكرتونية فريج، أبو قتادة وأبو نبيل دولة الكويت. فقد قدمت السلسلتين للمشاهد شخصيات تدل على بعض النماذج من الناس التي تعيش في كنف المجتمع الخليجي، ووفرت دلالات على رموز تاريخية شكلت بنية المجتمعات الخليجية المتنوعة التي نراها اليوم (Khalifa- Al ghufli, 2010, p2).

بينما تشكل الرسوم المتحركة عملية تجارية عن طريق عرض منتج سمعي بصري قابل للتداول والبيع، تعد كذلك منتوجا ثقافيا يعكس ويعزز قيم وهويات منتجها، والشروط الاجتماعية التي أنتجت في ظلها. وكما اشار بلخير (2012: 70K Belkhyr) فهي صناعة تؤسس وتستعرض المنتج الثقافي (Adam Sayfo, 2018, p103).

مع بداية الألفية الثالثة، تطورت تقنيات التحريك 3D، وساهمت في بروز منتجين جدد من مصر Sayfo, 2017a. كما ساهم في ذلك بروز شركة زمزم للانتاج Zamzam Media's productions، وفي نفس الوقت تم التركيز على انتاج أعمال كثيرة ذات صبغة اسلامية. ومن بين أهم الانتاجات التي ظهرت : قصص القرآن (Qisas al-Qur'an (Stories from the Qur'an)، أول جزء من هذه السلسلة كان (Qisas al-Hayawan fil-Qur'an (Animal Stories in the Qur'an)، قصص الحيوان في القرآن، عرض سنة 2011، على قناة الحياة المصرية (Adam Sayfo, Ibid, p105). علاوة على ذلك، ابدت بعض البلدان في شمال افريقيا كالمغرب والجزائر اهتماما بمجال الرسوم المتحركة. ففي الجزائر تم اطلاق قناة خاصة بالأطفال في فبراير 2022 alger4kids يديرها الاعلامي رشدي رضوان؛ وهي أول قناة مختصة في برامج الأطفال و الكرتون في الجزائر و شمال إفريقيا. ومن بين البرامج التي تعرضها القناة الجديدة "ألبوم التاريخ"، "دودة الحروف"، "هيا نرسم"، أما الرسوم المتحركة المعروضة على قناة الأطفال KIDS4، منها "الدب غريزي"، "المفتش غادجات"، "المملكة الصغيرة (مملكة بين وهولي)"، "مغامرات ألفتن و السناجب بوبا"، "مغامرات سامي رجل الإطفاء"، و "مغامرات الحروف شون (الجزائر64، 2022)".

في المغرب، تتنافس حاليا ثلاث شركات حول انتاج رسوم متحركة محلية. وتعتمد هذه الشركات تقديم أعمالها للجمهور المغربي في سنة 2022. ومن بين الشركات المشغلة في رسوم التحريك، شركة LAUREM لمديرها أنس الفيلاي، أرتكوسيك artcosik علي الركيك، و نيفرسين للإنتاج neverseen Production.

كانت القنوات الأولى والثانية الحكوميتان قد أعلنتا سنة 2021 عن طلب عروض من أجل إنتاج مسلسلات كرتون مغربية 100%، تتناول قضايا المواطنة وتاريخ المغرب، وتنجز بإنتاج وخبرات مغربية. وتعمل أرتكوسيك على إنتاج سلسلتين للكرتون من 30 حلقة، إحداهما لفائدة القناة الأولى والأخرى للقناة الثانية، تتراوح مدة كل حلقة بين 3 و 4 دقائق. ويكلف كل مشروع نحو مليوني درهم (200 ألف دولار)، بمعدل 70 ألف درهم (حوالي 7 آلاف دولار) للحلقة الواحدة.

يقول المدير العام لشركة أرتكوسيك، علي ركيك، للجزيرة نت إنهم قدموا للقناة الأولى مشروع سلسلة كرتون عن شخصية مغربية معروفة في الخمسينيات من القرن الماضي، وسيتابع الطفل في حلقات متصلة قصة هذه الشخصية وتطوراتها من خلال تفاصيل وقيم تعود لتلك الفترة (سناء القويطي، 2022).



في هذا الاطار، تجدر الإشارة أن شركة نيفرسين للإنتاج قدمت عملها الأول في رمضان 2022، على القناة الأولى المغربية، من خلال السلسلة الكرتونية " أبطال الأولى".
على الرغم من التطور الملحوظ الذي شهدته الرسوم المتحركة منذ تسعينيات القرن الماضي، لا زالت تعاني الانتاجات العربية في مجال صناعة الرسوم المتحركة من ضعف التنافسية في الأسواق الدولية؛ ذلك أن استيراد الانتاجات الأجنبية يضل أرخص من إنتاج برامج محلية، كما أن القنوات العربية التي لا تولي أهمية للإنتاجات ذات الصلة بالثقافة المحلية، غالباً ما تختار شراء الانتاج الأجنبي (Adam) sayfo,2017, p90.

إن الصناعات الإبداعية، ومنها صناعة الرسوم المتحركة بشكل خاص، يعتمدان على قوة عمل شابة ومبدعة، تجمع بين العمل والترفيه، والهوية الذاتية. ويمكن تفسير دينامية الرسوم المتحركة العربية ارتباطاً بنسبة الاهتمام التي يبديها هؤلاء المبدعين والمتخصصين. وفي هذا الاطار، فإن قنوات الأطفال والبرامج المقدمة للأطفال من طرف الشباب العربي المثقف، يأخذ فيها بعين الاعتبار مطالب هذا الجمهور، وذلك أكثر من أي وقت سبق. فحسب الشبيخة موزة، وهي إحدى مؤسسي قناة الجزيرة للأطفال، فإن القناة استلهمت أفكاراً من خلال الانتقادات الموجهة لها، من طرف الأطفال منذ سنة 2002. وقالت أن ذلك كان بمثابة إلهام لها لتأسيس تلك القناة التي تتحدث مع الأطفال وليس حولهم (Adam) Sayfo,2012,p14.

يعتبر البعض من المفكرين اليوم أن تطور الصناعات الثقافية الموجهة إلى الترفيه والتسلية ضرباً من ضروب تطور الصناعات الإبداعية التي تعتمد المعاني الرمزية كقيمة. وتحدد أهمية القيمة من خلال قدرة المستخدم النهائي (المشاهد، والمستمع، والمستهلك عموماً) على فك الشفرة، والتوصل إلى جديد

الاستفادة من المنتج في إطار معناه الرمزي؛ أي أن قيمة المنتج الرمزية تعتمد على فهم المستخدم، بقدر اعتمادها على خالق المحتوى الأصلي (عبد الرحمن الجمل، 2012، ص 474).
خاتمة :

بعد أن قدمنا لمحة عن تطور صناعة الكرتون وأهم الشركات المطورة العاملة في المجال، والانتاجات التي قدمتها يتبين أن واقع صناعة الرسوم المتحركة في العالم العربي غلب عليه عنصر الاستهلاك وإعادة الإنتاج والترجمة عن شركات أجنبية كبرى، مند سبعينيات القرن الماضي، إلى غاية بدايات العقد الأول من القرن الحالي، حيث عرفت الرسوم المتحركة العربية تطوراً ملحوظاً، مع بروز مستثمرين ومخرجين جدد من الامارات والبحرين والسعودية ومصر، عبر أعمال عربية محلية وأخرى مشتركة، استلهمت من التراث، واستثمرت في المعرفة والرأس المال القيمي الإسلامي. ومعظم هذه الدول تركز على الثقافة المحلية والاهتمام بالطفل، في مقابل اعتمادها أيضاً على استيراد ودبلجة الانتاجات الأجنبية. ومع ذلك لا زالت بلدان أخرى كبلدان شمال أفريقيا في بداية مشوارها نحو تطوير صناعاتها الثقافية والابداعية. ولعل ما يفسر تطور الصناعات الثقافية العربية، كما عالمياً بشكل عام، اشتباكات العولمة المتباينة مجاليا واقتصاديا وسياسيا وضغطها المتزايد على القيم المحلية للبلدان.
لائحة المراجع بالعربية :

عبد الرحمن الجمل رولا: مؤتمر الإعلام الجديد : تكنولوجيا جديدة .. لعالم جديد، أبحاث المؤتمر الدولي جامعة البحرين 7-9 ابريل، 2009 .

بن ضميان الغنزي علي : مدى توافق الاستثمار في وسائل التواصل الاجتماعي مع معايير اقتصاد المعرفة، ورقة بحثية مقدمة للمنتدى العالمي السنوي السابع للجمعية السعودية للإعلام والاتصال " الإعلام والاقتصاد...تكمال الأدوار في خدمة التنمية"، ب ت.

جميل اسماعيل بشرى : الإبداع الإعلامي في الفضائيات العربية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط 1 ، عمان، 2012.

كليه نايار برامود : مقدمة الى وسائل الاعلام الجديدة والثقافات الالكترونية، ت جلال الدين عز الدين علي، مؤسسة هنداوي سي آي سي، 2019 .

محمد يوسف همت، أ.د/ عبد الوهاب جودة عبد الوهاب : الصناعات الإبداعية وعائداتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على المجتمع، مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 25، ديسمبر 2017.

هارتلي جون : الصناعات الابداعية، كيف تنتج الثقافة في عصر التكنولوجيا والعولمة الجزء الأول، ت، بدر السيد سليمان الرفاعي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2007.

المواقع الالكترونية :

-منير زكرياء : إشارة ترددات قنوات الاطفال والكترون بأخر تحديث نايل سات، موقع كلمة،

<https://www-klma.org-2021/5/30>

- قناة الجزائر الدولية، القسم الثقافي، 24/02/2022 .

<https://www.algeria64.com/2022/02/Algerian-4KIDS-frequence-nilesat.html>

- القويطي سناء : أول رسوم متحركة مغربية أصلية.. هل تفتح أبواب صناعة الكرتون بالمغرب؟ الجزيرة، 2022، 2، 28.

- حوار مع الفنانة القديرة إيمان هايل، مع إدارة شركة مانجا بروودكشن، عرض بتاريخ 25 مارس 2020، بصفحة الشركة على موقع فيسبوك.

- شركة مانجا بروودكشن على شبكة الأنترنت. [/https://manga.com.sa/](https://manga.com.sa/)

- أساطير في قادم الزمان، موقع صفحة see على الفيسبوك، عرض بتاريخ 4 مارس 2020.

- دالايان جلين : أبرز 10 شركات ناشئة في مجال الرسوم المتحركة في العالم العربي، ومضة، 22 أكتوبر، 2010.

المراجع الأجنبية :

Adam Sayfo Omar : The Emergence of Children's Media and Animation Industry in the Gulf states, 3rd Gulf research conference, UNIVERSITY OF CAMBRIDGE 11-14 july 2014,.

- Khalifa Al-Ghufli Yousef : Cartoons and Cultures: History of the United Arab Emirates and Kuwait

through Animation, Bachelor of Arts in International Studies, College of Arts and Sciences, P 6.

- Adam Sayfo Omar : Arab Animation between bussiness and politics, p, 75.

-Adam Sayfo Omar : Local Minds, Foreign Hands: Animation in Saudi Arabia and the Gulf, p, 70

-

<https://majid.ae/programs/show/216137/%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%82%D9%8A%D8%A8-%D8%AE%D9%84%D9%81%D8%A7%D9%86>

- Adam Sayfo Omar : Mediating a Disney-style Islam: The Emergence of Egyptian Islamic Animated Cartoons animation:an interdisciplinary journal , Vol. 13(2) 102–115, 2018, p103.

الأبعاد الاجتماعية لفن الغرافيتي وموسيقى الهامش

Social dimensions of graffiti art and fringe music

يسرى العماري / جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب.

Lammariyousra7@gmail.com

ملخص:

تركز هذه الدراسة لفنون الهامش على خطاب الصوت والصورة بتناول نموذجين (فن الغرافيتي، والموسيقى) باعتبار الغرافيتي خطاب مرئي ذو أبعاد اجتماعية، لا يخضع للرقابة التي تخضع لها الفنون المؤسساتية، فيناضل للوجود، كونه خارج السيطرة القانونية، مهدد بالمحو كخطاب غير معترف به قانوناً، فيكافح للاستمرار، بتركيز موضوعاته على النقد الاجتماعي؛ بينما تتناول دراسة موسيقى الهامش ثلاثة نماذج من مدينة الدار البيضاء، تمارس الموسيقى بلا تنظيم قانوني (موسيقى الشارع، موسيقى المطاعم، موسيقى الراب) Underground، وتحاول هذه الدراسة التعرف على الروابط الاجتماعية المساهمة في تنشئة فنان الهامش، والعلاقات المؤثرة في بناءه كفرد؛ بما في ذلك التربية، والعلاقات الأسرية التي يكتسب منها الطفل الخبرة الاجتماعية من الراشدين، إضافة لتأثير العلاقات الأخرى.

الكلمات المفتاحية:

الغرافيتي، موسيقى الشارع، موسيقى المطاعم، موسيقى الراب Underground

Abstract:

This study of marginal arts focuses on the discourse of sound and image by addressing two models (graffiti art and music) considering graffiti as a visual discourse with social dimensions, not subject to the censorship that institutional arts are subject to, and it struggles for existence, being outside legal control, threatened with erasure as unrecognized discourse. Legally, he struggles to continue, focusing his subjects on social criticism; While the study of marginal music deals with three models from the city of Casablanca, music is practiced without legal regulation (street music, restaurant music, rap music) underground. Including upbringing, and family relationships from which the child gains social experience from adults, in addition to the influence of other relationships.

مقدمة

يلعب الخطاب البصري لفن الجرافيتي دوراً بالرسوم والرموز على الجدران في التأثير على المتلقي حيث تجذب المارة، فتساهم في توجيه الأفراد لهذا الفن؛ كما يساهم فن الجرافيتي في دعم عامل الانتماء للجماعات الرياضية وجذب المشجعين، وتوجيههم في إطار يهدف دعم فريق رياضي، كما تساهم الأوضاع الاجتماعية في التأثير على الفنان، ودفعه لممارسة موهبته في الهامش، وتتجلى هذه الأوضاع في الظروف المادية، والرفض الاجتماعي، والقانوني لنوعية الفنون هذه، لتولد فنون الهامش من رحم المعاناة؛ كما تلعب العلاقات الفنية في فنون الهامش دوراً في تحقيق المشاريع الفنية بالتعاون في مواجهة نقص الإمكانيات، والوسائل الفنية، وتتخلل هذه العلاقة صراعات تنافسية، ورغبات تحقيق الذات. وتتميز فنون الهامش بخصائص اجتماعية متعلقة بطبيعة الفنون غير المكننة حيث يعاني فنان الهامش قيوداً تمنعه من ممارسة فنه، ويتجلى ذلك في وضع فنون مثل الجرافيتي، وموسيقى الشارع، وموسيقى المطاعم، وموسيقى الراب Underground فلا تحظى بالاعتراف الاجتماعي والقانوني ما يعيق مسيرتها.

وتنوع الكتابات الجرافيتية لتعبر عن ذات الفنان وواقعه على جدران الشوارع بموضوعات مختلفة ما بين آمال، وشعارات، ورسائل اجتماعية وسياسية؛ بينما تخصص موسيقى الراب Underground أغانيها لانتقاد الظواهر الاجتماعية والسياسية، فتساهم فنون الهامش بذلك في تعزيز القطاع الثقافي والسياحي، بالعروض الفنية التي تجذب السياح المحليين والأجانب.

ورغم أن فنان الهامش لا يستفيد من الدعم المؤسسي؛ لكنه ينطلق رغم ذلك من استعدادات لممارسة فنه، تهدف لحمايته من الوقوع في يد السلطة، إضافة للبحث عن الوسائل المادية واللوجستية التي تسهل تقديم العروض الفنية؛ كذلك التدريب المستمر لجذب الجمهور، فشهدت فنون الهامش تحولات بمرور الوقت، ارتبطت بالتغيرات الاجتماعية في مدينة الدار البيضاء التي مثلت بيئة البحث.

ويختلف مستوى الاهتمام بممارسة فنون الهامش حسب النوع الاجتماعي، بسبب التمثلات الاجتماعية التي تقسم أدوار الجنسين، وتفرض شروطاً اجتماعية على كلا الجنسين لممارسة فنون الهامش كما يتفاوت الإقبال على فنون الهامش حسب الفئة العمرية، كون المجتمع يفرض أدواراً اجتماعية على الفرد وفقاً لمرحلته العمرية، وأيضاً لأن طبيعة فنون الهامش تتطلب بنية جسدية قادرة على تحمل تبعات هذا المجال.

ويختلف مستوى التعليم بين فناني الهامش باختلاف تعليمهم ما يؤثر على جودة العمل الفني في مجالات مثل الجرافيتي، وموسيقى الشارع، وموسيقى المطاعم، وموسيقى الراب Underground كما

تتأثر تمثلات الجمهور بالخلفية الثقافية والاجتماعية لكل فرد في حكمه على الأعمال الفنية، ف نجد تمثلاته عن فنون الهامش تتسم بعدم الرضا لعدة أسباب أهمها حداثة هذه الفنون.

ويعاني فنان الهامش من نقص الدعم الفني، كونها فنوناً غير منظمة، لا تنتمي للقطاع المؤسسي، ولا يستفيد بالتالي من الامتيازات التي يتمتع بها فنان وزارة الثقافة؛ كما يعاني من موقف السلطة تجاه فنون الهامش، كونها فنوناً تخالف القانون كفن الجرافيتي الذي يستغل الفضاء العام، إضافة أنه لا توجد بنود قانونية تنظم عمل فنان الهامش، وتحمي حقوقهم من الاستغلال.

ويعتبر بحثنا محاولة لمقاربة الفنون من منظور سوسيولوجي بالتطرق لخطاب الصوت والصورة في فنون الهامش، انطلاقاً من إشكال عام مركزي:

- ما هي العوامل والأبعاد الاجتماعية التي تساهم في بروز واستمرار ظاهرة فنون الهامش في مدينة الدار البيضاء؟

I. الإشكاليات الفرعية:

○ ما هي العوامل الاجتماعية التي تساهم في تنشئة فنان الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

○ ما هي طبيعة العلاقة بين فنان الهامش في مجال الصوت والصورة والفضاء في مدينة الدار البيضاء؟

○ ما هي الاكراهات التي يواجهها فنان الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

○ ما هي طبيعة الاستعدادات لممارسة فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

○ ما هي التحولات التي عرفتها فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

○ ما النوع الأكثر ممارسة لفنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء انطلاقاً من مقارنة النوع؟

○ ما هي الفئة الأكثر ممارسة لفنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء انطلاقاً من زاوية الفئة العمرية\المستوى التعليمي؟

○ ما هي تمثلات الجمهور حول فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

○ من هم الوسطاء الذين يساهمون في دعم فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

○ ما هو موقف السلطة من فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء؟

.II. الفرضية الرئيسية :

- هناك عوامل وأبعاد اجتماعية ساهمت في بروز واستمرار ظاهرة فنون الهامش في مدينة الدار البيضاء.

1. الفرضيات الفرعية :

- تساهم عوامل اجتماعية في تنشئة فناني الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- تميز العلاقة بين فناني الهامش أبعاد في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- توجد اكراهات تواجه فناني الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- توجد استعدادات لممارسة فن الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- توجد تحولات عرفتها فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- يوجد تفاوت في ممارسة فنون الهامش من زاوية مقارنة النوع في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- توجد تفاوتات في ممارسة فنون الهامش من زاويتي /الفئة العمرية/ المستوى التعليمي في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- هناك تمثيلات اجتماعية حول فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.
- للهؤسسات الثقافية والأمنية موقف من فنون الهامش في مجال الصوت والصورة بمدينة الدار البيضاء.

مجتمع البحث:

يعتبر الميدان أرضية الباحث في دراساته الاجتماعية لمحاولة الوصول إلى الحقائق النسبية من خلال مقابلاته مع المبحوثين، حيث يسمح الميدان بالتحقق المباشر والملموس من فرضيات الدراسة، ذلك أن البحث الاجتماعي ليس بحثاً مجرداً، ويتطلب اتصالاً مباشراً بالظواهر المدروسة. وتجلى أهمية الميدان أيضاً في الدراسات الاجتماعية في كونه صلة وصل وثيقة بواقع المبحوثين، بحيث يكون المبحوث في دائرة التساؤل الموضوعي وتحت مجهر الباحث الاجتماعي. ميدان البحث

تم اختيار مدينة الدار البيضاء مجالاً للبحث، كونها مدينة ديناميكية تعرف حركة دءوبة على مختلف المستويات الاقتصادية والثقافية والفنية ومجتمع هذه المدينة حيوي في حركة مستمرة بحثاً عن لقمة العيش وتحقيق الذات، لذلك وقع الاختيار على بحث الجانب الفني لهذه المدينة، وتحديداً فنون الهامش الموجودة في أماكن معينة من مدينة الدار البيضاء والتي تتميز بخصوصية المجال والممارسة؛ لذلك

سنحاول التعريف العام والجزئي لمدينة الدار البيضاء، لفهم طبيعة فنون الهامش في هذه المدينة الديناميكية.

أما العينة التي تخص بحثنا فهي عينة (كرة الثلج) التي اخترناها بسبب الشروط الموضوعية التي فرضت على البحث، كالبحث عن مبحوثين يمارسون فنون الهامش وبالتالي ليس من السهل معرفة مكان ممارسة فنهم، وهكذا عرّفنا فنانون الهامش على مبحوثين آخرين يشاركونهم نفس الفنون، كما أطلعونا على الأماكن التي يمارسون فيها الفن، وهناك استجوبنا عينة من الجمهور حول بحثنا.

- المجموعة الأولى: مجموعة الجرافيتي
- المجموعة الثانية : موسيقي الشارع
- المجموعة الثالثة: موسيقي المطاعم
- المجموعة الرابعة: موسيقي الراب Underground
- جمهور فنون الهامش.

I. فان الهامش : بين حرية الممارسة وقيود الواقع.

تناول دراسات علم اجتماع التنظيم توجهات عديدة في دراسة قضايا التنظيم الاجتماعي ومشكلة العمل في المؤسسات الحديثة، يعتمد التنظيم الاجتماعي بأشكاله العديدة على مجموعة من المكونات والعناصر التي تحافظ على توازنها وتكاملها لتحقيق استقرارها وأهدافها الوظيفية والإنتاجية. وأثارت أعمال روبرت أوين R. Owen انتباه الباحثين في العلوم الاجتماعية، لأهمية الظروف الاجتماعية المحيطة بالفرد، وخاصة الظروف التنظيمية، وتأثيرها على سلوكه، وتعددت الدراسات الاجتماعية المعنية بالتنظيم، وقد تضمنت دراسات كل من كارل ماركس، وماكس فيبر، وإميل دوركايم على قدر كبير من هذه الاهتمامات، وهي الركائز التي تأسست عليها الدراسات الأولى في علم اجتماع التنظيم. (الأصفر، 2012، ص 80، 81).

وتتناول هذه الدراسة مجموعة مجالات فنية تنتمي لقطاعات غير منظمة، فهي مجموعة فنون لا ينظمها قانون ولا تحمي حقوق فنانها منظمة مهنية، ويعتبر غياب التقنين الفني إقصاء لهذا النوع من الفن، وتهميش للفنان، ويترجم هذا التهميش في عدم الاعتراف القانوني بهذا الفن، وعدم منح الفنان المكانة التي يستحقها، وإبقاءه بعيداً عن الآلة الإعلامية التي تلعب دوراً في انتشاره.

ويتعرض فنان الهامش لكل شيء لا يحميه القانون فهو بعيد عن الأضواء، لكن يشعر فنان الهامش من ناحية أخرى بأنه حر غير ملزم بدفع الضرائب، متمرد رغم أنه مطارد طوال الوقت، ولا يخضع لقواعد المؤسسة الثقافية الرسمية.

■ موسيقى الهامش بين الحرية والقيود:

- موسيقى الراب Underground:

يعاني معظم موسيقيو الراب Underground من نقص إمكانيات تسجيل الأغاني وتوزيعها، ويتساءل أحدهم: "لأنعرف لماذا تغيرت أذواق الناس الى هذه الدرجة!" (حمزة 23 سنة، أعزب، من سيدي مومن بالدار البيضاء).

ويجعل التغيير في الذوق العام الأمر صعباً، فلم تعد الأغاني تحتوي على رسائل اجتماعية، ما، فلم يعد الناس مهتمين بالأغاني التي تتناول قضايا جادة، ويريدون الأغاني السريعة فقط. يشير أحد الموسيقيين أنه سجل مع زملائه أغاني راب، انتقدوا فيها الأوضاع الاجتماعية، لكن من الصعب أن تنجح مثل هذه أغاني في الوقت الحاضر فهو يعتقد أن موسيقى الراب Underground لم تعد مطلوبة، يقول: "الجمهور باغي لي يخدر ليه العقل وصافي، هناك تحول على مستوى الموسيقى والمضامين، وتوجهات الراپور (غير لي كاي شهر كاي قلب الفيسا مكايقاش Underground). (عبد الرحمان 25 سنة، أعزب، الحي الحسني بالدار البيضاء).

وتعاني موسيقى الراب underground من منافسة الأغاني التي تعتمد على الإيقاعات السريعة، دون أي محتوى جاد، ويتخذ بعض الموسيقيين المغمورين موسيقى الراب المهتمة بقضايا المجتمع كمحطة عابرة للانتشار، ثم يتحولون إلى موسيقى الراب الحالية، خصوصاً مع تأثير الجمهور بهذه الموجة. وكانت نشأة موسيقى الراب في أمريكا، وأمريكا اللاتينية، ومنطقة البحر الكاريبي الأمريكية في السبعينيات من أصل أفريقي، وكشفت عن وجه لأمريكا لم يتخيله الكثيرون، أعطت صوتاً ومساحة لإبداع الشباب الأمريكيين من أصل أفريقي، والأمريكيين اللاتينيين والكاريبين الذين يعيشون في منطقة مهمة تماماً من مدينة نيويورك، منسية من قبل السلطات العامة، فولدت موسيقى الراب في وسط الفوضى الاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت منتجاً ثقافياً يدر مبالغ كبيرة، فصار مغني الراب منذ الثمانينيات قمة جبل الجليد بسبب أهمية صناعة الموسيقى وربحيتها وقدرتها على جذب الاهتمام.

ولم يعد مغني الراب يسجل أغانيه منذ التسعينيات، ويبتها فقط، فقرر مغنيو راب معروفين تأليف كتب ليكون لهم جمهور مكتسب في عالمهم ومتشوق لقراءتها، وتكشف محتويات موضوعاتهم ورواياتهم عن فكرة أمريكا النابذة من الأقليات العرقية والاجتماعية السياسية، وهي حياة جيل لم يعبر عنها الأدب كثيراً.

وولدت ثقافة الراب في وسط السكان المحرومين، لتعكس الواقع اليومي الصعب وتطلعات شباب الغيتو، ولانتقاد المجتمع، فبنيت حروب الراب Underground إلى حد كبير على ردود فعل المحافظين ومحاولات الرقابة التي أثارها الترويج والتأثير المتزايد لثقافة الهيب هوب في أوائل التسعينيات، حيث أثارت موسيقى الراب الانتباه بسبب التحيز الجنساني، وكراهية النساء، وكلهات المتعة، والمادية المفرطة، وتحميد العصابات، والعنصرية، وأيديولوجية مقاومة النظام، وبالتالي تأبجت حرب ثقافية، في التسعينيات كانت موسيقى راب العصابات أسلوباً مهيماً، وهكذا فإن أصل فناني الراب الأوائل غالباً ما ينبع من العصابات، ويتألف جمهورهم بشكل أساسي من رفاقهم من رجال العصابات. (Guillaume, 2017, p 22)

- موسيقى الشارع:

يقر معظم موسيقيي الشارع أنهم يواجهون العديد من العقبات في ساحة ماريشال مثل التنافس، والزحام، والفوضى، والعشوائية، والشجار، والشكاوى القانونية التي تجعل من الصعب ممارسة الموسيقى في مكان لا يستوعب وجودهم، حيث يتصارعون من أجل مساحة محدودة، وأي موسيقي يأتي للساحة يضطر للتشاجر مع زملائه لتأمين مكان، فيتحول الفضاء المفترض أن يكون مساحة لأصوات الموسيقى إلى فضاء للصراع.

وتضع الممارسة غير المقتنة لموسيقى الشارع الفنانين في أزمة مادية، ويشعرون بعدم الأمان في حياتهم الاجتماعية، حيث يعاني موسيقيو الشارع من عدم الاستقرار الاجتماعي ما لا يسمح لهم بالمباشرة في مشاريع كالزواج لتكوين أسرة، أو الحصول على قرض بنكي، فيروي موسيقي انه كان على علاقة بشابة فقرر بعد تخرجه من الكلية أن يبحث عن وظيفة تسمح له بالزواج، وبعد محاولات يائسة، انضم لموسيقى الشارع، فرفضت أسرة الفتاة طلبه بحجة أن هذا العمل لا يمكن الاعتماد عليه لعيش حياة مستقرة، ما أدى لإنهاء العلاقة. (أحمد 24 سنة، أعزب، من درب عمر بالدار البيضاء).

واحتل الموسيقيون موقعا مهماً في القرن التاسع عشر بشوارع المدن الأوروبية لا سيما باريس، ثم تطورت الممارسات الموسيقية في الفضاء العام تدريجياً، حيث كان موسيقيو الشوارع، الذين يمارسون نشاطا اقتصاديا كهدف من نشاطهم، يستفيدون من بعض التسامح حسب أماكن وأساليب ممارستهم، ورغم فرض قيود صارمة، استهدفت الموسيقيين في باريس، حيث يجب على الموسيقيين أن يحصلوا على تصريح ساري المفعول لمدة محددة، يسمح لهم فقط باللعب في عدد محدود من الأماكن، بعد ذلك، ثم صارت القوانين أكثر تقييداً فيما يتعلق بتأكيد مكافحة الضوضاء في الفضاء العام، وصدر مرسوم في 3 مايو 1926 لذلك، ورغم من أن هذه الممارسة غير قانونية، إلا أنها استمرت فترة ما بين الحربين، ثم

منعت عام 1931 أي عروض موسيقية على الطريق العام بدون إذن خاص، ثم تضاغت منذ سبعينيات القرن الماضي نصوص القوانين المتعلقة بهذا الموضوع، حتى بدأت استعادة الأماكن العامة لصالح الموسيقين في الثمانينات، فصارت الأماكن العامة أكثر ترحيباً بالنشاط الموسيقي، ومضاعفة الأنشطة الاحتفالية المساهمة في إعادة تقييم مكانة الموسيقى في الأماكن العامة الباريسية، بمبادرة من الدولة بهدف الجاذبية السياحية في باريس، فصدر مرسوم في 9 سبتمبر 1982 يسمح بالعروض في الشوارع بين الساعة 10 صباحاً و8 مساءً في الأماكن ذات الازدحام الشديد. (Antoine, 2017, p 101)

- موسيقى المطاعم:

يعاني معظم موسيقيو المطاعم من الاستغلال في مجال عملهم، ووصف أحدهم الصعوبات التي يواجهها في عمله كتصرفات الزبائن السيئة بسبب الإفراط في تناول الكحول أما بالنسبة للإدارة، فهناك ظلم في الأجور، إضافة للعمل لوقت متأخر في المطاعم يقول: "دمي كليتحرق، عييت من السهر أنا اعزف حتى الرابعة صباحاً، وعندما امرض ادفع ثمن العلاج من جيبتي، وإذا كان مرضاً طويل الأمد يمكن أن أفقد العمل، حيث لا توجد حقوق صحية ولا شيء على الإطلاق، وهناك أقارب لا يريدون استمراري كموسيقي مطاعم، أعتقد أن الله قدر لي هذا العمل، وأشعر أحياناً بالذنب." (عادل 44 سنة، متزوج، من الحي المحمدي، الدار البيضاء).

وتعكس صعوبة العمل في موسيقى المطاعم على حياة الاجتماعية للفنانين، حيث يمكن أن تؤدي للتفكك الأسري، فيحكي موسيقي مطاعم أنه عانى مادياً خلال وباء كوفيد19 بسبب الإغلاق الإلزامي للمطاعم، ونشأت مشاكل كبيرة بينه وبين زوجته أدت للطلاق لأنها لم تعد قادرة على تحمل وضعه غير المستقر الذي يعتمد على ظروف المطعم، يقول: "أثناء إغلاق المطعم، اضطرت للعمل في شركة لتغطية مصاريفي ونفقات أطفالي الصغار (الأدوات المدرسية، الإيجار، الأعياد... الخ)"، (محمد 35 سنة، مطلق، الحي المحمدي بالدار البيضاء).

ويقول موسيقي آخر أنه توقف عن العمل في المطاعم لأن ابنته كبرت وبدأت في التساؤل عن طبيعة عمله، ولم يخبرها بالحقيقة حتى سمعت من الأقارب أنه يعمل في مكان يقدمون فيه الكحول، فسألته ذات يوم هل صحيح أنه يشرب الخمر؟ فشرع بالخرج، وعلم أنها بدأت في فهم ما يدور حولها، فقرر البحث عن عمل آخر. (أمين، 42 سنة، متزوج، من سباتة، بالدار البيضاء).

■ فن الغرافيتي بين الحرية والقيود:

يواجه معظم فناني الجرافيتي العديد من المشاكل التي تعيقهم، يحكي أحدهم أن تجربته الأولى مع هذا النوع من الرسم كانت مع مجموعة من الشباب في مدينة برشيد حيث رسم لأول مرة على الجدار، وكان الخطأ يكلف خمس دقائق لمحوه، واحتمال حدوث خطأ محتمل للغاية لأن الرسم أمام أعين الآخرين يثير القلق، والخوف، لذلك قرر التوجه لرسم الجداريات، لكن يتطلب ذلك ترخيصاً، وتقنيات كبيرة وطرق لتفادي الوقوع في المشاكل، وذهب احد الأيام مع مجموعته لجدار ليرسموا عليه، فدهمته الشرطة، وطردهم؛ لكنهم عادوا ليلاً لإنهاء الجدارية. (محسن 29 سنة، أعزب، من درب سلطان بالدار البيضاء).

ويواجه فنانون الجرافيتي العديد من المشاكل:

- يكلف الخطأ على الجدار وقتاً لمحوه.
- تجعل ممارسة فن الجرافيتي أمام أعين المارة في الشارع احتمال الخطأ واردا بسبب الارتباك والتوتر.
- تتطلب الجدارية تقنيات كبيرة تحتاج ترخيص من السلطات، أو البحث عن أماكن مهجورة للرسم، هرباً من مطاردة الشرطة.
- عدم تقدير أعمال الجرافيتي الفنية.
- ارتفاع أسعار مواد الرسم.

وتولي الدولة أهمية فقط للفنون الخاضعة لسلطة مؤسساتها، عكس الممارسات غير المنظمة، فلا تحتضنها، حيث يرتبط الأداء التنظيمي لمؤسسات الدولة في المجتمع الحديث بقوة التنظيم الإداري لفعاليتها المختلفة في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، ولا تولي اهتماماً لفن الجرافيتي باعتباره ممارسة مخالفة للقانون. (الأصفر، 2012، ص 157)

وترجع معظم المشاكل التي يواجهها فنانون الهامش أساساً لوضعهم غير المعترف به قانونياً واجتماعياً فن وجهة نظر القانون، يمارس فنان الهامش عملاً غير قانوني، وبالتالي يمكن تطبيق القانون عليه عند تخريبه للممتلكات العامة أو الخاصة، أو الاستغلال العشوائي الفضوي للفضاء العام كما لا يزال من وجهة نظر اجتماعية، رفض عام لبعض الفنون التي تتجاوز العادات والتقاليد المشتركة.

II. الكتابة الجرافيتية على جدران الشوارع: رسائل وشعارات، وآمال.

انزع الجرافيتي اعترافاً من المؤسسة الثقافية بشكل عام خلال ثورة مايو 1968 رغم عدم الاعتراف بها صراحة إلا أنها فقد شكلت ملهماً ثقافياً، حتى أن شعاراتها استلهمت ووظفت في أعمال أدبية وإبداعية.

ويعرف الشاعر أبولينار Apollinaire الغرافيتي بكونه "صراخ محفور". فهو ضد الصمت، ومن ناحية الوسائل، تستخدم تقنيات للظهور والإظهار بما في ذلك استعمال قنينات الصباغة التي تغطي مساحات كبيرة من الجدران في وقت قصير، كما تغطي الكتابة على الجدران وعلى مستوى الفضاء جميع المساحات بما في ذلك شوارع المدن الرئيسية، وواجهات المباني لجذب الانتباه، مثل صراخ من يرفع صوته للتعبير عن الألم، أو الاحتجاج، أو الرغبة، ويستخدم المغرقت على مستوى الخط عادة الخط المفخم، والكلمات القوية، ويتمثل هذا لحد كبير مع الصراخ للإبراز والإظهار. (شراك، ص 148)

وأقر معظم فناني الغرافيتي الذين قابلناهم بالموضوعات المختلفة التي يكتبونها على الجدران، يقول أحدهم: "أنا أكتب على الجدران ما يدور في رأسي في تلك اللحظات، قد أكون غاضباً من أحد، فأشتمه بكلمات بذئمة، وأذكر اسمه على الجدار لأشفي غضبي، أو إشاعة أسراره وعيوبه لأنتقم منه. (أيوب 20 سنة، أعزب، من سيدي معروف بالدار البيضاء).

ويقصد بالشتيمة إهانة المرسل إليه باستخدام عبارات بذئمة للتأثير عليه نفسياً، أما الإشاعة فهي أنواع (الإشاعة الخرافية، الإشاعة البطولية... الخ) أما الإشاعة الطاغية على صعيد الغرافيتيا فهي الإشاعة التشهيرية، التي يكون هدفها الإساءة إلى الغير وتشويه صورته، والنيل من مكانته. (المهروي، 2000، ص 15).

وتوجد أنواع من الشتائم على جدران الشوارع، مثل:

○ شتائم جنسية: تدور حول الشذوذ الجنسي والدعارة، وغاية شتيمة الشذوذ الجنسي الاعتداء على كرامة الرجل بنعته بـ(الزامل، القواد) وهي من أقوى الشتائم في المغرب العربي، ولا يقل المفعول السلبي على المرأة اتهامها بالدعارة نفسياً، واجتماعياً. (شراك، ص 228)

○ شتائم حيوانية: للتقليل من مكانة المرسل إليه ب تصويره، أو وصفه باسم حيوان، وأكثر الشتائم الحيوانية شيوعاً (الحمار) للبلاد التي يرمز لها. (شراك، ص 230)

ويشير فنانون الغرافيتي لأنواع أخرى من الكتابة الغرافيتية، ويعترف أحدهم أنه تجرأ أحياناً على كتابة كلمات بذئمة تتعلق بالرغبة الجنسية تجاه فتاة، بوصف مفاتنها. (ربيع 22 عاماً، أعزب، من منطقة سباتة، بالدار البيضاء)

وتطلق الغرافيتي الجنسية والبورنوغرافية، بتقديم الجنس كقيمة فاحشة، بدءاً بتسمية الأعضاء التناسلية والتعبير عن المسكوت عنه، حيث يتجاوز الحديث المهذب عن الجنس للتطرق إليه بكلام فاحش. (شراك، ص 221)

ويعتبر الكبت وحرمان المعرفة من الممارسة الجنسية في محيطه الاجتماعي أهم الأسباب التي تدفعه للتعبير عن رغباته على الجدار، كونها من أكثر الطابوهات تحريماً خارج إطار الزواج، فيذكر أحد فناني الغرافيتي أنه سبق أن عبر عن مشاعر الحب والإعجاب في كتاباته الغرافيتية بفتاة ربطته بها علاقة عاطفية انتهت بالفراق، فلاً الجدران بكلمات الألم، وعدم القدرة على نسيان هذه التجربة، يقول: "استخدمت اسمها زينب للتعبير عن مشاعري ووشمت هذا الاسم على ذراعي. (محمد 23 سنة، أعزب، منطقة عين السبع، بالدار البيضاء).

وتعتمد الغرافيتي الرومانسية على موضوع الحب وتستخدم الكلام المكتوب والرسوم للتعبير عن مشاعر الحب تجاه حبيبه. (شراك، ص 222)

ويكون من الصعب على الإنسان التعبير عن مشاعره بشكل مباشر بسبب التنشئة الاجتماعية التي تربى الفرد على قمع عواطفه، ما ينتج نوعاً من النجل والتردد، فيلجأ للجدار للتعبير عن مشاعره بحرية، ويصرح فنانون الغرافيتي أنهم غالباً ما يكتبون على الجدران للتعبير عن أنفسهم، ولا يوجهون خطابهم لمتلق بل هو خطاب شخصي معلن على الجدران، للتنفيس عن مشاعر مكبوتة، يقول أحدهم أنه لا يجد في كثير من الأحيان أي شخص يتحدث إليه عن أفكاره ومشاعره، وفي هذه الحالة، يكون الجدار هو الأذن المستمعة، لذلك يكتب أفكاره ويفرغ غضبه عليه، ويسمى هذا النوع من الغرافيتي المونولوج، الذي لا يشارك في إنتاجه المرسل إليه، حيث يبقى المتلقي مضمراً (رشيد 25 سنة، أعزب، من سباتة بالدار البيضاء). (شراك، ص 226)

ويحضر الدين في الغرافيتيا بشوارع الدار البيضاء، ويرجع ذلك للمدرسة، والتنشئة الاجتماعية والهوية، فتتوزع هذه الغرافيتيا، ما بين البسمة والشهادة والآذان وكتابة أحاديث نبوية وآيات قرآنية. (المرجع السابق، ص 234.)

ويتناول المبحوثون الأحداث والمواقف التي دفعتهم للكتابة على الجدران، يروي مغرقت أنه خلال أحداث مجلة شارل إيدو CH. Hebdo الفرنسية، التي أساءت للرسول (ص) نشر رسوماً كاريكاتورية ساخرة، وكتب على الجدران معرباً عن رفضه واحتجاجه، وجعله هذا نفوراً بهويته الدينية. (محسن 29 سنة، أعزب، من درب سلطان بالدار البيضاء).

وتشكل غرافيتيا الأسماء تيمة من تيمات الغرافيتيا، ليس على الصعيد المحلي، بل على الصعيد الكوني، وأكد المغرقتون أن بدايتهم الفنية كانت بكتابة أسمائهم على الجدران باستخدام قنينات الصباغة، ووضع توقيعهم الخاص، وعندما يمر الناس من هناك، يشعرون بالسعادة، وتؤكد مجمل الدراسات أن كتابة الاسم هي تأكيد لحضور ما في المكان والزمان، تشمل كل الناس على مختلف طبقاتهم وتراتباتهم

الاجتماعية، ويمكن أن يكون هذا النوع من الكتابة على الجدران نوعاً من إثبات الذات، بسبب الشعور بعدم الثقة في مواجهة الحياة الاجتماعية.

وتطرق فنانون الجرافيتي للكتابة على الجدران التي تدر عليهم دخلاً مادياً، وهذا النوع من الكتابة ليس مخصصاً للنقد الاجتماعي، أو التعبير عن الذات، يقول أحدهم أنه كثيراً ما قام بعمل إعلانات جرافيتي للعديد من المؤسسات والمتاجر، بسبب حاجته المادية، ويتطلب ذلك رخصة قانونية وعقد عمل مع صاحب الجدار، (إبراهيم، 23 عاماً، أعزب، من سيدي معروف بالدار البيضاء) وتحمل جرافيتيا الإشهار طابع الدعاية لشخصيات أو مواقف أو تصورات. (أحمد شارك، ص 235)

وتسخر كتابة الجرافيتي لدعم فريق رياضي حيث تركز الكتابة على الجدران الرياضية على موضوع الرياضة، وتستهدف دعم فريق رياضي معين، إما من خلال المشاركة في مجموعة رياضية أو بشكل مستقل، فيقول أحدهم: "أنا أكتب في غالب الأحيان على الجدران شعارات إخبارية تساند فريق الرجاء البيضاوي.". (عثمان، 17 عاماً، أعزب، الحي المحمدي، الدار البيضاء)

ولعل أهم كتابات الجرافيتي على جدران الدار البيضاء تلك التي تنتقد النظام السياسي والاجتماعي، فيشير فنان جرافيتي أنه يستخدم الجدران وقنينات الصباغة للتعبير عن مواقفه وآرائه حول المجتمع، والسياسة وهذه طريقة مثالية لتبليغ الأفكار للناس، وتغيير العقليات وزيادة الوعي. (عبد الصمد، 26 عاماً، أعزب، مولاي رشيد، الدار البيضاء).

وترتكز الكتابة النقدية على الجدران على النقد الاجتماعي والسياسي، وتستهدف ترك بصمة احتجاجية على وضع ما، أملاً في التغيير، حيث يستخدم فنانون الجرافيتي الكتابة للتعبير عما يتعلق بأفكارهم ومشاعرهم، دون موضوع محدد لهذه الكتابات، كونها مرتبطة بالظروف والتنشئة الاجتماعية للمغرب، وهي إما خطاب موجه للمرسل إليه، أو مونولوج يستهدف التعبير عن الآمال والمشاعر والأفكار، وكتابات الجرافيتي الأكثر انتشاراً في الشوارع هي:

أ- الجرافيتيا: الرومانسية.

ب- الجرافيتيا الجنسية.

ت- الجرافيتيا الدينية.

ث- الجرافيتيا الرياضية.

ج- الجرافيتي النقدية.

- الكتابة الإيروتيكية والمجتمع:

الكتابة الجنسية، كتابة أوروبية مأخوذة من الإله الإغريقي أيروس، وهو إله الرغبة والحب والخصوبة، أما اللفظة الإنجليزية Eros فهي إروتك، وتعني المثير للشهوة، وهناك فرق بين كلمتي أوروبية وإيروتيكية، فالأوروبية هي التعمق في إظهار المشاعر، من دون التطرق إلى العملية الجنسية، وحين يندفع الكاتب إلى المستوى الجنسي فتعد كتاباته إيروتيكية. (محمد، زيان، 2019، ص 12)

هناك من ينزعج من الغرافيتيا ويتناولها من منظور أخلاقي كونها ظاهرة غير حضارية وسلبية، تستلزم تدخل السلطات، لأنها تتنافى مع الذوق العام، وأحيانا تخدش حياء الناس، لما تتضمنه من عبارات جنسية غير لائقة، وتدفع صعوبة التعبير الكثير من الشباب الذين يصطلح عليهم بالمغرفتين، لممارسة الغرافيتيا كوسيلة للتحرر من كبت السلوكات الجنسية وقمع حرية التعبير في الفضاء الاجتماعي، (محمد زيان، 2019، ص 6) كما أن الحديث عن الجنس أو معاشته خارج القواعد المتعارف عليها، حيث أن مجرد الحديث عن الجنس، يبدو في نظر الأخلاق العامة شيئاً شاذاً، وتحيل الكلمات الجنسية المكتوبة والرسومات الاغرائية لنوع من التمرد على النظام الاجتماعي. (محمد زيان، 2019، ص 6)

ولعل ما تزخر به الخطابات اللغوية من شتائم وكلمات فاحشة، بالمجتمع المغربي يحيل لكونها جزء من اللغة المشتركة، الزاخرة بالإيحاءات الجنسية، تكون موجهة للأنثى، والشتيمة للرجل، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار مضمون الشتيمة أو الفحش، سنكتشف أن مصدريهما ذكوري. (محمد زيان، 2019، ص 6)

ويؤسس المجتمع قواعده الاجتماعية، يحدد من خلالها مصالحه ويوطد علاقته مع أفراد وجماعته، ومؤسساته الاجتماعية، ومن هنا خلقت المجتمعات نظام اجتماعي يتضمن المعايير والقيم والتعاليم والقوانين الاجتماعية، وتبين للأفراد الممنوعات والمرغوبات، وهذا ما يسمى بالضبط الاجتماعي. (محمد زيان، 2019، ص 6)

ويعتبر الضبط الاجتماعي بأنه سيطرة مقصودة وهادفة لها قوة دفاعية لا يستهان بها في إحداث الاستقرار الاجتماعي، وبالتالي فإن الفرد ملزم باحترام النظام الاجتماعي، فلا يخرج عن معايير المجتمع وقوانينه، وتستدعي مخالفة النظام الاجتماعي العقاب والردع. (محمد زيان، 2019، ص 14)

- أصناف الغرافيتي: أشكال تعبيرية على الجدران.

يشمل مصطلح الغرافيتيا العديد من أنواع الفن المختلفة، حيث هناك العديد من الأساليب والتقنيات والوسائط المختلفة التي يمكن استخدامها لإنشاء رسومات على الجدران، وتشير المدرسة القديمة إلى أنماط الغرافيتي التي تطورت في السبعينيات والثمانينيات أيام الأولى لفن الكتابة على الجدران، وهي علامات أساسية وكتابات عثر عليها لأول مرة على نطاق واسع في مترو أنفاق نيويورك.

وحاولها البحث التطرق لميول فناني الغرافيتي التي تختلف من فنان إلى آخر، حيث أشار بعضهم إلى تفضيلهم لنوع من الغرافيتي يسمى ب Wild style وهو صنف تندمج فيه الحروف البيئات معقدة ومتشابكة ما يجعل من الصعب تمييز ما تم كتابته، فيخلق هذا النمط من الحروف والأشكال صوراً تجريدية ديناميكية حيث لا يمكن اكتشاف الحروف إلا من المتخصصين، يقول أحدهم أنه يفضل هذا النوع من الكتابة على الجدران لأنه يجب هذا التداخل بين الحروف ما يعطي الكلمات غموضاً وجمالاً، وأشار آخر إلى أن هذا النوع من الكتابة على الجدران، يمنح حرية كتابة رسائل مشفرة ضد السلطة السياسية، أو الاجتماعية، أو فريق كرة قدم لصعوبة فك رموزه.

وأقرت مجموعة أخرى أنهم يمارسون نوعاً من الكتابة على الجدران يسمى الفقاعة Bubble وهي أحرف مستديرة، تتداخل جزئياً ما يؤدي لتكوين صورة تتسع وتتفجر بطريقة ما، ويمنح اسم هذا الأسلوب من الكتابة على الجدران الكثير من الجمال، ويمكن عمل نمط الغرافيتي الفقاعي بلونين، ورش الحروف بلون واحد، ثم تحديدها لاحقاً بلون آخر، وإنشاء تباين، أو تطبيق ألوان متعددة للحصول على تأثير أكثر نشاطاً، يقول أحدهم أنه يفضل هذا النوع من الكتابة على الجدران لأن الشكل المنخم والمستدير للأحرف يعطي الكلمات جمالاً بارزاً، ويرى آخر أن الحروف المستديرة تظهر وكأنها ستنفجر أو تخرج من الجدار، ما يجعل هذا النمط من الكتابة على الجدران يتميز بديناميكية عالية.

وأقر بعض فناني الغرافيتي أنهم يستخدمون صنفاً من الكتابة على الجدران يسمى بغرافيتي الفرشاة وهو سريع التنفيذ نسبياً بمجرد تسوية التصميم الأولي، ويستخدم هذا الصنف لخلق تأثير سلس خال من الخطوط غير الضرورية والتفاصيل الصغيرة، ويمكن استخدام الفرشاة لعمل نقاط دقيقة، ما يؤدي إلى نتيجة أكثر نسيجاً، يقول أحدهم أنه يفضل استخدام الفرشاة أثناء الكتابة على الجدران لأن هذا الأسلوب سريع ومرن وله خاصية جمالية مختلفة عن الأصناف الأخرى من الغرافيتي.

وكشفت مجموعة من فناني الغرافيتي أنهم يمارسون صنف من الغرافيتي يسمى حروف Blockbuster وترمز للجداريات الكبيرة المصنوعة من حروف مرسومة بسرعة، باستخدام الرشاش، والهدف منها تغطية مساحة كبيرة في فترة قصيرة من الزمن، وتتميز بمجموعتان، تستخدم الأولى الأحرف الكبيرة المربعة والمستطيلة، بينما الثانية، wholecar وتعني فن الرش على مساحة كبيرة قد تغطي القطارات بأكلها، من اليسار إلى اليمين ومن أعلى إلى أسفل.

وذكرت مجموعة من فناني الغرافيتي أنهم يمارسون صنفاً من الغرافيتي يسمى بغطاء الدهون FAT و هو اسم لأسلوب لفن الكتابة على الجدران، ابتكره فنان الغرافيتي سوبركول Super cool في

أواخر الستينيات، وتميز بتدفق أوسع للرش من العلبة، يؤدي لإنشاء أكبر الخطوط، حيث توضع الفوهة على علبة من الطلاء بالرش ويتم استخدامه بشكل خاص لوضع العلامات والتلوين. وأشار البعض الآخر إلى تفضيلهم أسلوب الاستنسل Stencil وهو نمط أكثر شيوعاً في الوقت الحالي، ويرمز لأسلوب الكتابة على الجدران حيث تستخدم الأشكال المصنوعة من الورق المقوى، أو الورق، ومواد أخرى لإعادة إنتاج الصور، فيتم قطع الأشكال المرغوبة من هذه المادة وتطبيقها بالطلاء بالرش، ويجعل هذا الصنف نسخ الصور أمراً سهلاً، ما يساهم في زيادة شعبية هذا النمط.

- الرسم، الكتابة، الوشم: مساحة للتعبير على الجسد.

يعتبر الجسد من أكثر المساحات التي استغلها الإنسان للتعبير عن نفسه، برسم علامات ثابتة على الجسم بثقب الجلد الشفاه بالإبر، أو الأيدي ثم حشوه بالكحل الأسود أو المساحيق، أو الأحبار وهو للتجميل أو للتمييز، وقد اعتاد الإنسان الوشم على الجسد منذ العصور القديمة فهو كائن تواصلية يجب التعبير عن أفكاره ومشاعره، فأدرك الإنسان البدائي أن للوشم فوائد جمالية، فكان يدهن جسمه بغية الإحساس بشعور جميل، ثم وجدت النسوة في الندوب التي تتركها الحروب وصيد الحيوانات على أجساد الرجال علامات جميلة، تدل على شجاعته، واستخدم الوشم في مرحلة لاحقة للزينة وإخفاء بعض من عيوب الجسد، وكان الإنسان البدائي يوشم على جسده صوراً لبعض الحيوانات، أو رموزاً تشير إلى القبيلة التي ينتمي إليها.

ويعد الوشم من أقدم فنون التشكيل الشعبي التي عرفها الإنسان للتجميل الجسدي حيث يتم الوشم بالرسم على الجسم بواسطة مواد ملونة وأحبار يتم إدخالها للجلد بشكل دائم أو مؤقت لتوصيل رسالة، ويستخدم الإنسان الوشم لغايات جمالية، ويستخدم للحيوان أيضاً كضرورة لعدم اختلاط أنواع مالك مع نفس النوع لمالك آخر.

وكان الانتشار الفني الأول لرسم الوشم في الهند عام 1591م، وقد تم اكتشاف ذلك بواسطة النحاتة الهولندية تيودور دربي، ويعد تزيين الجسد بتسمياته المختلفة من تزيين وزخرفة وغيرها من سمات تلك الفترة، واتجه الهنود إلى وشم ضمن رسوم تقديس الحيوانات وخاصة البقر، التي تمتاز بها الديانة الهندوسية.

ووصل الوشم إلى اليابانيين عن طريق أمريكا بعد الحرب العالمية الأولى، إذ كان الأمريكيان يختمون البقر والماشية بعلامات مميزة لتكون معروفة لمن يمتلكها، وتطور عندهم الوشم عن طريق السكان الأصليين في أمريكا وهم الهنود الحمر، وكانت طريقة الوشم عندهم تعتمد على النقر بالإبرة أو بشيء حاد ومن ثم إدخال المواد الملونة إلى داخل الجلد الذي يصيبه الخدر بعد فترة وجيزة من بداية

العملية، ثم وصل إلى العرب و أصبح وسيلة لتجميل النساء وكتابات ورسومات للرجال من أجل إعلان محبتهم لشخص ما، أو رسوم لإبراز القوة، أو لدرء الحسد حسب مفهومهم.

وانتشر الوشم في أوروبا عن طريق العجر الذين كانوا يستخدمون الوشم كأسلوب لتغطية أجسادهم، وأدخل المستكشف البريطاني جيمس كوك الوشم إلى أوروبا في العام 1771م بعد عودته من البحار الجنوبية، حيث شاهد التاهيتين بجنوب البلاد يمارسون فن الوشم، أما الرومان فاستخدموه لتعليم وتمييز عبيدهم وحيواناتهم. (مي محمد إبراهيم أبو زيد، وآخرون، 2018، ص 10).

وتتعدد أنواع الوشوم على الجسد، التي تتجلى في الموضوعات التالية:

- الوشم التجميلي: يستعمل كأسلوب من أساليب الجمال و الألوثة لتزيين حواف الجفون بالسواد وتحديد الحواجب أو تطاير الشفاه. (يحيي سويلم، 2013، ص 12)

- الوشم العلاجي: تعتقد بعض المجتمعات البدائية و القبائل البدوية أن الوشم يحفظ من الأمراض و يمنع الحسد و يطرد الشياطين، لذا يعتبر وسيلة شفاء و علاج شعبي، كما يستفاد منه إخفاء العيوب و التشوهات. (يحيي سويلم، 2013، ص 12)

- الوشم المناسباتي: يرتبط هذا النوع من الوشم بالوضعية الاجتماعية لحامله، وعادة ما يتخلل الأحداث و المناسبات المرتبطة بدورة حياته، لكن عادة ما يكون مشتركاً بين أفراد الجماعة الواحدة بموجب عقود الانتماء الاجتماعي. (نسيمة طايلب، 2021، ص 10)

- وشم الزواج: تقوم النساء المقبلات على الزواج بوشم مواضع مختلفة من أجسادهن تعبيراً عن الاستعداد لتحمل المسؤولية الزوجية، فيكون تحمل آلام الوخز عربون الانتقال من مرحلة العزوبية إلى مرحلة الزواج. (عبد الحكيم خليل سيد أحمد، 2012، ص 20)

وتعود تسمية الوشم لتاهيتي في بولينيزيا ومعناها (الإشارة) وفي دراسة لكلود ليفي ستراوس (C.I.Straouss)، بعنوان "افاق حزينة"، أبدى اهتماماً بالفنون البدائية خاصة الأفريقية، وقدم نماذج فنية من الإبداع الفني في الفن التشكيلي، والوشم، والزخرفة وغيرها من الفنون الأفريقية الجمالية، وتحتوي الدراسة على نماذج فنية لرسوم الوشم، ونماذج أساليب الرسم لتزيين الجسم، مع إيضاح لطريقة الوشم والإشارة لما يرتبط بتلك الرسوم من معتقدات.

واستخدم الرمز كوشم وكان يطلق عليه كلمة "طو طم" أو "Totemisme" التي تنسب إليها العقيدة التوتمية والتي كانت تطلق طو طم على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذة العشائر التي تنتمي لنفس العقيدة رمزاً لها ولقبا لجميع أفرادها، وتعطي الأمور التي تنتمي إليه منزلة التقديس. (مي محمد إبراهيم أبو زيد، 2018، ص 11)

وعرف سايمون وينر الوشم بأنه عملية نقش لرمز مرسوم على البشرة، فهو يمثل نوعاً من الكتابة الدائمة لثباته على البشرة أو يمثل نوعاً من الرسوم الزائلة كونه يعبر عن فترة محددة من الحياة، فهو يحدث خدشاً وإصابة على الجسد بحيث يبرز على الجسم الرمز والصورة، أي أنه يتوضع ما بين تقاطع ثنائي يجمع بين الخيالي والرمزي. (راجي حلبي طلعات، 2008، ص 12).

هل هناك علاقة بين الغرافيتي والوشم؟

تختلف في الوسائل والطريقة لأن فنان الوشم الحديث يستخدم آلة مخصصة لرسم الوشم تسمى مسدس الوشم، وتعتمد هذه الآلة على الطاقة الكهرومغناطيسية، بالإضافة إلى استخدام حبر للوشم المصنوع من الكربون، وأدوات التعقيم لتجنب العدوى المنقولة بالدم، أما المغرقت يستخدم أقلام ملونة أرت ماركرز markers art ويعتبر أن جسده مساحة للتعبير، ولا يحتاج لترخيص أو إذن.

الكتابة والرسم على الجسد: امتلاك سلطة الخطاب

أقر معظم فناني الغرافيتي أنهم يمارسون الكتابة والرسم على أجسادهم، لأنهم الوحيدون الذين لهم سلطة على هذا الجسد، وتعلق بالتالي المسألة بالشعور بالامتلاك، الذي لا يتمتعون به بممارسة الغرافيتي على الجدران التي لا يمتلكونها، وأشار أحدهم إلى أن الكتابة على الجسد تختلف عن الكتابة على الجدران لأن من يستخدمون أجسادهم في الوشم بالكتابة، أو الرسم، يشعرون بامتلاك أعضاءهم بينما الجدران منفصلة عنهم، فتكون الموضوعات الموشومة على الجسم بالتالي أكثر حميمية وذاتية، وترتبط غالباً ما بالتجارب الشخصية للشخص. (فيصل، 31 عاماً، عازب، سبائة، الدار البيضاء)

وصرح آخر أن الجسد ملكية شخصية والكتابة، أو الرسم عليه لا يمنح لأي أحد الحق في ممارسة سلطة العقاب التي يمارسها القانون على فناني الغرافيتي عند استخدامهم الملك العام، وهذه ميزة الكتابة والرسم على الجسد. (عبد الرحيم، 29 عاماً، عازب، حي المحمدي، الدار البيضاء).

وأقر فنان غرافيتي أن امتلاك المساحة التي يعبر فيها يمنحه إحساساً بالقوة والإلهام والإبداع، لذلك تختلف رسومات الغرافيتي على الجسد تماماً ولديها خصوصية حميمة وفريدة، ويمكن أن يستخدم الفنان الوشم على جسده للاحتجاج على الأوضاع السياسية، والاجتماعية بحرية وبلا خوف لأنه يستطيع إخفائه بالملابس. (عبد الإله، 28 عاماً، عازب، سبائة، الدار البيضاء).

الكتابة والرسم على الجسد: الأمان والحرية.

يعتبر فنانو الغرافيتي أن ما ينقصهم حقاً في ممارسة هذا الفن هو الشعور بالأمان الذي يسمح لهم بالتركيز وإتقان المهارات الفنية، فهم يخشون الوقوع في أيدي الشرطة أو أصحاب الجدران، وبالتالي يمارسون فهم بسرعة وقلق، أما الخريشة على الجسد تمنحهم شعوراً بالأمان، يقول أحدهم أنه يكون أكثر

إبداعاً عندما يرسم على جسده، بينما رسوماته على الجدران قلقة وسريعة ومحدودة، لأن الخوف يحد من قدرته على الممارسة الإبداعية. (إبراهيم، 23 عاماً، عازب، من منطقة سيدي معروف بالدار البيضاء). وأشار مغرقت أن السلطة ليس لها الحق في اعتقاله لممارسة الكتابة والرسم على جسده وبالتالي فإن الخبرات الجسدية تحمي من الاعتقال والعقاب، وهذا ما يميزها عن الجرافيتيا الخارجية التي تتطلب الإذن والترخيص. (محسن 29 سنة، عازب، من منطقة درب سلطان، بالدار البيضاء).

وصرحت فنانة جرافيتي أن الكتابة والرسم على أجزاء من جسدها يمكن إخفائها بالملابس أو محوها تحميها من لوم المجتمع ومن عقاب عائلتها، فممارسة الأنثى للجرافيتي على الجدران أمر غير مقبول اجتماعياً، وإحساسها بالأمان بعيداً عن العالم الخارجي يدفعها إلى الإبداع. (خديجة 19 سنة عازبة، منطقة البرنوصي، الدار البيضاء).

وتختلف الأساليب المتبعة في تثبيت الرسومات على جسد الموشوم من بلد لآخر، ومن ثقافة ألي أخرى، وحتى من حقبة زمنية للثانية، حسب الطبيعة الاجتماعية والمناخية وحتى حسب تركيبة العادات والتقاليد التي تسود المنطقة، لكنه من الناحية التطبيقية يتم على العموم وفق تقنيتين رئيسيتين: تتم الأولى بأدوات ثابتة للجلد، مثل: الابر والسكاكين الحادة والدقيقة التي بإمكانها إحداث جروح جلدية دائمة، أما التقنية الثانية فتعتمد على ملونات حيوانية و مساحيق مختلفة من كحل وغم وعصارة نباتية وقد تترك أثراً مؤقت. (أحمد يوسف الحاج، 2003، ص 654)

وصرح معظم فناني الجرافيتي أن الكتابة والرسم على الجسد يمنحان المغرقتين إحساساً بالحرية في التعبير عن الموضوعات التي يريدون التعبير عنها، يقول أحدهم أنه حر في كتابة أو رسم ما يريد على جسده، وهذا الشعور بالحرية هو حافز قوي للإبداع، وهو ما لا يمتلكه عندما يرسم على الجدران. (عبد الله، 36 سنة، عازب، من منطقة سيدي مومن بالدار البيضاء).

وأشار آخر إلى أن الرسم على الجسد يحرره من الخوف والاختباء والترقب، ويمنحه الفرصة للتعبير بحرية عن أفكاره ومشاعره تجاه بيئته الاجتماعية. (وائل، 29 عاماً، عازب، حي المحمدي، مدينة الدار البيضاء).

الوشم والرمز:

تميزت رموز الوشم عبر تاريخه العريق، خاصة في المرحلة الطوطمية، برسم أشكال هندسية أو مجموعة متنوعة من النقاط والخطوط، فالحياة الاجتماعية للمجتمعات لم تكن ممكنة دون الرموز، والرمزية الطوطمية إحدى أوجهها، أما الوشم فهو الطريقة المثلى لإظهارها، لذا يتجه الأفراد بشكل

جماعي إلى رسم رموزهم المقدسة على أجسادهم أو تثبيتها بشكل دائم تأكيداً لانتمائهم القبلي كشكل من أشكال الوشم الهوياتي. (بلقاسم الجطاري، 2000، ص 71)

وفي الوشم الجماعي، فعادة ما نجد مدلول الوشم يتحدد بناء على محددات سياقية متصلة بالاستخدام الثقافي والاجتماعي لحامله، فإذا كان السيف على جسد المساجين يعبر عن عدائيتهم أو سلطويتهم أو نزعة العنف في سلوكياتهم، فإنه قد يعني حين اقترانه برمز القلب على الاستعداد للتضحية في سبيل الحب أو ما شابهه من مشاعر، لكنه يرمز في الوشم الجماعي التقليدي أو الشعبي إلى البطولة والشجاعة والاستعداد للقتال والكفاح. (نسيمة طايلب، 2021، ص 2، 15)

وتمنح الجماعة الرموز الوشمية معنى مشتركاً، خاصة في وشم الانتماء القبلي، أما الوشم المعاصر فقد تحرر من سلطة الجماعة خلال كتابة الرموز على الجسد وقراءتها، وأصبح النص الوشمي منفتحاً على الأهواء الشخصية والحالة الوجدانية للواشم، وتعددت التصورات النظرية المتعلقة بظاهرة الوشم، واختلفت باختلاف المناطق التي ظهرت بها والشعوب التي مارسها وتبنتها؛ فهي في الأصل ظاهرة قديمة قدم الانسان متجذرة في تاريخه العريق، أخذت بالتراجع لدى العديد من الشعوب عقب تحريمها، بينما بقيت بعض الشعوب الأخرى تمارسها ضمن العادات والتقاليد الشعبية المتوارثة، لكنها عادت إلى الظهور بقوة في السنوات القليلة الأخيرة برموز ورسائل مغايرة تسير متطلبات العصر. (نسيمة طايلب، 2021، ص 71)

ويحاول بحثنا التطرق الى رمزية الجرافيتيا، من خلال استكشاف نوعية الخطاب الرمزي الذي يستخدمه المغرب.

فما العلاقة بين الرمز والجرافيتي؟

ذكر فنانون الجرافيتي أنهم يستخدمون رموزاً جسدية على شكل حروف مكتوبة بطرق مختلفة أو رسومات على شكل رؤوس أو أشكال هندسية، للتعبير عن مواضيع مختلفة، قال أحدهم أنه يستخدم الحروف الفرنسية بطرق مختلفة لكتابة اسمه أو اسم صديقه أو اسم فريقه المفضل، وأحياناً لإرسال رسالة مشفرة حول موضوع سياسي أو اجتماعي. (محمد، 30 عاماً، عازب، حي مولاي رشيد، الدار البيضاء). وتسمح الرسوم الرمزية لفناني الجرافيتي بإرسال خطاب نقدي غير مباشر، قد يكون له تأويلات عديدة، لكنه يحميهم من الوقوع في فخ الخطاب الشفاف.

وأشار آخر إلى أنه يجب أن يرسم على جسده رؤوس الحيوانات المفترسة والقوية مثل الأفعى والأسد والنمر... لأنها ترمز إلى قوته وشخصيته الطموحة. (رشيد 25 سنة، عازب، من منطقة سباتة بالدار البيضاء).

التمثيلات الاجتماعية حول الرسم والكتابة على الجسد:

أجرينا مقابلات مع عينة من سكان أحياء مدينة الدار البيضاء، كُتبت على جدرانها رسومات ورموز غرافيتية، وقد اعتبر معظمهم أن جسد الإنسان ليس ملكية خاصة، بل بالعكس هو مشترك اجتماعي، وللآخرين الحق في إصدار أحكام وتعليقات في حالة استخدام الجسد لأغراض غير طبيعية، ويتصورون أن التخطيط أو الرسم أو الكتابة على الجسد هو انحراف وشذوذ عن الحالة الطبيعية التي يجب أن يكون عليها جسم الإنسان، ويصنفون الأشخاص الذين يمارسون هذا السلوك إلى ثلاث فئات:

- مدمني الكحول والمخدرات: يقوم هؤلاء الأشخاص بالرسم أو الكتابة على أجسادهم بسكين حاد، بدافع الرغبة في فرض صورة نمطية عن كونهم منحرفون ولا يخشون من عواقب أي شيء، وسعياً وراء المكانة الاجتماعية بطرق عنيفة ومؤذية للذات، ويرى الجمهور أن شخصا على وعي بتصرفاته ومدرك لعواقب سلوكه لا يمكن أن يعرض نفسه للأذى إلا إذا كان تحت تأثير المخدرات والكحول.

- المقلدين للغرب: هؤلاء الأشخاص يقلدون الغربيين لأنهم أكثر المروجين لثقافة الرسم والكتابة على الجسد، وبالتالي يقلد الشباب هذا السلوك ويعيدون انتاجه في مجتمعاتهم، ويعتبر الجمهور أن هؤلاء المقلدين للغرب يفرضون سلوكيات ثقافية غير طبيعية ويحاولون التأثير على الأجيال القادمة.

- المنحرفين دينيا: هؤلاء الأشخاص متمردون على الآراء الدينية التي تحرم استخدام الجسد لأغراض جمالية، وضد سلطة الرأي الجماعي الذي يتجه نحو تحريم الرسم على الجسد، حيث يتفق رأي الجمهور من وجهة نظر دينية على أن جسم الإنسان هو أمانة، مما يعني أن جسد المرء ليس ملكية شخصية، بل هو هدية إلهية مؤقتة ويجب الحفاظ عليها.

III. الغرافيتي والراب Underground: الاحتجاج والحركات الاجتماعية بالدار البيضاء

اهتم علم الاجتماع بالحركات الاجتماعية، وشهدت السنوات الأخيرة تناميها كرد فعل على ضغوطا سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وانتكاسات حقوقية من الحكومات، وكشف الاحتجاج عن اختلافات بالمجتمعات، ما يؤكد أن الاحتجاج يتم أحيانا لممارسة للضغط على السلطة، أو للتنفيس، ما يعكس وعيا جماعيا يمتلك ما يلزم من النضج في اختيار أساليب المواجهة. (إيمان الراعي، 2020، ص 9)

ويمكن القول أن لورنز فون ستاين L. Stein أول من استعمل مصطلح الحراك الاجتماعي لدلالة على أشكال الاحتجاج الهادف للتغيير، انطلاقا من سنة 1842، وثورة العبيد سبارتاكوس Spartacus ضد سلطة روما، وما تلاها من ثورات على مر القرون، كثورة العمال، والفلاحين،

والنساء...الخ وصولا للثلاث قرون الماضية من التاريخ البشري بما عرفته من ثورات مهمة، كالثورة الانجليزية 1698، والأمريكية 1776، والفرنسية 1789. (هاجر البدوي، 2022، ص 308) يرى هرير بلومر H. Plumer أن الاحتجاجات الاجتماعية تمثل الجهد الجماعي الرامي لتغيير طابع العلاقات الاجتماعية المستقر في مجتمع معين، ما يجعل منها مشاريع جماعية، تستهدف إقامة نظام جديد للحياة، وتستند لإحساس بعدم الرضا عن النمط السائد والرغبة في إقامة نسق مغاير. (إيمان الرامي، 2022، ص 10)

ويعتبر فرنسوا شازل F. CHazelle أن الحركة الاجتماعية فعل جماعي للاحتجاج، يستهدف إحداث تغيير في البنى الاجتماعية والسياسة، وبهذا المعنى فإن الحركة الاجتماعية قوة توازن ضرورية، تستمد شرعيتها من الحاجة الاجتماعية لها. (إيمان الرامي، 2020، ص 11)

- الوعي الجمعي والغرافيتي:

يعتبر الوعي الجمعي مشيدا للبيان المرصوص لجماعة أو مجتمع ما، في تعامله مع متغيرات الحياة، ويعرف دور كاييم الوعي الجمعي بأنه مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتركة بين الأفراد في مجتمع معين، التي تشكل النسق المحدد لحياتهم، (سميث شارلت سيمور، 2009، ص 369) في حين يقدمه أوليدوف Olledov باعتباره جملة الأفكار والنظريات، وسواها من التكوينات الفكرية، الخاصة بعصر ما، حيث يتم تشيئتها في اللغة، والكتب، وغيرها من التجسيديات المادية للمادية للثقافة، إنه مجموع التصورات والرؤى في مرحلة معينة من التطور التاريخي. (أوليديف، 1982، ص 31، 32) ويعتبر كارل ماركس من السابقين في تحليل أوليات تشكيل الوعي الاجتماعي، خاصة الوعي الطبقي، حيث اعتبر ظاهرة الثورات قاطرة المجتمعات، التي لن تتحقق إلا بتجسيد درجة عالية من الوعي، ويتجلى الوعي الاجتماعي من خلال الفن، الدين، العلم، الفلسفة، ومختلف الأسس القانونية لمجتمع ما، وله أشكال ومظاهر مختلفة. (باي بو علام، 2018، ص 3)

ما علاقة الغرافيتي بالحراك الاجتماعي؟

لعل ما يميز الحراك الاجتماعي الناجح في أي مجتمع، هي مدى تحقيق الانخراط الجماهيري الواسع فيها، ولن يتيسر ذلك إلا بتسخير كل الأساليب والوسائل التوعوية الممكنة، ومن أهمها الكتابة، بكل أنواعها وأشكالها، لأنها وسيلة فعالة للتواصل المعاصر، والغرافيتيا باعتبارها من أقدم أشكال التواصل الفعال، وأنسبها لمثل هكذا وضعيات، حيث القمع والتضييق والاضطهاد. (باي بو علام، 2018، ص 5) وكثيرا ما رافقت الغرافيتيا الحركات الاجتماعية والأزمات المجتمعية، حيث تخلق بطريقة تفاعلية منتجات غرافيتية، تفعل وتؤرخ صيرورة الحراك الاجتماعي مجسدة بذلك غرافيتية ثورية، التي تحرض

وتستثير على مختلف الدعامات الجرافيتية، من جدران، أبواب، أعمدة، وجسور، ويرمي فاعلوها إلى التعبير عن درجات غضبهم وانتصارهم لأجل قضية معينة، سياسية، اجتماعية، إيديولوجية، دينية، في أسلوب نضالي من أجل انتزاع حقوقهم. (باي بوعلام، 2018، ص 5)

والجرافيتيا كما يعتقد جون بودريار Boudrillard مثال عن ثورة العلامات والرموز، وذلك ما رشحها لتموقع كوسيلة عملية من وسائل التوعية غير الرسمية، بين فاعلي الحراك الاجتماعي وباقي أطراف المجتمع، واستراتيجية فعالة لأجل المقاومة المجتمعية، ضد فصول التهميش، فكثيرا ما كانت الجرافيتيا من خلال الجدران فضاء مناسباً للتعبير عن شعارات الوعي الثوري للمجتمعات المناضلة. (باي بوعلام، 2018، ص 6)

وتعتبر علاقة الحراك الاجتماعي بالجرافيتيا ليس وليد الأمس القريب، بل تعود في ارضياتها لثورات بعيدة، على نحو جرافيتيا انتفاضات اليونان القديمة، جرافيتيا الثورة الفرنسية 1789، الثورة المكسيكية 1910، الثورة البلشفية 1917، الحرب العالمية الأولى والثانية، الثورة الشبابية الطلابية 1968، و ثورة السود ضد أصناف التمييز العنصري، والثورة الإيرانية، والغزو الأمريكي للعراق، ومؤخرا جرافيتيا ما سمي بالربيع العربي بتونس، مصر، اليمن، سوريا. (باي بوعلام، 2018، ص 6)

يحاول هذا البحث اكتشاف مساهمة فن الجرافيتي، وموسيقى الراب Underground في التعبير عن الآراء الاجتماعية والسياسية خلال الحراك الاجتماعي الذي شهده المجتمع المغربي خاصة بمدينة الدار البيضاء عام 2011، عندما خرجت الجماهير تطالب بالإصلاح في جميع المجالات، ومحاسبة المسؤولين عن انتشار الفساد في هياكل الدولة.

واعترف معظم فناني الجرافيتي أنهم سجلوا على الجدران مواقف راديكالية، وأظهروا حماسهم، تعبيراً عن انتظار تغيير جذري في النظام القمعي للخنز، وكانوا سعداء متفائلين بهذه الخطوة الهامة التي اتخذها شباب 20 فبراير، لأنهم كفنانين هامش يعانون من مشاكل اجتماعية ولديهم طموحات، لا يساعدهم الواقع في تحقيقها، فيحكي أحدهم أنه كان ينتظر دائماً حدوث شيء كهذا، وكان سعيداً بالوعي الشعبي ضد فساد النظام السياسي، وشارك في تسجيل رأيه على جدران مدينة الدار البيضاء بتوقيع مجهول لأن حرية التعبير لا تزال غير مضمونة. (وائل، 29 عاماً، أعزب، حي المحمدي، مدينة الدار البيضاء).

وتحدث آخر عن شعارات الجرافيتي التي استخدمها في الحراك الاجتماعي ضد الواقع

الاجتماعي والسياسي على الجدران:

شكون سبب المشاكل؟... حكومة العراقيل.

بوس اليدين والكتفين، وخلي دار بو المسكين.

صوتي أمانة ما نعطيها نبي كوانا (سعيد، 30 عاماً، أعزب، درب سلطان، الدار البيضاء).

وصرح فنانون الغرافيتي أن مساهمتهم في الحركة الاجتماعية جاءت في شكل تعبيرات فنية عن وجهات نظر اجتماعية وسياسية، وجدت طريقها للجماهير، حيث احتوى فن الغرافيتي على خطاب به كثير من الاحتجاج والغضب، وحاز تقدير الشباب المتظاهرين الذين رأوا فيه فناً للثورة، وقال آخر أنه شارك بحماس في هذه التظاهرات، مؤمناً أن المجتمع المغربي يمر بمرحلة الربيع العربي مثل تونس ومصر وليبيا وأن مستقبلاً مزدهراً ينتظر الشباب، لكنه بعد ذلك فغوجيء أن الثورات التي تشهدها المجتمعات العربية ليست احتجاجات سلمية، بل هي عنف واعتقالات وفوضى، وبدأ يخشى أن يعاني المجتمع المغربي من نفس المصير. (عبد الإله، 28 عاماً، أعزب، سباتة، الدار البيضاء).

ويصف فنان غرافيتي خيبة أمله بعد وصول الإسلاميين للسلطة في المغرب، وأظهروا وجههم الحقيقي كحزب بعد فترة وجيزة، حيث أن شعاراتهم الدينية لم تكن سوى وسيلة لكسب الطبقة الشعبية، باستخدام الدين، وعبر عن هذه المرحلة بالشعارات التالية على الجدران:
حكومة عفى الله عما سلف... ضيقت الوعود مع الأسف.

بن كيران قولبنا... بلاصتو جامع الفنا.

بن كيران ركب لليموزين، وكالينا العام زين (عبد الرحيم، 29 عاماً، أعزب، حي المحمدي، الدار البيضاء).

وأشار فنان أنه كان متفائلاً بحكومة الإسلاميين، وكان يعتقد أنها لا يمكن أن تكون مثل سابقتها من المفسدين والظالمين مادامت تحكم بشرع الله، وانتظر سنوات ليرى هذا التغيير، حتى اكتشف أنها حكومة لا علاقة لها بالمرجعية الدينية، وأن إيديولوجيتها انتهت منذ تولي السلطة، يقول: "فقدت الثقة في ذوي المحي الطويلة، الآن ما يهمني هو عمل الحكومة على أرض الواقع، وليس الشعارات الدينية"، (فيصل، 31 عاماً، أعزب، سباتة، الدار البيضاء).

وعبر عن موقفه من خلال الكتابات التالية:

الفقيه لي ستينا بركتو دخل للحكومة ببلغتو.

إذا ما جات بالحية طويلة تجي بسنطحة والحيلة.

صوت بمائة الدرهم يساوي خمس سنين ديال المهم.

وعبر فنانون الغرافيتي عن مواقف مختلفة من الحراك الاجتماعي لاختلاف التوجهات والخلفيات، فيرى بعضهم أن الاحتجاجات كان ينبغي أن تستمر وأن الانتقال السياسي الذي حدث لم

يسفر عن نتائج ايجابية، والنتيجة أننا ما زلنا نعاني بعد أكثر من عشر سنوات، ويرى آخرون أنهم كفناي غرافيتي لم يكتسبوا الحق في ممارسة فنهم بحرية دون خوف من الاعتقال، ونتيجة لذلك فإن هذا التحول السياسي، لم يرق لمستوى توقعات الشباب وخاصة الفنانين.

يحكي أحدهم أنه كان تلميذا في المدرسة الثانوية ذلك الوقت، عندما شارك في هذه المظاهرات، وأن الشرطة بحثت عنه في منزله وفي المدرسة، يقول: "كنت في الفصل، وجاء رجل يسأل عني، فذهبت معه لفصل آخر خال من التلاميذ به رجال آخرون، تبين أنهم رجال شرطة، وتعرضت للاستجواب والتهديد ثم تركوني وغادروا." (محمد، 30 عاماً، أعزب، حي مولاي رشيد، الدار البيضاء). وينجح التقدم الاجتماعي أحياناً حين يحدث تحسناً دائماً في ظروف المجتمع المادية واللامادية، فيسير التقدم نحو هدف محدد، ويرتبط بتحقيق المثل الأعلى، ويكون هذا المثل الأعلى أو المجتمع المثالي أفضل من الصور السابقة عليه غالباً، وبناء عليه فلا بد أن يحدث التغيير في مسار مرغوب فيه، فيحقق مزيداً من الرضا. (دلال ملحس استيتية، 2014، ص 30)

ويختلف مفهوم التقدم من مجتمع لآخر حسب ثقافة المجتمع والظروف المحيطة به وقد يتبدل بتبدل الأحوال والأزمات، ولهذا بدأت تظهر نظريات التقدم الاجتماعي مع الثورة الصناعية، واتجهت جهود المفكرين في بحث مشكلة التقدم، فيعرف هوبهاوس Hobhouse التقدم بأنه نمو اجتماعي للجوانب الكمية والكيفية في حياة الانسان، ويمثل في الانتقال التدريجي من وضع اجتماعي معين إلى آخر أفضل بفعل توفر الإمكانيات المادية والبشرية. (دلال ملحس استيتية، 2014، ص 34)

واستخدمت الكتابة على الجدران في الثورات العربية على نطاق واسع، واخذت أشكالاً عديدة، فلجأ الشباب في مصر للأشكال التلقائية باستخدام قنينات الصباغة، بينما صار ما يعرف بالرجل البخاخ مشهوراً في سوريا إشارة لأولئك الذين يمارسون الغرافيتي، وكانت الشعارات عفوية سريعة بسبب خطر المطاردة، والقتل الذي يتعرض له من يمارسها.

ولم تكن الكتابة على الجدران في الثورات العربية مجرد تعبير بليغ عن حركة سياسية ناتجة عن التكتيكات فني محافظة درعا بسوريا على سبيل المثال، كانت شعارات الغرافيتي عفوية بسيطة وحادة في رسالتها، وأول من رسمها شباب تعرضوا للتعذيب وصاروا رموزاً مهمة للثورة، كالشهيد محمد راتب النمر من حمص، وأحمد الخالجي الذي اعتقل في دمشق، ما جعل الرجل البخاخ رمزاً سياسياً في سوريا. (نادين بكداش، 2012، ص 144)

وكانت المباني والمنشآت قبل الثورات العربية تغزوها صور الرؤساء في تونس، ومصر، ولبنان، ثم تكاثرت كتابات الغرافيتي على المباني، واستعادة الفضاءات العامة، واسترداد الشوارع والواجهات

كمساحات نقاش وتواصل وإبداع فني، ففي ساحة القصة بتونس، عبر المتظاهرون عن أنفسهم بالشعارات والأغاني، والكتابة على الجدران، وتحول الجرافيتي لأنواع وتقنيات متنوعة، فصارت جدران القصة كالورق يخربش الجميع عليها، ويترك أثراً باستمرار. (نادين بكداش، 2012، ص 146)

ولإخفاء بطولات الثوار في وجه الرصاص، أزالَت السلطات في القاهرة جداريات شهداء الثورة المصرية، واستشهد خمسون ناشطاً، فنظم الشباب رداً على ذلك خطة بعنوان "يومين من الكتابة على الجدران العنيفة". تجمعت خلالها أعداد كبيرة لبوا النداء، ونفذت الرسوم مع إحساس بالخطر والحذر من لفت الانتباه. (نادين بكداش، 2012، ص 150)

وتنتشر القيم التي لا تدعمها وسائل الإعلام، ووسائل الاتصال السائدة بالجرافيتي، فيصر الثوار على إبراز قيمهم على الجدران، فيصرخون، ويثورون، ويحركون العواطف، ويقدمون عرضاً جرافيتياً ممتازاً. (نادين بكداش، 2012، ص 149، 150)

- موسيقى الراب Underground والحراك الاجتماعي:

صرح معظم موسيقيو الراب أنهم شاركوا في حراك المجتمع المغربي الاجتماعي عام 2011 في الدار البيضاء، واعتمدت مشاركتهم على كتابة الأغاني المناسبة للوضع الاجتماعي، فيحكي أحدهم أنه كتب أغنية راب، معبراً عن حماسه الثوري لهذه الحركة الشعبية، فقد شعر أن ما سيأتي أفضل، طالما خرجت الجماهير لتقول لا للظلم الطبقي والبطالة، وأشكال التهميش في المجتمع، وذكر مقتطفاً من أغنيته احتجاج "عبد العالي، 29 سنة، أعزب، درب سلطان، الدار البيضاء) ":

خرجت مع خوتي نحتج

أنا لي مازالني نستنا

سيدنا على راسو تاج

وأنا عمر بالي ما تهنا

وذكر موسيقي آخر أنه اتجه خلال هذه الفترة لممارسة موسيقى الراب Underground بعدما استمع لأغان ثورية ألهمته كثيراً، ومن أبرزها أغاني الرابور معاد الحاقد، الذي تساءل في مطلع إحدى أغانيه في حركة 20 فبراير (نور الدين 28 سنة، أعزب من منطقة معاريف بالدار البيضاء):

علاش التعليم المخزني يكلخ ولاد الشعب؟

فين ثروات البلاد؟ الذهب الأسماك الفوسفات

واش الشعب ما عندوش حق فيها؟

ويعتبر موسيقيو الراب أن أغانيهم تشكل مرآة للواقع الاجتماعي، من خلال القضايا الاجتماعية التي تثيرها، فأروا في هذه الحركة الاجتماعية فرصة لتغيير الظروف وكسب الحقوق المفقودة، ويشير أحدهم لأن هذه المرحلة أعطته العديد من الأفكار لكاتب أغانٍ راديكالية، وأكثر ما توقعه من هذه الحركة الاجتماعية كان مزيداً من حرية التعبير الفني حتى يتمكن من الانتقاد دون خوف من السجن. (عبد الوهاب 30 سنة، أعزب، من الولفة بالدار البيضاء).

طمح موسيقيو الراب للانفتاح على الفنون لتحقيق تطور اجتماعي، وتقبل الجيل السابق لأغاني الراب Underground التي تنتقد الأوضاع السيئة، لكن أدى صعود الإسلاميون للسلطة لمزيد من قمع الحريات والرقابة على الفن، فلم يتفأوا بهذا الانتقال السياسي، فيصف أحدهم خيبة أمله عندما سُجن بعهد الحكومة الإسلامية مؤلفو أغنية الراب التي انتشرت كالنار في الهشيم (عاش الشعب) وعوقة أصحابها (لكاوي، لزعر، ولد الكرية) فيقول مقتطف من الأغنية:

بلا ما تسولني على الثروة... شكون لي كلا فينا المال

شكون لي مستافد من جوج بحور ومقالع الرمال

شكون طاحن الفوسفاط.. وكاسب كاع الشركات الكبرى

شكون طاحن البلاد طحين.. وباقي كايقلب على الثروة

صباح الخير اشريف... را صيفنا ولا خريف (أمين، 29 عاماً، أعزب، سباتة، الدار البيضاء)،

استعمل هاربرت سبينسر H. Spenser مصطلح التطور الاجتماعي، ليشير لتطور المجتمع على غرار تطور الكائن العضوي، وبين هذه المماثلة، حيث عرف التطور بأنه انحدار سلالي، معدل على نحو معين. (دلال ملحس استيتية، 2014، ص 36)

وميز جوردن تشايلد J. Child بين التطور الاجتماعي والتطور البيولوجي موضحاً أن الإرث الاجتماعي للإنسان لا ينتقل عن طريق الخلايا الموروثة، بل عن طريق التراث الذي لا يبدأ في اكتسابه بعد خروجه من رحم أمه، بل بالتغيرات في الثقافة والتراث، بواسطة الإدارة الواعية والمدروسة، وبين جوليان ستيوارد J. Steward أن هناك اختلافاً بين التطور العضوي والاجتماعي، ذلك أن الأول يسير في خط مستقيم، بينما يسير الثاني في عدة خطوط، حسب اختلاف العوامل. (دلال ملحس استيتية، 2014، ص 37)

وشارك فنانون الهامش في الحركة الاجتماعية المغربية عام 2011 وكان لهم مطالب مشتركة مع الجماهير وأخرى تتعلق بالفن، واعتمدوا أدواتهم الفنية للتعبير عن أنفسهم، لكنهم اكتشفوا مع الوقت أن التغيير لم يكن إيجابياً كما طالبوا بها في الاحتجاجات، حيث ظلت الحرية الفنية وشروط ممارسة فن

الجرافيتي على حالها، ولم يتغير شيء في هذا الصدد لأن معظمهم لم يتوقع تولى حكومة إسلامية السلطة في المغرب، لكن رغم مرور أكثر من عقد على الحركة الاجتماعية، إلا أنهم متفائلون لأن الناس لم يمنحوا نفس الحكومة الفرصة هذه المرة.

.IV فنون الهامش: الحركية الثقافية والسياحية.

تعتبر السياحة أحد المظاهر الطبيعية في العصر الحديث، وأساسها الترويج عن النفس، وتغيير الجو والمحيط الذي يعيش فيه الانسان، لتذوق جمال الطبيعة، والتعرف على ثقافات مختلفة. ويعرف شوليرن شرانتهاوس Ch. Shrattenhaus السياحة بأنها العمليات الاقتصادية التي تتعلق بانتشار الأجانب داخل وخارج منطقة معينة، أما السائح فهو الشخص الذي يقيم برغبته خارج مكان سكنه الأصلي دون هدف تحقيق مكتسبات اقتصادية، ويصرف أموالا وفرها في مكان آخر. (منير عدوى، 2016، 15، 19)

وتحتضن القرى والمدن المغربية مواسم احتفالية شعبية، تجذب انتباه الزوار المحليين والأجانب كل عام، هدفها المساهمة في حركة ثقافية واقتصادية تعود بالنفع على منطقة الاحتفال والقطاع السياحي بشكل عام، وتكمن المفارقة في أن سكان بعض المناطق التي تنظم هذه الاحتفالات يعانون من التهميش، مثل نقص البنى التحتية، وغياب الخدمات الصحية، والعزلة.

وتعتبر منطقة امشليل الجبلية الواقعة في جبال الأطلس الكبير، مثال لذلك والتي تنظم احتفالات خطوبة جماعية كل سنة تسمى (تيمغريو) يحضرها آلاف السياح الأجانب والمحليين، في فصل الشتاء، تنخفض درجة حرارتها لما دون الصفر، ما يجبر السكان المحليين على مقاومة البرد القارس بوسائل بدائية، وتزيد موجة البرد من فقر وهشاشة سكان المنطقة.

وتشتهر بالمثل مدينة صفرو الواقعة على سفح جبال الأطلس المتوسط بمهرجان حب الملوك وهو من أقدم المهرجانات الشعبية، ويتردد عليه كثير من الزوار الأجانب والمغاربة، وترشيح فتاة للقب ملكة جمال حب الملوك، لكن يعاني معظم سكان المدينة من الفقر وانعدام العيش الكريم، ويستفيد قطاع السياحة من هذه المواسم الشعبية من ناحية أخرى، بتوافد السواح لحضور الفعاليات الثقافية، لكن تبقى الأماكن الاحتفالية هامشية فيما تستفيد خزينة القطاع السياحي من الدخل المادي في مفارقة غير عادلة.

■ موسيقى الهامش وقطاع السياحة:

- موسيقى الشارع:

يركز هذا السياق على فنون الهامش التي تساهم في جذب السياح الباحثين عن الترفيه، فيما يعاني هؤلاء الفنانون من التهميش والفقر، فأقر معظم موسيقيي الشارع أن السياح الأجانب يقبلون بكثرة على المجموعات الموسيقية التي تقدم عروضها في ساحة ماريشال، ويأتي بعضهم بشكل خاص للاستمتاع بهذا الجو الفني، يقول أحدهم أنهم يحاولون تقديم عروض موسيقية تجذب السياح، لإضفاء واجهة مشرفة على واجهة المدينة لكن تظل مكانتهم الاجتماعية كما هي، ويطلب بعض السائحين منهم ترديد الأغاني المغربية الأصيلة لأن ألحانها جميلة، وإيقاعها مختلف عن الإيقاع الغربي. (ريان 23 سنة، أعزب من الحي المحمدي بالدار البيضاء).

ويعتبر فنانو الشارع أن العروض الموسيقية التي تقدم الأغاني المغربية الأصيلة والتقليدية، توثق الروابط بين الثقافات المختلفة، وتثير فضول الأجانب لاكتشاف أنواع أخرى من الموسيقى المغربية، يقول أحد الموسيقيين: "يسألني السائحون أحياناً عن نوع الأغاني المغربية التي أغنيها وهم يرقصون على أنغام هذه الأغاني، في جو من المرح." (هشام، 22 سنة، أعزب، من حي السلام بالدار البيضاء).

ويتحسر الموسيقيون على وضعهم الاجتماعي رغم أهمية العروض الموسيقية في الترويج للسياحة الأجنبية والمحلية فهم لا يتلقون دعماً من المؤسسات الثقافية، يقول أحدهم أن المؤسسات الثقافية لا تولي اهتماماً لأهمية عروض موسيقى الشارع في الترويج لقطاع السياحة، حيث يحب السائحون شرب الشاي في المقاهي المحيطة بساحة الأمم المتحدة، والاستماع للموسيقى. (سعيد، 30 سنة، مطلق، رياض اللفة بالدار البيضاء).

وصارت الشعوب تعتمد السياحة نكيار اقتصادي واجتماعي، وبديهي أن يواكبها الفن والثقافة بشكل يساهم في نجاح السياحة، وتنشيط السوق. (حسبية ملاس 2022، ص 96) إن الثقافة السياحية مسؤولية جميع المؤسسات السياحية في المجتمع، ولها دور كبير في تبادل ثقافات الشعوب، حيث يمنح تنقل السائح عبر البلدان ثقافات جديدة، ويتيح له نشر ثقافة بلاده في المجتمعات المضيفة، وتعتبر الثقافة السياحية من المفاهيم الحديثة غير المتداولة والهدف منها ليس على المستوى الشعبي فقط وإنما على المستوى الرسمي المتمثل في الهيئات المرتبطة بالسياحة. (قاسم سعاد، 2016، ص 399)

ويرى المبحوثون أن الترويج للسياحة لا يفيد بالضرورة الجهات الفاعلة في هذا المجال، والدليل على ذلك حالة موسيقيي الشارع في ساحة الأمم المتحدة، فيقول أحدهم أنه يشعر أن السائحين الأوروبيين يحبون موسيقى الشارع أكثر من السياح المحليين، فهم يأتون للاستمتاع بالموسيقى، ويتفاعلون بعفوية ومرح، ويمنحونهم أموالاً سخية لأن ظاهرة موسيقى الشارع مألوفة في أوروبا وجزء من ثقافتهم،

لذا فهم يتعاملون مع الموسيقين بتقدير، بينما لا تقدر المؤسسات الثقافية هذا التفاعل الثقافي في مجال السياحة. (عبد القادر 33 عاماً، أعزب، من سيدي مومن بالدار البيضاء).

ويضفي موسيقيو الشارع طابعاً فنياً على الطريق الذي كان مجرد ممراً للمشاة لا غير، فصار عامل جذب للسياح لخلق المتعة والترفيه، ونشر ثقافة الفن المغربي بينما يعاني الموسيقيون من البطالة والفقر لقلة الدخل إضافة لعدم ضمان الاستمرار بسبب المشاكل التي يعاني موسيقيو الشارع منها.

- موسيقى المطاعم:

أوضح معظم موسيقيو المطاعم أن السياح الأجانب يتدفقون على المطاعم التي تقدم عروضاً موسيقية، ليستمتعوا بالجو الفني ويستكشفون الموسيقى المغربية، ما يسهم في تنشيط السياحة؛ بينما لا يتغير وضع الموسيقين مادياً واجتماعياً وقانونياً، ويخبر أحدهم أنهم يسعون جاهدين لتقديم أفضل العروض للتعريف بالموسيقى المغربية لأن السياح خاصة الأوروبيين، من أهم الزبائن الذين يقضون وقتاً في المطاعم الموسيقية، فهذا الجو جزء من ثقافتهم بينما لا تولي وزارة الثقافة والسياحة اهتماماً بهذه الأنشطة الفنية وتعتبرها ممارسة تنتمي لقطاع غير رسمي. (محمد 35 سنة، أعزب، من الحي المحمدي بالدار البيضاء).

ويرى المبحوثون ضرورة استغلال الأنشطة الموسيقية بالمطاعم، ودعم الفاعلين، لمزيد من الدخل المادي لقطاع السياحة، لكن هناك إهمال وتجاهل للشباب الذين يقدمون منتجاً فنياً في موسيقى المطاعم، يفيد الحركة الاقتصادية والاجتماعية، فيشتكي أحد الموسيقين أنه رغم إقبال السياح الأوروبيين الجيد إلا أنهم يظلون زبائناً موسمين، فيتأثر الموسيقيون من قلة السياح في أوقات من العام خاصة في فصل الشتاء، ويغيب دور المؤسسات الثقافية التي ينبغي أن تدعم الموسيقيين الداعمين لقطاع السياحة. (عادل 44 سنة، متزوج، الحي المحمدي، الدار البيضاء).

ولم تعد السياحة ترفها بل صناعة ثقافية، تتميز وتهتم بها دول، وتخصص لها ميزانيات كبيرة، لمردودها الاقتصادي والاستثماري الكبير في العمران، واقتصاد البلدان، والتعريف بالفنون، والمواقع الثقافية والأثرية. (قاسم سعاد، 2016، ص 399)

أشاد فنانون الغرافيتي بمهرجان (الصباغة باغا المتعلق بفن الجرافيتي وينظم في مدينة الدار البيضاء حيث يسمح بلقاء فنانين ومعجبين من جنسيات مختلفة، وأشار أحدهم أن هذا المهرجان الفني حلقة وصل بين الجرافيتين والجمهور من مختلف الجنسيات، ويشهد هذا الفن في كل دورة إقبالاً كبيراً من الأوروبيين فهو جزء من ثقافتهم، فساهم المهرجان في حراك ثقافي وسياحي يدعم التعارف بين الجنسيات المختلفة. (ربيع 22 عاماً، أعزب، من سباتة، بالدار البيضاء).

ويحاول فنانو الجرافيتي رسم صورة جديدة بالمدينة من خلال المهرجان من أجل للترويج لهذا الفن وتحفيز القطاع السياحي إلا أن هذه الجهود لا تفيد فناني الجرافيتي كثيرا، فما زالوا يمارسون فنهم قلقين، يقول فنان جرافيتي، أن السياح الأجانب يعبرون عن إعجابهم بالجداريات التي يصنعونها، ويلتقطون صوراً لها، ينشرونها في الصحف وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، ما يساعد بلا شك على جذب المزيد من الناس للمشاركة في هذا المهرجان، ففي كل دورة يلتقون بأناس جدد من أوروبا وأمريكا. (محمد 23 سنة من عين السبع بالدار البيضاء).

ورغم مساهمة فنون الهامش في تنشيط السياحة بالأنشطة الفنية، لكنها غير معترف بها ولا مدعومة من المؤسسات الثقافية والسياحية، بل إهمال وتجاهل لهذا النوع من الفنون، في مفارقة غير عادلة طالما أن المنفعة ليست للجانيين وهذا حال فنون ومواسم الهامش غير المنظمة، فرغم فعاليتها، لا تجني ثمار جهودها.

V. فنان الهامش: الاستعداد لممارسة العمل الفني:

يعني الحديث عن الاستعدادات الفنية، تناول العادات التي يمارسها الفنان للشروع في عمله الفني وهي ممارسات ضرورية وملزمة للفنان، وتفترض دراسة فنون الهامش، وجود عادات وممارسات يومية يقوم بها فنانو الهامش لبدء عملهم الفني غير المقتن، والمحظور قانوناً، فتفرض طبيعة فنهم هذه العادات، ما يدفع للتساؤل عن كيفية استعداد فناني الهامش لممارسة فنهم، فمثلاً فنان الجرافيتي الملاحق من صاحب الجدار والسلطات كيف يستعد لممارسة فنه؟ وموسيقي الشارع الذي يعاني احتكار الأماكن في الساحة، كيف يستعدون لتقديم عرضهم الفني؟ وما استعدادات موسيقيو المطعم لتقديم عرضهم الفني في ظروف المطعم؟ وكيف يستعد موسيقيو الراب Underground لإنجاز أغانيهم؟

قائمة المراجع:

- أولديف: الوعي الاجتماعي، ترجمة ميشيل كيكو، دار ابن خلدون، بيروت، 1982، ص 31، 32.
- الأصفر، أحمد: علم اجتماع التنظيم ومشكلات العمل، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2012، ص 81، 80.
- البدوي، هاجر: سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية، الحركات الاحتجاجية بالمغرب نموذجاً، مجلة مؤثر للدراسات الاستطلاعية، العدد 6، 2022، ص 308.

<https://www.democraticac.de/?p=87025>

- الجطاري، بالقاسم: سؤال الثقافة الأمازيغية، البناء النظرية، وجدة منشورات كلية الآداب، 2000، ص 71.
- الرامي، إيمان: الاحتجاج المغربي والخطاب السوسولوجي، مجلة دراسات، العدد 1، 2020، ص 9.
- الهروي، الهادي: في سوسولوجية الخطاب العامي، مورفولوجية الإشاعة، جريدة الإتحاد الاشتراكي، عدد 6003، الاثنين 17 يناير، 2000، ص 15.
- بكداش، نادين: الغرافيتي في الثورات العربية، المصالحة مع الجدران، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 89، 2012، ص 144. [file:///C:/Users/hp/50918691%20\(1\).pdf](file:///C:/Users/hp/50918691%20(1).pdf)
- بوعلام، باي: فاعلية الغرافيتيا الثورية في استنهاض الوعي الاجتماعي، غرافيتيا الثورة الجزائرية نموذجاً، مجلة دورية كان التاريخية، العدد 42، 2018، ص 3.
- خليل سيد أحمد، عبد الحكيم: تجليات الرمزية للوشم في المعتقد الشعبي بين الخصوصية الثقافية والثقافية الشعبية، المؤتمر الرابع للفن والتراث الشعبي الفلسطيني: واقع وتحديات، فلسطين: جامعة النجاح الوطنية - كلية الفنون الجميلة، 2012، ص 20، 21.
- حلبي طلعات، راجي: الوشم ورموزه الشعبية في الفن القبلي: كمدخل لاستلهام أعمال فنية معاصرة، قسم الرسم والتصوير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، 2008، ص 12.
- زيان، محمد: الجداريات والكتابات الحائطية، في المجتمعات العربية، التحليلات والتأويلات، دار فيتامين الفكر للنشر والتوزيع، مدينة الشلف، 2019، ص 12.
- شارلت سيمور، سميث: موسوعة علم الانسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة مجموعة من الأساتذة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص 369.
- شرارك، أحمد: الغرافيتيا أو الخربشات العربية على الحيطان (مقدمات في سوسولوجيا الهامش والثورة) روافد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص 148، 149.
- طايلب، نسيم: نشطي المعنى في رموز الوشم: من سوسولوجيا الجسد إلى سيمولوجيا الوشم، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 2، 2021، ص 10.
- <https://www.researchgate.net/publication/358165993>
- محمد ابراهيم أبوزيد، مي: فن الوشم كمدخل لإثراء التصميم النسجي، مجلة التربية النوعية، العدد 8، 2018، ص 10. https://pssrj.journals.ekb.eg/article_32046.html

- ملاس، حسيية: الثقافة السياحية للمجتمع المحلي، وانعكاساتها على السوق السياحية المحلية، دراسة ميدانية على عينة من السكان المحليين، مدينة حمام دباغ السياحية، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 2، 2022، ص 96.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/503/13/2/193049>

- ملحس استيتية، دلال: التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر، الأردن، الطبعة الرابعة 2014، ص 30.

- عبوي، منير: مبادئ السياحة الحديثة، دار المعزز للنشر والتوزيع، الأردن، 2016، ص 15، 19.

- قاسم، سعاد: الثقافة السياحية ودورها في تفعيل الاستراتيجية السياحية، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 2، 2016، ص 399. <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/12860>

- يوسف الحاج، أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، الإصدار 1، دمشق: مكتبة دار ابن حجر، 2003، ص 654.

- Fleury Antoine: Musiciens de rue et renouveau des espaces publics à Paris , Cahiers de géographie du Québec, Volume 61, numéro 172, avril 2017, URI :<https://id.erudit.org/iderudit/1042717ar>, pages 101- 116.

- Lessard Guillaume: Du gangsta rap au hip-hop conscient : subversions et alternatives critiques en réponse aux mythes américains, Cahiers d'histoire, Volume 34, Number 1, Spring 2017, URI: <https://id.erudit.org/iderudit/1040828ar>, pages 2 – 22.

الأقليات المسلمة في الغرب وضرورة الحوار التربوي والديني

د.فراح رضوان (دكتوراه في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان -

جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس-سائس - المغرب)

أستاذ بوزارة التربية الوطنية بالمغرب

الإيميل: farih-doctorat@hotmail.com

ملخص :

عرفت أوضاع الأقليات المسلمة في الغرب تغيرا جذريا كبيرا، فن الهجرة إلى طلب العلم والعمل إلى الاستقرار وبناء أسر داخل تلك المجتمعات، وأمام تزايد المسلمين في تلك البلدان اشتد الطلب على ضرورة توفير التعليم الديني وتدریس اللغة العربية وإنشاء المساجد والجمعيات الإسلامية بما يربطهم وذرياتهم بثقافتهم وأصول دينهم، لأنهم يستشعرون بخطر ذوبان الهوية أكثر من سواهم وخصوصا في الأجيال التي ولدت وترعرعت هناك.

الكلمات الدالة:

الأقليات المسلمة، المجتمع الغربي، الحوار الحضاري، الحوار التربوي، الحوار الديني، الثقافة الإسلامية.

Abstract

The situation of Muslim minorities in the West has undergone a major radical change, from immigration to seeking knowledge and work to stability and building families within those societies, and in the face of the increase of Muslims in those countries, the demand for religious education, the teaching of the Arabic language, and the establishment of mosques and Islamic associations has intensified to link them and their descendants with their culture and the origins of their religion. Because they feel the danger of identity melting more than others, especially in the generations that were born and raised there.

Key words:

Muslim minorities, Western society, civilized dialogue, educational dialogue, religious dialogue, Islamic culture.

مقدمة

أمام إصرار المسلمين في بلاد الغرب على التمسك بالهوية الإسلامية، استطاعوا بناء وتشديد العديد من المراكز التي تعنى بالتعليم الديني في الكثير من البلدان، وفي بلدان أخرى لاقوا صعوبات وعراقيل بسبب انقسام المجتمع الغربي بين تيارين فكريين، تيار ينادي بتكريس اتفاقيات حقوق الإنسان ومن ضمنها حقوق الأقليات الدينية في التعليم بما يتوافق ومعتقداتها، فطالبوا حكوماتهم بتنزيل الأحكام القانونية الدولية الداعية إلى إرساء قيم المساواة وعدم التمييز العنصري ومساعدة المسلمين في الحفاظ على هويتهم بمنح تراخيص لبناء المؤسسات الإسلامية وتقديم يد العون والمساعدة والتسهيلات المالية، بل حتى تنقيح المناهج الدراسية بما يتلاءم مع احترام تنوع الثقافات السائدة في المجتمع، وبين تيار ينادي بخطر تنامي الإسلام في المجتمعات الغربية، ويعمل كل الطرق من أجل التضييق على الممارسات الدينية للمسلمين، فدعا إلى تشديد مراقبة عمل الجمعيات والمساجد والمدارس وأيضاً إلى منع أو تقنين شروط إنشاءها، فانبرى لمثل هذا الطرح الكثير من المفكرين والمثقفين والسياسيين العنصريين المروجين لفكرة المؤامرة وخطر المد الإسلامي وثقافة المسلمين على الهوية العلمانية والمسيحية في الغرب .

• إشكال الموضوع

أحوال وأوضاع الأقليات المسلمة في الغرب عرفت تغيراً كبيراً في جميع مجالات الحياة اليومية، إلا أن الحوار حول التعليم الديني وتدریس اللغة العربية والثقافة الإسلامية هو الجوهر والقضية الأساس بين الأقليات المسلمة وحكومات الغرب، فهل هناك مشاكل في قضايا التعليم الديني والثقافي في الغرب؟ إذا كان الأمر كذلك، ما الذي يسبب هذه المشاكل؟ وهل يتطلب قبول الثقافات والحضارات والأديان المختلفة في المجتمع الغربي منح الحق في التعليم الديني للأقليات المسلمة؟ إذا تم التأكيد، فهل يتطلب هذا الوضع منح قوانين خاصة للمسلمين في تلك المجتمعات مثل تطبيق بعض المطالب كالمساعدة في بناء الجمعيات الثقافية التي تعنى بالتعليم أو تدریس الهوية والثقافة الإسلامية في المدارس الغربية؟ وهل هناك خطر وتخوف من جانب الغرب في حرية التعلم الديني والثقافي؟ هذا ويمكن طرح مجموعة من الأسئلة منها:

- ✓ ما مدى أهمية الحوار التربوي والديني بين الأقليات المسلمة وبلاد الغرب؟
- ✓ ما هي أهداف الحوار التربوي والديني مع الغرب للدفاع عن الهوية الدينية والثقافية؟

• فرضيات الموضوع

الفرضيات هي أولى الخطوات لاحتواء الجواب على الإشكال وإشكالاته الفرعية، وإلزامية البحث عن فرضيات محتملة من شأنها أن تشكل حلولاً لمشكلة البحث وإشكالاته الفرعية، ومن ثم كانت الفرضية الرئيسة المقابلة لإشكالية البحث الرئيسة تتمثل في أن من أهم أسباب عدم فعالية الحوار التربوي والديني تتمثل في وجود معوقات سلطوية وسياسية وإدارية وقانونية وثقافية واجتماعية وبالتالي فهي تنعكس سلباً على قضايا التعليم الديني في الغرب.

وهذه الفرضية الرئيسة المتولدة عن الإشكال الرئيس تنفرد عنها فرضيات فرعية مقابلة للإشكالات الفرعية المتولدة عن الإشكال المركزي، وتتمثل فيما يلي:

✓ واقع احترام تدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية للمسلمين في بلاد الغرب واقع يتراوح بين الإيجابية والسلبية حسب الظروف الزمانية والمكانية والسياقات السلطوية والسياسية وبالتالي فله تأثير في عملية الحوار التربوي والديني؛

✓ ارتفاع عدد الاقليات المسلمة في الغرب بالإضافة إلى الهجرة الكبيرة للمسلمين بسبب الأوضاع العاصفة في دولها سيزيد من رفع سقف مطالب توسيع الاستفادة من تدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وبالتالي زيادة حدة المواجهة الفكرية والسياسية بين الغرب والمسلمين وهو ما يستدعي إرساء أهداف من عملية الحوار مع الغرب.

✓ يفترض أن المسلمين في الغرب لا يطالبون بمنح امتيازات عن باقي الطوائف الدينية الأخرى بقدر ما يطالبون بصون هويتهم وثقافتهم.

المبحث الأول: النصوص والقوانين التنظيمية المؤطرة للتعليم في الغرب

التعليم الديني للإسلام في المدارس الغربية هو قضية حساسة في جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي حيث يواجه هذا التدريس بالرفض مثله مثل العديد من الموضوعات الأخرى المتعلقة بالإسلام كالحجاب والنقاب...إلخ، فالواقع يؤكد أن العديد من العقبات تحول دون تنفيذه وتتمثل إحدى العقبات التي تحول دون تنظيم هذا التعليم في غياب سلطة دينية تمثيلية للمسلمين في كل دولة من دول الاتحاد الأوروبي.

المطلب الأول: النصوص والقوانين التنظيمية المؤطرة للتعليم في الغرب

تهدف المبادرات في العديد من دول الاتحاد الأوروبي إما إلى تنظيم تعليم الدين الإسلامي حيث توجد فصول دينية في المدرسة أو مع مراعاة الحقيقة الإسلامية في المناهج الدراسية، كما يسعى هذا

التدريس إلى تزويد الأطفال بتعليم يتماشى مع قناعات الوالدين ويتم وضع البرامج وتعيين المعلمين من قبل السلطات العامة بالتعاون مع السلطات الدينية.

بشكل عام، أدخلت العديد من دول الاتحاد الأوروبي التعليم الديني في المدارس (فيراري، 2005، ص: 36)، ويتم تنظيم هذا التدريس بشكل مختلف، في بعض البلدان يتم تنظيمه والإشراف عليه من طرف الجماعات الدينية التي يجب أن تختار المعلمين وتحدد البرامج كما هو الحال في النمسا وبلجيكا، وقبرص وإسبانيا، واليونان، وبولندا، والبرتغال، وجمهورية التشيك، في بلدان أخرى هذا التعليم هو نتيجة للتعاون بين الدولة ومختلف الطوائف الدينية في البلاد، كما هو الحال في المجر وإيطاليا وليتوانيا وألمانيا. (شليبي، 2011، ص: 370-371)

بالنسبة للأقليات المسلمة الأوروبية، يمثل الهدف في دعم حقهم في حرية التعليم الديني والحصول على الحق في تدريس الإسلام في المدارس العامة في أقرب وقت ممكن وإنشاء مدارس خاصة بها. تم النص على الحق في التعليم الديني في العديد من النصوص الدولية والأوروبية قبل إدراجه كحق محمي في تشريعات مختلف دول الاتحاد الأوروبي، وتم تقديم هذا الحق لأول مرة في الأمم المتحدة في العهدين الدوليين الخاصين بالحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية لعام 1966، ويعترف كلا النصين بحق كل شخص في إظهار دينه من خلال التدريس، ويدعون الدول الأطراف إلى ما يلي :

المادة 18:

- 1- لكل إنسان حق في حرية الفكر والوجدان والدين، ويشمل ذلك حريته في أن يدين بدين ما وحرية في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره، وحرية في إظهار دينه أو معتقده بالتعبد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.
- 2- لا يجوز تعريض أحد لإكراه من شأنه أن يخل بحريته في أن يدين بدين ما، أو بحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره.
- 3- لا يجوز إخضاع حرية الإنسان في إظهار دينه أو معتقده، إلا للقيود التي يفرضها القانون والتي تكون ضرورية لحماية السلامة العامة أو النظام العام أو الصحة العامة أو الآداب العامة أو حقوق الآخرين وحياتهم الأساسية.

4- تتعهد الدول الأطراف في هذا العهد باحترام حرية الآباء، أو الأوصياء عند وجودهم في تأمين تربية أولادهم دينيا وخلقيا وفقا لقناعاتهم الخاصة. (مركز التوثيق والإعلام و التكوين في مجال حقوق الإنسان الصكوك الدولية، 2010، ص: 19) .

كما تنص المادة 2 من البروتوكول رقم 1 الملحق بالاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان على ما يلي: "لا يجوز حرمان أحد من الحق في التعليم ، تحترم الدولة في ممارسة الوظائف التي تتحملها فيما يتعلق بالتربية والتعليم، حق الأبوين في ضمان تربية وتعليم بما يتماشى مع معتقداتهم الدينية و قناعاتهم الفلسفية " (البروتوكول الإضافي لاتفاقية حماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية بصيغته المعدلة بموجب البروتوكول 11). يعتقد جان بول ويليم أن هذا المقال يسمح للقانون الأوروبي بالاعتراف بشرعية أمرين: الأول يتعلق بالمدرسة العامة التي "يجب أن تكون تعددية ويجب أن تحترم المعتقدات الدينية للآباء"، والثاني يتعلق بحرية التعليم التي "تعني حرية إنشاء المدارس الخاصة دون إلزام الدولة بدعم هذه المدارس". (ويليام، 2004، ص: 155)

كما تنص المادة 2 من البروتوكول رقم 1 لاتفاقية EDH على أنه لا يجوز حرمان أحد من الحق في التعليم. وستحترم الدولة في ممارستها لوظائفها في مجال التربية والتعليم حق الآباء في توفير هذه التربية والتعليم وفقاً لمعتقداتهم الدينية والفلسفة" (Protocole additionnel à la Convention de sauvegarde et des Libertés fondamentales , tel qu'amendé par le protocole n°11 Paris ,20.III.1952).

فالتزام الدولة باحترام المعتقدات الدينية للوالدين يجب أن يتوافق مع هامش سلطة التقدير الوطنية في صياغة وتخطيط المناهج المدرسية ويضمن للأقليات الدينية معاملة عادلة.

❖ في القانون الفرنسي بالضبط في المادة 4-141L:

"لا يدرس التعليم الديني للأطفال المسجلين في المدارس العمومية إلا خارج أوقات الحصص داخل الفصل " ، (المادة 4-141L من قانون التعليم الفرنسي) بالإضافة إلى ذلك، فتدريس هذا التعليم الديني يجب أن يكون خارج المؤسسة العمومية على النحو المنصوص عليه في المادة 2 من قانون 28 مارس 1882، والتي أكدته المادة 30 من قانون الفصل بين الكنائس، والتي تناولتها المادة 3-141L. من قانون التعليم فوفقاً لهذه المادة : المدارس الابتدائية العمومية ملزمة بتخصيص يوم واحد في الأسبوع بالإضافة إلى يوم الأحد من أجل تمكين أولياء الأمور من إعطاء التعليم الديني لأطفالهم إذا رغبوا، خارج أسوار المدرسة.

أمام هذه النصوص والاتفاقيات يصبح للأقليات الحق في التعبير عن خصوصيتها من خلال المطالبة بتدريس دينها بحرية وبدون مخاوف من أي محاولة اضطهاد أو تهميش أو منع ضدها، كما يصبح لها الحق في إنشاء المؤسسات الدينية والسهر على إدارتها، لأنه طبقاً للقوانين الدولية لا يجوز جبر أي فرد على القيام بعمل يتعارض مع معتقداته الدينية أو المشاركة في أنشطة دينية أخرى فكيف بأفراد الأقليات خاصة داخل مجتمعاتهم .

المطلب الثاني : النصوص والقوانين المؤطرة لحقوق الأقليات في تعلم اللغة والثقافة الأم

كثيرة هي النصوص القانونية التي أولت اهتماماً بالغاً بمسألة الحقوق الثقافية للأقليات حيث " تلزم اتفاقية حقوق الطفل لعام 1989م الدول الأطراف التي توجد فيها أقليات إثنية أو دينية أو لغوية أو أشخاص من السكان الأصليين بعدم حرمان الطفل المنتمي لتلك الأقليات أو لأولئك السكان من الحق في التمتع مع بقية أفراد المجموعة بثقافته " (مركز التوثيق والإعلام والتكوين في مجال حقوق الإنسان ، 2010م، ص: 24)

لقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة إعلاناً بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات وطنية أو عرقية أو دينية أو لغوية بموجب قرارها رقم (135/47) لعام 1992م، حيث أكدت فيه ضرورة حماية الدولة للذاتية الوطنية أو العرقية أو الثقافية أو الدينية المتواجدة فوق إقليمها " (أبو الوفا، 2000، ص: 67) ، كما أن حق المشاركة في الحياة الثقافية من خلال إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي الذي أصدره المؤتمر العام لليونسكو UNESCO بتاريخ 1966/11/4، تضمن نصوصاً تشير إلى أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليها ، كما أن من حق كل شعب ومن واجبه أن ينتمي إلى ثقافته، وأن جميع الثقافات بما فيها من تنوع خصب وبما بينها من تباين وتأثير متبادل إنما تشكل جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً" (المادة 1 من إعلان مبادئ التعاون الثقافي) كما يشير العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية إلى حق الأقلية في تعلم لغتها من خلال النص التالي : " نتعهد الدول الأطراف في هذا العهد باحترام حرية الآباء، أو الأوصياء في اختيار مدارس لأولادهم غير المدارس الحكومية شريطة تقييد المدارس المختارة بمعايير التعليم الدنيا التي تفرضها أو تقرها الدولة، وتأمين تربية أولئك الأولاد دينياً وخلقياً وفقاً لقناعاتهم الخاصة " (مركز التوثيق والإعلام والتكوين في مجال حقوق الإنسان ، 2010م، ص: 16)

من جانب آخر أشارت المحكمة الدائمة للعدل الدولي في حكمها الصادر في القضية المتعلقة بمسألة مدارس الأقليات في ألبانيا أن الاتفاقيات ذات الصلة بنظام حماية الأقليات تهدف إلى ضمان المساواة بين الأقليات والأغلبية، وعدم التمييز بين الأفراد المنتمين لها والمواطنين الآخرين في الدولة، إلا أن المساواة الواجب تحقيقها بين الأقلية والأغلبية ليست مساواة شكلية، فلا بد من تمييز إيجابي لصالح الأقلية بغية تمكينها من الحفاظ على الخصائص المميزة لها عن الأغلبية، ومن ضمنها تمكين الأقليات من إنشاء مدارس خاصة بها " (علوان والموسى، ص:35)

يظهر من خلال هذه النصوص أن للأقليات المسلمة الحق في تعلم لغتها عبر إنشاء مدارس ومؤسسات تعليمية ودور النشر الخاصة بها وإصدار مؤلفات ومناهج دراسية تلائم طبيعة ثقافتها، لكن، يبقى الإشكال في المادة 27 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية "لا يجوز، في الدول التي توجد فيها أقليات اثنية أو دينية أو لغوية، أن يحرم الأشخاص المنتسبون إلى الأقليات المذكورة من حق التمتع بثقافتهم الخاصة أو المجاهرة بدينهم وإقامة شعائره أو استخدام لغتهم، بالاشتراك مع الأعضاء الآخرين في جماعتهم" (المادة 27 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية) وفي مدى التزام الدول باحترام هذه المادة من حيث اتخاذ التدابير والإجراءات التشريعية لإعمال هذه الحقوق ، حيث تتراوح قراءة الدول لهذه المادة بين قراءة سلبية أو إيجابية :

الفرع الأول : القراءة الإيجابية للمادة 27

طبقا لهذه القراءة فإن على الدول التي تحتوي في نسيجها الاجتماعي على أقليات فإنها ملزمة باتخاذ إجراءات دستورية تضمن حق الأقليات في التعلم بلغتهم، ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن عدم اتخاذ الدولة سلوكا إيجابيا يجعل الأحكام المتعلقة بحقوق الأقليات خالية من أي معنى أو مجرد تزيد لا داعي له، ومن هنا فإن على الدول اتخاذ تدابير تشريعية وإدارية خاصة بحقوق الأقليات، فمن الصعب تصور كيفية الحفاظ على ثقافة أو لغة أو دين جماعة معينة دون أسس تشريعية وإدارية تضمن لها حق تأسيس مؤسسات ثقافية واجتماعية ودينية خاصة بها، وعلى ذلك فإن تنفيذ هذه الحقوق يتطلب تدخلا فعالا من الدولة " (علام ، 2001 ، ص:156)

من زاوية نظر أخرى فإن أصحاب هذا الاتجاه يستدلون بالاتفاقية الخاصة بمكافحة التمييز العنصري في مجال التعليم، حيث ألزمت الدول الأطراف فيها بتقديم تعهد تلغي بموجبه أية أحكام تشريعية أو تعليمات

إدارية تتطوي على تمييز في التعليم، وبأن تتوقف الدول الأطراف عن أية إجراءات تقود إلى ذلك التمييز " (المادة (3) من الاتفاقية الخاصة بمكافحة التمييز في التعليم)

الفرع الثاني : القراءة السلبية للمادة 27

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الدول التي بها أقليات غير ملزمة بإجراءات وتدابير تشريعية لصالحها، فبحسب رأي الدكتور عزت سعيد السيد بخصوص الحقوق الثقافية الواردة في المادة 27 فإن على الدول ضرورة عدم إنكار تلك الحقوق على الأشخاص المنتمين إلى أقليات عرقية أو لغوية أو دينية، أي أن الالتزام هنا لا يعدو أن يكون مجرد التزام بامتناع، فالدولة وفقا لهذا الرأي غير ملتزمة إيجابيا أو ماديا بتنمية ثقافة أو لغة الأقليات بإنشاء مؤسسات خاصة بها، وإنما فقط ألا تنكر على الأقليات حقها في ذلك " (سعد، 1986، م، ص: 64)

كما أن اللجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية الأقليات قد تعرضت لموضوع طبيعة الالتزام المفروض على الدول بمقتضى أحكام المادة 27 من العهد الدولي لحقوق المدنية والسياسية وذلك من خلال دورتها العشرين لعام 1967، حيث قرر الأعضاء في اللجنة المذكورة أن المادة (27) من العهد تعكس على نحو مناسب الموقف السائد للجماعة الدولية، في أن الدول تكون ملتزمة بأن تسمح للأفراد الذين ينتمون لأقليات، التمتع بثقافتهم وممارسة دينهم واستخدام لغتهم، ولكنها لا تضمن لأعضاء الأقليات الحق في المطالبة بالزام الدولة باتخاذ تدابير إيجابية لصالحهم" (علام، 2001، ص: 158)

يظهر بأن الاعتماد الحرفي على المعنى يبرز أن الالتزام المترتب لن يكون سوى عدم اتخاذ تدابير منع في حق الأقليات في إنشاء مراكز تحفظ لهم خصوصياتهم الثقافية ومن ضمنها اللغة كما يتضح من خلال ما تم ذكره بأن المادة 27 لا تقدم ضمانات كافية لحماية حقوق الأقليات ما دامت الصياغة الحرفية تثير تحليلات متباينة ومتعددة في فهم مدلول العبارات.

المبحث الثاني : أهمية الحوار في الدفاع عن الهوية الثقافية الإسلامية

في غياب التعليم الديني في المؤسسات العامة في مختلف دول الاتحاد الأوروبي، وافقت السلطات العامة على الاعتراف بحرية الأقليات المسلمة في إنشاء مدارس دينية خاصة لكن بين الاعتراف والممارسة بون شاسع قد يتسع ويضيق بحسب قوانين كل بلد .

المطلب الأول : الحوار حول تأسيس المدارس الإسلامية

أكد المجلس الأوروبي في تقرير المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان المادة 2 من البروتوكول رقم 1 للاتفاقية بشأن حرية التعليم أنه لا يميز بين التعليم العام والخاص (-المجلس الأوروبي لحقوق الإنسان ، دعوى رقم 5926/72 ; 5920/72 ; 5095/71 ، قرار المحكمة بتاريخ 7 دجنبر 1976) ، ومع ذلك، تخضع هذه الحرية في غالبية الدول التي تقبل إنشاء مدارس دينية خاصة لشروط معينة ملازمة للأوصاف القانونية والتنظيمية المتعلقة ببرنامج هذا التدريس والمباني التي يتم التدريس فيها، مثل احترام برنامج المدرسة التي تسهر عليها الدولة.

بالنسبة لبعض المسلمين، فإن إنشاء مثل هذه المدارس ضروري لمعالجة الاختلالات التي تقع في المدارس العامة في تدريس الإسلام، كما تعد شكلا من أشكال التنشئة الاجتماعية للأطفال المسلمين، ويعتمد تطوير هذا النوع من التعليم على الوضع التشريعي في هذا المجال في مختلف البلدان، وهكذا ، في الدنمارك، تم افتتاح ست مدارس إسلامية تمولها الدولة (داسيتو، 2007، ص: 282)

في هولندا، من الممكن إنشاء مدارس خاصة لأي اتجاه طائفي كما أنه قد يتم تمويل هذه المدارس من قبل الدولة، بما في ذلك البلديات التي تدعم بشكل مباشر المدارس المذهبية بموجب المادة 23 من القانون الهولندي " (داسيتو، فيراري، 2007، ص: 147-148) على أن يتم التدريس بلغة البلد وأن تتوافق مع الخطوط العريضة للمناهج الدراسي المحدد من قبل السلطات .

نجد أيضا نظام التعليم السويدي الذي يشجع الآباء المسلمين على اختيار المدارس الخاصة بدلاً من المدارس العامة، باعتماد "حوالات التعليم أو القسائم التعليمية" الذي يلزم البلديات بدفع الرسوم الدراسية في المؤسسات الخاصة - يطلق عليها أيضا اسم المؤسسات المستقلة - لتسهيل اختيار هذا النوع من التعليم الخصوصي، هذا النظام واسع الانتشار في العديد من دول الاتحاد الأوروبي مثل بريطانيا وهولندا والدنمارك وفنلندا وإيطاليا وإسبانيا والمجر وجمهورية التشيك، (منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، 2013، ص: 72) صحيح أن هذه المدارس يمكن أن تسهم في بناء هوية إسلامية حقيقية، لكنها يمكن أن تكون سببا أيضا في عزل المسلمين والخروج بهم عن واقع الحياة الأوروبية بالإضافة للتكاليف المالية الباهضة أحيانا، بحيث يصبح الالتحاق بهذه المؤسسات الخاصة متاحا فقط للأهل الأثرياء .

علاقة بهذه النقطة يقول أحد الكُتاب الغربيين : على الرغم من ذلك، لا تزال المدارس الإسلامية الخاصة تواجه الكثير من المعارضات والرفض من قبل السلطات العامة على أساس أنها تعيق عملية الاندماج. (شليبي، 2007، ص:108-109)

لقد أظهرت بعض بلدان المجتمعات الغربية إجماعاً عن الاعتراف بحقوق الأقليات المسلمة في إقامة مدارس خاصة إسلامية، والبعض الآخر أبدى تردداً، كل ذلك نتيجة صعوبة منح الاعتراف بالدين الإسلامي كدين فرض وجوده في بعض الدول، لذلك فحوار الأقليات المسلمة مع هذه الدول هو حوار من أجل إظهار أهمية تلك المرافق في تنظيم المسلمين والتغلب على عقبات الاندماج، كما أنه حوار لإزالة الحواجز القانونية أو الإدارية التي تعيق بدون مبرر أحياناً بناء مؤسسات دينية تلي حاجيات الأقليات المسلمة في الاستفادة من التعلم الديني.

المطلب الثاني: الحوار حول تصحيح الصورة النمطية للإسلام والمسلمين في المناهج الدراسية

تسير غالبية دور النشر التي تعنى بالتربية والتعليم والأدب في المجتمعات الغربية إما إلى محاولة تكريس فكرة الإسلاموفوبيا، أو إلى التقليل من حجم الحضارة والثقافة الإسلامية، حيث أغلب الكتب التي يتم تسويقها تتجاهل المسلمين والعرب وإنجازاتهم الكبيرة في البناء الحضاري للإنسانية من خلال تجاهل إسهامات العلماء المسلمين في المجالات الفكرية والعلمية، أو من خلال رسم صورة نمطية عن المسلمين والعرب تتمثل في الهجرة والفقر والعنف والإرهاب والتخلف، ومحاولة زرعها في مخيلة التلاميذ والشباب الغربي من أجل توليد فكرة عدم التعايش والاندماج مع المهاجرين الذين يعتبرون أقل شأنًا وحضارة وفكرًا، ولئن كانت الندوات والمواثيق الدولية التي تعقد بخصوص أوضاع الأقليات في العالم تدعو إلى تيسير عملية اندماجهم داخل المجتمعات الحاضنة، فإن ما تخطه الأقلام في المقررات المدرسية والروايات والكتب الأدبية، أو ما تقدمه الإنتاجات المسرحية والسينمائية تعمل نقيض ما تدعو إليه المواثيق الدولية، ومن ثم فأساس الحوار الحضاري بين الأقليات المسلمة والمجتمعات الغربية بهذا الشأن يقتضي:

- الحوار حول تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين وثقافتهم في الكتب المدرسية .
- تشكيل لجان مراقبة لمحتوى المناهج المدرسية التي تنتجها بعض دور النشر من طرف وزارة التربية والتعليم ومدى احترامها وتطبيقها للتوصيات .

- العمل على الحد من إدخال التمثيلات الذهنية التي تثير إحساس الأقلية المسلمة بالإقصاء القبلي مثل : اندماج المسلمين في دولة ما، أو الحجاب، أو التطرف، أو الإرهاب الإسلامي، أو الانتشار الإسلامي في الغرب.
 - إنشاء مركز أبحاث على مستوى علمي وفني رفيع لمتابعة أساليب عرض الإسلام في المقررات الدراسية باللغات الغربية المختلفة، ورصد ما يستجد فيها، وتحليل دواعي وأسباب تلك التطورات، وإن أمكن، الإفادة بالرأي والخبرة العلمية في سبيل تحسين صورة الإسلام والمسلمين في تلك المقررات .
 - دعوة الأساتذة الجامعيين المسلمين الذين يجيدون اللغات الغربية للإسهام في تدريس المقررات المتصلة بالإسلام في الجامعات الغربية. (وقيع الله، ص:444)
 - توخي الدقة في ترجمة المراجع الإسلامية الأساسية وإعادة تهذيب وتصحيح بعض الكتب المهمة بما يتناسب مع الأساليب الغربية في إعادة عرض التراث.
- إن تدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية حق مكفول دولياً قبل أن يكون واجباً دينياً وحضارياً من طرف الأقليات المسلمة والمجتمعات الغربية، لهذا فإنه يستوجب الاهتمام البالغ من كلا الطرفين، تحصيلاً للهوية الإسلامية، وتعريفاً بالقيم الإنسانية السامية التي جاء بها الإسلام.
- كما لا بد من التأكيد على أن اللغة العربية تعد وسيلة لفهم تعاليم الإسلام وإدراك أحكامه وقيمه الأخلاقية وتأثيرها على الأجيال الجديدة الناشئة من أبناء الأقليات المسلمة التي ولدت في مجتمع غربي وتتعلم وتتشرب من قيمه ونظمه، مما قد يشكل خطراً عليهم سيما في أمور الأخلاق والعقيدة، ذلك أن هذا الجيل الجديد قد تجاوز مرحلة الانحدار من الطبقات الفقيرة التي هاجرت للغرب أول مرة، وكان همها وهدفها الأول تحقيق المكاسب المادية فقط، إلى مرحلة الانتماء إلى أبناء المهاجرين من الجيل الثاني والثالث الذين تعلموا وأقاموا بصفة قانونية حيث أصبحوا مواطنين ينطبق عليهم ما ينطبق على سائر السكان في المجتمع.

المطلب الثالث: الدفاع عن اللغة العربية

اللغة العربية والدين الإسلامي: من أكثر المخاوف التي تعاني منها الأقليات المسلمة وخصوصاً الأقليات المسلمة العربية مشاهدة الجيل الجديد من أبنائها يتخلون رويداً رويداً عن لغتهم الأم إما عن جهل أو دون إدراك بسبب اهتمام الآباء بتعليم أولادهم اللغات الأجنبية وإهمال اللغة العربية، أو لأسباب تعذر تعلم اللغة العربية في المؤسسات التعليمية الغربية، وبسبب اللغة تبرز مشكلة تدريس الدين الإسلامي في الجمعيات والمدارس الخصوصية الإسلامية فبالأحرى المدارس الحكومية الغربية التي تمنع العديد منها في

بعض الدول التعليم الديني ببلغاريا ورومانيا وفرنسا، وبالتالي فإن تعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية يقتصر فقط على الآباء الذين بدورهم يعانون من ضآلة المعلومات والمعارف الدينية. ولذلك فإن من بين أولى الخطوات التي ينبغي تحقيقها في الحوار التربوي والديني مع الغرب الدفاع عن الخصوصيات الثقافية التي لها ارتباط مباشر بالهوية.

إن مهمة الدفاع عن اللغة العربية مهمة جسيمة ينبغي استحضارها عند كل تفاعل حضاري وثقافي " فالفاعل بين الحضارات والثقافات هو عملية جدلية متناقضة ومتداخلة فيها الجوانب الإيجابية التي يفترض تمثلها، والجوانب السلبية وضرورة العمل على تفاديها قدر الإمكان" (حمدان، 2005م، ص:75)، فما يحصل للأقليات المسلمة في مجتمع متعدد الثقافات اليوم هو عملية تفاعل حيوية، وإذا أخذنا قضية اللغة كمكون ثقافي يعكس الهوية، فهي مسألة شغلت الأقليات المسلمة لفترة طويلة بحكم عروبته وإسلامها، ومن هنا تبرز الأهمية الكبيرة للمؤسسات الجالية العربية والمسلمة وقادتها ونخبها في الدفاع عن هذه الخصوصية وإقرارها .

يقول أحد المفكرين العرب المسيحيين في معرض حديثه عن الهوية العربية للمسيحيين في استراليا: "اجتهادياً، نقول بأن التركيز على اللغة العربية هنا لا يمكن حصره كما يحاول البعض في تسهيل التخاطب فقط بين الأجيال المختلفة ... ، باعتقادنا أن الموضوع أعمق من ذلك بكثير فاللغة، وهنا على وجه التحديد في خطاب الكنيسة وفي الحياة الاجتماعية أداة رئيسية للتواصل الثقافي، وتوارث العادات والتقاليد والتاريخ المشترك، أي ببساطة محاولة إعادة إنتاج الروابط الاجتماعية العامة بين الأجيال وبالأخص، في مجالنا هنا، حضور الكنيسة المارونية في أوساط الأجيال الجديدة على وجه التحديد " (حمدان، 2005م، ص:80)، ، فما ينطبق على المسيحيين العرب في استراليا ينطبق على المسلمين العرب في المجتمعات العربية ككل، فاللغة العربية لغة القرآن ولغة لا محيد عنها لفهم الدين الإسلامي فهما سليما بعيدا عن التأويلات والاجتهادات الشاذة، قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة فصلت، الآية: 2) ، وقد اختار الله لهذا الدين الإسلامي أن ينزل باللغة العربية، وهذا يعني صلاحيتها لأن تكون لغة البشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (سورة الشعراء، ص: 195) . وقال تعالى:

﴿لَوْلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة النحل، الآية: 103)، فلها وصفها الله بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنها خصوصاً حين ناط

الله بها كلامه المنزل، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الزخرف، الآية: 3)، فواجب الأقليات المسلمة تجاه هذا المكون الثقافي والمرتبط بالهوية العمل على ضمان تمكين تدريس اللغة العربية في أوساطهم بشتى السبل والطرق لاسيما في الأوضاع التي يعيشها العالم وخصوصا قضايا التطرف الديني .

من جانب آخر فالخوف من اللغة العربية ومن تدريسها في المدارس العمومية هو تخوف غير مبرر من طرف المؤسسات الحكومية الغربية، فاللغة العربية كما يقول المستشرق الأمريكي ومدير مدرسة الباحث الشرقية الأمريكية في القدس وليم وول : " اللغة العربية لم تنتهقر فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها وينتظر أن تحافظ على مكانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي، وللغة العربية لين ومرونة يمكنها من التكيف وفقا لمقتضيات هذا العصر " (الجندي، دت، ص: 27-28).

وعن رأي سردنسون روس : " العربية لغة القرآن والحديث وتأثيرها في العالم الإسلامي حق لا ريب فيه، ليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطير كما هو في الإسلام ... ، من أجل ذلك كان لزاما على من يتقبل الإسلام أن يتقبل معه اللغة العربية تلك اللغة التي نزل بها القرآن " (الجندي، دت، ص: 30-31).

طبقا لما ذكر، فالمسلمون في بلاد الغرب لا يمكن أن يحافظوا أو يستعيدوا هويتهم الإسلامية وانتماءهم القرآني إلا بالمحافظة على مقومات ومكونات هويتهم الحضارية، ومن بين هاته المقومات اللغة العربية فهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطا بعقيدتهم وهويتهم وشخصيتهم، لذا فالاهتمام بها علما وتعلما لا غنى عنه.

خاتمة

عدم وجود إطار قانوني موحد للإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية من حيث تدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية بحيث يظهر صعوبة الواقع المعيش المتمثل في تنوع اختلاف الدول الغربية في التعامل مع الأقليات المسلمة، هذا الاختلاف هو نتيجة تنوع المسلمين، فالمسلمون موجودون في جميع دول الاتحاد الأوروبي وأمريكا وكندا، لكنهم لا يشكلون أقلية موحدة في هذه البلدان، فكل دولة من دول المجتمع الغربي لديها أقلية مسلمة خاصة بها مقارنة بالأقليات المسلمة الأخرى التي تعيش في دول غربية أخرى فالأقلية المسلمة التي تعيش في فرنسا واسبانيا وإيطاليا أغلبهم ينحدرون من بلدان شمال إفريقيا، كما أن الأقلية المسلمة التي تعيش في ألمانيا أغلبها من تركيا، وكذا الأقلية التي تعيش في بريطانيا

نجد الأقلية المسلمة الهندية والمصرية والباكستانية وغيرها، فلكل أقلية ثقافتها وعاداتها في المظهر والسلوك، مما يجعل أمر الاتفاق على إنشاء بعض المراكز التعليمية في غاية الصعوبة ، لهذا تضطر الكثير من الدول إلى عقد شراكات مع دول المنشأ لاستقدام وتوفير الأطر التعليمية الكافية لتدريس الدين - بحسب قوانين كل دولة على حدة- أو اللغة.

لائحة المصادر والمراجع:

1- Silvio FERRARI, "L'enseignement des religions en Europe : un aperçu juridique " dans " Des maitres et des dieux : ecoles et religions en Europe ", sous la direction de Jean-Paul WILLAIME avec la collaboration de Severine Mathieu, Belin, Paris, 2005, p: 36.

2- Abdoul Hamid Chalabi. Le statut des minorités musulmanes et de leurs membres dans les Etats de

l'Union européenne. Droit. Université du Droit et de la Santé - Lille II, 2011. Français.

Texte: " Cet enseignement est organise de maniere differente. Dans certains pays, il est organise et contrôle par les communautés religieuses qui doivent choisir les professeurs et determiner les programmes comme c'est le cas en Autriche, Belgique, Chypre, Espagne, Grece, Pologne, Portugal et Republique tcheque. Dans d'autres pays, cet enseignement est le fruit d'une cooperation entre l'Etat et les differentes communautés religieuses du pays comme c'est le cas en Hongrie, Italie, Lituanie,et Allemagne "p : 370-371

3- العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، المادة 18، مركز التوثيق والإعلام و التكوين في مجال حقوق الإنسان الصكوك الدولية 3 ، مطبعة المعارف الجديدة ، ط2، الرباط فبراير 2010 ، المغرب ، ص: 19 .

4- البروتوكول الإضافي لاتفاقية حماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية بصيغته المعدلة بموجب البروتوكول 11.

- 5- Jean-Paul WILLAIME, " Europe et religion : les enjeux du XXIe siecle ", Fayard, Paris, 2004,
- 6- Texte: "doit être pluraliste et doit respecter les convictions religieuses des parents ". " implique la liberté de créer des écoles privées sans obliger l'état de subventionner ces écoles "p: 155.
- 7- Protocole additionnel à la Convention de sauvegarde et des Libertés fondamentales , tel qu'amendé par le protocole n°11 Paris ,20.III.1952
- 8- L'article 2 du Protocole n° 1 a la Convention EDH indique, par ailleurs, que : « Nul ne peut se voir refuser le droit à l'instruction. L'état dans l'exercice des fonctions qu'il assumera dans le domaine de l'éducation et de l'enseignement respectera le droit des parents d'assurer cette éducation et cet enseignement conformément à leurs conviction religieuses et philosophiques ».

https://www.echr.coe.int/Documents/Library_Collection_P1postP11_STE009F_FRA.pdf

9- المادة L141-4 من قانون التعليم الفرنسي

Code de l'éducation - Article L141-4 " L'enseignement religieux ne peut être donné aux enfants inscrits dans les écoles publiques qu'en dehors des heures de classe".

https://www.legifrance.gouv.fr/affichCodeArticle.do;jsessionid=522F8BCBFB2EF7B88BC3E5D8EBF61159.tplgfr25s_2?idArticle=LEGIARTI000006524454&cidTexte=LEGITEXT000006071191&dateTexte=20190615

- 10- اتفاقية حقوق الطفل، المادة (30)، مركز التوثيق والإعلام والتكوين في مجال حقوق الإنسان ، الصكوك الدولية 7 ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، المغرب ، ط2، فبراير 2010م، ص: 24 .
- 11- أحمد أبو الوفا ، الحماية الدولية لحقوق الإنسان ، دار النهضة العربية ، القاهرة، ط 4 ، سنة 2000م ، ص: 67.

12- المادة 1 من إعلان مبادئ التعاون الثقافي .

13- العهد الدولي لحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الفقرة (3) من المادة (13) مركز التوثيق والإعلام والتكوين في مجال حقوق الإنسان ، الصكوك الدولية 4 ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط، المغرب ، ط2، فبراير 2010 م، ص: 16.

14- محمد يوسف علوان ومحمد خليل موسى، القانون الدولي لحقوق الإنسان، ج1 ، ص: 35.

15- المادة 27. "لا يجوز، في الدول التي توجد فيها أقليات اثنية أو دينية أو لغوية، أن يحرم الأشخاص المنتسبون إلى الأقليات المذكورة من حق التمتع بثقافتهم الخاصة أو المجاهرة بدينهم وإقامة شعائره أو استخدام لغتهم، بالاشتراك مع الأعضاء الآخرين في جماعتهم".

16- وائل أحمد علام، حماية الأقليات في القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة-مصر، ط2، سنة 2001 م ، ص: 156.

17- المادة (3) من الاتفاقية الخاصة بمكافحة التمييز في التعليم .

18- عزت سعد "حماية الأقليات في ظل التنظيم الدولي المعاصر"، المجلة المصرية للقانون الدولي ، عدد 42 ، سنة 1986 م، ص: 64 .

19- وائل أحمد علام، حماية الأقليات في القانون الدولي العام، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر ، ط2 ، سنة 2001 ص: 158.

20- المجلس الأوروبي لحقوق الإنسان ، دعوى رقم 5926/72 ; 5920/72 ; 5095/71 ، قرار المحكمة بتاريخ 7 دجنبر 1976

5095/71 ; 5920/72 ; 5926/72, « Kjeldsen, Busk Madsen et Pedersen c. Danemark », arrêt du 7 décembre 1976 p 50.

Texte: " En outre, la seconde phrase de l'article 2 (P1-2) doit se lire en combinaison avec la première qui consacre le droit de chacun à l'instruction. C'est sur ce droit fondamental que se greffe le droit des parents au respect de leurs convictions religieuses et philosophiques, la première phrase ne distingue pas plus que la seconde entre l'enseignement public et l'enseignement privé ".

URL: <http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:hZnsX9eVjgIJ:hudoc.echr.coe.int/app/conversion/docx/pdf%3Flibrary%3DECHR%26id%3D001-62067%26filename%3DCEDH.pdf+&cd=3&hl=fr&ct=clnk&gl=ma>

<http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:hZnsX9eVjgIJ:hudoc.echr.coe.int/app/conversion/docx/pdf%3Flibrary%3DECHR%26id%3D001-62067%26filename%3DCEDH.pdf+&cd=3&hl=fr&ct=clnk&gl=ma>

<http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:hZnsX9eVjgIJ:hudoc.echr.coe.int/app/conversion/docx/pdf%3Flibrary%3DECHR%26id%3D001-62067%26filename%3DCEDH.pdf+&cd=3&hl=fr&ct=clnk&gl=ma>

19-Voir aussi Felice DASSETTO, La construction de l'islam européen : approche socio-anthropologique , p: 282.

21- Felice Dassetto , Silvio Ferrari, Brigitte Maréchal , « **L'islam dans l'Union européenne : quel enjeu pour l'avenir ?** » Bruxelles , Parlement européen ,2007
Texte: " L'article 23 de la Constitution permet la création d'écoles élémentaires confessionnelles privées, financées par l'État. Ce système a été étendu par le droit commun aux écoles secondaires confessionnelles, aux centres de formation professionnelle et aux universités. Trente-sept écoles primaires islamiques et une école secondaire (ouverte à Rotterdam en août 2000) sont reconnues et financées par l'État. Les cours doivent suivre un programme national qui prend la majeure partie du temps disponible, tandis que quelques heures par semaine sont consacrées aux leçons et cérémonies religieuses. Il existe également une université islamique privée à Rotterdam (Islamic University of Rotterdam, IUR) et une autre à Schiedam En vertu de la loi de 1984 sur l'éducation, les parents ont le droit d'obtenir pour leurs enfants une éducation religieuse dans les écoles publiques, mais ils doivent trouver et payer le professeur. Les parents musulmans n'utilisent cette possibilité que leur offre la loi que dans des cas exceptionnels. Il y a aussi des municipalités (comme Rotterdam) qui subventionnent cette activité. De plus, les autorités municipales se réservent le droit de choisir la langue de l'enseignement, sachant que l'exigence d'un enseignement en néerlandais a ralenti le développement de l'instruction islamique en raison du manque d'enseignants compétents.",p:147-148.

22- équité et qualité dans l'éducation: comment soutenir les élèves et les établissements défavorisés",OCDE Publishing (Organisation de coopération et de développement économiques) 2013 Paris- France, p: 72

23- Abdoul Hamid Chalabi. Le statut des minorités musulmanes et de leurs membres dans les Etats de l'Union européenne "Malgré tout, les ecoles musulmanes privees suscitent encore des contestations et de refus de la part des autorites publiques sous le pretexte qu'elles freinent l'integration",p:391. Citant "Anne FOHR, " Un lycee musulman sur le Rhone " Le Nouvel Observateur, n° 2209, le 8 mars 2007,France , p: 108-109.

24- محمد وقيع الله أحمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة (عرض ونقد) ، ط 1، سنة 1427هـ/2006 م ، ص :444.

25- علي حمدان، إشكالية الهوية والانتماء، سلسلة الأستراليون العرب، المركز الاسترالي العربي للدراسات السياسية، استراليا، ط 1 يناير 2005 م، ص:75.

26- علي حمدان، إشكالية الهوية والانتماء، سلسلة الأستراليون العرب، المركز الاسترالي العربي للدراسات السياسية، استراليا، ط 1 يناير 2005 م، ص:80.

27- أنور الجندي، اللغة العربية بين حمايتها وخصومها ، مطبعة الرسالة القاهرة-مصر ،(ب.ط.ت)، ص 28-27.

28- أنور الجندي، اللغة العربية بين حمايتها وخصومها ، مطبعة الرسالة القاهرة-مصر ،(ب.ط.ت)، ص 30-31.

المجموعة القصصية "ميتة مبتكرة" لبلقيس خليفة:
محاولة سردية لإبداع الأفكار أم تأكيد على موت الابتكار؟

The short story collection 'innovative dead » by Balquis Khalifa :

A narrative attempt to create ideas or a confirmation of « the death » of innovation ?

رجاء عمّار/باحثة في علوم الإعلام والاتصال/جامعة منوبة - تونس

الملخص:

تم السعي إلى استقراء المجموعة القصصية بشكل تفصيلي، إتاحة لإجابات ممكنة عن الاستفهام الذي تضمنه عنوان المقال، من خلال خمسة محاور تمثلت في: أولاً، التعويل على الموروث الرمزي بين الأهمية وتنميط الصورة الذهنية للموت واستغلال المخزون اللفظي دون استثمار لإثرائه. ثانياً، مراوحة النقد بين استنطاق الواقع حيناً - خاصة ما تعلق بما يمنحه العالم الافتراضي من قيمة مضافة للموت- والإسقاط حيناً آخر. ثالثاً، تشریح الحكمة السردية لإبراز تجليات الانعتاق والكشف عن عثرات الاختلاق، سواء فيما يرتبط بالارتكاز على الصدفة في نسج الأحداث والنحواتيم و التزامن المريب الذي يحول دون الإقناع. رابعاً، البحث عن التنويع والسقوط في التكرار. خامساً، معاينة الأسلوب الذي مال إلى التبسيط إلى درجة التفريط والاستكانة في شبك السطحية عوض الاستفادة مما تمنحه بلاغة العفوية من حرية.

الكلمات المفتاحية: الموروث الرمزي - الصور الذهنية - المخزون اللفظي - الاستغلال والتنميط - الخلق والاختلاق - التنويع والتكرار - التبسيط الأسلوبي والسطحية

Abstract: This critical article represents an objective reading of the collection of short stories by addressing five axes which were: **First**, the symbolic heritage between importance and stereotyping the mental conception of death and exploiting the verbal reserve without investing it for enrichment. **Secondly**, the criticism between denouncing and projection.

Third, dissecting the narrative plan to highlight the manifestations of imaginative emancipation and reveal the pitfalls of the pretence, both in relation to relying on coincidence in weaving events and suspicious coexistence and simultaneity that do not rise to the degree of convincing. **Fourthly**, searching for diversification and omission in repetition. **Fifth**, examination the style that tended to simplify to the point of negligence, settling in the trapping of superficiality, instead of taking advantage of the deliverance granted by eloquent spontaneity that guarantees enjoyment.

Key words: symbolic inheritance - mental perceptions - verbal register - exploitation and establish the same pattern - creation and the shamming of innovation - diversification and repetition - stylistic simplification and superficiality.

ظلت الجملة التي ختمت بها الكاتبة "فاطمة بن محمود" مقالها الذي خصصته لقراءة مجموعة "ابتسم إنها تمطر" لبلقيس خليفة عالقة في ذهني، لأنّ تأويل الغاية منها تأرجح بين تشكيك يبلغ مرتبة توقع تقاعد سردي اضطرابي، سيفرضه جفاف نبع القريحة، وبين النزوع إلى الاستفزاز للدفاع عن هذا المعين الذي ما زال قادرا على الترقق فالتجدد، وتمثلت هذه القفلة في: "... ولعلّ ما أخشاه أن تكون الكاتبة في هذا الإصدار الثاني قد استنفدت كلّ الخدع السردية، وقالت كلّ شيء، ولعلّ هذا ما يفرض عليها تحديات أدبية تمكّنها من النجاح في مسيرتها الإبداعية".

يأتي الردّ بنشر مجموعة قصصية سنة 2021، واختارت لها عنوانا "ميتة مبتكرة" يقدم إجابة صريحة تؤكد قبول التحدي، لإثبات الكفاءة في نسج نصوص تتسم بالفراة، وأنّ المهمّ السردية سينصبّ على كسب رهان الابتكار الذي يخول نفخ الحياة في الموت ذاته الذي تمت الإشارة إلى أنه ليس واحدا تحدث حتمي، بل يضمّ ميتات، لكلّ سمتها المميزة التي تمنحها وقعا مختلفا، فالموت جمع في صيغة المفرد، وقد يمثل الموضوع الجوهري للقصص الأربع عشرة التي تضمنتها المجموعة، مع تناول مغاير في كلّ واحدة منها، وهو ما يمنح ثراء دلاليًا لمسألة يمكن تشبيهها بفردة حذاء لا يُكتفى بها، ولا بدّ من وجود الفردة الأخرى ألا وهي الحياة، وتنتعل الخيلة هذا الخفّ الواقعي الذي يضمّ جميع المواضيع الأخرى التي تنفرع عنه بمقاسات وتصاميم وألوان مختلفة.

بالتالي، كلّ محاولة سردية تركز على الإبداع هي تحدّ للقارئ من خلال النجاح في نقله من طور الاطلاع فالتجاوز اللامبالي إلى جذب الاهتمام فالتفاعل تساؤلا وتأييلا، كما أنّها تحدّ شخصي للكاتب الذي يسعى بصفة دؤوب إلى عرك الأفكار بأسلوب يروم الأصالة، لنسج المعهود منها بطريقة فريدة أو الاشتغال عليها وإخصابها لتحمل وعد التجديد، فإلى أي مدى تمكّنت الكاتبة من كسب الرهان الإبداعي؟ هل يكفي قبول التحدي واعتباره في حدّ ذاته نجاحا بالتعلّل بشرف المحاولة التي لا جدل في قيمتها عموما، غير أنّها في جوهرها ضرورة وليست اختيارا، فالألا يحاول الإنسان يعني قبول التحول إلى جثة عزفت عن السعي لأنّها استسلمت لعزف السكون؟ ما العدة التي اعتمدت عليها لخوض مغامرة القصّ وكيف استغلّتها: هل نأت بالابتكار عن "السمعة السيئة" لدلالة وزنه المنشدّ إلى الافعال لتحسن الاستثمار في أسهمه التي ما فتئت في المنحدر؟

1- التحويل على الموروث الرمزي كجادة أولية: بين الأهمية والتنميط:

أ- تنميط الصورة الذهنية: الموت بين الفزاعة والشخصنة:

يتجلى منذ صفحة الغلاف الأمامي للمجموعة القصصية الاتكال على الصورة الذهنية المتداولة التي تستدعي الموت على هيئة فزاعة ثوّل مهمة ترويع الأنفس البشرية، فحضورها لطالما ترادف بشكل شبه مطلق مع

إخافة الدنيا وطردها، وهو ما دعمه رأسها- الجمجمة مع المحافظة على تقديمها المؤلف، إذ اتخذت الشكل المعتاد بمجري عينين فارغين وأسنان بارزة، لتفصح عن الدلالة المعروفة بمجرد رؤيتها "خطر- موت!"، وهو ما يحقق مبدئياً الغاية للغلاف المتمثلة في الاستيقاف برسالة تبدو للوهلة الأولى واضحة وصريحة ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعنوان، خاصة باحتلال الفزاعة مساحة هامة في الواجهة الأمامية، أي أنها منحت دور البطولة، والمتأمل فيها سيجد تفاصيل مثيرة للاهتمام لما تجمله من رموز تتيح فرصة التأويل، فالفزاعة في حقيقة الأمر تنعم بالحياة، فجمجمتها عمرت بالنحل المتراص، سواء اتخذ منها بيتا أو اعتبرها مصدرا للرحيق الذي سيشكل به في مرحلة لاحقة شراب الحياة وشهدا الذي تمّ التزود به من الموت.

لا تستبعد فرضية أنّ هذا النحل قضى نحبه بعد محاولة الدفاع عن حقه، وإن حُسمت النتيجة سلفاً، إلا أنّه اختار المواجهة عوض الهروب كحلّ استحسنه غيره سبيلاً لنجاة مؤقتة، وكما جاء في الآية القرآنية: "قل إنّ الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم" (القرآن، سورة الجمعة، ص 8) ، لذلك يتّيقن من عبثية الفرار، ولم يجد ضيراً في إظهار سلاحه الوحيد، هاتفاً بيت الشاعر عبد الرحيم محمود: "سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى... فإمّا حياة تسرّ الصديق وإمّا ممات يغيب العدا".

تبقى ميتة شبيهة راسخة، لذلك لم يسقط النحل بعد نفوقه، وإمّا ظلّ كعلامة فارقة شكّلت مع بعضها البعض حياة من نوع آخر، إذ أصبحت شبيهة بعشب يتماشى مع الجسد المتمثل في جذع شجرة منحوت كصدر عار لإنسان بثنين عجفاوين، وإن لونت طبقتيها الخارجية حمرة شبيهة بقعة، قد تكون دليلاً ملموساً على معركة دامية مع الحياة التي تتوصل، في نهاية المطاف، في هذا الأثر الذي تجاهد كي تتركه، للإيمان بأنّه لا يُحى ولا يطمس بسهولة حتى إذا خسرت كلّ الجولات، وينغص بطريقة ما فرح الموت بانتصاره عليها لأنّه يبقى منقوصاً، ورغم ذلك يحتفل بظفره، وهو ما تكشف عنه يد الفزاعة الملفوفة بضمّاد إشارة إلى ما ألحقته بها الحياة من كسر استدعى الجبر أو أنّ هذه اليد ليست لها، فككلّ فزاعة لا تملك في البداية طرفين علويين، وقد تبقى محرومة منهما، وقد يتمّ المنّ عليها بغصني شجرة، أمّا فزاعة الموت تكفّلت باجتثاث يد الحياة لتهبها لنفسها هدية مستحقة، لذلك ترفعها قبضتها المضمومة كرمز للقوة وكفاءة الحسم، لتتواصل الحياة بطريقة ما وإلا لارتخت.

قد تكون هذه اليد المسلوقة مخطّطة على هذا الوضع، لتتغلغل فكرة استمرار الذكرى في مجابهة الموت الذي من المحتمل أنّه تغلب عليها، ونجح في منح اليد كرمز للحركة من نسغه المخصوص، خاصة مع قدرته على أن يكسو نفسه بنسج ما يرتديه، فقميص الفزاعة نبت من صلبها، وهو جزء منها، زينه جيب مغلق بزر، ورغم ذلك يكشف مع الشقوق سرّ الجسد الذي ليس سوى قشاً، وارتكازها على قدم واحدة وهو

تفصيل معهود وإن اختلفت مع بقية الفزاعات التي يتم تثبيتها في نفس المكان، فالخيال الجمعي يخول للموت الحركة للانتقال من مكان إلى آخر لوضع حد للحياة.

لعل الأمر في تقديمه بهذه الصفة، يدفع إلى التفكير بشكل مغاير وعدم توهم الموت في هيئة بشر يمشي على قدمين ليقوم بمهمة قبض الأرواح، أما اختلاف الجذوع والخضرة، فيحيل على إصرار الحياة على إثبات حضورها بخصائصها المميزة أو لعل الموت تنكّر في ثوبها أو بكل بساطة هما واحد، فمتى حضر أحدهما ظهر الآخر.

في خلفية لوحة الغلاف، توزعت بعض النصب التي قد تكون شواهد قبور أو قواعد تماثيل، لتشكّل متحفاً في الهواء الطلق، وما يلتفت الانتباه التشابه بينها الذي قد يبلغ درجة التطابق حيناً مع اختلافات طفيفة أحياناً، فالقواعد البيضاء المستطيلة تتصدرها منحوتة تكتفي بالرأس وجزء صغير من الجذع العلوي الملفوف بثوب شبيه بأردية زمن سحيق في التاريخ أو ربّما هو كفن لا يغطي رؤوساً مشكّلة من نفس القش الذي حُشيت به الفزاعة، وبعضها يتمادى به القش دلالة على عريه الذي يشي بتقاسمه ذات المادة المكوّنة لجسم الموت، أو ربّما قد يعني العكس باستمرار القش في النمو حدّ الامتداد والتغلّب على الكفن لتثبت فيه الحياة، خاصّة مع ملاحظة إيراد تفصيل غير منطقيّ ويمثّل في ظلال النصب رغم غياب الشمس في سماء اللوحة الموشّحة بسحب بيضاء كدخان طبخة تصاعد من الأرض، وبما أنّ اللوحة كما ذكر للفنانة السوربالية التشيكية (Toyen) فلها كلّ احتمالات التلاعب بالمعهود وعدم الرضوخ للضوابط الطبيعية لتبدع عالماً بمقاييس ترتضيها.

قد يبدو أنّ هناك إطالة في استقراء رمزية لوحة الغلاف، وقد يذهب البعض إلى اعتبار ما سلف هدرا للجهد ومضيعة لوقت كلا الطرفين - كاتبة المقال ومن انطلق في الاطلاع عليه- إلا أنّ الغلاف يستحقّ قراءة أكثر تفصيلاً على أنّه تم الالتزام بالحوصلة في تأويل الدلالات، وسنستشف أهمية ما طرح عند خوض غمار تحليل رمزية القصص.

في هذا السياق، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الغلاف الأمامي للكتاب هو عنصر جوهري لا يجب التغافل عن قيمته أو التهاون والاستسهال، سواء في عملية اختيار لوحة، مثلها هو الشأن بالنسبة لهذه المجموعة أو في اعتزام تصميم واحد خاصّ، لأنّ الغلاف والنص عنصران متكاملان يشكّلان عملاً فنياً وجب أن يحقق شرطي الانسجام والفرادة، فهل اختيار اللوحة موفق؟

ستسارع الإجابة المقدمة دون تفكّر في متطلبات الإبداع بالتأييد الذي لا يمكن إنكاره بشكل مطلق، فاللوحة قادرة على جذب الانتباه، وتربط صلة مع العنوان دون أن تعارضه أو تشاكسه محدثة تبايناً رمزياً مثيراً للحيرة، غير أنّ انطلاقة شبيهة تتركز على صورة ذهنية نمطية للموت بفزاعة ومقبرة قد تدفع

الشغف إلى الاستنفار كي لا يلوذ بالفرار، منذ ما يسمى بالعتبة، التي من بين أهدافها التشجيع على التصفّح فالاطلاع وليس التعثر في المعتاد، وهو ما قد يكون سببا للتنفير فالإحجام أو التغاضي والاستمرار اضطرارا أو إقناع النفس أنّ الأهمية في النصوص، فلا داعي للإحجام في الحكم مع إيجاد الأعذار للكاتب أنّها ليست المسؤولة ولا تؤخذ بالجريرة، وغيرها من الحجج التي أسلفت أنّها ليست مقنعة، فالكتاب وحدة لا تتجزأ، ووجب الاجتهاد في جميع المراحل، واختيار لوحة تشي رموزها بسهولة ربّما إلى الموت بالارتكاز على مخزون جمعيّ مشترك دون استثمار الفكرة المعهودة وتوظيفها.

هل هي إشارة أنّ الابتكار وهم، فما عاد له من مجال، وكلّ محاولة ليست سوى تعثرا في التكرار وسقوط فيه دون إيجاد محفّز للنهوض أو على الأقلّ النبش في مكان السقوط والحفر عميقا لعلّ...؟، والاستفهام الأهمّ: لم اللجوء إلى لوحات جاهزة، حتّى إذا تمتعت بقيمة فنية، وإن لا يمكن إنكار أنّ المهمة عسيرة وتحتاج بحثا وتبصّرا؟ لماذا يقصّي الاجتهاد، ولا تُمنح الفرصة لمبدعين تونسيين كي يضطلعوا بهذا الدور، فيقترن إبداع القص مع لوحة جديدة؟ لم التفويت في هذه الفرصة على مستوى دفع القرائح لتبرز موهبتها وترجمها لتعب المجموعة القصصية هوية خاصة بها؟

يدفع العنوان إلى التساؤل هل جميع قصص المجموعة ستأخذ الموت موضوعا تناوله من جوانب متعدّدة، وتطرح تجسّداته المختلفة، سواء الفيزيولوجي منها أو المعنويّ، وهو ما يثير بدوره تساؤلا عن مدى إحسان الاختيار، وهل أتمّ بالشموليّة التي نجحت في ضمّ جميع الحبكات السردية المرتبطة بالموت.. وغير المرتبطة به، إذ بعد الاطلاع، يمكن تقسيم القصص إلى ثلاث مجموعات رئيسية، استحوذت الأولى على النصيب الأوفر بسبع قصص، وتنقسم بدورها إلى قصص حدث الموت الفيزيولوجي، سواء وقع للآخر وتفصيل تأثيره في نفس راوي القصة أو هو الذي يخوض التجربة بنفسه أي أنّ السارد يلعب دور الميت منذ السطر الأوّل للنصّ أو يتمتّع بالحياة فيه ليضطلع بنقل خبر موت الغير، ليحين دوره في الأثناء وتواصل جثته القصص، في حين خصّصت للموت المعنويّ ثلاثة نصوص ومثلها للمجموعة الثالثة التي لا ترتبط بالمرّة بموضوع الموت ولا تنطرق إليه وإن إشارة.

تشارك شخصنة الموت مع تخيله في هيئة فزاعة - هي نفسها عبارة عن مجسم لإنسان-، ويتقاسمان نفس المهمة المتمثلة في التخويف بجرّد الحضور. لا تجتهد القريحة التي لا تتعنى لاكتشاف خانات أخرى في رقعة المخزون الرمزيّ بل تصطفّ في ذات المربع الذي يضيق رغم محاولات التوسيع التي تنبع من الكسل وتبوء بالملل من صورة ركن إليها الخيال الجمعي الذي يميل إلى إدراك المواضيع انطلاقا من صفات الذات البشرية، فالحقّ مثلا يستدعي كشخص لا ينضو عنه درع الشجاعة، وتميّز نظراته بالثقة

ووقفته بالثبات وغيرها من المناقب، أما الدنيا فأنثى، وكلّ يتصورها حسب ما يأمل ويشتهي، فهي العفيفة اللعوب الصادقة الماكرة الوفيّة الخائنة.

يمتد هذا التخيل الذي لا جدّة فيه، ويتمتّط ليرتدّ دون خضوع للساءلة والتعديل فالتغيير، وهو ما لم تخالفه الكتابة رغم فرصة الإبداع السانحة إلّا أنها ما اغتمتها، وركنت إلى استغلال صورة الموت التي من فرط تداولها غدت مثيرة للسخرية، لأنّها تعبّر عن بساطة فكر تبلغ حدّ السذاجة التي قبلت التطبيع مع المألوف، ويضيق مفهوم الموت ليقصر على نقيض الحياة، ولا مرادف له سوى القتل الذي يتكفّل به شخص يحصد الأرواح، وهو ما ورد في قصة "عبدو يبتلع البحر"، فلموت هو "العجوز المحتال الذي يحوم في الجوار" (خليفة: 2021، ص110) و"أنزل حافة القبعة على وجهه ويمضي في طريقه بلا تردد ويده في جيبي بنطاله" (خليفة: 2021، ص112).

لم نثقف المحافظة على النموذج عند هذا الحدّ للسعي إلى إكسابه سمات مغايرة، بل بلغت "أمانة النسخ" درجة استدعائه مع سلاحه الذي تميّز به كلما حضر في سيناريوهات الأفلام أو المعلّقات "نزع قبعته وضعها الى جانب منجله وسدّد نحوي محجريه الفارغين" (خليفة: 2021، ص117)، إذ استحضرته الساردة التي تعرّفت عليه، منذ الطفولة المبكرة، وامتلكت القدرة على التفتّن إليه إذا رأته في مكان ما يحوم ويتجول، وهي فكرة تسم بالثراء الرمزيّ الذي لم يتمّ التعمّق فيه، بل إيراده باقتضاب لا علاقة له بالاختصار البليغ، وإتّما هو مرور سطحيّ، لم يخوّل للرمز أن يرتوي فيفتق عن دلالاته المرتقبة، وتمادى ذلك من خلال التأكيد أنّ الموت ليس فردا، بل هي عصابة "كان يكفي أن أرى أحدهم في مكان ما حتى أدرك النتيجة سلفا. فريق ناجح صار يعمل بجديّة أكبر هذه الأيام ويطرق مبتكرة لم نألّفها من قبل" (خليفة: 2021، ص111)، وهي النقطة الأهمّ التي وجب الاشتغال عليها، لأنّها ممكنة بالإضافة للمخزون الرمزيّ عوض الركون إلى المعهود عددا وعتادا.

ب- استغلال المخزون الرمزيّ دون إضافة:

تمّ الاعتماد على أفكار رسخت بدلالاتها الموحّدة تقريبا في الأذهان، ويكفي استخدامها لفهم القصد مباشرة دون الاشتغال رسكلة أو استثمارا أو إضافة، وإتّما الاقتصار على عرضها في درجتها الدنيا المعهودة، وهو ما حضر في عديد النصوص مع محاولة صبّها في قالب قصصيّ مناسب أو استدعائها في جملة لتضطلع بالدور الرمزيّ الذي طالما لعبته، وعلى أهميّة هذا الموروث لأنّه يشكل جسرا ييسر التواصل للعبور إلى المعنى دون تكبّد عناء سبر غور فكرة أصيلة وخوض دروب التأويل التي تنسج فيها الرموز، وهو ما يحتاج بطبيعة الحال قارئا شغوفًا صبورا يميل إلى التساؤل وتملكه رغبة التفكير، وحسب

ما يشاع أنّ عدد هؤلاء القراء ينخفض باطراد مقابل تزايد العجولين الراغبين في وجبة فكرية سريعة اعتادوا مكوناتها السردية وطعمها الدلاليّ دون الاضطرار إلى التنوع واكتشاف نكهات رمزية غير تلك التي ألفوها.

يبدو أنّ الكاتبة لم تعتمد هذه المادة الأولى فحسب، بل طبقت الوصفة بخدافيرها، وقد يعود ذلك إلى الرهان على ما يعتقد أنّه يكفل تحقيق المأرب، ولا جدوى من مغامرة غير مضمونة النتائج التي من بينها عدم استساغة المبتكر ورفضه ولفظه، وهو توجه لا يليق بمبدع مرامه الجوهريّ الخلق المستمرّ وكسر القوالب، وإن قام بجربها، فبطريقته المميزة التي تمنحها هوية جديدة، أمّا السعي إلى الإرضاء المبنيّ على الخشية الممزوجة بالاستسهال، فلن يتولّد عنه تجربة جديرة بالحياة، لأنّها خصّصت للاستهلاك وما يحتمّه من مصير الهلاك.

لا أميل إلى الإيغال في تفصيل ما تمّ تبيانه في التحليل بالخوض في مواضيع القصص، إذ يؤثر ذلك لا ريب في حبّ الاطلاع بالكشف، وإن بشكل عرضي، عن عماد الحكمة السردية أو نسيجها أو بعض الجمل الواردة أو القفلة، غير أنّه في سياق شبيه، يُعتبر إيراد الحجّة على ما قيل أمراً ضرورياً لتوضيح ما سلف، لأنّ بعض السياقات تستوجب تجاوز الشرح إلى التشريح، وهو ما ستركز عليه بقيّة العناصر التحليلية.

تمثّلت الأفكار في الاعتقاد السائد أنّ الموت هو صعود إلى السماء، ليغيب الابتكار في اختيار عنوان القصة "على صهوة غيمة"، وهو ما لاحظته الكاتبة نفسها في جملة أوردتها في نصّ آخر "نشر الخبر بجمل محفزة ومؤثرة بعيدا عن عبارات من قبيل فارس آخر يترجّل عن صهوة الحياة" (خليفة: 2021، ص77)، ورغم انتباهها للمسألة، إلا أنّها لم تستفد من ملاحظتها، وأصرّت على اكتحال النصّ من مرود العبارات الممجوجة.

قد تكمن الأهمية في القفلة "وصوت طبول فرح تفرع في السماء" (خليفة: 2021، ص13) بدل أصوات النحيب، وتخيّل السارد اللقاء الذي سيجمع الأمّ التي وافتها المنية، وهو ما يخوّل لها الالتحاق بالأب الذي سبقها وصعد إلى السماء، بالتالي، يتحوّل الموت من حدث محزن إلى مناسبة سعيدة، بما أنّه يجمع الشمل الذي تفرّق لمواصلة حياتهما والاستمتاع بالرفقة، وهو ما لا يتسم في حقيقة الأمر بالفراة، فقد يوشوش الحيّ في أذن الميت موصيا إياه بإبلاغ سلامه لراحل سابق من منطلق إيمان بجمالية لقاء الأرواح، وحتى اعتبار الموت حدثا سعيدا لا يشكّل فارقا، فالسارد، على طول القصة، اعتبر الارتقاء إلى السماء أمراً جيّداً، إذ يهنأ من صعد بعيشه ولا داعي للأسى عليه وإن بدأ ينسحب من ذاكرة الأحياء.

تم إدراج عادة بعض الأمهات في تخويف أطفالهن بإخبارهن أنّ عصفورة نبتلى إخبارهنّ في غيابهنّ بكلّ التصرفات، خاصّة تلك التي شابها الشغب (تعلين جيداً لديّ عصفورة تخبرني بكلّ ما تفعلين في غيابي وتطلعني على أخطائك إن حدث وأخطأت. (ص.27)، ليتجلّى التعويل على الموروث الرمزي في قصّة "العقاب"، ونسج حبكة معهودة تتمثّل في ذعر الطفلة من تهديد الأم بترك المنزل إلى درجة الهلع الذي دفع إلى الكشف عن حقيقة الادّعاء "وعندما استيقظت أمّي صباحاً تأثرت كثيراً لما رأيتني هناك، فأخذتني في حضنها وهي تقول بين دموعها أنها لن تتركني قط، وأخبرتني أنها تهددني فحسب" (خليفة: 2021، ص28)، وتعبير "بين دموعها" لا يستقيم في الفصحى، وهو معرّب من الفرنسية (entre ses larmes)، مع تواصل العزوف عن الاشتغال على الفكرة واستنطاقها لعلها تبوح بأمر مختلف أو تكشف عن سر من أسرارها العديدة التي تسمح بتوجيه السرد في درب غير ذلك الممهّد سلفاً، ويمكن للرمز المشي فيه مغمض الدلالة دون أن يستغل الإبداع خريطة أو عكازاً، إلى حدّ بلوغ القفلة التي تحوصل ما سبق وتحكم على الصورة الذهنيّة بالتأييد في سجن النمط "أكره العصفور لأنني ما زلت أعتقد أنّ إحداها أطلعت أمّي" (خليفة: 2021، ص30).

مرّة أخرى، تحضر ذات الملاحظة المتمثّلة في الاقتصار على القلب الرمزيّ المتداول، ليغيب الابتكار المتولّد عن اجتهاد الخياليّة، وهو ما ينطبق على قصّة "عيون في الظلام" بغيلانها التي أثّرت ليل الطفلة الساردة على مسرح خيالها، لتبقي عليها حين كبرت، مع تغيير للوظائف، فبعد استقبالها لتوجيهاتها بروح مرحة واعتبار المسألة تسلية، غدا حضورها طقساً تفتعله لادّعاء التوجس.

وجب التوقّف في "محطّة الغيلان" أكثر خاصّة بعد تعليق الأم: "لما حدثتها وأنا في سن الثالثة عن الغيلان الصغيرة المشعرة التي تدخل غرفتي ووصفت طريقها المضحكة وهي تراقبني في الظلام فتوجهني من خلال نظراتها إلى ما ينبغي القيام به وما ينبغي تركه.. وقالت لي ماما متحمسة ذات صباح: "لديك خيال كاتبه" (خليفة: 2021، ص54)، ما تتخيّل الطفلة معهود، وقد يكمن الاختلاف في عدم الإحساس بالخوف، بل وجدت فيه حصّة تعليميّة.

يشي ردّ الأم برؤية مغلوطة في تعريف الخيال عموماً، وما يتطلّب التخيل في العملية الإبداعية على وجه الخصوص، إذ تمّ إطلاق "الحكم الإيجابي" على ما اعتادت الطفلة ترديده، إذ يبدو أنّ خيالها لم تقطنه سوى الغيلان، فلم تنتطرق إلى غيرها حتى بعد مرور السنين، وهي نقطة مثيرة للاستغراب ومدعاة إضافية إلى التشكيك في الإشادة التي لا عماد لها سوى تنعمّ الذهن بالاعتاد الذي تتناقله الأجيال، وتجرب شخصه وتجربها على استمرار تقمّص ذات الدور، دون محاولة نفخ الروح الإبداعية في شخصيات غير تلك التي حضرت في قصص الأطفال، وترسيخ قالب واحد واعتباره النموذج الأمثل للخيال الذي يُعرّف أنّه

نقيض الواقع، وهو ما يجب التفكير فيه، فالخيال هو أعمال العقل لرؤية الواقع بأشكال متعددة لفهمه وإثرائه، فالعالمان ليسا منفصلين، وإنما يتكاملان ويزودان بعضهما البعض بالمادة الأولية للابتكار. أين الابتكار؟ هل انضم - كالغيلان - إلى فريق المستحيل؟

برزت مساعي الاشتغال حثيثة في قصة "لم يفتني القطار" التي يصرح عنوانها بالارتكاز على جملة متداولة وإن رافقها النفي، ما يجعل هذا العنوان يستبطن بخالفته للصيغة المعهودة وعدا بتوظيف الفكرة في سياق مغاير، لنسج حبكة تنأى عن كل التأويلات المعروفة التي سبق وقدمت، سواء للتشفي أو التحسر أو ما زخرت به توجيهات المختصين في التنمية البشرية الذين يجيدون تزويد النفوس التي تشكو سغبا أو ظمأ بما يشبع من عزاء وما يروي، وتعويد الذوات على التسليم الذي يلبسونه ثوب الرضى حتى مع عدم بلوغ أدنى نسب الاكتفاء.

فهل تجاسرت الكاتبة واشتغلت على الفكرة وفق تخيلها الخاص، اعتمادا على حاجة إبداعية لا ترمي إلى الإشباع بقدر ما تجهد إلى الإقناع والإمتاع؟

حاولت بثّ جوّ سرديّ خاصّ بمراوحة موقفة بين الأمكنة، ما وهب القصة حركية تدفع القارئ بدوره إلى الانتقال لمتابعة الأحداث التي لا تنفصل إلا للتصل، وجعل الذاكرة التي تتردد بين الغياب أحيانا والحضور حينها هي التي تتحكم في المسارين المتقاطعين رغم الإيهام بالتوازي الذي يهتك سره، كلما تقدّم السرد، وبدأت الذاكرة تتوقف عن نوسانها إذ يجبرها الواقع على استرجاع التفاصيل مع توضيح الأمور الذي أفقد القصة غموضها المحبّب، مثل التساؤل الذي طرحته الساردة "هل حدث ذلك في الواقع أم هو مجرد حلم تشبك الأحداث في ذهني وتبدو ملتبسة ومشوّهة ومبتورة" (خليفة: 2021، ص 105)، وهو ما أزال سحر اللمسة الرمزية بالإصرار على الكشف على حقيقة الانفعالات المزدوجة للحظة المكثفة المعاشة في توقيت واحد جمع الماضي بالحاضر، والقارئ يجذب المتابعة واقتناص الشعور بمفرده دون حضور دليل يقينه ويفرض عليه قراءة معينة.

حضر الموت في القصة برمزيته المعنوية، ورغم الجهود الجلية الواعدة بالخلق على مستوى الدلالة - "وأطلق القطار صفيرا آخر طويلا" (خليفة: 2021، ص 104) - التي تفسح مجالا لحبكات شتى، إلا أنها توقفت عند الحدّ المتعارف عليه دون تعمق لسبر غور الفكرة بشكل مختلف لبلوغ ذات المآل المعروف سلفا، مع إهدار محاولة النزول في محطة بعد اكتشاف ركوب القطار ذي الوجهة الخطأ والرضوخ إلى طرح كلاسيكي، ما جعل القصة تسقط في جبّ المعتاد من الحكايات المتداولة في نسختها من قطار يفوت أو لا يفوت، لتخدم الحيوية التي سرت في روح النص، وتثنّ مفاصل الفكرة التي سكنتها نفس الحكمة كعلة لا مناص منها والمتمثلة أنّ عدم اللحاق بالقطار أحسن من الإصرار على

ركوبه وتحمل العاقبة الوخيمة التي تم التأكيد على حتميتها، وإقصاء كل الاحتمالات الأخرى، وكأنّ قدر الإنسان لم يخلق بعين واحدة فحسب، وإنما هي عاجزة عن النظر إلا في اتجاه مصير واحد. ألا يمكن مثلا أن تكون الوجهة التي وُسمت بالخاطئة، لأنها لا تتطابق مع الاختيار، أفضل من حيث الفرص وأثرى للتجربة؟ أليس هناك فرضية أن توفر السعادة كمبحث ومطلب بشري، وحتى إذا بلغت ذات النتيجة، هل يعقل التسليم بكلّ بساطة وتجريد الإنسان من سعيه إلى المجاهدة فالتجاوز، وهو ما غاب بدوره لتكنيس راية الطموح والإبداع في القفلة التي ليس فيها أدنى تجديد أو إضفاء لرؤية مختلفة لموضوع المرأة الكاتبة، وهي مسألة مهمة جدا وجديرة أن تواكب التطورات التي شهدتها العصر الراهن، عوض الاكتفاء بتقديم صورة نمطية ما عادت تشبه المبدعة التي لا تنفك تتجاوز العراقيل لإثبات ذاتها وقدرتها على فرض نوع من التوازن بين أدوارها المختلفة كزوجة وأم وكاتبة دون أن يلغي أحدها الآخر أو يضطرّها إلى التخلي عن موهبتها أو يسجنها في التزاماتها الأسرية.

يحضر "بينوكيو" باعتباره الممثل الأشهر لمرجعية الكذب: "مندوب التربية والتعليم يحاول أن يتفادى بأنفه الطويل جدا حافة الكأس" (خليفة: 2021، ص98)، لإبراز عجز الخيالة عن ابتكار رمز جديد يتعلّق بهذه العلة الاجتماعية، ويتواصل الركون إلى الجاهز بالإبقاء على العلاقة الوثيقة بين الموت والسواد الذي تطول قائمته الدلالية من لون يقترن بالنحس ومشتقاته من المصائب، وما يبعثه في النفس من مشاعر الحزن والأسى، وهو ما حضر في التشبيه التالي: "مثل ريش أسود تذروه الرياح" (خليفة: 2021، ص80)، وكأنّ المنية لا تعرف إلا بالسواد في جميع مراحلها وتقلباتها، ووهب بقية الألوان للدينا وإن تسربت أيامها بالقطران.

أرجع إلى ذات الخلاصة، ألا وهي التمادي في التعويل على الموروث الرمزي وطرحه كما هو وغياب الاشتغال على الحكمة السردية لابتكار فكرة جديدة أو استخلاص معنى مختلف، ليتحول الاتكال إلى تواكل. ما دور الأدب إذا لم يجتهد صاحبه لزراعة المسلمات بل ويفسح نصه مجالا للإعراب عن الافتتان بها؟

2- نقد الواقع بين الاستنطاق والإسقاط:

اللافت للانتباه أنّ الهدف الجوهرية في بعض النصوص ليس إبداع حبكة سردية فكرة وأسلوباً، فذاك يتبوأ مرتبة ثانوية، لا يمكن إنكار أهمية الهدف المتمثل في نقد مجتمعي، وهو في حدّ ذاته ليس إنجازاً خارقاً، فالكاتب لا يصوغ نصّاً إلا لغاية معينة استدعتها الحاجة الملحة للتفاعل، لأنّ ما يرتبط بتجربته الشخصية يتعلّق بشكل أو بآخر بالهمّ الجمعي، كالأحداث الكارثية الناجمة عن الإهمال في الاضطلاع بالمسؤولية على الوجه الأكمل.

أحسنت الساردة في قصة "ميتة مبتكرة" باعتمادها الخطاب المباشر، للتأكيد أن القارئ معنيّ ليس كشاهد فحسب، وإنما المسألة تتجاوز التحسيس بحجم الضرر الذي يصيب الغير، إلى سعي لتجاوز فكرة أنّ الكارثة لا تحصل إلا للآخر، ما يجعل التعامل معها، مهما بلغت درجة الاهتمام، تشوبه اللامبالاة وتلقى في رفّ التجاهل سريعاً، ما دفع إلى الترفيع من منسوب الإخطار كي يدرك المرء أنّه ليس في منأى، ما دامه يتقاسم ذات الواقع الذي ما انفكّ علّه تشتدّ وطأة، وتنعكس سلباً على جودة الحياة، مع الاعتماد في هذا الخطاب على تهكم صريح لاذع للإهمال، مثلها ورد في الجملة التالية "فإن تبتلعك حفرة بالطريق تناسها أعوان البلدية لأنها توجد بحجى للفقراء بالوعة قدرة وكبيرة تفتح فكها للعايرين تشطفك دفعة واحدة بينما أنت تسير غافلاً، هي فعلاً فكرة عبقرية وملهمة" (خليفة: 2021، ص 80-81).

تمّ التطرق أيضاً إلى مسألة الهجرة غير النظامية، وما يترتب عنها من حالات غرق في قصة "آخر الناجين"، والعنوان يحتاج وقفة بعد الاطلاع على النصّ لما يثيره من تساؤل عن الدلالات المقصودة، هل يلائم مجريات الأحداث، وخاصة القفلة التي تعارضه مؤدّة تناقضا لا يقبله المنطق، فاختيار عنوان مختل لا يرادف عدم احترام المعاني التي تنبثق من رمزيته، فالقفلة التي ستكشف أنّ المتحدث جثّة بعد غرق المركب، ويعتقد أنّه نجا وبشاركه القارئ هذا الاعتقاد، حتى تأتي الخاتمة لتخذل الحسبان: "خذوا الجثة مع بقية الجثث إلى المستشفى وضعوا عليها اسم صاحبها ريثما نعثر على بقية الضحايا" (خليفة: 2021، ص 72).

هناك تركيز على الاستجابة للمقاييس التي تم ضبطها لجنس القصة حتى تحوّلت شروطا وقواعد لا يجب الإخلال بها، وعدم التقيد بها قد يعتبره البعض فشلاً ذريعاً، ويبقى النصّ لقيطاً لا تمنحه القصة نسبها. في هذا السياق، حققت القفلة المطلوب منها، وهو البوح بغير المتوقع، وكسر التسلسل بحدث مفاجئ، وإن كانت فكرة الموت غرقاً لا ابتكار فيها أي أنّها نهاية معهودة، لكن، أعود إلى مسألة الانسجام الواجب احترامه كي لا يعارض الكاتب نفسه، فيطرح فكرة لا تستقيم ككلمة، وإن حملت في جوهرها تناقضاً يوفر التكامل الذي يدعم ما سبقه وليس تكذيبه جملة وتفصيلاً، فينقض الحكمة السردية، إذ يمكن تفسير أنّ الشخصية ناجية من الدنيا وليس من الموت، وتبقى كلمة "آخر" دون تبرير، بما أن هناك جثثاً "ناجية بدورها" ما زال البحث عنها جارياً!

قد تثن محاولة التلاعب بالمعهود من الأفكار أن من فارق الحياة يفقد كلّ حواسه، بالتالي، قدرته على الإدراك، إلا أن القصة -التي لا تختصّ بهذه الفسحة التخيلية بل تتقاسمها مع نصوص أخرى في المجموعة، وهو ما جرّدها من الفردية- شكّلت منبراً للشخصية للتعبير والحديث عن نفسها التي هي

الأدرى بمشاغلها، يطل التساؤل في هذا الإطار: بم يمكن تأويل اعتبار السارد الميت أنه حي، منذ التخبط في الموج حتى رؤيته من حوله على الشاطئ، وإن لم يستطع التجاوب معهم، فهو تحت تأثير الصدمة أو التعب؟ ما الذي استفاده من ذلك؟ ألن يشعر أنه سيدفن حيا بما أن الجميع اتفقوا على كونه جثة؟ هل سيموت حين يصغي إلى هذه الحقيقة ويفلت خيط الأمل الكاذب أم سينتفض؟ إن أشارت الفكرة إلى قبر الأحلام النابضة فالقصد جيد، لكنه غير مسبوك بإحكام، لتبليغ الدلالة أن الموت قد يشكل خلاصا، حين يمنح الشخص فرصة النجاة من دنيا تردي إنسانيته مرارا، غير أن تركيز التفكير على قفلة تحييب الأمل والتوقع والانتظار جاء على حساب الحكمة، فوعدت الرموز المألوفة التي يمكن أن تدرّ ثراء دلاليًا ضحية سطحية الطرح، بل وتجلى التدخل السافر من طرف الكاتبة التي تستدعي الشخصية عمدا بصفات تقدّمها وفق ما ترتضيه، من خلال اختيار الاسم -ناجح وهو فاشل-، وإن سمحت لها بالكلام، فلتجعلها تعبر عما تريده هي، ولتخدم غرضها المعين المتمثل في نقد الواقع، عبر اعترافه بأخطائه وتبريرها باعتبار أنّ وضعه هو الذي دفعه إلى سلوك غير سويّ، والاعتقاد أنّ الثراء سيمسح من ذاكرة الأشخاص ما ارتكبه، وهو طرح لا جديد فيه من منظور لا يتماشى مع مستجدات الواقع، إذ تحوّلت المهجرة حلما لعائلات بأسرها وحتى لمن يشتغلون غير أنّهم يطمحون إلى فرصة تكافأ مع خبراتهم غير المعترف بها في وطنهم.

*الاقتراضي وما يمنحه من قيمة للموت:

يمكن تلمس أهمية التطرق إلى موضوع الاقتراضي ودوره الجليّ الذي لا يقتصر على دنيا الأحياء، وإنما تجاوزه لينح الموت قيمة، خاصة بعد أن غدا خبرا عاديا يستقبل بلا مبالاة "لقد فقد الموت هيئته ووقاره" (خليفة: 2021، ص79)، الحدث يكتسب قيمته المضافة حسب نسب التفاعل الاقتراضي والموت أيضا لا يخالف هذه القاعدة، والآ ظلّ حدثا عاديا لا يثير الاهتمام، باعتبار التغيير في معايير التعامل مع الأحداث، وهو ما تبناه التفكير والسلوك البشريين: "قلت لنفسي هذه ميتة تذكارية بوسعها أن تجني عددا مقبولا من اللايكات والتعليقات على الفايسبوك لو نشر الخبر بجمل محفزة ومؤثرة" (خليفة: 2021، ص77).

تم الاشتغال على الموضوع في قصة "ميتة مبتكرة"، كالتفكير في فعل أشياء في الدنيا تكون حاضرة بعد الموت على الصفحة الاقتراضية وقادرة على جذب الاهتمام بالتفاعل، فالساردة الميتة لم يحزنها أمر الموت، فهو حدث عادي حتى يأتي ما يخالف ذلك، لينصبّ همّها في أن "يجعل من موتى حدثا اقتراضيا" (خليفة: 2021، ص87)، لتصبح المقولة الملائمة لهذا الوضع: افعل لدنياك كأنك تعيش إلى الأبد استعراضا، وافعل لآخرتك كأنك تموت اليوم اقتراضا.

تم التشويش على طرافة الموضوع بالنقد المبتوث حيناً، والمكدسة جملة في فقرة واحدة تجمع أحداثاً عديدة أو تعديداً لأفعال أشخاص أحياناً، فبدت مسقطة لغياب الاشتغال لإدماجها في الحبكة السردية، إضافة إلى التداخل والخلط بين موت حتمي إن بسبب المرض أو أحداث غير متوقعة أو عن سابق استعداد واتخاذ قرار وتنفيذ، كإحراق الجسد والخنق بعد الاغتصاب وغيرها من الوقائع منذ اندلاع الاحتجاج بعد إضرار النار في الجسد إلى ما تلاه، للتصريح أن الثورة لم تحسن الأوضاع بل على العكس. لم يتوقف "التكديس" عند هذا الحد، فسبب الموت في القصة إطلاق رصاص على الساردة من طرف شرطي سرق سلسلتها الذهبية، والجندي الآخر سرق الساعة والمرضى في سيارة الإسعاف لم يضطلع بمسؤولية العناية بها، والرجل الذي كلف بنزع ملابسها في المشرحة طمع بدوره في الخاتم، لتمثل الخلاصة أن الكل سارق، من سرقة الحياة إلى سرقة الأملاك، وهو ما يجعل ما سرد غير قابل للتصديق بل تتجلى الغاية وتفصح رغبة النقد عن نفسها.

هل هناك تعمّد لتعميق فكرة أن حدث الموت خبر عابر، فتمّ الاكتفاء بالإيراد السريع فالاتقال؟.. حتى هذه الغاية تتطلب إعمالاً للقريحة لتوجد الأسلوب المناسب للتأكيد ببلاغة عن القصد، هل هناك تعويل على إتمام القارئ المهمة بما أنه عليم بما تمّ عرضه من أفكار ليفهم المراد؟

رغم أهمية القضايا المطروحة إلا أنها بدت مسقطة كأنها استعراض لا غير، فالكتابة تملك المادة الأولية وتترك قيمتها، لكنها، لا توظفها وليس هناك سعي لمزجها مع الحبكة السردية، فوردتا منفصلتين لتغيب العفوية والسلاسة اللازمتين، وهو ما ينطبق على قصة "عيون في الظلام"، إذ ليس لها من هدف متى تمت العودة لتأمل ما ورد فيها، منذ البداية حتى خاتمتها، سوى الفقرة التي تحدثت فيها الساردة عن العيون، خاصة تلك النظرات التي ارتبطت بأحداث من واقع تحوّل إلى كابوس يطارد الأحياء، لاستغلال الفرصة لعرض أحداث جرت في الواقع التونسي الذي تم التركيز عليه دون غيره، من تحرّش وعدم إنقاذ صبي غرق في القنال وعدم قيام الشرطي بواجبه والأحداث الإرهابية في باردو وذبح الراعي وغيرها التي تميزت بنظرات مختلفة من تأنيب وإكبار وخزي ولا مبالاة وذعر وقسوة وخوف وحزن وتوسل واشتاء وصولاً إلى "عيني سياسي فاسد تريد أن تسحبني بعيداً عن تلك العيون" (خليفة: 2021، ص 56-57)، وهي نفس الصورة المطروحة للسياسي في قفلة إحدى القصص التي حملت بذاءة مجانية: "رئيس الحكومة يتحين الفرصة ليتحسس ذكره الذي كبر وتمطى أكثر مما ينبغي داخل تبانه كعضو بغل" (خليفة: 2021، ص 98)، ما يدفع إلى القول أن النقد مرّكز على زاوية واحدة دون تنوع، فتحول النصّ لوما ومناسبة للتوبيخ وإبراز السوءات لا غير!

يمكن استثمار الواقع في القصة بل وجب الاشتغال على الهمم الجمعيّ وعرضه، لكن دون التوقف عند هذا الحدّ، ليس المطلوب من الكاتب إيجاد حلول، غير أنّه ملزم بالاجتهاد واعتماد مخيلته لمعالجة قضايا الواقع، وإجادة النسيج كي لا تبدو القصة ثوبا مهلهلا وفيه رقعة كبيرة، وإن أثارت الاهتمام فهي لا تمتّ بصلة، بل رغبة في استغلالها بطريقة ما: هل الإبداع استعراض عضلات لغوي؟

يعتبر حضور نائب الشعب "الذي طالت أصابعه" دلالة على الضلوع في السرقة ورئيس الحكومة الذي يبدو أنّ رغبته الجنسية مستثارة في كلّ ظرف حتّى في حفلة مدرسيّة، من الأمثلة التي يغيب فيها المنطق لجرّ النقد عنوة إلى سياق لا يستدعيه، فما الداعي لحضور نائب شعب ورئيس حكومة لهذا الحفل، كما أنّ النقد الصريح لا يعني فجاجة في الطرح.

تتطلب الحكمة السردية ألاّ يبالي الكاتب في التوضيح وإبراز هدفه من نصّه، وسيستلّ القارئ الرسائل وسيؤوّل مثلها يشاء، والأدهى ألاّ يعثر على ما يؤوّل، فالمذكور يعرفه، وقد يتساءل: "وبعد؟"

3- الحكمة السردية: بين محاولة الانعتاق والتعثّر في الاختلاق:

تمّ الاعتراف صراحة في قصة "ميتة مبتكرة" بغياب الابتكار والعجز عن بلوغه، فتحقيقه غاية لا تتجسّد، إذ تُجنّت الأفعال في زلزلة المعتاد، ولا يمكن لحدث كالموت، الذي يعتبر مصيبة في مجرى الحياة، أن يهزّ مشاعر البشر الذين يستقبلونه دون اهتمام بما أنه خبر عادي، قد يكتسب بعض الأهمية اقتراضياً، ولعلّ الجملة التي وردت في القصة خلاصة جيدة: "عندما تفقد الحياة بريقها، يفقد الموت جلاله، فلا أحد يهتمّ لنهاية حياة لم تعد تستحق أن تعاش" (خليفة: 2021، ص 79)، حسناً. إذا حصل التسليم بأنّ الابتكار غير متاح، فهل استجابت قصص المجموعة لشرطي العملية الإبداعية السردية ألا وهما الإقناع والإمتاع؟

*التعويل على الصدفة في نسج الأحداث والقفلات:

*في نسج الأحداث:

حاولت الكاتبة، من خلال إتاحة الفرصة للشخصيات لسرد قصصها باستخدام ضمير المتكلم، عدم التدخل فهي ليست ناقلة، ولا تعطي رأياً في الأحداث ولا تشارك فيها، غير أنّها لم توفّق في هذه المهمة على أحسن وجه بسبب الاختلاق البين الذي ارتكز أساساً على الصدفة، ما جعل حضورها جلياً في القصص التي لم تُجدّ نسجها، وبرز فيها التفتيق والترقيع والصبّ في قالب معيّن.

منحت الصدفة الدور الرئيسيّ في تسيير الأحداث، فغدت الحكبات السردية لبعض النصوص كسيناريو بعض الأفلام أو المسلسلات التي ذاع صيتها سلباً كالهندية والمكسيكية لأنّ فكرتها غير مشتغل عليها بشكل يرتقي إلى درجة احترام عقل المتلقّي إذ يظهر الادّعاء.

تسكع الساردة الميتة في قصة "إسعاف" لتجد نفسها شاهدة على واقعة حادث السير الذي تعرّض له طالب تعلقت به في الماضي وهي الأستاذة المتزوجة، ليتجلّى تعمّد اختلاق المناسبة للحديث بهذا الشأن وتروي تجربتها وتبوح بمشاعرها، والصدفة جعلتها حاضرة في التوقيت والمكان المناسبين، كي لا يفوتها العلم بما جرى، "كنت هناك لما وقعت الحادثة.. وجودي هناك كان محض صدفة" (خليفة: 2021، ص41)، إضافة إلى فكرة أنّ الأموات يواصلون التسكع في الحياة ومرافقة أحبّاءهم (البقاء مع الابن في المنزل وتوصله إلى المدرسة وتنتظر خروجه منها وهي رفقة معنوية) أي أنّ الموت لم يعد له هبة فحسب، وإنما انعدمت قيمته بكلّ خصائصها، فثلا الساردة الميتة تقول: "تدقّ الدم في عروقي واحتقن وجهي" (خليفة: 2021، ص43)، فالخيلة لا تجتهد في التصوّر كي تحظى الشخصية بعيشة ثانية مغايرة، حتى وإن سمحت لروحها بالتجوال في دنيا غادرتها.. ويتبوأ الرحيل في قريحة حاكت قصصاً شبيهة مرتبة حلقة كاميرا خفية، ليتمّ إعلام الميت أنّ لا شيء تغير، وإنما القدر أراد مداعبته وباستطاعته بعد إسدال الستار على هذه المسرحية أن يغادر الخشبة- القبر وينضو الكفن أو يبقيه، ويستمرّ لا روحاً فحسب وإنما بجسد تسري في عروقه الدماء!

تمّ استدعاء ذات الصدفة في قصة "الكلب سباركي"، بحبكة ما عادت بدورها معمولاً بها لأنها أثبتت ضعفها ولا تنطلي وغدت محلّ تندر، لاختلاق لقاء يجمع الساردة الحية بالحبيب بعد أعوام طويلة، وهو نفسه صاحب الكلب الذي تمّ اقتناؤه.. الأمر مربوط من بدايته إلى نهايته بالكلاب، فعضة قلب سببت الفراق واقتناء كلب ولد لقاءً جديداً، من بين كلّ الكلاب، لم يجمعها القدر إلاّ بكلب طفل الحبيب الذي يبدو أنه مثلها مطلق وله ابن ليعود الحب مجدداً "لا شك أن الباب انفتح أخيراً" (خليفة: 2021، ص40).

هل يمكن تصديق كلّ هذه الصدف المجتمعة؟ ألهذا الحدّ تلعب الصدفة المحضة هذا الدور في الواقع، بل لا تكتفي بالحضور مرّة بل تواصل الإعلان عن نفسها في كلّ تفاصيل الحياة، فدورها غير محدود بل تندخل في الماضي والحاضر وحتى المستقبل؟: هل تحترم هذه القصة عقل القارئ أم هناك اقتصار على الاشتغال على الانفعالي العاطفي وإهمال الجانب المنطقي العقلاني، حتى الزوجة التي اختارها الحبيب بالصدفة لا تتسم بالرفقة بل تتميز بالخشونة المنفرة تماماً كالصور المنمّطة منذ الساحرة الشريرة، وبالصدفة أيضاً، لم ينجح الحبيب في إقامة حياة زوجية سعيدة أو محتملة على الأقل، وهو المطلوب كي يوفر احتمال عودة علاقته القديمة إلى مجراها الأول؟

لا تنجح حبكة قصة "حساء اللحم المفروم والنعنع" في الإقناع، لأسباب كثيرة جعلت السرد مهترئاً، سواء تعلق الأمر برفض الأم طلب المساعدة بعد سقوطها من السلم، وشجّت مؤخراً رأسها أو الساردة- الطفلة

التي رضخت لهذا الرفض بل وبررته: "جدتي كانت تسكن على بعد شارعين فقط من بيتنا لكن ماما رفضت قالت لي اليوم أحد والشوارع خالية أخشى عليك من السكارى العائدين من ملعب كرة القدم، كانت أمي محقة، صوت هتافات الشباب الثمين وسط العربات المسرعة كان يصلنا أحيانا من الشارع" (خليفة: 2021، ص 60).

ألا يتطلب الوضع كما تم تصويره أن تجازف الطفلة لطلب مساعدة الجدّة، وإن واصلت الأم الطهو فتحميم ابنتها، ألا تستطيع الذهاب بنفسها إلى منزل جدّة تم التأكيد على سكاها بالجوار بتكرار تحديد العنوان في خاتمة القصة: "حتى جدتي التي يبعد بيتها عن منزلنا شارعين فقط كانت تقول لنا ذلك حين انتقلنا للعيش معها" (خليفة: 2021، ص 62)؟، ما يجعل الاستفهام الذي يطرح، في هذا السياق، ما الداعي من هذه الإعادة؟ هل هو إحساس متأخر بالذنب؟ هل الجدّة دون هاتف؟ ماذا إذا وقع لها مكروه بمن ستستجد؟

يذكر الموقف باللوم الموجه إلى أم صاحبة المعطف الأحمر، إذ أرسلت طفلتها لتعبر الغاب وتصل إلى بيت جدتها التي تسكن وحيدة، والسؤال المنطقي لماذا لا تقيم هذه الجدّة مع العائلة؟ وهو ما يؤكّد ضرورة احترام قصص الأطفال القائمة على الخيال منطقاً معيناً، وإلا سقطت في التلفيق وكثرت ثقبها التي لا تجد تزيحاً-تأويلاً مناسباً.

أليس هناك جيران، خاصة وأنه في الحالات الخطرة، يهتف المرء طلباً للنجدة حتى من الغرباء؟ ماذا بوسع الجدّة؟ ما الذي منع الأم التي تستطيع ألا تعول على أحد وتطلب رقم الإسعاف، فهي الأدرى بما تستوجه الإصابة؟ هل رغبت في الموت، وواتها فرصة السقوط وقررت عدم التفويت فيها، ولا أحد سيلومها لأنه لن يتفطن إلى استسلامها للانتحار الذي وهبه القدر هدية؟ هل استحسنت تقيّم دور الضحية إلى درجة عدم التفكير في إنقاذ نفسها من أجل البنيتين على الأقل؟ هل إقصاء الكاتبة للحلّ البسيط مدبر، لتوجد فرصة كي توضح لا مبالاة الأب وهو الطليق عند السعي إلى الاستنجاد به؟

يبقى رد فعل الطفلة المكتفية بالتحديق "تغزر بعين الشامت"، وليت من الممكن تأويل موقفها شماتة، وإثماً لا أجد له تفسيراً محتملاً، وجعلتها الكاتبة التي لا تتحرّج من الحديث على لسان شخصيتها، فتورد الشيء وخلافه، فمرة تقول: "وتحت رأسها بركة صغيرة من الدماء" (خليفة: 2021، ص 62)، وبعدها: "واتجهت نحو الحمام لتغسل وجهها من الدماء" (خليفة: 2021، ص 61)، وهو ما لا يشكل انسجاماً، فالضربة في مؤخرة الرأس، فهل الدماء نافورة حتى يصل "سيلها" إلى الوجه، ورغم المعاينة، لم تستشعر خطراً، بل تتماذى: "وقلت لها وأنا أنظر إلى الخيط الأحمر الرفيع المنساب من أذنها: شكراً على الحساء يا ماما" (خليفة: 2021، ص 62)!

هل يعقل أن يكون التعليق شبيهاً؟ ألا تستفزها رؤية الدم، وإن لم تقدّر درجة الخطورة؟ ألا تنبهه على الأقل بوجوده؟ ألا تنساءل وكلّ همّها الحساء اللذيذ؟ هل الطفلة حمقاء مغفلة أم خيّرت التغافل كسبا لطمأنينة النفس، وهي بذلك شريكة في عملية انتحار الأمّ لصمتها المتواطئ وقعودها عن القيام بأيّ فعل يحفز العقل البشريّ الذي يتمتع بأدنى مستويات الحسّ السليم السويّ؟

في قصّة "عيون في الظلام"، نوقشت علاقة الكذب بالإبداع: "وقد ولدت كاذبة، أقصد أنني ولدت كاتبة... وتعلت أن أكتبها ثم أرقنها وأنشرها فصرت كاتبة" (خليفة: 2021، ص55)، تختلق الساردة، منذ الطفولة حتى كبرت، نفس حكاية الغيلان: "أعينا كثيرة لغيلان صغيرة مشعرة مبثوثة.. استطعت أن أميز من بينها عيني أمي.. عيني سيدي الحبيب معلّم الابتدائية" (خليفة: 2021، ص55-56)، فخيلتها رحي لا تدير سوى هذه الحكاية، لتطرح مسألة الابتكار مجدداً، والتساؤل عن مدى القدرة عليه، إذ غاب منذ الطفولة ليتواصل تغييبه بعد ذلك رغم أنّ الشخصية كاتبة، وإن توقفت لتكتفي باختلاق الأكاذيب استجابة للاحتياجات النفسية: "أتحسّس أثرها في السامع بشكل مباشر وفوري" (خليفة: 2021، ص55)، وهي نقطة هامة وجب مناقشتها: ما هي أهداف الكتابة؟ هل تقتصر على التأثير السريع كسكّن وقتي وليست حلاً على المدى الطويل؟

يثي الطرح بعدم الاستعداد للذود عن العملية الإبداعية الحقّة، وهو ما يحيل إلى القصص التي ضمّتها الكاتبة مجموعة، وما أفصحت عنه من تسرّع في قفلات الأقاليم غير المحبوكة جيّداً فكرة وأسلوباً، هل هو إيدان بموت الكتابة الإبداعية؟

لا بدّ من التأكيد، في هذا السياق، مهما سُبكت الكذبة بعناية، تظلّ اختلاقاً، وهو ما لا يستقيم مع الإبداع وليس مرادفاً له، لأنّ الفرق واضح بين الخلق وهو ثمرة العملية الإبداعية والاختلاق وهو محاولة فاشلة لأنّها لا ترتقي إلى درجة الإقناع لما يتعاورها كفكرة من ثغرات وتركيبها لا يتسم بالانسجام.

هناك خلط بين الكذب وجموح الخيالة وقدرتها على الابتكار، فالكذب في جميع السياقات غير مرغوب فيه، لذلك وجب عدم الرضوخ لمقولة "وهم جميل خير من حقيقة بشعة": قد يمنح هذا التفسير دليلاً يدين الكاتبة، فقصصها ليست محبوكة بصدق والتلفيق فيها جليّ مع غياب الابتكار.

تواصل عدم القدرة على الإقناع في قصّة "عيون في الظلام"، فالساردة كذبت ("وصدقني مديري")، بكلّ هذه البساطة، وهو طيب لم ينصحها حتى بزيارة مختصّ نفسيّ بل جاراها واقترح حلولاً ("يضع ملفاته أمامي وهو يتلو آيات وأدعية، يحاول أن يبسط كفي فوقها")، خاصة وأن الكذبة ليست محبوكة بطريقة جيّدة رغم أنها ادّعت البراعة: "فطورت كذبتني أكثر وصرت أصرخ متوجعة وأنا أظهار بأنهم

صاروا يضربونني ويقرصونني كلما اقترب مني، فتجنّبتني تماما وصار يدفع إلي بعض فواتير شركة الأدوية وملفات القادرين على الدفع فحسب" (خليفة: 2021، ص 57)، هل هو ملزم على إبقائها، وهي ما عادت قادرة على تأدية واجبها على أحسن وجه؟ هل هو غيبيّ إلى حدّ تصديقها؟ هل هو الإيمان المطلق بوجود الأرواح وأنها ممسوسة فعلا ويكتفي بالتجنّب عوض البحث عن حلّ عملي يخلّصها؟ هل يبقىها حتى وإن ما عاد بإمكانه التحرشّ بها لمسا؟

لا يقتصر الأمر على تقديم بعض الشخصيات بسماط ترشح غباء أو سذاجة، بل لا تتحرّج الكاتبة في استغناء القارئ دون استجلاء مرماها من بعض الفقرات التي لا تُصنّف هزلا وتعجز عن إثارة الاستغراب، مثل الفقرة الواردة في قصة "حفلة نهاية السنة": "ثم وصفت صدمتها لحظة اكتشاف بعد أن استفاقت من إغماءة الولادة أنّي ولدت بلا يدين.. أخبرها الطبيب أنّهم لم يعثروا على يديّ عالقتين في رحمها، وأنهم فتشوا كثيرا في المشيمة وبين الدماء التي نزفتها.. أخبرتها إحدى الممرضات أنّهم كلّفوا الحارس بالبحث عنهما عند مدخل المستشفى" (خليفة: 2021، ص 96)، لهذه الدرجة لا تستنكف عن استبلاه القارئ؟

إذا تمّ التدقيق، هي فقرة لا جدوى منها، ويمكن المرور مباشرة إلى التخييل: "إذ ستنتب يدان"، ويبرز من جديد الارتكاز على سبب واه، فلو تمّ التوقف عند هذا الحدّ، لأوجد القارئ داع لفخر الأمّ غير أنّ حكاية ابنتها ليست استثناء: "فأمّ حمدي تمرّرها على ساقها ابنا المقعد تتلمّس أقدامه التي نبتت حديثا... وحرك ساهي لسانه القصير... مجدي تفتّحت عيناه منذ أشهر" (خليفة: 2021، ص 98).

يحضر الاختلاق ويغيب الإقناع، إضافة إلى ذلك، قد يتلمّس الرمز طريقا دلاليّا لا يعثر عليه، فيحضنه الإبهام، وهو ما تجلّى في قصة "من النافذة" التي لم ترتبط بموت فيزيولوجي ولا معنوي، ولا يمكن إدراك الغاية من سرد الأحداث من طرف الطفل الذي ينقل ما تفعله الأمّ التي ذهبت في آخر المطاف إلى الجار القاطن في الفيلا المقابلة، ولم يمنعها الأب واكتفى بالتأكيد لها أن هناك زائرة سبقتها، وطمأنة ابنه بأوبتها: "-بابا ماذا يحدث؟ لماذا تذهب إليه ماما؟ قال... وقد ترك الباب مواربا: لا تقلق ستعود" (خليفة: 2021، ص 94)، هل هي الخيانة العينية؟ ليست هناك إشارات تتيح احتمالات التأويل كالعادة لاعتبار إحدى الشخصيات ميتة وتعامل معاملة الأحياء أو أنّ الشاب في الفيلا المقابلة هو الموت مثلا؟ هل هو إنذار بموت المعنى؟

*الاختلاق في القفلات:

لا ترتقي أغلب الخواتيم إلى مستوى الإقناع، في قصة "اللفافة ذات العيون" مثلا، الاستمرار في رؤية الأخت تكبر رغم أنّ كلّ القرائن الواردة تدعم أنّها فارقت الحياة، ثم تأتي القفلة التي تطرح تعارضا

صارخا، فالطبيب، من ناحية، يؤكد أنّ ما تعتقده هواجس، ومن ناحية ثانية، يرى بدوره الأخت الراحلة ويطلب منها البقاء خارجا.

من الجيد أن يُصدم القارئ لكن دون التخلي عن المنطق حتى في الوقائع اللامنطقية، فعدم الالتزام بالتفكير السليم، لا يعني إيراد تناقض لا يعدد الاحتمالات للتأويلات، وإنما يُردي القصة المألوفة التي من المنتظر على الأقل أن تحمل جملتها الأخيرة شيئا من الابتكار، فلو صرّحت المريضة مثلا بأنها رأت الأخت، وهي التي أجمت كي لا تتهم بالجنون، لوجدت إجابة الطبيب احتمالا ممكنا، أي أنه يسيرها مبدئيا إلى أن يجهز لها برنامجا علاجيا، والسؤال لماذا لم يفعل ذلك منذ البداية، واعتمد أسلوب الصدمة إذ صارحها أن ما تراه هواجس لا غير، هذا ليس غموضا وإنما إبهام، فالفكرة لا تحمل في جوفها أي تأويل ممكن.

يجد القارئ نفسه مجددا في دوامة الأسئلة التي لا ترتبط بالثراء الدلالي الذي يوفره المعنى، وإنما هي تخمينات قد لا يرغب في طرحها معتبرا أنّ القصة غير مقنعة ومجرد تلفيق لا غير، وهدفها الأوحى التركيز على الإحساس بالذنب: هل تخيلت الساردة كل تفاصيل موت الأخت والواقع مغاير تماما؟ هل الطبيب ميّت ليتمكن من رؤية الراحلين، وأستقي هذا التأويل من إشارة وردت في إحدى القصص أنّ الساردة الميتة لم يلحظ وجودها إلا المريض حين فارق الحياة فابتسم لها؟ هل هذا مقنع؟

في قفلة "عيون في الظلام"، تصديق الكذبة المختلقة إلى درجة التجسيد، فالساردة تخدش نفسها وتضربها ربما، هل ترغب في الإشارة أنّ تلك الغيلان لها وجود حقيقي؟ إن إيراد قفلة شبيهة سعي فيه مكابدة للإبهام الذي لا يرتبط بضرورة بالابتكار، بل قد يتعلّق بجانبه السلبي الذي يحاول أن يبهز، فيعيق العقل على الإبصار جيدا، فيقوم بعملية التفكير... وغيرها من الخاتمات التي أجم عن إيرادها كي لا أهنك ما اعتبر سرّ القصة، غير أنّ الصدفة المستنسخة بهذه الطريقة تطالب برد الاعتبار، إذ يُزجّ بها زجّا وهو ما أثر على وقعها بعد تجريدتها من القدرة على استلال المفاجأة من غمد المتوقع وأمست مفعولا بها؟

ب*التزامن المريب:

يرتبط هذا العنصر بالإقناع الذي يبقى عصيا عن التحقق بسبب حبكة نتعمد فيها الكاتبة عدم الالتزام بالواقع وما يحتمه، وترسم منحرجات عمدا لحصول لقاء الأخت، مثلما سلف وذكر ما حصل في قصتي "الكلب سباركي" و"إسعاف".

ظهر هذا التزامن منذ النصّ الأوّل على صهوة غيمة: "وفي إحدى المرّات، سلّمته الطنجرة ووقعت بعد ذلك على الأرض، ولم تعد بعدها إلى البيت أبدا. قيل أنّ حية سامّة لدغتها وقيل كان عقربا. ظلّت رحمة لأيّام في المشفى ثم صعّدت إلى السماء". ص ص. 7-8)، فيذكر هذا المقطع مجددا بجبكات

المسلسلات التي لا يسلم فيها الممثل الروح إلا بعد إنهائه كلام وصيته كلّ، والقدر لم تقع قبل التسليم، فالحيّة انتظرت لأنها لا تريد أن تسكب ما حوته الطنجرة فيهدرا!

تجلى في قصة "عقاب" نفس الإشكال المثير للارتياح إلى درجة التشكيك في مصداقية ما يُروى، فالأمّ ترحل في ذات اليوم الذي نفت فيه صحّة زعمها المتعلّق بالعصفورة التي تخبرها بتصرّفات طفلتها التي عن لها، حسب التوقيت السردي المعدل عمداً، أن تشاغب: "لكنني لفرط سعادتي يومها لم أنضب في القسم وكنت كثيرة النشاط والحركة والضحك حتى غضبت مني الأنسة أحلام.. وعند المساء، لم أجد أمي في انتظاري.. دهستها سيّارة بعد أن أوصلتني صباحاً" (خليفة: 2021، ص 30).

ينجم عن هذه الحكمة حدث "مفاجئ" ليطمئن مع القلب السردي الموضوع سلفاً، وهو ما يصم النصّ بالاختلاق البين، فعلى الأقلّ، وضماناً للانسجام، نتعرّض الأمّ للحادث في الفترة المسائيّة، أي بعد أن تخبرها العصفورة بالشغب، غير أنّ الحادث سبق عدم انضباط الطفلة، وبالتالي غاب الرابط المزعوم بين الحدين.

يمكن رصد التزامن المريب أيضاً في قصّتي "ميتة مبتكرة" و"عبدو يبتلع البحر"، في الأولى، نوت الساردة كتابة نعي للبحار، فتموت هي، وفي الثانية، حكّت قصة عبدو حتّى قبض الموت روحه، ليأتي الدور عليها مباشرة.

تلعب الصدفة دورها دون توان، وليس لمرة واحدة، وإتّما تقتنص التزامن اقتناصاً مع تغييب للمنطق، مثلها ورد في الفقرة التالية: "في المشرحة، سمعت في التلفزيون المعلق بالبهو.. أمّا الشرطي فقد رفّ جفناه تأثراً أمام الكاميرا وهو يحاول إخفاء دموعه.. وراءهما بالضبط توقّفت الكلبة.. ونظرت إليهما مستغربة ثم نظرت إليّ من خلال الشاشة" (خليفة: 2021، ص 85)، التلفاز بالصدفة على القناة التي تنقل الحادث، وليس هذا فحسب، فوفقاً للتدقيق الوارد، المكانان مختلفان (الساردة في المشرحة والتلفاز في البهو)، التزمّت في البداية بهذا المؤشر مؤكّدة أن الصوت وحده يبلغها، لتغفل عن ذلك ولا توضّح كيف أمكنها مشاهدة الشاشة لنقل البثّ بكلّ تفاصيله.

4 - بين السعي إلى التنويع والسقوط في التكرار:

أ*الغلاف الخلفي:

لا يبشّر الغلاف الخلفي بالتنويع، لجميع الميمات الواردة متعلّقة بالموت الفيزيولوجي، وعموماً، مهما جنحت الخيلة في التجارب السردية مع اختلاف القالب الأجناسي، فهي تتأرجح بين موضوعين رئيسيين ينبثقان من ذات الجوهر الوجودي، ألا وهما الحياة والموت، مع معاناة طرق الإنسان في التفكير فيما والتعامل معهما، على أساس أنّهما همّ الأعظم عن وعي أو دونه.

بالتالي، طرح القضايا المتعلقة بهما ليس هو موطن الفريدة أو مغامرة سردية يُشاد بها، إنّما تكمن الفريدة في طريقة الاشتغال عليهما، للبحث عن زوايا متوارية أو الكشف عن ملامح أوجه لم يسبق التفتُّن إليها، هذا إذا تمّ القبول بمقولة "أنّ الأفكار ملقاة على قارعة الطريق"، فعلى من يميل إلى جمعها الاجتهاد وعدم الاقتصار على تقديمها كما هي والسعي إلى إعادة تشكيلها على الأقلّ بأسلوب مغاير وإخراجها في صورة ليست نسخة من الأصل، وهذا أدنى مجهود يمكن القيام به، لكنّه، مطالب باكتشاف غيرها وعدم الاكتفاء برؤية المجهود دون بذل مجهود اتبناها وبحثنا وملاحظة.

تحتاج المقولة في حدّ ذاتها تفكّراً، لتبيّن قصور النظرة التي اقترحتها إخراساً للاستفهام اللوح وتهرباً من مطالبه، وتواكل الذين تلقّفوها واكتفوا بتريدها بقناعة تهب راحة من ضرورة التساؤل المستمر والنظر الدؤوب إلى الأشياء والمسائل بطريقة مختلفة، عوض التعويل على الصورة التي مُنحت إيّاها، وتمّ تداولها إلى درجة اعتبارها حقيقتها الوحيدة التي تصبّ فيها جميع الدلالات وإن تلوّنت، فصيهرها رؤية لا تعترف بالألوان، ولها خاتمة تصنيف لا غير ألا وهما البياض أو السواد مع تلاعب بالدرجات.

تمثّل الفقرة المعروضة في الغلاف الخلفي للمجموعة مقتطفاً من القصّة التي اختير عنوانها ليمثّل كامل المجموعة، ولا يخفى أنّ الهدف من إيرادها هو جذب الاهتمام وتحفيز حبّ الاطلاع، أي أنّ الاختيار ليس عشوائياً، وإنّما على العكس تماماً، إذ يتطلّب العناية لأنّه يضطلع بدور لا يقلّ عن دور الغلاف الأمميّ، بل قد يفوقه، لضرورة نجاحه انطلاقاً ممّا يتّسم به من اختصاره في تقديم فكرة جلية على إبداع الكاتب وتمييز نصّه، فهتمته تسويقية بدرجة أولى، وهو الناطق الرسميّ باسم كلّ قصص المجموعة.

عرض المقتطف المختار أحداثاً وقعت حقّاً، فهل هناك اشتغال خاصّة مع إيرادها دون إضافة كقول عناوين نشرة أخبار، وإن تمّ إدراجها بالارتكاز على صياغة تستمدّ أنفاسها من سخرية سوداء: (فكّر بعضهم في اختراع ميتات مبتكرة قادرة على شدّ الناس.. يقرّرون إسقاط الحافلة.. الفتاة التي يخطر لها نجاة أن تقفز داخل قناة كبيرة لتصريف المياه المستعملة...)، لم يخل هذا النقل من افتعال لأنّ التهم لم ينجح في ارتداء ثوب المنطق، والأحرى أن يسند الفعل للموت فهو "الذي يريد استعادة هيئته ويعود خبراً يسترعي الانتباه".

هل ما ورد ميتات مبتكرة أم هي أحداث، وإن تبوّأت مرتبة الكارثة، فهي ليست سابقة في سجلّ المصائب العامر بالرزايا، وإن اعتقد أنّها سابقة، لكنّها، ما انفكت تتجسّد، ويوقعها الموت ويمضي إلى غيرها، مع تفاوت الفجائية والتعمد، وإن لم تبلغ أسماع البشر، مثلما هو الحال في العصر الحالي الذي انتشرت فيه مواقع التواصل الاجتماعيّ؟ هل هي إشارة أنّ الميتات عادية ومخيلة الكاتبة ستنسج واحدة

لم تخطر على بال، أم هو العكس أي التأكيد أنّ الابتكار، مهما جمح وتوّعت أساليبه وأفكاره، تلتصق أقدامه في غراء المعتاد؟

لا ريب أنّ هناك إشارة واضحة إلى ما يجمع بين هذه الوقائع وهو التقصير والإهمال الذي تنجم عنه خسائر بشرية، ما يدفع إلى طرح ذات السؤال: هل هي إشارة منذ البدء عن تأييد التكرار وإن تعددت سبل الموت وطرقه، وغدت فكرة التجديد مجرد مزحة ثقيلة تصيب بالكدر، لأنّها تعزز الشعور بالعجز وتعمّقه تعبيرا عن خلوّ الحياة من الابتكار، ليوهب الموت طبقه، دون أن يطلب، كرما مجانياً وهو ما يغيظه لأنّه يفقده الهيبة، فما عاد هو المبادر والقنّاص؟

ب- التكرار على مستوى الحكمة السردية والخواتيم:

بعد الاطلاع على القصص، يتبادر الاستفهام التالي: هل الهدف الوحيد للكاتبه جمع وتوثيق المعهود في مجموعة واحدة، ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل لا تجتهد من أجل التنوع، ففي قصّتين، تمثّلت الفكرة الجوهرية في إحساس الساردة بالذنب، لتتّني التخلّص من أخت مزج حضورها في نصّ "اللفافة ذات العيون" وللتسبب في موت الأمّ في قصة "العقاب".

في قصة "الرواق الطويل"، ترفض الساردة واقع تغييب الموت لعمّتها ولابنها، العمّة التي ماتت حزنا على وفاة وحيدها والابن وقع من دراجته "وبركة صغيرة من الدماء تحت رأسه المعفر بالتراب" (خليفة: 2021، ص76)، وهو ذات السبب الذي اقترح في قصة "حساء باللحم المفروم والنعنع" وسقوط الأمّ من السلم فبركة دماء ففارقة للحياة. أليس من الضروريّ التنوع درءا لرتابة منفرة؟

يلجّ السؤال: أين الابتكار الذي وعد به العنوان؟ هل هو تأكيد على جفاف القرينة وموت شغفها كي تبدع أسبابا متنوّعة للموت، فتركن إلى نفس ما اعتمده دون بذل جهد التفكير، سواء ارتبط الأمر بحبكات القصص في مجملها فهي شخوص تعاني تأزما نفسيا، فتعيش تحت وطأة تأنيب الضمير أو عدم الاعتراف بالواقع ورفضه والنتيجة واحدة، وهي الرزح تحت نير الأوهام؟

يسجّل التزامن حضوره في سجّل التكرار، وهو ما يُستشف منذ تحليل العنصر السابق، فإلى جانب الموت المتسلسل فيما تعلق بقصتي "عبدو يبتلع البحر" والاشترك مع قصة "ميتة مبتكرة" في ذات الحكمة السردية، فبعد استعراض تأثير تجربة الموت التي عرفها الغير تعيش الساردة التجربة بنفسها.

يقصّي التنوع تعسّفا فحّتيّ الجوّ متشابه بين القصص (أغصان الأشجار تتحرّك بقوة وبدأ صوت الريح يتسرّب من شقوق النافذة" في قصة "لم يفتني القطار"، وفي قصة "من النافذة": تتحرك الأشجار المصفّفة على جانبي الشارع الخالي بقوة فتحدث صوتا موحشا" (خليفة: 2021، ص89).

تمّ الارتكاز على ذات الحيلة السردية في أكثر من قصة، مما ولد تكرارا، وغدا القارئ إذ ينتقل من نصّ إلى آخر يتفطن مسبقا إلى هوية الساردة: مينة تسكّع، مينة في المشرحة وهي من بين الأفكار المعادة، إذ تواصل المينة الحياة وتمتّع بجوّاسها، وهو ما يخول لها رواية الوقائع.

ولد ما يُسمّى بالخيط الناظم بدوره تكرارا من خلال التركيز على موضوع واحد في أغلب القصص وهو الموت، ونبع المشكل من غياب التنوع على مستوى المعالجة التي تناولت تأثير الموت في الأحياء، وانحصر في تأنيب ضمير وتوهم حزن يرافقه العجز، فرانت الرتبة على القصّ الذي استحوذت عليه ساردات بدون في بعض الأحيان كنسخ لنفس الشخصية، وإن شابت سماتهنّ بعض التغييرات، حتّى أنّ القارئ غدا شبه متأكدّ ممّا سترتكر: عليه حبكة القصة القادمة وبما ستؤول إليه القفلة.

5- الأسلوب: نسج يميل إلى التبسيط إلى درجة التفريط:

غاب الابتكار على مستوى الأسلوب أيضا، بإيراد تشابيه معهودة: ("كحبة تمر ناشفة، ككلب في الهاجرة، / كعطسة طائر في الخلاء، صوت منفر يشبه صرير مزلاج قديم صدى")، كما لا ترصد بصمة خاصة، إذ مال السرد إلى التبسيط، فلم يتخالف مع البلاغة، وإنّما تحوّل القصّ في بعض الأحيان كحديث عاديّ يقترب من السطحية، كما أن المراجعة ضرورة ملحة لتجنّب الثقل التركيبيّ الذي برز مثلا في تواتر استخدام ناسخ كان وما يتسبّب فيه حضوره عديد المرّات في الجملة الواحدة من تعقيب للجمالية والتنوع، وأورد بعض الأمثلة: "وكانت هذه التهديدات.. ولكنها كانت.. وعليه كنت أستفيق.. أو أي شيء كان يظهر منها.." (خليفة: 2021، ص 27)، و"عندما كنت طفلة لم يكن هناك شيء يخيفني. كنت طفلة شقية ولم تكن اللعب العادية تغريني" (خليفة: 2021، ص 25).

وجب الانتباه إلى بعض التعابير التي لا تنسجم مع القصد، مثل: "يثقب ذراعه ويضع له المصل المغذي" (خليفة: 2021، ص 42)، و"بينما كان أحدهم يقصّ ثيابي فوق لحمي" (خليفة: 2021، ص 85)، وخاصة التعبير الذي تكرّر في العديد من القصص: "لا أحد يخرج من الباب البلوري" (خليفة: 2021، ص 49) و"وهو يدخلها سريعا من الباب" (خليفة: 2021، ص 93) / "يخرج من أحد الأبواب" (خليفة: 2021، ص 103)، وعدم تطابق القول مع المراد منه، مثل: "فتقدم له المنديل مربوط حول الطنجرة الصغيرة الساخنة ثم تعود ركضا إلى البيت" (خليفة: 2021، ص 7)، والمعنى المستخلص من هذه الجملة أنّها تقدّم له المنديل فحسب.. أمّا نيّة الكاتبة فتلك قضية أخرى لا شأن للغة بها، مع لزوم تجنّب إيراد الشيء ونقيضه، فالجرح طفيف فلم يسده الممرض وهو ليس غائرا: ("ينظف الجرح الطفيف الذي برأسه ويحاول سده ببعض القطن والشاش" (خليفة: 2021، ص 42)، إضافة إلى ما ورد في الجملة التالية: ("جلست على مقعد قريب من الباب" (خليفة: 2021، ص 43) / "شعرت

بالإعياء فجلست على أحد المقاعد" (خليفة: 2021، ص 49)، بالتالي، هي جالسة منذ البداية وليست هناك إشارة أنها نهضت من مقعدها.

يدعو هذا المقطع "أنظر معه إلى الفيلا المقابلة من خلال زجاج النافذة.. قال أشياء بالفرنسية، وهو يستقبل الفتاة الجميلة" (خليفة: 2021، ص ص 92-93) إلى التساؤل عن مدى قوة سمع السارد حتى ينصت إلى كلام قيل من مسافة تعتبر بعيدة خاصة وشبابيك النافذة مؤصدة، كما ورد تناقض وشت به هذه الجملة: ("رأيت وجهي، لم أعرفني، فاجأتني خطوط التجاعيد العميقة على جبينني وحول عيني، كم كبرت قلت لنفسني" (خليفة: 2021، ص 103)، علما وأن الساردة فاقدة للذاكرة حد اللحظة التي تقصّ فيها، فكيف يمكنها معرفة أنها تقدمت في السن؟

شاب الأسلوب السرديّ التكرار: "حاولت نسيان أمره وتجنب رؤيته (وردت الجملة مرتين في نفس الموطن) فتقرّبت من أبي أكثر وصرت أنام معه في غرفتي" (خليفة: 2021، ص 16)، ليلحق التعبير المثير للارتياح، لأنه يتجاوز القصد إلى تأويلات قد يُساء تقديرها، والحشوش: "تدفع فهيمة كرسيه من الخلف" (خليفة: 2021، ص 114)، ما الداعي للتدقيق، فهل ستدفع الكرسي يمينا أو يسارا مثلا أو من الأمام؟.. وتدخّل سافر وعدم انسجام المدلول مع القصد، فثلا "كانت تضحك بنجل وتلقّت حولها خشية أن يراها أحدنا" (خليفة: 2021، ص 8)، ألا ينتمي السارد إلى "أحدنا" أم هو غير مرئيّ أم يطل متواريا عن الأنظار؟

تحتاج المجموعة القصصية "ميتة مبتكرة" إلى إعادة النظر بتروّ في حكايتها السردية فكرة وأسلوبا لإخراجها في حلة إبداعية لائقة، مع انتظار أن تنفخ الكاتبة الروح في الابتكار ليُبعث حيا في نصّها القادم.

تطوير مناهج العلوم في الجمهورية اليمنية في ضوء معايير الجودة الشاملة (كتاب الصف الخامس من التعليم الأساسي أنموذجاً)

Developing Science Curricula in the Republic of Yemen in Light of Comprehensive Quality

Standards: The Fifth Grade Basic Education Textbook as a Model

ط.د/ عبده محمد صالح احمد عبدالكريم / كلية العلوم التطبيقية والتربوية بالنادرة - جامعة إب/ اليمن

البريد الإلكتروني: abdoabdulkarim1@gmail.com

ملخص البحث:

يهدف البحث الحالي إلى تحديد معايير الجودة الشاملة اللازم توافرها في كتب العلوم في الجمهورية اليمنية، والوقوف على مدى تحقق هذه المعايير في كتب العلوم، وقد أظهرت نتائج الإجابة عن أسئلة البحث أن درجة تحقق معايير الجودة الشاملة في مجالي إخراج الكتاب، والأهداف جاءت بدرجة متوسطة حسب المتوسط الموزون وبمتوسط بلغ (2)، حيث احتل المجالين المرتبة الثانية، بينما مجال المحتوى العلمي فجاء بمتوسط موزون بلغ (1.99) محتلاً المرتبة الثالثة، أما مجال التقييم، فقد كان المتوسط الموزون له (3.33) بدرجة تحقق كبيرة، وقد احتل المرتبة الأولى بحسب درجة التحقق من خلال المتوسط الموزون للمجالات الأربعة.

ومن خلال هذه النتائج، فقد أوصى الباحث بالآتي: -

ضرورة تقويم وتطوير كتب العلوم بالمرحلة الأساسية في الجمهورية اليمنية في ضوء معايير الجودة الشاملة.
ربط محتوى الكتب بالبيئة والمجتمع المحلي.

الكلمات المفتاحية: تطوير، مناهج العلوم، معايير، الجودة الشاملة.

Abstract :

The current research aims to determine the comprehensive quality standards that are required to be available in science books in the Republic of Yemen, and to determine the extent to which these standards are achieved in science books. The weighted average with an average of (2), where the two fields occupied the second place, while the field of scientific content came with a weighted average of (1.99), occupying the third place. As for the field of evaluation, the weighted average was (3.33) with a significant degree of verification, and it ranked first according to the degree Check by weighted average of the four domains.

Through these results, the researcher recommended the following:

-The necessity of evaluating and developing science books in the Republic of Yemen in the light of comprehensive quality standards.

-Linking the content of books to the environment and the local community.

Key words: Development – Science Curricula – Standards – Comprehensive Quality.

مقدمة:

مما لا شك أن الاكتشافات العلمية في مجال الفيزياء كان لها الدور البارز في حياة البشر على مر التاريخ العلمي، وقد تبع هذه الاكتشافات الكثير من المخترعات التكنولوجية التي وفرت جهد الإنسان ووقته، ومكنته من سبر أغوار الكون والكشف عن مزيد من أسرارها التي كانت غامضة وتشكل تحدياً للفكر الإنساني. فند ظهور الفيزياء التقليدية في عصر النهضة على يد غاليليو (1564 - 1642) بدأت المشكلات الهائلة في علم الفيزياء تتوالى من جيل إلى آخر على أيدي العلماء الذين لهم بعد الله فضل كبير على البشرية جمعاء في هذا المجال. فيعد عصر غاليليو البداية الحقيقية لاستخدام الأسلوب العلمي التجريبي في الكشف العلمي، وانتشر هذا الأسلوب واستخدمه العلماء فيما بعد كنهج لتوليد المعرفة العلمية الفيزيائية والكشف عنها في مجال الذرة - الميكانيكا - الكهرباء - المغناطيسية وفي مجالات أخرى (غاكن، 1989م، ص 460). وتبع هذا التطور في تاريخ العلم تطبيقات هائلة بدأ يتسع نطاقها في شتى مجالات الحياة وظهرت التكنولوجيا لكي تمنح الإنسان قدرات ضخمة تمثلت في توفير الوقت والجهد والمال. وقد مرت هذه التكنولوجيا بعدة مراحل طبقاً لتطور علم الفيزياء، حيث ظهرت الثورة الصناعية الأولى في نهاية القرن الثامن عشر في بريطانيا ثم في فرنسا وبلجيكا، ثم اتجهت في نهاية القرن التاسع عشر إلى ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان، وارتكزت على تطوير السكك الحديدية والقطارات التجارية وكيمياء التعدين، وفي أوائل القرن العشرين ظهرت ثورة الإلكترونيات وتكنولوجيا الطاقة، واليوم ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، فإن التكنولوجيا تحدث ثورة في مجالات عدة كالاتصالات والمواصلات ومعالجة المعلومات والطاقة وغيرها، وترتبط هذه المراحل بمدى تقدم الفيزياء وتطورها.

لكن المشروع لم يكتمل، حيث أن التعليم يعتبر بوابة تقدم الأمم، فكل الدول التي حققت تقدماً في مختلف الميادين فعلت ذلك من خلال بوابة التعليم، لذا فإن الدول المتقدمة تضعه في أولوية برامجها وسياساتها التعليمية (بهاء الدين، 1997، ص 14)، وتعد المناهج الدراسية من أكثر عناصر العملية التعليمية تأثراً وتأثيراً بجملة من التحديات والتغيرات المحيطة بالعالم، حيث غدت هذه المناهج رئيسية يعتد عليها في تنمية القوى البشرية اللازمة لتحقيق التنمية الشاملة في سبيل هذه التحديات والتغيرات.

ويشير الباز (2005، ص 112) إلى أن حركة إصلاح مناهج العلوم التي بدأت منذ منتصف القرن العشرين الميلادي تهدف إلى تطوير المناهج بما يتناسب مع التقدم العلمي، والتقني الهائل الذي يشهده العالم، وبما يحقق حاجات المتعلمين ورغباتهم. ومن هنا فإن الدول المتقدمة، والنامية على حد سواء

تعمل جاهدة على ربط مناهج العلوم بالمعايير العالمية لتعليم العلوم، وذلك لمواجهة المنافسة الشديدة والقوية مع غيرها من الدول في المجال العلمي، والتقني. ومن العمليات التي تم طرحها لتقدم العلوم ما قدمته الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (AAA1989) ، {مشروع 2061} العلم لكل الأمريكيين، وكذلك الدراسة الدولية للرياضيات والعلوم TIMSS والتي تجرى كل أربع سنوات وبصورة منتظمة (الغامدي، 2012، ص 63). ولكي تتم عملية بناء الفرد المتعلم وإعداده للحياة من خلال إكسابه قيم المواطنة الصالحة، فإنه لا بد وأن تطور المناهج الدراسية في ضوء معايير الجودة الشاملة المواكبة لتطورات العصر الحديثة التي تتوالى عام بعد عام.

مشكلة البحث:

مما لا شك فيه أن حدث الوحدة اليمنية وقيام الجمهورية اليمنية في 22 مايو 1990م، وما أدى إليه ذلك من تغيير شامل في مختلف جوانب حياة المجتمع ومستويات النظام يقدم المبررات الكافية ليس لتطوير المنهج فحسب، بل ولإحداث ثورة تربوية جذرية شاملة ومع ذلك، فإن هناك عوامل وأسباب أخرى كثيرة منها ما يرجع إلى نشأة تطور النظام التربوي اليمني حتى إعلان الوحدة، ومنها ما يتصل بالتطورات العلمية والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي شهدتها العالم على المستوى العربي والإسلامي والدولي.

عند نشأة النظام التربوي الحديث في اليمن على أثر قيام ثورة 26 سبتمبر 1962م، واستقلال الجزء المحتل من الوطن عام 1967م أعتمد النظامان التربويان على خبرات وتجارب دول شقيقة وصديقة في عملية تنظيم أجهزتها وأساليب عملها. وفي مجال المناهج كان يتم توريد الكتب المقررة في بعض الدول العربية واستخدامها في المدارس اليمنية. وهذا يعني أن النظام التربوي اليمني لم يضع مناهج وكتباً يمنية، واعتمدت على كتب من دول عربية متعددة. وفي أواخر الستينات بدأت عملية إعادة النظر في مناهج وأساليب التعليم ومحاولة يمنة الكتب بهدف ربطها بمقومات ومتطلبات المجتمع اليمني وحاجات المدرسة والطالب اليمني. وتوصلت المحاولات عبر السبعينات ليمتخض عنها صدور تشريعات تربوية يمنية (1973 - 1976م)، وإعادة تنظيم بعض الأجهزة بما في ذلك السلم التعليمي في المحافظات الجنوبية والشرقية، ثم وضع وثائق للمناهج وتلا ذلك وعبر الثمانينات إعادة النظر في الكتب ومحاولة تحسينها وإعداد كتب جديدة غير أن هذه المحاولات رغم ما بذل فيها من جهد لم تنوفاً فيها مقومات وشروط تطوير المنهج، وبالتالي لم يكن التغيير الذي شهدته الكتب أكثر من مجرد تعديل، أو تنقيح للكتب السابقة، أو لكتب تم استعارتها من دول عربية، أو صديقة أخرى. (المنطلقات العامة، 2002، ص:2).

مساعي وزارة التربية والتعليم خلال العامين 2012 - 2013م:

لقد قامت وزارة التربية والتعليم اليمنية خلال العامين (2012 - 2013) ممثلة بقطاع المناهج والتوجيه بالعمل على تطوير وثيقة الإطار المرجعي لمادة العلوم لمراحل و صفوف التعليم العام، والتي في ضوئها تم تطوير منهج العلوم للصف الأول أساسي وفقاً للتوجه التربوي الحديث الذي يجعل من المتعلم محوراً للعملية التعليمية التعليمية، وبعد أن أصبح الكتاب المدرسي جاهزاً للتطبيق التجريبي عملت وزارة التربية والتعليم ممثلة بقطاع التدريب والتأهيل جاهدة على تطوير برنامج تدريبي أثناء الخدمة لمعلمي ومعلمات الصفين الأول والثاني أساسي لإكسابهم المعارف والمهارات اللازمة التي تجعلهم قادرين على تدريس كتاب العلوم المطور، وتنفيذه في الميدان بكفاءة واقتدار، وتحقيق الأهداف المنشودة منه.

ولقد تم تطوير منهج العلوم للصف الأول أساسي في ضوء المجالات العلمية المطورة في وثيقة الإطار المرجعي لمادة العلوم، والتي ترجمت إلى معايير ومؤشرات ومخرجات، كما أن عملية التأليف لكتاب المتعلم ودليل المعلم في المناهج المطورة اعتمدت على منهجية محددة الخطوات لكل درس من دروس وحدات الكتاب، ونتيجة لارتباط تأليف الجزء الأول من كتاب المتعلم منهج القراءة المطورة، فإن المنهجية لم تظهر بشكل واضح في وحدات دروس الكتاب المدرسي «الجزء الأول»، إلا أنها ظهرت بوضوح في دليل المعلم، أما بالنسبة لدروس الجزء الثاني من الكتاب، فقد ظهرت منهجية التأليف بوضوح في كل من دروس الكتاب ودليل المعلم. حيث، وقد اعتمدت منهجية التأليف خارطة طريق للمعلم لينفذ دروس الكتاب في ضوئها (الدليل التدريبي لكتابي الرياضيات والعلوم المطورين، 2015، ص 119).

ومن خلال ما سبق من مساعي لتطوير المناهج المدرسية، فإنه وقبل أن تتم عملية التطوير لا بد أن نتعرف على جوانب مختلفة لعملية التطوير ك مفهوم تطوير المنهج وأسس تطوير المنهج ومبادئ تطوير المنهج. أسئلة البحث:

يسعى البحث الحالي للإجابة عن السؤال الرئيس التالي: -

ما معايير الجودة الشاملة اللازم توفرها في كتب العلوم في الجمهورية اليمنية؟

(إخراج الكتاب، الأهداف، المحتوى العلمي، أساليب التقويم)؟

وينبثق من السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية: -

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في مجال إخراج الكتاب (كتاب العلوم للصف الخامس)؟

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في الأهداف؟

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في المحتوى العلمي؟

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في أساليب التقويم؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى: -

تحديد معايير الجودة الشاملة اللازم توفرها في كتب العلوم في الجمهورية اليمنية.
الوقوف على مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في كتب العلوم في الجمهورية اليمنية.
(إخراج الكتاب، الأهداف، المحتوى العلمي، أساليب التقويم).

أهمية البحث:

بناء قائمة بمعايير الجودة الشاملة اللازم توفرها في كتب العلوم في الجمهورية اليمنية.
الكشف عن مستوى كتب العلوم، والمطالبة بتحسينات اللازمة وفقاً لمعايير الجودة الشاملة.
قد تنفيذ في التشجيع على مواكبة الاتجاهات العالمية الحديثة.
قد تنفيذ مخططي المناهج من أجل توظيف معايير الجودة الشاملة في كتب العلوم.

حدود البحث:

اقتصر هذا البحث على كتاب العلوم للصف الخامس الأساسي في الجمهورية اليمنية للمرحلة الأساسية
طبعة 2015م.

مصطلحات البحث:

تطوير المنهج: هو عملية إعادة تصميم المنهج بإدخال تجديدات ومستحدثات في مكوناته لتحسين العملية
التعليمية وتحقيق أهدافها (محمود، 2009، ص 57).

التطوير بصفة عامة الوصول بالمستهدف المرغوب تطويره سواء كان نظاماً أم مؤسسة أم برنامجاً إلى أحسن
صورة حتى يؤدي الغرض منه بكفاءة ويحقق الأهداف على أتم وجه بطريقة اقتصادية في الوقت
والجهد والتكاليف (أنفاس نت من أجل الثقافة والإنسان) إعداد د. احمد الدريج , 2015/9/5م.

كتب العلوم: يقصد بها الباحث كتب العلوم للمرحلة الأساسية (1 - 9) في الجمهورية اليمنية طبعة
2015م.

الجودة لغةً: بمعنى الشيء الجيد، وهي مصطلح لغوي يطلق على كل من كلف بعمل فأجاده، والجودة
في اللغة أصلها الاشتقاق (ج و د)، وهو أصل يدل على التسمح بالشيء وكثرة العطاء، وجاد الشيء
جوده، أي صار جيداً (الربيع، 2013، ص 239).

معايير الجودة: هي المواصفات والشروط التي ينبغي توافرها في نظام التعليم، وتؤدي إلى مخرجات تتصف
بالجودة، وتعمل على تلبية احتياجات المستفيدين (علي، 2002، ص 27) كما ورد في
(عسيلان، 2011، ص 18).

التعريف الإجرائي لمعايير الجودة: هي مجموعة من المواصفات والأحكام التي تم ضبطها علمياً بحيث تحدد ما يجب أن تكون عليه كتب العلوم في المرحلة الأساسية (1 - 9) في اليمن بما يساعد الطلبة على اكتساب هذه المعايير التي تلبي احتياجاتهم وخصائصهم الشخصية والنفسية.

الإطار النظري والدراسات السابقة

أولاً: الإطار النظري:

أسس تطوير المنهج:

إن، أي تطوير لا يقوم على أسس سليمة معلنة وواضحة يكون عرضة للفشل لأنه يمثل نوعاً من المحاولة والخطأ. وخير مثال على ذلك ما حدث ويحدث في مجتمعنا من محاولات لم تحقق سوى الفشل وتبديد الجهد والمال (المطلس، عبده، 1996، ص 219).

ولكثره الأسس وتداخلها بين المؤلفين سنذكرها بإيجاز:-

أسس تطوير المنهج حسب عبده المطلس:-

وضوح الرؤية: أي أن التطوير يستند إلى فلسفة تربوية واضحة تترجم إلى ممارسات ملموسة تتخذ في جميع جوانب المنهج. 2- الهوية الثقافية والاجتماعية: ينبغي للمنهج أن يتيح للتلاميذ معرفة وفهم ثقافة المجتمع الذي ينتمون إليه. 3- الشمول والتكامل: الشمول يعني شمولية التطوير لجميع عناصر المنهج ومكوناته. بينما التكامل يعني أن يؤدي تطوير كل عنصر من عناصر المنهج إلى تطوير العناصر الأخرى. 4- الاستمرارية والنظرة المستقبلية: أي أن عملية التطوير لا تتوقف، لأنها عملية ديناميكية تتطور مع تطور الحياة للإنسان. 5- التخطيط والتجريب: أي أن تطوير المنهج عملية علمية تسير وفق خطوات محددة وليست عشوائية.

6- تمثيل أطراف العملية التعليمية: أي أن عملية التطوير عملية جماعية تعاونية بين جميع المعنيين بالمنهج.

ويرى البعض أن تطوير المنهج لا يحدث بغير أسس يستند عليها أهمها ما يلي:-

التكامل بين مؤسسات المجتمع المعاصر. 2- الإفادة من التكنولوجيا الحديثة.

3- الإفادة من التدفق المعلوماتي في المجالات المتنوعة. 4- الإفادة من تراثنا الحضاري والاتجاهات

العالمية. 5- الاعتماد على الموارد المادية. 6- الاعتماد على الموارد البشرية (مدونة الدكتور أبو

مروان، 2009/11/19م) تاريخ الدخول 2015/9/5م.

أما بعض المختصين بالمنهج الدراسية وتطويرها، فقد وضعوا مبادئ لتطوير المنهج، ومن وجهة نظر الباحث يرى أن هذه المبادئ تعد أسس وهي:-

إتباع المنهجية العلمية في التطوير: أن تكون مسبقة بعملية تقويم شامل.

مواكبة المستجدات في كل المجالات ذات العلاقة: الشمولية لجميع عناصر المنهج.

3- أن تكون عملية التطوير عملية مستمرة: أي مراعاة أسس بناء المنهج التي صُمم في ضوءها المنهج. 5- مراعاة التوازن بين الكم والكيف. 6- مراعاة التكلفة الاقتصادية. (موقع نت، 2010/11/22م) تاريخ الدخول 2015/9/5م.
http://www.sea.edu.eg/forums/viewtopic.php

المناهج الدراسية وبناء الفرد:

تعتبر المناهج الدراسية الأداة الرئيسية في بناء الفرد فيقدر المناهج من وسائل بناء وفعالة في بناء الفرد تكون نوعية المجتمع وصورته في الحاضر والمستقبل، وعلى الرغم من تعدد مصادر التعلم كاستخدام الحاسوب والإنترنت، إلا أن الكتاب المدرسي يمثل المصدر الأكثر أهمية للمعلم والمتعلم لإتمام العملية التعليمية، لأنه يعتبر مرجعاً أساسياً للمعلم والمتعلم على حدٍ سواء. وإن عملية إعداد الكتاب المدرسي ليست بالأمر السهل، فهو عمل علمي، تسهم فيه الكثير من الجهود المشتركة، كما لا بد وأن تتوافر في الكتاب المدرسي معايير معينة، وهذا ما أكدته المؤتمر الأول للتطوير التربوي في الأردن (1988م) الذي أوصى بعدة اعتبارات منها:-

مراعاة أن تكون النشاطات التي يتضمنها الكتاب المدرسي مرتبطة بالمجتمع والبيئة العامة. ضرورة إتباع نسق جديد في تأليف الكتب المدرسية يتعد عن السرد، ويعتمد على أساسيات المعرفة والربط والتفسير ليعث على التعلم الذاتي. 3- ضرورة تجريب الكتب المدرسية قبل إقرارها النهائي. 4- التركيز على الاتجاهات والقيم الإيجابية في تراث حضارتنا وبين القيم الإيجابية في الثقافة العالمية المعاصرة.

الدراسة الدولية للرياضيات والعلوم: (TIMSS)

تم هذه الدراسة تحت إشراف الهيئة الدولية لتعليم التحصيل التربوي (IEA)، وتجري هذه الدراسة كل أربع سنوات، وبصورة منتظمة، وقد تم تطبيق الدراسة الأولى من (Timss) في العام (1995) وبمشاركة دولة عربية واحدة هي دولة الكويت، وفي عام (1999م) تم تنفيذ الدراسة بمشاركة ثلاث دول عربية هي الأردن وتونس والمغرب، وفي العام (2003م) شاركت عشر دول عربية، وقد قدم برنامج (UNDP) تمويلاً لخمس دول منها مصر ولبنان واليمن وفلسطين وسوريا، حيث شاركت كل من تونس والمغرب والأردن بمنح البنك الدولي. بينما شاركت كل من السعودية والبحرين بتحويل خاص منها (العرجا، 2009، ص32). كما شاركت كل من المملكة العربية السعودية، والبحرين بجزء من التمويل الخاص فيها وفي العام (2007) أجريت الدراسة الدولية الرابعة بمشاركة أكثر من (60) دولة

فيها خمسة عشر دولة عربية هي: مصر، لبنان، اليمن، فلسطين، سوريا، الأردن، الجزائر، جيبوتي، تونس، المغرب، السعودية، البحرين، قطر، عُمان، والكويت.... (العرجا، 2009، ص32).

ونظراً لأهمية جودة ونوعية التعليم في المنطقة العربية، ودوره الرئيسي في صنع رأس مال بشري قادر على المنافسة، ومن خلال المشاركة في الدراسات العالمية المتعمقة التي تساعد على إجراء الإصلاحات المبنية على التقييم، فقد قرر المكتب الاقليمي للدول العربية في برنامج الأمم المتحدة الاستقرار في تنسيق مشاركة الدول العربية المهتمة بالدراسة.

مشروع (2061م) العلم لكل الأمريكيين:

قدمت الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (AAAs , 1989) نسبة إلى العام الميلادي (2061م) الذي من المتوقع أن يعود فيه المذنب هالي إلى الظهور، إذ يقدم هذا المشروع رؤية بعيدة المدى للإصلاح التربوي في العلوم، ويتكون هذا المشروع من ثلاث مراحل كما ذكرها (عميرة، 2003، ص29-30) وهي:-

المرحلة الأولى: يتم فيها تحديد المعرفة، المهارات، والاتجاهات العلمية التي يجب على كل متعلم اكتسابها من خلال التربية المدرسية، وقد انتهت هذه المرحلة في العام (1989م) بنشر تقرير عنوانه: (العلم لكل الأمريكيين) والذي حددت فيها صفات الشخص المثقف علمياً.

المرحلة الثانية: تم فيها ترجمة توجيهات المرحلة الأولى إلى خطط عمل ووضع نماذج عديدة للمنهج، كما تعددت هذه المناهج في بعض الدروس المختارة في الولايات المتحدة الأمريكية في محاولة لإصلاح تدريس العلوم، والرياضيات. وانتهت هذه المرحلة في العام (1992م) بنشر تقرير عنوانه (المعايير النوعية للثقافة العلمية)، وأشير في هذه المرحلة إلى حذف المواضيع التقليدية في العلوم.

المرحلة الثالثة: واستمرت هذه المرحلة في بداية القرن الميلادي الحادي والعشرين، وفيها تم تنفيذ مخرجات المرحلتين الأولى والثانية على نطاق واسع.

المناهج الدراسية والجودة الشاملة:

الجودة الشاملة ومفهومها: -

شهدت نظم التعليم ومناهجه تحديات كبيرة في النصف الثاني من القرن العشرين ناتجة عن التطور المعرفي الهائل، والثورة التكنولوجية في المجال الصناعي، مما أدى إلى ظهور اتجاهات حديثة في مجال التربية والتعليم لمواكبة تلك التطورات وتعقيدها. وكان من أحدث تلك الاتجاهات الدعوة إلى تبني مفهوم الجودة الشاملة في التعليم وإدارته بعد تطبيق هذا الاتجاه في عمل المؤسسات الإنتاجية والخدمية وتحقيقها نجاحات كبيرة. وقد أصبحت الجودة تمثل حياة العصر وثقافته مما أوجب أن يؤسس لها في

نظم التعليم على اعتبار أنه عملية إنتاجية تتعامل مع الإنسان، ويشكل عنصراً رئيسياً فيها، وكما يجب أن تكون المنتجات في المؤسسة الإنتاجية الصناعية، أو الخدمية متميزة يجب أن يكون خريج المؤسسة التعليمية متميزاً، وأن تكون الخدمات التي تقدمها للمتعلمين والمجتمع مميزة (عطية، 2008م، ص 19). مفهوم الجودة الشاملة في مجال التعليم:-

ترى ثناء ياسين (2008م، ص 15) أن الجودة الشاملة في التربية (استراتيجية إدارية تركز على مجموعة من القيم وتستمد حركتها من المعلومات التي يتمكن في إطارها من استثمار وتوظيف المواهب والقدرات الفكرية للعاملين في مختلف مراحل التنظيم لتحقيق التحسن المستمر للمؤسسة التعليمية). وعرفت سهولة الفتلاوي (2007، ص 53) الجودة في التعليم بأنها «نظام متكامل من مجموعة من المعايير والإجراءات والأنشطة والإرشادات تضعها الجهة المسؤولة عن التعليم، أو المؤسسة التعليمية نفسها ليبتدى بها في تنظيم عملها وتوفيرها لخدماتها بطريقة فاعلة للمستفيدين». أهمية الجودة الشاملة في التربية والتعليم:

ذكر البادي (2009، ص 110) العديد من الفوائد التي يمكن أن تتحقق في حالة تطبيق الجودة الشاملة في التربية والتعليم، وتمثل بما يلي:-

- 2- ضبط وتطوير النظام الإداري في المؤسسة التعليمية والارتقاء بمستوى الطلاب في جميع المجالات.
 - 3- زيادة الكفاءة التعليمية، ورفع مستوى الأداء للعاملين بالمؤسسة التعليمية. الوفاء بمتطلبات الطلاب وأولياء الأمور والمجتمع. تمكين المؤسسة التعليمية من تحليل المشكلات بالطرق العلمية. 4- رفع مستوى الطلاب، وتنمية اتجاهات أولياء الأمور الإيجابية نحو المؤسسة التعليمية من خلال الالتزام بنظام الجودة. الترابط والتكامل بين جميع القائمين بالتدريس والإداريين في المؤسسة. 5- يمنح المؤسسة التعليمية التقدير والاعتراف المحلي. 6- تشخيص القصور في المدخلات والعمليات والمخرجات حتى يتحول التقويم إلى تطوير حقيقي وضبط فعلي لجودة الخدمة التعليمية.
- الجودة الشاملة في كتب العلوم:

يتناول نظام الجودة الشاملة جميع جزئيات النظام التعليمي، ويشمل ذلك المنهج الدراسي الذي يعد عنصراً مهماً من العناصر التي تقع في بؤرة النظام التعليمي بما فيه من مدخلات، وعمليات، ومخرجات، وما رافقها من تقويم وضبط وتحسين. ولما كان المقرر الدراسي يشكل عنصراً أساسياً من عناصر المنهج، وجب أن تناول الجودة الشاملة الاهتمام بالمقررات الدراسية من حيث محتواها، وطريقة عرضها، وصياغتها، مما يسهل على التلاميذ الاستفادة منها في عملية التعلم. ولما لمنهج العلوم من صلة وثيقة بالتقدم

العلمي والتكنولوجي، والانفجار المعرفي الهائل الذي تشهده المجتمعات والثورة السريعة والمتلاحقة في مجال الاتصال ونقل المعلومات من خلال شبكات الإنترنت، وجب تطوير مناهجها ومقرراتها على مستوى التعليم العام والجامعي، ووفقاً لذلك ظهرت العديد من الاتجاهات الحديثة للجودة في مقررات العلوم منها ما ذكرته ثناء ياسين (2008، ص 65-66) كآآتي:-

إدخال التكنولوجيا الحديثة في المناهج بغرض تطوير العلوم، وتبسيط الواقع النظري للمفاهيم العلمية إلى واقع عملي يسهل على التلميذ والمعلم تعلمه بهدف تحسين الناتج التعليمي، وتطوير المجتمع. 2- إدخال علاقة العلم والتكنولوجيا والمجتمع في مناهج العلوم، لأن التكنولوجيا والمجتمع يشكلان مدخلين أكثر ملائمة لتدريس العلوم في سياق التعليم العام.

3- تصميم مناهج العلوم بغرض تحقيق التفوق، ومستويات الإنجاز المتقدم، وذلك بتوفير المعلمين الأكفاء، وتدريبهم التدريب الجيد.

ويرى الباحث أن يتم إضافة الاتجاهات التالية إلى ما سبق ذكرها وهي:-

إدخال تكنولوجيا النانو في مناهج العلوم لمواكبة المستحدثات السريعة في التكنولوجيا الحديثة.

الربط بين العلم وتكنولوجيا النانو والمجتمع في مناهج العلوم.

معايير الجودة الشاملة في كتب العلوم:

هناك عدد من المعايير التي يجب توافرها في كتب العلوم المدرسية ويمكن تحديد بعض معايير الجودة

الشاملة في كتب العلوم في عدة مجالات وهي:-

أولاً: معايير جودة إخراج الكتاب:

يرى فرج (2009، ص 116) أن جودة الإخراج الفني للكتاب المدرسي تتطلب الوقوف على العوامل

التالية:-

دراسة نوعيات التلاميذ وبيئاتهم المختلفة. ب- دراسة العمر الزمني للتلاميذ. ج- دراسة المادة التحريرية للكتاب من حيث كونها: أدبية، أو علمية، أو تدريبية. د- دراسة العمر الزمني لتداول الكتاب المدرسي لمدة عام، أو أكثر.

وكما ذكرت عدة معايير لجودة إخراج الكتاب المدرسي هي:-

تحديد حجم ومقاس الكتاب. 2- الغلاف. 3- الصفحات. 4- الصورة العامة للكتاب المدرسي (الشكل -

التنظيم) . 5- التشطيب.

ثانياً: معايير الجودة في أهداف كتب العلوم:

ذكر السعدني (2009، ص 14) عدداً من المعايير التي يجب أن تتوفر في الأهداف منها:-

أن تراعي الظروف والإمكانات المادية والبشرية. 2- أن تستند إلى فلسفة اجتماعية وتربوية سليمة. 3- أن تقوم على أسس نفسية سليمة تراعي قدرات المتعلمين. 4- أن تترجم إلى سلوك وأفعال ملموسة. 5- أن تكون ذات قيمة في حياة التلاميذ ومرتبطة باحتياجاتهم. 6- أن تكون مرنة بحيث يمكن تحقيقها في الظروف البيئية المتنوعة. 7- أن ترتبط بالأهداف العامة للتربية والأهداف الخاصة بكل مادة. 8- أن توفر خبرات ذات معنى للمتعلمين منهم في تعديل سلوكهم. 9- أن تلي حاجات المتعلمين وتأخذ بها.

ثالثاً: معايير الجودة في محتوى كتب العلوم المدرسية:

ذكر السعدني (2009، ص 132-135) عدداً من المعايير في جودة محتوى كتاب العلوم المدرسي منها:
الصحة العلمية للمعلومات الموجودة في الكتاب. 2- كفاية المادة العلمية لتغطية كل موضوع.
3- سلامة الرموز والمصطلحات المستخدمة في الكتاب. 4- ارتباط النص اللفظي بالجدول والأشكال والرسوم العلمية. 5- حداثة المادة العلمية ومواكبتها للتقدم العلمي والتكنولوجي.
6- مناسبة المادة العلمية لمستوى التلاميذ وقدراتهم والفئات العمرية لهم. 7- ارتباط المادة العلمية بالبيئة.
8- ارتباط مادة الكتاب بالمواد الأخرى.

رابعاً: معايير الجودة في أساليب التقويم:

ذكر الحارثي (2005، ص 235 كما ورد في عسيان، ص 68):

قياس الأداء الفعلي للطلاب من خلال الاستجابة التي يمكن ملاحظتها.

المصادقية: تكون عملية التقويم واقعية. قياس صدق المحتوى.

أن تكون أدوات التقويم قادرة على التعرف على الطلاب الذين لم يتمكنوا من تحقيق تقدم مقبول نحو تحقيق المعايير.

أن تتيح الفرصة لتقويم قدرة الطلاب على ممارسة أساليب التفكير المنطقي أثناء انتقاهم من عمليات التفكير المحسوس إلى عمليات التفكير المجرد.

بناء على ما سبق ذكره فنحن نرى بأن تكون المناهج المطورة ست مناهج بحسب الأقاليم اليمنية الستة بحيث يراعى فيها خصائص المتعلمين وخصائص وسمات المجتمع الذي ينتمون إليه، وكذلك فلسفته وثقافته، والبيئات المختلفة داخل الإقليم الواحد فثلاً في إقليم الجند والذي يضم محافظتي إب وتعز يجب أن يكون المنهج في هذا الإقليم مناسباً لطبيعة واقع المجتمع المحلي والبيئة المدرسية ويلبي الحاجات التربوية للمتعلمين والمجتمع الذي ينتمون إليه حيث أن هذا الإقليم توجد فيه بيئات مختلفة وهي:-
البيئة الساحلية في الحاء.

بيئة السهول والوديان في المحافظتين كوادى الدور في العدين ووادي بناء في كل من السدة والنادرة والذي يمتد إلى مديرية دمت بمحافظة الضالع ووادي الضباب في تعز.
البيئة الجبلية في المحافظتين مما تحتويه من تراث حضاري وتاريخي مثل الآثار الحميرية والسبئية في كل من ظفار وشخب عمار وجبل العود وقلعة القاهرة في تعز وغيرها.
وبما أننا نسعى إلى تطوير المناهج في ضوء معايير الجودة الشاملة، فإنه يجب مراعاة ثلاثة مبادئ في جودة التعليم هي:-

تعميم المنهج ليلبي احتياجات المتعلمين طويلة المدى من خلال تطوير أهداف ومخرجات تعلم واضحة وقوية وتستند إلى معايير المنظمات المهنية المتخصصة، وإلى أفضل الممارسات العالمية.
توفير الفرص للمتعلمين لتحقيق تلك المعايير، وذلك من خلال توجيه جميع المصادر والموارد والإمكانيات المتاحة مادية وأكاديمية لمساعدة المتعلمين على تحقيق تلك المعايير.
تقييم مدى نجاح المتعلمين في تحقيق تلك المعايير وفقاً لمتطلبات تقييم الأداء.
وعليه فإن معايير الجودة الشاملة تطالب المؤسسات التربوية وبرامج إعداد المعلمين بان تظهر تميزاً نوعياً في بناء هياكلها وبرامجها من خلال:-

تحديث الإعداد العلمي والمهني والتربوي وفقاً للنظريات والمعارف والأفكار الجديدة.
استراتيجيات التدريب. 3- أساليب التعلم. 4- مراعاة التنوع في خلفيات التلاميذ.
ولتطبيق الجودة الشاملة في التعليم مبررات هي:-
الثورة التكنولوجية الشاملة والقائمة على التدفق العلمي والمعرفي.
إقبال معظم المجتمعات على التوسع في التعليم منذ عام 1970م.
ترتكز الجودة على الاستجابة لحاجات الطلبة وبالتالي إرضاءهم والحصول على مخرجات عالية الكفاءة. 4-
تعمل الجودة على استثمار إمكانيات الأفراد وطاقاتهم الإبداعية.
5- تعمل الجودة الشاملة على إيجاد نظام شامل لضبط الجودة والذي يسهل مراجعة وتطوير المناهج الدراسية.

أما (الرشيد، 1995، ص4) فقد وضع مبررات تطبيق الجودة بشكل آخر وهي:-
ارتباط الجودة بكفاءة المخرجات. 2- نجاح تطبيق الجودة الشاملة في العديد من المؤسسات التعليمية (حكومية - أهلية) في معظم دول العالم. 3- ارتباط نظام الجودة الشاملة مع التقييم الشامل للتعليم بالمؤسسات التعليمية.

ومن خلال العرض السابق، وفي ضوء آراء المحكمين وتوصياتهم قام الباحث باستخلاص عدداً من المعايير المقترحة، والتي يمكن من خلالها الحكم على جودة كتاب العلوم المدرسي، وهي كما يلي:-
المجال الأول: جودة إخراج الكتاب:

المعيار الأول: فنيات إخراج الكتاب: ويحتوي على عدداً من المؤشرات: -

يتوفر عنصر الجذب والتشويق في غلاف الكتاب. 2- يرتبط تصميم غلاف الكتاب بمحتواه العلمي. 3- تناسب حجم الكتاب مع عمر المتعلمين. نوعية الورق المستخدم. 4- خلو الكتاب من الأخطاء المطبعية. 5- للكتاب مقدمة توضح كيفية استخدامه. 6- يشمل الكتاب فهرساً يوضح محتوياته. 7- تديس الكتاب جيد.

المعيار الثاني: نظام التنسيق: يحتوي على عدداً من المؤشرات: -

تناسب المساحات بين الأسطر والفقرات لتحقيق الوضوح. 2- ملائمة حجم الحروف المستخدمة في الكتابة لعمر المتعلمين. 3- ملائمة ألوان الحروف الكتابية للمتعلمين. 4- وضوح العلاقة بين العناوين الرئيسية والمتفرعة عنها بشكل جيد.

المعيار الثالث: مواصفات الصور والرسوم للأشكال: يحتوي على عدد من المؤشرات: -

وضوح الرسوم والأشكال، وألوانها جذابة. 2- تناسب حجم الصور للأشكال مع متن كلام الموضوع. 3- توظيف الرسوم للأشكال بشكل جيد. سهولة قراءة التعليقات الإيضاحية على الصور والأشكال. 4- مراعاة الصور والأشكال للمحتوى العلمي.

المجال الثاني: جودة الأهداف:

المعيار الأول: الشمول: يحتوي على عدد من المؤشرات: -

شمول الأهداف للمجالات المعرفية والمهارية والوجدانية والاجتماعية. 2- صياغة الأهداف التعليمية لكل درس (وجود أهداف لكل درس). 3- تقدير جهود العلماء ودورهم في تقديم العلم والإنسانية. تشجيع عملية التعلم الذاتي. 4- وجود هدف عام للكتاب لكل وحدة. تشجيع المتعلمين على الاكتشاف وجمع المعلومات ميدانياً. 5- التعرف على قواعد الأمن والسلامة اللازمة للتعامل مع الأجهزة.

المعيار الثاني: الواقعية: ويحتوي على عدد من المؤشرات: -

تميز الأهداف بالواقعية وإمكانية تحقيقها. وضوح الأهداف بحيث يمكن ملاحظتها وقياسها. تناسب الأهداف مع الخصائص الشخصية لنمو المتعلمين. مراعاة الأهداف للظروف والإمكانات المادية والبشرية.

المعيار الثالث: تنمية المهارات العلمية (العلم كاستقصاء): ويحتوي على عدد من المؤشرات: -

تنمية مهارات التفكير الأساسية. 2- تنمية مهارات التفكير المتصلة بالبحث. 3- استخدام مصادر التعلم المختلفة. 4- تنمية مهارات التفكير الناقد لدى المتعلمين. 5- تنمية مهارات التفكير لدى المتعلمين في تصميم تجارب استقصائية بسيطة.

المجال الثالث: جودة المحتوى العلمي:

المعيار الأول: المفاهيم الأساسية: ويحتوي على عدد من المؤشرات: -

خلو المحتوى من التكرار والحشو. ارتباطها بالأهداف. 2- تعريف المفاهيم والمصطلحات الشائعة بشكل مختصر وواضح. 3- الترابط (التسلسل المنطقي والسيكولوجي للمحتوى).

المعيار الثاني: التوازن والملائمة: ويحتوي على عدد من المؤشرات: -

توزيع المحتوى على الفصلين الدراسيين بشكل متوازن. 2- التكامل من المقررات الدراسية السابقة واللاحقة للمادة نفسها ومع مقررات الصف نفسه. 3- مراعاة المحتوى لخبرات ومهارات المتعلمين في المقررات السابقة.

المعيار الثالث: الارتباط بالبيئة والمجتمع: -

تقديم المحتوى لمهام واقعية محسوسة ذات صلة بالمتعلم. تناول المحتوى لقضايا المجتمع ومشكلاته الصحية والبيئية. يظهر المحتوى التفاعل بين العلم والمستحدثات التكنولوجية والمجتمع والبيئة. 2- يشير إلى نواحي الجمال في البيئة. يعمق روح الولاء والمحبة للوطن ومكتسبات التنمية فيه. 3- يمثل المحتوى طبيعة المجتمع اليمني، ويعبر عن هويته. 4- يتضمن القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية والصحية المرغوبة.

المجال الرابع: جودة أساليب التقويم:

المعيار الأول: التنوع: -

تنوع أساليب التقويم بين (المقالية - تطبيق عملي - تقويم ذاتي). 2- تسهم أسئلة الكتاب وتدريباته في إكساب المتعلمين القدرة على تطبيق المادة العلمية. 3- يستخدم الكتاب أساليب التقويم البديل كأسلوب الملفات وتقويم الأداء. 4- تنوع في النوع والمستوى كماً وكيفاً.

المعيار الثاني: الاستمرارية: -

توفر أسئلة تقويم بنائية. 2- توفر تدريبات لكل درس ووحدة. 3- يوجد تغذية راجعة.

4- توفر أسئلة تقويم نهائية.

المعيار الثالث: مستويات التفكير: -

ثير أسئلة الكتاب عمليات تفكير متعددة لدى المتعلمين. 2- تنمي أسئلة الكتاب مهارات البحث والاستقصاء لدى المتعلمين. 3- تساعد التدريبات في تنمية مهارة المتعلمين في حل المسائل الحسابية.

المعيار الرابع: الحداثة: -

حداثة أساليب التقييم المستخدمة في أسئلة وتدريبات الكتاب. 2- استخدام أساليب تقييم تناسب مع المستجدات في مجال العلوم. 3- ارتباط أساليب التقييم بقضايا ومشكلات علمية حديثة. ثانياً: الدراسات السابقة:

سيعرض الباحث فيما يلي بعض الدراسات السابقة التي تناولت معايير الجودة الشاملة في كتب العلوم، وهي:

دراسة مجدي إسماعيل (2005): وهدفت إلى تحديد معايير الجودة لتعليم محتوى العلوم بالمرحلة الابتدائية المعززة للثقافة العلمية، وتقديم نموذج لوحدة دراسية في العلوم للمرحلة الابتدائية في ضوء الأهداف المعززة للثقافة العلمية ووفقاً لمعايير الجودة لتعليم العلوم.

دراسة ثناء ياسين (2008): وهدفت إلى الوقوف على مدى توفر معايير الجودة الشاملة في محتوى مقرر العلوم للصف الأول متوسط في المجالات التالية: -

أهداف تدريس العلوم، الاتجاهات الحديثة في تدريس العلوم، التكنولوجيا المعاصرة في تدريس العلوم، البيئة المحلية من وجهة نظر المعلمات.

دراسة بندر عسيلان (2011): وهدفت إلى التعرف على مدى تحقيق كتاب العلوم المطور للصف الأول المتوسط لمعايير الجودة الشاملة في جوانبه الأساسية (إخراج الكتاب، الأهداف، المحتوى العلمي، وأساليب التقييم)، وقد قدم الباحث توصيات ومقترحات أهمها:

إعادة النظر في تصميم غلاف الكتاب. 2- زيادة دعم الجانب الوجداني لأهداف الكتاب. منهج البحث:

تم استخدام المنهج الوصفي القائم على الوصف الكمي للظاهرة المدروسة.

مجتمع البحث:

مجتمع البحث يمثل كتب العلوم في مرحلة التعليم العام للمرحلة الأساسية في الجمهورية اليمنية.

عينة البحث:

تكونت عينة البحث من كتاب العلوم للصف الخامس الأساسي الجزء الأول طبعة 2015م (أنموذجاً) والذي يتكون من ست وحدات دراسية حيث تم القيام بتحليل وحدة جسمنا يتنفس الهواء من هذا الكتاب ص (26 - 46) كتب الحلقة الثانية من التعليم الأساسي.

أداة البحث:

لتحقيق أهداف البحث قام الباحث بتبني عدد من المعايير المقترحة لكتاب العلوم والتي تشمل معايير كل من (إخراج الكتاب، الأهداف، المحتوى العلمي، وأساليب التقويم).

خطوات بناء أداة البحث:

1- تحديد الهدف من الأداة: -

هدفت أداة البحث إلى تحديد المعايير والمؤشرات التي ينبغي تحقيقها في كتب العلوم من مرحلة التعليم الأساسي.

2- تحديد مصادر بناء الأداة: -

تم بناء الأداة بالاستفادة من المصادر التالية: -

- الدراسات التي تناولت تقويم مناهج العلوم. - الدراسات التي تناولت معايير الجودة في مقررات العلوم.

- أدبيات تعليم العلوم. - الاتجاهات الحديثة لتقويم مناهج العلوم وتطويرها.

3- صدق الأداة: -

تكون الأداة صادقة إذا ثبتت مقدرتها على قياس ما وضعت لقياسه، وللتحقق من صدق الأداة تم عرض الصورة الأولية لها على مجموعة من المحكمين المتخصصين والخبراء في هذا المجال.

جدول (1) التالي يوضح ملامح الأداة في صورتها الأولية.

المجال	المعايير	عدد المؤشرات	مجموع المؤشرات	مدى الملائمة		
				ملائم	غير ملائم	ملائم بعد التعديل
جودة إنخراج الكلام.	- فنيات الإنخراج. - نظام التنسيق. - مواصفات الصور والرسوم والأشكال	6 4 4				
جودة الأهداف	- الشمول والواقعية. - العلم والإيمان بالله تعالى. - العلم والاستقصاء	6 3 5				
جودة المحتوى العلمي	- المفاهيم الأساسية. - التوازن والملائمة. - الارتباط بالبيئة والمجتمع.	4 3 5				
جودة أساليب التقويم	- التنوع - الاستمرارية. - مستويات التفكير وأتماطه. - الحداثة والتجديد.	3 4 3 3				
	الاجمالي	53				

وبعد إجراء التعديلات على أداة البحث التي أقرتها المحكمون تم وضع الأداة بصورتها النهائية كما في الجدول التالي: -

جدول (2) ملاح أداة البحث في صورتها النهائية

المجال	المعايير	عدد المؤشرات	مجموع المؤشرات
جودة إخراج الكتاب	- فنيات الإخراج	8	17
	- نظام التنسيق	4	
	- مواصفات الصور والرسوم والأشكال	5	
جودة الأهداف	- الشمول	7	16
	- الواقعية	4	
	- تنمية المهارات العلمية	5	
جودة المحتوى العلمي	- المفاهيم الأساسية	4	14
	- التوازن والملائمة	3	
	- الارتباط بالبيئة والمجتمع	7	
جودة أساليب التقويم	- التنوع	4	14
	- الاستمرارية	4	
	- مستويات التفكير	3	
	- الحدائة	3	
الإجمالي			61

4- ثبات الأداة: -

لقد قام الباحث بتحليل الوحدة الثانية من كتاب العلوم للصف الخامس الجزء الأول طبعة 2015م (جسمنا يتنفس الهواء) كمثال على كتب العلوم للمرحلة الأساسية، ثم طلب الباحث من محلل آخر إجراء التحليل للوحدة بعد أن شرح له الإجراءات المتبعة في عملية التحليل، ثم قام بحساب معامل الثبات ما بين التحليلين مستخدماً معادلة كوبر (Cobee) لثبات التحليل.

$$\text{معامل} = \frac{\text{عدد مرات الاتفاق}}{\text{الثبات}}$$

$$100x$$

$$\text{عدد مرات الاتفاق} + \text{عدد مرات الاختلاف}$$

جدول (3) يوضح نقاط الاتفاق، ونقاط الاختلاف، والمجموع، ومعدل الاتفاق ما بين التحليلين لهذه الوحدة في ضوء المجالات المعتمدة

المجالات	نقاط الاتفاق	نقاط الاختلاف	المجموع	معدل الاتفاق
جودة إخراج الكتاب	13	4	17	76,47
جودة الأهداف	12	4	16	75
جودة المحتوى العلمي	11	3	14	78,57
جودة أساليب التقويم	12	2	14	85,71
الإجمالي	48	13	61	78,69

وقد بلغت قيمة معامل الاتفاق الإجمالي حسب المعادلة السابقة 78,69 % وهو معامل ثبات مقبول. مناقشة نتائج البحث وتفسيرها:

يتناول هذا الجزء عرضاً مفصلاً للنتائج التي توصلت إليها الدراسة حيث سيرعرض الباحث ما أسفر عنه تطبيق أداة الدراسة وتحليل البيانات.

أولاً: النتائج المتعلقة بالإجابة عن السؤال الرئيس والذي ينص على ما يلي: -

- ما معايير الجودة الشاملة اللازم توفرها في كتب العلوم في الجمهورية اليمنية؟

وللإجابة عن هذا السؤال تم تحديد معايير الجودة الشاملة اللازم توفرها في الجوانب الأساسية لكتب العلوم حيث وزعت المعايير على أربع مجالات كما في الجدول التالي:

جدول (4) يوضح المتوسط الموزون ودرجة التحقق لمعايير ومؤشرات المجالات.

المجال	المعايير	عدد المؤشرات	مجموع المؤشرات	المتوسط الموزون	درجة التحقق
جودة إخراج الكتاب	- فنيات الإخراج	8	17	1,82	متوسطة
	- نظام التنسيق	4		2,24	متوسطة
	- مواصفات الصور والرسوم والأشكال	5		1,94	متوسطة
				2	متوسطة
جودة الأهداف	- الشمول	7	16	1,88	متوسطة
	- الواقعية	4		2,19	متوسطة
	- تنمية المهارات العلمية	5		1,94	متوسطة
				2	متوسطة
جودة العلمي المحتوى	- المفاهيم الأساسية	4	14	2,21	متوسطة
	- التوازن والملائمة	3		2,07	متوسطة
	- الارتباط بالبيئة والمجتمع	7		1,71	متوسطة
				1,99	متوسطة
جودة أساليب التقييم	- التنوع	4	14	2,36	كبيرة
	- الاستمرارية	4		2,5	كبيرة
	- مستويات التفكير	3		2,64	كبيرة
	- الحداثة	3		2,5	كبيرة
				3,33	كبيرة
الإجمالي			61		

ثانياً: النتائج المتعلقة بالأسئلة المتفرعة عن السؤال الرئيس: -

إجابة السؤال الأول: -

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في مجال إخراج الكتاب؟

استخدم الباحث بطاقة تضمنت معايير الجودة الشاملة المقترحة، والتي تم في ضوءها تقييم الإخراج للكتاب بحسب المقياس التالي: -

إذا كانت قيمة المتوسط الموزون (1 - 1,67) كانت درجة التحقق ضعيفة.
 إذا كانت قيمة المتوسط الموزون (1,68 - 2,34) كانت درجة التحقق متوسطة.
 إذا كانت قيمة المتوسط الموزون $2,35 \leq$ كانت درجة التحقق كبيرة.
 ويتضح من الجدول (4) أن: -
 جودة إخراج الكتاب تحققت بدرجة متوسطة وبمتوسط بلغ (2).
 يُعد معيار نظام التنسيق أكثر المعايير تحقّقاً بدرجة متوسطة (2,24)، وهذا يدل على أن جودة نظام
 التنسيق المتبع في كتب العلوم تسم بالجاذبية إلى حد ما.
 يأتي معيار جودة مواصفات الصور والرسوم والأشكال في المرتبة الثانية من حيث مستوى التحقق، فقد
 تحققت مؤشرات بدرجة متوسطة (1,94).
 بينما احتل معيار فنيات الإخراج المرتبة الأخيرة حيث تحققت مؤشرات بدرجة متوسطة (1,82).
 إجابة السؤال الثاني: -

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في مجال الأهداف؟

يتضح من الجدول (4) أن: -

مؤشرات معايير جودة مجال الأهداف قد تحققت بدرجة متوسطة (2) ويُعد معيار الواقعية أكثر المعايير
 تحقّقاً حيث تحققت مؤشرات بدرجة متوسطة (2,19)، وتأتي تنمية المهارات العلمية في المرتبة الثانية من
 حيث مستوى التحقق، فقد تحققت مؤشرات بدرجة متوسطة (1,94) بينما يأتي: معيار الشمول في
 المرتبة الأخيرة حيث تحققت مؤشرات بدرجة متوسطة (1,88).
 إجابة السؤال الثالث: -

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في المحتوى العلمي؟

من الجدول (4) يتضح أن: -

مؤشرات معايير مجال جودة المحتوى العلمي قد تحققت بدرجة متوسطة (1,99).
 يُعد معيار المفاهيم الأساسية أكثر المعايير تحقّقاً حيث تحققت مؤشرات بدرجة متوسطة (2,22).
 يأتي معيار التوازن والملائمة في المرتبة الثانية من حيث مستوى التحقق حيث، وقد تحققت مؤشرات
 بدرجة متوسطة (2,07). بينما يأتي: معيار الارتباط بالبيئة والمجتمع في المرتبة الأخيرة بدرجة متوسطة
 (1,71) مما يدل على أن محتوى كتب العلوم تحتاج إلى مزيد من التمثيل لبيئة وطبيعة المجتمع اليمني
 والتعبير عن هويته، وتناول قضايا المجتمع اليمني ومشكلاته الصحية والبيئية.
 إجابة السؤال الرابع: -

ما مدى تحقق معايير الجودة الشاملة في مجال أساليب التقييم؟

من الجدول (4) يتضح أن: -

مؤشرات معايير جودة أساليب التقييم تحققت بدرجة كبيرة (3.33) مما يدل على مدى إسهام أساليب التقييم بقدر كبير في قياس قدرة المتعلم على التعلم الذاتي.

يُعد معيار مستويات التفكير أكثر المعايير تحققت حيث، وقد تحققت مؤشرات بدرجة كبيرة (2.64). يأتي معيار الاستمرارية، وكذلك معيار الحداثة في المرتبة الثانية بدرجة كبيرة (2.5).

يأتي معيار التنوع في المرتبة الأخيرة بدرجة كبيرة أيضاً (2.36).

جدول (5) المتوسطات الموزونة والرتب لكل مجال من مجالات بطاقة التحليل

الرتبة	المتوسط الموزون	عدد المؤشرات	المجال
1	3.33	14	أساليب التقييم
2	2	16 + 17	إخراج الكتاب + الأهداف
3	1.99	14	المحتوى العلمي

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

إسماعيل، مجدي رجب. (2005). فعالية وحدة دراسية مقترحة في ضوء معايير الجودة لتعليم العلوم في تنمية الثقافة العلمية. المؤتمر العلمي السابع عشر: مناهج التعليم والمستويات المعيارية، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، المجلد الثاني، ص 467-498.

البادي، نواف. (2009). الجودة الشاملة في التعليم وتطبيقات الآيزو. دار اليازوري، عمان، الأردن. الباز، خالد صلاح علي. (2005). تطوير منهج العلوم بالمرحلة الإعدادية بالبحرين في ضوء معايير تعليم العلوم. المؤتمر العلمي التاسع: معوقات التربية والتعليم في الوطن العربي- التشخيص والحلول، الجمعية المصرية للتربية والتعليم، كلية التربية، جامعة عين شمس، المجلد الأول، ص 111-135. بهاء الدين، حسين كامل. (1997). التعليم والمستقبل. دار المعارف القاهرة. الدليل التدريبي لكتابي الرياضيات والعلوم (2015).

الربيعي، محمد عبدالعزيز. (2013). مدخل لفهم جودة عملية التدريس. دار الفكر، عمان.

الرشيد، محمد أحمد. (1995). الجودة الشاملة في التعليم. مجلة المعلم بجامعة الملك سعود.

سرحان، الدمرداش عبدالمجيد. (1988). المناهج المعاصرة. الكويت، دار النهضة العربية.

السعدني، محمد أمين. (2009). طرق تدريس العلوم. ج1، مكتبة الرشيد، الرياض.

- العرجاء، محمد حسن. (2009). مستوى جودة محتوى كتاب العلوم للصف الثامن الأساسي في ضوء المعايير العالمية ومدى اكتساب الطلبة لها. رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية - غزة.
- عسيلان، بندر خالد حسن. (2011). تقويم كتاب العلوم المطور للصف الأول المتوسط في ضوء معايير الجودة الشاملة. رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى.
- عطية، محسن علي. (2008). الجودة الشاملة والمنهج. دار المناهج، عمان.
- عميرة، إبراهيم بسيوني. (2003). التربية العلمية وتدریس العلوم. دار المسيرة، عمان.
- الغامدي، ماجد شباب. (2012). تقويم محتوى كتب العلوم المطورة بالصفوف الدنيا من المرحلة الابتدائية في ضوء معايير مختارة. رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى.
- الفتلاوي، سهيلة. (2008). الجودة في التعليم (المفاهيم، المعايير، المواصفات، المسؤوليات). دار الشروق عمان، الأردن.
- فرج، محمد عبده. (2009). الاتجاهات الحديثة في إعداد الكتاب المدرسي مع تطبيقات تربوية في مجال الكتاب العربي الإسلامي. المؤتمر العلمي التاسع: كتب تعليم القراءة في الوطن العربي بين الإنقراطية والإخراج (15-16 يوليو)، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، المجلد الثاني، ص 85-128.
- محمود، شوقي حساني. (2009). تطوير المناهج رؤية معاصرة. المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة.
- المطلس، عبده محمد. (1996). المناهج التعليمية وواقعها في اليمن. صنعاء، المنار للطباعة والنشر.
- المنطلقات العامة لمناهج التعليم العام - اليمن، وزارة التربية والتعليم، مارس 2002.
- ياسين، ثناء محمد. (2008). محتوى مقرر العلوم للصف الأول المتوسط ومعايير الجودة الشاملة من وجهة نظر المعلمات (دراسة تقويمية). مجلة دراسات في المناهج وطرق التدريس (أغسطس 2008)، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، العدد 137، كلية التربية، جامعة عين شمس، ص 14-59.
- مواقع الإنترنت :-
- موقع إنترنت بتاريخ 21 / 11 / 2010م، مفهوم وأسس تطوير المنهج (لمحمد السيسي).
- <http://www.sea.edu.eg/forums/viewtopic.php> تاريخ الدخول : 2015/9/5م.
- مدونة الدكتور أبو مروان. (2009). أهمية وأسس تطوير المنهج التربوي. تاريخ الدخول: 2015/9/5م

نسق الفحولة في الرواية العربية

Masculinity in Arabic Novel

سكينة الروكي جامعة السلطان مولاي سليمان كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال - المغرب.

البريد الإلكتروني: errouguisouykaina@gmail.com

ملخص بالعربية:

تسعى هذه الدراسة، التي اخترنا له وسم " نسق الفحولة في الرواية العربية"، إلى تقصي وتتبع نسق الفحولة في الرواية العربية، التي تعد جنسا تخياليا بامتياز، وتؤكد بأننا قد استقرينا مجموعة من الخلاصات والنتائج المتعلقة بدراسة نسق الفحل في هذا الجنس الأدبي، هذا بعد تحليل مجموعة من الروايات العربية، كانت حقلا خصبا بامتياز، وهي: نساء المنكر (2008)، بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات (2014)، وموت مختلف (2016)، انعتاق الرغبة (2019)، سرير الألم (2017)، ولا شك أن هذه النتائج كثيرة، لكننا اقتصرنا على أهمها مؤكدين في النهاية أن هذا البحث يبقى منفثا على التطوير.

عمل السرد على التعبير عن طغيان نسق الفحولة، وفسحوا المجال لشخصياتهم بأن تعبر عنه، لذا ونحن نحلل الروايات، وجدنا أن هناك تماهيا بين العناصر المتناولة، حيث يتحدث بلسانها عن القضايا الاجتماعية والثقافية المضمر من قبيل: الهيمنة، وصناعة الطاغية، ونسخ الفحل، وكأنهم، هنا، مرآة حال الشخصيات، وقد قربنا هذا من خلال إبراز التنوعات والآفاق الاجتماعية والثقافية المترتبة عنه، في مجتمع غيب الحديث عن هذه المواضيع. درسنا نسق الفحل، واستنتجنا بأنه ظرف يشكل حتمية تجعل الإنسان خاضعا لمختلف أنواع السلط، وبناء على حتميته ورمزيته في الثقافة العربية، عملنا على التفصيل فيه من خلال رصد تجليات الفحولة في الرواية، والفحولة والصراع الهوياتي، الفحولة وصناعة الطاغية وأقول الجسد. محاور أفرزت وجوده دالة ثقافية ضمنية مضمر في الخطاب السردي، الأمر الذي يجعل الموضوع مؤهلا للوضع في مشرحة البحث، عملا على إبراز البنيات الثقافية والعقليات المتحكمة في هذا الصرح المضمر الذي تم تمويهه وتغليفه بموضوعات صريحة أعطته صفة الشرعية.

الكلمات المفتاحية: النسق - الفحولة - الرواية - الهوية

ملخص بالانجليزية

This study, titled " The Theme of Masculinity in Arabic Novel", aims to investigate as well as to trace the theme of masculinity in Arabic Fiction. The novels provided a rich ground for analysis, namely " Women of Abomination: Away of noise, near silence", " A Different Death" and " A Bed of Pain". The results led to several sets of conclusions; however, this study only focuses on those deemed important.

The narrators reflected the tyranny of masculinity through the characters. The analysis reveals a certain blend among sociocultural issues such as dominance and the creation of tyrants and portrays masculinity as reflection of the characters. To address such issues, the study showcases their implications on sociocultural contexts which views the topic as taboo.

The study concludes that masculinity inevitably subjects humans to different types of authority. Based on this conclusion and on the symbolic significance of masculinity in Arabic culture, the researcher further investigates its manifestations in Arabic Fiction, its role in identity crisis and in creating tyranny as well as body.

As well as Evanescence of the body . All these themes are embedded cultural subtexts within the narrative discourse. Therefore, more investigation on the topic is needed so as to highlight cultural structures which govern the underlying conflict and gives it a false legitimacy.

Keywords: theme, masculinity, Novel, identity

تقديم

تسعى هذه الدراسة إلى التركز حول نسق الفحولة في الرواية العربية، إبرازاً لكيفية تشكيلها وتجليها لتتخذ تلك الأشكال النسقية الثابتة التي تتحكم في الوعي الجمعي للأفراد، وتعيد إنتاج نفسها في كل مرة بنفس الحمولات الثقافية، وربما بأكثر، فتترسخ بذلك في المجتمع كلبحة حق الإنسان في العيش. أمر متجدر في سياقنا العربي الذي نرجع بدايات اهتمامه بها إلى "الفحولة الشعرية" مخترعاً بلاغياً، كما زعم بذلك الغدامي، ليعبر هذا الاختراع ارتباطه بالشعر الجاهلي و كافة التحولات الثقافية الجذرية التي طرأت في عصره، ويتجاوزه فيما بعد معيدا صياغة نفسه، في عصر الحداثة وما بعدها، معلناً الاقتحام والسريان في مختلف أنواع الإنتاج الإنسانية الأخرى، التي جسدت بدورها الحديث باسم الجماعة التي سرعان ما تحولت إلى إغراق مفرط في تجسيد الذات عبر التحول "من متحدث باسم الجماعة إلى متحدث باسم الفرد، الذي غدا معه الخطاب الثقافي خطاباً ذاتياً وفردياً يعزز قيم الفردية المشتركة" (الغدامي، 2005، ص 118).

يبدو عبر الحوارات والمسردات النصية أن فعل التأثير على الآخر والدفاع عن مصلحته كان هو الغطاء المتوسل به لكي لا تظهر الكثير من الشخصيات بأنها كانت من المتمصلحين، وعليه، فالأدوار

التي أوكلت للمهتمين قد شيدت نفسها معلمة رمزية مبالغاً فيها، عبر تصوير الباطل في صورة الحق الحارم للآخر من أحقية التعبير وأخذ المشعل، ليكون المستهدف وراء الفحل هو تطعيم الإنسان العبد والضعيف بسيالة حسية لا شعورية تسمي الوضع المزري مقبولاً به، وذلك عبر الحرمان من أحقية تحمل المسؤولية عبثاً دوالياً يكرر اللانهايات الفحلية التي كرستها شخصية الفحل المتشعرن الذي ظل يعيش تحت وطأة الخطابات، هو شعري، عبر فعل الهجرة، معناه، أن الرجل ظل يحمل ثقافة الفحل الشعري الذي أصبح ثقافياً يكرر نفسه، وهذا أوجدنا في الرواية أمام أصنام ثقافية تستلهم قوتها الخفية من الشعر، "الذي هو في الأصل ديواننا وما يحدث فيه يصبغ شخصيتنا ويؤثر في تكويننا وتوجيه سلوكنا، وسيكون مسؤولاً عن سماتنا الشخصية، بمثل ما هو مستودع ثقافي لهذه السمات" (الغذامي، 2005، ص 119).

من المنطلق السابق، نمسي بصدد إشكالية نواة أساسها الانطلاق من الرواية جنساً تخيالياً، وذلك رغبة في تتبع سيرورة نسق الفحولة الذي كان وما زال يمارس تأثيره إلى يومنا هذا، في الإبداع والإعلام، وحتى في حياتنا العادية. وسنعمل في هذه الورقة إلى تفريع الإشكالية إلى محورين أساسيين: يتعلق الأول بتقديم رؤية حول النسق وإبراز علائقية نسق الفحل بالرواية، والثاني، يتمركز حول دراسة نسق الفحولة من خلال مجموعة من النماذج الروائية، وهنا نخص الذكر، نساء المنكر (2008)، بعيداً من الضوضاء، قريباً من السكات (2014)، وموت مختلف (2016)، انعتاق الرغبة (2019)، سرير الألم (2018).

1 - رؤية حول مفهوم النسق

يطرح النسق في السياق الغربي مدلولات عديدة، ويتأرجح في الحقلين اللساني والثقافي بين مقابله بالصيرورة، كما تصوره (لويس تروله هيمسليف Louis Trolle Hjelmslev)، والخطاب كما تبناه (ميشيل فوكو Michel Foucault) في الكتاب الموسوم بـ "الهائل حول تاريخ الحق". ويعد ذلك السابق مؤسساً للأنساق وكاشفاً لانحرافات واحتجاجاتها المتصادمة المبررة بحجج دلالية علنية سميت بـ "الطب العقلي"، المعبر عن وضعيات الأفراد المحتجزين الذين اتخذ اضطرابهم وسيلة لتبرير حقهم، وفرض صورة نمطية مع الآخر الناظر لهم من منظور مختلف، هو مؤول وليس هادفاً ما دام إعلاناً للآخر بأنه يرسم حدود التخلص من المضطربين بصورة أحسن، "بخلق مجتمعات من النفايات الاجتماعية وأن ينظم بنيته الداخلية بتحديد موقع ما هو خارجه" (فوكو، ص 44). وهكذا، استأنفت تجارب الهامش عنصراً مغدياً لبنية التحتية المخبوءة، لتمظهر عبرها إطلالة ترسم معالم فكر عقلائي من تجارب المضطربين والمنبوذين اجتماعياً، كاشف عن مضمورات المستشفى وعمق الخطابات الموظفة فيه أثناء القرن الثامن عشر وما

بعده، ومفرز لكل العلاقات الجدلية الخطابية. وهكذا يسمي فوكو بانيا لمنهجه الأركيولوجي الهادف والمستنطق للأثوية الداخلية.

يدرك فوكو أن هذه المضمرات أحداث محملة وحاملة للدلالات الضمنية والمخبوءة، ومصممة ومهيكلية أيضا للبنى الداخلية للخطابات، إننا بهذا المعنى أمام منهج علمي عملي يبئر الخطابات المؤسسية التي تخفي تحتها القضايا، وكل الفلسفات القبلية التي كرس أفكارا تبينها دون وعي، غافلين - حسب تعبير فوكو - أن الحاضر صامت، نركز عليه، إلى اليوم الذي يتماثل فيه إلى الانهيار حاملا معه أوجه معرفتنا، ومنه تكون مهمة البحث عن المضمرة وفيه استقراء يضرب في عمق الذات التي تربصت موضوعاتها ولم تقاربها بنية، ونتيجة حتمية للأولى تنحو أركولوجية فوكو مبتعدة عن المدلولات المجاورة "التي هي الإغلاق عند دريدا (منغلق بدون خارج، وحدود بدون حافة)، أو مع "الإشكالية الألتوسيرية (التي هي رحم خطاب لا نظام توزع)، وهي كلها مدلولات تؤدي وظيفتها جيدا في المجال الذي تنتمي إليه، وليس لها من الميزات الإضافية ما يجعلها تقول عن نفسها أنها بنوية" (فوكو، ص 44).

يظل فوكو إيجابيا، ومحوريا لأنه يتوسل بمخبوء ونسق الإنتاج، إذ يتجاوز المؤسسة إلى البحث في خطاباتها السلطوية، السلطة التي لا تخرج من حلبة الصراع نقطة تلتقي عندها الرغبة والمتعة معا، وتقلب وفق أشكال معينة تمرر بها، وهنا تنكشف حقيقته التي تم الإسراف في تغطيتها، وكذلك السكوت عن تغطية "الركام من المنوعات والتابوات (Tabous) والحواجز التي تراقب إنتاجه وتراقب المبالغ في استعماله" (فوكو، ص 50)، ومنه فتدليس هذه الحقائق كشف أن الخطاب بشموليته يتضمن عيوباً تعترى بناه الضمنية، التي لا نكران أنها قد تنفلت من الرقابة باستعمال خطابات أخرى، تقع خارج النفوذ المحروس. تأسيسات عقلية انطلقت من اللاعقلي والتابوات للحفر في المعرفة التي "لم تكن سوى الوجه الآخر لمنشأ السلطة، وللبحث في البنية الضمنية للمعرفة (الابستمية) والدوائر المأساوية للاحتجاز الكبير. وأن المعرفة الكبيرة كانت تحمل في ثناياها السجن" (فوكو، ص 50، 51).

وإذا كان فوكو قد توفق في معالجة الأنساق المضمرة عبر الاشتغال على الخطاب، فإن الغدامي يعبر عن الموضوع نفسه، الاهتمام والتوجه بحثاً في المضمرة، غير أن الرؤية أصبحت أكثر دلالة.

يظهر عمل الغدامي حول النسق وبشكل دقيق في زحزحته للسائد والتمرد على الأعراف النقدية الجمالية الموروثة، ففي مطلع حديثه عن هذا المفهوم، ما النسق الثقافي...؟ وكيف نقرؤه...؟ وكيف نميزه عن سائر الأنساق...؟ يستأنف مجيباً بأنه يتميز بالموسوعية والشمولية، حيث يتعدى الخطاب الخاص/الرسمي إلى العام، ويأتي إما "مرادفاً لمعنى (البنية - structure) أو (النظام - system) حسب سوسير، وقد اجتهد باحثون عرب في تصميمهم مفهوم الخاص للنسق" (الغدامي، 2005، ص 76)، وصاغوا

قيمه وسماته الاصطلاحية الخاصة، التي ترتبط وثيقا بالوظيفة النسقية، التي يظهر مضمورها ماسخا لظاهر في نص اتفقت الجماهير على أنه جمالي، استبعادا "ل (الرديء) و (النخبوي) عبر شرطي الجمالي والجماهيري" (الغذامي، 2005، ص 77)، اللذين عدا من عوائق الكشف عن الأنساق المضمرة المتضمنة لعيوب وأديولوجيات مررت بذرائع متعددة، ومنه فالكشف عن الأنساق المضمرة يسمي هو مشروع نقد الثقافة. ويشغل النسق عبر الهيمنة في إطار تفاعلي، والمقصود أنها توظف خطابات خاصة بها. يدرك الغذامي أن النسق مفهوما ثقافيا هو في كنهه مركب يتداخل فيه المعرفي بالسياق، الدلالات بالتأويلات، فضلا عن اقتحام عدة مفاهيم وقضايا مجاله، ونطل هنا على الهيمنة التي تشغل نفسها في إطار تفاعلي موظف لخطابات خاصة بها، وتتضمن أنساقا لا يمكن الكشف عنها إلا بتوظيف النقد الثقافي الذي يتجاوز الجمالي إلى الحفر في أعماق النصوص، استكشافا للخبوء وتعريته رغبة في كشف الحجب الثقافية المضمرة، وعلاوة على نوع الجنس الذي يتضمن هذه المضمرة، يعطي ناقدنا مثلا بالشعر وخطاب الحب وخطاب الصعلكة، يقول: "وإذا قرأناها كأمثلة، فإننا في ظاهر الأمر نقرأ أدبا جميلا وشعرا خلابا، وعشقا رقيقا يطرب النفس، وتبدي لنا هذه الصنوف كأنها صنوف أدبية فنية عالية الفنية حتى نقبل ما فيها بدعوى جماليته، أولا، وبدعوى مجازيتها، ثانيا، ومن ثم فإننا لا نحكم منطقتها ولا دلالاتها محاكمة عقلانية، ولا مساءلة نقدية لمضمورها بما أنها قول بلاغي غير حقيقي، ولا يصح قياسه بمقياس الحقيقة" (الغذامي، اصطيف، 2004، ص 30)، حقائق وجب استجلاؤها لا سطحيا، بل تعميق البحث فيها، مساءلة لكل ذلك الجمالي، الذي ظل يلعب أوراقه مضللا الوقائع، ومقيدا الإنسان ومخضعا إياه تحت سلطة الجمالي المتغني بأدبية الأدب، التي لا ينكرها ناكر، ولا يضرب في أهميتها الذوقية باحث، بغير إغفال بأن هذا الجمالي قد حان أوان تعرية أنساقه المضمرة.

2 - الفحولة والرواية: التشكل والتداخلات

اشتقت الفحولة من مادة لغوية تتكون من ثلاثة حروف، وهي: (ف.ح.ل)، وحملت في جل المعاجم اللغوية دلالة ترتبط بالذكر من الحيوانات التي تتمتع بالقوة، ويفصل ابن منظور فيها بربطها بالذكر مصطلحا عاما يخالف الأنثى في كل شيء، ومنه، يقال: يوم مذكر أي شديد، ورجل ذكر إذا كان شجاعا قويا أيبا، ومطر ذكر، شديد وابل (ابن منظور، 1968، مادة فحل).

اهتم العرب بصناعة الكلام وكان الشعر ديوانهم وسجل أفراحهم وأحزانهم بل وحتى تاريخهم ولما ازدهر وتطور وبلغ مرحلة النضج ظهر النقد مواكبا له، وهذا أمر لا مفر منه، ما دام كل عمل يحتاج إلى آلة تقوم اعوجاجه وتحدد مواطن القوة والضعف فيه، وتعد (الفحولة) كلمة طرحت نفسها وبحدة في مجال النقد، حتى إننا نجد أنها ألفت حولها كتب لألمعيين كبار أمثال: ابن سلام الجمحي الذي وسم

كأبه بـ " طبقات فحول الشعراء"، والذي يدور حول معيرة الشعراء وتقسيمهم بناء على جودة شعرهم من خلال مفهومي الطبقة والفحولة، وقبله الأصمعي الذي ألف كتاب " فحولة الشعراء" الذي يدور في نفس الفلك باختلاف المعيرة التي اقترحها ابن سلام، وهكذا يظهر بأن هذا المفهوم متجدر في الثقافة العربية، وهذا نلمسه من قراءتنا لكل من "الطبقات" و"فحولة الشعراء" الذي اقتصر تركيزهما على صياغة معايير الفحولة بناء على البيئة والسياق الذي انتج فيه النص الشعري.

نبدأ كما جرت عادة الباحثين والمفكرين من المنظور العلي، من الأسئلة، التي لطالما كانت الأرضية المرتكز عليها لخوض غمار البحث في موضوع معين، وعندما يطرح جورج لوكاش (lukcas) ترسانة أسئلة من قبيل: كيف يأتي للرواية تصوير التاريخ؟ أن تفهمه؟ وما هو التاريخ وأين يبدأ؟ وماهي القوى التي تشارك فيه وكيف تصنع؟ وأي قسط يكون لكل منها في كل ذلك؟ آنذاك يكون الجواب ويفسح المجال، لمن؟؟، للروائي الذي أوكلت له مهمة نقل الوقائع والأحداث التاريخية؟ هو نقل يمكن أن يكون منصفا وموضوعيا، ويمكن أن يصرف خارج هذا الإطار خدمة لأجندات معينة، معناه، " إذا أوكل للروائي أن يجيب عن الأسئلة، وأن يجمع وقائع الماضي أو مادة روايته المقبلة، أتراه، بهذا الأساس المعرفي الصرف بهذا الركام من المعطيات الكمية قادرا على أن يعيد في لوحة متناسقة صادقة تعيد تركيب الماضي المتناثر في كل مكان" (لوكاش، 1982، ص 7)، هي مهمة تشير إلى أشياء ربما تظهر على السطح في قوالب متنوعة، تحيل في مضامينها على العلاقة التي تربط بين التاريخ والرواية عملا تخييليا، " هي متجددة تنامي معها الأسئلة على الدوام" (العثماني، 1990، ص 7)، وعملا على إبراز موقع تاريخ النسق؟ وهل فعلا أنصف التاريخ الإنسان ووفر له نصيبا متحدثا عما سكت عنه هو كفرد يعيش داخل الجماعة؟ كان لا بد من تتبع مسار المفاهيم في الإبداعات النقدية والروائية بشكل خاص التي تعد مثل نظيرها الشعر مدخرا للأساق والرموز السلطوية، إنه حسب تعبير فوكو في تحليله للخطاب، يندرج ضمن سيرورة أسهمت في تشكيلها البنى الاجتماعية والثقافية، التي تضمنه سلطها، رغبة في التحكم في الخطابات عبر عملية أدلجة القوانين التي تخدم فئات معينة، وتخضع أخرى للرقابة والضغط عبر جعلها تعيش تحت سلطة المؤسسة. ووفق هذا التوجه محتوم علينا أن ننادي بخروج النص إلى الوجود بالقوة والفعل، وهو وجود غير معزول عن الكاتب الذي أنتج لنا النص أو الخطاب الذي أغرقنا في جمالياته فنسينا أنه مملوء بالعيوب.

3 - نسق الفحولة في الرواية العربية

إن مقارنة نسق الفحولة في الرواية العربية راجع إلى التحولات الثقافية التي رسمها المفهوم منذ بداياته، وقد تواترت هذه لتصبغ شخصية وملاحم الرجل العربي في الرواية كما في الأجناس الأخرى، لتعلن الطبقة

نفسها في هذا الباب، ممارسة التقيء والإقصاء الذي تعرضت له طبقات اجتماعية عديدة باسمها (الفحولة) التي "ارتبطت بالطبقة (طبقات فحول الشعراء) وارتبطت بالتفرد والتعالي (الشعراء أمراء الكلام)، مثلها ارتبطت بتوظيف اللغة توظيفا مناقضا (يصورون الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق)" (الغذامي، 2005، ص 118)، عودة إلى النماذج الروائية المنتقاة نجد أن كل واحدة منها تحمل أنموذجا أو نماذج متعددة للفحل الطاغوي، وسواء تلق الأمر بشخصية (توفيق الصادقي) ووالده، وشخصية (فالح الحزاوي) في رواية "بعيدا من الضوضاء قريبا من السكات"، أو ب (والد منير الدبدوبي) وابنه في رواية "موت مختلف"، أو بشخصية الحاج (زوج كريمة) ووالدها في رواية "سرير الأمل"، أو بالشخصيات الذكورية في رواية (نساء المنكر)، نجد أنها كلها جسدت صورا فعلية لشخصية الفحل الشعري الذي استغل الحديث عن مصلحة الجماعة والفرد لإثبات الذات وزجسيتها على حساب السابقين. وهذا تحصيل حاصل جبروت قديم حبكته العادات والتقاليد من جهة، وغدته ثقافة الشعر الفحولي من جهة أخرى، وحينما نقر بأن (والد توفيق الصادقي) المتشعب بتقاليد وعادات ثقافته وثقافة الشعر العربية عن غير وعي، فإن النتيجة ستعكس استحضارا لرصيد ثقافي فاعل ومثبت للأنا الطاغوية الكابحة لمسار زوجة كانت ستقدم الأفضل لو لم يُحكَم في مصيرها، وبذلك أمست (زوجة توفيق) ضحية للفحولة عبر الزوج الذي حرما الحق في الاختيار والتعبير وتحمل المسؤولية عبر ايكالها للابن رغم عدم القدرة، وبالتالي، فحمل المشعل الفحولي تام وفارض لنفسه بالوراثة الثقافية رغم غياب الأهلية، الشيء الذي مكن (توفيق الصادقي) من حمل مشعل الفحولة، التي أضحت "جملة ثقافية ليست للشاعر فحسب وإنما للثقافة ككل" (الغذامي، 2005، ص 120)، ومن ثمة، نلمس بأن رمزية الفحل جسدية قضائية استمدت قوتها من التضخمات الشعرية الموروثة، ما صير الشخصية الأولى لا تعكس ذاتها عبر الذات والجسد فقط، بل نجدها معربة عن سلسلة من التراكمات النسقية التي صبغت شخصيات روائية ذكورية أخرى وبشكل مطرد، ما بين أن الفحل أو الفحولة جذر ثقافي مبعوث في الذوات الذكورية التي تنتصر لنفسها مقصية الآخر (المرأة) عبر اختزالها في الثابت (جسد) وتحديد الأدوار المنوطة بها مسبقا، ويتفق (والد توفيق الصادقي) و (والد منير الدبدوبي) في تشخيص الفحولة وتمثيلها، وكلاهما والدين لابنين ذكرين، بئا فيهما الفحولة بطريقة غير مباشرة، وعليه، فإعلان الذات الذكورية مكتمل المعالم القضائية باعتبارها اكتمالا فحوليا، وقد مثل (توفيق الصادقي) و (منير الدبدوبي) للفحولة من خلال تطبيق الفعل الفحولي طقوسيا على كل من (مريم الزوجة) و (الابنة فدوى)، وكذلك (فطومة)، وغيرها من النساء اللواتي كن ضحية للفحولة، لتسي عبارات التحكم التي حكمت الأمهات هي نفسها التي حددت مسار الزوجات، إذن، فالتكرار والاستمرارية جملة ثقافية غير معلنة، بل مضمرة تحت سلطة التقاليد

الحيفية ، يقول السارد: "يعرف أنها لن تتزوج ثانية لأن التقاليد العريقة التي تنتمي إليها تقتضي أن تحضن على أولادها طالما حكمت له، عندما كان يتمدد إلى جانبها لاستدراج النوم في نهاية طفولته قصصا عن جدها وأبيها وأخوالها المنحدرين من عشيرة الشرفاء" (برادة، 2014، ص 33)، ويضيف: "كلها هممت بفض البكارة، تستمهلني مريم ، فأطيل المداعبة وتحسس مكامن اللذة لأوقظ جسدها المنكمش الملمج تحت وطأة الجهد الكبير المبذول خلال الاحتفال الطويل، غير أن صياح النكافات وأصوات نساء الأسرة كانت تحاصرنا من خارج الغرفة مطالبة بالسروال، عربون الشرف الحسب الأصيل، ما جعلني في لحظة معينة أقترح جسد عروستي متغافلا عن توسلاتها وصراخها. وجدتها فعلا عذراء (....) ليلة لا تنسى فعلا، بل صورها تلاحقني إلى الآن، كما يلاحقني نوع من الندم لأتني انقذت إلى ما تفرضه التقاليد" (برادة، 2014، ص 59).

نلاحظ مما سبق أن الأنا الفحولية قد مورست فعلا، بفرض الهيمنة على الآخر/ المرأة، وهو فرض انتقالي من سلطة الأب على الأم، إلى سلطة الابن على الزوجة، (والدة توفيق الصادقي) و (زوجته مريم)، اللتين طبقت عليهما مختلف أنواع الهيمنة الفحولية السانحة لمعالم الإنسانية والمنتصرة للرمزية الثقافية، ومنه الفحولة والذكر الفحل في الروايتين ناسخ لنفسه، أمر يصير السلطة الزوجية عند الجيلين مطبقة في سياقها الثقافي الذي تولدت فيه، حفاظا على المؤسسة من المعارضة، وأيضا على النسق الاجتماعي المكتمل الذي نلخصه الباحثون في (النحن)، في حين أن (النحن) الذكوري الذي أيدت الحجج الثقافية مساره ليس إلا "نافيا للآخر بالضرورة الوجودية" (الغذامي، 2005، ص 121).

عودا على بدء، نجد أن (منير الدبدوي) نفسه ناسخا للفحولة في موطن الانتماء الأولى دبوا ممارسا الرذيلة الرخيصة بجواشي القبيلة، ومن ثمة ففعل استجلاء خروج الشخصية عن الطابع الفحولي الصرف لم يتم إلا بعد الابتعاد من الثقافة الناصخة، أمر استشفينا منه بأن نسخ الفحل قد تحرر منه إعلانا سرديا عبر اللغة الجريئة، في حين أن فرض الزوجة (كاترين) لسياق جدلية تكسير الفحل عبر علاقتها ب (لويز) وترك (منير) لا يمكن إلا أن يعلن عن مرض سيكولوجي مطروح في سياق ثقافي آخر لا يستجيب ويتوافق مع مبادئ مجتمع عربي له معتقده وفلسفته الدينية، الشيء الذي أدى إلى تفجير سلوكيات جديدة تنافي والقيم الفطرية، يقول السارد: "أستعيد جولاتي مع فطومة بعد الغروب، متسترين بالظلام، مجنحين عبر أحاديث ومناجيات كانت تنسج بيننا عاطفة، يستعصي علي أن أسميها كل شيء تلاشي بعد سفري إلى فرنسا...". (برادة، 2017، ص 8)، ويضيف: "ما يعتبره منير جوهريا في تجربته هو ذلك التناغم بين مقومات الحياة الفردية والانتماء إلى المجتمع، وفق مبادئ ترسم أفق مستقبل محتمل، وهو ما راهن عليه وحققه مع كاترين، استنادا إلى المكاشفة والبوح الصريح، لماذا هذا التعثر

وأين يكمن الخطأ إذن؟ (٠٠) عليه أن يترت. أن يعيد التفكير في تفاصيل علاقتهما. أن ينتظر. فقد يكون التعثر نتيجة توهامات استحوذت على خيال كلترين" (برادة، 2017، ص42). يعرب المقطع السردى أن (منير) لم يكن خائفا على فحولته الدبوية التي حملها من الثقافة الأم، بل كان خائفا على الهجانة الفحولية التي ستعترى ابنه (بدر) من ثقافة الأم (كلترين)، يقول السارد: "وابنهما بدر الذي أصبح رمزا مشرقا لمغامرتهم التي راهنت على تكسير الحواجز وبلورة قيم تتعدى الحدود والأحكام المسبقة هو الآن في عز المراهقة، وقد بدأ يستوعب (٠٠٠) من بلاد يعرفها بالسماع والصور، وأم تلقنه لغتها، وتحديثه عن أشياء وأناس وعادات يراها ويجاورها... هل كل هذا الصرح أصبح في مهب الريح؟" (برادة، 2017، ص42)، إن نسخ الفحل باد وظاهر في سردية (منير الفحل) عبر لغته المائلة إلى المحافظة، فهو كان خائفا على خلفه من الضياع والانصياع وراء ثقافة الأم الغربية الأصل، ومنه ففحولة (منير) التي احتشمت في فرنسا، قد أعرب عنها عبر موقفه التربوي من خلال تقديم الهيئة والصورة التي رغب في أن يرى عليها ابنه، أمر ليس وليد الصدفة، بل أخذها هو ذاته (منير) من والده الذي رباه على عادات وتقاليد الموروث الثقافي، لتجسد الشخصيات الروائية الذكورية ترسانة من المنسوخات ذات الجذر الفحولي المتشعرن. وعلاوة على ما تم ذكره، تكون الشخصيات المذكورة قد أعربت عن سيرورة نسقية للفحل عبر نقله من جيل لآخر، هو سطر ناصع تتخى تحته مختلف مظاهر الهيمنة والظغيان والتنقيص من الآخر، معلنا بأنه ليس إلا محمولا ثقافيا للهوية والأصالة والعادات المعزولة عن سياق إدراك الذوات في علاقتها بالاحترام والقبول.

وفي محاولة لاستكناه حقيقة الفحولة في الرواية النسائية، على غرار غيرها الذكورية لاستجلاء حقائق الاشتغال وكيفية التوظيف، فإننا اخترنا منها نماذج، طريق سيرنا أغواره عبر ثلاث روايات، الأولى هي "نساء المنكر" للكاتبة السعودية سمر المقرن، والثانية "سرير الألم" للروائية المغربية زهرة عز، والثالثة "اعتناق الرغبة" للروائية فاتحة مرشيد.

تنسج الفحولة نفسها مع الشخصيات الذكورية ذات الطابع الفحولي، مما يفيد بأن الفحولة ناسخ لنفسه ومتجدر في الوعي الجمعي، في الروايات النسائية كما الذكورية، لكن اللافت للانتباه هو كيفية توظيف الفحولة في الرواية النسائية عبر ارتباطها عميقا بالنظرة الجسدية، فنظرة الفحل تختصر المرأة في الجسد، ومن ثمة، ففعل الهيمنة سهل ويسر عبر هذه النظرة التي كرسها العادات والتقاليد المتجذرة في الوعي الذي عد ويعد ذكوريا، ومن وجهة نظر الساردات العريبات ولغاتهم المعربة عن عيشهن الغربية في أوطانهم تتجلى مختلف أوجه المعاناة. وقد افتتحتها (سارة) وكل نساء رواية "نساء المنكر" عبر إبراز موقفهن من الفحولة التي عانت منها البطلة مع الزوج التقليدي المعلن لحداثته الرجعية، في حين أن

فحولته تضرر تأخره في التفكير، ويتفق (الزوج) الرجعي و (ياسر) المموه لفحولته بالحدائث، إن (ياسر) حسب تعبير الساردة، ليس إلا ذكرا اختار الزواج تفاديا لنظرة الازدراء، فهو في نظره السترة والطريق المحقق لعفاف المرأة (نورة)، الشيء الذي أسهم في تطبيق وحشي للفحولة الطاغية المضمرة تحتها العنف المادي والمعنوي وترصد الثغرات التي يظهر بفحولته الثقافية بأنه راصد ومراقب وحام لها. ولعل القارئ للرواية يجد بأن نسخ الفحولة باد وتتجلى مداخله في التوافق المبدئي بين شخصية (زوج سارة)، و (ياسر) وكذلك، (زوج غادة) الذين قتلوا صفة الإنسانية، والمقصود هنا إنسانية الآخر (الجنس الآخر)، ومنه، فالشخصية الفحولية من زاوية نظر الشخصيتين النسويتين ليست إلا نفسا، خبيثة قدرة أنانية نابذة لمن وكابحة لحقهن في العيش كريما واختيار الأنسب لمن.

إن ما يمكن أن تؤكد عليه في هذا الاتجاه، هو أن الفعل أو نسخ الفحولة في الرواية قد تخضت من الشعر باعتباره المركز الذي انطلقت منه شرارة التجلي، الذي أضحى نسقا يتغذى على الذات والتقاليد من الجهة، ويمتدح من الثقافة الشعرية من جهة أخرى، هذا فضلا عن صناعته جبروتا طغيانيا تغلف بالقدس ليرر مختلف إوالياته التحكيمية التي لا مناص ولا ضير بأنها ضحمت الذات الذكورية وجعلت كل من لا يملك سلطة ضعيفا تحت قبضة ذلك الآخر الذي بواته الثقافة الأهلية لممارسة الأحكام تحت الخفاء، وإضفاء الشرعية عليها علنا لكي لا تظهر مضممراتها التي في الغالب ما نجدتها تعبيراً عن ثقافة الهامش المدنسة، هو تدنيس سيجت الثقافة جوانبه وجعلته لا ينفلت مطبقاً مبدأ الرقابة الأيديولوجية والثقافية التي لا تنفك تعبر عن الإنسان المأزوم نفسياً وعقلياً، هي أزمة شق الجسد مدخلها لتعرب الثقافات المتشعنة والفحولية بأن القضيب الذي لطالما مجدت وأقيمت له المراسم والطقوس، هو الحاكم والبؤرة التي يدور حولها الوجود، وبالتالي، فجسد ذلك الآخر (المرأة) لا يعلن في سياق تجذباته النصية واللغوية إلا عن الأمراض النفسية التي يعيشها الإنسان في عالمه، وبالتالي، نستنتج بأن تعبير الشخصيات الأنثوية عن موقفها من الفحولية قد احتل المساحة الأكبر في الرواية الأولى، إذ تعرب كل الشخصيات النسوية عن موقفها من العالم الذكوري الذي استعان بالفحولية إثباتاً لذاتيته الطاغية. لغة مباشرة خرجت عن الإيحاء لتعلن عن ذلك المضمرة الذي لطالما جوبه ووجه، بل وحتى صدور إذا ما تم التحدث عنه، وتتفق الشخصيات النسوية السابقة، وموقف كريمة "بطلة سرير الألم" من الزوج الفحل الطاغي الذي استغل المواقف للممارسة الرذيلة والخيانة وكل أنواع العنف الرمزي على الزوجة، في حين أنه كان يبرر خياناته بالعمل، هو أمر استطاعت (كريمة) أن تبرز موقفها منه، مدعية الاشمئزاز منه (ذكرا)، وأتمودجا للشخصية الطاغية، تقول الساردة: " كان الحاج، حينها رجلا خمسينيا (٠٠٠) ملا محه ضاعت وراء دهون مكدسة، يخزنها ربما لأيام القحط والجفاف (٠٠٠) يثير السخرية بعيونه الضيقة المتقاربة، سبب

افتقاره للنظر أبعد من أنفه، ربما. كانت نظراته بلهاء، وهو يغمز لي كلما التقت نظراتنا، وبيتسم ابتسامة خرقاء، بشعة. تخيلته حينما يقبل امرأة، وكدت أستفرغ ما بجوفي...". (عز، 2017، ص 77، 78). وكذلك الأب الفحل الذي استغل سداجة الأم لممارسة خطاياها البعيدة، تقول الساردة: " وعندما توصلت أمي بطلاقها، القشة التي قصمت ظهرها والسكين التي أجهزت على ما تبقى من أملها وصبرها، كانت على حافة الانهيار التام، رأت عمي المعطي شامتا لمصابنا، بيتسم بنخب وهو يمد لها الورقة قائلا: عبد الهادي تزوج بإسبانيا، ويحرك من قيده" ...". (عز، 2017، ص 79).

وهكذا تسمي الروايات المتخذة أنموذجا للتحليل ناسخة للفحولة التي ارتبطت بالذكر، فهي على غرار القصائد الشعرية (من الجاهلية وحتى المعاصرة) تجسد نسق "القيم الناسخة للآخر والتي ترى أن المكائنة المعنوية لا تتحقق إلا بإلغاء الآخرين وهذا إلغاء لا يتم إلا عبر الظلم، وهذه قيمة جاهلية مركزية، ألم يقل زهير بن أبي سلمى في منظومته الحكمية القيمية (ومن لا يظلم الناس يظلم)، ثم إن هذا الظلم جوهر قيمى وليس رد فعل ظرفي، فهم بغاة ظالمون بطبعهم الذي تؤسس له القصيدة (بغاة ظالمين وما ظلمنا - ولكننا سنبدأ ظالمينا) والفرد الواحد منهم مهما كان صغيرا أو حقيرا فإنه يفوق أي آخر من غيرهم - مهما كان موقع ذلك الآخر" (الغذامي، 2005، ص 122، 124). وبه نستنتج أن الظلم ناسخ لنفسه حتى في الرواية، والحديث هنا عن ظلم المرأة وقهرها، واستماتة قواها بذرائع التقليد وستر الآخر لها، في حين أن الأمر يضمن معاناة تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، لنبين بأن الإسلام أو الدين بريء مما ينسب إليه، وأيضا، أن الدين ليس إلا غلافا توسلوا به فاهمين إياه فهما مغلوطا، لتمرير الظلم وقتل الإنسانية التي أحيأها فينا ديننا الحنيف.

يمكن أن نفر، إذن، بأن نسخ الفحولة لنفسها قد امتدت حتى الرواية، ومن ثمة فالحديث عن نسقية الفحل فيه استحضار لسيرورة تشكله وانتقاله معربا عن معالجته لترسانة من الأسئلة الجوهرية المرتبطة وثيقا بالهوية والجذور والآخر، إن الجسد الذي يحوي كل هذه العناصر وينظمها على الأساس المقاربات النوعية متفرد ومنفرد إن تم استثماره حفرا في البنى العميقة للخطابات بحثا عن المتحكات فيها، وعليه، تشكل الفحولة في الشعر البناء الأول للنسق، لينتقل فيما بعد إلى " الخطاب العقلاني كما في الخطاب الشعري والخطاب السياسي والإعلامي. لقد انتقل النسق وترحل من الشعر إلى الخطابة ومنها إلى الكتابة ليستقر بعد ذلك في الذهن الثقافية للأمة ويتحكم في كل خطاباتها وسلوكياتها، وهذا هو المعنى البلاغي والشعري من أن البلاغية هي تصوير الباطل في صورة الحق، كما يقول ابن المقفع، والشعراء أمراء الكلام لأنهم يجعلون الباطل حقا، كما هي كلمة الخليل عنهم" (الغذامي، 2005، ص 123). أمر استلهمناه تطبيقيا على الرواية التي استنتجنا بأنها تتماشي وباقي الخطابات المعبرة عن الباطل في صورة

الحق، أو بالأحرى تشييد الشخصيات الذكورية لتتماشى ومصالحها الذاتية، هي كذلك، مغلفة بالفحل الذي أعطاها الشرعية (الفحل الذكوري) الذي سيح نفسه بالثقافة ليعطي المشروعية لمكتسباته ومبتغياته، تحت سلط متنوعة (الزوج - الأب...)، وقد أيدت هذه السلط بالجانب الاجتماعي الذي ظل متوائماً والثقافة في صناعة هذا الوجه النسقي.

3 - الفحولة صناعة الطاغية وأقول الجسد

تأملنا في الخطاب الروائي العربي، وتصفحنا لأجزائه، وعودا لاطلاع متأني لمتنه المتنوعة نجد أنه أوكل بمهمة ثقافية قبل أن تكون مجازية، توعينا، أولا، بأنها تتضمن أنساقا مضمرة تستدعي بحثا مكثفا، قبل تدوقها جماليا والتيه وراء جمال لغتها، وبمقتضى التأسيس الذي راكمه ممن سبقوا، تكون الوظيفة الأساسية هنا، هي نقد الشعريات والأنساق، والتي انتقيتها منها روايات عينة للبحث، إبرازا لمختلف تشكيلات نسق الفحولة وكيفية بنائه رمزا ثقافيا ذكوريا يجد الطغاة وبذلك ينتصر لهم، وبهذا الانتصار يميل الطرف المنهزم للخنوع والعيش تحت وطأة الطاغية، الذي صورته الثقافة العربية لنا "شخصية فحولية بخصائص تترسخ وتتقوى كعنصر مطلق القوة وكصنم بلاغي... إن هذا هو ما يؤسس النسق الذهني المضمرة، ويتولد عنه صيغ نموذجية تتكرر اجتماعيا وسياسيا وفكريا وكلها صيغ للفحل المطلق والأنا المستبد" (الغذامي، 2005، ص 199).

تعطي رواية "انعتاق الرغبة" للروائية فاتحة مرشيد مدخلا دلاليا متعدد الأبعاد للشخصية الذكورية الطاغية الراكبة على فحولتها من أجل ممارسة فعل الهيمنة على الذات الأنثوية التي حكم عليها في الثقافات العربية بأنها جسد ثابت مهمته خدمة الرجل، واستجابة أوامره عن طواعية، وقد مثلت شخصية (معمر القذافي) في الرواية السابقة الذكر أنموذجا للطاقية المستبد الذي أفلت معه الذوات النسوية وهشم جسدها ونكل به تجربة لمختلف أنواع التعذيب، (فادية) التي اختزلتها نظرتهم الدونية والتقاليد والعادات التي احتكموا لها في الجسد، وسجنتها الثقافة بذريعة الحكم عليها من هذا الجانب، ومن هنا يبدو (معمر القذافي) أنموذجا للطاقية الاجتماعية عبر فرض قيود على الجسد. ومن يمكن أن نقارب شخصية (فادية) التي جرب فيها الطاغية وسائله التعذيبية المختلفة.

جسدت شخصية (معمر القذافي) الزعيم الليبي السابق أنموذجا للطاقية في الرواية المنتقاة، حيث تعبر الساردة عنه شخصية طاغية استمدت فحولتها الطاغية من السلطة، لتطبقها على النساء المتعددات الهويات والجنسيات والأعمار، وخصوصا (القاصرات)، وقد مثلت الساردة لهذا الأنموذج الطاغية بلغة سردية

فنية تخرج عن السائد لفتح عيون المتلقي على الدهاليز المظلمة التي يعيشها الجسد المعتقل والمهشم اجتماعيا وثقافيا، عبر تجريب مختلف أنواع التعذيب والتشكل والافتضاض والاعتصاب المشوه.

في محاولة لتقديم قراءة ثقافية لشخصية الطاغية (الزعيم الليبي) في الرواية المذكورة، نجد بأن صناعة الطاغية ليست دخيلة بل مستلهمة من الجذر الثقافي العربي، ومرتبطة أشد الارتباط بالكرم قيمة أصيلة ارتبطت برواد الكتابة ومحبيها، وهي علاقة كما يزعم أهل الاختصاص (الغذامي) تتمحور حولها كل القيم الإنسانية. وقد تم تحوير القيمة الأصيلة إلى قيمة ثقافية أدت إلى " ظهور ثقافة المدح واختراع شخصية المدوح أدى إلى تزييف القيمة العربية المركزية الأولى، حيث صار الكرم هو عطاء بالمقايضة البلاغية الشعرية والكريم هو من يعطي الشاعر كمقابل للمدح" (الغذامي، 2005، ص 190)، الأمر الذي أسهم في تحوير قيمة الكرم وإخراجها عن معناها الطبيعي إلى معنى آخر أظهر طغيان العديد من الشخصيات الثقافية التي نتصنع معلنة قيما غير تلك التي تظهرها. إن شخصية الزعيم الليبي باعتباره شخصية عربية قدمت من خلالها الساردة الجوهر القياسي للكثير من القضايا التي ينبغي فك ألغازها وحقائقها.

لعل الفكرة القائلة بأن المدح تجيد لفكر الطاغية وسؤدده فيها شيء من التفكير، وهي كذلك، دعوة للبحث عن كيفية تشكل الطغاة الذين منحهم الأقلام ما ليس فيهم وما لا ينطبق عليهم، أمر عكسته الشخصية المدروسة معلنة بأنها تجذب لفعل الخير وتحب الآخر وتبحث عن مصلحته، في حين أن هذا ليس إلا وجها ظاهرا لآخر ضمني وحشي، معتصب للبراءة ومقنن لنوعياتها.

وهكذا نفهم بأن قيمة التودد للطفلة القاصر يضمم أسفله الاعتصاب الوحشي، الذي أقل معه الجسد مجربا التعذيب الجنسي والنفسي. والتعذيب هنا مصور في الرواية بوجه فردي، ليعلن عن نسقية القياس الذي لا يتعارض وجل الشخصيات الفحولية الطاغية، إذ نجد أنهما يلتقيان في أنهما معا يحملان " الأنا المتضخمة الفحولية التي لا تقوم إلا عبر التفرد المطلق بالغاء الآخر بتعالها الكوني، و بكونها هي الأصح والأصدق حكما ورأيا، ويكون الظلم عندها علامة قوة وسؤدد، والكذب عندها مباح، وتشعر بما لا يشعر بها غيرها، وترى ما لا يرون، والعالم محتاج إليها لأنها هي المنفذ الكوني ولا يستقر وجودها إلا بسحق الخصم، ولا يستقر وجودها إلا بسحق الخصم، وهي الصوت المفرد الذي لا صوت سواه" (الغذامي، 2005، ص 192، 193).

إن النتيجة الحتمية التي تفرض نفسها هنا هي أن شخصية الطاغية لم تستغل المجازية للتعبير عن ذاتها، ويظهر هذا من خلال خطابها التقريرية المباشر الذي يمكن أن ندرجه هنا في خانة الحقيقة التي تعبر عن الواقع الاجتماعي والسياسي للفحل الطاغية الممثل بالتحديد في رجل السلطة الذي لا يمكن أن تصل إليه شخصية أخرى أو تقدر على مناقشته.

إن شخصية (فادية) قد رسمت معالم شخصية الطاغية المستبد (القائد الليبي) الضارب للحمولات البيولوجية وحتى الثقافية عبر تهشيمه للمرأة ممارسا عليها شتى أنواع الاغتصاب، التي استظل ممارسا إياها تحت غطاء السلطة مجسدا دور القائد الأب للوطن، المحترم للحرية والحامي للمرأة، وبالتالي ففعل تمويه المجتمع باد وتمظهر عبر تستره تحت المبادئ الإنسانية التي يمارسها مستغلا النساء ومغتصبا القاصرات في شقته السرية التي تحرسها الحارسات المنظفات لفوضاه الدموية البشعة وغير المحترمة لمفهوم الإنسانية، إن (فادية) قد مارس عليها الطاغية شتى أنواع الاغتصاب، وهو ليس بغريب على ساحر مشعوذ يغتصب حتى الرجال وزوجاتهم، ومن ثمة، فاستغلال الجسد وممارسة الهيمنة عليه راسم لمعالم هيمنة الطاغية. إن فعل تقديس الطغاة يصير من تجبرهم نسقا طاغيا ينسخ نفسه مع كل الناس، وخاصة النساء اللواتي يعتبرهن الحلقة الضعيفة في تفحيل جبروته النسقي، وقد صورت الساردة نسق تفحيل الطاغية من خلال (فادية) التي تعبر عن نسقية معارضة في سياق القبول المقنع بالرفض (الهروب)، وقد مورس نفس الفعل على نساء أخريات (فوزية) التي قضت ثلاثين سنة بالحريم، سجن في حرمته من حرمتها، لتمارس (فادية) فعل التحريك النفسي لها عبر الثورة المحققة للخلاص من الوضعية (الهروب من الحريم)، هي ثورة عرت عن الواقع المعيش في حريم الطاغية، مكان العقليات الجامدة والأحكام المسبقة المغتصبة للمرأة والساجنة لها في غابة (الوحش)، والقضاء على الوحش قد تم فعلا عبر الثورة (التمرد على القائد من طرف شباب الثورة)، الذي لطالما تقنع بالمجازية مضمرًا تحتها نسقية الخلود الدنيوي الماخن تفعيلا لنسقيات اجتماعية مرفوضة، مثل: الدعارة والانتحار والاعتصاب والتمرد الذي لم يقدر عليه الموالون للقائد سنا بحكم تشبعهم بالتقليد الممجد له، ومنه فالثورة حملها الشباب المتحررون.

إن تحليل النسق الثقافي والاجتماعي الذي ينتمي إليه (الزعيم الليبي) نجد أنه يتوافق وبشكل كلي مع الطغاة الآخرين، حيث نلاحظ بأنها كلها شخصيات لأسياد مختلفين عن السائد، فهم مجسدين للسؤدد، لكن صورة الأول في الرواية عبر ما أعربت عنه البطلة فيه نوع من الحدة، إذ يتوج نفسه علامة نسقية مجسدة لأنموذج نسقي مهشم للذات الأخرى (الأنثى) ولاعب ببراءتها تحت ذرائع الاهتمام بالأدب، في حين أن مدح الأشخاص له ليس إلا وسيلة مغطية على جرائم ترتكب ضد الإنسان الذي يعد أدنى مرتبة منه، هي مرتبة لا تناقش أمام (السيد)، وهي متجذرة وممارسة من قبل الوعي الجمعي (شعبه) الذي جعله مركزا، مجسدا وثابت غير خطأ. كما أخرج شخصيات الهيمنة من سياق الانتقاد. لتتفق كل الشخصيات الطاغية في ديكًا توريثها التي تبين معاناتهم اضطرابات نفسية للشخصية السيادية في علاقتها بالمرأة والجنس، المبرزة بأن السلطة في يد الذكر المستبد الذي يستعمل الجنس سلاحا فتاكا لتدمير نفسيات ضحاياهم (هتلر، والقذافي).

عملت الروائية سمر المقرن على التعبير عن واقع المرأة من الهيمنة التي حاولت الانفلات من ذكورتها، وفتح المجال لتحريرها عبر تكسير القيود التي تحتزلها في الجسد، وقد بررت التناقضات الثقافية التي تعيشها المرأة عبر شخصية (سارة) التي قدمتها شخصية تخيلية تبرز موقفها من المرأة في واقعين: الأول، يمثل الهوية والجدور، المرأة في الرياض، والثاني، يمثل الحداثة والتنوير، المرأة في لندن، لتبرز السلوكيات الذكورية الهيمنة التي طبعت الأفكار المشككة لمجتمع الرياض. وتبرز الانتفاضة الثقافية عبر (سارة) التي عاشت الحياة في لندن لتفرز مقارنتها عن وجهة حدائية لا رقابة تخضع جسدها على الطاعة، وبمقتضاه، فالحرية التي مارستها (سارة) تعكس سردية الخضوع الذي لم تستطع التخلص منه عبر المشاعر المضربة التي بتها فيها ثقافتها الأم. إن تمثل الجسد (الذات) جعلها تبحث عن سردية مغايرة لتهرب من الرياض وهيمنتها التي لا تخرج عن سياق مراقبة الآخر لمعاقبته، إلى ثقافة الانكباب على الذات لتطويرها، وبين هذه وتلك يصير الانشداد عربونا في الثقافة الأم، التي كلما عادت إليها تحجبت وحجبت وجهها لتفادي متابعة الآخرين، ليكتسي التحرك الحرياتي في ثقافة الذات المهيمنة هوية مزورة تنادي بحرية تعاش تحت النقاب التي تمارس تحته كل المرفوضات، وبه أضحى النقاب لا سترًا للمرأة ولا مختارًا عن قناعة، بل ستار للعديد من الانحرافات الأخلاقية مثل: الدعارة والبغاء والجريمة....، هي جرائم تغطت تحت سلطة الذكورية، في حين أن التحدي الذي يطرح نفسه، ليس هو تحجب المرأة، ولكن احترامها ذاتًا، واحترام قراراتها التي لا مرام أنها منفصلة عن غرائز الجسد ومكبوتاته، عبر الاعتراف بها كيانًا له مبادئ تقبل بها مختلفًا قادرًا على البوح وفسح المجال لها لإعلان ما تهدف إليه بعيدًا عن النظرة التي تحتزلها في الجسد.

إن موقف الساردة من النقاب قد عبرت عنه من منطلق فلسفي وجودي، قوامه الحداثة ومرجعياتها الفلسفية التي تربط الوجود بالذات، الأنا بالآخر، هو استخلاص صوري لستر الجسد الذي نثقل به الأثوية المنشدة للذكورية للممارسة المحذور، الذي يسمي معه الرجل السعودي هو الذكر الوحيد من بين رجال العالم، ومن ثمة، فاعتبار نفسه قطب الرحي شيد معلبة وجود حضاري في فلسفة الساردة التي تمرد على ثقافة ربط الجسد الأثوي بالفسق

رسمت الساردة مسار تشكل جسدها وفق إطارين زمنيين اثنين، الأول طفولي، وثاني شاب، يعكس الطفولي منه انشدادها إلى التحرر، وهي في السنة السادسة من عمرها، التي كانت فيها مهووسة بحب الحياة بحديقة "الهايدبارك" بلندن، لتجسيد نفسها في الكبر أمام صراع مع الذكورية بعاداتها ومحمولاتها، تمرد تساءلت عبره البطلة عن ماهيتها في هذا الوجود في ظل الطغيان الذكوري، الذي فحل الوجود وجعله من نصيب الذكر، ومنه فالأمر يسير على الذكر، أي أنه يمكن أن يخطئ وتغفر له الثقافة، لكن

المرأة ليست لها أحقية ذلك، أمر يعكس تعاسة الشخصية وبؤسها في مجتمعها الذي لم يمارس فيه إلا التضيق الحرياتي.

وبين الرقابة الثقافية والتحررية الفكرية استطاعت أن تعبر عن موقف انتمائها المححف للرياض ورغبتها في اقتلاع هذا الانتماء مقابل الهروب إلى مكان يتيح للمرأة حرية التفكير دون رقابة في دولة الديمقراطية والقانون واحترام الحقوق الإنسانية وتقدير المرأة في الغرب، وهذا فيه دلالة على قيمتها ومشعل التنموي الذي تحمله، وفي محاولة لإبراز مقارنة بين ما في الغرب وفي ثقافتنا العرب، نجد بأن مطالبة المرأة السعودية محتشمة في مجال مطالبة المرأة بحقوقها، إذ يتم الاستياء والخوف من الحديث حتى عن أبسط حقوقها، مثل: الحق في سيطرة السيارة والتعبير عن رأيها، وهنا تقيم الساردة تماهيا نسقيا بين شخصية (سارة) المطالبة بأبسط حقوقها وشخصيات نساء العالم العربي، لفهم مما سبق درجة الحضيض التي وصلت لها المرأة العربية. وهناك توافق مبدئي بين الساردة والمؤلفة، اللتين تؤمنان بأهمية المرأة في تحقيق التغيير، فلا أحد قادر على تغيير هذه الوضعية إن لم تغيرها هي، لكنها تبرز في الشق الأكبر من النص بأن المرأة لم تستطع مسك ولو القليل من الحقوق في مجتمع الرياض الذي حرم المرأة من الأساسيات، إن كل هذه الظروف تبرز تجليات الهيمنة الذكورية التي تدين الانشداد لها تدهورا للمجال الحقوقي النسوي، وذلك بتعرض الحقوقات والمناضلات للقمع، ومن بين المناضلات نجد (سارة) التي سجت وهي تبحث عن الخلاص.

هناك تمزق نسقي بين ما ترغبه الذات وتطمحه (حرية التفكير، تحرير الجسد من النظرة الدونية، واختزال مكان المرأة فيه) وبين ما بنته الثقافة السعودية التي تعد أكثر الثقافات التي توهم الناس بأنها تستمد قوتها من الدين، في حين أن الأمر لا يتعدى التغطي بهذا الصرح البريء لبناء وتشديد معلمة ذكورية طاغية ترضخ المرأة وتكبح حتى حقها في الدفاع عن نفسها، ويرجع هذا إلى المبدأ الثقلي الذي يتنافى كليا مع المبدأ العلمي الباحث في حقيقة الأشياء، ولعل المطب الذي سقطت فيه الذكورية الخليجية هو عدم التفريق بين اللذة والوظيفة الجنسية، إذ تنظر للجسد دائما وظيفيا ومحتكا لفرادة التطبيق الصارم، ومنه فتحقيق الذات منتفي لأنه في نظرهم منبع المعاصي والخيانات، إن فكرة النقل التي انتصرت لها الثقافات العربية، على وجه التحديد صيرت نسق الانشداد طاغيا في ثقافة النساء والرجال، وهذا بلورته نساء الروايات المحللة، غير قليلات منهن التي أعلنت في فلسفاتنا المبدئية أنها تنشئ التغيير لكن المجتمع يكبحها والثقافة تقيدها.

إن فلسفة الانشداد باد وواضح، والمقصود انشداد الجيل السابق (أم توفيق، مريم، أم منير الدبدوبي) لثقافة الذكورية في الرواية الذكورية كما في غيرها النسوية، وهذا يجعلنا نؤكد على فكرة هيمنة النسق في

الوعي الجمعي، غير أن النسائية كانت أكثر جرأة في التعبير عن هذه الهيمنة التي عدت متجذرة، ويجب اقتلاعها لتحرير المرأة، الذي لا محالة مؤداه الحقيقي هو تحرير من الأفكار المتأسلمة والليبرالية المتأسلمة، مما يقوضها ويتحكم فيها سلطويا، فالسلطة قد تحكمت في كل الفئات الذكورية ومكنتهم من آليات قمعية، قعت الجسد الأنثوي واعتقلته بدعوى، هو الزلة ومركز الخطأ، في حين أن الخطأ مركزه ومنبعه التصور والتمثل الذي تجدر وتكبر، وجعل البطش والظلم التيمة التي تجمع كل أوصاف المرأة في وعاء للمتعة والتسلية والاستغلال، وحتى إن تمردت وقررت التغيير فهي تجابه من قبل سلطة الأب أو الزوج أو المجتمع، التي تغطي بكل ما أوتي من أردية حتى لا تؤجج الأوضاع، ومن هنا نخص بالذكر وضعية الرجل الذكر الذي يربط غرائزه وخطاياها بالمرأة الخطيئة، وهنا نستحضر نسق الخطيئة الأولى الي ارتكبتها حواء فأخرجت آدم من الجنة، حيف جعل المرأة محاکمة باسم الخطيئة، التي صيرت المرأة تحت غفران الرجل وكأنه هو من سيسلمها مشعل الجنة، وقد استمر النسق ينسخ نفسه إلى أن صار قانونا ثبتت به الفحولة، واحتفي فيها بالأنشداد قتلا وسجنا، بل والأكثر من ذلك، تقام باسمها أعراف تحكم على المرأة بأنها هي العدو اللدود للرجل باسم الشريعة، فباسم الشريعة الإسلامية استطاع المتأسلمون أن يحكموا على المرأة بالسجن والجلد وحمل مشعل العار (سارة، فدوى)، وباسم العلمانية السعودية دمرت العلمانية وأحلت البطش والجور عوض العدل، وبذلك تلصق وتلفق كل التهم الكيدية إلى المرأة المناضلة، التي لظالما كانوا يدعون حريتها، وينددون بها، الدفاع عن المرأة وتحريرها ليس إلا حبرا على ورق.

ويمكن أن نؤكد بأننا أمام نسقية فحولية أخرى، هي تلك التي تفرضها المرأة الزوجة بكل العادات والتقاليد التي حملتها من الثقافة التي ربت فيها القدرة على القهر الممجد للمحاكاة الثقافية، ومثل لهذا النموذج الذي سنسميه الجسد المنشد للفحولة بالزوجة والأم (مريم)، وكذلك ب (زوجة فريد) في رواية "انعتاق الرغبة للكاتب فاتحة مرشيد، والتي نجد بأنهما مثلتا نموذجا لواقع الفحل المسيطر والمسير من طرف المغلوب على أمره. ويعرب الأب هذه النسقية في موقف سردي لوجهة نظره تجاه الآخر التقليدي الذي يربط البيت بالأب باعتباره هو السيد والحاكم، وقد كان ينسب البيت ل (مريم) المكتفية بتربية ابنها لوحدها، نحن هنا أمام نسقية تنسخ نفسها، وهي تلك الجامعة لقصة مريم عليها الصلاة والسلام ب (مريم) الشخصية، فكلاهما تحملتا أعباء تربية الابن لوحدهما، ومن ثمة ف (عيسى عليه الصلاة والسلام) وفريد، هما سببا الخلاص، الأول خلص البشرية من الشرك والكفر، والثاني مخلص الثقافة من الذكورية.

يمكن أن نؤكد، إذا، في هذا الاتجاه بأن سيناريو (فؤاد) يعيد سيناريو والده الذي وجد نفسه مجبرا على عيش مسار ثقافي مرسوم، وبالتالي، فسردية وجوده ماتحة من الآخر المنشد للفحولة، ليسم التمزق ملامح

(فؤاد) الحائر بين كيانه الحقيقي وطموح والدته، أمر سرعان ما فتح المجال إليه لمعانقة الحقيقي، الذي لم يتحقق إلا بموت المنشد للفحل (مريم والدته)، والابتعاد عن يكرس غريزة حب التملك (زوجته)، ليصالح والده (عز الدين) الذي تحول إلى (عزيزة)، ومنه فإنشكالية التصالح مع الماضي اكتشف عبرها الظالم الحقيقي (حسب وجهة نظره وتصوره)، المفرز لجدلية المظلوم المغلوب على أمره لا شيء سوى لأنه اختار طريقه، وهو ذلك الشخص الذي لم يمت ضميره ولم تقتله الفحولية، عبر تتبع أخبار الابن طوال حياته إلى أن ماتت والدته، وهنا قدمت له الحقيقة الوجودية كاملة غير منقوصة، ليدرك عبرها الابن ماهية الوجود الحقيقي الذي يصير الهروب السردى عودة إلى الفلذة. ونضيف، بأن (فادية) و (عزيز) يتفقان في تكسير الانشداد إلى الفحولية التي جسدت ملا محها الزوجة السلطوية المفتعلة للمشاكل، المعقدة التفكير، المدمنة الفايبوكية التي تصدق كل ما تراه على مواقع التواصل الاجتماعي، المفحلة للعشق عبر تملك الرجل، وقد تحول المسار السردى لشخصية (فريد) من هذا الاتجاه الفحولي الصرف إلى آخر حدثي مع (فادية) المحترمة لرغباته بذكاء، والمهتمة بالأمر التي أعادت ارتباطه بالموسيقى التي منعت والدته من تعلمها بوصفها عالم الشواذ والفنانين الذين ليسوا رجالا حقيقيين. وإذا كانت (فادية) هي المكسر الفعلي لفحولة (الزوجة)، فإن (عزيز) قد قام بنفس العملية مع انشدادية ذكورية الأم، وذلك عبر تقديمها لمسار وجودي سردي لواقعة الوالد الذي الصقت به كل التهم وهو يحاول البحث عن الخلاص، وبالتالي فقرة الذكورية تام عبر التمرد الفعلي على القضيبية الكاشفة لمسار هروب الأب.

إن شخصية (فريد) في بحثها السردى عبر تقنية استرجاع الماضي، وجدت أن سلطة الأم كالجحة ومختارة لسياق وجود الفحل، لذلك وجدناها تبني مشروعها بتؤدة في ظل انحلال الأب أخلاقيا، حسب تعبيرها، ونفهم بأنها تعد الفن مهنة لا تليق بالفحول والرجال، مما بين بأنها تبني فكرا ذكوريا كانت تحرره منه نوعا ما (العمة ربيعة) التي كانت تؤمن بأحلامه. وفي محاولة لإقامة تولى بين الشخصيتين نجد بأن الأولى منغلقة وسلطوية، بينما الثانية تتماهى سرديا ووجوديا و(فادية) و (عزيزة) اللذين احترما الحق في الاختيار، وقد نحا كل منهما انفتاحا شاملا على الحدائث وتكسير الحزن السلطوي الذي تخضعنا إليه الثقافة العربية المكرسة للطاقة السلبية، التي سرعان ما عوضها (فريد) بالطاقة الإنسانية الإيجابية التي أسهمت في تكسير القيود والأغلال تخلصا من عبودية الثقافة بعبادتها وتقاليدها الموروثة، وبالتالي، فثنائية الطبيعة والثقافة حاضرة لمساءلة الذات والوجود الطامحين لما يريدانه في محيط انتمائي يكثر لكل التفاصيل التي لم تتحقق إلا بموسيقى الغوسيل التي دفعته لتبني الأفكار المجسدة للتعايش والسلم والتعصب.

خاتمة

وخلاصة لما سبق، تؤكد بأن الرواية من الأعمال التي تبنت العديد من الأنساق المضمره، التي اشتغلنا منها على نسف الفحولة، من خلال استقراء مجموعة من الروايات العربية (بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات، وموت مختلف للروائي محمد برادة، و نساء المنكر للروائية سمر المقرن، ورواية انعتاق الرغبة لفاحة مرشيد، ورواية سرير الألم للروائية زهرة عز)، أملا في الوقوف عما تضمه تحت الفحولة من المنظور الثقافي، وهو مختلف عن سابقه، أحالت إليه النتائج المستخلصة التي وجدنا فيها أنها تحمل دلالات جديدة تحدد عملية الدور الاجتماعي والثقافي وعلاقتها الرمزية ودلالاتها في تجسير الاتجاهات التي تعيد قراءة الباطن وإدراكه عبر ربطه بالظاهر.

قائمة المصادر والمراجع

المتن الروائي

- المقرن سارة (2008)، نساء المنكر، ط1 ن دار الساقى.
- برادة محمد، بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات، (2014)، ط1، دار الآداب.
- موت مختلف، (2016)، ط1، دار الفنك.
- فاتحة مرشد، (2019)، انعتاق الرغبة، ط1، المركز الثقافي العربي.
- زهرة عز، (2017)، سرير الألم، ط1، دار روافد.

الكتب

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، 1968.
- الغدامي (عبد الله)، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005، بيروت، لبنان.
- الغدامي (عبد الله)، اصطياف (عبد النبي)، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، ط4، 2004، بيروت، لبنان.
- فوكو (ميشيل)، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، التنوير ط1.
- الميلود (عثمان)، شعرية تودوروف، عيون المقالات للنشر، عيون المقالات، الدار البيضاء، 1990، ط1.
- لوكاتش (جورج)، الرواية التاريخية، ترجمة صلاح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، 1982.

تعليمية المفردات

المفاهيم الخاطئة حول المعجم: عقبة أمام تدريس المفردات في الفصل الدراسي (مقال مترجم)

Le vocabulaire et son enseignement

Idées reçues sur le lexique : un obstacle à l'enseignement du lexique dans les classes

Alise Lehmann Université d'Amiens,

الباحثة / هند العنيكري، المدرسة العليا للأساتذة - جامعة المولى إسماعيل - مكّاس / المغرب

Hindeelanigri19@gmail.com

الماستر المتخصص: المناهج اللغوية والأدبية لتدريس اللغة العربية

التخصص: اللسانيات التطبيقية

ال ملخص:

يسعى هذا المقال بشكل أساسي إلى تقديم تقرير حول أهم توجهات مجالات العمل التي تستخدم على نطاق أوسع لتدريس المفردات خلال ثلاث سنوات الماضية مما أدى إلى نوع من الضعف والجفاف في الدروس المستفادة فأضحت بذلك أقل فاعلية واستعمالاً.

الكلمات المفتاحية: المعجم - المفردات - تدريسية

Resumé

Cet article permet essentiellement de rendre compte des orientations des pistes de travail les plus répandues pour l'enseignement du vocabulaire durant les trente dernières années, qui ont abouti au tarissement de leçons décrochées, considérées de moins en moins utiles et efficaces.

En contrepoint, ce texte évoque également quelques pistes plus pertinentes aujourd'hui pour mettre en œuvre des activités autour du vocabulaire en classe, dans le contexte des programmes de 2008.

Mots clés : **lexique - vocabulaire – didactique**

Summary

This article essentially makes it possible to report on the orientations of the most widespread avenues of work for vocabulary teaching over the last thirty years, which have resulted in the drying up of unhooked lessons, considered less and less useful and effective.

As a counterpoint, this text also evokes some more relevant avenues today for implementing activities around vocabulary in the classroom, in the context of the 2008 programs.

Keywords: lexicon - vocabulary - didactics

مقدمة

لقد كانت الملاحظة بالإجماع في كون تدريس المفردات في الفصول الدراسية يطرح مجموعة من المشاكل كما أن المدرسين غير مكونين بشكل كافي في مجال المعجمية وبالفعل أن المعجم قد أضحى موضوع نقاشات متعددة في اللسانيات | علم اللغة الأمر الذي أصبح يتيح للمرء أن يحاجج عن تعدد المقاربات وعن النماذج والمناهج النظرية لشرح صعوبة "تدرسية / تعليمية" المعجم. كما نتناول مشكلة أخرى وهي الأفكار الواردة حول المعجم والتي تتم مشاركتها بدرجات متفاوتة بواسطة جملة من المتحدثين والمعلمين، ويشكلون بذلك عقبة أمام تدريس المفردات ذلك أنهم يشكلون لمجموعة من الأفكار المسبقة التي تتفاوت بين الأقل والأكثر وعياً والموروثة لبعض منهم نتيجة لتقليد تعليمي متشبث به، كما أن هذه التصورات ليست حديثة لأن مجموعة من اللسانيين والديداكتيكيين ضمنوها في بحوثهم.

وبهذا سنقدم لعدد معين من الأفكار الواردة عن المعجم وسنعارضهم بمفاهيم لغوية أساسية وهذه المفاهيم مرتبطة بعلم المعجم، مع مراعاة المشاكل المطروحة من خلال تدريس المعجم والذي يمكن من خلالها تطوير الإبداع التربوي للمعلمين.

1. المفاهيم الخاطئة حول التصميم العام للمعجم

1.1 المعجم لأتحة من الكلمات / المفردات

إن التصور التقليدي للمعجم يعتبره قائمة مغلقة وغير منظمة من الكلمات، وكلّ كلمة لها معناها الخاص المنفصل عن بقية المعاني. لكن الدراسات المعجمية النظرية تعتبر الوحدات المعجمية ليست كياناً منفصلة بل هي تترابط ضمن نظام المعجم بعلاقات دلالية متناسقة. فكلمات مثل "إنسان، بشر، شاب، عجوز، فتى" تحيل على علاقات دلالية نسقية من بينها: الاشتراك، الترادف، الاحتواء، الحقل الدلالي وقد تم الحفاظ على هذه الصورة الخاطئة عن المعجم انطلاقاً من القاموس الذي يعتمد في ترتيب مسمياته على الترتيب الألفبائي لكننا على علم بأن المعجم هو عبارة عن تنظيم داخلي، فالكلمات فيما بينها تحافظ على العلاقات المعنوية القائمة بينها (مجال الدلالة المعجمية) وعلاقات الشكل (التشكل المعجمي) وترتبط ببعضها البعض من خلال علاقات تركيبية، لذلك لا يمكننا دراسة كلمة ما منفردة أو بمعزل عن السياق الذي وردت فيه أو حتى تقديم قوائم الكلمات للطالب بهدف حفظها كما يتم دراسة الحقول المعجمية من البحث عن مواضع الكلمات المعطاة خارج سياقها¹. وبالنظر إلى الطرائق السابقة في تعليم المعجم نجد أنها اعتبرت المعجم كما هائلا من المفردات التي يجب على المتعلم حفظها

1 إن تدريس قوائم المفردات لا يمكن من فهم واستيعاب الوظائف اللغوية.

واستظهارها، لكن ذلك التصور في التعلم صادف العديد من الصعوبات والعوائق في التواصل، فحفظ المفردات ومفاهيمها لا يضمن القدرة على استعمالها تلقياً وإتاجاً. (إضافة المترجم).

1.2

أسبقية النهج المرجعي في المعجمية وأولوية الاسم في المفهوم الشائع للمعجم ينظر له على أنه الوسيلة التي تجعل اللغة تظهر بأكثر الطرق وضوحاً في اتصالها بالعالم بسبب الوظيفة الإسمية (تسمية الأشياء /المسميات). وكنيجة تربوية تُعطى أهمية متزايدة للأسماء في التعلم (على حساب الفئات النحوية الأخرى مثل الفعل) لكن لا توجد علاقات بين كلمات وأشياء، فالمعجم ليس نسخة بسيطة من الواقع، له هيكله الداخلي الخاص به. هذا المفهوم الاختزالي للمعجم والذي من خلاله تم إعطاء تسميات بسيطة للأشياء (بمعنى لكل شيء مرجعه الاسمي)، والتي من الممكن أن تظهر في عبارات معينة في الكتب المدرسية إذ نجد على سبيل المثال؛ بعض التعليمات المطلوبة من الطفل والتي تتمثل في البحث عن كلمة معينة في توضيح معين أو رسم ما وهذا النوع من التعليمات من شأنه أن يعوق عملية التعلم لأنه يحافظ على الخلط بين الكلمات والأشياء وحتى ولم تكن المهمة سهلة ينبغي الحرص على تعليم الطفل التمييز بين المستوى المرجعي والمستوى اللغوي، والحرص على توظيف إشارة مرجعية للعلامة واستخدامها ذاتياً وذلك من خلال تقديم بعض العبارات المساعدة على سبيل المثال :

Tels que le chat a quatre pattes le mot chat a quatre lettres est ce que le mot chat a une moustache ?

Est-ce que le chat a une queue ?

* القط لديه أربعة أرجل وكلمة قط مكونة من أربعة أحرف هل كلمة قط لها شارب؟ هل كلمة قط لها ذيل؟

كلمة "قلم" هو ما يرتسم في الذهن من مدلول (الأداة التي نكتب بها). هذا المفهوم يختلف عن القلم في حد ذاته (المرجع المتحدث عنه référent) فمعنى الكلمة (قلم، أسد، نور..) ليس الأداة أو الحيوان أو الضياء الذي نراه بأعيننا في وجوده الحسي بل ما نرسمه بأذهاننا من معنى حتى في غياب تلك الأشياء فلو قلت لك "ديناصور" فإن المعنى سيكون صورة ذهنية ولا يمكن أن يكون شيئاً حقيقياً يوجد أمامك (إضافة المترجم).

وبهذا فيعتبر الانعكاس اللغوي مكوناً أساسياً للاكتساب فالطفل منذ سن مبكرة يكون قادراً على أداء هذا النشاط.

1.3 تعريف المعجم على أنه مجموعة "الوحدات المعجمية"

هذه النظرة الضيقة للمعجم قديمة وينبغي تصحيحها من خلال الانطلاق من نقطتين رئيسيتين، ويتكون المعجم من جميع مخلفات اللغة وهي:

المقولات المعجمية (الأسماء الأفعال الصفات..) وما يسمى بالمقولات الوظيفية \ التركيبية (حروف الجر، الضمائر)، كما أن حروف الجر تأخذ مكانتها في تدريس المعجم في الفصول الدراسية، ومثال ذلك:

- تطبيق: ضع الحرف مع الفعل المناسب (ب، من، على، في، عن)

- لم أقتنع..... ما قاله صديقي

- نوه المدرس..... الطالب المجتهد

- عثرت..... خاتمي بين كومة الملابس

- غضب الأب..... ابنه المتهاون

- استند المريض..... الحائط

- شك الزبناء..... جودة المنتج

- ابتعد الراجلون..... جانب الرصيف (النهبي، 2020) (إضافة المترجم).

• دراسة التضاد كعلاقة دلالية يمكن من تحليل تعدد المعاني في البنيات التركيبية... وبهذا فكانت من بين أبرز القضايا الدلالية الأخرى التي تطرحها تلك العلاقات بين الوحدات الدلالية (العمري):

أ- الاشتراك : (polysimie) اللفظ المشترك هو الدال الواحد الذي يعود على أكثر من مدلول، فمثلا نجد في المعجم ألفاظا تدلّ على معانٍ متعددة:

العين: [عضو في البدن] * العين: [مصدر الماء] * شجن (الحزن/ هوى النفس/ الحاجة) * العم: (أخو الأب/ الجُمع الكثير) * الجون: (الأسود/ الأبيض) * الأرض: (كوكب/ أسفل قوائم الدابة/ الرعدة/ الزكام).

وقد نجد نوعا مخصوصا من المشترك وهو وجود دال واحد لمدلولين متعاكسين ويسمى التضاد (opposition) ف"بان" لفظ يعود على الظهور والابتعاد. لكن ما الذي يجعل المتكلمين يستندون إلى نفس الدال للتعبير عن مدلولات مختلفة؟ لماذا يقتصر المتكلمون على لفظ واحد لتأدية معانٍ مختلفة؟ هل يتعلّق الأمر بمجرد اقتصاد في الوصف؟

ثمّة أسباب كثيرة اجتهد علماء الدلالة في فهمها لتفسير ظاهرة الاشتراك وهي تتعلّق بحيوية اللغة في الاستعمال فالمعجم ليس قائمة مغلقة وجامدة من المعاني بل هو أبنية دلالية تفاعل وتطور. يمكن أن يكون سبب الاشتراك بلاغيا فما يجعل نفس اللفظ يعود على أكثر من معنى هو دلالاته المجازية فلفظا (عين، أرض) كلاهما يحمل دلالة متكررة في سائر المعاني (السيلان، الأسفل). ويمكن أن يكون تطوّر

الاستعمال سببا في محافظة اللفظ على دلالة قديمة واكتساب دلالة جديدة، ويمكن كذلك للتجربة الثقافية للمتكلمين أن تكون سببا فطريقة بناء البيوت عند بعض التونسيين تجعل لفظ "صحن" حاملا لدلالة جديدة تختلف عن دلالاته في المطبخ.

كانت النظرة التقليدية تحصر الاشتراك الدلالي ضمن نفس القسم النحوي فيكون الاشتراك الدلالي بين معاني الأسماء أو معاني الأفعال أو معاني الحروف. لكن النظريات العرفانية الحديثة توسّعت في هذا المفهوم كثيرا ومن أعلامها (Sweetser 1984 ; Brugman 1983 ; Lakoff 1982 ; Traugott 1986) ومن نتائجها أن الاشتراك يمكن أن يكون بين كلمتين تنتمي إلى قسمين مختلفين: (يزيد/يزيد). ويمكن حسب بروغمان أن يكون هذا التعدد الدلالي مدخلا لترتيب تلك المعاني ترتيبا زمنيا بناء على تطوّر دلالي في معنى الكلمة (عين: 1-عضوالبصر 2-مصدر الماء 3-جاسوس...). وتحديث كلّين فوش في هذا الإطار عن دلالة نواة منها تنشأ بقية الدلالات في المشترك تباعا. (العمرى)

وقد شكّلت قضية الاشتراك الدلالي من الاهتمامات المركزية التي حاولت نظرية الطراز إيجاد تفسيرات لها. يقول لايكوف (1987): "يمثل الاشتراك الدلالي حالة خاصة من عملية المقولة الطرازية حيث تكون معاني الكلمة الواحدة أمثلة لمقولة واحدة" [1987، 378]. وتشير نظرية الطراز في مختلف مراحلها إلى وجود دلالة طرازية في المشترك تكون هي الأكثر بروزا وتمثّل دلالة أصلية منها تنبثق عبر الزمان بقية الدلالات. ولذلك اعتبر كثير من اللسانيين أن المعاني الفرعية هي نوع من الضجيج أثناء عملية المقولة فتنتج معاني فرعية حول المعنى الأصلي. لكن نظرية الطراز تشير إلى أن المعاني ليست مجرد فروع بل هي معاني جديدة تنشأ عن الأصل المادّي على سبيل المجاز والمشاكلة والمجاورة.

ب- الترادف: (synonymie)

يُعرف الترادف بأنه ارتباط دالّين أو أكثر بنفس المدلول. فمثلا (طريق / ثنية / درب / سبيل / مسار) جميعها دوالّ تعود نفس المعنى (المسلك الطويل الذي نقطعه للوصول إلى منتهى). كما نجد أفعالا لها نفس المعنى تقريبا: [قال، تكلم، تحدّث، نطق]. فيسمى كلّ لفظ منها مرادفا. (synonyme)
مثال:

• تطبيق: اربط بين المترادفات:

- جمهور راقى
- منبج جماعة
- استاء طريقة

- أعجبي أسف (النهبي، 2020) (إضافة المترجم).

يكون الترادف مطلقاً تماماً فيحدث بين كلمتين خارج كل سياق ومهما تغيرت المقامات وهو نادر ويتعلق غالباً بأسماء الأعلام وتسمية نفس الشيء باسمين اثنين ويكون ترادفاً جزئياً سياقياً: وهو الأكثر انتشاراً في العلاقات الدلالية (ملاً / شغل الوظيفة) ويحدث بسبب السياق التركيبي.

ونلاحظ وجود فرق بين نوعين من الوحدات المعجمية في نظام المعجم: وحدات معجمية لها استقلال معجمي: تسمى أيضاً) صرفم معجمي (morphème lexical أو لفظم مستقل) مثل: حصان، كون، قلم، نور...

وحدات معجمية ليس لها استقلال معجمي: تكون مرتبطة بغيرها وتسمى "صرفم نحوي" (gramème/morphème grammatical) أو ("لفظم وظيفي أو تابع: مثل: تـ، أن، من، لو، تـ...)

تقسم الوحدات المعجمية إلى أنواع بمقاييس مختلفة: حيث تكون بسيطة أو مركبة أو سياقية:

- الوحدة المعجمية البسيطة: كأس، كتاب، صاروخ، أمل...
- الوحدة المعجمية المركبة: ميتالساني، برمائي...
- العبارات السياقية/التعابير المسكوكة: كلمات مترابطة في الاستخدام لها وظيفة كلمة واحدة من جهة المدلول حيث تدل على معنى واحد: مثل خطر موت، شقائق النعمان، خط أحمر، الزاوية تسعين...
- إن الوحدة المعجمية في علم المعجمية يمكن أن تدرس من جوانب مختلفة وهي جوانب مترابطة وهي: الانتماء المقولي: لكل وحدة معجمية مقولة تنتمي إليها ضمن أقسام الكلام مثال (قال: فعل/قول: اسم)
- الشكل الصوتي: الوحدة المعجمية لها جانب دال (مقابل المدلول) وهو يتكون من خصائص صوتية وقد تعثره تغييرات صوتية. (قال: فيه تغييرات صوتية حدثت في الواو [عين الفعل] فأصله قول)
- الشكل الصرفي: الوحدة المعجمية لها بنية ووزن وخصائص بنوية في تكوينها اشتقاقياً وتصريفياً وهذه من خصائص مكوّن الدال في أي دليل لغوي (قال: وزن فعل، أجوف، ثلاثي مجرد، صيغة الماضي...)

- الدلالة: الوحدة المعجمية لها مدلول فهي تدل على معنى يمكن عبر السمات الدلالية أو الطراز أو غيرهما (إضافة المترجم).

1.4 المعجم مجال للمخالفات

يميل المتحدثون (ويمكن أن نرحب بعض اللغويين في السبعينيات)، إلى اعتبار أن الكلمات تخضع أساساً لأهواء الاستخدام وأن المعجم يقدم مخالفات أكثر من الانتظام وهذا التصور عن المعجم ليس مألوفاً

لذلك نسعى في التدريس إلى لفت الانتباه إلى الفضول المعجمي الذي يحافظ عليه علم أصول الكلمات
l'etymologie².

صحيح أن الصرف المعجمي مقارنة بالصرف التصريفي يتضمن جزء من المخالفات (التوزيع الاعباطي
لبعض الواحق³)، لكن يمكن إخفاء هذه المخالفات في النظام الصرفي.

إن المعجم ليس مجرد قائمة من الاستثناءات فاكتشاف الطالب لنماذج تكوين الكلمات وتفسيرها مهمة
أساسية تسمح له بتفسير الكلمات الغير معروفة أو إنشاء كلمات جديدة، وهكذا فإن ملاحظة الكلمات
الملحقة (هذا بالنسبة للغة الفرنسية) بالداخل تجعل من الممكن إظهار القواعد الاشتقاقية من ناحية
الشكل والمعنى؛ (شكل الأسماء المشتقة من الأفعال، الأسماء المشتقة من الأماكن، مثل: المدخنة،
المسلخ، وأسماء الأدوات مثل: المفرمة..)،

وتتيح ملاحظة الكلمات الملحقة بالداخل إمكانية إظهار القواعد الاشتقاقية والكشف عنها وهنا يمكن
للمدرس مطالبة المتعلمين بإنشاء جدول خاص بالمشتقات من خلال تقديم لأئحة من الكلمات، الأمر
الذي من شأنه أن يدفعهم إلى التوسل بالقاموس والتحقق من وجود هذه الكلمات وما اشتق منها.

1.5 مقارنة كمية للمعجم في بناء الكفاية المعجمية نموذجاً

غالباً ما يرتبط علم المصطلح بإدراك المعجم على أنه مخزون من الوحدات المعجمية وهذا التخوف من
المعجم يؤدي إلى إعادة النظر في الكفاية المعجمية للتلميذ من خلال كمية الكلمات المعروفة وليس
لنوعية المعرفة المعجمية، ذلك كلما زاد عدد الكلمات التي يعرفها الطالب كان "أفضل" في ظل هذه
الظروف، فالهدف التربوي المنشود هو تعزيز زيادة عدد الوحدات المعجمية من أجل "إثراء المفردات أو
الحصيلة المفرداتية".

وينعكس هذا المفهوم على مستوى القواميس الموجهة للأطفال التي نتكيف فيها حجم المصطلحات
الموجودة مع الفئات العمرية المستهدفة، بذلك تخصص للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 6 - 8
سنوات 6000 كلمة؛ أما بالنسبة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8-12 سنة فتخصص لهم
20000 كلمة.

لكن ينبغي الأخذ بعين الاعتبار مسألة مهمة وهي معيار التكرار لكونه ضروري لتعليمية المعجم ذلك أن
الكلمات المتكررة تسهم في بناء الكفاية المعجمية عكس الكلمات النادرة.

2 Science qui a pour objet la recherche de l'origine des mots d'une langue donnée.

3 tels -aire et -al : aliment / aliment-aire, gouvernement / gouvernement-al..

والكفاية المعجمية كما أشار دييوف هي أكثر بكثير من كونها مجرد ذاكرة الكلمات ذلك أن الكلمات الأكثر شيوعاً هي المكونة لها لأن عددها يفوق عدد الكلمات النادرة حيث إنها تسهم في توضيح مختلف السيناريوهات (Rey-Debove, 1989)، ومن بين هذه الأخيرة ظاهرة تعدد المعاني ⁴la polysémie. وقد أظهر J.picoche في كتبه المختلفة عن الديدانكتيك أن الكلمات المتكررة هي متعددة المعاني وأن تحليلها اللغوي يطرح مختلف الأسئلة والصعوبات في الوقت نفسه فإن تعامل الطالب مع هذا النوع من الظواهر ليس علامة على فقر المفردات ولكنه دليل على التمكن من المعجم. (J.Picoche., 1993) بناء على ذلك أصبح من الضروري إيجاد آليات فعالة تمكن المتعلم من استيعاب المفردات من جهة، والقدرة على توظيفها في كافة السياقات التواصلية التي تحتاجها الحياة اليومية من جهة أخرى، وهو ما يعبر عنه بالكفاية المعجمية (إضافة المترجم).

خاتمة

تنتشر المفاهيم الخاطئة حول المعجم وهي مفاهيم تتوافق في كثير من النواحي، مع التمثيل الاجتماعي للغة المنقولة في كثير من الأعمال الموجهة لعامة الناس، سواء في القواميس أو في الكتب المدرسية لأنهم يشكلون كلاً متماسكاً، لكنهم من جانب يشكلون عائقاً أمام تجديد تدريس المعجم، لذا بدا أنه من الضروري إعادة النظر في الأمر من خلال معارضتهم بمعرفة لغوية تقوم على توظيف أهم المبادئ الرئيسية التي ينهض عليها تدريس المعجم كمستوى لغوي ينظم لباقي المستويات.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية

النهبي ماجدولين، دليل تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها (تخطيط-إنتاج-تقييم)، دار كنوز المعرفة، 2020.

المقالات باللغة العربية

العمري منجي، الوحدة المعجمية: مفهومها، وقضاياها في المعجمية العربي.

<https://drive.google.com/file/d/1gLNXCop-PJ0qpAYpn8Z9RtEZijPwSU0e/view>

Articles et ouvrages :

4 La polysémie est la caractéristique d'un mot ou d'une expression qui a plusieurs sens ou significations différentes (on le qualifie de polysémique).

Leeman D., 2000 : « Le vertige de l'infini ou de la difficulté de didactiser le lexique », Le Français d'aujourd'hui, Construire les compétences lexicales, n°131,42-52.

Lehmann A., Martin-Berthet F., 2008 : Introduction à la lexicologie, Sémantique et morphologie, Paris, Colin. [1e édit. Dunod, 1998].

Nonnon E., 2008 : « Apprendre des mots, construire des significations : la notion de polysémie à l'épreuve de la transdisciplinarité », Les apprentissages lexicaux, Lexique et production verbale, Villeneuve d'Ascq, Septentrion, 43-69.

Perec G., 2000 : Espèces d'espaces, Galilée [1974].

Picoche J., 1993 : Didactique du vocabulaire français, Paris, Nathan-Université. Réédité sous forme de cédérom sous le titre Enseigner le vocabulaire, la théorie et la pratique, éditions Allouche, www.editionsallouche.com, réédité en version PDF éditions Vigdor.

Rey-Debove J., 1989 : « Dictionnaires d'apprentissage : que dire aux enfants », Le Français dans le monde, numéro spécial Lexiques, Hachette, Paris, 18-23.

Dictionnaires :

Dictionnaire du français usuel, J. Picoche, J-C. Rolland, De Boeck - Duculot, 1 vol., 2002.

Dictionnaire des verbes du français actuel, Constructions, emplois, synonymes, L.S. Florea, C. Fuchs, F.

Mélanie-Becquet, Ophrys, 1 vol., 2010.

Le Petit Robert des enfants, dir. par J. Rey-Debove, Le Robert, 1 vol., 1988.

Le Robert Brio, Analyse comparative des mots, J. Rey-Debove, Le Robert, 1 vol., 2004 [Le Robert Méthodique, Le Robert, 1982].

الفونولوجيا بين الدرس اللساني القديم والحديث (الأصول والامتداد)

Technology between old and modern tongue lesson (origins and extension)

دكتور محمد اوباحو؛ دكتور متخصص في اللسانيات، جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس - فاس المغرب.

البريد الإلكتروني: bahouilyass@gmail.com

عنوان جهة العمل: "أصول الامتداد الصوتي (الفونولوجي) بين الدرس اللساني القديم والدرس الوظيفي الحديث"

الملخص باللغة العربية:

العمل: "أصول الامتداد الصوتي (الفونولوجي) بين الدرس اللساني القديم والحديث"

الملخص باللغة العربية:

نستهدف من خلال هذا المقال دراسة الصوت باعتباره وسيلة من وسائل التواصل بين الكائنات الحسية بشكل عام، فبواسطته يمكن التعبير عن الأفراح والأحزان والجوع وغيرها وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على الكائن البشري دون غيره بهذه الأصوات التي يستعملها لتحقيق وظائف متعددة على رأسها التواصل. مع العلم أن وعى الإنسان وعى أهمية الصوت والتصويت في الحياة اليومية، وفي العلاقات بين الأفراد والشعوب كان منذ القدم، لكن اكتشاف الحرف والكتابة ليس سوى نوع من أنواع الإدراك الواعي لعمل الصوت اللغوي ودوره في التواصل البشري، أضف إلى ذلك أننا سنحاول التوقف عند دور علماء اللغة القدماء في مجال الدراسات الصوتية والصرفية، حيث حاولوا التعريف بصفات الحروف وحددوا مخارجها ووظائفها وعلاقة الصوت بالآخر داخل بنية الكلمة والتغيرات والتبدلات التي تقع بين الأصوات داخل بنية الكلمة، وغيرها من المجالات التي غطت الدرس الصوتي العربي القديم؛ كدراسات الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وابن جني والسيوطي وابن حيان وغيرهم كثير ممن كان لهم الفضل والسبق في الكشف عن الكثير من الأفكار الصوتية التي تعتبر المصدر والمنطلق الذي انبثقت منها النظريات الصوتية الحديثة على اختلاف أنواعها ومجالاتها.

لنصل في نهاية المطاف إلى كون القدماء هم من أسس مسبقا لنظريات حديثة تهتم بالصوت أكثر عن طريق الاستعانة بالأجهزة العلمية الحديثة في إطار محاولة تطوير ما اكتشفه علماء اللغة القدماء وتوظيفه داخل النظريات الحديثة بشكل دقيق ومركز بغية النهوض بالدرس اللساني الفونولوجي في اللسانيات الحديثة.

-الكلمات المفتاحية: الدرس الصوتي القديم والحديث، الفونولوجيا الحديثة، أصول الامتداد بين النحو القديم والنحو الوظيفي.

ملخص المقال باللغة الإنجليزية:

Through this article, we aim to study the sound as a means of communication between sensory beings in general, by means of which joys, sorrows, hunger and other things can be expressed. . Knowing that human awareness has been aware of the importance of sound and voting in daily life, and in the relationships between individuals and peoples since ancient times, But the discovery of the letter and writing is nothing but a kind of conscious awareness of the action of the linguistic phoneme and its role in human communication, in addition to that we will try to stop at the role of ancient linguists in the field of phonological and morphological studies, where they tried to define the qualities of letters and determined their exits, functions and the relationship of sound to the other within the word structure and changes that occur between the sounds within the structure of the word, and other areas that covered the ancient Arabic phonological lesson, such as the studies of Al-Khalil bin Ahmed Al-Farahidi, Sebu, Ibn Jinni, Al-Suyuti, Ibn Hayyan and many others who had the merit and precedent in revealing many phonological ideas that are considered the source and the starting point that Modern acoustic theories of all kinds and fields emerged from it.

In the end, we reach the fact that the ancients are the ones who preceded the foundations of modern theories concerned with sound more through the use of modern scientific devices in the framework of trying to develop what the ancient linguists discovered and employ it in modern theories in a precise and focused way in order to advance the phonological linguistic lesson in modern linguistics.

مقدمة:

علم الفونولوجيا أو الدراسة الصوتية أو علم الأصوات هو ذلك العلم الذي يبحث في الأصوات المنطوقة، من حيث نطقها وانتقالها وإدراكها وأثر بعضها على بعض إذا تجاورت ، ويعد علم الأصوات فرعاً

من فروع علم اللسانيات، كما أن الفونولوجيا تعتبر من العلوم الدارسة للأصوات من حيث تركيب الكلام ودوره في الدراسات الصرفية والنحوية والدلالية في لغة معينة، كدراسة أصوات اللغة العربية ودورها في الصرف العربي وفي تركيب اللغة العربية ودلالاتها (نور الدين، 1992 صفحة 24) وقد شكل الصوت الإنساني مادة اللغة الأولى في الدراسة اللغوية؛ لأن كل أمة أو كل جماعة لغوية تعتمد منهاجاً محدداً ومميزاً في صياغة الكلمات من الأصوات التي ينتجها " الجهاز النطقي " الأساس، تم تصاغ من الكلمات الجمل و التراكيب بغية التعبير بها عن الحاجيات المادية والمعنوية التي لا حصر لها.

إن صوغ الكلمات والتراكيب، يتم وفق عبقرية كل أمة، ووفق خصائصها وبنياتها، ويكون ذلك انطلاقاً من بلورة الفكرة في ذهن المتكلم أولاً، وفي ذهن السامع أو المتلقي ثانياً. وهذا يعني أن علم اللسان لا يفصل بين مستويات اللغة الصوتية و النحوية والتركيبية والمعنوية (نور الدين، 1992، الصفحات 5-6). وقد تنبه القدماء في دراساتهم إلى هذه المستويات اللغوية كلها، ليتطور الأمر بعد ذلك إلى الكتب المتخصصة في كل مستويات الدرس اللغوي (نور الدين، 1992، صفحة 5).

ومعلوم أن الدراسة الصوتية تبحث في النطق البشري من زاويتين مختلفتين، إلا أن إحداها يمكن اعتبارها أساس الأخرى أو مقدمة لها وهما:

- دراسة الأصوات مفردة دون النظر إلى موقعها ووظيفتها في الكلام وتبدأ بالحديث عن أعضاء النطق عند الإنسان ، مع تبيان مخارج الحروف وكيفية خروجها، وبعبارة أدق وصف الحركات العضوية التي يقوم بها الجهاز الصوتي أثناء النطق والآثار السمعية المعاقبة لهذه الحركات، وهي دراسة عامة لجميع اللغات ولا تخص في مجملها لغة دون غيرها من اللغات الطبيعية.

-دراسة الظواهر الصوتية، انطلاقاً مما قد يحدث للصوت من آثار بسبب مجاورة بعضها لبعض في الكلام، ولكل لغة نظامها الصوتي في هذا الإطار، وهذا ما يسميه البعض "علم الصوتيات" أو "وظائف الأصوات" وسنحاول من خلال هذا المقال التوقف عند المحاور التالية:

- اللغة والدراسات الصوتية والعلوم المتعلقة بها .

- علم الأصوات (الفونولوجيا) في الفكر اللغوي الحديث.

- الأصول والامتداد بين الفكر اللغوي القديم والدرس اللغوي الوظيفي .

- خلاصات واستنتاجات .

✚ **أسئلة الدراسة:** أي علاقة تربط الدرس الصوتي العربي القديم بالدرس الصوتي الحديث؟ ألا يمكن القول بأن النظريات اللسانية الحديثة قد استفادت كثيرا من الدرس الصوتي القديم أم أنها تجاوزت دراسات القدماء وخلقت لنفسها أسسا جديدة في بناء الدرس الصوتي؟ كيف استطاعت الفونولوجيا الحديثة إعادة الاعتبار للفونيم ليصير المنطلق الأساس للدراسات الصوتية بصفة عامة؟ هل فعلا أن الدرس الصوتي الوظيفي الحديث مجرد امتداد للدرس الصوتي القديم؟ أم أنه لا علاقة تربط بينهما؟

✚ **أهداف الدراسة:** نستهدف من خلال هذه الدراسة إعادة الاعتبار للدرس الصوتي العربي القديم نظرا لأهميته البالغة في الدرس الفونولوجي الحديث ، هذا بالإضافة إلى أهمية المكون الفونولوجي في النظريات اللسانية الحديثة سواء التوليدية منها أو الوظيفية أو المعرفية، دون أن نغفل دور المكون الصوتي أو الفونولوجي في بناء الكلمة التي من خلالها يمكن الانتقال إلى المستوى التركيبي والدلالي في اللغة أو الكلام ؛ لأن الصوت هو المنطلق فدونه لا يمكن الحديث عن باقي مستويات اللغة .
أولا: اللغة والدراسات الصوتية والعلوم المتعلقة بها.

تعد دراسة الأصوات مقدمة لدراسة اللغة، وتعد دراسة النظام الصوتي للغة مقدمة لدراسة النظام الصرفي لتلك اللغة. وفي هذا الإطار تناول الفونولوجيا مجموعة من الأقسام نلخصها في الخطاطة التالية:

الفونولوجيا/ الدراسة



خطاطة للعلوم المتقاطعة في القوتولوجيا

ويعتبر علم الأصوات النطقي أقدم فروع علم الأصوات وأكثرها انتشارا وأهمها ولاسيما فيما يتعلق بدراسة اللغات الأجنبية وتعلمها.

لقد اعتنى العرب القدماء باللغة العربية منذ فجر الإسلام وكان الباعث الأول هو الحفاظ على القرآن الكريم من اللحن والتحريف، على الرغم من صفاء سليقتهم، وذلك نظرا لاختلاط العرب مع غيهم ممن دخل الإسلام، وبداية ظهور اللحن في القرآن الكريم، مما دعا بعض الغيورين للاهتمام باللغة والنحو (نور الدين، 1992، صفحة 6)، والدراسات الصوتية لكونها من أصل العلوم عند العرب وتصل اتصالا مباشرا بتلاوة القرآن وفهم كلماته وتراكبه وأسلوبه ومعانيه، وما يتضمن من أحكام دينية ودنيوية. فكان "أبو الأسود الدؤلي" و"نصر بن عاصم" و"عبد الرحمان بن هرمز" و"الخليل بن أحمد الفراهيدي" وغيرهم ممن اهتموا بهذا المجال. على الرغم من أن الدراسات الصوتية كانت أنداك مختلطة بغيرها من الدراسات اللغوية؛ كالنحو والصرف والمعجم وغيرها. وبالتالي فالمباحث الصوتية قد اهتمت بدراسة الأصوات مجردة (دراسة الصوت منفردا) من جهة؛ ومن المهتمين بذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) من خلال معجم (العين) وسيبويه تلميذ الخليل في كتابه "الكتاب" (باري، 1998، الصفحات 43-44) (بشر، 1997، الصفحات 12-14) وابن جني في كتابه "سر صناعة الإعراب" محاولين الوقوف عند مخارجها وطرق نطقها وتأثير بعضها في بعض...إلخ ومن جهة ثانية، دراسة الأصوات من خلال الظواهر الصوتية التي ارتبطت بالدراسات النحوية والصوتية معا. وقد اهتم العلماء اهتماما دقيقا بأجهزتهم وأدواتهم في إبراز الفرق بين الأصوات الصامتة والصائتة¹...إلخ وهذا يعني أن القدماء فهموا الصرف فهما صحيحا حين جعلوه مع النحو علما واحدا؛ حيث أشار بعضهم إلى ضرورة دراسته قبل النحو (ابن جني مثلا في شرحه على تصريف أبي عثمان). وبالتالي لا يمكن فهم الصرف فهما صحيحا دون معرفة القوانين التي يجري عليها علم الأصوات، وهذا يفرض علينا دراسة فروع علم الأصوات اللغوية أو ما يصطلح عليه علوم اللغة والتي من أشهر فروعها؛ علم الأصوات (phonetics)، وموضوعه دراسة أصوات اللغة. علم الصرف (morphology)، وموضوعه دراسة البنية أو الكلمات. وعلم النحو (syntax)، وموضوعه دراسة التراكيب والجمل. بالإضافة إلى علم الدلالة (semantics)، وموضوعه دراسة المعنى من جهة الدلالة المعجمية، والدلالة السياقية، كما أن هناك مؤلفات تدرس اللغة في مستوى واحد من هذه المستويات، وأخرى تتناولها جميعا، في لغة واحدة أو في مجموعة لغات، وليس هذا النوع من الدراسات الجديدة في تراثنا اللغوي العربي، لكن التقدم العلمي جاء بمنهج جديدة في دراسة اللغة وتعلمها، محاولا بناء نظريات فونولوجية، سواء أكانت توليدية أو وظيفية أو معرفية، ونحسب أنه لا ينبغي أن تختلف في ذلك الآراء، لأنه علم يقوم على دراسة حديثة تعتمد على الأجهزة المتطورة التي تحلل الظواهر الصوتية بموضوعية عامة لا تتعدد فيها وجهات النظر.

¹ - كلام تم استنتاجه من مجموعة من المؤلفات : المزهري/ص20، العين/1. 52. 57. 58، الكتاب 4/ 436 بتصرف و اختزال.

ومعلوم أن الصوت اللغوي الذي تقوم عليه اللغة في جميع مظاهرها جزء من ظاهرة كونية أعم؛ هي ظاهرة الصوت أياً كان مصدره، ومهما كانت وظيفته، واللغة عبارة عن أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، كما قال ابن جني (عثمان، 1952، صفحة 34). وقد ظهرت بعض العلوم الجديدة والمتنوعة التي تهتم بدراسة مصدر الصوت أو بدراسة انتقال الصوت ومصدره إلى أذن السامع، أو تلك التي تهتم بما يحدث للصوت بعد وصوله إلى أذن المتكلم السامع وانتقاله إلى مركز التفكير لدى الإنسان لتفسير الرسالة التي يحملها والمعنى الذي يدل عليه، ومن ثم نشأت ثلاث فروع علمية لدراسة هدة الجوانب المتعلقة بالصوت الإنساني (بشر م.، 2001، صفحة 41) ويمكن تعريفها بشكل موجز كما يلي:

1- علم الأصوات النطقي، أو الفسيولوجي: (articulatory or physiological phonetics) ويدرس هذا الفرع أعضاء آلة النطق وحركاتها من أجل إنتاج أصوات الكلام وتحديد مخارج الصوت وبيان الصفات الصوتية التي تشكل الصوت (باري، 1998، صفحة 47)، وهذا الفرع هو أقدم فروع علم الأصوات وأكثر انتشاراً في البيئات اللغوية كلها ، كما أن التقدم العلمي في مجال علم وظائف الأعضاء (physiology)، وعلم التشريح (anatomy)، ساهم في أن يخطو هذا العلم خطوات محكمة في دراسة أعضاء آلة النطق، وطريقة أو كيفية إنتاج الأصوات اللغوية. فاستعان الدارسون بهذه العلوم في التعرف الدقيق على العملية النطقية والكشف عن أسرارها (بشر ك.، 1997، الصفحات 46-48)؛ (مختار، 1997، صفحة 97)؛ (الغامدي، 2001، صفحة 14).

2- علم الأصوات الفيزيائي أو الأكوستيكي (acoustic or physical phonetics) ينطلق هذا الاتجاه من أن للصوت أثر سمعي ناتج عن جسم يهتز ويؤدي إلى سلسلة من التغيرات في ضغط الهواء، وكل تغير في الضغط يسمى دذببة، والدذببة الواحدة هي حركة الجسم في اتجاه ما، ثم عودته في الاتجاه المعاكس، حتى يعود إلى الموضع الذي بدأ الحركة منه. وبالتالي فأذن السامع تحس بالدذببة على مقدار ما فيها من قوة². ويعد علم الصوت الفيزيائي أو الأكوستيكي حديث العهد بالوجود نسبياً، ووظيفته دراسة التركيب الطبيعي للأصوات، وتحليل الذبذبات و الموجات الصوتية المنتشرة في الهواء و الناتجة عن ذرات الهواء. وقد كان للتقدم العلمي أهمية كبيرة في تعريف اللغويين بكثير من خصائص الأصوات وطبيعتها. بعد الاعتماد على أجهزة تقوم بتحويل الموجات الصوتية إلى ترددات كهربائية يتم عرضها على شاشات الحاسوب أو طباعتها على الورق ومن ثم تحميلها ودراستها (بشر ك.،

2 - اختلفت المصادر في تحديد التردد الذي يمكن للأذن أن تستقبله في بعضها أرقام لا يمكن الحكم على صحتها أو عدم صحتها، ينظر أجد عبد الرزاق كرجية: فيزياء الصوت والحركة الموجية (ص 34-37) وكمال بشر: علم الأصوات ص12، وسعد عبد العزيز مصلوح: دراسة السمع والكلام (ص24، 17)

1997، الصفحات 46-47)؛ (الغامدي، 2001، صفحة 15). كما نجد اليوم عددا كبيرا من الكتب المؤلفة أو المترجمة في علم الأصوات الفيزيائي تخصص مباحث للتعرف بهذا العلم، وتبيان الجوانب التي يمكن أن تسهم في تغيير الظواهر الصوتية اللغوية (بن قروري، صفحة 40).

3- علم الأصوات السمعي (auditory phonetics)، ويمكن اعتباره من أحدث فروع علم الأصوات اللغوية؛ وهو يهتم بالعملية التي تبدأ بوصول الموجات الصوتية إلى الأذن، حتى يتم إدراكها في الدماغ، ولتلك العملية جانبان: الأول عضوي والثاني نفسي؛ أما الأول فوظيفته النظر في الذبذبات الصوتية التي تستقبلها أذن السامع وفي عمل الجهاز السمعي ووظائفه عند استقبال هذه الذبذبات، والثاني يركز على البحث في تأثير هذه الذبذبات على أعضاء السمع الداخلية، وفي عملية إدراك السامع للأصوات وكيفية حصول هذا الإدراك (الغامدي، 2001، الصفحات 17-139)؛ (لادفوجد، 2009، الصفحات 13-14).

لقد حاول العديد من علماء العربية تعريف علم الصرف بأنه "العلم الذي تعرف به كيفية صياغة البنية العربية وأحوال هذه الأبنية التي ليست إعرابا ولا بناء" والمقصود بالأبنية بالنسبة إليهم "هيئة الكلمة مما يعني أنهم فهموا الصرف على أنه دراسة لبنية الكلمة وهو فهم صحيح بالنسبة للإطار العام للدرس اللغوي العربي (الراجحي، 2015، صفحة 7) غير أن المحدثين قد ذهبوا أبعد من ذلك، فاعتبروا أن كل دراسة تتصل بالكلمة أو أحد أجزائها وتؤدي إلى خدمة العبارة أو الجملة، أو تؤدي إلى اختلاف المعاني النحوية، تعتبر صرفا. وانطلاقا من هذا الحديث فهم القدماء "علم الصرف" من خلال الترتيب التالي:

- علم الأصوات اللغوية (الفونولوجيا) ويدرس العناصر الأولى التي تتكون منها اللغة؛ أي يدرس الصوت المفرد في ذاته أو في علاقاته مع غيره.

- علم الصرف : ويدرس الكلمة ثم أخيرا علم النحو : ويدرس الجملة (بشرك، 1997، صفحة 95)؛ (الراجحي، 2015، صفحة 7).

وهذا يعني أن كل هذه العلوم تنطلق من العلم الأول؛ أي علم الأصوات اللغوية، وذلك نظرا لكون العديد من مسائل الصرف لا يمكن فهمها إلا بدراسة الأصوات (كالإدغام والإبدال وغيرهما)، كما أن العديد من مسائل النحو لا يمكن فهمها إلا بدراسة الصرف، وهذا ما جعل بعض اللغويين المحدثين يدرسون النحو والصرف تحت قسم واحد ويطلقون على ذلك تسمية (grammar) ويشتمل الكلم: الصرف (morphology)، النظم (syntax). وبالتالي فالصرف يشكل المقدمة الضرورية لدى القدماء لدراسة النحو، ويمكن التمثيل لذلك من خلال جملة "زيد قارئ كتابا" فلا يمكن معرفة

"موقع" كلمة "كتاباً" إلا إذا عرفت بأن كلمة "قارئ" اسم فاعل، أي أنك لا تعرف الوظيفة النحوية لكلمة "كتاباً" إلا بمعرفة البنية الصرفية لكلمة "قارئ" ولا يمكن فهم البنية الصرفية إلا بمعرفة البنية الأصواتية وهكذا... إنلخ (الراجحي، 2015، صفحة 8)، لذلك يفضل البعض من علماء اللغة وعلى رأسهم "ابن جني" أن يكون درس الصرف قبل درس النحو وذلك ما نستشفه من قوله في كتاب المصنف "فالتصريف إنما هو لمعرفة انفس الكلمة الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة، ألا ترى أنك إذا قلت: قام بكر، ورأيت بكرًا، ومررت ببيكر فإنك إنما خالفت بين حركات الإعراب لاختلاف العامل، ولم تعرض لباقي الكلمة، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف لأن المعرفة ذات الشيء الثابت ينبغي أن تكون أصلاً لمعرفة الحالة المتنقلة (ابن جني، 4، صفحة 4). وبالتالي فالصرف يؤدي دوراً مركزياً وأساسياً لدى القدماء لدراسة النحو، فهو المنطلق الأول لفهم العديد من مسائل النحو.

ثانياً: علم الأصوات (الفونولوجيا) في الفكر اللغوي الحديث .

تكاد تجزم جميع الدراسات وأراء الدارسين اللغويين على أن تاريخ ظهور مصطلح الفونولوجيا أو الفونيم حديث العهد بالنسبة لعلم الأصوات العام (باري، 1998، صفحة 48). حيث يزعم البعض أن أول من استخدم هذا المصطلح ديفريش ديجنات (Defrich desgerdtes) في ماي 1873م بفرنسا، وذلك بمناسبة انعقاد الجمعية اللغوية الفرنسية، ثم استعمله لويس هافي (Louis Hawet) ثم فرديتاند دي سوسير، في كتابه (cours de linguistique générale) على الرغم من أن الدراسات تسير إلى (بودوان دي كوتناي) البولوني (1845-1929) الذي كان متفهماً لطبيعة الفونيم، وسباقاً في إعطائه تحديداً دقيقاً (حجازي، 1997، صفحة 36). هكذا شاع مصطلح الفونيم، وتعدى حدود فرنسا إلى بريطانيا، مع سيربا (I. Scerba)، كما وظفه دانيال جونز (Daniel Jones) في محاضرة ألقاها سنة (1917م) لينتقل المصطلح إلى أمريكا، مع إدوارد ساير (Edward Sapir) من خلال بحثه +ه المنشور سنة 1933م ومن ثمة تطور البحث الفونولوجي مع بلومفيلد (Loomfield) في كتابه "اللغة" (Longage) سنة 1933م.

أ- مكونات علم الفونولوجيا: إن الباحثين اللغويين يتفقون على أن التحليل الفونولوجي يتناول أصوات اللغة، كون هذه الأصوات (الحروف الصالح، والعلل) عناصر رمزية تتكون منها اللغة. إن علم الفونولوجيا ينظر إلى الفونيتيك في جزئه النطقي والفيزيائي، والسمعي والتجريبي على أنه وسيلة وليس غاية في حد ذاته، بل يجعل منه مجرد وسيلة لتحديد الصوت اللغوي من داخل اللغة أو البنية اللغوية (حجازي، 1997، صفحة 36)

وقد وقف "تمام حسان" عند هذه المسألة وفسر ذلك الترابط والتقارب والتكامل الذي يجمع بين هاذين العلمين، باستعمال مصطلح التشكيل الصوتي بدلا من الفونولوجيا إذ يقول: " فإذا كنا نقسم الأصوات مثلا إلى شديد ورخو ومركب، ومتوسط، فهذا هو تقسيم الحروف في التشكيل الصوتي أيضا؛ وإذا قسمنا الأصوات إلى مجهور ومهموس أو إلى مفخم ومرقق، أو نسبنا إليها مخارج معينة، فإننا نفعل الشيء نفسه مع الحرف. وقد يبدو هذا خلط في التفكير، وارتباك في استعمال المصطلحات (حسان، 1990، صفحة 140) " ويرى "تمام حسان" أن هذا العمل؛ إنما هو نابع عن عدم الخبرة والوعي لمن يعتقد ذلك ويستدل برأي كانتينو (kantino) قائلا: " إن الناظر إلى تعريف كانتينو للعلمين اللذان وضعناهما فوق هذا الكلام يجد أننا إذا استعملنا اصطلاح " الشديد" مثلا للصوت فإنما نطلقه وصفا لظاهرة حركية من ناحية، وصوتية من ناحية أخرى. فهذه الظاهرة حركية لأن الشدة نتيجة الإقبال مجرى الهواء إقفاً تاماً، ثم تسريح هذا الهواء تسرحاً مفاجئاً له طبيعة الانفجار في السمع (حسان، 1990، صفحة 140) " هذا بالإضافة إلى أن تمام حسان يسترسل في التعليق عن الموضوع بشكل أوسع أو أكثر موضوعية ودقة في الشرح والتمثيل قائلا: " ولكننا إذا تكلمنا عن الاصطلاح نفسه من الناحية التشكيلية فإننا نتكلم عن "وظيفة صوتية من مجموعة وظائف يتكون منها النظام الصوتي للغة معينة، وكل وصف تشكيلي إنما ينبني على إيجاد المقابلات الصوتية التي توجد في اللغة والتفريق بين معانيها. وتلك أشياء تأتي بعد دراسة الصوت من حيث هي، ولكنها تستقل عن دراسة الصوت استقلالاً تاماً؛ فالمقابلة بين مجهور ومهموس، ثم مفخم ومرقق ثم صحيح وعلّة، ثم شديد ورخو، ومركب ومتوسط، ثم بين طويل وقصير، وبين مخرج ومخرج آخر، وبين النبر وعدمه، وبين اللحن الأول والثاني، كل ذلك وما يتصل به من فهم دلالي مقابل لهذه المقابلات هو الأساس الذي ينبني عليه عم التشكيل الصوتي" (حسان، 1990، صفحة 140).

نستشف من خلال هذا الكلام، محاولة الإحاطة بجميع خصوصيات علم الفونولوجيا أو علم التشكيل الصوتي بجانبه النطقي للصوائت والصوامت؛ مثل صفات الأصوات المذكورة في هذا النص الأخير. أو ما يخص بعض التلوينات الصوتية التي تمس جوهر الصوت (الحرف) المدرك، واستناداً إلى ما سبق، أمكننا أن نلخص أهم عناصر البحث في الدرس الفونولوجي، وبخاصة التنوعات الصوتية في:

- الفونيم (phoneme) المقطع (syllabe) - النبر (accent/ stress) - التنغيم (intonation)

باعتبار هذه العناصر القطب الروحي للدراسات الفونولوجية، و المحور الرئيس الذي يعتمد عليه الدارسون حينما يقومون بدراسة علم الأصوات الوظيفي أو التشكيلي؛ لأن الغاية من وراء تلك الدراسة هي دراسة وظيفة الصوت داخل البنية التركيبية أو داخل السياق التركيبي.

ب: تأسيس الفونولوجيا وأهم روادها: إن الدارس لمختلف الدراسات اللغوية يجدها تربط تاريخ بداية تأسيس الفونولوجيا بأقطاب مدرسة براغ الثلاثة؛ "تروبتسكوي"، و"جاكوبسن"، و"كان تشوفسكي"، الذين قدموا اقتراحا سنة (1928م) إلى المؤتمر اللغوي العالمي الذي عقد في لاهاي؛ والمتعلق بالبحث في الفونولوجيا الحديثة العهد بالدرس الصوتي (الفونيتيكي) (باري، 1998، صفحة 48). كما أن بداية نشأة الدرس الفونولوجي كما توثق لها بعض المراجع، قد ارتبطت بالعالم الأمريكي "وايتني" ("whitney" 1827-189) سنة 1850م، حيث أكد قوة ترابط أجزاء اللغة ببعضها البعض وأن الصوت المنطوق وحده لا يشكل وحدة المادة الأولية في اللغة" (قدور، 2008، الصفحات 90-96) مع العلم أن معظم الأبحاث والدراسات الحديثة تجمع على أن بداية التأسيس الفعلي والحقيقي للفونولوجيا تم من قبل "حلقة براغ" بعد عام 1926م على يد ثلة من اللغويين أمثال "جاكوبسن" (1896-1982م) و"كارل تشوفسكي" (1884-1955م) و"تروبتسكوي" (1890-1938م). وعلماء التشيك مثل "ماتيتوس" (1882-1946م) و"مكاليتشا" و"ترنكا" (مختار عمر، 1997، صفحة 167) وغيرهم. كما أن "تروبتسكوي" يعد المؤسس الأول لعلم الأصوات الوظيفي صحة رفقائه المذكورين حيث قدموا برنامجا واضحا للدراسة الفونولوجية، من خلال كتاب "مبادئ الفونولوجيا" الذي أصدر سنة (1939) وترجم إلى اللغة الفرنسية سنة (1949م) فكان المنطلق الأساس للفونولوجيا ودراسة الفونيم (phonème) (حساني، مباحث في اللسانيات، مبحث صوتي، مبحث دلالي، مبحث تركيب، 2008، صفحة 91). إن الفضل في توضيح المفاهيم والأسس المعرفية والدراسة العلمية للفونولوجيا يرجع ل"تروبتسكوي" الذي قام بتحديد العناصر الصوتية ضمن مجموعة من العلاقات التي يفرضها نظام اللغة، مع تبيان الوظيفة الفعلية والحقيقية التي تؤديها عناصر اللغة مجتمعة (قدور، 2008، الصفحات 95-96) هذا بالإضافة إلى "جاكوبسن" (Jakobson) الذي كانت أعماله اللغوية تنحصر في تأسيس الفونولوجيا وتقوية المذهب الوظيفي لهذه المدرسة ورفع شأنها وذلك من خلال كتاباته (Essais de linguistique générale) المخصص للبحث في الخصائص المشتركة بين جميع الأنظمة اللسانية في المجال الفونولوجي. (jakobson, n2-6(1070)) وهذا ما يؤكد القول التالي: "لولا ديناميكية جاكوبسن الفعالة لما استطاعت الفونولوجيا أن تحقق ذلك الانتصار العظيم في لاهاي أبدا وربما انتظرت طويلا لتفرض نفسها خارج براغ" (حساني، مباحث في اللسانيات، مبحث صوتي، مبحث دلالي، مبحث تركيب، 2008، صفحة 93) وهذا ما يجعلنا نفر بشكل صريح أن مدرسة براغ وبفضل علمائها ومؤسسيها ومؤيديها، قد أبدعت في الحقل الفونولوجي، وتعمقت في دراسة الصوت من داخل البنية اللغوية. مما يعني، أن النظرية

الفونولوجية عرفت تحولات عديدة وتطورات مختلفة، تجعلنا نقسم هذه النظريات الفونولوجية إجمالاً إلى ثلاثة مراحل يوطر كل مرحلة منها عمل نظري:

- فقد تأسست الفونولوجيا الكلاسيكية على قاعدة كتاب تروبتسكوي (مبادئ الفونولوجيا سنة 1939)

- ثم بلور تشومسكي وهالي في كتابهما (النسق الصوتي للغة الإنجليزية 1968) الفونولوجيا المعيار - ثم الفونولوجيا المشتقة القطع التي عرض مبادئها النظرية والمنهجية كولد سميت في كتابه (الفونولوجيا المستقلة القطع 1976، أما الفونولوجيا العروضية فقد عرض مبادئها كل من "ليبرتمان" و"برنيس" في مقالهما الشهير حول النبر والإيقاع اللساني 1977.

ثالثاً: الأصول والامتداد بين الفكر اللغوي القديم والدرس اللغوي الوظيفي
إذا تأملنا في مختلف الدراسات العربية القديمة خصوصاً لدى ابن جني في الخصائص أو لدى الجرجاني في دلائل الإعجاز أو غيرهما، وجدنا مجموعة من المبادئ المنهجية التي يمكن اعتبارها مؤشرات قريبة جداً من المبادئ المنهجية التي تحكم الدرس اللغوي الوظيفي بصفة عامة. ومن بين هذه الوظائف نذكر:

أ- أن اللغة تعتبر بالنسبة للمفكرين القدماء، وسيلة للتواصل بين البشر بغية تحقيق أغراضهم وهذا ما يعبر عنه ابن جني بقوله "حد اللغة أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (عثمان، 1952، صفحة 44)" وهذا ما ذهب إليه أيضاً صاحب "الأحكام في أصول الأحكام"؛ حيث يقر بأن نشأة اللغة كانت لاحتياج البشر إلى معرفة بعضهم لما يجول في خاطر البعض وتحقيق ما يرومون تحقيقه من أغراض (المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، 1989، صفحة 84)

ب- إذا عدنا إلى مختلف الدراسات اللغوية (خاصة البلاغية والأصولية منها) وجدنا أن وظيفة التواصل التي تؤديها اللغة هي التصور العام المتحكم فيها في إطار محاولة وصف الترابط القائم بين اللغة ووظيفتها. وذلك من خلال اعتبار التراكيب اللغوية وسائل لتأدية أغراض تواصلية معينة، وهذا ما جعل الدراسات قد حاولت رصد العلاقة بين كل نمط من أنماط التراكيب والغرض المتوخى تحقيقه، وعلى هذا الأساس درست مجموعة من الوظائف (التقيد، التوكيد، التخصيص...) في علاقتها بالتراكيب التي تتحقق بواسطتها (المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، 1989، صفحة 84)؛ فوظيفة التقيد مثلاً تسعى إلى توضيح مقصدية المتكلم "والكشف عن مراده، أما التوكيد فهو الوظيفة الواردة من كل إخبار يرمي به المتكلم إلى تنبيه المخاطب إلى أن مضمونه ليس ناتجاً عن سهو أو نسيان. وبالتالي فهو وسيلة لتقوية الإخبار. في حين أن "التخصيص" تصحيح أو تعديل معلومة من معلومات المخاطب، يعدها

المتكلم باعتبارها معلومة غير واردة مما يعني أن المتكلم يعبر عن شيئين هما: المعلومة التي يحاول المصادقة عليها ويعتبرها واردة والمعلومة المخالفة للمعلومة التي ينكرها. وبالتالي فوظيفة التخصيص تؤدي إلى نقل المكون الحامل للمعلومة الصحيحة أو حصره أو إدماج الضمير وهو بين المخبر عنه أو المخبر به (المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، 1989، صفحة 85)، وبالتالي فالغاية الأساسية من الربط بين اللغة ووظيفتها التواصلية؛ هي التحديد الوظيفي للبنية؛ أي للتركيب اللغوية التي تعد وسائل للتعبير عن أغراض تواصلية معينة . وهذا التصور ينعكس في تنظيم النحو كما اقترحه الجرجاني مثلا حيث مثل للبنية الأساس "الغرض من الكلام" باعتباره "دخلا" لقواعد النحو التي ينتج عن تطبيقها البنية "اللفظية" للجملة (الجرجاني ، 2001، صفحة 240).

1- القدرة اللغوية: ويمكن استخلاصها انطلاقا من النصوص الأصولية والبلاغية القديمة التي تميز بين ثلاثة معارف مركزية وهي : المعرفة اللسانية، و المعرفة اللغوية والمعرفة الخطابية وبين هذه المعارف علاقة اقتضاء؛ حيث تقتضي المعرفة الخطابية المعرفة اللغوية التي تقتضي بدورها المعرفة اللسانية .

2- تتطرق مختلف الدراسات من مسلة مفادها أن الكائن البشري يملك معرفة فطرية لمقولات و علاقات دلالية أساسية قائمة في ذهنه قبل أن يواجه عملية تعلم اللغة؛ وذلك اعتمادا على اكتساب الوسائل الأساسية للغة والمتعلقة بالمقولات والعلائق الدلالية المفطور عليها. وقد ذهب الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز "إلى أن الإنسان قبل تعلمه للغة، تقوم في نفسه مفاهيم "الرجل " والفرس"....إنح و مقولات "الاستفهام" و"النفي" و"الاستثناء"

و مجموعة من العلاقات كالإسناد.. إنح ويتعلم الإنسان عن طريق تجربته اللغوية الألفاظ والتراكب التي تستخدمها لغته للدلالة على هذه المفاهيم والمقولات والعلائق (الجرجاني ، 2001، صفحة 344).

3- المعرفة اللغوية تتشكل من امتلاك المتكلم السامع ل "الأوضاع المتعارف عليها في عشيرته اللغوية أي القواعد التي تكون نسق لغته، وهذه القواعد هي التي تربط بين الخصائص البنوية للغة والخصائص الوظيفية.

إن المتكلم المستمع يمتلك قواعد تؤهله لإنتاج خطاب متماسك و متسق وهي تجعله ينتقل من معرفة الأوضاع اللغوية الصرف إلى امتلاك "الفصاحة" و"البلاغة" وتكمن هذه الأخيرة في امتلاك القدرة على تنظيم الخطاب حسب ما يقتضيه "المقام" وما يستلزمه الغرض المتوخى تحقيقه (المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، 1989، صفحة 87).

و قد ذهب "المتوكل" إلى أن هذه المعارف الثلاث تشكل قدرة لغوية واحدة ذات مستويات ثلاثة متداخلة يقتضي بعضها بعضا ، إذ لا يقوى المتكلم على امتلاك القواعد الخطابية إلا إذا كان ممتلكا

لنسق اللغة ولا يستطيع تعلم هذا النسق إلا إذا كانت لديه معرفة سابقة لما تستعمل اللغة للدلالة عليه؛ أي ما تواضع المتكلمون للغة معينة للدلالة عليه.

4- يمكن القول بأن القدماء كانوا مدركين لما يؤلف بين اللغات وما يخالف بينها و ذلك استنادا لتقاسم الدلالة على المفاهيم، والمقولات، والعلائق الدلالية نفسها (المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، 1989، صفحة 87).

5- يجمع البلاغيون والأصوليون على أن موضوع الدراسات؛ هو رصد خصائص التراكيب في علاقتها بأنماط المقامات التي تنجز فيها، والأغراض التواصلية التي يمكن أن تستعمل لتحقيقها.

6- إذا عدنا إلى دلائل الإعجاز للجرجاني وجدنا أن النحو الذي يعنى بالإعراب ومشاكله من المسائل "اللفظية" الصرفية، إذ لا يمكنه أن يعد نحواً، بل النحو هو الوصف الذي يجاوز رصد الخصائص اللفظية إلى رصد العلاقات القائمة بين "اللفظ" و"المعنى" باعتبار المعنى مجموع الوسائط المتفاعلة في تحديد الصورة التركيبية للجملة.

واستناداً إلى ذلك، يمكن القول بأن النحو الذي يدعو إليه الجرجاني و من حدى حدوده نحو "وظيفي" وذلك نظراً لقيامه على مبدأ ضرورة الربط بين اللغة والوظيفة التي تؤديها في التواصل، وهذا ما يجعلنا نقر بشكل صريح بأن النحو الوظيفي كانت جذوره منبعثة من الدراسات العربية القديمة ولا أدل على ذلك من كتاب دلائل الإعجاز لعبد القادر الجرجاني.

- خلاصات واستنتاجات:

من خلال ما سبق، اتضح وجود علاقات مبنية على الامتداد والاستمرارية بين الفكر اللغوي العربي القديم ونظريات النحو الوظيفي؛ وذلك ليس فقط في ما يتعلق بالفونولوجية، وإنما في باقي الظواهر التي يعالجها، إذ يستند إلى نظريات وأبحاث القدماء؛ والدليل على ذلك، ما أشرنا إليه من خلال كتاب الجرجاني دلائل الإعجاز مثلاً؛ حيث استفاد من دراسته المتوكل، واستطاع أن يبلور ذلك في النحو الوظيفي؛ مما يعني أنه لا يمكن الانطلاق من فراغ في تشكيل الأنحاء الحدائية، وإنما يجب العودة إلى الأصول بغية تطويرها وتجديدها وتجاوزها انسجاماً مع يخدم النظرية الجديدة وهذا يجعلنا نقر بأن البحث اللساني الفونولوجي الوظيفي يستدعي الاستفادة من تجارب القدماء بغية الوصول إلى نظرية فونولوجية متكاملة المبادئ والأصول. ومن ثم نستنتج أن:

- الفونولوجيا الوظيفية تعد جزء من نظرية اللغة المسماة بالنحو الوظيفي الذي بلوره "سيمون ديك" و"المتوكل" وغيرهم، وهي جزء من مشروع طموح يستهدف دراسة الغايات التواصلية للغات الطبيعية.

- أن للمكون الفونولوجي وظيفة مركزية في بناء المكون التركيبي كما يعتبر خرجا للمكون الدلالي والتركيبي معا.
- الفونولوجيا الوظيفية تسعى لتوفير نظام من القواعد التي تولد أشكالا صوتية انطلاقا من أشكال عميقة ومجردة. هذا بالإضافة إلى أن الفونولوجيا الوظيفية تقر بضرورة وجود تمثيلين أساسيين:
- ✚ تمثيل فونولوجي : هو الأكثر تجردا بما أن المقاطع الصوتية محددة في جميع اللغات الطبيعية.
- ✚ تمثيل صوتي، يمكن اعتباره ملموسا خصوصا أثناء التحقيق الصوتي للعبارة أو الجملة (نحو الخطاب الوظيفي مثلا).
- ✚ الفونولوجيا القديمة أساس القنولوجيات الحديثة ومنطلقها، سواء الوظيفية أو التوليدية التي تطورت مع تشومسكي وهالي والتي قسمت إلى ملاحح فونولوجية ثنائية القيمة و أخرى صوتية غير ثنائية وهذا الأمر لا يتناقض مع مبادئ النحو الوظيفي.
- ✚ تطوير الدرس الصوتي الحديث، رهين بالعودة إلى الأصول والاستفادة من تخارب الدرس الصوتي الأصيل، وغلم التجويد، والبقرات، بغية تكوين نظرية متكاملة الأطراف.
- وانطلاقا مما سبق، اتضح أن نظرية النحو الوظيفي نظرية تستمد بعضا من مبادئها من الدرس اللساني القديم وهذا أمر محمود كونه يحقق امتدادا للقديم في الحديث وتأصيلا للجديد في القديم.

المصادر والمراجع

- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية طبعة 1، 1990.
- عبد الراجحي، التطبيق الصرفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ط السابعة 2015م.
- أبي الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية ط 1
- أبي الفتح عثمان ابن جني: المصنف في شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق ابراهيم مصطفى عبد الله أمين القاهرة
- اتروبتزكوي؛ مبادئ علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا) ترجمة: قنيني عبد القادر، دار قرطبة للطباعة والنشر الدار البيضاء ط 1، 1994 م
- أحمد المتوكل، : اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري) منشورات عكاظ.
- أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة، دراسة في التمييز والتطور، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار الأمان بالرباط. ط 1 2012م
- أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، مبحث صوتي، مبحث دلالي، مبحث تركيب، كلية الدراسات الاسلامية والعربية دبي-الكرامة ط 1 2008 م.

- أحمد محمد قدور ، مبادئ في اللسانيات، دار الفكر، الطبعة الثالثة 2008م الموافق ل 1429 هـ
- أحمد مختار عمر: دراسات الصوت اللغوي، طبعة القاهرة- مصر، عالم الكتب 1997م
- أحمد مختار عمر محاضرات في علم اللغة الحديث ط 1
- الحسان حجيج: علم الأصوات في الفكر اللساني دراسة إبستمولوجية، مشروع دراسة جديدة للصوت منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-
- بيتر لا دفوجد: عناصر صوتيات موجات الكلام ترجمة وتحقيق محمد العناني، دار جرير للنشر والتوزيع ط 1 المجلد 1
- داود عبده : دراسات في علم أصوات اللغة ، دار جرير للنشر والتوزيع الطبعة 1 المجلد الأول.
- سعد عبد العزيز مصلوح: دراسة السمع والكلام ، عالم الكتب الطبعة 1 المجلد الأول. 2005
- عبد الرحمان بن براهيم الفوزان: دروس في النظم الصوتي للغة العربية طبعة 1428هـ
- عبد القادر المهيري، أهم المدارس اللسانية الوظيفية، وزارة التربية القومية، المعهد القومي لعلوم التربية منشورات المعهد القومي تونس 86، ط 1986.
- عبد القادر شاكر علم الأصوات العربية "علم الفونولوجيا"، دراسة في مستوى التشكيل الصوتي القديم الجديد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 1 سنة 2012.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. في علم المعاني ، علق عليه محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت - لبنان الطبعة الثالثة 2001 م .
- عصام نور الدين : علم وظائف الأصوات اللغوية الفونولوجيا، السلسلة الألسنية طبعة بيروت دار الفكر اللبناني ط 1 1992م
- غانم بن قروري، أهمية علم الأصوات اللغوية في دراسة علم التجويد دار عكاظ للنشر ط 1
- كمال بشر: دراسات في علم اللغة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ط 1 1997 .
- كمال بشر: علم الأصوات. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ط 1 2000م
- ماريوباري: أسس علم اللغة ، تحقيق أحمد مختار عمر. عالم الكتب طبعة 8 سنة 1998.
- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر القاهرة-مصر ط 1
- منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية، مكتبة التوبة الطبعة الأولى 2001م
- هاري فندر هالست ونورفاليسث: الفونولوجيا التوليدية الحديثة ترجمة مبارك حنون و أحمد العلوي منشورات دراسات سال ط 1

المراجع الأجنبية

- Ferdinand de Saussure/cours de linguistique générale bibliothèque scientifique Payot .dépot legal :octobre (1994) ,
- Jakobson. Essais de linguistique générale/le linguistique n2-6 (1970).
- paradis.c (1991) la phonologie générative multilinéaire

آليات بناء الخطاب الفلسفي عند الدكتور محمد عابد الجابري

Mechanisms of constructing the philosophical discourse of Muhammad Abed Al - Jabri

منير بوردي، باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب

البريد الإلكتروني: mounir.b2009@gmail.com

ملخص

يهدف هذا المقال إلى تحديد الآليات الأساسية التي يعتمد عليها الدكتور محمد عابد الجابري في بناء خطابه الفلسفي خاصة في رباعية نقد العقل العربي وبيان وظائفها الأساسية؛ إذ نفترض أن قوة فكر محمد عابد الجابري والانتشار الواسع الذي عرفته كتاباته لا يرجع إلى الأفكار والمواقف وحدها بل إلى طريقة بناء الخطاب أيضا والآليات المعتمدة في إنشاء مضامينه، بحيث استطاع الجابري بفضل هذه الآليات أن يصل بمشروعه النقدي إلى قاعدة واسعة من القراء وأن يقنعهم بقيمته، ويستمد هذا الموضوع أهميته من كون معظم الذين اهتموا بأعمال الجابري انصرفت عنايتهم إلى مضامين خطابه ولم ينظروا في الآليات التي يعتمد عليها لتبليغ هذه المضامين إلى القارئ وإقناعه بها.

الكلمات المفتاحية: خطاب - آليات - تنظيم - تواصل - إقناع

Abstract

This article aims to identify the basic mechanisms adopted by Dr. Muhammad Abed Al-Jabri in constructing his philosophical discourse- especially in his multivolume book on the Critique of the Arab mind and its fundamental functions; We assume that the strength of Muhammed Abed Al-Jabri's thought and the wide dissemination of his writings are not due to ideas and attitudes alone, but also to the method of constructing the discourse and the mechanisms adopted in creating its contents. Thanks to these mechanisms, Al-Jabri was able to make his critical project reach a wide base of readers and convince them of its value. This topic derives its importance from the fact that most of those who were interested in Al-Jabri's work turned their attention to the contents of his speech and did not consider the mechanisms he relied on to convey these contents to the readers and convince the readers of them.

Key words: Discourse - Mechanisms - Organization - Communication - Argumentation

مقدمة

معلوم أن كتابات الدكتور محمد عابد الجابري قد استأثرت باهتمام كبير من طرف الباحثين في مجالات معرفية مختلفة نظرا لطبيعة القضايا التي تناولتها بالدراسة والتحليل وطبيعة الإشكالات التي اشتغلت عليها خاصة مشروع نقد العقل العربي، وقد أفرز هذا الاهتمام مجموعة من البحوث والدراسات انصرف بعضها إلى بيان أهمية هذا المشروع وتحديد مقاصده وكشف خلفياته بهدف تبسيط أفكاره وترويجها، في حين اتجه البعض الآخر إلى المساءلة النقدية التي تروم الكشف عن أسس ومقومات النموذج الذي يقترحه الجابري لتقويم التراث العربي وبيان مظاهر قصور آلياته، ويبدو أن جل الدراسات التي انشغلت بالخطاب الفلسفي عند الدكتور محمد عابد الجابري سواء في مشروع نقد العقل العربي أو في باقي كتاباته اهتمت بمضامين هذا الخطاب أي القضايا والأفكار والمفاهيم... ولم تلتفت إلى الآليات التي يعتمد عليها لتبليغ هذه المضامين إلى القارئ وإقناعه بها؛ إذ نرى أن قوة الجابري لا ترجع إلى أفكاره التي أحدثت ثورة في دراسة التراث الفلسفي العربي فحسب، وإنما إلى طريقته في بناء الخطاب أيضا والآليات التي يعتمد عليها في إنشاء مضامينه.

وبناء على هذا سنحاول في هذا المقال الكشف عن الآليات الأساسية التي يعتمد عليها الدكتور محمد عابد الجابري في بناء خطابه الفلسفي خاصة في رباعية نقد العقل العربي وبيان وظائفها الأساسية، وقد اخترنا هذه الرباعية لأنها تعتبر من أهم ما كتبه الجابري في مساره العلمي والأكاديمي، ويدافع فيها عن مشروعية وجدوى قراءة الثقافة العربية قراءة موضوعية تتحرر من قيود القراءات السائدة في الساحة الفكرية الشيء الذي يجعل من خطابه فيها مجالا مناسباً للوصف البلاغي. يرتكز بناء الخطاب عند الدكتور محمد عابد الجابري في رباعية نقد العقل العربي على مجموعة من الآليات نوردتها فيما يلي:

1. آلية المفهمة

يعتبر المفهوم آلية أساسية من آليات بناء الخطاب عند الدكتور محمد عابد الجابري، فهو أداة إجرائية لها قوتها وإمكاناتها لإضاءة الموضوع المدروس، ويعرف المفهوم بأنه "شكل من أشكال انعكاس العالم في العقل، يمكن به معرفة الظواهر والعمليات، وتعميم جوانبها وصفتها الجوهرية (....) ويتحدد المفهوم من خلال نتاج معرفة متطورة تاريخياً. ويساعدنا تاريخ الممارسة على تعميق وإغناء المفهوم" (روزنتال وبودين، 1974، الصفحات 448 - 449)، إذ كلما تطورت الممارسة وتنوعت كلما تجدد المفهوم وتطور واكتسب إمكانات جديدة، وهكذا فالمفهوم لا يبقى ثابتاً بل يظل منفتحاً على التغيرات التي قد تأتي بها التجربة والممارسة.

ولعل هذه الدينامية المتمثلة في القابلية للتجدد والتطور هي التي جعلت الجابري يستغني عن "المنهج الجاهزة" ويعتمد المفاهيم في معالجة موضوعاته، فإذا عدنا إلى مداخل الأجزاء الأربعة من كتاب نقد العقل العربي، فإننا سنجد الجابري يتفادى حديث المنهج كما جرت العادة في البحوث العلمية، ويبين عوضاً عن ذلك طبيعة المفاهيم التي سيعتمدها وطريقة توظيفها، وقد سبق للجابري أن وضع موقفه من سؤال المنهج في مقدمة كتابه "الخطاب العربي المعاصر"؛ بحيث يرى أنه "سؤال يطيب لكثير من الكتاب العرب المعاصرين طرحه والإجابة عنه، وغالبا ما يكون ذلك مدعاة للتنويه الذاتي، وفي هذه الحالة تنسم الإجابة بشيء من "استعراض العضلات" فيصبح الحديث عن المنهج المتبع - بل الذي ينوي اتباعه - حديثاً من أجل منهج معين، حديث إطراء و"تقريظ" وكأن الكاتب يريد أن يستمد العون أو القوة أو... لست أدري من إعلان انتمائه إلى هذا المنهج أو ذاك، وليس عن انتماء منهجه إليه هو" (الجابري، 1994، صفحة 13).

وعلى هذا الأساس يميز الجابري بين المنهج والمفاهيم باعتبار الأول مجرد طريقة في البحث تمثل في مجموعة من الخطوات العملية كالاستقراء والاستنتاج والمقارنة... الخ كما أنه جملة من المبادئ التي يلتزم بها الباحث وتمثل في الموضوعية واعتبار العلاقات السببية... الخ وهي عناصر ثابتة لا تتغير بتغير المواضيع المدروسة وإنما يمكن تطبيقها على جميع المواضيع، في حين أن المفاهيم هي "المعاني الكلية التي يتم بها تحويل موضوع البحث من مواد خام خالية من المعنى والمعقولة إلى معان وعلاقات لها معقوليتها، فهي تختلف باختلاف الموضوعات" (الجابري، العقل السياسي العربي، 2017، صفحة 8).

ولهذا نجد الجابري يستثمر في قراءته للتراث العربي مجموعة من المفاهيم أثبتت فعاليتها وقدرتها المنهجية والعلمية في الميادين العلمية الأصلية التي نشأت فيها. ويحرص الجابري قبل توظيف هذه المفاهيم على توضيحها من خلال عرض خلفياتها النظرية وتقديمها ضمن وجهات نظر أو مواقف في قضايا معينة تقترح رؤية محددة للموضوع المدروس، ذلك أن "عدم وضوح المفاهيم خطر كبير على استقامة الفكر" (العروي، 1980، صفحة 127) ووضوح المفاهيم رهين بالوعي بحدودها وتاريخيتها، لكي يتم استعمالها والاشتغال بها، بل وإمكانية تجاوزها، ولا يستقيم مثل هذا الوعي إلا بمفاهيم واضحة (انظر العروي، 1973، صفحة 164).

ويتخذ توظيف المفاهيم وتطويرها في الممارسة العلمية للبحث مجموعة من المظاهر، حصرها الأستاذ الطاهر وعزيز في ثلاثة مظاهر أساسية؛ أولها يتمثل في توليد مفاهيم جديدة، بحيث يعمل الباحث على وضعها ملتزماً بشروط ومقتضيات هذه العملية، ويتجلى المظهر الثاني في اقتباس مجال علمي جديد أو ناشئ مفهوماً من مجال علمي سابق، ويعمل الباحث في هذه الحالة على تشذيب المفهوم وتوسيعه ليتلاءم

وخصوصيات المجال المنقول إليه والوظائف الجديدة التي تناط به، بينما يمثل المظهر الثالث في "تعميق مفاهيم قديمة والارتقاء بها إلى مستوى أعلى من التجريد" (واعزيز، 1989، صفحة 17).

ويبدو أن الجابري يتحرك في حدود المستويين الثاني والثالث؛ فهو لا ينشئ مفاهيم جديدة وإنما يعمل على اقتراضها من ميادين علمية أخرى وتعديلها لتلائم الموضوع المدروس، كما يعمل أيضا على بعث الحياة في مفاهيم قديمة مستمدة من التراث العربي، ففي كتاب العقل السياسي، مثلا، نجده يوظف جهازا مفاهيميا يتكون من نوعين من المفاهيم؛ أولهما عبارة عن مفاهيم مستعارة من الفكر العلمي والاجتماعي والسياسي المعاصر، أما النوع الثاني فهو عبارة عن مفاهيم مستمدة من التراث العربي الإسلامي، وهكذا يزاوج الجابري بين النوعين ويحرص في الآن نفسه على تشذيب النوع الأول ليتلاءم وطبيعة الموضوع المدروس، وبعث الحياة في النوع الثاني لتحريره من أغلال الماضي وربطه بأسئلة الحاضر (انظر الجابري، العقل السياسي العربي، 2017، صفحة 8).

ولما كانت طبيعة الموضوع هي التي تفرض على الباحث مفهوما معينا، فقد تنوعت المفاهيم المعتمدة في مشروع نقد العقل العربي واختلفت من جزء لآخر؛ بدءا بالجزئين الأول والثاني اللذين تناول فيهما بالدراسة والتحليل "عقل الفكر العربي" باعتباره وسيلة لإنتاج المعرفة، ومرورا بالجزء الثالث الذي خصصه لـ"عقل الواقع العربي" أي محددات الممارسة السياسية ومظاهرها في الحضارة العربية الإسلامية، ووصولاً إلى الجزء الرابع الذي عالج فيه موضوع "نظم القيم في الثقافة العربية الإسلامية".

فبالنسبة للجزئين الأول والثاني فقد خصص الجابري القسم الأول من تكوين العقل العربي والذي يحمل عنوان: "العقل العربي... بأي معنى؟" لتحديد مكونات الجهاز المفاهيمي من خلال تحديد الدلالات اللغوية والاصطلاحية التي تحملها هذه المفاهيم في الحقول المعرفية التي ظهرت فيها، ويتألف هذا الجهاز من المفاهيم التالية: العقل، الثقافة، الفكر، الجنسية الثقافية، الخصوصية الثقافية، الفكر العربي، العقل العربي، العقل الفاعل، العقل السائد، العقل اليوناني، العقل الأوربي، الثقافة العربية، اللاشعور المعرفي، الزمن الثقافي.

وقد تميزت مقاربتة لهذه المفاهيم بالدقة والشمولية ويتجلى ذلك في تفكيك المفهوم وتبع معانيه في التراث العربي الإسلامي من جهة، وفي الثقافات والفلسفات الغربية من جهة أخرى، وقد يطول الكلام عن مفهوم ما ليصبح عرضا مفصلا لتاريخه كما هو الحال بالنسبة لمفهوم العقل، بحيث يقول الجابري بخصوصه: "إن هذا العرض الذي تتبعنا فيه خطاب العقل الإغريقي - الأوربي عن نفسه يبرر القول بالعقل العربي" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 26) ويقول أيضا: "إن هذا العرض الذي قدمنا فيه بصورة مجملة تطور مفهوم العقل في الثقافة الإغريقية والثقافة الأوربية الحديثة

يؤكد تاريخية هذا العقل أي ارتباطه بالثقافة التي يتحرك داخلها الشيء الذي ينزع عنه الصبغة الإطلاقية" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 26).

أما فيما يخص الجهاز المفاهيمي الخاص بالجزء الثالث (العقل السياسي العربي) فهو مستمد من مجالين معرفيين؛ أولهما الفكر العلمي الاجتماعي والسياسي المعاصر وتمثله المفاهيم التالية: اللاشعور السياسي، الخيال الاجتماعي، المجال السياسي، وثانيهما التراث العربي الإسلامي وتمثله مفاهيم: العقيدة، القبيلة، الغنيمة، وقد حرص الجابري في توظيفها على إيرادها في سياقها الأصلي لتوضيح مضمونها من جهة وبيان التعديلات التي يدخلها من جهة ثانية؛ فزاه يقول، على سبيل المثال، في سياق مقاربتة لمفهوم "اللاشعور السياسي": "ولكي نفهم بوضوح المعنى الذي يعطيه دوربي لهذا المفهوم نترك له الكلمة ليشرحه ضمن السياق الذي اختاره، على أن نعود بعد ذلك إلى تبيئته مع موضوعنا وبيان طريقة توظيفنا له" (الجابري، العقل السياسي العربي، 2017، صفحة 11)، والأمر نفسه بالنسبة للجزء الرابع (العقل الأخلاقي)؛ فقد خصص الجابري مدخل الكتاب لتحديد المفاهيم الأساسية ويتعلق الأمر هذه المرة بمفهوم "النظم".

ويبدو أن الجابري كان على وعي تام بصعوبة توظيف هذه المفاهيم وما ينطوي عليه ذلك من أخطار، لأنها من مجالات معرفية مختلفة، لذلك لم يلتزم حرفياً بحمولتها الدلالية التي تحملها في مجالاتها الأصلية، وهذا أمر طبيعي ف"عندما ينتقل مفهوم ما من حقل معرفي معين لكي يستعمل في حقل معرفي آخر مغاير، فإن هذا الانتقال لا يعني دائماً تبني عناصر النظرية السابقة التي كان يقوم عليها بكاملها. إذ ثبت أن المفهوم يفقد دائماً بعض العناصر من دلالاته الأصلية الأولى، وفي الوقت ذاته يكتسب عناصر دلالية أخرى جديدة" (الدواي، 1999، صفحة 131).

وأياً كان الأمر فإن آلية المفهوم لعبت دوراً أساسياً في بناء الخطاب عند الجابري، بحيث ساعدته على إضاءة موضوعاته والإحاطة بها؛ إذ تكمن أهمية المفهوم وقيمه الإجرائية في كونه يفتح آفاقاً جديدة للبحث والدراسة ويمكن الباحث من النظر نظرة شمولية لمجموعة من الأسئلة المعقدة.

2. آلية الأشكلة

معلوم أن قراءة التراث عند الجابري تقوم على ثلاثة خطوات أساسية؛ أولاها المعالجة البنيوية ويقصد بها دراسة التراث العربي انطلاقاً من النصوص كما هي، ويتضمن ذلك التخلي عن جميع أشكال الفهم الجاهزة لقضايا التراث بما في ذلك الفهم التراثي للتراث أي التخلص مما علق بفهمنا للتراث من الرواسب التراثية وعلى رأسها "القياس النحوي الفقهي - الكلامي في صورته الآلية اللاعملية التي تقوم على ربط جزء بجزء ميكانيكياً، والتي تعمل بالتالي على تفكيك الكل وفصل أجزائه عن إطارها

الزمانى - المعرفى - الإيدولوجى" (الجارى، 1993، صفحة 21). والخطوة الثانية هى المقاربة التاريخية وتقوم على ربط فكر أعلام التراث أو التيار الفكرى المدروس بالإطار التاريخى الذى يتحرك فيه من أجل فهم ظروف وسياق الفكر موضوع الدراسة من جهة، والتحقق من مدى سلامة النموذج البنوي الذى قدمته المعالجة السابقة من جهة ثانية. وتمثل الخطوة الثالثة فى المقاربة الإيدولوجية وتروم الكشف عن الأبعاد الإيدولوجية للتراث العربى، ورصد الوظائف الاجتماعية والسياسية التى أداها الفكر المدروس أو كان يرغب فى أدائها داخل المجال المعرفى الذى يندرج ضمنه.

والذى يهمننا هنا هو الخطوة الأولى، أى المعالجة البنوية، لأنها تنبنى على آلية إجرائية ساهمت بشكل كبير فى بناء الخطاب وتنظيمه عند الجارى، يتعلق الأمر بالآلية الإشكالية ويقصد بها "منظومة من العلاقات التى تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل من الناحية النظرية إلا فى إطار حل عام يشملها جميعاً" (الجارى، 1993، صفحة 39).

وتجلى هذه الآلية عند الجارى فى كونه يعمل على محورة فكر منتج النص (مؤلف، فرقة، تيار...) حول إشكالية دقيقة قادرة على استيعاب كل التحولات التى يتحرك بواسطتها ومن خلالها فكر منتج النص، وهكذا تجد كل فكرة من أفكاره موقعها داخل هذا الكل، وهى مهمة صعبة لأنها تتطلب جهداً فكرياً لرصد العلاقات والقواعد المتحركة فى هذا الكل الذى يؤطر الموضوع المدروس، غير أن "الحرص على ربط أفكار صاحب النص بعضها ببعض، والانتباه إلى طريقة - أو طرائق - التعبير لديه، واستحضار مخاطبيه، كل ذلك يجعل المهمة أقل صعوبة وأقرب منالاً" (الجارى، 1993، صفحة 24). ونجد حضوراً واسعاً لهذه الآلية فى الجزء الثانى من مشروع نقد العقل العربى (بنية العقل العربى)، حيث اهتم الجارى بقراءة الأنظمة المعرفية الثلاثة وتحليلها فى ضوء مجموعة من الإشكاليات التى تؤطر الإنتاج الفكرى فى كل نظام معرفى على حدة، فبالنسبة للنظام المعرفى البيانى فقد عمل الجارى على دراسته من خلال ثلاث إشكاليات وهى: إشكالية اللفظ والمعنى وإشكالية الأصل والفرع ثم إشكالية الجوهر والعرض، بينما عمل على محورة الفكر العرفانى فى الإسلام حول إشكاليتين اثنتين؛ أولاهما إشكالية الظاهر والباطن والثانية إشكالية النبوة والولاية، فى حين اهتم ببيان الكيفية التى تم بها تهيئة النظام البرهانى فى الثقافة العربية والطريقة التى رتبت بها العلاقة بينه وبين النظامين السابقين البيان والعرفان وما أدى إليه ذلك من تعديلات من خلال إشكاليتين: المعقولات والألفاظ، والواجب والممكن.

وهكذا يكون الجارى قد حدد الإشكاليات المتحركة فى الأنظمة المعرفية الثلاثة: البيان، العرفان، البرهان، وقد مكنته ذلك من بناء خطابه بشكل منظم ومحكم من جهة وتنسيق مباحث التراث

العقلي العربي وبيان تفاعل مكوناته من جهة أخرى، وبهذا يمكن تفسير النزوع النسقي الذي طبع هذا الجزء من رباعية نقد العقل العربي؛ فهو نزوع صادر "عن خبرة واسعة جعلته ينظر إلى الموضوع من شاطئ، فيرى جوانبه، في حين يطل كثير من منتقديه من زوايا حرجة أو من ثقب الباب" (العمري، 2016، صفحة 113).

3. آلية النمذجة

من الآليات التي يعتمد عليها الجبري في بناء خطابه "آلية النموذج" وهي آلية ذات طبيعة علمية بالأساس، ذلك أن المجال الأصلي الذي نشأ فيه هذا المفهوم وعرف فيه مجموعة من التطبيقات هو المجال الرياضي والتقني، "فقد اعتبر النموذج في الميدان التقني بالخصوص صورة مصغرة للموضوع (Maquette) الذي يراد إنجازه في صورته النهائية، بحيث يمكن إعادة إنتاجه في أبعاد الموضوع الحقيقية (...). ويخضع الموضوع المصغر، النموذج، لقياسات وحسابات واختبارات خاصة، تختلف عن تلك التي تمارس على النموذج في صورته النهائية. ومن هنا اكتسب النموذج حمولة منهجية هامة في تحديد التصورات وإعادة الإنتاجات التي تخدم أهداف المعرفة" (بوحسن، 2003، الصفحات 22 - 23).

وقد انتقل هذا المفهوم من المجالين الرياضي والتقني إلى مجال العلوم الإنسانية، نظراً لخصوبته وفعاليته المنهجية في تناول الموضوعات المدروسة، فهو وإن كان وليد الممارسة العلمية في مجال العلوم الدقيقة فإنه ليس حكراً عليها، بحيث يمكن أن ينتقل إلى مجالات معرفية أخرى كالعلوم الإنسانية مثلاً، مع مراعاة خصوصيات المجال المستقبل. وينعكس هذا الانتقال على وظيفة المفهوم بحيث لا يبقى له نفس الدور الذي كان له في مجاله الأصلي؛ فمفهوم النموذج، على سبيل المثال، إذا كان يسعى في العلوم الدقيقة إلى وضع القوانين وإسقاطها على موضوع جاهز مع ما يقتضيه ذلك من أسبقية للتجربة والممارسة، فإنه لا يسعى في مجال العلوم الإنسانية إلى وضع هذه القوانين وإثبات صحتها بالتجربة والممارسة بل يسعى إلى ضبط المادة المعرفية المدروسة في تصور فكري محدد ودقيق، كما أن النموذج في مجال العلوم الدقيقة يكون جاهزاً بشكل مسبق أو قبلي؛ بحيث تضع هذه العلوم لنفسها نماذج سابقة أو قبلية تروم إنجازها ومراقبتها للتأكد من مدى مطابقتها للتصور النظري أو النموذج المصغر للمنهج العملي، بخلاف النموذج في العلوم الإنسانية فإنه نموذج بعدي "أي أنه نموذج استقرائي، يكتشف ويصاغ فقط، ويعاد بناؤه نظرياً" (بوحسن، 2003، صفحة 26).

ولما كانت مسألة الإحاطة الشاملة بمسائل التراث العربي غير ممكنة فقد التجأ الجبري إلى هذه الآلية لتنظيم هذه المادة المعرفية الكبيرة والتحكم فيها؛ إذ يعمد إلى انتقاء مجموعة من النماذج الدالة ويبنى عليها دراسته، ولتأخذ، على سبيل المثال، دراسته لموضوع العقل المستقل في الثقافة العربية الإسلامية،

حيث اهتم ببيان مظاهر وتجليات الحضور الهرمسي في الثقافة العربية من خلال ثلاثة مجالات أساسية هي: العلم والعقيدة والفلسفة.

وقد ارتكز عمله في هذا المستوى على آلية النمذجة المتمثلة في رصد النزعة الهرمسية في كل مجال من المجالات المذكورة انطلاقاً من نموذج معين؛ ففي مجال العلم اختار الجابري نموذج جابر بن حيان وبين المضمون الهرمسي اللاعقلاني لرسائله بالوقوف على مجموعة من القضايا من قبيل: النظرة الهرمسية إلى الكون القائمة على ترابط أجزائه، ونظريته في النفس، ومسألة تصنيف العلوم، ورأيه في أبرز قضية شغلت الفلاسفة والمتكلمين وهي قضية القدم والحدوث. وفي مجال العقيدة اختار نموذج المتكلمين وخصوصاً الروافض وأوائل المتصوفة والغلاة، وبين أن الهرمسية كانت حاضرة بجلاء ضمن آرائهم، بينما انتقى في مجال الفلسفة نموذجين اثنين يمثلان الفلسفة الإسماعيلية أولهما "رسائل إخوان الصفا" التي تعد مدونة هرمسية كاملة، وهي على الرغم من ادعائها الأخذ من جميع المذاهب والأديان واستعمالها لجوانب من الأرسطية، وعلى الرغم كذلك من اتخاذها الإسلام لباساً، ولكن شفافاً، فهي لا تخفي انتماءها الهرمسي" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 202). وثانيهما أحمد حميد الدين الكرمانلي في كتابه "راحة العقل" الذي يمثل الصورة المنظمة لهذه الفلسفة، ويعتبر من أحسن ما أنتجه الفكر الإسماعيلي على مستوى المذهب وفيه تظهر النزعة الهرمسية بشكل واضح، وانطلاقاً من هذه النماذج يؤكد الجابري أن أول ما انفتح عليه العرب من مكونات الموروث القديم إبان عصر التدوين ينتمي إلى منتجات العقل المستقل، كما أنه "بمقدار ما كان الفكر العربي يتقدم في التدوين (الترجمة والتأليف) بمقدار ما كان العقل المستقل الذي تحمله الهرمسية والصيغة المشرقية من الأفلاطونية المحدثة، تحتل مواقع أساسية ومتجددة في الثقافة العربية الإسلامية" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 202).

ومن مظاهر توظيف هذه الآلية نجد دراسته لإشكالية اللفظ والمعنى في النظام المعرفي البياني؛ فقد اعتمد الجابري في بيان أشكال العلاقة بين اللفظ والمعنى في المباحث البيانية الأربعة: النحو، الفقه، علم الكلام، البلاغة، على نماذج معينة؛ ففي مجال النحو اعتمد على نموذجين؛ يمثل الأول في كتاب "الخصائص" لابن جني والثاني هو مؤلف "الكتاب" لسيبويه، وفي مجال الفقه اختار نموذج "المعتمد في أصول الفقه" لأبي الحسن البصري وبرر اختياره قائلاً: "لقد اخترنا هذا الكتاب لاعتبارين اثنين: أولهما أنه واحد من بين أربعة كتب كانت كما يقول ابن خلدون: قواعد هذا الفن وأركانه، وثانيهما أن مؤلفه معتزلي. ومعلوم أن المعتزلة كانوا، وظلوا دائماً، الممثلين الرسميين والمخلصين للبيان والنظام المعرفي البياني" (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 54). بينما اعتمد في مجال علم الكلام على نموذج القاضي عبد الجبار، ويفسر الجابري سبب اقتصاره على هذا النموذج دون غيره بقوله: "ولما كنا نفتقد نصوص

المعتزلة الأوائل فإن أكل عرض للنظرية البيانية الاعتزالية في التأويل إنما نجده في مؤلفات القاضي عبد الجبار آخر أقطاب المعتزلة ومدون وجهات نظرهم وشارح وقائعها وغوامضها" (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 67)، أما في مجال البلاغة فقد اعتمد على نموذج عبد القاهر الجرجاني ونظريته في النظم.

ويمضي العمل على هذا النحو في النظامين المعرفيين العرفاني والبرهاني؛ إذ ينطلق الجابري في دراسة قضايا هذه الأنظمة من نماذج معينة، وغالبا ما تكون هذه النماذج مركزية ومؤسسة في المجال المعرفي المدروس سواء أكان هذا المجال فرقة أو تيار... وهو ما يجعلها مؤهلة لتمثيل منتجات هذا المجال من جهة، كما يجعلها مسعفة للباحث في تعميم النتائج والأحكام المتوصل إليها من جهة ثانية.

ويرجع حضور هذه الآلية في الخطاب الفلسفي عند الجابري إلى الاعتبارات المنهجية التي تفرض على الكاتب الانطلاق من أمثلة معينة، والوصول إلى نتائج دقيقة يمكن أن تعمم على الأمثلة الأخرى التي لم يسمح المقام باستحضارها، يقول الجابري، مثلا، منبها قارئه إلى سبب اقتصره على نموذج ابن عربي في سياق دراسته لقضية "المماثلة أو القياس العرفاني" عند رجال التصوف الإشراقي: "لن يكون في إمكاننا هنا الرجوع إلى متصوفة آخرين ممن سلكوا مسلك ابن عربي كالسهروردي وابن سبعين... وذلك لضيق المجال من جهة ولأن دراستنا ليست في التصوف ذاته بل في العرفان ككل، كنظام معرفي. ولذلك كان لابد من الاقتصار على نماذج. ونحن نعتقد أن ابن عربي أفضل نموذج في هذا المجال" (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 296).

4. آلية الاستشهاد بالنصوص

يرتكز بناء الخطاب عند الجابري في رابعة نقد العقل العربي على توظيف النصوص بشكل ملفت للانتباه، بحيث يلاحظ أن تحليله للعقل العربي انطلق من النصوص بالأساس، وقد اعتمد الباحث هذه الطريقة في التحليل عن قصد منذ البداية، كما نوه بأهمية هذا المنحى في مواضع متعددة من مشروعه النقدي، فنراه ينبه القارئ في مقدمة كتاب "بنية العقل العربي" إلى ضرورة اعتماد النصوص في معالجة هذا الموضوع، بصيغة نلمس فيها اعتذارا من المتلقي بسبب هذا الحضور المكثف للنصوص وما يترتب عنه من عناء أثناء القراءة، يقول: "إن هذا الكتاب كان من الممكن أن يكون أروح مرتين لو أننا اقتصرنا فيه على التحليل النظري ولم نكلف القارئ عناء الخوض معنا في تحليل ملهوس لموضوعات ملهوسة: كان هذا الكتاب سيكون أروح للقارئ لو أننا قدمنا آراءنا جاهزة غير مقيدة ولا مثقلة بما تستند عليه من مواد فضلنا تركها في كثير من الأحيان، تعرض نفسها بنفسها" (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 9).

ويبرر الجابري هذا المسلك الذي اختاره في معالجة موضوع العقل العربي بثلاثة أسباب أوردها في مقدمة كتاب "العقل السياسي العربي" أولها يرتبط بطبيعة الموضوع المدروس؛ إذ لما كان موضوع الكتاب هو العقل السياسي فإن أفضل طريقة لدراسته هي استثمار النصوص التاريخية لأن "النص التاريخي نص سياسي، سواء كان وثيقة (خطبة، رسالة...) أو كان خطاباً أنتجه المؤرخ أو رواية رواها المعاصر للحدث أو القريب منه" (الجابري، العقل السياسي العربي، 2017، صفحة 53) ولأنه أيضاً، أي النص التاريخي، مرآة للتحويلات والحركات والمذاهب... التي ساهمت في تكوين العقل السياسي العربي، العقل الذي ساد الممارسة السياسية التي عرفتها البلاد العربية في الفترة المدروسة. وما يقال عن موضوع العقل السياسي في هذا المستوى المتعلق بتوظيف النص ينطبق على باقي المواضيع المدروسة في الأجزاء الأخرى.

ويتمثل السبب الثاني في الفئة المستهدفة؛ ويتعلق الأمر بطالب العلم ومن في حكمه والقارئ غير المختص بشكل عام، وهو ما يفرض على الباحث إحصار النصوص وشرحها وتوضيحها والتعليق عليها لتبليغ المراد ومن ثم تحقيق الإقناع. ويرتبط السبب الثالث بطبيعة المرحلة التي تسم بغياب النصوص الممثلة للموضوعات المدروسة وصعوبة توفر عليها (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 556). وبهذا يوفر الجابري على قارئه عناء العودة إلى المصادر من أجل الوقوف على هذه النصوص، ويعفيه بذلك من جهد كبير سيما وأنه يحرص في بعض الأحيان على إيراد النص بكامله وقد يستغرق ذلك صفحات مهمة من الكتاب، ونذكر، على سبيل المثال، ترجمته لأهم النصوص الهرمسية التي توضح قصة بداية الخلق والمعاد بواسطة السرد الأسطوري، ويتعلق الأمر بالنص الذي افتتحت به المدونة الهرمسية ويسرد فيه هرمس ما شاهده في إحدى مشاهداته الإشرافية ويحكي مجريات الحوار الذي دار بينه وبين الإله المتعالي، وقد استغرق هذا النص حوالي ست صفحات (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، الصفحات 263 - 268)، وهكذا يكون الجابري قد سهل المهمة على قارئه؛ بحيث عمل على نقله إلى اللغة العربية، أولاً، وإيراده كاملاً بعد أن قدم له ملخصاً موجزاً يوضح فيه مضامينه الأساسية، ولكن هذا لا يعني أن الجابري يجمع النصوص ويعرض الآراء وهنا ينتهي عمله، إذ ليست هذه النصوص سوى أدوات بيداغوجية يوضح بها أفكاره وآليات حجائية يستدل بها على مواقفه ويدعم بها فرضياته.

ويبدو أن توظيف النصوص في بناء الخطاب عند الجابري يتخذ مظهرين أساسيين؛ أولهما يتجلى في استحضار نصوص لتوضيح فكرة ما أو لدفع المتلقي للتسليم بصحة دعوى معينة، ويحضر هذا النوع من التوظيف في الرباعية برمتها، وثانيهما يتمثل في إيراد نصوص معينة وتحليلها لإثبات فرضية انطلق منها

الباحث، ومثل لهذا النوع من التوظيف بمثلين؛ أولهما جاء في الفصل الثالث من كتاب "تكوين العقل العربي" الذي يحمل عنوان "عصر التدوين: الإطار المرجعي للفكر العربي"، حيث قدم الجابري نصا للذهبي (انظر الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، الصفحات 62 - 63) أوردته جلال الدين السيوطي في كتابه "تاريخ الخلفاء"، وهو نص يتضمن معطيات حول تاريخ انطلاق عملية التدوين والمراكز التي تمت بها هذه العملية ورجالها وكذا المجالات التي شملتها (الحديث، الفقه، اللغة، النحو)، وقد اهتم الجابري بتحليل هذا النص من زاويتين؛ أولاهما انصرفت إلى استخراج المعلومات التي يقدمها النص، والثانية اتجهت إلى تسليط الضوء على المسكوت عنه مستثمرة في ذلك ما تتيحه المناهج الحديثة خاصة في مجال الحجاج في قراءة النصوص من إمكانات، ذلك أن من فوائد هذه المناهج أنها تمكن القارئ من الانتباه إلى الكيفية التي بني بها النص وتوسعته في الغوص إلى أعماقه والكشف عن المسكوت عنه وتفسير ذلك.

وبناء على هذا يرصد الجابري الجوانب التي سكت عنها نص الذهبي ويبين الأسباب الكامنة وراء ذلك، والغرض من ذلك هو إثبات فرضية أساسية مفادها أن عصر التدوين هو الإطار المرجعي للعقل العربي وليس العصر الجاهلي أو العصر الإسلامي لأن الصورة التي لدينا عن عصر التدوين بنيت في هذه الفترة نفسها كما أن الأحداث التي جاءت بعده لا تفهم إلا إذا ربطت به لأنه الإطار المرجعي للثقافة العربية.

ويحضر المثال الثاني في الفصل العاشر من الكتاب نفسه والذي يحمل عنوان "تنصيب العقل... في الإسلام"، ويتعلق الأمر هذه المرة بنص أوردته ابن النديم في "الفهرست" تحت عنوان "ذكر السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 222)، وقد استحضرت الجابري هذا النص في سياق الجواب عن سؤال: متى وكيف بدأ يحضر أرسطو في الثقافة العربية الإسلامية وما هي الأسباب الكامنة وراء هذا الحضور؟ ويتضمن هذا النص مجريات الحلم الذي رآه المأمون والذي كان الدافع على إقبال الدولة عهدئذ على ترجمة مؤلفات العلوم القديمة، ولهذا اعتبره الجابري وثيقة تاريخية تكشف عن الدواعي التي كانت وراء عملية ترجمة المؤلفات اليونانية وعلى رأسها مؤلفات أرسطو في عهد الخليفة العباسي المأمون، وقد سلك الجابري في تحليل هذا النص المسلك نفسه الذي اتبعه في معالجة النص الأول؛ إذ اتجهت عنايته إلى تحديد مضامينه والمناسبة التي أنتج فيها، ثم انتقل إلى عملية تأويله في ضوء المعطيات التاريخية والسياسية لإثبات فرضية أن اتجاه الدولة في تلك الفترة بالذات إلى إحياء الكتب القديمة وترجمتها إلى العربية وتسخير إمكانات مادية مهمة لأجل ذلك لا يمكن أن يكون الدافع إليه مجرد حلم، وإنما هو محاربة مجموعة

من التيارات التي كانت تهدد استقرار دولة الخلافة؛ فقد وجد العباسيون أنفسهم أمام أحزاب أو حركات تنشط سرا وعلنا لنشر أيديولوجيتها، وتمثل هذه الحركات في المانوية والباطنية وحركة العرفان الشيعي، فكان من الطبيعي أن تقوم الدولة برد فعل من جنس هذا التهديد ويتمثل في الاستجداء بالمؤلفات والعلوم القديمة خاصة مؤلفات أرسطو وترجمتها إلى اللغة العربية بهدف تنصيب العقل في الثقافة العربية والاحتكام إليه في الخلافات الإيديولوجية والدينية.

وبهذا يكون الجابري قد جمع في تحليله للنصين بين القراءتين؛ القراءة الاستنساخية ذات البعد الواحد، أي تلك التي تنقل مضمون النص لا غير، والقراءة التأويلية التي تسعى إلى استنطاق النص في ضوء المعطيات التاريخية والملابسات المقامية، ويمكن اعتبار قراءته للنصين معا قراءة حجاجية بالأساس لأن من بين الجوانب التي يهتم بها هذا الحقل هي العلاقة بين ما هو ظاهر وما هو مضمون (Meyer, 1982, p. 112)؛ إذ من خصائص الخطاب الإقناعي الإضمار بحيث إن المتكلم لا يعبر عن كل شيء بشكل مباشر، وإنما يخفي بعض الأشياء ويظهر أخرى، وفي هذا السياق يرى غريز أن من أبرز سمات الحجاج القدرة على إضمار القصد النهائي (Grize, 1982, p. 19).

وتضطلع هذه النصوص بثلاث وظائف أساسية؛ تمثل الأولى في الوظيفة البيداغوجية، بحيث تسهم هذه النصوص بشكل كبير في توضيح الفكرة التي يروم الباحث تبليغها إلى المتلقي، ولهذا نجد الجابري يورد فقرات طويلة أحيانا من المؤلفات المرتبطة بالقضية موضوع البحث لتكوين صورة واضحة عنها لدى المتلقي، ولما كان طول هذه النصوص قد يثقل على القارئ فقد كان الجابري ينبه قارئه، من حين لآخر، إلى دورها في توضيح المقصود، فيشد بذلك انتباهه ويدفعه إلى الخوض في قراءة هذه النصوص وتبين ما يسعى الباحث إلى كشفه، كأن يقول، مثلا، بعد إيراده مجموعة من النصوص المقتطفة من كتاب "الألفاظ المستعملة في المنطق" للفارابي في سياق دراسته لتصنيف الألفاظ عند هذا الأخير: "ونحن نستسمح القارئ إذا نقلنا هنا فقرات مطولة مما كتبه الفارابي في هذا الموضوع، لأن الاطلاع على النص كما هو سيجعلنا نلحس بوضوح الطريقة البيداغوجية الذكية التي قصد الفارابي بها تحويل اهتمام البيانيين من الألفاظ إلى المعاني..." (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 430).

أما الوظيفة الثانية فهي الوظيفة الحجاجية، وتتجلى في إثبات ما يقدمه الجابري من آراء وأحكام؛ إذ كلما كانت هذه الآراء والأحكام مسنودة بنصوص ثبتت صحتها كان إقناع المتلقي بها أمرا سهلا، وقد أكد الجابري هذا البعد الحجاجي للنصوص في مناسبات متعددة ومثال ذلك قوله في مقدمة كتاب "بنية العقل العربي": "لقد أردنا أن تكون أحكامنا تحمل معها مستنداتنا، وأردنا أن تكون هذه المستندات

متنوعة تنطق باسم كيان العقل العربي ككل" (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، الصفحات 9 - 10).

ويبدو أن الجابري يستعمل هنا لفظة "المستندات" بدل لفظة النصوص، والمستندات في اللغة من فعل سند، يقال: "سند إليه: ركن إليه، واعتمد عليه واتكأ (...) وسانده مساندة وسنادا: عاونه وكانفه" (إبراهيم مصطفى، مادة س، ن، د)، وعليه فالمستندات هي وثائق يتكئ عليها الجابري لتبليغ أفكاره وإقناع المتلقي بصحتها، ومعلوم أن كلمة المستندات من الكلمات المتداولة بشكل كبير في المجال القانوني والقضائي على وجه الخصوص، ويقصد بها تلك الوثيقة التي يقدمها أحد طرفي الدعوى لإقناع القاضي بصحة ادعائه، ومقتضى هذا أن الجابري يعتبر نفسه في هذا المشروع النقدي صاحب دعوى، وعليه أن يدفع القارئ إلى التسليم بصحتها معتمدا في ذلك على ما تقدمه المدونة التراثية من نصوص تزكي ما يذهب إليه.

بينما تمثل الوظيفة الثالثة في تقييد الكلام، ذلك أن الاعتماد على الاستشهادات أثناء الكتابة من شأنه أن يجعل الكلام دقيقا ومضبوطا، وهو ما يفهم من كلام الجابري: "إننا نؤمن بأهمية اعتماد النصوص في المرحلة الراهنة من تطورنا الفكري؛ فهي وحدها التي تكبح جماح الرغبة وتضع حدا للاستهتار في الكتابة" (الجابري، العقل السياسي العربي، 2017، صفحة 53).

وإلى جانب هذه الوظائف يمكن الإشارة أيضا إلى الهاجس التربوي، المتمثل في كون الجابري يسعى من خلال هذا التوظيف المكثف للنصوص إلى تمكين قارئه من مهارتين، لا غنى للباحث عنهما؛ أولاهما مهارة استثمار المقروء في الكتابة العلمية، والثانية هي مهارة تحليل النصوص، ويؤكد الجابري هذا المقصد التربوي قائلاً: "ونحن نعتقد أن حاجة طلابنا إلى كيفية استثمار النصوص استثمارا منهجيا لا تقل عن حاجتهم إلى التحليل الذي يفتح أمامهم آفاقا جديدة، ولذلك حاولنا الجمع بينهما" (الجابري، العقل السياسي العربي، 2017، صفحة 53).

5. آية العرض والتلخيص

إن المتأمل لمنهجية الجابري في الكتابة ضمن رباعية نقد العقل العربي سيلاحظ أنه يعتمد بشكل كبير على آليتي العرض والتلخيص في بناء خطابه. ويتخذ العرض ضمن مؤلفات هذا المشروع النقدي ثلاثة مظاهر أساسية: يمثل المظهر الأول في العرض التاريخي؛ أي سرد مجموعة من الوقائع والأحداث التاريخية، ونجد حضورا واسعا لهذا المظهر في الجزأين الأول والثالث؛ ففي الأول اهتم الجابري بتتبع مراحل تكوين العقل العربي داخل الثقافة العربية العالمية، ويقصد بها تلك الثقافة التي تم جمع وترتيب مكوناتها في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ولذلك سميت هذه الفترة بعصر التدوين، وقد انتبه

الجابري إلى هذه النزعة التاريخية المهيمنة على هذا الكتاب وبين في خاتمته البواعث والغايات المتوخاة من ورائها، بحيث يقول: "وجدنا أنفسنا، أثناء البحث، أمام ضرورة ممارسة نوع من التأريخ للثقافة العربية يقوم على إعادة ترتيب العلاقات بين أجزائها وقطاعاتها. ومن هنا النتيجة الأولى التي تفرض نفسها علينا في نهاية هذا الكتاب الأول من مشروعنا، وهي أن الثقافة العربية في حاجة ماسة وملحة إلى إعادة كتابة تاريخها" (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 332).

ويتجلى العرض التاريخي في الجزء الثالث من خلال تقديم قراءة كرونولوجية للتاريخ السياسي العربي؛ بدءاً بالدعوة المحمدية وما تعلق بها من أحداث ساهمت في تأسيس الدولة ومرورا بالأزمات والصراعات الداخلية التي شهدتها هذه الدولة في عهد الخلفاء الراشدين خاصة مرحلة الفتنة؛ وهي المرحلة التي عرفت مجموعة من المشاكل على رأسها مشكلة الحكم في فترة خلافة عثمان خاصة في السنوات الأخيرة منها، ووصولاً إلى مرحلة قيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان، وقد اعتمد الجابري في هذه القراءة التاريخية على كتب التاريخ والسيرة.

ويتمثل المظهر الثاني في عرض محتوى مؤلفات معينة، إذ يلاحظ أن الجابري عادة ما يقدم عرضاً مفصلاً لمضامين المؤلفات التي ينبنى عليها موضوع البحث، وهو إجراء بيداغوجي بالأساس يسعى من خلاله إلى تمكين قارئه من كافة المعطيات التي من شأنها أن تعينه على فهم الإشكالية المقصودة، ومثال ذلك العروض التي قدمها في بداية القسم الأول من كتاب "بنية العقل العربي" الذي خصصه لدراسة النظام المعرفي البياني؛ بحيث نجد عرضاً لرسالة الشافعي وعرضاً للقضايا الأساسية الواردة في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، ومباشرة بعد ذلك نجد عرضاً للنظرية البيانية في المعرفة عند ابن وهب من خلال كتابه "البرهان في وجوه البيان"، يقول الجابري بعد أن قدم مجموعة من المعلومات بين فيها الظروف التي برز فيها مشروع ابن وهب: "بعد هذه الملاحظات التي ربما كانت ضرورية لوضع مشروع ابن وهب في إطاره الحقيقي، ننتقل إلى عرض الهيكل العام لهذا المشروع الذي ينقل إليه صرح البيان كما تم تشييده، انطلاقاً من الشافعي والجاحظ كنظام معرفي قائم بنفسه يحكمه منطق داخلي وتوجهه نظرية في المعرفة، المعرفة البيانية" (الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 33).

أما المظهر الثالث فهو تقديم دروس أو محاضرات موجزة حول قضايا معينة، ومن ذلك تقديمه درساً حول آية المماثلة عند بيرلمان وبلانثي (انظر الجابري، بنية العقل العربي، 2017، الصفحات 335 - 377)، كما قدم درساً آخر حول منهج أرسطو ومقولاته الخمس المشهورة (انظر الجابري، بنية العقل العربي، 2017، الصفحات 385 - 388) ودرساً عن آلية القياس الجامع عنده (السلوجسموس) (انظر الجابري، بنية العقل العربي، 2017، صفحة 391)؛ فالجابري يكتب هنا

باعتباره ناقدا يهدف إلى تحليل مكونات العقل العربي ورصد أشكال التأثير والتأثر بينها، كما يكتب باعتباره أستاذا يسعى إلى تبليغ درسه إلى الطالب وجعله مفهوما لديه.

أما فيما يخص آلية التلخيص فهي تحضر بشكل كبير في نهاية الفصول ونهاية الأجزاء أو الكتب، حيث يحرص الجابري على تقديم خلاصاته بشكل مكثف يذكر فيها قارئه بما تناوله، ليس بالإشارات المعنوية فحسب، وإنما بجمل تذكر بشكل مباشر وتنبه القارئ وتقدم له زبدة الكلام، من ذلك ما نقرأه في قوله، مثلا في نهاية الفصل السادس من "تكوين العقل العربي": "... تناولنا في الفصول الثلاثة الماضية دور الموروث العربي الإسلامي الخالص في تكوين العقل العربي، فانتبهنا في الفصل الأول إلى (...) أما في هذا الفصل والفصل السابق له فقد اتجهنا إلى الأعمال العربية الأصلية والأصيلة..." (الجابري، تكوين العقل العربي، 2017، صفحة 131)، وهكذا يواصل المؤلف تقديم خلاصاته بشكل مركز وواضح يضمن الترابط بين أجزاء الكتاب الواحد من جهة وبين أجزاء المشروع، أي بين الكتب الأربعة، من جهة ثانية.

خلاصة

حاولنا في هذا الموضوع الكشف عن الآليات الأساسية التي يعتمد عليها الدكتور محمد عابد الجابري في بناء خطابه الفلسفي خاصة في رباعية نقد العقل العربي وبيان وظائفها الأساسية؛ وهي آليات رغم تنوعها تلتقي في أداء وظيفتين اثنتين؛ أولاهما بيداغوجية تتجلى في تقريب مضامين خطابه من القارئ وجعلها مفهومة لديه سواء أكان هذا القارئ متخصصا أم غير متخصص، ولعل هذا ما يفسر الانتشار الكبير الذي عرفته كتاباته خاصة رباعية نقد العقل العربي، أما الوظيفة الثانية فهي الوظيفة المحجاجية؛ إذ لما كان الجابري صاحب دعوى تمثل في تقديم قراءة نقدية موضوعية للتراث العربي؛ قراءة تتجاوز القراءات التي تقدر هذا التراث وتجد منظوماته وتتخطى المواقف السلبية منها معتمدا في ذلك على مفاهيم فكرية وفلسفية معاصرة، فقد وظف هذه الآليات لغرض محاجي يتجلى في إقناع القارئ بصحة ونجاعة هذا المسلك الذي اتبعه في التعامل مع التراث العربي.

المراجع بالعربية

- أحمد بوحسن، العرب وتاريخ الأدب، نموذج كتاب الأغاني، دار توبقال، الدار البيضاء، 2003؛
- الطاهر وعزيز، المفاهيم طبيعتها ووظيفتها، ورد ضمن: مجلة المناظرة، العدد الأول، شوال 1409، يونيو 1989؛

- عبد الرزاق الدواي، مفهوم اللاشعور، نماذج من انتقالاته في الفكر المعاصر، ضمن: انتقال النظريات والمفاهيم، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: 76، 1999؛
- عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، لبنان، بيروت، 1973؛
- عبد الله العروي، مفهوم الأديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1980؛
- محمد العمري، الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري ضمن: محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة، إعداد وتقديم كمال عبد اللطيف، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2016؛
- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الخامسة، 1994؛
- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة العاشرة، بيروت، 2017؛
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، 2017؛
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، 2017؛
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، 2017؛
- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة السادسة، 1993؛
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا (بدون تاريخ)
- الموسوعة الفلسفية، بإشراف، م. روزنتال، وب، بودين، ترجمة، سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1974.

المراجع بالفرنسية

- Jean –Blaise Grize, De la logique à l'argumentation, Librairie Droz S.A, Genève, 1982 ;

Michel Meyer, Logique, Langage et argumentation, Classiques Hachette, Paris, –
1982.

أثر التحولات المعرفية لدى التياران البنوي والعقلاني في تطوّر السمات المحددة لعلمية اللسانيات

The impact of cognitive shifts among the structuralist and rationalist trends on the development of the specific features of linguistics

ط.د. رياض عز الدين، المركز الجامعي سي الخواس بريكة/ الجزائر.

البريد المهني: riyadh.azedine@cu-barika.dz

إشراف الأستاذ الدكتور: عمار لعويجي قسم اللغة والأدب العربي، المركز الجامعي سي الخواس بريكة / الجزائر

البريد المهني: Ammar.laouidji@cu-barika.dz

ملخص:

تعدّ البنوية والعقلانية أهم الاتجاهات الفلسفية التي عرفها الفكر الإنساني، لذا كان من الطبيعي أن تخضع جلّ العلوم للفلسفتين؛ إذ ظهر إلى الوجود فلسفة علم بنوية وفلسفة علم عقلانية، وكان لكلّ فلسفة تصوراتها حول السمات المحددة للعلم. وقد خضعت اللسانيات - باعتبارها إحدى العلوم - للفلسفتين، مما انعكس عليها بتغيّر النظرات لدى اللسانيين اتجاه السمات المحددة لعلميتها.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى بيان تحوّل نظرات اللسانيين حول السمات المحددة لعلمية اللسانيات في ضوء تأثيرهم بمفردات التياران البنوي والعقلاني.

وتوصّلت الدراسة إلى نتيجة مفادها أنّ مفهوم علمية اللسانيات لم يعرف استقراراً لأنّ وجهة نظر اللسانيين إلى سمات العلمية تأثرت بفلسفة العلم لدى التياران البنوي والعقلاني. الكلمات المفتاحية: البنوية، العقلانية، اللسانيات، العلم.

Abstract: Structuralism and rationalism are the most important philosophical trends known to human thought, so it was natural for most sciences to be subject to the two philosophies. A structural philosophy of science and a rational philosophy of science came into existence, and each philosophy had its own conceptions of the specific features of science. Linguistics - as one of the sciences - was subject to the two philosophies, which was reflected in the change in views among linguists towards the specific features of its science.

This research paper aims to demonstrate the transformation of linguists' views on the specific features of linguistics in light of their influence by the products of the structural and rationalist trends.

The study reached the conclusion that the concept of scientific linguistics was not stable because the linguists' view of the attributes of scientificity was influenced by the philosophy of science of the structuralist and rationalist trends.

Keywords: structuralism, rationalism, linguistics, science

مقدمة:

تتفق جل الدراسات -على تنوع توجهاتها واختلاف غاياتها- على أن اللسانيات علم حديث؛ ذلك أن صفة العلمية التي اتصفت بها اللسانيات منذ سوسير (F.de Saussure) هي التي تعطي خصوصية اللسانيات في دراسة اللغة. لكن وسم هذا النوع من الدراسة اللغوية بالعلم يوازيه إختلاف تصورات العلماء والفلاسفة حول ماهية علمية اللسانيات، وهذا إذا علمنا أن مفهوم العلم في حد ذاته يعرف غموضاً؛ فالدراسات المهمة بـ"العلم" تتفق على وجوده وتختلف في تعريفه وتحديد سماته التي تطورت نتيجة سيادة تيارات معرفية مختلفة.

واللسانيات -بصفتها علم- لم تكن بمنأى عن هذه التطورات؛ إذ يلاحظ عبر تاريخها مدى إجتهد اللسانيين في إثبات مدى تحلي اللسانيات بصفات العلم ومعاييرها المختلفة التي تنبثق من فلسفة العلوم، لبيان أن اللسانيات تستجيب لتلك المعايير.

ولتحقيق ذلك يحرص اللسانيون على التحلي بصفة المرونة الإبتيمولوجية، بمراجعة مستمرة لأسس العلم ومقوماته، وعصرنة اللسانيات في ضوءها؛ وذلك باعتبار أن تصور العلماء للعلم عرف تطورات مستمرة نتيجة سيادة نزعات معرفية مختلفة لعل أبرزها النزعتين المصاحبتين للتيارين البنيوي والعقلاني.

وفي اللسانيات يلاحظ أن أسمى المحطات التاريخية التي تجسدت فيها آثار التياران البنيوي والعقلاني تتمثل في ما أحدثه فرديناند دي سوسير (F.de Saussure) من قطيعة معرفية مع المناهج الكلاسيكية في دراسة اللغة لتأثره بفلسفة العلم السائدة في عصره، وكذلك في ما أحدثه تشومسكي (N.chomsky) من قطيعة معرفية ثانية مع التصورات البنيوية للغة لتبنيه لفلسفة عصره أيضاً.

ولذلك فإن متبّع التطورات المعرفية في اللسانيات يلفي أن مفهوم علمية اللسانيات لم يعرف استقراراً؛ إذ أن مفهوم العلمية الذي أرساه ودافع عنه دي سوسير ليس هو المفهوم الذي حدده تشومسكي؛ فإذا كان كلا من سوسير وتشومسكي يبحث عن تحقيق العلمية لللسانيات، فإن العلمين اختلفا في تصور العلم، فكل واحد منهما استثمر مفرزات فلسفة العلم التي تناسب عصره للتعبير عن تصوراته لعلمية اللسانيات، ومن ثمة سعى كل واحد منهما إلى جعل اللسانيات منسجمة مع منظومة العلوم حسب كل عصر، فمثلاً، كان "سؤال العصر في زمن البنيوية هو: ما الشرط الضروري لقيام الظاهرة العلمية؟ وكان الجواب هو أن تكون الظاهرة مؤسقة، وينطبق ذلك على اللسان. وسؤال العصر في زمن توليدية تشومسكي هو: ما الشرط الضروري لقيام المعرفة: أهو العقل أم المحيط الخارجي؟ وكان الجواب عند فريق هو: إنه العقل أولاً" (العمري، 2021، ص 24).

وهكذا تأسست اللسانيات في زمن سوسير منسجمة مع تساؤلات عصره، وكذلك تأسست اللسانيات في زمن تشومسكي، وكانت جهود كل من العلمين ثورة معرفية عما سبقها (ثورة دي سوسير على المنهج التاريخي المقارن، وثورة تشومسكي على المنهج البنيوي الوصفي)، وكان كل واحد منهما ساعياً بجهدته إلى مواكبة مفهوم العلمية التي اقتضاها العصر. ومن أجل ذلك اختلفت المبادئ والغايات والمفاهيم بين السوسيريون والتشومسكيون باختلاف التصورات فيما يتعلق بسمات العلم.

وفي هذا الصدد فإن موضوع دراستنا الموسومة ب: أثر التحولات المعرفية لدى التياران البنيوي والعقلاني في تطور السمات المحددة لعلمية اللسانيات يتحور حول أهم التحولات المعرفية التي عرفتها اللسانيات في موضوعها، ومناهجها، وغاياتها،... انطلاقاً من تأثير أهم علمين للسانيات (دي سوسير وتشومسكي) وأتبعهما بفلسفة التياران البنيوي والعقلاني.

وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز السمات المحددة لعلمية اللسانيات وأثر البنيوية والعقلانية في ذلك من خلال محاولة الإجابة عن الإشكالية الرئيسية التالية: ماهي التحولات المعرفية التي ظهرت في السمات المحددة لعلمية اللسانيات في ضوء سيادة التيار البنيوي زمن دي سوسير وسيادة التيار العقلاني زمن تشومسكي؟

وللإجابة عن ذلك ستتبع الدراسة المنهج الوصفي في عرض السمات المحددة للسانيات عند الوصفيين والتوليديين، وسيتمركز ذلك بالتحليل والنقد لمناقشة هذه التصورات، كما اقتضت طبيعة الدراسة رسمها وفق الهيكل الذي سيأتي بيانه.

1. السمات المحددة لعلمية اللسانيات:

يحدّد العلماء مجموعة من السمات للعلمية، وهي سمات تختلف باختلاف تحديد العلماء لماهية العلم نفسه، كما يحدّد العلماء مجموعة من المقاييس التي تكون في ضوءها الدراسة اللغوية علمية وهي (الوعر، 1988، ص 10-11):

- ملاحظة الظواهر اللغوية.
- التجريب والاستقراء الدينامي المستمر.
- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير.
- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها.
- استعمال النماذج والعلاقات الرياضية الحديثة.

- التحليل الرياضي الحديث.
- الموضوعية المطلقة والدقيقة.
وهذه المقاييس متفق عليها عند جمهور العلماء واللسانيين، إذ أنها قابلة للتطبيق على اللسانيات وعلى بقية العلوم.

كما يشترط العلماء للعلم سواء كان علما طبيعيا أو إنسانيا أن تكون له الأبعاد الفلسفية الثلاثة التالية (الوعر، 1988، ص 9-18): 1/ حدّ العلم (أي ماهيته)، 2/ مادة العلم (أي الموضوع أو الظاهرة التي يعالجها)، 3/ غاية العلم (أي التطبيقات النفعيّة البراغمية التي يريد تحقيقها).

وإلى جانب هذه الأبعاد يضيف بشير إبرير (إبرير، 2007، ص 205-206)

- منهج يستخدمه في تلك التطبيقات.
- نتائج يسجلها ويسعى إلى تعميمها.
- لغة يعبر بها عن هويته وتميزه عن غيره من الخطابات الأخرى.
كما يرى عبد السلام المسدي (المسدي، 1986، ص 13-14) أنّ اللسانيات بلغت حدّ العلم المتكامل وذلك ب:

- إفراز اللسانيات لثبتها الاصطلاحي الخاص بها.
- محاولة روادها ضبط فلسفتها التأسيسية أو ما يسمّى بأصولية العلم.
- الحركة الاستبطانية التي تشهدها الدراسات التاريخية والمحاولات النظرية العامة.
2. السمات المحددة لعلمية اللسانيات في ضوء فلسفة التياران البنيوي والعقلاني:

عرضنا في ما سبق بعض التصوّرات لسمات علمية اللسانيات، وهي تصوّرات مستمدة في غالبيتها مما وضعه فلاسفة العلم الغرب كتوماس كون (T.Kuhn)، وفرانيس بيكون (F.Bacon).

وهذه السمات هي موضع الاتفاق بين اللسانيين؛ إذ أنّ اللسانيات بدأت بمحاولة إنشاء أرضية إستمولوجية خاصة تحقّق لها الاستقلال والقطيعة مع غيرها من الدراسات اللغوية، مع الاستفادة منها قدر الإمكان في وضع نظريات جديدة يكون عمادها الدقّة والوضوح في التحديد، والصرامة والموضوعية في التطبيق والاستنتاج، والجدة في الآليات والمنهج والتقنيات والموضوعات والمفاهيم والمصطلحات.

غير أنّ الاتفاق حول هذه السمات لا يقابله الاتفاق حول تصوّر التفاصيل المتعلقة بها؛ إذ شهدت اللسانيات منذ سوسير تحولات نظرية ومنهجية مهمة شكّلت تصوّرات متعددة لبعض السمات بتعدّد

وجهات نظر اللسانيين إلى موضوع البحث، وبتعدد النزعات والتوجهات العلمية والاهتمامات الخاصة للسانيين.

وسنبيّن بعض هذه الاختلافات، أو التحوّلات التي شهدتها اللسانيات في بعض جوانبها، وسنستند في ذلك بالسّمات المحدّدة لعلمية اللسانيات السّابق عرضها.

1.2 الماهية (التعريف):

تعرف اللسانيات لدى اللسانيين الغربيين والعرب بعدة تعريفات نذكر منها:

تعريفات بنوية للسانيات		
المصدر	التعريف	صاحب التعريف
،Saussure) ،2005 (ص 247)	La Linguistique a pour unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et pour elle-même.	فريدريك دي سوسير
	الترجمات العربية	
،غازي، 1984، (ص 286)	إنّ هدف الألسنية المنفرد والحقيقي إنّما هو اللّغة منظورا إليها في ذاتها ولذاتها.	
،(القرمادي، 1985، ص 347)	إنّ موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنّما هو اللّغة في ذاتها ولذاتها	
،(عزيز، 1985، (ص 253)	إنّ الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللّغة هو أنّ اللّغة تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها.	
،(الكراعين، دت، ص 409)	إنّ الموضوع الوحيد والصّحيح لعلم اللّغة هو دراسة اللّغة في ذاتها ومن أجلها (أجل ذاتها).	

،1987 (قيني، ص 295)	إنّ موضوع علم اللسان الحق والوحيد إنّما هو اللسان (اللغة) معتبرا في ذاته ولذاته.	
(الحاج صالح، 2012، ص 40)	والدراسة اللسانية كما قال سوسور "هي دراسة من اللسان وإليه".	
(غلفان، 2017، ص 77)	يعرّف سوسير اللسانيات متبعا في ذلك قاموس هارتزفيلد Hartzfield ودارمستتر Darmesteter، وتوماس thomas إنّها "إنّها الدراسة العلمية للألسن".	
(دبة، 2019، ص 41)	اللسانيات هي الدراسة العلمية للسان البشري، إنّ دراسة ما تكون علمية حينما تتأسس على لحظ الوقائع، وتجنّب افتراض اختبار ضمن هذه الوقائع باسم بعض المبادئ الجمالية أو الذهنية.	أندري ماريتي
(السراج، 2007، ص 77)	إذا قلت ((كلّ لسان)) فهذا لأنني أميز لسانا من آخر، من السنة أحر. ولا أرى أبدا ما يوافق هذا ((ال))لسان. كيف يكون ((ال)) لسان؟ إنني لا أعلم عنه شيئا. ((ال)) لسان لا أعرفه. لسان ما، نعم! أنا أعتذر لكوني بمثل هذه الواقعية، فأنا أتهم بالواقعية وأحمد عليها، ولكنني فعلا واقعي. ينبغي عليّ معرفة أين يوجد هذا ((ال))لسان. لسان ما، أنا أعرف المقصود، ((ال))لسان، أنا لا أعرف أبدا ما المقصود.	
	تعريفات عقلانية (توليدية تحويلية) للسانيات	
(عبد العزيز، 2011، ص 55)	علم اللغة علم عقلاني في جوهره [٠٠٠] المقارنة بين موقف عالم الطبيعة وعالم العلوم الاجتماعية خارجة عن الموضوع، علم اللغة فصل من دراسة العقل، ومن المقرر أن يقال إنه فرع من فروع علم النفس الادراكي، وعلم اللغة بهذا الاعتبار ليس على خطأ حين يعدّ الحدس جزءا من مادته.	عبد العزيز
(الوعر، 1982،	ينبغي في رأيي أن ننظر إلى علم اللسان (Linguistics) على أنّه جزء من	

(ص 78)	علم النفس (psychology)، وينبغي أن ننظر إليه في المدى البعيد على أنه جزء من البيولوجيا الانسانية human biology وذلك لأن علم اللسان، كما أراه، هو جزء من دراسة المقدرة البيولوجية الخاصة التي يتصف بها الدماغ الإنساني	
--------	--	--

يلاحظ في هذه التعريفات أنها متباينة؛ ذلك أن هذه التعريفات خاضعة للسلطات التالية:

1- سلطة الموضوع: يتحكم الموضوع في تحديد تعريف اللسانيات؛ فديسوسير (F.de Saussure) يعدّ اللسان موضوعا للسانيات ولذلك يعرفها على أنها الدراسة العلمية للسان، وقد اختلفت الترجمات العربية حول مصطلح Langue السوسيري؛ ف يوسف غازي، وصالح القرمادي، ويوثيل يوسف عزيز، ونعيم الكراعين وغيرهم يترجمونها باللغة، ولذلك يكون موضوع اللسانيات عندهم هو اللغة، وتكون اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة عندهم، بينما نجدها عند عبد الرحمن الحاج صالح، مصطفى غلفان، وآخرون تترجم باللسان فيجعلون اللسان موضوعا للسانيات ويأتي تعريفهم دالا على ذلك، كما جاءت ترجمة القنيني لـ Langue متناقضة وغريبة؛ إذ ترجمها باللسان، وبين قوسين اللغة، وشتان بين Langue و Langage اللذان ميز دي سوسير بينهما بوضوح.

كما يميز أندري مارتيني (A.Martinet) بين اللسان La langue، ولسان ما Une langue فهو يرى أنهما لا يدلان على شيء واحد عكس ما هو متداول عند الكثير ولذلك يركّز على Une langue في تعريفه.

أما تشومسكي (N.Chomsky) فهو يعدّ الحدس / اللغة موضوعا للسانيات فيأتي تعريفه موافقا لذلك.

أ- سلطة المنهج: يتحكم المنهج في تحديد تعريف اللسانيات؛ فالبنويون-الوصفيون يركّزون في تعريفاتهم للسانيات على بيان أن اللسانيات هي العلم الذي يهتم بوصف الوقائع (كما ظهر في تعريف مارتيني)، أما أصحاب التيار التوليدي التحويلي فهم يأخذون بالمنهج التفسيري ويعرفون اللسانيات على أنها العلم الذي يفسر الظواهر اللغوية في العقل البشري.

ب- سلطة النزعة الفلسفية: تتحكم النزعة الفلسفية التي ينتمي إليها الباحث-التي تظهر لدى الباحث في صورة منطلقات فكرية- في تعريف اللسانيات؛ فأصحاب النزعة التجريبية (البنويون-الوصفيون) يعرفون اللسانيات بأنها علم إنساني، وأصحاب النزعة العقلية (أصحاب التيار التوليدي) يعرفونها بأنها علم طبيعي...

ج- سلطة الغاية: تتحكم الغاية في تحديد تعريف اللسانيات؛ فالبنويون- الوصفيون يرون أن غاية اللسانيات هي الوصف، أما التوليديون فيرون أن غايتها التفسير.

د- سلطة العلاقة مع العلوم الأخرى: في البداية كان انفصال اللسانيات عن العلوم الأخرى هو الشغل الشاغل لدى اللسانيين؛ ولذلك كانت تعريفات أصحاب التيار البنوي توحى بأن اللسانيات علم مستقل، وبعد ذلك أصبح اتصال اللسانيات مع بعض العلوم ضرورة عند بعض اللسانيين، فأصبحت تعريفات أصحاب التيار العقلافي (التوليدي التحويلي) لها توحى بوجود شراكة وتفاعل للسانيات مع العلوم الأخرى كالبيولوجيا، وعلم النفس الإدراكي...

ونستخلص من كل ما سبق أنه يصعب الوقوف عند تعريف محدد للسانيات يكون محط اتفاق الجميع، لأن تعريف اللسانيات يكون حسب نظرة الباحث إلى سلطات: الموضوع، المنهج، النزعة الفلسفية، الغاية والعلاقة مع العلوم الأخرى.

2.2 المادة والموضوع:

إن من سمة العلوم الاختصاص بمجموعة من الظواهر التي تحددها وتسعى لوصفها وتفسيرها ودراستها بمنهج مناسبة، هذه الظواهر في ميدان العلوم تسمى الموضوع، ووجود العلم مرهون بوجود موضوع يحدد بوضوح ودقة، ويرسم المسافة الفاصلة بين موضوعات العلوم الأخرى؛ فالتحديد الدقيق والجيد للموضوع يزيد العلم دقة ومصداقية.

أما في اللسانيات فإنه يشاع لدى الباحثين فيها القول بأن موضوع اللسانيات هو اللغة، ويضيف البعض -اقتباسا من دي سوسير- مدروسة في ذاتها ولأجل ذاتها. وهي مقولة صحيحة في بعض جوانبها، لكنها تصبح ملتبسة إذ ما تعمقنا في وجهات نظر التيارات اللسانية -الكبرى على الأقل- اتجه موضوع اللسانيات، فثلا نتساءل للوهلة الأولى: ما المقصود من اللغة هنا؟ أم هي Langue أم Language في الاستعمال الفرنسي؟ أم هي Language في الاستعمال الإنجليزي؟ ثم ما المستوى المقصود من اللغة هنا؟ أم هو المستوى المتجلى في إطاره الكوني؟ أم الاجتماعي؟ أم الفردي؟ كما نتساءل أيضا: أمصطلح اللغة في العبارة السابقة يحمل دلالة واحدة عند كل التيارات؟ أم أن لكل تيار وجهة نظر؟

وبالانتقال إلى الجزء الثاني من المقولة (مدروسة في ذاتها ولأجل ذاتها) يتبادر إلى ذهننا السؤال: ما مدى صرامة التيارات اللسانية في تحقيق هذه المقولة؟ أو بمعنى آخر: هل كل التيارات اللسانية المعاصرة تدرس اللغة بذاتها ولأجل ذاتها؟ أم أن الدارسون المعاصرون للغة عادوا إلى سابق عهد الدراسات

اللغوية بدراسة اللغة من أجل أغراض غير لغوية في ظل انفتاح اللسانيات واشتراكها مع العلوم الأخرى في الموضوع؟

كما نتساءل في ظل هذه المعطيات الأولية: ما هي حدود موضوع اللسانيات في ظل التحوّلات الكبرى للمفاهيم اللسانية لدى التيارات المختلفة؟

إنّ قيام اللسانيات وتحديد نشأتها بصدور كتاب محاضرات في اللسانيات العامة كان بفضل جهد كبير بذله دي سوسير في تحديد موضوع اللسانيات، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بطبيعة الحال؛ ذلك أنّ موضوع اللغة موضوع قديم تداولت على دراسته علوم لغوية قديمة كالتحوي، وفقه اللغة... وعلوم غير لغوية كعلم الاجتماع، والفلسفة... وللخروج من هذا المأزق المنهجي كان على دي سوسير انتهاز فكرة جديدة مخالفة لما كان سائداً في عرف العلوم مفادها أنّ "وجهة النظر هي التي تخلق الموضوع" (غلغان، 2013، ص 75-76)، وليس الموضوع هو الذي يخلق المنهج كما كان يقال؛ ولذلك فإنّ اللسانيات "لا تستمدّ علّة وجودها من اكتشاف مادة جديدة في المعرفة الانسانية، فالنحو -بمفهومه الأعم- أسبق إلى اتّخاذ اللغة موضوعاً للعلم، ولكنّ اللسانيات وإن شاركتها مادة العلم فإنّها قد غيرت أسلوب تناولها، والعلوم إذا اختلفت في المنهج تباينت في الهوية، وهو الذي أكسب اللسانيات شرعية العلم المستقل بذاته، وقوام العلوم ليست فحسب مواضيع بحثها وإنما يستقيم العلم بموضوع ومنهج" (المسدي، 1986، ص 41).

كانت وجهة نظر دي سوسير إلى اللغة/ اللسان -إذن- هي ما حقق للسانيات شرعيتها في الوجود واستقلالها عن بقية العلوم، وتفردّها بموضوع اللغة، وتتلخّص وجهة نظر دي سوسير في فصله بين مادة اللسانيات matiere وموضوعها objet؛ أمّا مادة اللسانيات فيحددها دي سوسير بجميع مظاهر الكلام البشري، سواء أتعلق الأمر بلغة راقية أو منحطة، وسواء انتمت اللغة إلى شعب متحضّر أو بدائي. أمّا فيما يتعلّق بالموضوع، فإنّ دي سوسير قسم الظاهرة اللغوية إلى الثالوث الشهير: اللغة، اللسان، الكلام؛ بحيث يرى أنّ الظاهرة اللغوية تتجلى في مستوى:

- فردي يسميه الكلام parole.
- اجتماعي، بحيث تكون الظاهرة اللغوية مجموعة من القواعد المشتركة بين أفراد جماعة يتواصلون ويتفاهمون بها، يسميها اللسان langue.
- كوني باعتبار الظاهرة اللغوية صفة تجريدية مخزون لغوي يسميها اللغة langage.

وبما أنّ الشرط الضروري لقيام العلم زمن سوسير هو أنسفة الظاهرة (العمرى، 2021، ص 24) فإنّ اهتمام دي سوسير كان منصبا على إثبات نسقيّة إحدى التجلّيات السابقة للغة ليثبت علميّة اللسانيات في ضوء فلسفة العلم البنيوية النسقيّة، فقدّر أنّ اللسان هو المستوى الذي يستجيب للنسقيّة؛ أي أنّ اللسان هو الذي تتحقّق فيه النسقيّة بحيث ينفلت للملاحظة، عكس اللغة والكلام، وبالتالي قرّر أنّ الموضوع المناسب للسانيات هو اللسان "باعتباره مقياسا تؤخذ في ضوئه باقي التظاهرات والوقائع اللغويّة، فيبدو اللسان -دون غيره- ضمن هذه الوقائع غير المتجانسة قابلا لتحديد مستقل يسمح للفكر للانطلاق من أرضيّة تصوّريّة مقبولة" (غلفان، 2013، ص 76).

وهكذا كان موضوع اللسانيات عند دي سوسير هو اللسان، "بينما مادتها تتمثّل في مجموع الوقائع اللغويّة التي تشخّص النسق وتشكّل مظاهره وتجلّياته الخاضعة للملاحظة، ومن دراسة مادة اللسانيات يتوصّل إلى الكشف عن موضوعها، فتكون مادة اللسانيات وسيلة وموضوعها هدفا" (الأوراغي، 2018، ص 27).

وأثارت العبارة التي ختم بها دي سوسير محاضراته (موضوع اللسانيات الحقيقي والوحيد هو دراسة اللسان في ذاته ومن أجل ذاته) نقاشا وجدلا واسعا لدي اللسانيين، فإذا كان البنيويون أتباع سوسير حسموا الأمر واعتبروا اللسان موضوعا للسانيات على غرار أندري مارتينييه الذي يقول: "لا يمكن أن أتصوّر كيف يمكن لنا أن ندرس أو نفهم اللسان بمعزل عن اللسانيات الحقيقية؛ أي لسانيات الألسن، أي بمعزل عن اللسانيات الوظيفيّة التي هي برأينا لسانيات الألسن" (السراج، 2007، ص 139).

ويقدّم مارتينييه تعريفا للسان هو من أدقّ التعريفات على الإطلاق، يقول: "إنّ لسان ما هو أداة للتواصل تحلّل الخبرة الانسانيّة من خلالها بطريقة تختلف من لسان إلى آخر، في كلّ متّحد اجتماعي، تحلّل إلى وحدات ذات مضمون دلالي وتعبير صوتي [...]. المونيمات، هذا التّعبير الصوتي، يبنّي بدوره وحدات تميّزيّة ومتتابعة هي الفونيمات، وعدد هذه الفونيمات محدود في كلّ لسان، وهي تختلف أيضا من حيث النّوع والعلاقات المتبادلة في ما بينها من لسان إلى آخر" (مارتينييه، 2007، ص 62).

وقد وصفنا هذا التّعريف بالدقيق لأنّ هذه الصّفات التي ذكرها مارتينييه على التّوالي لازمة جميعا لتحقيق مفهوم اللسان ولا تفارقه أبدا - كما قال الحاج صالح - (الحاج صالح، 2012، ص 41).

أما في الولايات المتحدة الأمريكية غداة ظهور التيار التوليدي التحويلي بزعامة نعوم تشومسكي، فإن اللسانيات عرفت تحولا جديدا في الموضوع بإقدام تشومسكي على تغيير موضوع البحث اللساني؛ فقد اعتبر تشومسكي الحدس أو المتكلم/ المستمع المثالي موضوعا للنظرية اللسانية، يقول: "موضوع النظرية الأول هو متكلم/ مستمع مثالي ينتمي إلى بيئة لغوية متجانسة تماما، ويعرف جيدا لغته، وحين يستعمل هذا الانسان معرفته اللغوية في أداء كلامي فعلي لا يكون مصابا بحالات غير ملائمة من الناحية اللغوية، كالحد من الذاكرة والشرد، أو السهو، أو انتقال الاهتمام والانتباه، والأغلاط العرضية أو المميزة" (شقروش، 2022، ص 519).

ومن ثمة أصبحت للسانيات موضوعا مزدوجا، يقول بنفست: "إنّ للسانيات موضوعا مزدوجا إنها علم باللغة Language، وعلم بالألسن Langues" (Benveniste، 1966، ص 19)

كما فتحت مقولة تشومسكي عن اللغة الباب لعصر جديد من التحوّل في اللسانيات بجعله للغة وسيلة لتحقيق أغراض أخرى، يقول: "ينبغي في رأيي أن ننظر إلى علم اللسانيات Linguistics على أنه جزء من علم النفس Psychology، وينبغي أن ننظر إليه في المدى البعيد على أنه جزء من علم البيولوجيا Biology، وذلك لأنّ علم اللسانيات هو جزء من دراسة المقدرة البيولوجية الخاصة بالدماغ البشري. إنّ تلك المقدرة البيولوجية الفعالة في الدماغ إنّما هي صبغة خاصة منفردة بالإنسان وحده تمكّنه من اكتساب المعرفة اللغوية المختلفة. إنّ تلك المقدرة الدماغية في الانسان إنّما هي نظام معقد متشابك غني بالتعبير اللغوية" (الوعر، 1980، ص 47).

وبإقدام تشومسكي على ما يسميه الأوراغي بمجازفة فكرية بتغييره لموضوع اللسانيات يكون تشومسكي قد "التحق ((بفلاسفة التمدجة اللغوية)) الذين يبحثون في موضوعات غير لغوية متوسّلين إليها بالبحث في اللغة بصفتها مرآة تعكس غيرها. وجعل هو الآخر من دراسة اللغة دراسة علمية، الوسيلة الأنجع لمعرفة التركيب البنيوي للدماغ البشري، ولذا كان يردّد كثيرا مثل هذه العبارة: إنّ المغزى في دراسة اللغة هو الكشف عن التركيب البنيوي للجهاز العصبي في ذهن الانسان. وهكذا أصبحت اللغة معه تدرس من جديد لأجل غيرها" (الأوراغي، 2018، ص 28-29). لتأثره بالتيار العقلاني الذي كان يعد العقل البشري مصدرا لكل معرفة.

كما عرفت السّاحة اللّسانيّة ظهور أبحاث أخرى تدعو إلى جعل الكلام موضوعا للّسانيات، وكان ذلك بداية من إعراف دي سوسير في محاضراته بإمكانية وجود لسانيات للكلام في مقابل لسانيات اللّسان، فتوات بعد ذلك جهود اللّسانيين من أمثال شارل بالي (ch.Bally)، جاكبسون (R.Jakobson)، لايبوف وغيرهم من أجل لفت الانتباه إلى ضرورة مراجعة موضوع اللّسانيات بتوجيه الأنظار إلى الكلام من خلال الاهتمام بالخطاب والنّص. وهكذا ظهرت لسانيات النّص ولسانيات الخطاب كمقابل للّسانيات الجملة.

وفي ظل كثرة الدّعات إلى مراجعة موضوع اللّسانيات وتراكم الجهود النّظرية والعملية في ذلك فقد بدا للبعض إمكانية إيجاد موقع للكلام في قلب اللّسانيات وذلك لإمكانية احتواء اللّسانيات للكلام، الخطاب، النّص.

وعلى العموم يمكن بيان موضوع اللّسانيات بالنّسبة للتياران البنيوي و التّوليدي التّحويلي (ممثل العقلانية) كالتالي:

- بالنّسبة للبنيويين، موضوع اللّسانيات هو Langue، وليس Langage ولا Parole بحيث M
Langue = Langage + Parole، وترجم Langue في بعض الكّتابات العربية باللّغة، وفي بعض الكّتابات الأخرى تترجم باللّسان، والأمر نفسه بالنّسبة لل Langage التي تترجم باللّغة واللّسان أيضا، بمعنى أنّ بعض اللّسانيين العرب يجعل اللّغة=اللّسان، أو Langue = Langage وفي ذلك لبس وغموض.

- كما يميّز أندري مارتيني بين La langue / اللّسان، و Une Langue / لسان ما/ لسان معين، يقول: "أنا ألحّ كثيرا على واقع أنّي أقول (لسان ما) ولا أقول ((ال)) (لسان) ليس ثمة شيء نستطيع أن نشير إليه على أنّه ((ال)) (لسان)، إنّ اللّسان غير موجود على الإطلاق، هناك اللّغة الإنسانيّة، وهذه الأخيرة تتمثّل في الألسن بصيغة الجمع، إنّ الموضوع الذي يجب علينا دراسته، هو لسان ما، Une Langue" (مارتيني، 2009، ص 60).

- بالنّسبة للتّوليديين خصوصا والإنجليز عموما، فإنّهم يجعلون من Language موضوعا للّسانيات؛ وذلك أنّ الانجليزيّة تفتقر لمصطلح Langue، وهذا يعني أنّ Language=Langue+ Langage من حيث الاستخدام أمّا من حيث المفهوم فإنّها تدلّ -خاصة عند التّوليديين- على الملكة اللّغوية وبالتالي فهي

أقرب إلى Langage في الدلالة، وترجم Language في الكتابات العربية بعدة ترجمات: اللغة، اللسان، الكلام البشري، اللغة الإنسانية، الكلام الإنساني...
 لقد فتحت عبارة دي سوسير "وجهة النظر هي التي تخلق الموضوع" الباب أمام اللسانيين ليطلبوا بإعادة النظر في موضوع اللسانيات الذي حدده دي سوسير (Langue)؛ ذلك أن اللغة أصبحت تدرس من زوايا مختلفة، وبوجهات نظر متعددة، وتبعاً لذلك يحدّد موضوع اللسانيات بحسب وجهة النظر المنهجية التي يسلكها اللساني في دراسته، ومن هنا كان لا بدّ على اللسانيين من تحديد موضوع دراستهم وفق ما ينتهجونه من مناهج وأساليب للدراسة، كما كانت العودة إلى محاضرات دي سوسير وإعادة قراءتها - بعد تسرب الشك عند البعض فيما كتبه سيشيباي وشارل بالي- سبيلا عند البعض لتجاوز مأزق موضوع اللسانيات، بمحاولة إيجاد بعض التفاصيل في المحاضرات تسمح بتوسيع موضوع اللسانيات خارج الإطار الذي حدده دي سوسير.

3.2 منهج اللسانيات:

إنّ المنهج هو العمود الذي يقوم عليه أي علم من العلوم؛ فالعلوم عموماً والدراسات اللغوية خصوصاً لم تتطور إلاّ لأنّها جدّدت في مناهجها عند تناول الظواهر. ونظراً لأهمية المنهج بالنسبة للعلوم فقد استقرّ في عرف العلماء أنّه "لا يوجد علم إلاّ وله منهج به يقدّم نفسه، ويجلي صورته، وبه يغوص توصيفاً وتحليلاً في مادة بحثه وموضوعه، ألاّ وإنّه ليقال أنّ العلوم لا تأخذ مصداقيتها إلاّ من مناهجها وصلابة تماسكها من جهة، ومن قدرة هذه المناهج على استخلاص المعارف وتقنين الأنساق المنتجة لها من جهة أخرى" (عياشي، 2005، ص 13).

وإذا علمنا - من العنصر السابق (موضوع الدراسة) - مدى ارتباط منهج الدراسة بموضوع البحث، فإنّ التحوّلات النظرية والمنهجية التي تعاقبت على اللسانيات لم تكن إلاّ بفعل مسألة التجديد في مناهج دراسة اللغة في كلّ تجلياتها؛ ولذلك فإنّ "اللسانيات لم تتعدّد مذهباً ونظريةً ومدرسةً إلاّ لأنّها تعدّدت منهجاً" (عياشي، 2005، ص 13).

وبالحديث عن المناهج المختلفة التي تعاقبت على اللسانيات فإنّها متعدّدة، ولكن يمكن - حسب منذر عياشي - أن نجعلها تحت سقف منهجين كبيرين، فالمناهج إما تجريبية وإما عقلانية؛ ذلك أنّ كلّ العلوم

تحكمت فيها نزعتان: تجريبية وعقلانية، وتعدّ اللسانيات إحدى العلوم التي خضعت للمنهجين التجريبي والعقلاني (عياشي، 2005، ص 14).

لقد ساد في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نزعة باكونية (نسبة إلى فرانسيس بيكون) تصوّر الممارسة العلمية نشاطا تجريبيا استقرائيا استكشافيا (العمرى، 2021، ص 28)، وبموجب هذه النزعة فإنه ترسخ عند العلماء أنّ التجربة هي السبيل الوحيد لتحقيق العلمية، ولذلك فإنّ "التجريبية بوصفها منهجا تقتضي اتباع تعاليم التجربة من غير أفكار مسبقة ولا فرضيات معدّة سلفا" (عياشي، 2005، ص 14)، وبتبني اللسانيات لهذا المنهج فإنها طبقت مبادئه التي تقتضي (عياشي، 2005، ص 15-17):

- إنشاء مدونة لغوية؛ وذلك بجمع الوقائع اللغوية (الكلمات، العبارات، الوثائق) وتصنيفها وتبويبها.
- الإستناد إلى الاستقراء لالتماس الوقائع أي ينتقل الباحث من الجزء إلى الكل ومن الخاص إلى العام.

ويرى منذر عياشي أنّ المنهج التجريبي/ الاستقرائي تجلّى في ميدان اللسانيات في مذهبين كبيرين هما اللسانيات التاريخية والقواعد المقارنة، واللسانيات البنيوية في مرحلتها الأولى؛ بحيث كانت اللسانيات التاريخية المقارنة تتبع الوقائع بوصفها ظواهر مستقلة تنظر في تطورها، وهي تجريبية تطورية/ دياكرونية/ تعاقبية لأنها تتبع الوقائع اللغوية لترى تطورها عبر التاريخ، أمّا اللسانيات البنيوية فهي تجريبية آنية/ سانكرونية لا تنظر إلى تطوّر الوقائع عبر التاريخ، وإنما تدرس كلّ ظاهرة في لحظة معينة (عياشي، 2005، ص 15-16).

وهذا يعني أنّ المنهج التاريخي، المنهج المقارن، المنهج الوصفي-البنيوي الذي يضم المدرستين:

- الأوروبية، وهي تشمل: مجموعة جنيف، حلقة براغ (وظيفية مارتيني)، وظيفية فيرث وهاليداي (النسقية)، وظيفية ماثيزيوس (الغلوسيماتية).
- الأمريكية، وهي تشمل بنيوية ساير، وبنيوية بلومفيلد، كلّها تجريبية المنهج.

وفي الطرف المقابل للنزعة الباكونية ظهرت نزعة أخرى بجزئية ترى أنّ العلم تأمل واقتراض واستنباط، وتقوم على أساس تصوّر أنّ المعرفة إنتاج عقلي، وأنّ العقل وحده القادر على إدراك العلاقات الرابطة بين الأشياء (العمرى، 2021، ص 29)؛ وبذلك ساد المنهج العقلي/ الاستنباطي

(ينتقل فيه الباحث في دراسته من العام إلى الخاص ومن الكل إلى الجزء) في العلوم عموماً واللسانيات خصوصاً، وقد ترسّخ ذلك مع التيار التوليدي التحويلي بمحاولة تشومسكي وأتباعه بناء نظرية كلية في اللغة انطلاقاً من تصورات مسبقة (فروض).

وعلى العموم يمكن القول أنّ مناهج اللسانيات الحديثة تنصبّ في التوجه الفكري لأهم علمين في اللسانيات وهما دي سوسير وتشومسكي؛ إذ "تأسس مشروعاً فردينان دي سوسير ونعوم شومسكي على أساس منهجين يمكن أن تلخصهما الاستعارة التي صاغها مولدر (Mulder) مستشهداً بباكون (Becon) حيث يميّز بين نهج أسلوب النمل the way of the ant، ونهج أسلوب العنكبوت the way of spider؛ فالأول هو منهج سوسير، أي سبيل من يقنع بتجميع الوقائع وينطلق منها لبناء النظرية، والثاني هو منهج شومسكي؛ أي المنهج التجريدي الذي يسلك مسلك الحساب النظري غير المشروط" (السوداني، ص 212).

وبذلك فإنّ اللسانيات عرفت -طيلة تاريخها- سلسلة من التحوّلات المنهجية التي اقتضتها الظروف العلمية العامة، وهذا يدفع باللسانيين إلى تغيير وجهة النظر باستمرار اتّجاه الظاهرة اللغوية، وبالتالي تغيير مستمر للموضوعات وآليات التحليل وتحيينها في ضوء ما يستجدّ في حقل العلوم، وهذا ما يزيد من قوة وجود اللسانيات ضمن حقل العلوم.

4.2 لغة اللسانيات:

إنّ وجود أي علم من العلوم لا بدّ أن يرافقه وجود رصيد مصطلحي خاص به؛ لأنّ تطوّر العلوم ونضجها يقاس بمدى نجاحها في بناء ثبوت اصطلاحي خاص بها؛ بحيث تكون هذه المصطلحات وسيلة يعبر بها العالم عن موضوع نظريته، ومنهجه، ومبادئه، وتصوراتهِ... ف"الحديث عن أي تصوّر نظري خارج حدود مصطلحية خاصة به حديث لا معنى له، فالوجه المرئي لكلّ نظرية يمثله بسجّل اصطلاحي يرسم لهذه النظرية حدودها وامتداداتها في غيرها من النظريات، وأي إخلال بهذا السجّل هو إخلال بالنظرية وبنائها ذاته. فليس المصطلح، بقضاياها المتنوعة، سوى طريقة في تنظيم التجربة العلمية، والتعبير عنها خارج الاكراهات التي يفرضها الاستعمال العادي للغة" (بنكراد، 2000).

ولما كانت دقّة مصطلحات العلم ووضوح مفاهيمها هما أساس المعرفة السليمة، فإنّ العاملين المختصين في أي حقل من الحقول العلمية حريصون على صياغة أدقّ وأوضح المصطلحات لمجال اشتغالهم.

واللسانيات - باعتبارها علم - كانت بحاجة ماسة في بداياتها إلى توليد قدر معين من المصطلحات الجديدة الخاصة بها، والتي تضمن لها الاستقلالية والتميز الكافي في لغة التعبير عن بقية العلوم والفنون والآداب الأخرى من جهة، وعن الدراسات اللغوية القديمة من جهة أخرى، ومن أجل ذلك عكف اللسانيون - على اختلاف توجهاتهم - على توليد المصطلحات الفنية الضرورية بشتى الوسائل، حتى يتسنى لهم التواصل فيما بينهم بلغة متخصصة.

وإن ما يلاحظ في ميدان اللسانيات - منذ سوسير - هو ذلك التطور المذهل والمتسارع للمصطلحات اللسانية، وفي خضم هذا التطور فإنه يلاحظ أيضا أن بعض هذه المصطلحات تكون محل اتفاق وإجماع، بينما تكون بعض المصطلحات الأخرى خاصة بلساني معين، أو باتجاه معين، أو بتيار معين؛ وذلك باعتبار أن اللسانيات خاضعة لتوجهات معرفية متعددة، لعل أهمها التوجهان المعرفيان اللذان قادهما دي سوسير وتشومسكي، فقد كان للعلمين مصطلحات خاصة عبر كل واحد منهما بها عن نظريته؛ فدي سوسير استخدم مصطلحات علمية تستجيب للبنىوظيفة فوظف على سبيل المثال مصطلحات: البنية، النسق، النظام... واستخدم تشومسكي مصطلحات عقلانية مثل: التوليد، التحويل، البنية العميقة، الحدس... ، وقد تاه أتباعهما فيما بعد في تفاصيل المفاهيم، فولدوا مصطلحات جديدة بمفاهيم جديدة يعبرون بها عن تفرد آرائهم وتوجهاتهم، ومدى اجتهادهم وإبداعهم في صناعة وتطوير المفاهيم والمصطلحات.

5.2 الأصول الفلسفية لللسانيات:

إن كل علم من العلوم الحديثة تستضمر في ثناياها مجموعة من الأصول والضوابط الفلسفية التي تحدد ماهية العلم ومضمونه ومفاهيمه ومناهجه، ولذلك فإن الإستمولوجيا ملازمة للعلوم خاصة إذا علمنا أن "العلم من دون إستمولوجيا - بقدر ما يكون التفكير فيه على الاطلاق - بدائي ومشوش" (إسماعيل، 2020، ص 12).

ولما كانت اللسانيات إحدى الخطابات المعرفية التي تسعى إلى امتلاك درجة عالية من العلمية فقد كان لا بد لها أن تقوم على أرضية إستمولوجية صلبة، وقد جسّد دي سوسير ذلك عند تأسيسه لللسانيات عند قيامه بما يسميه المسدي بالقطيعة التأسيسية (المسدي، 2003، ص 23)، ثم قام تشومسكي بعد ذلك بقطيعة ثانية أسماها المسدي بالقطيعة التوليدية (المسدي، 2003، ص 29).

ومن المعلوم أنّ الخطاب اللساني خصوصا والمعرفي عموما تحكّمت فيه نزعتان (العمري، 2021، ص 28-29):

1/ نزعة باكونية تتصوّر الممارسة العلمية نشاطا تجريبيا استقرائيا استكشافيا وهي النزعة التي استقطبت التيار البنيوي منذ سوسير.

2/ نزعة كبرية تتصوّر العلم تأمل وإقراض واستنباط، واستقطبت هذه النزعة التيار التوليدي.

وبتأثر كلّ من دي سوسير وتشومسكي بإحدى النزعتين، فإنّهما نقلتا الأصول المعرفية لها إلى اللسانيات، فأما دي سوسير فإنّ الأصول المعرفية التي انطلق منها تلتخص في تبنيها للمنهج الوصفي- البنيوي التصنيفي القائم على السؤال الماهوي (سؤال الماهية)، وهو تصوّر ينتمي إلى النزعة التجريبية؛ لأنّ المناخ الفكري لنشأة اللسانيات السوسيرية كان يوحي بأنّ التجربة هي المعيار الفعلي المحقق للعلمية، ولذلك حرص دي سوسير على إخضاع الظاهرة اللغوية للتجربة، فكانت نظريته بمفاهيمها ومنهجها ونزعتها تستجيب لذلك المعيار.

أما إبستيمولوجيا تشومسكي فإنّها تلتخص في تبني تشومسكي للتصوّر الكبري الغاليلي، ولذلك فإنّ النظرية التوليدية التحويلية قامت على تصوّر تفسيري تعليلي (لماذا)، ولذلك -أيضا- كانت مبادئ نظرية تشومسكي ومفاهيمها ومنهجها منسجمة مع هذه الإبستيمولوجيا.

وبقيام لسانيات دي سوسير ولسانيات تشومسكي على نوعين مختلفين من الأصول المعرفية فإنّه يفرّق بين الوجهة التي سلكتها اللسانيات في كلّ من أوروبا وأمريكا (الوعر، 1988، ص 20-21)؛ فاللسانيات الأوروبية ذات طبيعة إنسانية، بحيث صيغت نظريتها ومناهجها لخدمة اللغة وآدابها وأساليبها وكذلك العلوم الإنسانية الأخرى، فكان هدفها خدمة الرّكّام اللغوي والأدبي والأسلوبي والنقدي والإنساني.

أما اللسانيات الأمريكية فهي ذات وجهة تكنولوجية؛ ولذلك صيغت نظرياتها ومناهجها لخدمة العلوم الطبيعية والتكنولوجية الدقيقة.

وبذلك فإنّ الأصول المعرفية والفلسفية هي التي توجه اللسانيات؛ لأنّ تعدّد التصوّرات حول الأصول الإبستيمولوجية يسمح بظهور اتجاهات لسانية متعدّدة، ف"الاتجاهات اللسانية لا ترسمها

خلافات اللسانيين في القضايا اللغوية بقدر ما تحكمها أصول فلسفية ذات طبيعة أنطولوجية إستمولوجية، ومن ذلك اختيار اللساني حدود نطاق علمية اللسانيات، ونظرته إلى فلسفة العلم، وتحديد نوع المادة اللغوية، والوسائل والطرائق التي تجمع بها المادة، والمناهج التي تحلل بها [٠٠٠]" (علي، 2003، ص 167-168).

6.2 غاية اللسانيات ونتائجها:

لما سادت التجريبية في عهد البنيوية كانت غاية العلوم التي تبنت هذه النزعة هي جمع الحقائق والوقائع ووصفها وتصنيفها، ولما تبنت اللسانيات - البنيوية في مرحلتها الأولى خصوصاً - هذه النزعة فإن غايتها في هذه المرحلة كان مقتصرًا على تجميع الوقائع اللغوية وتصنيفها.

أما في عهد العقلانية فإن غاية العلوم هي تفسير الظواهر والوقائع ووضع استنتاجات يمكن من خلالها التنبؤ بظواهر أخرى، ولما تبنت اللسانيات التوليدية التحويلية هذه النزعة فإن اللسانيات لم تعد غايتها وصف الظواهر اللغوية فحسب، بل تعدت غايتها إلى تفسير عملية حدوثها في الدماغ البشري، وبالتالي فإن "الغاية القصوى التي يهدف إليها علم اللسانيات هي إثبات العلاقات والنسب الرياضية بين اللغات البشرية ثم معرفة حركية اللغات وديناميتها" (الوعر، 1988، ص 16).

وعندما تتحقق غايات اللسانيات فإنها تسعى جاهدة لإسقاط نتائجها الإيجابية على حقول لسانية وغير لسانية، وتظهر نتائج اللسانيات في التطبيقات العملية في ميادين مختلفة كتعلم اللغات، صناعة المعاجم... كما تظهر أيضا من خلال اتصال اللسانيات بعلوم أخرى وإسقاط نتائج اللسانيات عليها؛ ولذلك تشكلت قضايا بينية بين اللسانيات ومجالات علمية أخرى، فظهرت مثلا اللسانيات الحاسوبية، اللسانيات الإدراكية، اللسانيات الاجتماعية... وكلها تستفيد من نتائج تطور اللسانيات.

7.2 الحركة الاستبطانية التي تشهدها الدراسات التاريخية والمحاولات النظرية العامة (المسدي، 1986، ص 14):

إن العلوم لا تنشأ من فراغ؛ بل إنها تستثمر أخطاء وتجارب مراحلها السابقة، وكذلك فعلت اللسانيات؛ إذ اتجه أغلب اللسانيين إلى إعادة قراءة التراث اللغوي القديمة لاستبطان خباياها واستثمار ذلك في بناء نظريات لسانية معاصرة ومتطورة.

فقد استفاد دي سوسير من نقائص المنهجين التاريخي والمقارن في بناء نظريته، كما استثمر تشومسكي تاريخ الفكر اللساني في بناء نظريته، ويظهر ذلك من خلال كتابه اللسانيات الديكارتية.

خاتمة:

بعد الذي سبق عرضه توصلت الدراسة إلى أنّ اللسانيات علم حديث له أصول معرفية ومنهجية تحدّد حسب نظرة الباحث إليها لتأثره بإحدى الفلسفتين (البنوية أو العقلية)، ولذلك فإنّ اللسانيات عرفت خلال تاريخها تحولات كبرى مسّت أسسها ومبادئها؛ ولذلك تعاقبت عليها الاتجاهات والمدارس التي تكون متقاربة في المبادئ حيناً ومتباعدة حيناً أخرى.

كما يبيّن أنّ نظرة الباحثين إلى السمات والأصول المعرفية المميزة لعلمية اللسانيات لا تلقى إجماعاً عند اللسانيين؛ إذ كان مفهوم اللسانيات ومنهجها وموضوعها وغايتها ومصطلحاتها تتغير باستمرار بتغير زوايا نظر الباحثين إلى هذه السمات، لاختلاف توجهاتهم المعرفية (بنوية/عقلانية) التي تظهر من خلال تبني مقاربات معينة تحمل تصورات وأصول نظرية ومنهجية محدّدة مما يحدث قطائع إبستمولوجية وظهور اتجاهات لسانية جديدة.

وبما أنّ مبادئ اللسانيات تعرف تغييرات مستمرة نتيجة التحوّلات المعرفية التي تمرّ بها اللسانيات - وهي منسجمة مع ما يحدث من تطورات في فلسفة العلم-، فإنّه يجري الآن إنجاز مشاريع علمية تحاول "صياغة لسانيات موحدة تعيد تنظيم شتات علوم اللغة بنظرياتها ونماذجها داخل إطار مندمج وموحد تفتقر إليه علوم اللغة اليوم انطلاقاً من شبكة مفاهيمية معاصرة متوافقة مع المشكلات والقضايا اللغوية المطروحة حالياً" (الملاخ، 2019، ص 23).

وتعدّ مشاريع العودة إلى دي سوسير سبيل الباحثين في ذلك؛ إذ كثرت في الآونة الأخيرة المشاريع التي تحاول إعادة قراءة محاضرات دي سوسير ومخطوطاته بنظرات معاصرة يحاول من خلالها اللسانيون خلخلة المفاهيم السوسيرية الموجودة في ثنايا محاضراته ومخطوطاته لإيجاد السبيل في الالتفاف على بعض مبادئ وأسس اللسانيات المتعارف عليها، ويتمّ ذلك بتقديم تأويلات جديدة لمقولات دي سوسير حيناً، واتّهام شارل بالي وألبرت سيشهاي والمحررين بعدم أمانتهم في كتابة المحاضرات حيناً أخرى.

وتأتي الدراسات التي تحاول إعادة قراءة إرث دي سوسير بعناوين مميزة مثل: دي سوسير من جديد، فهم دي سوسير، راهنية سوسير، العودة إلى دي سوسير... وكلها دراسات تستبطن في ثناياها الرغبة في صياغة لسانيات جديدة تستوعب كل التحوّلات التي عرفتها اللسانيات في موضوعها ومنهجها وغايتها وفي علاقتها مع العلوم الأخرى في ضوء تأثرها بالتيارات الفلسفية المختلفة لعل أبرزها التيار البنيوي والعقلاني.

قائمة المراجع:

أولاً: الكتب العربية:

- عبد الرّحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، 2012
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986
- عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس/ الجزائر، دط، 1986
- صلاح إسماعيل، نظرية المعرفة مقدّمة معاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2020
- الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية إبستمولوجية، 2019
- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1988
- محمد الأوراغي، محاضرات في النظرية اللسانية والنماذج النحوية، منشورات ضفاف/ دار الأمان/ منشورات الاختلاف، بيروت/ الرباط، الجزائر، ط1، 2018، ج1
- محمد حسن عبد العزيز، علم اللغة الحديث، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011
- محمد محمد العمري، الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية "البنوية والتوليدية"، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2021
- مصطفى غلفان، اللغة واللسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2017
- نادر السراج، حوار اللغات مدخلا إلى تبسيط المفاهيم اللسانية الوظيفية: أندريه مارتينييه وهنرييت فالتيير، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2007

ثانياً: الكتب المترجمة:

- أندريه مارتينييه، وظيفة الألسن وديناميتها، تز: نادر السراج، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2009
- فردناند دي سوسير، إفريقيا الشرق، سلسلة البحث السيميائي، دط، 1987. محاضرات في علم اللسانيات العام، ترجمة عبد القادر قيني.
- فردنان ديه سوسر، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، لبنان، ط1، 1984.
- فردنان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، دط، 1985.
- فردنان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، 1985.
- فردنان دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، دت.
- ثالثا: الكتب الأجنبية:

- E.Benveniste: Problèmes de linguistique générale, tome 1, Gallimard, Paris, 1966
- Ferdinand De Saussure, Cours De Linguistique Générale, arbre d or, geneve, 2005

رابعا: المقالات العلمية:

- بشير إبرير، انخطاب العلي وبعض خصوصياته رؤيا تعليمية، مجلة الجمع الجزائري للغة العربية، عدد6، 2007
- حسين السوداني، من دوسوسير إلى تشومسكي: دراسة مقارنة في الأسس العامة لعلمين مركزيين في اللسانيات، ضمن: لسانيات تشومسكي مراجعة نقدية في الأسس المعرفية، تحرير: يوسف اسكندر، مؤيد آل صوينت، دار دجلة الأكاديمية للتأليف والنشر والترجمة.
- عبد السلام المسدي، منهج اللسانيات والبدائل المعرفية، المجلة العربية للعلوم الانسانية، العدد 21/83، 2003

- عبد السلام شقروش، اللسانيات: من المدونة إلى الحدس. قراءة في تحوّل الموضوع، مجلة ألف. اللغة وإعلام والمجتمع، مج9، ع1 مارس 2022.
- مازن الوعر، حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية التحويلية، مجلة اللسانيات، م6، ع1، 1982.
- مازن الوعر، رجعة أخرى إلى علم اللسانيات البيولوجية سبر للتجربة الأمريكية، مجلة المعرفة، ع226-225، 1980.
- محمد الملاخ، راهنية سوسير من خلال برنامج السوسيرية الجديدة، مجلة اللسانيات العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ع8، 2019
- محمد محمد يونس علي، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، عالم الفكر، مج32 عدد1، 2003
- مصطفى غلفان، اللسانيات وتحليل الخطاب، أية علاقة؟ تساؤلات منهجية، ضمن: لسانيات النصّ وتحليل الخطاب، أعمال المؤتمر الدولي الأول في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013.
- منذر عياشي، مناهج اللسانيات ومذاهبها في الدراسات الحديثة، مجلة ثقافات، عدد 15-16، 2005
خامسا: مواقع الأترنيت:
- سعيد بنكراد، المصطلح السيميائي الأصل والامتداد المصطلحية والحاجات الإنسانية، مجلة علامات، ع14، 2000، رابط المقال: <http://saidbengrad.free.fr/al/n14/2.htm> تاريخ الاطلاع: 2023/07/18.

الأثر العقلاني الاعتزالي في أدب الجاحظ- كتاب "الحيوان" نموذجاً.

The rational and retiring effect in the Al-Jahidh literature - the book "hayawan" is a model.

طالب باحث بسلك الدكتوراه هشام مناجي

مختبر البحث في الثقافة والعلوم والآداب العربية

كلية الآداب عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب

إشراف الدكتور عبد المجيد شكير

Hichammounaji2@gmail.com

المخلص :

شكل الجاحظ سؤالاً معرفياً مستفزاً للباحث والمختص في الأدب والنقد، وهو ما ترجمه الكم الهائل من الدراسات الأدبية والنقدية التي حلت بعمق شخصية هذا الرجل كأديب وناقد، لكن دراسة الجاحظ من زاوية علاقته بفرقة المعتزلة وتأثير التوجه الفكري لهذه الفرقة على كتاباته مازال في بداياته ويحتاج إلى مزيد من الدراسة والتعمق نظراً لخصوصية التجربة الإبداعية الجاحظية ولأهمية المعتزلة كفرقة تميزت عن غيرها من الفرق الكلامية بمنهجها العقلاني المتحيز نوعاً ما للعقل ومبادئه، وهو ما اعتبر استثناء في ذلك العصر، وحرصاً على كشف طبيعة هذا التعالق بين الأدبي والفكري في عصر احت فيه نسبياً الحواجز وألغيت فيه الحدود بين المعارف والعلوم، فقد انطلقت هذه الدراسة من إشكالية واضحة المعالم سعت إلى توضيح مدى انعكاس الفكر المعتزلي خاصة في توجهه العقلاني على كتابات الجاحظ من خلال نموذج أدبي يمثله كتاب (الحيوان).

الكلمات المفتاحية : الجاحظ -المعتزلة -العقلانية - كتاب الحيوان -الأدب -الفرق الكلامية/

Abstract :

Al-Jahiz's interrogative style poses an intellectual challenge for researchers and experts in literature and criticism, a phenomenon extensively translated by the vast expanse of literary and critical studies that have profoundly delved into his persona as a writer and critic. Yet, the study of al-Jahiz from the angle of his association with the Mu'tazilite faction and the impact of this faction's intellectual orientation on his writings is still in its infancy, necessitating further in-depth exploration. This is due to the uniqueness of al-Jahiz's creative experience and the significance of the Mu'tazilites as a faction distinguished by their somewhat biased rational methodology and principles, which was considered exceptional in that era.

In a bid to uncover the nature of this interconnection between the literary and intellectual spheres in an age where boundaries between disciplines were relatively flexible, this study was initiated from a distinct problem, seeking to elucidate the extent to which Mu'tazilite thought, particularly its rational inclination, is mirrored in al-Jahiz's writings through a literary model exemplified by his work "al-Hayawan"

Keywords: al-Jahiz, Mu'tazilites, rationality, al-Hayawan, literature, theological factions..

مقدمة :

حظي الجاحظ وأدبه عبر التاريخ بدراسة وبحث مستفيضة لأسباب متعددة، أبرزها قدرة هذا الأديب على الإبحار في عوالم الأدب، والنقد، والفلسفة، وعلم الكلام وغيرها من العلوم الإنسانية التي ترك بصمته واضحة فيها ليكون حجة زمنه، ونابعة من نوابغ عصره، ورغم أن هذه الدراسات قد انكبت على شخصية الجاحظ، محللة نبوغه وتميزه، إلا أن هذا البحث والتنقيب نجده قد انصب على بعض جوانب هذه الشخصية مهملًا جوانب أخرى.

وحرصًا على كشف وإضاءة بعض هذه الجوانب من شخصية الجاحظ، فإن السعي إلى مقارنة طبيعة العلاقة التي جمعت بين الجاحظ الأديب وفرقة المعتزلة، ومدى انعكاس هذه العلاقة على مصنفاته الأدبية، يعد مطلبًا ضروريًا، لملامسة ذلك التداخل بين الثقافي، والفكري، والأدبي، والديني، في عصر تلاشت فيه الفوارق بين الآداب والفنون والثقافات، ليكون الإنسان المبدع الموسوعي أحد إفرازات وثمار هذا التلاحق. وهي مقارنة لن تكتمل إلا بالتركيز على جزئية محددة في هذه العلاقة، حيث السعي إلى ملامسة البعد العقلاني الذي ميز المعتزلة كفرقة كلامية، ومدى حضور هذا الجانب في أدب الجاحظ من خلال الاشتغال على نموذج محدد من كتاباته، وهو كتاب "الحيوان"، الذي يعد أحد أشهر كتبه، وأكثرها تلقيًا ودراسة وإطلاعًا، منطلقًا في ذلك إشكالية محورية تسعى إلى الكشف عن مدى حضور التوجه العقلاني في هذا الكتاب، وهل استطاع الجاحظ أن يكون أدبه مرآة عاكسه لنواضعه وتوجهاته الفكرية؟

أولاً: العقلانية، قراءة في المفهوم .

إن أول ما يمكن أن يشتغل عليه الباحث في مقارنته واحتكاكه بمفهوم "العقلانية"، هو البحث عن الدلالة المعجمية للمفهوم، فالعقلانية رغم أنها مذهب فلسفي وفكري تبلورت أسسه واكتملت مع الزمن على يد فلاسفة ومفكرين كبار، إلا أنها قد عُرِفَت كمناسبةٍ قبل أن يتم التنظير لها على يد رموز الفلسفة والفكر الإنسانيين، وذلك لارتباطها بالعقل، الذي اتخذ دلالات محددة انعكست على العقلانية كتصور؛ باعتبار أن أهم سمة من سماتها هي اعتمادها على العقل .

بالبحث في مادة (ع.ق.ل) في المعجم العربي، نجد: "العقل: الحجر والنهى ضد الحمق، والجمع عقول. ابن الأنباري: رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه، إذا حبس ومنع الكلام، والمعقول: ما تعقله بقلبك، وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك؛ أي يحبسه" (ابن منظور: د ت، ص3046)

أما في المعجم الوسيط، فإن "عقل، عقلا: أدرك الأشياء على حقيقتها". (أنيس: 1998، ص247) ويضيف نفس المعجم أن العقل أيضا "ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات، وما به يتميز الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل" (أنيس: 1998، ص247)

في القرآن الكريم، تتخذ كلمة (عقل) دلالات أقرب إلى المعنى الذي ورد في المعجم العربي، وإن كان كلمة (العقل) كإسم لم ترد إطلاقا في هذا النص الديني المقدس، بل حضرت بصيغة الفعل؛ كما في قول الله عز وجل: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها" (الحج، الآية 46)، وقوله عز قائل: "ومنهم من يستمعون إليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون" (يونس، الآية 42)، وقوله أيضا: "أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون" (البقرة، الآية 75).

إن العقل في القرآن الكريم، وإن غاب بصيغته الاسمية وحضرت مشتقاته وبعض مرادفاته كالللب التي جمعت على ألباب والنهى والفؤاد وغيرها من المصطلحات التي دلت على ضرورة النظر العقلي، إلا أن الخطاب القرآني قد دعا في آيات عدة المسلم إلى ضرورة توظيف قدراته العقلية في تعامله مع الأشياء، بل حتى في تلقيه للنص والمعرفة الدينية، ليكون التعقل والتمعن في الأشياء إحدى دعائم الدين الإسلامي، فالعقل من الكليات الخمس، التي حثت مقاصد التشريع الإسلامي على المحافظة عليها. والمثير للاهتمام عند البحث عن المفهوم في القرآن الكريم أن النص الديني الإسلامي لم يذكر المخ أو الدماغ كجهاز وظيفته التفكير والتدبر كما شائع عند البعض، بل نجد أن الآيات القرآنية قد أسندت فعل التعقل للقلب؛ مما يؤكد أن القلب هو محرك عملية التفكير واتخاذ القرار، وليس المخ، وهو ما أثبتته علم التشريح الحديث؛ حيث تأكد أن للقلب ذاكرة، وأن إجراء عمليات تغيير قلب من شخص لآخر ينعكس على السلوكيات والأفعال والقرارات، وهو شكل من أشكال الإعجاز القرآني.

في المعجم الأدبي، العقل "مأخوذ من عقال البعير. وعقل البعير: ربطه، فصاحبه عاقل؛ أي رابط" (التونجي: د ت، ص 651) أما اصطلاحا، فالعقل "جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله، وهو النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله أنا. وقيل: هو جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان، وهو نور القلب يعرف الحق والباطل، وهو مجرد عن المادة ومتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف" (التونجي: ص 651).

وإذا كانت المعاجم اللغوية والأدبية قد تطرقت للعقل من ناحية دلالاته وحضوره لغة واصطلاحا وتوظيفها، فإن الموسوعات والمعاجم الفلسفية ستتطرق للمفهوم من زاوية أخرى، ذلك أن جميل صليبا،

في معجمه الفلسفي، يرى أن "الجمهور يطلق العقل على ثلاثة أوجه، الأول: يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته، ويكون حده أنه هيئة محمودة للإنسان في كلامه واختياره وحركاته وسكاته. والثاني: يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية؛ فيكون حده أنه معان مجتمعة في الذهن، تكون مقدمات تستنبط بها الأغراض والمصالح. والثالث: يراد به صحة الفطرة الأولى في الإنسان؛ فيكون حده أنه قوة تدرك صفات الأشياء؛ من حسنها وقبحها، وكماها ونقصها" (صليبا: 1982، ص 84). والعقل أيضا "هو الذي وصفه ديكرت في مقاله عن المنهج؛ فقال إنه أعدل الأشياء قسمةً بين الناس، وعند أفلاطون، وكذلك عند أرسطو، قوة أو ملكة أو جزء من النفس، يتميز عن سائر قوى النفس، التي هي الإحساسات والخيال والشهوة والانفعال" (بدوي: 1984، ص 73).

هكذا فرغم الاختلاف الواضح بين الكتب الدينية والمعاجم اللغوية والأدبية والموسوعات الفلسفية في تحديد ماهية العقل، وتوضيح دلالاته، فإن الأکید هو اتفاق الجميع على أن العقل يسهم في إنتاج المعرفة؛ لتكون العقلانية إحدى أهم ثماره، والعقلانية Rationalisme، حسب المعجم الفلسفي، تتخذ دلالات ومعاني متعددة، أبرزها: - "المعنى الميتافيزيقي: مذهب يقول بعدم وجود أي شيء بلا موجب .

- مذهب يرى أن كل معرفة يقينية تصدر عن مبادئ لا تقبل الدحض .

- بنحو خاص عند اللاهوتيين: مذهب يرى أنه لا يجوز الوثوق إلا بالعقل، ولا يجوز التسليم في المذاهب الدينية إلا بما يعترف به العقل بأنه منطقي وكافٍ وفقا للنور الطبيعي" (لالاند: 2001، ص 1172)

و العقلانية أيضا "مفهوم يقول بسلطة العقل، ويرد الأشياء إلى أسباب معقولة، وهي الاتجاه التنويري الذي يثق في الإنسان وقدراته؛ فيرفع كل وصاية عليه، ويتركه يبحث عن الحقيقة بلا سلطة، وحيث أن العقلانية ضد السلطة، بكل أنواعها، فقد حررت العقلانية الإنسان من الأفكار التسلطية والآراء التعسفية وأفكار ذوي النفوذ والسلطان والإيديولوجيات السياسية" (محمد: 2008، ص 05)

و العقلانية - عند جميل صليبا - هي "القول بأولية العقل، وتطلق على عدة معان: الأول هو القول بأن كل موجود له علة في وجوده؛ بحيث لا يحدث في العالم شيء إلا وله مرجع معقول. والثاني أن المعرفة تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية، لا عن التجارب الحسية، والمذهب العقلي - بهذا المعنى - مقابل للمذهب التجريبي، الذي يزعم أن كل ما في العقل متولد من الحس والتجربة. والثالث أن وجود العقل شرط في إمكان التجربة؛ فلا تكون التجربة ممكنة إلا إذا كان هناك مبادئ عقلية تنظم معطيات الحس. والرابع هو الإيمان بالعقل وبقدرته على إدراك الحقيقة، وسبب ذلك في نظر العقلانيين أن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجية، وأن كل موجود معقول، وكل معقول موجود" (صليبا: ص 90-91).

أما العقلانية "عند علماء الدين، فهي القول بأن العقائد الإيمانية مطابقة لأحكام العقل، ولهذا العقلانية ثلاثة أوجه: الأول أن العقل شرط ضروري وكاف لمعرفة الحقائق الدينية، والثاني هو الإعراض عن جميع العقائد التي لا يمكن إثباتها بالمبادئ العقلية. والثالث هو الدفاع عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية" (صليبا: ص91).

لقد حاول الكثير من المفكرين والفلاسفة والباحثين التعمق في المفهوم والبحث عن جذوره في الثقافة الإنسانية، وإن حاول بعض علماء الأنثروبولوجيا الرجوع بالمفهوم إلى بدايات الإنسان الأولى حيث ميزوا بين عقلية الإنسان البدائي وقانونها بعقلية الإنسان المتطور أو المعاصر حيث نجد " ليفي برون Levy Bruhl ذهب إلى أن العقلية البدائية تتصف بأنها قبل منطقية - سابقة على المنطق -، وتخضع لسيطرة الإيمان بالقوى فوق الطبيعية، التي من شأنها أن تشوه عمليات التفكير العقلي" (سميث: ص509).

وعلى الرغم من هذه المحاولات، التي سعت إلى تلمس التصور العقلاني للسلوك البشري في مرحلة البدائية الأولى، إلا أن العقلانية كتوجه ورؤية واضحة المعالم، قد تبلورت مبادئها الأولية مع الفلسفة الإغريقية القديمة؛ حيث يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن "العقلانية بنت المدينة، بنت السياسة. وفي الثقافة الغربية، نجد أن العقلانية اليونانية بنت المدينة اليونانية" (الجابري: 1988، ص65).

هكذا، فقد نشأ التفكير العقلاني وتبلور مع فلاسفة الإغريق، كسقراط و أفلاطون وأرسطو، الذين وضعوا الأسس الأولى لهذا المفهوم، "بيد أن إسهام أفلاطون كان هو الحاسم، وكان تفسيره لطبيعة المعرفة الفلسفية وموضوعاتها ذا تأثير بالغ، يمكن معه أن يسمى أبا العقلانية" (كوتغهام: 1997، ص23). ورغم أن المفهوم قد تبلورت ملامحه في الثقافة الإغريقية، لكنه لم يكتمل إلا في أوروبا الغربية؛ حيث شكّل الإشعاع الحقيقي للعقلانية والتفكير العقلاني أداة لبروز عصر نهضة أوربية، استلهمت الفكر والتراث العقلاني الإغريقي، وجعلته وسيلتها للارتقاء والتطور، حيث قامت عقلانية الغرب على التراث الإغريقي، و"كان أهم مصدر لهذا الاتجاه العقلاني هو كتاب "طيمائوس" لأفلاطون" (هف: 2000، ص117).

من هنا سترتبط العقلانية، في السياق الغربي، بالمشروع الحداثي، حيث الرغبة في إعادة الاعتبار للعقل، والتحرر من قيود الجهل والإذلال اللذين مارستهما السلطة السياسية الأوربية بتحالف مع رجال الكنيسة؛ فكان العقل وسيلة المفكر الأوربي ومرجعيته للانعتاق من ظلامية العصور الوسطى وجهلها، ليكون العقل والتصور العقلاني متزعمًا لتيار تنويري، ستحصده أوروبا نتائجه بعد قرون من التغيير والتأسيس لفكر جديد، يعطي قيمة للعقل كسلطة تتحرر من باقي السلط، حتى إن البعض قد آله هذا

العقل ومنحه صفة القداسة، لكن، "مع العلم المعاصر، تم إعادة النظر في التصور الكلاسيكي للعقلانية، حيث تلاشت فكرة إدراك الحقيقة من اتجاه واحد، وزاوية نظر وحيدة؛ فما يطبعها هو تعدد اتجاهاتها في إدراك الحقيقة؛ مما يؤدي إلى استدعاء مواقف وحلول فلسفية متنوعة، ووجهات نظر مختلفة، تحت شعار: قيمة النقد وقابلية كل شيء للمراجعة" (محمد: 2008، ص 06). وبذلك، سيكون العصر الحديث فرصة لإعادة النظر في الحداثة الغربية ومفاهيمها وأسسها، ولعل أبرز هذه المفاهيم هو مفهوم "العقلانية"؛ حيث سيراجع العقل الأوربي ذاته، محلا حصيلة قرون من الزمن وظف خلالها العقل والتفكير العقلاني؛ فكانت النتيجة ارتقاء علمي واجتماعي، ونهضة سياسية وثقافية، مقابل ذلك، فقد أفرزت هذه الحداثة كوارث إنسانية وأزمات، انتهت بحربين عالميتين مدمرتين، وباستعمار شرس انتهكت فيه كل القيم الإنسانية، وأصبح تشيئ الإنسان قاعدة وسمّة من سمات هذه الثقافة، ليعيد المفكر الغربي النظر في المفاهيم أملاً في تصحيح المسار.

بهذا سيكون العقل والعقلانية قد حظيا في الثقافة الغربية باهتمام واسع دراسة وبحثا وتأصيلا وممارسة ونقدا؛ بدءا بالحضارة الإغريقية، وصولا إلى عصر النهضة والأنوار والعصر الحديث؛ حيث شهدت أوروبا تحولات كبرى كان لها تأثير في الثقافة الإنسانية ككل، مما أفرز جدلا فكريا اختلفت فيه الآراء والمواقف حول العقل والتفكير العقلاني، وهو الجدل الذي سينتقل - بفضل الاحتكاك والمثاقفة - إلى المجتمعات العربية والإسلامية رغم أن التفكير العقلاني قد مورس، كتابة وتنظيرا، في الثقافة العربية، خلال مراحل تاريخية سابقة، خاصة في العصرين العباسي، إلا أنه - ستطوى إحدى أهم صفحات النبوغ العربي بأفول هذه الحضارة، لينزوي هذا العقل في ركن الجمود والتكرار إلى منتصف القرن العشرين حيث شهدت هذه الفترة بروز مفكرين وفلاسفة عرب دعوا إلى ضرورة إعادة النظر في العقل العربي ليستطيع أن يبدع من جديد، ولعل أبرز هذه المحاولات تجربة محمد عابد الجابري، الذي بنى مشروعه الفكري على تحليل العقل العربي، ومحاولة تجديد آلياته؛ فتطرق إلى بنيته وتكوينه ونقده وتحليله في علاقته بالتراث العربي، على أمل إعادة تجديده ليساهم في إنتاج المعرفة من جديد.

ثانيا: المعتزلة والنزعة العقلانية .

اعتبر العصر العباسي تربة خصبة لميلاد مذاهب فكرية وفلسفية وكلامية خلقت جدلا فكريا، وأغنت الساحة الثقافية والفكرية، ولعل أبرز أسباب هذه النهضة والحركة الفكرية هو الاحتكاك بالفكر الإنساني، وترجمة التراث الفلسفي الإغريقي، يضاف إلى ذلك التسامح الديني والفكري، الذي طبع هذه المرحلة

التاريخية خاصة في فترة حكم الخليفة المأمون؛ حيث تحرر المبدع ولو بشكل نسبي من أشكال الرقابة والتسلط .

في هذا المناخ، ظهرت الفرق الكلامية التي ناقشت أمور الدين، وتعمقت في الدفاع عن قضاياها؛ بالاعتماد على العقل واليات. وإن كان البعض قد تجاوز الحدود أحياناً؛ فأعطى للعقل سلطة مطلقة، إلا أن التاريخ يؤكد أن هذه المرحلة قد اعتبرت من أخصب المراحل التي عاشها العقل العربي؛ حيث كانت هذه الفرق الكلامية مظهراً حضارياً وثقافياً متميزاً، لم يتكرر في التاريخ العربي. وإذا كانت كل الفرق الكلامية قد حظيت بالدراسة والبحث ، فإن المعتزلة تبقى أهم الفرق التي نالت حظاً أوفر من هذه الدراسات؛ وذلك لأنها شكلت استثناءً في توجهها ورؤيتها، وحتى في توظيفها للعقل الذي اعتبر دعامة من دعائم توجهها الفكري. يضاف إلى ذلك أن أهمية هذه الفرقة تكمن في عدم انتشارها بين العامة فقط، بل اعتنق مبادئها رجال السياسة والحكم، حيث انتشرت "انتشاراً كامحاً أيام خلافة المأمون، حتى غدت المذهب الرسمي للدولة" (جبر: 1974، ص12). ولعل ذلك ما شكل حسب البعض بداية لنهايتها، إذ "جاء المتوكل؛ فضرها ضربة عنيفة لم تقم من بعدها" (جبر: 1974، ص12).

إن البحث في عقلانية المعتزلة يقتضي بالضرورة التعرف إلى بداياتها ومبادئها؛ ذلك أن البعض يرجع ظهور هذه الفرقة إلى ما قبل العصر العباسي، مؤكداً على أنها "نشأت في العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة، وقد أطلق عليها أسماء مختلفة، منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والوعيدية" (الجهني: 1420هـ، ص64)

لقد ظهرت هذه الفرقة في مناخ عام استثنائي؛ حيث "كان ظهور المعتزلة كدراسة فكرية إسلامية في مطلع القرن الثاني للهجرة في مدرسة البصرة، وكانت موطناً للثورات العقلية والفكرية." (زهرة: 1978، ص75) يقول عنهم الشهرستاني: ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية والعدلية. وقالوا لفظ "القدرية" يطلق على من يقول بالقدر خيرٍ وشرٍّ من الله تعالى" (زهرة: 2004، ص64).

من هنا ستكون نشأة المعتزلة -حسب البعض- "امتداداً مطوراً للقدرية؛ فيظهر الاعتزال كحركة تحريرية ليبرالية، تدعو إلى موضوعية القيم، وسيادة القانون العقلي في مواجهة الاستبداد والتسلط الفردي الصاعد منذ بداية عهد بني أمية، مسندة دعوتها إلى ما اعتبر محكماً من آي الكتاب، وصحيحاً مما اثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم" (زينة: 1978، ص18).

أما عن أصل التسمية، فالبعض يرجعها إلى "النفر من الصحابة الذين عرفوا بالزهاد، والذين نأوا بأنفسهم عن أطراف الصراع السياسي في موقعة الجمل -علي ضد طلحة والزبير وعائشة-، أو معركة صفين

-علي ضد معاوية-؛ فاعتزلوا هذا الصراع، واتخذوا موقفا محايدا من الأحداث " (القوماني:2017، ص13). وهو نفس التوجه الذي أكده عبد الرحمن بدوي تقريبا، إذ أشار إلى أن اسم "المعتزلة" ليس مأخوذا عن فكرة الانفصال عن مذهب أهل السنة والجماعة - أي اعتزال واصل بن عطاء، وخروجه عن حلقة الحسن البصري، والقول بالمنزلة بين المنزلتين لمرتكب الكبيرة؛ وإنما اختار المعتزلة هذا الاسم أو تقبلوه بمعنى المحايد، أو الذين لا ينصرون أحد الفريقين المتنازعين -أهل السنة والخوارج- " (العريبي:1994، ص64).

وإذا كان السبب السياسي أحد الأسباب التي اعتبرها البعض مبررا تاريخيا لظهور هذه الفرقة الكلامية، فإن علماء مسلمين آخرين قد كانت لهم مواقف ومبررات أخرى لظهور الاعتزال؛ ذلك أن البعض يرى "أن الاعتزال حصل نتيجة نقاش في مسائل عقديّة دينية؛ كالحكم على مرتكب الكبيرة، والحديث في القدر. أما القاضي عبد الجبار الهمداني - مؤرخ المعتزلة -، فيزعم أن الاعتزال ليس مذهبا جديدا أو فرقة طارئة أو أمرا مستحدثا، وإنما هي استمرار لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وقد لحقهم هذا الاسم بسبب اعتزالهم الشر؛ لقوله تعالى: واعتزلكم وما تدعون، مريم، الآية 48، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من اعتزل الشر سقط في الخير " (الجهني:ص46).

ورغم اختلاف الأسباب التي كانت دافعا ومحركا لظهور المعتزلة، إلا أن المتفق عليه هو " أن الاعتزال كان ثمرة تطور تاريخي لمبادئ فكرية وعقدية وليدة النظر العقلي المجرد في النصوص الدينية وقد نتج ذلك عن التأثر بالفلسفة اليونانية والهندية والعقائد اليهودية والنصرانية ". (العريبي:1994، ص64) كما أن الفكر الاعتزالي قد اكتمل وتبلور في العصر العباسي؛ ف" مع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، اكتملت الأصول الأربعة للمعتزلة في مرحلة أولى، وهي: التوحيد والمنزلة بين المنزلتين والقول بخطأ أحد الفريقين في الحوادث التي نشأت في صدر الإسلام على عهد عثمان وعلي، مع التوقف والامتناع عن تحديد من هو المخطئ، وهذه الأصول الفكرية والسياسية هي التي تطورت بعد ذلك، حتى أصبحت خمسة في ظل قيادة أبي الهذيل العلاف (ت 235هـ)، وصارت تلك الأصول الخمسة -التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - خلاصة ما استفاده المعتزلة من عقائد الفرق المخالفة، وذرورة التفكير الاعتزالي في مراحل لاحقة" (القوماني: ص25).

لقد اكتملت المبادئ التي قام عليها الفكر الاعتزالي، وتبلورت طريقة الاشتغال عند مريدي أتباع هذا الفرقة، الذين خاضوا في أمور الدين بشكل مختلف، مراهنين في ذلك على العقل، الذي وإن لم يتم التصريح به كأصل من الأصول الخمسة التي بنيت عليها مبادئ هذه الفرقة، إلا أننا يمكن أن نعتبره الأصل السادس الذي لم يتم التصريح به وإعلانه أمام الجميع حيث " كان من آثار اعتمادهم على العقل

في معرفة الأشياء، وإدراك العقائد، أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً؛ فقالوا؛ كما جاء في "الملل والنحل" للشهرستاني: المعارف كلها معقولة بالفعل، واجبة بنظر العقل. وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع؛ أي قبل إرسال الرسل" (الجهني:ص68).

والعقل، في تصور المعتزلة، يشكل السلطة المرجعية والمحرك الأول لتوجههم الفكري ولعل من مظاهر اعتمادهم على العقل "رفضهم الاتباع بدون بحث أو استقصاء، وقاعدتهم في ذلك: كل مكلف مطالب بما يؤديه إليه اجتهاده في أصول الدين" (الجهني:ص69). كما اعتبروا العقل حجة؛ حيث "قال النظام: لا تعقل الحجة عند الاختلاف من بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا من ثلاثة أوجه:

- أ- من نص من تنزيل لا يعارض بالتأويل .
- ب- ومن إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تعارض فيه .
- ج- ومن جهة العقل وضرورته.

وبقوله قال أكثر المعتزلة . " (المخيري:1985،ص327)

ليكون أهل الاعتزال قد "أطلقوا للعقل العنان في البحث في جميع المسائل، من غير أن يحده أي حد؛ فجعلوا له الحق في أن يبحث في السماء وفي الأرض، وفي الله والإنسان، وفي ما دق وجل؛ فليس له دائرة معينة، له الحق أن يسبح فيها، بل خلق ليعلم، وفي مكنته أن يعلم كل شيء حتى ما وراء الطبيعة أو ما وراء المادة، بل كانت أبحاثهم في ما وراء المادة أوسع وأعمق من أبحاثهم الطبيعية؛ بحكم أنهم مصلحون دينيون، ودعاة عقيدة" (امين:ص737).

وعلى الرغم من المكانة التي حظيت بها هذه الفرقة في المجتمع العباسي، إلا أنها قد نالت حظها من النقد؛ بحيث حاول خصومها أن يبرزوا بعض ثغراتها على مستوى المنهج والطريقة التي ناقشوا بها الأمور الدينية حيث عارضهم بعض علماء الإسلام في عصرهم أبرزهم "أبو الحسن الأشعري الذي كان منهم ثم خرج من فرقهم، والإمام ابن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: درء تعارض العقل والنقل" (الجهني:ص69)، وهي المعارضة التي توجهت نحو توظيف بعض الآليات المستوردة من الثقافات الأجنبية الأخرى؛ حيث كانت النظرة السائدة أن المعتزلة قد "حوّلوا الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية لتأثرهم بالفلسفة اليونانية، والمنطق الصوري الأرسطي خاصة" (الجهني:ص69)، لتكون بذلك النزعة العقلانية إحدى سمات تميزهم وسلاحاً في نفس الوقت وظفه خصومهم متهمين إياهم بتعمقهم في الفكر الفلسفي فهم - حسب هذا الطرح - "يعظمون الفلاسفة اليونان، وينظرون إليهم نظرة أسمى وأقدس، ويضعونهم في مرتبة تقرب من عتبة النبوة، ثم آمنوا بأقوالهم، واعتبروها - كما يقول أوليري - (OLeary) مكبلة لتعاليم دينهم. ولهذا، قال شتينر

(STEINER) إن الاعتزال في تطوراته الأخيرة كان أكثره متأثراً بالفلسفة اليونانية؛ لذلك كان المعتزلة ينسبون إلى الفلسفة، ويعتبرون أول الفلاسفة في الإسلام" (جارالله: 1947، ص 49).

ثالثاً: مظاهر الأثر العقلائي الاعتزالي في كتاب "الحيوان" للجاحظ .

لا شك أن تبني الجاحظ للفكر الاعتزالي وانضمامه إلى هذه الفرقة الكلامية، قد شكّل علامة فارقة في شخصية هذا الرجل ، ذلك ان انتماء الجاحظ لها قد زاد من وهجها، ليقترن اسمه باسمها ؛ فيصبح مجرد ذكر الجاحظ يعطي انطبعا عن التوجه المعتزلي، ويستحضر الزخم الفكري الذي راكمه رموز هذه الفرقة، والذي تلقفته أيادٍ كثيرة بالدرس والتحليل والتمحيص، وبجلته كتب عدة، حاولت مساءلة تجارب رواد الاعتزال، كما استنطقت الموروث الأدبي والنقدي الذي تركه الجاحظ، دون أن نتمتع في أثر الفكر المعتزلي في كتابات هذا الأديب ، خاصة في شقها العقلائي ، وهي تصورات -ربما- يستطيع كتاب "الحيوان" أن يوضحها، بوصفه أحد أبرز المصنفات الأدبية التي تركها الجاحظ، حيث تبرز أهميته في كونه "أحسن مؤلفات الجاحظ، وأول كتاب في موضوعه، وإن قيل إنه اقتبس من كتاب أرسطو ، كما أنه أضخم كتاب له، ضمّ فيه المنفعة العلمية، والتسلية الفنية، والنادرة الخفيفة، وأخبار البلدان؛ فكان أشبه بموسوعة ثقافية عامة؛ إضافةً إلى كونه كتاب أدب وكتاب علم، فقد كان كتاب فكر فلسفي ومذهبي" (التونجي: ص 389-390).

هي اذن خصوصية ميّزت كتاب "الحيوان" عن غيره من كتب الجاحظ؛ مما يجعل منه نموذجاً مثاليا لاستقراء العلاقة بين الجاحظ والفكر المعتزلي ، ذلك أن قيمة الكتاب كما جاء في مقدمته تكمن في أنه "معلمة واسعة، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف، فقد حوى طائفة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية ، كما تحدث في سياسة الأقاليم والأفراد، وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر. وفيه كذلك حديث عن الطب والأمراض: أمراض الحيوان والإنسان، وبيان لكثير من المفردات الطبية، نباتها وحيوانها ومعديها" (الجاحظ: ص 29).

بهذا يكون "الحيوان" أحد أهم الكتب العربية التي يُحسب لها الريادة عربياً في الكتابة عن الطبيعة والحيوان، وتحليلها خدمة للإنسان، ورغبة في إظهار حكمة الخالق؛ فالهدف الأسمى من تحليل طريقة عيش الحيوان هو تأمل عظمة الله، وكأن الجاحظ يتبع مسار الآية الكريمة "سُرِّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَّبِعُوا لِمَا أُنزِلَ بِهِمْ أَنْ يَنْبَغِ لَهُمْ أَنْ يَهْتَفُوا بِهِمْ أَوْ يُكْسَبُوا بِهِمْ أَوْ يُبْدُوا لَهُمْ سُوءَ الظَّنِّ فِي حَقِّهِ لِيُبَدِّلَ اللَّهُ وَجْهَ الْبَلَدِ أَوْ أُمَّةً يُبْغِ اللَّهُ وَجْهَهَا وَأَسْفِلَ تِلْكَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ" (فصلت: الآية 53)، محاولاً التعمق في أسرار هذا الكون، وتلمس عظمة الله عز وجل في مخلوقاته؛ ذلك أن "مظاهر الخلق - في نظر الجاحظ - حكمة؛ أي أنها لم تخلق عبثاً أو صدفة أو تطورا يرجع في الأصل إلى قوانين طبيعية" ليس لها موجد وخالق، بل إن ما فيه ومن

فيه حكمة، والنتيجة أن الحيوان - عدا الإنسان - يشارك الجماد، وعناصر العالم التي لا تعتبر مواتا، في الدلالة، وفي عدم القدرة على الاستدلال واستخلاص الحكمة؛ أي إن كل هذه العناصر مظاهر قائمة تدل على حكمة الله في خلقه" (بهليح:ص31-32).

هكذا يكون التوجه العقلاني في كتاب "الحيوان" واضحا منذ البداية؛ فالجاحظ يخاطب في متلقيه العقل، محاولا استنهاض كل قواه الفكرية للاهتمام الى مظاهر إبداع الخالق، التي تجسدت في مخلوقاته خاصة الحيوانات، مؤكدا أهمية العقل البشري في استخلاص هذه الحكمة؛ ذلك أن الإنسان - في نظره - قد "أعطي قدرة تبيّن الوسائل التي يستخلص بها حكمة الخلق والإبداع في الكون، وكذا مظاهر الحكمة التي استطاع أن يدركها ويتبينها، وهي العقل. وإلى جانب هذه القدرة، مُنح قدرة ثانية، يوقف عليها استدلاله ونتائجه، وهذه القدرة هي البيان. وسمو مرتبة الإنسان بالنسبة لجميع الحيوان سمو واضح، نابع من هاتين القدرتين، ومن قدرة ثالثة مُنحت للإنسان دون سائر المخلوقات، وهي الاستطاعة" (بهليح:ص32).

وإذا كانت الحكمة هي ضالة الجاحظ من كتاب "الحيوان"، فإن المنهج الذي اعتمد في الكتابة وجمع المادة العلمية للكتاب لم ينأ عن هذا التوجه الشمولي، الذي يوظف فيه العقل، وتسخر فيه كل الياته لبلوغ الحقيقة، حيث يشير الجاحظ في الجزء الأول الى أن "هذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم، وتشابه فيه العرب والعجم؛ لأنه، وإن كان عربيا أعرابيا وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة" (الجاحظ:ص11) وهو تنوع لا شك فيه أنه قد عكس الاهتمام الفكري والموسوعي للجاحظ الباحث والمتفلسف المتعمق في جوهر الأشياء، والكاشف لعمقها. فعلى الرغم من أن الكتاب لم يخصص للحيوان فقط، بل ضم خليطا منوعا من القضايا والمواضيع، إلا أنه قد كشف عن دقة علمية وموضوعية في البحث والتحليل وهو أمر لم يكن ليتأتى للجاحظ لولا تشبُّعُه بالفكر الاعترالي، الذي مكّنه من آليات التفكير المنطقي والاستدلال؛ حيث الانفتاح على الفلسفة اليونانية، والتعمق في آراء فلاسفتها خاصة أرسطو، الذي يبدو حاضرا في ثنايا النص الجاحظي، كمرجع أساسي اعتمد عليه الجاحظ في كتابه؛ حيث تشير مقدمة الجزء الأول من الكتاب الى أن الكاتب قد اعتمد على خمس مرجعيات في عملية الكتابة، تمثلت في القرآن والسنة والشعر العربي البدوي والخبرة الشخصية ثم كتاب "الحيوان" لأرسطو، الذي استدلل به كثيرا، سواء لإثبات وجهة نظر أو معارضته، أو لاستغراب قول من أقواله كما في قوله: "من أعجب ما قرأت في كتاب "الحيوان" لصاحب المنطق قد ذكر رأس الفيل وقصر عنقه، ولم يذكر انقلاب لسانه.. وذلك أعجب ما فيه، ولم يذكر كيف يخرج من بطن أمه نابت الأسنان" (الجاحظ،

ص 226) ورغم هذا النفس الجدالي بين الجاحظ وأرسطو، إلا أن الكاتب، في مواضع أخرى، يعتذر لأرسطو عن سوء الترجمة، ويرجع سوء الفهم الى عدم تمكن المترجمين من تبليغ المعنى الصحيح. إضافة الى هذا التأثير بفلاسفة الإغريق، لاسيما أرسطو، نجد أن النزعة الاعتزالية قد كان لها أثر واضح في مضامين الكتاب، حيث كان للفكر الاعتزالي أثر في نشر ثقافة الجدل والمجادل، وهو ما عكسه الجاحظ في كتابه اذ خصص للنزاعات الكلامية حيزا مهما في الجزء الرابع، الذي تطرق فيه لاحتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة والأمثال السائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة، كما تطرق لمسألة المعرفة والاستدلال وصفة المتكلمين. أما في الجزء الخامس، فقد استحضر أحد أبرز رموز الفكر الاعتزالي، وهو النّظام، مبيّنا قوله في النار، وردوده عن المعارضين له، خاصة الريصانية وهي فرقة من الجوس. ثم نقده لبعض مذاهب الفلاسفة، وردده على أرسطو طاليس.

لقد سعى الجاحظ، من خلال كتابه، إلى فهم أسرار الكون، وسيلته في ذلك العقل والتدبر، داعيا قارئه الى توظيف كل قدراته الفكرية؛ من خلال دراسة أنواع من الحيوانات، وكشف بعض الحقائق عنها؛ حيث دون الجاحظ ملاحظاته عن عالم الحيوان، وسجل نتائج أبحاثه وتجاربه ودراساته، كل ذلك بأسلوب أدبي، تداخل فيه الشعر بالاستشهادات الدينية والقصص المعبرة والحقائق العلمية القائمة على التجربة والمشاهدة، متبعا في ذلك خصائص المنهج العلمي، القائم على الملاحظة والاستدلال والتحليل والتفسير المؤدي الى الاستنتاج والحكم، إلا أن ما يثير الاهتمام في كتاب "الحيوان" هو قدرة الجاحظ على توظيف الشك في البحث عن المعلومة، وهو بذلك يكون سباقا الى هذا المنهج من ديكرت، ورائدا من الرواد العرب الذين أبرزوا قيمة الشك للوصول الى معرفة اليقين.

بهذا سيكون الشك في كتابات الجاحظ مظهرا بارزا من مظاهر العقلانية، والية لبناء معرفة يقينية، حيث نجده حاضرا بقوة بين ثنايا الكتاب خاصة في الجزء السادس، والذي خصص حيزا للشك في أخبار البحرين والسماكين والمترجمين، كما تطرق لقضيي الشك واليقين، موجهها كلامه الى المتلقي قائلا: "فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين، والحالات الموجبة له. وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف" (الجاحظ: ص 35) إن الكاتب، هنا، لا يكتفي بالتمييز بين الشك واليقين، ودعوة القارئ إلى تلمسهما والبحث عن الحقيقة، بل نجده يستدل بأقوال بعض المتكلمين في الشك، كما يخصص حيزا مهما للفصل بين العوام والخاصة في شكهما كأنه يتبع منهجا استدلاليا، يدعو من خلاله قارئه إلى التمكن من المعلومة وثبوتها وترسيخها في الذهن، وقبل ذلك يؤكد له أهمية الاقتناع التام بجودها والتسليم بصحتها، والجاحظ، في سعيه الدؤوب هذا، يوظف اليات العقل والتدبر العقلي؛ فهو

يقارن بين الإنسان والحيوان مثلا حين يتطرق إلى قضية الخصي، ويستدل بالنص الديني؛ حين يتحدث عن حيوان معين كالكلب مثلا، حيث استحضر قصة أصحاب الكهف في القرآن الكريم، كل ذلك من أجل الاقتناع أولا، ثم إقناع المتلقي، مخاطبا فيه عقله بالحجة والدليل، تاركا له حرية القرار .

ومن ملامح عقلانية الجاحظ في كتابه "الحيوان"، أيضا، ذلك التدرج المنهجي في الخطاب؛ فرغم أن الكتاب يقدم معارف وحقائق عن الحيوان وسلوكه بطابع نتداخل فيه القضايا والمواضيع، لتكون الوحدة الموضوعية تكاد غائبة عنه أحيانا، إلا أن الكاتب، في مناقشته لبعض المواضيع، سيما تلك التي اتخذت من الحيوان قضية لها، قد اعتمد مبدأ التدرج في الطرح والتناول؛ ذلك أنه يقدم الفرضية، ثم يستدل عليها تجربة وبحث واختبارا ليصل - في النهاية - إلى النتيجة أو الاستنتاج النهائي، المبني على الملاحظة والدقة في البحث، وهو بذلك يكون بمثابة العالم الذي يختبر، بمنهجه التجريبي، صحة الفرضية أو كذبها، باحثا عن جوهرها وحقيقتها، ليكشف الكثير من الحقائق التي توصلت إليها علوم حديثة؛ كعلم النفس والاجتماع والتشريح، من ذلك ذكره لأثر البيئة في طبائع الناس والحيوانات؛ فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه، أما القمل فيغير لونه باختلاف لون الشعر، مؤكدا على جودة الشم عند الكلاب السلوقية؛ مشيرا إلى ذلك في الجزء الرابع، ومشيرا إلى تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام، وأثر الإخصاء على الذكاء، وما يعترى الإنسان بعد الإخصاء وكيف كان قبله .

خاتمة:

ختاما لهذه القراءة، التي سعت إلى دراسة رمز من رموز الأدب العربي القديم، نخلص إلى أن الجاحظ قد تشبع بالتصور العقلاني الاعتزالي، وأن كتابه "الحيوان" لم يكن استثناءً، يشذ عن القاعدة؛ فهو - كغيره من المصنفات الأدبية والنقدية التي تركها الجاحظ - يخاطب العقل في المتلقي، ويحاول أن يحرّضه على التفكير؛ ليكون الأثر العقلاني للمعتزلة سمة ملازمة للكتاب منهجا ومتنا، نخلص إلى النتائج الآتية:

- أن التأثير بفكر المعتزلة في كتاب "الحيوان" قد تجاوز التلميح إلى التصريح أحيانا؛ فالنظر العقلي يكاد يكون مهيمنًا على الكتاب، من بدايته إلى نهايته، كما أن تخصيص أبواب للمعتزلة، وإعطائهم فرصة للرد على معترضهم في بعض القضايا والمسائل، يؤكد هذا الطرح؛ حيث يغيب التصور المعارض للفرق الكلامية الأخرى إلا في بعض المناظرات التي اقتضت بالضرورة ذكر المعارضين تحقيقًا لتوازن في المقاربة، كما أن محقق الكتاب يصرح، في مقدمته، بأن المعتزلة والفكر الاعتزالي قد شكلا مرجعا من المراجع التي

اعتمدها الجاحظ في كتابه هذا، سواء في نمط التفكير أو الاستدلال وتقديم المعلومة أو في تحليلها وتحيصها لتصل إلى القارئ كحقيقة علمية وحياتية لا تقبل الشك.

- اعتماد الأسلوب المجاجي في عملية الإقناع والتأثير بشكل إحدى دعائم الكتاب، وهو - بدون شك - ثمرة من ثمرات التوجه العقلاني المعتزلي، الذي يحظى فيه الجدل بمكانة مهمة عند هذه الفرقة.
- اتباع منهجية دقيقة في التصنيف والتبويب للكتاب مع التدرج في مناقشة القضايا وطرح الأفكار؛ حيث الانتقال من العام إلى الخاص ثم الأكثر خصوصية، مع اللجوء إلى الدحض والنفي والإثبات عند عرض القضية قصد إقناع الطرف الآخر بالحجة والدليل.
- توظيف المعجم الفلسفي والمنطقي والمرتبط بعلم الكلام؛ مما يؤكد النزعة الفكرية للكتاب، وتوجهه الذي يميل إلى العلوم التي تشتغل بالعقل، وتحفز قدراته وطاقاته.
- التركيز على مبدأ الشك المنهجي، كمظهر بارز من مظاهر العقلانية واعتماد التفكير العقلاني في البحث عن الحقيقة والمعرفة اليقينية.
- تنوع أساليب البرهنة التي اعتمدت على آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر العربي البدوي القديم، والاستشهاد بأراء أرسطو وجالينوس والمتكلمين وأقوال العلماء والبلغاء والدهريين ومعتققي النصرانية واليهودية وغيرهم؛ مما يعطي للكتاب قيمة معرفية مضافة زاد من وهجها تعدد مصادر المعلومة وتنوعها، وكذا توظيف أساليب الاستدلال كالوصف والتفسير والسرد والمقارنة بين الحيوانات أو بين الحيوان والإنسان؛ لجعل القارئ قادراً على استنباط أوجه الاختلاف والائتلاف حول القضية المطروحة للنقاش.
- التركيز على التجربة والمنهج العلمي التجريبي كألية من أليات بناء المعرفة؛ حيث السعي إلى تدوين الملاحظات بناء على وضع الحيوانات في تجارب وتسجيل النتائج، واستخلاص الحكم النهائي، والملاحظة أن الجاحظ لم يكتفِ بتجاربه الشخصية التي جعلته يقترب من عالم الأحياء، بل نجده يعتمد أيضاً على تجارب الآخرين ومشاهداتهم وملاحظاتهم التي أثبتت الواقع والعلم صحتها.
- جعل الحقيقة هي ضالة الكتاب والكاتب معا، وذلك بالتأكيد على أن العقل هو الأساس في إدراك هذه الحقيقة، وتفضيله على الحواس.
- تشبّع متن الكتاب بالروح النقدية، التي بدت واضحة بين ثناياه، فالجاحظ لا يقبل بالمعلومة الجاهزة، بل نجده يمحّصها، ويحاول التحقق منها، ويرفضها أحيانا ولا يقبل التسليم بها، إلا بعد إخضاعها للتحليل الدقيق، حتى وإن كانت هذه الآراء والمعلومات الواردة من كبار العلماء والفلاسفة؛ حيث نجده مثلا يعارض أرسطو في بعض الأفكار، ويحاول تفنيد وجهة نظره، وإثبات حقائق وأراء أخرى مخالفة.

وبهذا يتضح أن الجاحظ، في كتابه "الحيوان"، قد التزم بتوجهه العقلاني الذي استمدّه من الفكر المعتزلي، وأن الكاتب قد كان وفيًا لمذهبه الفكري، وهو ما أعطى مصنفًا أدبيًا متميزًا وخالدًا امتزج فيه الأدب بالنقد والعلم بالفلسفة والكلام وغيرها من العلوم؛ ليكتشف القارئ من خلاله بعض أسرار هذا الكون .

المصادر والمراجع المعتمدة في المقال :

- القرآن الكريم، رواية ورش .

أولا: الكتب

- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد احمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف،
- أبو طالب، أسامة، الدولة العباسية، دار البداية ناشرون وموزعون، عمان، الاردن، الطبعة الاولى 1435-2014.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، الكتاب الاول، الجزء الاول والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، تحقيق وشرح، عبد السلام هارون، الطبعة الاولى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر.
- أمين، أحمد، ضحى الاسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .
- انيس، ابراهيم، الصوالحي، عطية، منتصر، عبد الحليم، الاحمد محمد خلف، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، بيروت، 1998.
- بدوي، عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني ش-ي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الاولى، 1984.
- التونجي، محمد، المعجم المفصل في الادب، الجزء الاول، الطبعة، الاولى، بيروت، لبنان، 1413هـ- 1993م.
- جار الله، زهدي حسن، المعتزلة، منشورات النادي العربي في يافا، مطبعة مصر، القاهرة، 1366- 1947.
- جبر، جميل، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1974.

- الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر، د.ت.
 - الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المجلد الأول، الناشر، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1420هـ.
 - الحميري، أبو سعيد نشوان، الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، دار أزال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1985.
 - زهرة أحمد علي، بين الكلام والفلسفة عند الخوارج والمعتزلة، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004، سورية، دمشق.
 - زينه، حسني، العقل عند المعتزلة، تصور العقل عند القاضي عبد الجبار، دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1978.
 - سميث شارلوت سيمور، موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، إشراف محمد الجوهري، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة.
 - صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
 - العريبي، محمد، المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عند العرب، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.
 - كوتنغهام، جون، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمد منقذ الهاشمي، مركز الأثماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى، 1997.
 - لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 2001.
 - المجالي، رابعة عبد السلام، ملاح الحياة العباسية، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، الطبعة الأولى، 1428هـ-2008م.
 - محمد محمد علي محمد، مفهوم العقلانية عند ستيفن تولن، مطبعة محسن بسوهاج، 2008.
- ثانياً: المجالات .
- ذويب، حمادي، العقل لدى المعتزلة، الجاحظ أنموذجاً، مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، 19 فبراير 2022.
 - القوماني، محمد، الأصول الخمسة للمعتزلة: صياغة دينية لمواقف سياسية، كتاب الإصلاح، العدد التاسع عشر، ماي 2017.

- محمد عابد الجابري ،العقلانية العربية والسياسة: قراءة سياسية في أصول المعتزلة ،مجلة الوحدة ،العدد 51 ،السنة 1988.
- هف ،توبي أ، فجر العلم الحديث ،الاسلام-الصين-الغرب ،ترجمة محمد عصفور ،عالم المعرفة ،العدد 260،اغسطس 2000،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت .

الموروث اللغوي في نصوص الرحلة الأندلسية

مقاربة معجمية تاريخية

Linguistic heritage in the texts of the Andalusian voyage

Historical lexical approach

الكّاني حميد/باحث في سلك الدكتوراه، اللسانيات والإعداد اللغوي، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، المغرب

الأستاذ المشرف الدكتور عبد الإله بوغابة

البريد الإلكتروني: hamid.elkettani@uit.ac.ma

الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تقدّم تصورا جديدا لنصوص الرحلات الأندلسية، وذلك من خلال اعتبارها وثيقة تاريخية يمكن اعتمادها مصدرا من مصادر المعجم التاريخي للغة العربية. كما تهدف الدراسة إلى توثيق الكلمات التي تضمها تلك النصوص، وتحليلها تاريخيا ولسانيا، وإبراز ما طرأ عليها من تغيير في معانيها وبنياتها اللغوية معجميا وصرفيا وصواتيا.

الكلمات المفتاحية: الموروث اللغوي، الرحلة الأندلسية، المعجم التاريخي

Abstract:

This study attempts to provide a new conception of the texts of the Andalusian travels, by considering them as a historical document that can be adopted as a source of the historical dictionary of the Arabic language. The study also aims to document the words contained in these texts, analyze them linguistically and historically, and highlight the change in their meanings and linguistic structures, lexically, phonetically, and linguistically.

Keywords: Linguistic heritage - Andalusian journey - historical dictionary

- تمهيد

نطلق في هذه الدراسة من فرضية مفادها أن المدونة الرحلية العربية تُعدُّ مصدراً تاريخياً لدراسة الجانب التاريخي للغة العربية، معجماً وصرفاً وتركيباً ودلالة، ذلك أن الرحلة نصُّ تاريخي يعكسُ تاريخ مجتمع ما لغةً وثقافةً، ومنه تصير الرحلة وثيقة لغوية ذات صبغةٍ سِيريةٍ تاريخيةٍ لمفردات اللغة، فهذه الأخيرة تُصنّفُ -بما هي أداة للتواصل والتعبير- بطابع تاريخي؛ فالكلمات والجمل والتراكيب، تعابير غير جامدة، بل متحركة عبر الزمان والمكان، تعبر عن صور الأشياء والموجودات في زمانٍ ومكانٍ مُعينين، وتتفاعل مع بيئتها كلما تغير الزمان والمكان. ولقد تفتن اللغويون العرب منذ عصر التدوين إلى الصفة التطورية للغة العربية، فكانوا يتتبعون المفردة الواحدة وما تعنيه من معانٍ مختلفة حسب زمان استعمالها، ونطاق انتشارها، فيثبتون تلك المعاني كلها.

إنّ النصوص الرحلية جديرة بأن تُدرس من هذه الزاوية، وذلك للاعتبارات الآتية:

- النص الرحلي؛ نص تاريخي يحمل في طياته ثقافة مجتمع ما في فترة تاريخية ما.
- النص الرحلي؛ نص مُتنقّلٍ وعابر للزمان والمكان؛ فالرحالة قد يدون في رحلته كلمات لا تستعمل إلا في البلاد التي زارها أو أقام فيها لمدة. وقد تكون تلك الكلمات تحمل دلالةً مختلفة عن دلالتها في بلاد أخرى.
- النص الرحلي؛ سجل تاريخي للألفاظ والتراكيب التي تساعدنا -إذا درسناها دراسة تحقيقية- على وضع مسار تاريخي خاص بالأساليب وأشكال التعبير وتطورها في اللغة العربية.
- النص الرحلي؛ فضاءٌ تعبر من خلاله الألفاظ من لغة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى ثقافة، وهذا يسمح برصد الكلمات التي انتقلت إلى اللغة العربية عبر بوابتي التعريب «Arabization» والاقتراض، والتعرف على زمن تعريبها ودخولها إلى العربية.
- النص الرحلي؛ غني بمستويات التعدد اللغوي Multilingualism خاصة على مستوى أسماء المستحدثات، والملابس، والأماكن، والمدن، التي تنتقل إلى اللسان العربي وتصير جزءاً من معجمه؛ وهذا يُساعد الباحثين في اللسانيات العربية، خاصة اللسانيات الاجتماعية، على رصد الكلمات الطارئة في العربية سواء القديمة أو المعاصرة.

تأسيساً على هذه الاعتبارات، فإن البحث في نصوص الرحلات والتنقيب فيها بوصفها وثائق لغوية تاريخية، يعطي قيمة مضافة للأبحاث المعجمية ذات الطابع التاريخي. وتحقيقاً لهذا المسعى المعرفي،

سنستند في هذه الدراسة على نصوص رحلات عربية أندلسية تمتد من القرن 15 الميلادي، إلى القرن 18 الميلادي. واختيارنا للرحلات العربية الأندلسية، ليس إقصاءً لنصوص رحلات أخرى، بل هو اختيار منهجي مبني على اعتبارات معرفية وتاريخية تنسجم والغاية من البحث في هذا الموضوع:

- إن الرحلات العربية الأندلسية، تعكس جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الحضارة العربية الممتدة من المشرق إلى أقصى الغرب الإسلامي.
- إن الرحلات العربية الأندلسية، تشكل نقطة التماس الحضاري واللغوي مع شعوب مختلفة، ما يجعلها مدونة غنية بالألفاظ الجديدة والدخيلة على العربية.
- إن دراسة نصوص الرحلات الأندلسية، يمكننا من التعرف على المسار التاريخي لبعض ألفاظ العربية، ومعرفة جغرافية استعمالها ومعانيها.

كما أن دراسة نصوص الرحلات العربية، على اختلاف جغرافيتها والحقب التاريخية التي تنتمي إليها، يوسع المدونات المصدرية التي يستند إليها الباحثون في تاريخ العربية لفظاً وتركيباً وصرفاً ودلالة.

أولاً: نصوص الرحلات الأندلسية رافداً من روافد المعجم التاريخي

تجدر الإشارة في بداية هذا المحور إلى المشروع المعجمي الضخم الذي تقوده الإمارات العربية المتحدة من خلال أعمال مجمع اللغة العربية بإمارة الشارقة، والمتمثل في إصدار أول معجم تاريخي للغة العربية، ولا يسعنا إلا الاعتزاز بهذا المشروع الذي طالما انتظرته اللغة العربية، وفي هذا السياق، تعد هذه الدراسة -على بساطتها- إسهاماً في تكوين مادة لغوية تاريخية مستمدة من نصوص رحلية ممتدة على فترات زمنية طويلة.

إذا كان المعجم التاريخي يستند إلى مصادر متنوعة كـ «النقوش القديمة واللهجات الجاهلية، لغات القبائل مثل عاد وطسم وغيرها، والألواح والنقود، ومصادر الشعر الجاهلي مثل: المعلقات والأصمعيات، وما كتب في التفسير، وعلوم القرآن والحديث والسنن وشروحها، والفقهاء الإسلامي وأصوله، والسيرة النبوية، وكتب التاريخ، وما كتب في الحقل المعجمي واللساني» (المعجم التاريخي للغة العربية <https://www.alashj.ae>) فإن النصوص الرحلية تعد رافداً من روافد بناء المعجم التاريخي، نظراً لتكوينها اللغوي التاريخي، إضافة إلى انفتاحها على حضارات متنوعة، الأمر الذي يجعل لغتها

مفعمة بدلالات جديدة؛ فاللغة «ليست مجرد أداة جامدة، بل هي مرآة عاكسة لثقافة الشعوب وحضارتها» (الإدرسي، 2015، ص 122).

تمدُّ النصوص الرحلية الباحثين في تاريخ اللغة العربية بمادة معجمية غنية على جميع المستويات اللسانية، صرفاً وتركيبياً ودلالة، ومنه، فإنها أكثر المصادر انسجاماً مع الأسس التي يقوم عليها المعجم التاريخي، والمتمثلة في «العناية بأصول الكلمات وفروعها، وسرد مسيرتها التاريخية منذ نشأتها أو ولادتها» (السامرائي، 1415 هـ، ص 138) كما تساعد الباحثين على معرفة مسار ارتحال الألفاظ جغرافياً، فالرحالة يكتب ويدون ألفاظاً تستعمل في الأماكن التي زارها، وهذا يُمكن الباحثين في معرفة مستويات استعمال الألفاظ وإهمالها جغرافياً وتاريخياً، ومعرفة ذلك الدخيل، والأصيل، حسب التوزيع الجغرافي.

إن لكل لفظ من ألفاظ العربية سيرة زمنية، لها نقطة بداية، ونقطة نهاية، والنهاية هنا لا تعني موت اللفظ، بل نعني بها نهاية معنى أول، وظهور معنى ثانٍ، وهكذا تُراكم الألفاظ معانيها المتسلسلة تاريخياً؛ فـ «لفظ «الذكاء» تطوّر معناه من معنى «لهب النار» إلى معنى «الفهم السريع وتوقّد الذهن»، ولفظ «الإعدام» انتقل معناه من معنى فقْد المال، إلى معنى «فقد الحياة» (العلوي، 1987، ص 162). ولعل نصوص الرحلة في هذا السياق تستجيب لمنطق التطور التاريخي لمعاني الألفاظ؛ فالرحالة يكتب بلغة عصره، وينقل ويدون الكلمات المستحدثة في زمانه والمتداولة على ألسنة الناس؛ وهذا ما يجعل المدونة الرحلية حلقة تاريخية واصله بين عصور سابقة وعصور لاحقة على مستوى انتقال معاني الألفاظ وتداولها.

تأسيساً على هذه الأرضية نتساءل، إلى أي حدّ أرّخت الرحلة العربية الأندلسية للغة العربية؟ وما المستويات اللسانية التي يمكن أن نرصد من خلالها مسار السيرة التاريخية لألفاظ اللغة العربية؟

ثانياً: الرحلة وتاريخ أسماء المدن

تعدُّ أسماء المدن والأماكن عنصراً أساسياً في جميع الرحلات على مستوى الفعل، وعلى مستوى التلخيص؛ فالرحالة يعبرُ الجغرافياً متنقلاً بين المدن والجبال والقرى، ويقوم بتدوين أسمائها كما هي في زمانه، وأحياناً يذكر أسماءها في العصور السابقة، وينقل ذلك مُشافهة من الناس. في هذا المنحى نسجل في النصوص الرحلية المنتقاة أسماءً لبعض المدن الأندلسية خاصة، وبعض المدن الأوروبية التي زارها مؤلفو الرحلات، وهي أسماء كانت تُكتب وتُنطق في عصر كل رحالة بشكل مختلف عن عصر رحالة

لاحق أو سابق، وهذا يدلّ على تغيّر أسماء المدن بتغيّر العصور والثقافات والحضارات، ويجعلنا قادرين على وضع تحقيب «Periodization» تاريخي لأسماء المدن التي ذكرت في تلك النصوص. لنختبر فيما يلي ما نذهب إليه من خلال النماذج الآتية:

1. جبل طارق-جبل الفتح: «من القرن 15م إلى القرن 17م»

يُسمّى الجبل الذي عبر منه القائد طارق بن زياد في طريقه إلى الأندلس «92هـ» في رحلة «المنظري: القرن 9 هـ-15م» (المنظري، تقايد الارتحال، 2022، ص 03) بـ«جبل طارق». أما الرحالة محمد الغساني الأندلسي في أواخر القرن 17م، فيسميه في رحلته بـ«جبل الفتح» (الغساني الأندلسي، 2002، ص 27) والفارق الزمني بين الاسمين يزيد على قرنين من الزمن. يرجع الرحالة الغساني سبب تسميته بـ«جبل الفتح»، بكونه كان منطلقا لفتح الأندلس. وبهذا يكون الاسم الثاني مرتبطا بالمسمى بعلاقة سببية. وهذا شائع في العربية.

2. مجريط-مذريل-مدريد: «من القرن 9 إلى اليوم»

تؤكد بعض الدراسات التاريخية أن العاصمة الإسبانية التي تسمى اليوم «مدريد» كانت تسمى «مجريط» (بنشريفة، 2002، ص 28) أُسِّسَتْ على يد الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الثالث في القرن التاسع الميلادي «860م» (الخطابي، 2021، www.hespress.com/416401) ويرجح بن شريفة أن اسم مجريط «يتألف من كلمة عربية هي مجرى أو مجري بالإمالة، ألحقت بآخره نهاية لاتينية للدلالة على التكاثر، لأنها مدينة معروفة بكثرة مجاري المياه» (بنشريفة، 2002، ص 33) وإليها يُنسب العالم الرياضي الفلكي الشهير أبو القاسم المجريطي الملقب بإقليدس الغرب.

غير أن هذا الاسم لا يلبث يتغيّر بعد تغيّر الأحوال السياسية بسقوط الأندلس، ليتحوّل كما يصرّح الرحالة أفوقاي في بداية القرن 17م، إلى اسم «مذريل»، وقد كرّر هذا الاسم في موضعين من رحلته، الأول، يقول فيه: «ثم مشيتُ إلى مذريل» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 30) والثاني: «إن كتّاب الديوان السلطاني بمذريل» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 50) ودلالة تكرار الاسم بهذه الصيغة تأكيد على تداوله على هذا النحو. أما الرحالة أحمد بن المهدي الغزال السفير، فيذكر أن اسمها مدريد في عهده، أول القرن 18م، يقول: «ومن خارج سور المدينة المدريدية متصلٌ بها أجنةٌ كثيرةٌ» (المهدي الغزال، 1941، ص 107).

يتضح من خلال هذا التتبع التاريخي لسيرة اسم العاصمة الاسبانية، أنه مرَّ بثلاث مراحل تاريخية، في المرحلة الأولى؛ العهد الإسلامي الأموي «860م-246هـ» كان بلفظ «مجریط» وقد سميت به للمناسبة بينه وبين مجاري المياه الكثيرة. ثم تحول إلى لفظ «مذريل» في عصر الرحالة أفوقاي بداية القرن 17م، ثم عدل عن لفظ مذريل إلى لفظ «مدريد» منذ القرن 18 كما يُستفاد من رحلة «الغزال» إلى إسبانيا والتي كانت في «1766-1767م».

3. وادي تاجة-وادي الطاخو-بانطاخو

يُستفاد من بعض النصوص الرحلية أن «نهر تاجة» الذي ينبع من جبال قبيلة «بني رزين الأندلسية» بمنطقة «أراغون» ويعبر مدناً إسبانية كثيرة، إلى البرتغال غرباً، هذا النهر سُمي في العهد الإسلامي بـ «نهر تاجة الكبير»، غير أن هذا الاسم سيعرف تحولاً من نسق الحرف العربي إلى نسق الحرف اللاتيني، يقول الرحالة الغساني «القرن 17م» في رحلته: «ووصلنا إلى وادٍ كبير يُسمونه وادي طاخو» (الغساني الأندلسي، 2002، ص 65) في حين يذكره الرحالة الغزال «القرن 18م» باسم «بَانطَاخُو»، فيقول: «قطعنا الوادي الكبير المسمى بانطاخو وهو المار بمدينة طليطلة عن يسار عبورنا» (المهدي الغزال، ص 30).

تبيّن هذه الفوارق الشكلية على المستوى اللفظي أن اسم النهر تغير من اللفظ العربي «نهر تاجة» إلى لفظ «وادي طاخو»، ثم فيما بعد تحوّل إلى لفظ «بَانطَاخُو» الذي نُحِتَ من لفتظي «وادي+طاخو». ونرح في هذا السياق أن اللفظ العربي «نهر تاجة» هو الأصل من الناحيتين اللغوية والتاريخية، لاعتبارين، أولهما: أن المؤرخ ياقوت الحموي يذكره بهذا اللفظ. وثانيهما: أن الحروف التي يتشكل منها حروف متناسقة ومنسجمة مع بعضها كأنه اسم وُضِعَ وَضْعاً عربياً. وهذا الطرح تركيه العلاقة الصوتية بين «تاجة» و «تاج في العربية» حيث توجد بينهما مناسبة معجمية.

4. أسماء مدن متفرقة

يدون الرحالة أفوقاي في رحلته «1611م» مجموعة من أسماء المدن التي زارها وأقام فيها، ويثبتها كما كانت تُلفظ في عصره، فمدينة أثينا عنده هي «أطناش» في قوله: «ومشى بها إلى مدينة أطناش ببلاد اليونان» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 63) ومدينة باريس هي «بريش» كما في قوله: «ولم ندر من هي أعظم برّيش أو مصر» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 53) ومدينة بوردو هي «بورضوش»،

يقول: «والتقيتُ في مدينة بورضيوش بفرنجه ببعض علماءهم» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 88) أما مدينة مكسيكو فهي «ميشق» في قوله: «..مما صدر منهم مع سلطان الهنود بمدينة ميشق» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 101) وعندما يصل إلى هولندا التي يسميها فلنضس، يقول: «بل ثمشي إلى فلنضس» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 109) ويسمي مدينة لهاي بـ «إلهايه» في قوله: «ثم مشينا من مدينة ليدا إلى مدينة إلهايه» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 112) ويرجح أن هذا الاسم تعريب للفظ الفرنسي «La Haye» لأنه الأقرب على المستوى الصوتي.

يتضح من جهة أولى، أنّ أسماء المدن الأوروبية التي دونها الرحالة في رحلته قد عرفت تطورا عما كانت عليه في الماضي، ومن جهة ثانية، تبين الرحلة أن تلك الأسماء كانت متداولة في عصر الرحالة كما دونها لفظا وصوتا.

أما الرحالة «الغزال» فيشير إلى أن الاسم «ميدنا» (المهدي الغزال، ص 28) يُطلق على المدينة التي تُسمى اليوم صيدونا «Medina Sidonia» وهي التي كانت تسمى في العهد الإسلامي بـ «شدونة». وذكرها المؤرخ لسان الدين بن الخطيب بهذا اللفظ في رسائله السلطانية. (ابن الخطيب، 1999، ص 120)

وعندما وصل إلى مدينة «أستجة» ذكرها باسم «أسيخا Ecija»، فيقول: «الخبر عن مدينة أسيخا»، (المهدي الغزال، ص 28) وهذا الاسم محوّل عن الاسم المعرب «أستجة» الذي عربّه العرب من الاسم القوطي ما قبل فتح الأندلس «أستيحي». ويظهر أن التحوّل الذي عرفه هذا الاسم من العهد القوطي إلى العهد العربي الإسلامي، إلى العهد الإسباني المعاصر، ليس تحولا دلاليا، بل تحولا صوتيا، حيث عدل عن «الجيم» إلى «الحاء» والإسبانية لا تحقق الجيم صوتيا، بل تقلبه «حاء».

ثالثا: الرحلة وتأريخ المهمل والمستعمل في العربية

يعتبر مبحث المهمل والمستعمل في اللغة العربية من أهم المباحث المعجمية التي اهتم بها اللغويون العرب منذ مرحلة الجمع والتدوين؛ حيث عمل المعجميون العرب على تهذيب اللغة من خلال بيان المستعمل والمهمل منها؛ ذلك أن اللغة عموما منذ نشأتها «سلوك إنساني، كان الإنسان فاعلا في تطوراتها وتغييراتها» (إبراهيم أنيس، ص 28) لقد كان المعجميون الأوائل يذكرون بعد اللفظ وتبع أصول معانيه

أنه مستعمل في قبيلة كذا، ومهمل عند قبيلة كذا. وهكذا تهذبت اللغة ذاتيا واجتماعيا؛ فأصبح المستعمل بما يجوز استعماله، والإهمال بما لا يجوز استعماله.

حصر علماء اللغة العوامل المتحركة في استعمال أو إهمال المفردات والتراكيب في أحد عشر عاملا، هي: الاستئصال الصوتي، والقبح والجمال في اللفظ والإفراد والجمع، وطبيعة الألفاظ، والاختلاف اللهجي، واختلاف الأجيال، والشيوع وكثرة الاستعمال، وطول الزمن، وقوة الكلمة (صالح أمين، 2010 ص 33)، بيد أن هناك عوامل أخرى ظهرت مع تطور الحياة العربية في العصر الحديث، وعلى رأسها ظهور الترجمة المتخصصة التي أدت إلى ظهور مصطلحات علمية جديدة في مقابل إهمال مصطلحات قديمة. إضافة إلى العامل التكنولوجي المتمثل في شبكة الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، حيث أسهمت هذه الوسائل في استعمال ألفاظ دون غيرها، وشيوع تراكيب وأنماط تعبيرية جديدة لم تكن معهودة في كلام العرب.

انسجما مع حركة التطور اللغوي الذي عرفته العربية منذ عصورها الأولى إلى اليوم، فإن النصوص الرحلية العربية غنية بالألفاظ والتراكيب التي كانت مستعملة في زمن كل رحالة، وفي الأقطار الجغرافية التي زاروها. مما يتيح لنا منهجيا تتبع السيرة التاريخية والجغرافية لتلك الألفاظ، ومعرفة حدود استعمالها أو إهمالها، واستجلاء معانيها في التواصل الكتابي والشفهي، في هذا السياق، تمدنا بعض الرحلات بنماذج كثيرة للألفاظ التي كانت مستعملة تكايا وشفاهيا في عصر كل رحلة، ثم أصبحت مهملة بعده، أو أهملت على المستوى الفصيح، وحافظت على استعمالها في المستوى اللهجي الدارج.

1. لفظ «الزمام»: بين الاستعمال والإهمال

يعدّ لفظ «الزمام» من الجذر اللغوي «ز-م-م» من الألفاظ التي وردت في رحلة أفوقاي، ورحلة الغزال، يقول أفوقاي في سياق حديثه عن عملية إحصاء مسلمي الأندلس التي أمر بها الملك فيلب الثاني: «أمر في بلاده كلها قبل خروجه منها أن يزمو جميع الأندلس» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 116) ويقول في موضع آخر «ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زماما آخر» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 116) أما الرحالة الغزال فيقول: «فأدرجتها في الزمام المذكور» (المهدي الغزال، ص 126). يُستفاد من هذين القولين أن لفظ «زمام» كان مستعملا في المستوى الفصيح في عصر الرحلتين، في القرنين «17-18م» وهو لفظ عربي فصيح، جاء في لسان العرب: «زَمَّ الشيءَ يَزِمُّهُ زَمًّا فَانزَمَ: شَدَّهُ. القرنين

والزمام ما زَمَّ به. تقول: زَمْتُ الناقة أزمها زما. ومنه زَمْتُ البعير: خَطَمْتُهُ» وفي معجم الرائد «هو زمام قومه، أي مُقَدِّمهم» (ابن منظور، 1999، مادة «ز-م-م»)

يُلاحظ أن معنى «زمام» في الوضع العربي يعني: القيادة والمقدِّمة والتحكم. لكنه تطور ليدل على الكتابة والمكتوب، كما يظهر من سياق الجملة في قول الرَّحَّالَيْن، وهو لفظ شائع الاستعمال في لهجة عربية شمال المغرب، يقولون: «زَمَّه» بمعنى «اكتبه» أو «قَيِّده». غير أننا نلاحظ إهمال استعمال هذا اللفظ بمعنى «الكتابة والمكتوب» وعودة استعماله بمعنى «القيادة والتحكم»، نسمع في لغة الإعلام المعاصر عبارات من قبيل: «أخذ يزمام المبادرة».

2. لفظ «براءة- برية»: بين الاستعمال الدارج والإهمال الفصيح

ورد لفظ «براءة» بمعنى رسالة في رحلة أفوقاي، يقول: «ولما رأيت أن برآوات السلطان ما قضيتُ بها شيئاً» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 65) استعمل أفوقاي لفظ «برية» بصيغة الجمع «بروات» وهذا اللفظ يدل في عربية أهل الأندلس وشمال المغرب على الرسالة المكتوبة، يقولون: «كتب برأ» أي كتب رسالة. وفي العربية المعيار نجد «برأ-برو: العود أو السهم أو القلم» (معجم الرائد، مادة «ب-ر-و») فالرسالة «البراءة- البرية» تُكتبُ بالقلم، ويجوز أن تكون العلاقة بين «برأ» التي في العربية المعيار و «برية- بروات» التي في لهجة أهل الأندلس مبنية على معنى الكتابة.

ما يفسر هذا هو السياق اللغوي الذي وردت فيه لفظة «بروات»؛ فالرحالة يضطلع بمهمة سفارية حمل من خلالها «كتاباً» والكتاب الذي يحمله السفير، يُحمل بمعنى «رسالة» وقد أخبر عن هذا في بداية رحلته، حيث قال: «وأعطانا السلطان كتاباً وذهبناً» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 20).

وثمة اتصال معجمي بين «برا-برية» و «برأ» بالهمزة، وقد استعمله الرَّحَّالَة بالمعنى نفسه، أي «رسالة» قال عن صكوك الغفران التي كانت تمنحها الكنيسة الأوروبية للمذنبين: «يمشي كل من هو بالغ من ذكر أو أنثى إلى الكنيسة ويذكر للقسيس جميع ذنوبه، ويعطيه براءة بالمغفرة، ويأخذ الدراهم عليها» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 123) وقال في موضع آخر: «وبعد أن قرأ الجواب كتب لي براءة ثانية» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 121) الشاهد أن البراءة هنا تكون مكتوبة، عبارة عن رسالة يأخذها المذنب.

ونفس هذا الانتقال على مستوى الاستعمال من حالة الهمزة «براءة» إلى حالة تسهيل الهمزة «برية» قد يكون ناشئا عن طلب الخفة وتجنب الاستثقال. واللافت للنظر أن لفظ «برية» مستعمل إلى اليوم في عربية شمال أفريقيا، خاصة عربية المغاربة، لكنه مهمل في المستوى الفصح. ويُستفاد من الرحلة أنه كان مُستعملا تاريخيا في عصر الرحالة، أي في القرن 17م.

3. لفظ «تدويخ»: بين شرط التداول وخرابة الاستعمال الفصح

يستعمل الرحالة أفوقاي لفظ «تدويخ» في سياق ترجمة قرار الملك فليب الثالث القاضي بطرد مسلمي الأندلس، يقول: «وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها» (أفوقاي الأندلسي، 2004، ص 117) ويدل هذا اللفظ في المعجم العربي على معنى «دوار» يُقال: «داخ يدوخ دخ، دوخاً، فهو داخ، داخ الشخص: أصابه دوار. داخ عندما نظر من مكان مرتفع، كنت داخاً من شدة الجوع والسهرة» (مختار، 2002، ص 222) وجاء في لسان العرب: «داخ يدوخ دوخاً: ذلّ وخضع، وداخ البلاد يدوخها: قهر واستولى عليها» (ابن منظور، 1999، مادة «د-و-خ»)

نلاحظ أن لفظ «داخ-تدويخ» يُستعمل بمعنيين، أحدهما «الدوار» وثانيهما «القهر والاستيلاء» ويظهر أن الرحالة يستعمل هذا اللفظ بالمعنيين معاً، فعبارة «تدويخ البلاد وتسكينها» تحتل أن تعني السيطرة على البلاد وإخضاعها، وكذلك جعلها مضطربة كأنها أصيبت بالدوار.

وما نسجله بخصوص هذا اللفظ من الناحية التاريخية، أنها كانت متداولة بالمعاني السابقة في المستوى الفصح إلى حدود عصر الرحالة، ثم أهمل معناها الأول «القهر والسيطرة» وبقي المعنى الثاني «الدوار والاضطراب» وهو المعنى الذي تستعمل به لفظة «تدويخ» في العربية المعاصرة كما يشير معجم «اللغة العربية المعاصرة» وتُستعمل به في الدواجر العربية، خاصة اللهجة المغربية، وهذا يعني أن «الاستعمال والإهمال إنما يكونان من جانب المعنى أيضاً، وليس فقط على مستوى اللفظ، فالإهمال يكون من جانب اللفظ كما يكون من جانب المعنى» (محمد صالح، 2010، ص 506).

رابعاً: الرحلة وتأريخ الألفاظ المعربة

شكل مبحث «تعريب الألفاظ» في الدراسات العربية القديمة والحديثة مبحثاً هاماً، استأثر باهتمام اللغويين منذ عصور مبكرة، ولعل أبرز كتاب وصلنا من القدماء هو كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي

على حروف المعجم» لأبي منصور الجواليقي «ت540ه» ويعدُّ هذا الكتاب نموذجاً نظرياً لمقاربة موضوع اللفظ الأجنبي في اللغة العربية، بل إن الجواليقي من أبرز اللغويين الذين وظفوا مصطلح «مُعرب» لتسمية الكلمات المقترضة من اللغات الأجنبية.

يُعرف التعريب عند اللغويين القدماء بأنه «أن تفتوه العرب بالاسم الأعجمي على منهاجها، تقول: عربّه العرب، وأعربته أيضاً» (الجوهري، بدون تاريخ، مادة «ع-ر-ب») ويذكر الزمخشري أن معنى التعريب «أن يُجعل عربياً بالتصرف فيه، وتغييره عن مناهجه، وإجرائه على وجه الإعراب» (التهانوي، دون تاريخ، ص 207) أما عبد العالي الودغيري وهو من المعاصرين، فيرى أن التعريب «يطلق عادة على ما دخل العربية من ألفاظ اللغات الأجنبية، فوقع تداوله واستعماله سواء خضع لقوانين العرب في كلامها، وقيسَ على بناء من أبنيتها، أم لم يخضع ولم يُقس» (الودغيري، 1989، ص 198).

بما أن لغة نسقها الخاص بها، وأن الوسائل التعبيرية والصيغ اللفظية قد تتطابق بين اللغات، وقد لا تتطابق في كثير من الأحيان، فإن القائم بعملية تعريب الألفاظ يقوم بتطويع اللفظ الأعجمي من لغة الانطلاق إلى لغة الوصول، وذلك التطويع يشمل جميع المستويات الصرفية والصوتية والدلالية. بهذا المعنى يصير التعريب عملية ارتحال لفظ من لغة إلى لغة، من نظام لغوي إلى آخر مختلف عنه. وقد وضع اللغويون -وعيا منهم- منهجا لعملية التعريب، يقوم على ثلاثة ضوابط، هي:

- الضابط الصوتي
- الضابط الصرفي
- الضابط الدلالي

إذا كان التعريب وجها من وجوه التأثير والتأثر بين اللغات، فإن نصوص الرحلات هي الفضاء الأنسب لتجلي ذلك التفاعل بين اللغات والثقافات والحضارات؛ فالرحالة عندما يزور بلدا ما، يصطدم بعالم آخر جديد عليه، وغير مألوف عنده، حينذاك لا مندوحة له من تدوين أسماء المدن والأماكن والمهن والعادات بلغة أولئك القوم، وإذا كان متمكنا من العلوم اللغوية، فإنه يعمل على تعريب تلك الألفاظ وإخضاعها لنظام العربية صرفاً وإعراباً ودلالة.

في هذا السياق تمدنا نصوص الرحلات المنتقاة في هذه الدراسة بمادة معجمية معرّبة لا بأس بها، تبين من حيث التحقيق التاريخي والموقع الجغرافي متى دخلت إلى العربية، ومن أين جاءت، كما تكشف عن الملابس الثقافية والحضارية المرتبطة بها.

1. لفظ «صَبَّاط»: من الإسبانية إلى العربية في القرن 17م

يقول الرحّالة أفوقاي: «قد رأيت رجلا يشتري بعض الصّباط أو رواحي» (وهي كلمة تدل على ما ينتعله الإنسان في قدميه، وهي مستعملة إلى اليوم في عربية أهل المغرب، خاصة فاس ومدن الشمال) الشاهد أن لفظ «صباط» ومفردهُ «سَبَّاطٌ-صَبَّاطٌ» مُعرب من الإسبانية «Zapatos» ويقابله في العربية «الحذاء» أي ما ينتعله الإنسان في قدميه، وقد ذكره الرحّالة بهذا المعنى، بدليل كلمة «رواحي» ومفردُها «رِيحِيَّةٌ» التي جاءت في سياق مرادف لها. نلاحظ أيضا أن الرحّالة أورد اللفظ مُعرِّفًا على صيغة الجمع «الصَّبَّاط» وهذا يدل على وعي الرحّالة بنظام العربية، حيث أخضعه للتعريف ب «ال» تبعًا لنظام العربية في تعريف الأسماء، ويظهر من هذه الصيغة المُعرّبة أنها تنتمي إلى الصنف الأول من المُعرّبات التي تستسيغ دخول أداة التعريف «ال» في أولها حسب معيار الجواليقي. (الجواليقي، 1966، ص 35) ونرح أن هذا اللفظ شاع في العربية مُعربًا منذ القرن 17م، وقد ارتبط تعريبه بسمة وظيفية تمثل في الانتعال.

2. لفظ «الشَّلْطَاظُ والفِسيان»: من الإسبانية إلى العربية في القرنين 17-18م

يورد الرحّالة الغساني لفظ «الشَّلْطَاظُ» (الغساني الأندلسي، ص 33) ويذكرهما الرحّالة الغزّال، فيقول: «وقد برز لملاقاتنا خلقٌ كثيرٌ شلظاظاً وفِسياناً» (المهدي الغزّال، ص 15) نلاحظ أن مؤلّفِي الرّحلتين، عربًا للفظين، لفظ «الشَّلْطَاظُ» وأصلها الإسباني «Soldados» وتعني عسكري، ولفظ «الفِسيان» وأصلها الإسباني «Oficiales» وتعني «ضابط- صَبَّاط». ويظهر أن تعريبهما كان من خلال إخضاعهما إلى الضوابط الصرفية والصوتية والإعرابية، وحتى توظيفهما في الكتابة جاء مُعربًا، من خلال إلحاق تنوين الفتح على آخرهما كما يظهر في تعبير الرحّالة الغزّال. وتعدُّ كلمة «فِسيان» من الكلمات الشائعة الاستعمال في عربية أهل المغرب.

3. لفظ «كَدَش»: من الإسبانية إلى العربية في القرنين 17-18م

يذكر الرحّالة الغساني أنه لقي «في مدريد رجلا راجبا في كدشٍ له» (الغساني الأندلسي، ص 53) ويقول الرحّالة الغزّال «وفي الغد طلب منا الحاكم الوصول إليه لداره وأتى بأكداش» (المهدي الغزّال،

ص 12) نلاحظ بداية أن الغساني يذكر لفظ «كداش» بصيغة المفرد. أما الرحالة الغزال فيورده بصيغة الجمع «أكداش»، وهذا يؤكد أن اللفظ كان شائع الاستعمال في عربية القرنين 17 و18م، على مستوى الكتابة.

إن لفظ «كداش» ويجمع على «أكداش» هو تعريب للأصل الإسباني «Coche-Choches» ويعني العربية التي يركبها الإنسان، وتجربها الخيول، ويظهر أن تعريبه خاضع للضوابط الصوتية والصرفية والدلالية والإعرابية، فقد جاء على وزن «أفعال» وهي صيغة صرفية مطّردة في العربية، ومثله «قفص - أقفاص». ونسجل أن هذا اللفظ لا يزال مستعملاً إلى اليوم في اللهجتين المغربية والمصرية، وبالتالي فهو مهملاً في الفصحى المعاصرة، ونادراً ما يُوظف كتابةً، ومُستعملٌ في بعض اللهجات.

رابعاً: الرحلة وتأريخ ظاهرة «تسهيل الهمزة» في عربية الأندلس

نشأ مبحث «الهمز والتسهيل» في حضن علوم القراءات القرآنية، وهذا لا يعني ضرورة أنه مبحث قرآني خاص، بل تأسس على الاجتهادات التي قدّمها علماء اللغة الذين في معظمهم كانوا قراءً، وتأثيرهم على الاجتهاد في قراءات القرآن بادٍ لا ينكره أحدٌ (محمد خان، 2012، ص 10)

يتفق اللغويون والقراء القدامى على أن الهمزة حرف شديد مجهور (الطحان الإشبيلي، 1984، ص 88) مخرجه من أول مخارج الحلق، من آخر الحلق مما يلي الصدر، قال الخليل بن أحمد «ت175هـ» عن تسمية الهمزة: «وإنما سُميت الهمزة في الحروف، لأنها تُهمزُ فتهتُّ، فتهمزُ عن مخرجها، تقول: يهتُّ فلاناً هتاً إذا تكلم بالهمز». (الخليل، 1414 هـ، ص 57).

وقد حظيت الهمزة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة باهتمام كبير، لم تحظ به الحروف الأخرى، وكان منشأ ذلك الاهتمام نابع من تصرف العرب في هذا الحرف، فأنت على مستوى الاستعمال بسبعة وجوه، سواء في القرآن الكريم، أو في محكي الكلام، وهي: التحقيق، والتخفيف، والإبدال بغيره، وإلقاء حركته على ما قبله، والحذف، والتسهيل بين حركته والحرف الذي منه حركته (القيسي، 1984 ص 95) وبالنظر إلى الأحوال التي تعترى الهمزة يمكن إجمالها في حالتين اثنتين، هما:

- التحقيق: وهو همز الهمزة، أي إخراجها بكل صفاتها، سواء كانت مفردة أو مجاورة لهمزة أخرى.

- التسهيل: ويُقصدُ به إخراج الهمزة مُسهلة على مستوى النطق، ويقع بمعنيين، أولهما تغييرها مُطلقاً، إما بالحذف أو الإبدال، أو تسهيلها بين بين، وثانيهما: تسهيلها بين بين.

في الحالة الأولى تُحذف الهمزة، خاصة الهمزة المتطرفة في حالة الوقف، أو عند التقاء همزتين من كلمتين مُتجاورتين، مثل: «هؤلاء إن» و «جاء أجلهم» فقد قرأ أبو عمر: «هؤلاء إن» و «جا أجلهم» وقرأ أبو جعفر «ملء الأرض» هكذا «مل الأرض» (محمد خان، 2012، ص 10) أما الحالة الثانية فهي إبدال الهمزة واوا أو ياءً أو ألفاً.

انطلاقاً من هذه الأرضية العلمية التي أرساها علماء العربية والقراءات، نستطيع رصد بعض مظاهر تسهيل الهمزة في عربية أهل الأندلس المتأخرين على مستوى الكلام المكتوب، ونقصد بعربية أهل الأندلس المتأخرين، المسلمين الذين فضلوا البقاء في الأندلس بعد سقوطها إلى صدور قرار طردهم سنة 1609م، وتعدُّ رحلة الشهاب لأفوقاي المغربي، نموذجاً نصياً يمثل عربيتهم المكتوبة في أواخر القرن 16 وبداية القرن 17، ذلك أن أفوقاي هو «آخر أندلسي موريسكي يؤلف بالعربية» حسب تعبير المؤرخ عبد الوهاب بن منصور.

من خلال استقراء فصول رحلة أفوقاي، وقفنا على اثني عشر لفظاً عربياً مُسهلاً على مستوى الهمزة، تارة يُسهل الهمزة بالحذف، وتارة يُسهلها بإبدالها ياءً.

1. تسهيل الهمزة بالحذف

وردت الهمزة مُسهلة بالحذف في مواضع كثيرة، نذكر منها موضعين على سبيل التمثيل (أفوقاي الأندلسي، ص 71-72-73) قال في وصف امرأة لقيها في بوردو: «وذلك أنها كانت بيضاء بشيء من الحمرة وشعرها أسود»، وقال في موضع ثانٍ: «وتارة يحتاج الدعاء إلى الله». الشاهد في القولين هما: «بيضاء» و «الدعاء» نلاحظ أنه حذف الهمزة المتطرفة الواقعة في «بيضاء» وفي «الدعاء» ونرجح أن حذف الهمزة فيهما عائد إلى طلب الخفة والاقتصاد في النطق على مجرى لغة العرب، ونلاحظ أيضاً أنه حذف همزة «الدعاء» نظراً لكونها وقعت متطرفة ومجاورة لهمزة «إلى» التي بعدها؛ فحذفت ونقلت حركتها إلى همزة «إلى» على نحو ما أشرنا إليه أعلاه في حالة تسهيل الهمزة بالحذف.

2. تسهيل الهمزة بالإبدال

يميل الرحالة أفوقاي في رحلته إلى تسهيل الهمزة بإبدالها ياءً في مواضيع كثيرة، (أفوقاي الأندلسي، ص 69-70-94-134-137) منها على سبيل المثال:

- وكان فيها أناس جاءوا من بلادهم لرؤية الذخاير...
- ...أن الإنسان إذا كان صابماً...
- إن الوثن الكاين...
- لأن نعائم الدنيا دالة على نعائم الجنة
- ولا استعملت قط عزائم....

الشاهد في هذه الأمثلة التي سقناها هنا هي الألفاظ «الذخاير-صايم-كاين-نعائم-عزائم...»؛ حيث عمد الرحالة إلى تسهيل همزاتها بإبدالها ياءً «ذخائر-صائم-كاين-نعائم-عزائم...».

إن ميل الرحالة إلى تسهيل همزة الألفاظ المذكورة وغيرها، بإبدالها ياءً، يدل من جهة أولى، على تمكنه من لغات العربية، فجاء إبداله مبنياً على ما تواتر لديه من أدلة تجعله يكتبها مسهلة؛ فابن خالويه يثبت أن الأنصارَ تقلب الهمزة ياءً، قال عبد الله بن رواحة الأنصاري: «باسم الله وبه بدينا» (ابن خالويه، 1977، ص 133) وهي «بدأنا» بتحقيق الهمزة. وذكر ابن يعيش «وإنما كتبت الهمزة تارة واوا وياءً وتارة أخرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف» (ابن يعيش، 2001، ص 352) ويؤكد من جهة ثانية أن عربية أهل الأندلس المتأخرين تميل إلى تسهيل الهمزة على غرار ما هو معهود في كلام بعض اللهجات العربية مثل لهجة قريش «التي ترك الهمز وتبدل منه» (السامرائي، 1998، ص 24)

❖ خاتمة ونتائج:

إن الأمثلة التي أتينا على ذكرها في هذه الدراسة، سقناها للتمثيل فقط، ذلك أن الأمثلة كثيرة، بل غزيرة في النصوص الرحلية المنتقاة، وإنما اقتصرنا على أمثلة محدودة، لرويز الفرضية العلمية التي صُغناها في مقدمة هذه الدراسة، والمتمثلة أساساً في إعادة قراءة نصوص الرحلات قراءة معرفية تتجاوز حدود الأدبي والجمالي في الرحلي، وتعمل على تفجير الطاقة المعرفية الكامنة في النصوص الرحلية باعتبارها مصدراً من مصادر المعجم التاريخي للغة العربية. وفي سياق هذه الخاتمة تتجه الأنظار إلى تسجيل هذه الخلاصات والنتائج:

- على المستوى النظري، تعدُّ نصوص الرحلات مصدرا من مصادر جمع مادة المعجم التاريخي للغة العربية.
- على المستوى التطبيقي، قدّمت النصوص الرحلية المنتقاة مادة معجمية غزيرة يمكن استثمارها في إعداد مدونة المعجم التاريخي على مستوى الألفاظ الصيغ الصرفية.
- نصوص الرحلات الأندلسية المتأخرة، تقدّم صورة عامة عن عربية عرب الأندلس، وتفتح آفاق دراسة اللغة العربية في الأندلس من خلال نصوص رحلات أخرى لا تزال مخطوطة إلى الآن.

• المصادر والمراجع:

- إبراهيم السامرائي، في اللهجات العربية القديمة، دار الحداثة، بيروت، ط2، 1998.
- إبراهيم السامرائي، في شرف العربية، كتاب الأمة، الدوحة، ط1، 1415هـ،
- إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، مصر، د ط، د ت.
- ابن الطحان الإشبيلي، مخارج الحروف وصفاتها، تحقيق محمد يعقوب، ط1، 1404هـ-1984م.
- ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق عبد العالي، دار الشروق، بيروت، ط2، 1977.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، دون تاريخ، د طبعة.
- ابن يعيش، شرح المفصل، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001.
- أحمد بن المهدي الغزال، رحلة: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق ألفريد البستاني، منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو للأبحاث العربية والإسبانية، ط1، 1941.
- أحمد بن قاسم أفوقاي الأندلسي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، تحقيق وتقديم أحمد زروق، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، ط1، 2004.
- أحمد عمر مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 2002،
- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق لطفي عبد السميع، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، الجزء 3.
- جبران مسعود، الرائد، معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، ط3.
- الإدريسي أبو زيد، اللغة والفكر، دار البوكملي للنشر والتوزيع، القنيطرة، ط1، 2015،
- حسن عبد العزيز، التعريب في القديم والحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1990.
- الخليل بن أحمد، معجم العين، الجزء 1، تحقيق مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي، ط1، 1414هـ.

- عبد العالي الودغيري، من قضايا المعجم العربي، منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1989.
- القيسي، الرعاية، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، ط1، 1984.
- لسان الدين بن الخطيب، الرسائل السلطانية، تحقيق محي الدين يوسف، ضمن كتاب جماعي «الرسائل الأندلسية» كلية الآداب والعلوم الإنسانية، منوبة، تونس، ط1، 1999.
- محمد الغساني الأندلسي، الوزير في فكك الأسير، تحرير وتقديم نوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2002.
- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العربية، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1393هـ-1973م.

• المواقع والروابط:

- محمد الخطابي، مجريط عاصمة أوروبية أسسها المسلمون، مقال منشور على الرابط: www.hespress.com/416401 شوهده يوم 2021-09-22. الرابعة بعد الزوال.
- المعجم التاريخي للغة العربية، مقال منشور على الرابط: <https://www.alashj.ae> شوهده يوم: 26-09-2021، الثامنة مساءً.

• المجلات:

- أحمد العلوي، الألفاظ السائرة: الواقع والقول، مجلة الموقف، ضمن ملف خاص بالتعريب، العدد 3، محرم-سبتمبر 1408هـ-1987م، المغرب.
- محمد بن شريفة، أضواء على مجريط الإسلامية، مجلة المنهل، العدد 12، 2002.
- محمد خان، الهمز والتسهيل في اللغة العربية، بحث في القراءات، مجلة جذور، العدد 33، 2012-1434هـ.
- محمد صالح أمين، المهمل والمستعمل في اللغة العربية، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 17، العدد 4، أبريل 2010.

تمثلات الفضاء ودلالته على المحكي السينمائي. فيلم " عاملة التلغراف " أنموذجا

The Representations of Space and Their Significance in Cinematic Narratives: A Case

Study of the Film 'The Telegraph Operator

طالب باحث عادل علقماء/ كلية اللغات والآداب والفنون/ جامعة ابن طفيل القنيطرة- المغرب

البريد الإلكتروني: olkamaadil@gmail.com

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تحديد تمثلات الفضاء ومدى حضوره في المحكي السينمائي، وذلك من خلال البنية السردية التي يقف بها الفيلم وكذلك الروابط المكانية والزمانية التي تبني بها هذه البنية داخل الفيلم، من خلال الدراسة التي استعملها كودرو وجوست وفيليب غوتيه. ومن أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلنا إليها، أن مهمة السينما هي استعارة ما نشاهده بشكل يومي في واقعنا المعاش وتحويله إلى أمكنة متخيلة سينمائية، والفضاء من أهم ما يجب أن نفكر فيه عندما يتعلق الأمر بالمحكي السينمائي، ومن تم فعلمية السرد السينمائي لا تخرج عن القاعدة مثلها في ذلك مثل الرواية، والوحدة الأساسية للمحكي السينمائي كما هي الصورة - اللقطة. وهكذا فإن الفضاء، يكون دائما حاضرا في المحكي الفيلمي باعتباره البنية التركيبية البدائية للسينما، يشارك بقوة في ديناميكيات التحولات التي تبني أي سرد، من خلال تولي مسؤولية العلاقة الديناميكية بين الشخصية والأماكن التي يمر بها، والفضاء بهذا، يعمل كمحرك لعمل السرد السينمائي، والمكان كمحرك رئيسي في أي حبكة. الكلمات المفتاحية: الفضاء السينمائي، المحكي الفيلمي، الروابط المكانية.

Summary: This study aims to identify the representations of cinematic space and the extent of their presence in cinematic narratives. This is achieved through the narrative structure employed by the film, as well as the spatial and temporal connections that build this structure within the film. The study draws on the methodologies used by Codero, Joost, and Philippe Goutié. One of the key findings and conclusions is that the task of cinema is to borrow what we observe in our daily reality and transform it into imaginary cinematic spaces. Space is crucial when it comes to cinematic storytelling, and cinematic narrative follows a similar rule to that of novels, with the basic unit being the image - the frame. Thus, space is always present in cinematic narratives as the fundamental structural framework of cinema. It actively participates in the dynamics of transformations that shape any narrative by taking on the responsibility of the dynamic relationship between characters and the places they traverse. In this context, space acts as a driving force in cinematic storytelling, with the setting serving as a primary engine in any plot. Therefore, cinema is a spatial sign par excellence, creating the narrative, its context, and the time of its occurrence.

Keywords: Cinematic space- Film narrative- Spatial links

تمهيد:

هناك العديد من المناهج السينوغرافية التي تهدف إلى دراسة وتنظيم الفضاء الدرامي الذي شيده الفيلم، وهذا التنظيم والبناء يفترض مسبقاً ألا يكون في حسابان إدراك المشاهد خلف الشاشة، أن ما يراه هو كون ثلاثي الأبعاد متجانس ومتناسك. من هذا المنطلق نعتبر أن المقاربة التقنية-الجمالية؛ التأطير والقطع والمونتاج والإطار وخارج الإطار، يعملان من خلال التجزئة في الأمكنة وإعادة بنائها بشكل مغاير للواقع، من أجل إنتاج ما يسمى بالفضاء الدرامي أو المحكي الذي يشكل المشهد السينمائي، ثم تلتقي دراسة العناصر الموضوعية لتركيب الفيلم مع الميكانيزمات النفسية الحسية للمشاهد الذي يعتقد أنه موضوع موحد، وبالتالي فإن الفضاء الدرامي لا يعتبر المعيار الذي يعادل المكان الذي تظهر في الصورة، بل يشتمل أيضاً تنظيمها وما يحتويه تأتيت المكان (Mise en scène). ومن ثم فالمكان ينسج علاقات مع هذه العناصر المكونة للفيلم، لكي يحدد أبعاده ومميزاته، بالإضافة إلى ذلك يمكننا القول أن العلاقات التي ينسجها الفضاء مع العناصر الأخرى المكونة للفيلم هي ما يعطينا البناء السينمائي للمكان والزمن. بناء على هذا التمهيد نطرح مجموعة من الأسئلة الإشكالية التي نوردها كالاتي:

ماهي الكيفية التي تتم بها عملية بناء المكان والزمن السينمائي؟ وماهي العناصر المتدخلة في هذه العملية؟

كيف يبني الفيلم السينمائي فضاءه، وكيف يعبر عن مدة الأحداث التي يقدمها لنا؟

1 فضاء المحكي الفيلمي:

يعني مفهوم الفضاء حسب الناقد السينمائي حمادي كيروم هو: "كل مكان تحل فيه الأجسام والأشياء أو ما يحتوي تلك الأشياء ويميزها ويحددها ويفصلها عن باقي الأشياء الأخرى، ويعني كذلك المحل والأين والملا والحيز والموضع والخلأ" (كيروم، 2005، ص 102). ومن ثم فتعريفنا للفضاء غالباً ما يخلق في أذهاننا التباساً في استعماله وفي علاقته بالمكان، وتفسير هذا الأمر نرجعه للمقاربة الفلسفية التي تحدده بشكل دقيق وتطلب منا دراسة أخرى. نفترض إذن بأن المكان هو عملية ترهين للفضاء الذي يظل افتراضياً، بهذا المعنى فإن ما يعرضه الفيلم هو عبارة عن أمكنة تسعى سماتها التكوينية إلى تمثيل وتشخيص الفضاء الذي يظل دائماً افتراضياً، لهذا فإن على السينما ألا تكتفي بعرض الأمكنة

الواقعية بل عليها أن تبني الفضاء التخيل (Espace Diégétique) الذي لا يمكن اختزاله في مجموعة المقاطع السمعية والمرئية.

إن النقطة الأساسية لمقاربة غارديس السردية، هي التمييز بين المكان والفضاء بحيث: "لا ينظر إلى الفضاء على أنه كائن (تخيلي) يتمتع بوجود في الفيلم، ولكن كهيكل أساسي للإدراك، متداخل في العلاقة بين الفيلم والمتفرج" (Agel, 1978, P.30) وفقا لهذا الطرح فإن الفرق بين المكان والفضاء ليس فقط في الدرجة بل هو الطبيعة "فأي مكان في قصة فيلم هو حامل للخصائص المكانية التي تنبض بالحياة بطريقة فريدة، لكن الفضاء ليس مجموع الأماكن؛ إنه في الواقع ترتيب مختلف عنهم، لأنه يشير إلى حالة إمكانية حدوث ظواهر موجودة في كل متفرج سينمائي، مما يسمح له بمتابعة تطورات القصة وبناء الكون عقليا. ديجيتيك" (Agel, 1978, P.30) بهذه المقاربة، لم يعد من الممكن إنزال المكان إلى مرتبة 'ظرفية' كمساعد بسيط للفعل (كما هو الحال غالبا في السرد الأدبي)؛ على العكس من ذلك، فهو يشكل مكونا أساسيا في السرد السينمائي يستند إليها نظام علائقي تجريدي ويشارك في خصوصيته، وتأخذ القصة السينمائية قيمتها "الدلالية أو الدرامية أو الشعرية أو الكونية من خلال القوة والدقة التي ترسم بها المرجعيات الفضائية لديكوراتها" (Gaudreault, 2017, P.339) من جهة أخرى، تسمح هذه الفكرة الأولية للفضاء السينمائي للمشاهد بالعمل بشكل ملموس على التنظيم الطبوغرافي للفيلم، والذي سيتم بعد ذلك تطعيمه ببعض الدلالات المتعلقة بالأماكن المثلثة.

1-1 خارج الإطار

في بدايات السينما لم يكن المصورون يهتمون 'بخارج الإطار' أو 'خارج الحقل'، لهذا جاءت مشاهد الأخوين لوميير خالية من أي إشارة إيحائية للحقل المضاد، وهم بهذا قد ساهموا بشكل من الأشكال في تطوير "السرد السينمائي الذي سيؤدي فيه الفضاء الغائب نفس الدور الذي يقوم به الفضاء المشخص والمعروض" (Gaudreault, 2017, P.339). أي أننا أصبحنا أمام فضائين: "فضاء نراه وتقع فيه الأحداث، وفضاء آخر لا نراه يعتبر خزانة تخيلا ومفصليا في تطور المحكي الفيلمي. وقد قسم نويل بورش (Noel Burch) الفضاء خارج الحقل إلى ستة مقاطع" (Gaudreault, 2017, P.331):

- يتم تحديد الحدود المباشرة للمقاطع الأربعة الأولى من خلال الجوانب الأربعة للإطار: إنها إسقاطات تخيلية على الفضاءات المحيطة للأوجه الأربعة.
 - المقطع الخامس لا يمكن تحديده وتعريفه بدقة هندسية، لأنه يتعلق بفضاء خارج الحقل يكون خلف الكاميرا (قد يكون صوتيا).
 - يتضمن المقطع السادس على كل ما يوجد وراء الديكور أو وراء عنصر من عناصر الديكور، يتم الوصول إليه عن طريق الخروج من الباب أو تجاوز زاوية شارع أو الاختباء خلف شخصية أخرى. في أقصى الحدود، وقد يوجد هذا المقطع في حده الأقصى وراء الأفق.
- نلاحظ إذن، أن المقاطع الأربعة الأولى والتي هي نتيجة الطابع المسطح للدال البصري الفيلمي (signifiant visuel filmique) والتي توّطر من الناحية المبدئية هذا الدال إلى جهة الملفوظ ويصبح "كل ما يدخل إلى الحقل عنصرا من عناصر البروفيلمي وينتمي إلى المستوى التخيلي. وبهذا نعتبر كل ما يمر أمام عين الكاميرا ينتمي إلى عالم هذا المحكي الذي يعرضه أي فيلم من الأفلام." (كيروم، 2005، ص 102) أما المقطع الخامس لفضاء خارج الحقل الذي حدده (Burch) فهو ذو طبيعة مختلفة تماما: "فهو لا يتوقع منذ البداية في جهة الملفوظ (الكلام)، بل من جهة التلفظ" (Gaudreault, 2017, P.333). وهو ما يسميه أندري كاردي "بخارج الحقل الواقعي للتصوير باعتباره مكان أصل الخطاب." ورد عند: (كيروم، 2005، ص 441)، وهذا المقطع الخامس يهمننا من حيث كونه يمثل الفضاء الذي يشخص المكان الذي منه نتكلم السينما ومن خلاله نتكلم السينما.

2-1 الصوت باعتباره فضاء آخر:

يعد الصوت عنصرا مهما في لغة التعبير الفيلمي، وهو ليس مجرد إضافة بل حالة تكامل في فن الخطاب المرئي (الملفوظ)، إلا أن كل من تلك العناصر يتمتع بخواص تميزه عن بقية العناصر الأخرى، هي خصوصية المعنى والجمالية، ومن ثم فإن محصلة تجاوز هذه العناصر وتمازجها بمعايير فنية معينة يفصح عن معنى أيضا. من جهة أخرى، فالصوت يمثل ذاك الفضاء اللا-مرئي الذي يتواجد خارج الشاشة أو خارج الحقل وهو ينتمي إلى سلطة المصور، يصعب حصره والقبض عليه، لا سيما في شكل موسيقى أو تعليقات لأصوات خارجة، ويظل متأرجحا بين انتمائه إلى مستوى التلفظ أو الملفوظ باعتبار أن هذه المعلومات مصدرها مكان آخر غير مكان الحكاية.

وعليه، سنحاول الوقوف على الدور الوظيفي والتعبيري لعناصر الصوت في السينما؛ الحوار، الضجيج، الموسيقى.

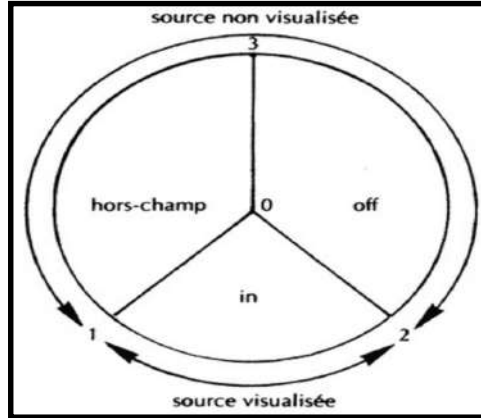
أ. الحوار:

تعمل مخيلة المتلقي أثناء المشاهدة الفلمية على بناء أحداث درامية كشف عنها الحوار، بحيث أن الكلمة تفتح مجال التفكير وتؤدي دوراً فاعلاً في بناء الحدث الدرامي، فلا الصورة ولا أي من عناصر اللغة السينمائية قادرة أن تلعب دور البديل عن الحوار للتعبير عن مثل هذه الأفكار، خصوصاً إذا كانت تلك الأفكار تمثل جوهر الفيلم، وبذلك يشكل الحوار ركناً أساسياً في كافة أنواع الأدب والفنون المسرحية حتى وصف بأنه أعلى الأشكال السردية رتبة وأجودها تبيناً. يقول مارسيل مارتن "السينما ليست فناً قائماً على الكلمة بل على الصورة، وما الكلمة إلا وسيلة تعبير ضمن وسائل أخرى، فالكلمة في السينما يجب أن يكون لها ما يبررها، لأن ابتعادها عن فحوى الموضوع المتبادل يجعلها وبالاً على الصورة" ورد عند: (البيضاني، 2011، ص 45).

■ أشكال الحوار:

حسب 'ميشال شيون' في كتابه 'الصوت في السينما' (Chion, 2010, P.68)؛ يمثل ثلاثة أنواع من العلاقات بين الصوت والصورة أهمها:

- الصوت داخل الإطار: يكون مصدر الصوت مرئياً على الشاشة ومتزامن مع ما نراه في الصورة.
- الصوت خارج الإطار: وهو الصوت الذي لا يتمثل مصدره داخل الصورة، أي أنه غير مرئي في الصورة، ولكن يمكن تحديد موقعه بشكل تخيلي في الفضاء والزمن التخيلي المعروض في الفيلم؛ ديجيتيك (son diégétique).
- الصوت خارج الحقل: ينبعث من مصدر غير مرئي يقع في زمان غير ذلك المعروض على الشاشة؛ إنه ذو كثافة إضافية أو غير متجانسة.



وهذه خطاطة توضيحية، تلخص ما قدمناه في هذه النقاط الثلاثة؛ حيث تمثل السطور 0-1 / 0-2 / 0-3 الحدود بين الفضاءات، والحدود التي يمكن تجاوزها: بحيث يمكن أن يصبح الصوت خارج الإطار، إذا خرج من هذه الخطوط والعكس صحيح. وقد يكون الصوت مسجلاً* في فضاء Off ونسمعه في IN.

وهذا الصوت الخارجي (Voix off) حسب الناقد حمادي كيروم "يجسد المصور الأكبر الذي يتوجه إلى المشاهد من مكان غير معلوم ويعلق على الأحداث التي تمر أمام عينه ولا يعرف أحد المكان الذي يوجد فيه، لأن وجود هذا الفضاء لا ينتمي لنفس فضاء القصة التي يحكيها الراوي الإله الذي يختار لنفسه أن يتوقع في فضاء خارج فضاء الحكاية التي يصنعها ويصنع مصائر شخصها." (كيروم، 2005، ص 115)

ب. الموسيقى:

منذ البدايات الأولى للفيلم السينمائي، صاحبت الموسيقى العروض الجماهيرية في ظل غياب الصوت، حيث وجد صناع الفيلم في الموسيقى البديل الموضوعي للحوار من أجل التواصل والتعبير وخلق الاحساس العاطفي، لكن بعد تطور الشكل الفيلمي وتكامل بناءه الدرامي نجد أن الموسيقى ارتقت

* تسجيل الصوت:

- تسجيل صوتي مباشر اثناء التصوير.
- بعد التزامن، في الاستوديو.
- إمكانية "خلط" الأصوات في الاستوديو والجمع بين الصيغتين، وكذلك تحقيق تركيبات متغيرة من الأصوات والصور: التزامن (الصوت متزامن مع الصورة)؛ عدم التزامن (عدم التطابق الكلي أو الجزئي بين الأصوات والصور)

بشكل يوازي حركة التطور الفيلمي وارتبطتوظيفها بمضمون العمل على مستوى الرؤية والأسلوب في تجسيد كل الأحداث التي يتعرض لها الفيلم، والواقع أن الموسيقى شكل فني شديد التجريد عندما يكون مستقلا بذاته، ويفقد هذه الخاصية عندما يرتبط بحدث معين داخل الصورة السينمائية، أي أنه يصبح جزءا من كل.

ج. المؤثرات الصوتية:

مما لا شك فيه أن الصوت الانساني والمؤثرات الصوتية والموسيقى قد أوجدت امكانيات أخرى للتعبير السينمائي المفتوح دائما على الابداع والابتكار من أجل التعبير عن أوجه الواقع المتعددة والمشاعر الإنسانية. فالعمل السينمائي عندما يعالج الواقع فإنه يعالجه بالواقع نفسه، بمعنى أنه يأخذ مادته من الواقع ذاته، ولكن بشكل مشوش محاط بخيال المؤلف المبدع، أي أنه يخلق واقعا جديدا يسمو على الواقع الفيزيائي، ومن ثم فإن هذا الواقع الفني يتجاوز الكثير من التفاصيل على عدة مستويات خصوصا في كثافة وحجم المؤثرات الصوتية، أي أننا نبني تصوراتنا الفنية على مبدأ الاختيار والإلغاء وفق رؤية صانع العمل والكتابة السينمائية.

للمؤثر الصوتي ضرورة كبيرة في إنتاج الصورة المتخيلة من طرف المتلقي، فهو لا يزاحم مكان حدوث الفعل، بل يضيف له أيضا مكان آخر يمثّل في المكان الذي ينطلق منه المؤثر الصوتي، فيكون لنا مكانان؛ الأول مرئي مؤطر داخل اللقطة، والثاني غير مرئي لكنه متخيل ينتمي إلى الإطار ويظل خارج حدوده الأربعة أي خارج الحقل أو خارج المجال، والذي يعتبر خزاناً تخيلياً تبنى عليه عملي السرد. يضيف حمادي كيروم في هذا الصدد "إذا اعتبرنا أن الحقل هو البعد المكاني للإطار ووحدة قياسه الفضائية، فإن خارج الحقل هو وحدة قياسه الزمنية، لأن تأثيرات خارج الحقل تبدل وتوظف من خلال الزمن" (كيروم، 2005، ص 115) وعليه نقول أن هذا الديالكتيك في التسلسل الفيلمي، هو نتاج بين متواليّة الحقل وخارج الحقل، وهذه التفرعات المحتملة بين هنا وهناك أي بين (حقل-خارج الحقل)، تفتح لنا الطريق أمام العديد من الإمكانيات والأنماط المختلفة للسرد السينمائي.

ولا شك أن فضاء المحكي الفيلمي داخل المجال أو خارجه يرتبط بمجموعة من الروابط المكانية التي تضمن سيرورة اللقطات والمشاهد في الفضاء الفيلمي وهذا ما سنقف عنده مع كودرو ودوست في محور الروابط المكانية في الفضاء الفيلمي.

2 الروابط المكانية في الفضاء الفيلمي:

في البداية يمكننا أن نبدأ بتمهيد نضع فيه نظرية الفضاء السردي التي وضعها 'كودرو وجوست' وهي التي سنحاول تفصيلها بشكل مقتضب مع الوقوف على أمثلة من لقطات فلمية للتوضيح فقط. فالتمفصل الفضائي بين لقطتين ينقسم حسب هذه النظرية إلى شكلين؛ الهوية الفضائية والغيرية الفضائية، هذه الأخيرة يتفرع عنه الفضاء المتجاور أي (هنا) والفضاء المنفصل الذي بدوره يعبر عن الفضاء القريب (هناك) والفضاء البعيد (هنالك).

1-2 الهوية الفضائية:

تؤدي الروابط (les raccord) دوراً أساسياً في مجال السرد الفيلمي، فهي بمثابة علامات الترقيم، وعليه ينبغي ويتأسس الإحساس من المتلقي بالتتابع في السرد المنطقي للفيلم، ويشمل هذا الأخير على عدد كبير من الروابط والمتواليات ولكل رابط دلالة فضائية على مستوى السرد الفيلمي، به تتقدم ويتحرك المحكي الفيلمي إلى الأمام ويمكن أن نميز أربعة نماذج أساسية من العلاقات الفضائية كما جاء في كتاب المحكي السينمائي:

- النوع الأول: يمثل هذا التمفصل من التعبير الفضائي الحالة الأكثر وضوحاً، حسب أندري كودروب "عودة نفس الشيء، أو بالهوية الفضائية" (كيروم، 2005، ص120) وهو تمفصل مقطعين فضائيين ويعمل بالقفز الجزئي من لقطة إلى أخرى، بتعبير آخر نجعل جزءاً من المقطع الفضائي الذي شوهد في بداية اللقطة يكرر نفسه، وذلك بفضل المرور بين لقطتين. وهكذا تظهر اللقطة الثانية تفاصيل عن الأولى، أي الانتقال من لقطة قريبة إلى لقطة متوسطة من نفس الفضاء بحيث تظهر لنا التفاصيل المراد فهمها.

* حالات الهوية الفضائية: cut in وتتلخص في عملية الربط بلقطة مقربة أو لقطة مكبرة بين لقطتين حينما يتكرر عرض جزء من مقطع فضائي شاهدناه مرة سابقة، أو على العكس من ذلك من خلال إظهار الجزئية قبل المجموع، أي عرض لقطة مقربة ثم العودة إلى تقديم لقطة متوسطة لنفس الفضاء الذي قدمته اللقطة المقربة.

حالة هوية فضائية يقدمها لنا الفيلم السينمائي 'عاملة التلغراف' من اللقطة 106 إلى 108.



مشغل التلغراف من اللقطة 106 إلى 108.

- اللقطة رقم 106: لقطة متوسطة - الفتاة تستهدف المجرمين إلى حين وصول المنقذين ليكملوا المهمة، في الأخير تظهر الفتاة ما كانت تحمله بيدها والذي اعتبره المجرمون بمثابة سلاح.
 - اللقطة 107: لقطة مقرّبة - نفس المشهد، استمرار للحركة. نرى أن هذا "السلاح" لم يكن مسدسا، بل كان مفتاح ربط بسيط.
 - اللقطة رقم 108: لقطة متوسطة قريبة - العودة إلى الإطار الأول. يدرك المجرمان أن الفتاة خدعتهما.
- 📌 هذه حالة هوية مكانية، تُظهر اللقطات الثلاث الفضاء المحكي نفسه، لكنها تظهره في أجزاء مختلفة.
- 2-2 الغيرية الفضائية: الانفصال والتقارب
- رأينا سابقا، إلى جانب الهوية الفضائية، أن الأنواع الثلاثة الأخرى من التعبير عن الفضاء السينمائي تندرج تحت نمط الاختلاف المكاني أو 'بالغيرية الفضائية' وتبقى وظيفة هذه الأخيرة "مبنية على الأفعال التي تقوم بها الشخصيات داخلها، إنها مبنية على تحرك الشخصيات بسبب طبيعتها الفضائية." (كيروم، 2005، ص 121).
- وعليه؛ يمكننا أن نعرف علاقة الغيرية بين فضائين، انطلاقا من تباعدهما أو تقاربهما، فإذا كانا في حالة تقارب أو تجاوز تحقق عملية الربط بين مقطعين فضائين، بحيث أن المعلومات التي تصل للمتلقي من اللقطتان، يستنتج من خالهما وبشكل مباشر ومتتابع علاقة ملاءمة دون أي خطأ.

على سبيل المثال في اللقطات 29-32، ترجع بطلة الفيلم إلى مكتبها محملة بالحقائب الثمينة التي تسلمتها في القطار، وفيما يلي وصف للقطات الأربع المعنية:



على سبيل المثال في اللقطات 29-32، ترجع بطلة الفيلم إلى مكتبها محملة بالحقائب الثمينة التي تسلمتها في القطار، وفيما يلي وصف للقطات الأربع المعنية:

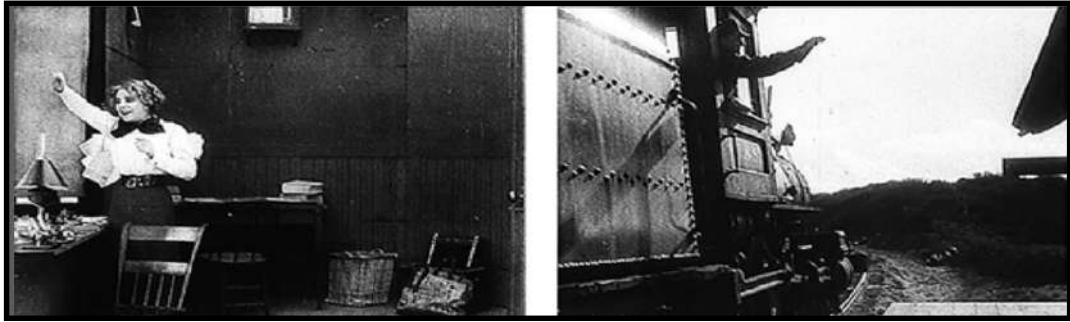
- اللقطة 29 (أعلى اليسار): رصاصة جنرال - الفتاة الصغيرة التي تحمل أكياس النقود في حقيبة تمشي باتجاه المحطة.
 - اللقطة رقم 30 (أعلى اليمين): لقطة متوسطة - تجاوزت عتبة الباب ودخلت المحطة.
 - اللقطة رقم 31 (أسفل اليسار): لقطة عامة - تمشي في غرفة الانتظار المجاورة لها.
 - اللقطة رقم 32 (أسفل اليمين): لقطة متوسطة ضيقة - وصلت إلى مكتبها وتضع الحقيبة الثمينة.
- ✚ نستنتج انطلاقاً من هذا النموذج، أن الفتاة الصغيرة تتواجد بجوار القطار وتجه نحو المحطة التي توجد هنا؛ ثم تذهب إلى غرفة الانتظار الموجودة هنا، وكذلك بالنسبة للباب الذي يراه المشاهد في اللقطة 31 ويراه أيضاً في اللقطة 30، هذه اللقطات رغم انفصالها الفضاوي، فهي تحقق اتصالاً بالتواصل عند المتلقي، مما يجعل من الممكن قراءة حركة الفتاة الصغيرة على أنها تحدث بشكل مستمر.

إن الاتصال يلعب دورا أساسيا في تكوين فضاء متجانس، ويتحقق هذا من خلال إعطاء الانطباع لدى المشاهد، بأن لقطتين متباعدتين من حيث الفضاء لكنهما متجاورتين رغم عدم تجانسهما. (مثال الباب في فيلم عاملة التلغراف).

2-3 الفضاء القريب:

للانفصال نظامين متميزان، قد يتجلى لنا في الفيلم على شكل فضائين متقاربين أو فضائين متباعدين، هناك ثلاث حالات متميزة من تغيير الفضاء عن طريق الانفصال القريب:

- الحالة الأولى: يتجلى الانفصال القريب عندما يفترض المشاهد أن المعلومات ذات الطبيعة الفضائية التي يرسلها الفيلم، تحقق إمكانية الاتصال المرئي أو الصوتي بين فضائين غير متجاورتين جمعها وقرب بينهما المحتاج.



في هذا المثال ندرج لقطتين من نفس الفيلم (عاملة التلغراف) اللقطة 13 واللقطة 14

ما نلاحظه هو أن هذين اللقطتين متباعدتين منفصلتين من حيث الفضاء، في اللقطة رقم 13، عبر نافذة مكتبها المطل على السكة الحديد، تحيي عاملة التلغراف صديقها التي كانت في القاطرة على وشك مغادرة المحطة. المقطعان الفضائيان ليسا متجاورين ومع ذلك، فهما ليسا ببعيدين، نظرا لأننا لا نرى المنصة بين الحافة اليمنى من اللقطة 13 والحافة اليسرى من اللقطة 14. وعليه، فالمقطعين الفضائيين في الفيلم هما منفصلان نسبيا، لكنهما قريبان.

- الحالة الثانية: "إذا عبرت بنا الكاميرا فضائين متجاورين يفصل بينهما حائط دون المرور بواسطة شخصية من الشخصيات تنقلنا من فضاء إلى آخر" (كيروم، 200، ص 153)



اللقطات رقم 35 و36، تظهر لنا الفتاة الصغيرة في مكتبها، ثم المجرمان خارج المحطة بالقرب من النافذة التي تطل على المكتب المذكور.

- الحالة الثالثة: "إذا كان مسار الاتصال بين مقطعين فضائيين غير متصلين موجهًا بواسطة تنقل شخصية من الشخصيات، حيث يساهم تنقل أية شخصية من فضاء إلى تجاور المسافة الفاصلة بين المقطعين



الفضائيين ويساعد على الربط بينهما" (كيروم، 2005، ص 153)

اللقطات 8 و9 من نفس الفيلم، تظهران مقطعين من فضائيين مختلفين غير متصلين، تظهران المسافة التي سافرها مشغل التلغراف وصديقته للانتقال إلى المحطة.

4-2 الفضاء البعيد:

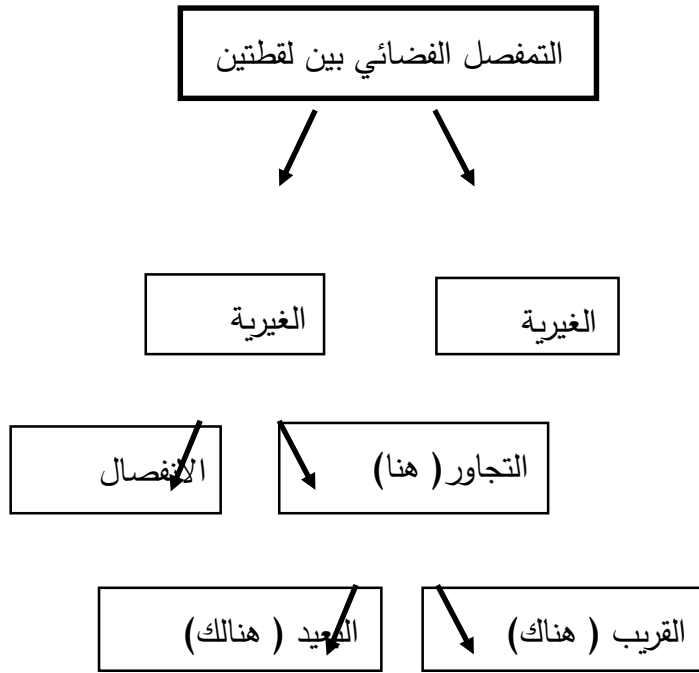
يجمع هذا النموذج الأخير خلال الانتقال من لقطتين بين فضائيين في انفصال متباعد، بحيث يمكن اعتبار الفضاء بعيدًا إذا ظهر في اللقطة الثانية ولا يمكن ربط الفضاء المعروض باللقطة السابقة. ندرج هنا مثالًا من فيلم عاملة التلغراف اللقطة 61 و62



إن نتابع هادين الفضائيين رغم تباعدهما في المسافة، يبعث في المتلقي ويخلق عنده عنصر التشويق ويجعله مشدودا. فالعلاقة بين اللقطتين 61 و62، تظهر لنا الفتاة في مكتبها في محطة (Lonedale) والشاب في مكان آخر على منصة محطة أخرى. وسبب اختبار هذه اللقطات بهذا الشكل، وكأن المخرج يقول لنا؛ انظر الفتاة هنا بينما الرجل هناك.

خلاصة:

جاء محور المقاربة التقنية للفضاء الفيلمي (فضاء المحكي) للوقوف على الروابط المكانية وكذلك فهم الميكانيزمات التي تشتغل داخل الفضاء الفيلمي، من أجل الدخول في بنية السرد السينمائي، ويمكننا تلخيص نظرية الفضاء السردية في التفرص بين لقطتين حسب كودرو وجوست وفيليب غوتيه في



الخطاطة الآتية:

المصادر والمراجع:

- كيروم حمادي، الاقتباس من المحكي الروائي إلى المحكي الفيلمي، الفن السابع، وزارة الثقافة دمشق 2005.
- البيضاني حكمت، جماليات وتقنيات الصوت، ط1، أكاديمية الفنون وحدت الإصدارات السينمائية، القاهرة، 2011.
- Henri Agel, L'espace cinématographique - Esthétique et dramaturgie, PUF Paris 1978
- Gaudreault André, JOST François, Le récit cinématographique, 3 éd Editions Nathan, Armand Colin, 2017.
- Michel Chion, Le Son au cinéma Traité D'acoulogie, 2 Edition, Armand Colin, Paris, 2010

محنة الأسلوب عند الهذلي
(دراسة أسلوبية في عينيته)

The Style Ordeal When Hudhali
(Stylistic Analysis of His Poem)

يوسف كطابي، (طالب باحث بسلك الماجستير، شعبة اللغة العربية، تخصص اللسانيات العربية والإعداد اللغوي، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب).

البريد الإلكتروني: youssefguettabi1@gmail.com

ملخص:

يعدّ التحليل الأسلوبي نقلة نوعية في مناهج استنطاق النصوص الأدبية، وقد وقع اختيارنا عليه لاستنباط المحولات الدلالية التي يجبل بها النصّ الذي بين أيدينا، وذلك باستثمار رؤاه وأساليبه المتنوعة. القصيدة المختارة من القصائد التي تنهض على مقومات تأثيرية قوية، بسبب حالة الشاعر الشعورية، فالمصيبة التي حلت به جعلته يبدع في بثّ الحرارة المتأججة في صدره. وهذا بالضبط ما جعلنا نعوص في استخراج هذه المقومات (الدلالية والتركيبية والصوتية) التي تقوم عليها القصيدة وربطها بالذات المتشظية. الكلمات المفتاحية: القصيدة- الأسلوبية- أبو ذؤيب الهذلي -مستويات التحليل...

: Abstract

The stylistic analysis represents a qualitative leap in the methods of interpreting literary texts. We have chosen it to extract the semantic content carried by the text before us by capitalizing on its visions and diverse methods.

The selected poem is among those that rise from powerful affective elements due to the emotional state of the poet. The tragedy that befell him made him excel in conveying the heated fervor within his chest. This precisely led us to delve into extracting these elements (semantic, structural, and phonetic) upon which the poem relies, connecting them with the fragmented self.

Keywords: stylistic analysis, Abu Dhu'ayb al-Hudhali, levels of analysis...

مقدمة:

مناط الاشتغال قصيدة من عيون الشعر العربي "شاعرها حمل وجعاً وألماً صدرًا عن فاجعة حفرت عميقًا في نفسه". (عبد الله محمود، 2017، ص: 1)

"أمن المتون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يخزع"
أبو ذؤيب الهذلي انفطر قلبه من شدة الحزن والألم على فقد بنيه الخمسة الذين ماتوا بالطاعون في مصر. إذا المنية أنشبت أظفارها. فكيف تدفع؟

منذ عهدي بعينته الشهيرة، التي خلّدتها وخلّدت باقي شعره وأنا أتألم لكلماته، أشعر بألم الفقد، أشعر بمذاق المصيبة في قمي، بتلك الحالة الشعورية التي يكون فيها الإنسان إذا ما فقد أحد أقربائه أو أحبائه، تكون نفسه مليئة بالأسى، مشغولة بتصور من فقد. فكيف لمن فقد خمسة أبناء في عام واحد! لكن ليس كل من فقد مثل أبي ذؤيب. كيف ذلك؟

خُلِقنا باللّغة، وهي سرٌّ من أسرار الوجود، ومتاهة من متاهات الكون، وأداة لتعريف جميع المخلوقات والموجودات. فالله سبحانه وتعالى علّم آدم الأسماء كلّها باللّغة، يكفيه سبحانه أن يقول كُن فيكون؛ هي التي تريحنا وتعبّر عن دواخلنا وترجم مشاعرنا وأحاسيسنا، وبها نخرج تلك الزفّرات الحرّية الملتببة للترويح عن هذه النفس حتّى لا تموت من الكمد المكبوت والحزن المخبوء، وبها نفسر هذه التقلّبات النفسية التي لا تركز عند حال من الأحوال. وأعظم نعمة هي نعمة امتلاك ناصية اللّغة؛ أن يكون قلبك رشيّقاً، يسيل رقّة وعدوبة.

هذا ما سنحاول رصد ملامحه مع أبي ذؤيب الذي استطاع أن يبكي ويرثي أبناءه باللّغة، بإنشاد الشعر فيهما وتصويرهما، ونمذجة أوجاعه ونمذجة فنية جمالية. وقد كان الشاعر يشعل لهيب الحرب ويخمدّها، وفنّ القول هو الطّريقة التي عبّر بها العرب عن مشاعرهم، وهو أقوى الطّرق إغراءً وإقناعاً، وأشدّها خطراً.

رثى أبو ذؤيب فلذات كبده بقصيدة جميلة جدّاً، حزينة جدّاً! وهي من القصائد التي علقت في الزّمن، وعلوقها هذا سببه تشابه البشرية واشتراكها في هذه الحن والبلايا، وهي ذات طابع فلسفي كوني، تميّز بالامتداد على كلّ الأزمنة والأمكنة.

بنو الإنسان عرضة لكلّ شيء، ويحضرنى نصّال (عليّ الطنطاوي) في مقالة من أحاديث الإذاعة: "خُلِقنا للشقاء وأقمنا هدفاً للمصائب، ووضعنا في دنيا ما فيها إلاّ الآلام، من سلم منها اليوم وقع غداً، ومن لم يمت ولده من سقطته مات من علته، أو مات وهو صحيح معافى. ما من الموت بدّ. ولا بدّ قبل الموت من البلايا والمتاعب". (الطنطاوي، 1998، ص. 122)

المصيبة التي حلت به كفيّلة بأن تسبّب انهيّاراً لأيّ إنسان مهما كانت طاقات احتماله؛ لكن أبا ذؤيب حوّل مصيبتته شعرياً إلى فلسفة حياة، هذه الحياة ليست عجينة في أيدينا نديرها ونلولها كيفما شئنا؛ وإنما هي مزيجٌ بين المسرّات والمصائب، لا أحد يستطيع أن يعجنها ويضعها في الفرن على مهلٍ، ثمّ يضعها في مكان معتدل البرودة يشدّ بعضها بعضاً، ويختار بعد ذلك المكان المناسب، الجميل الهادئ، ويأكلها فرحاً مسروراً بها.

غايّتنا في هذا البحث أن نتقصّى المكانم الأسلوبية التي تقوم عليها القصيدة، مارّين بثلاثة مراحل كبرى، هي الأعمدة التي يقوم عليها هذا النوع من التحليل، وسنعرض الأمر بشكل جليّ في الفرش النظري.

تفتح الدراسة بتعريف موجز للأسلوبية وتقنياتها ومستوياتها من خلال فرش نظري، ثمّ بعد ذلك الجانب التطبيقي من الدراسة فيه سنقوم بالرصد والتفريغ لما يجبل به كل مستوى من محولات دلالية، وختام الدراسة جملة من النتائج نرجو أن تكون حققت غايتها.

المبحث الأول: الفرش النظري

الأسلوبية أو علم الأسلوب، علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية، فتميّزه عن غيره، وهذا المعطى هو الذي يجعل الأسلوبية تتحدّد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب، طالما أنّ جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلّا عبر صياغاته الإبداعية. (المسدي، 1982، ص. 36) في هذا المقام تتحدّد دراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحوّل الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية. ويبلور (جاكسون) في مقارنة شمولية هذا المنحى فيعرّف الأسلوبية بأنها البحث عمّا يميّز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أوّلاً وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً. شأن ذلك شأن البلاغة في التفكير عامّة. (المسدي، 1982، ص. 36)

الأسلوبية تحاول أن تدخل إلى باطن الشّاعر تميّزه عن سواه وتكشف انخبيا التي تقف وراء بنيته، وتأتي لتتبع بصمات الشّحن في الخطاب، إذ تعني كذلك بالجانب العاطفي في الظّاهرة اللغوية وتقف نفسها على استقصاء الكثافة الشعورية. وقد حدّد (بالي) حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام وفعل ظواهر الكلام على الحساسية؛ فعدن الأسلوبية حسب ما يقوم في اللّغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية بل حتّى الاجتماعية والنفسية. (المسدي، 1982، ص. 41)

إنّ الذي لا نزاع فيه هو أنّ كلّ نظرية نقدية في الأدب تقتضي الاحتكام إلى مقياس الأسلوب باعتباره المظهر الفني الذي به قوام الإبداع الأدبي، وهو الميزة النوعية في عملية الإفراز الفني.

(المسدّي، 1982، ص. 110) ومن هنا يتّضح أنّ هذا سببا كافيا ليقع اختيارنا على هذا النوع من التحليل، نظرا لفاعليته القوية في استنطاق النص، وكشف المقولات الأسلوبية والمداولات الجمالية التي يقبض عليها الخطاب الأدبي، والمتمثلة في (الاختيار، التركيب، الانزياح) ودورنا أن نبحث عن هذه المقولات وننفذ إلى مضمونها، حتّى يمكننا أن نخلق حوارا ومجالا للتواصل مع كلّ نصّ نقرأه.

ومن هنا يتبيّن أنّ الدراسة الأسلوبية تقوم على الاختيار والانتقاء والانسجام من حيث اختيار مفردات معينة من أعيان المفردات والتراكيب، وانتقاء البنية التركيبية أو التشكيكية الملائمة لها، مع اختيار بنية صوتية تحقّق الانسجام لها؛ ليمّ ظهورها على نحو خاص للكشف عن الأثر الجمالي والانفعالي لدى المتلقي. (حامد، مصطفى، 2016، ص. 679)

باختصار فطول الجملة أو قصرها، وغلبة الأفعال فيها أو الأسماء، واستخدام الحروف بطرائق معينة، ووفرتها أو ندرتها، وتحليل الأصوات اللافتة للانتباه ودراسة الأوزان ودلالاتها... وغير ذلك من ملامح وخصائص يتصف بها النص. هذا كلّ مجال الأسلوبية. (سليمان، 2004، ص. 43)

لكي نحلّل نصّا ما أسلوبيا ينبغي الوقوف عند ثلاث مستويات:

أولا: المستوى الصوتي

إنّ البحث عن موقع الإبداع داخل النصّ يستوجب الوقوف على البنى الصوتية التي تمثّل جزءا لا يتجزأ من هيكل القصيدة، إذ تتّجه الدراسات الأسلوبية إلى استقراء الظواهر الصوتية لدى الشاعر، لتبرز من خلال ذلك أهمية المستوى الصوتي في كونه يهتم بالمادّة الصوتية التي تحتزن في داخلها الطاقات التعبيرية والفكرية والعاطفية لدى الشاعر. ومن ثم يبرز التفاعل بين المادّة الصوتية وهذه الطاقة التعبيرية، ولذا تعدّ الظواهر الصوتية من الركائز الهامة التي تستند عليها الأسلوبية فضلا عمّا يجسده المبدع من العلاقة بين الصوت والمعنى. (سليمان، 2004، ص. 681) والمتبّع لدراسة الشعر يجد أنّه يقوم بالدرجة الأولى على الموسيقى التي تكسبه قيمته الفنية، كما أنّ له نواحي عدّة للجمال أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع، وتردد بعضها بعدد وقدر معين منها، وكلّ هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر. (أنيس، 1952، ص. 708) وقد اعتمدنا تقسيم المستوى الصوتي في عينية أبي ذؤيب الهذلي على نمطين، نمط يشمل الإيقاع الخارجي ويمثّل في الوزن والقافية، ونمط يشمل الإيقاع الداخلي وهو إيقاع غير ثابت يقوم على ما تنطوي عليه الظواهر الصوتية من قيم إيحائية مؤثرة وفعالة لها القدرة على خلق دلالات تكشف عن ذات الشاعر القلقة.

ثانيا: المستوى التركيبي

النص تربطه مجموعة من القواعد النحوية وهي التي تنظم بناءه، أو ما تسمى بقواعد التماسك النحوي عند (رقية حسن) فاللغة الأدبية المكتوبة بحاجة إلى نوع من التحليل اللساني، يختلف اختلافا كبيرا عن التحليل الذي تحتاج إليه اللغة المنطوقة أو الكتابة غير الأدبية. ومن هنا يمكننا النظر في التراكيب المستعملة في صياغة الشعر، تلك التي تختلف عن الكتابات الأخرى، باستخدام خاص للعلامات اللغوية لإنتاج الدلالة الأدبية. فالشاعر يستخدم ألفاظه وتراكيبه بما يتفق مع القافية والوزن مثلا، أو بما يتفق مع امتداد البيت، طوله أو قصره، أو بما يكفل له الانسجام في بناء القصيدة. (خليل، 1997، ص. 135)

يبدو أنّ هذه النظرة إلى النسيج الداخلي المتشابك للنص، من المنظور النحوي وجدت صداها لدى عالم اللسان الهولندي (فان ديك) الذي اعترض على النحو التقليدي في كتابه (جوانب من علم نحو النص) ودعا إلى اتباع طرق جديدة في تحليل المستويات الصوتية والتركيبية والدلالية للنص، مع الوقوف على ما يعثره -أحيانا- من إضافة أو حذف أو استبدال (خليل، 1997، ص. 139)

إنّ كشف المتلقي عن خصوصية العمل الأدبي وتفاعله الداخلي، وما يخبئه مظهر النص المطبوع من علاقات دفيئة لا تكون إلا عن طريق التأويل والتفسير.

ثالثا: المستوى الدلالي

التفاصيل التي يتكوّن منها نسيج النص الشعري، لا تخلو من عناصر يستمدّها الشاعر من التراث الشعري، ولا جدال في أنّ الشاعر يحاول أن يطور معانيه ورموزه، باستخدام تلك العناصر الموروثة وتجديدها، بحيث تبدو القصيدة خلقاً جديداً لا صلة له بالماضي. وعندما يتناول الشاعر موضوعا من الموضوعات يستحضر المعاني من زوايا مختلفة لا من منظور واحد، والمعنى الواحد الذي يستدعيه الشاعر قد يُعرض في القصيدة الواحدة بأكثر من صورة، وقد يعرضه عدد من الشعراء بصور شتى. (خليل، 1997، ص. 99)

دراسة الموضوع في الشعر والاستعمالات المجازية فيه هي جوهر معرفة نفسية الشاعر ومدى تصويره لهذه النفس من خلال الإشارات الدالة، تلك التي تعكس حالته الشعورية، ومن خلال الأوجه الدلالية نصل إلى المحتوى التي تمليه الصورة وتشكّل منه الرسالة الشعرية. يُضاف إلى هذا أنّ قسما من التأثير الجمالي الكامن في الأعمال الشعرية ينبع من الطريقة الفنية التي يصاغ فيها المعنى الشعري. وعلى هذا الأساس يهتم علم الدلالة بالجانب المعجمي وما تدلّ عليه الكلمات، مع تتبع لمستجدات المعنى التي تلحق الدلالات. فالنص الشعري هو ككلمة إيحائية ينبغي فك شفراتها وتأويلها.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي من مستويات تحليل قصيدة أبي ذؤيب الهذلي

أولاً: دلاليًا

يقتضي تحليل الخطاب الشعري من الناحية الدلالية الوقوف عند مجموعة من المقومات الخفية التي لها علاقة ارتباط بذات الشاعر، إذ إنَّ النَّسق القوي لا يأتي في صورة صريحة واضحة سهلة المأخذ، وإنما ينبغي الاستعانة بتقنيات التحليل المناسبة التي تسعف على تلمس طريق قد يبين شيئاً من محولات الشعر، ويستجلي بعض أبعاده ودلالاته ما ظهر منها وما بطن. ومع ذلك يظلُّ البوح الشعري غير متفق عليه في كثير من الخطابات الشعرية التي تشكّل نصّاً عصياً على أن تُقال فيه الكلمة الأخيرة؛ لأنّه حمل ومتقبل لغير رؤية نقدية، ولعلّ في هذا العصيان يكمن سرّ الإبداع الشعري. (عبد الله محمود، 2017، ص: 1)

سنقوم في هذه الدراسة بتحليل الصور الفنية وما ينضوي تحتها من طاقات تأثيرية وما ينتج عنها من إقناع، وجمالية تعلق في نفس المتلقي، ومن خلالها وعبرها سنجد طريقاً إلى ذات الشاعر، ومن ثم نفهم كيف يفكر الشاعر في المصيبة التي حلت به، خاصة وأنّ هذه القصيدة من القصائد ذات الطابع الفلسفي الكوني، فضمنون القصيدة وجودي في جوهره. (عبد الله محمود، 2017، ص: 2)

لكلّ بناء مدخل ولكل مدخل عتبة ولكل عتبة هيئة، ولأنّ العتبات همسات البداية فقد افتتح شاعرنا قصيدته بسؤال مفتوح مطلق لا حدّ له، والحدّ في نفسه يلعب دور الحيرة والتيه في لا معقولة الوقائع الحياتية؛ فهو يدري حقاً أنّ الوجد والحزن على صروف الدهر لا يجديا نفعاً؛ لكن من حقّه أن يقف مقام السائل حول هذه القضية الإنسانية العامة؛ كونها لا تخصّ همّة الشخصي فقط وحزنه الذاتي لأنّه فقد فلذات كبده، وإنما الأمر مشترك بين جميع بني البشر، وكلّ إنسان معرض أن يكون مقامه. قد نستشفّ من هذا السؤال الاستفهامي فكرة مغايرة، مفادها أنّ الشاعر ليس صاحب المصيبة، وإنّ عزلنا البيت الأول عن الأبيات التي تأتي فيما بعد لا توضح المعنى أكثر، ولكان الشاعر يحاور ذاتا أخرى ويتعجب من وجعها على مصائب الزمن، والزمن لا يلتمس عذرا لمن يتألم من المُنون؛ لكن بعد أن قال: / فأجبتها أنّ ما لجسمي أنّه... أودى بنيّ من البلاد فودّعوا / جملة تحمل إثباتاً قوياً دالاً على من يحمل هذا الألم، ألا وهو نفسه شاعرنا.

إذن فقد حققت هذه العتبة شرط إبداعها.

في البيت الثاني تسأل أميمة شاعرنا / قالت أميمة ما لجسمك شاحبا / نفهم من هذا السؤال أنّ لشاعرنا علّة تظهر، سببها الألم النفسي الذي تجاوز الداخل نحو الخارج، ليجيبها بحرقة تدمي قلبه، هذه الحرقة خلفها الأبناء الذين غادروا الحياة وتركوه كالطير المذبوح، ومن بعدهم لم ينعم بعيش ناصب / فغبرت بعدهم بعيش ناصب... وإخال أنّي لا حق مستتبع / ومن هذه التجربة العصبية مضى في بقية الأبيات يقدم عصارة ما استشفّه منها، ومتمثلة في رؤيته لهوت والحياة؛ وعجز الكائنات التام عن مغالبة

الدَّهر وقهره، وهذه مسألة حتمية في اعتقاده. فأصبحت الحياة في نظره مخوفة المخاطر لأنَّها لدغته من قلبه، ومن قيس في هذا المكان انعدمت الحياة في وجهه. بالرغم من أنَّ الشاعر يحاول أن يقف متجلداً أمام الواقعة / وتجلدي للشامتين أريهم ... أي لريب الدَّهر لا أتضعض / وهو تجلِّد فاشل. فكيف لمن فقد خمسة أبناء دفعة واحدة أن ينسأهم ويضع البلمس مكانهم؟ وشاعرنا يدري هذا جيِّداً لكنه يحاول على الأقل ألا يظهر ضعفه أمام الشامتين؛ ويؤكد هذا الأمر عدم تجنُّب الشاعر الحديث عن مقدار حزنه ومعاناته، وهي ما أجملها في عصارة ضمَّنها باقي أبيات القصيدة.

لما مضى الشاعر في خطابه الشعري اتكأ على بنيات أسلوبية قامت على الاستعارة والتشبيه في تصويره الموت وجبروته، وهذه الصُّور هي التي أضفت طاقات تعبيرية على جوانب التجربة الشعرية، فاستغلَّ هذه الإمكانيات وقدرته على اللُّعب باللغة ليضفي طابعا خاصا على لوحته الأدبية. وظَّف الشاعر استعارة في / ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... فإذا المنية أقلت لا تدفع / هذه صورة شعرية مكثفة، تحمل في روحها معنى استطاع أن يربط لحظة الحزن مع خيال الشاعر، فليس من السهل أن تلتقط صورة تتماشى وروحك النفسية وتضمُّها في جسد المتن، لتكون معبرة عنك، دالة على إحساسك.

لقد حقَّق أبو ذؤيب بهذه الصورة الشعرية حتمية الموت، ومدى ضعف الإنسان أمام هذه القوَّة الطاغية التي لا يمكن مقارعتها. ويضيف على هذه الصورة صورة أخرى أقوى من سابقتها، درامية على حد تعبير (فريال هديب) إذ يقول / وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفت كل تميمة لا تتفع / فقد جعل للمنيَّة أظفاراً تنهش بها، بل بهذه الأظفار تصطاد طرائدها. وقد صادفني معنى آخر اعتبر أنثوية هذه المفردات / المنية - تميمة / شأنها شأن الأنثى المفترسة في عالمها، في حين أنَّ الضَّعف سمة لمن حانت منيته، وفشلت تميمته في دفعها. (عبد الله محمود، 2017، ص: 13)

يذهب (طه عبد الرحمن) إلى أنَّ الاستعارة يمكن أن تكون أبلغ من الحقيقة إذ يقول: "ويظهر هذا التوجه العملي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه سواء أصرَّح به أم لم يصرَّح، الدليل الأمثل والأفضل على الحقيقة الثابتة ليقنع بها المستمع" (عبد الله محمود، 2017، ص: 14) وعليه فالاستعارة ليست مجرد زينة أو محسن بديعي بل هي مكوِّن بنيوي للمعنى، وفوق ذلك لها القدرة على أن تجعل المعنى أكثر حيوية. (عبد الله محمود، 2017، ص: 14)

وظَّف أبو ذؤيب التشبيه في خطابه الشعري / فالعين بعدهم كأنَّ حداقها ... سمت بشوك فهي عور تدمع / وهذا أمر طبيعي جداً أن تكون ردَّة فعل الشاعر هي البكاء؛ إنَّها حالة بيولوجية تتبع الشعور

بمذاق المصيبة وحجم الفاجعة، وهو تشبيه دالّ على التأثير والاستجابة الفورية للحزن والألم والمعاناة؛ فقد شبه عينه بالعين المريضة المصابة ليضمن تأثيراً في نفس المتلقي.

ومشياً مع طرح الحلل الإبداعية التي لا تنفك تكون العمدة في النصّ الشعري، فقد استعمل كذلك الشاعر بعض الصور الكائنية وهي الأخرى تبتّ في نسق النصّ حيوية وثناء وتكثيفاً لا يخلو من وشي وروث، والكآبة في نظرنا تبعث في المتلقي روح السؤال وتجذبه بقوة إلى ثنايا النص، بل وأكثر قد تجعله يبحث عن السرّ التي تكتنفه وعن حملتها الدلالية، وصوغ الكآبة صعب جداً كما أن البحث عنها في فضاء النصّ الواسع الرحب يتطلب نظرة ثاقبة ووعي عميق بالنظام الكائي.

تموضع الكآبة في شطر / من حرّها يوم الكريهة أسفع / فقد جعل يوم المصيبة حرباً، حرباً على نفسه. كيف سيتقبّل هذه الحرب وكيف سيواجهها؟ إنّ الخبر بالنسبة إليه إعلان لحرب قادمة صعبة التجاوز؛ فكان هذا المعنى من المشيرات التي عبرت عن الحرارة الباطنية. لنكتفي بهذه الواحدة كنموذج فقط؛ أما القصيدة ففيها ما يكفي من الكآبات.

حاولنا أن نتتبّع - فقط - بعض الصور الشعرية التخيلية التي أعربت عن ذات الشعرية وما يختلج في وجدانه، كما أنّها جعلت النصّ أكثر حركة ودينامية. فلا يمكننا أن نرصد جميع هذه الصور وتفريغها وتحليلها؛ لأنّ الأمر يتطلب جهداً كبيراً ودراسة معمّقة، لا نملك الحيز المكاني للعروج عليها جميعها. كما أنّ القصيدة هي مكوّن كلّ متماسك الأجزاء، وكلّ جزء يؤثر بشكل أو بآخر على باقي أجزاء القصيدة. وجميع هذه الأجزاء تتضامن لإثبات فكرة حتمية الموت، وانعدام الجدوى من مغالته والانفلات من قبضته.

لكلّ شاعر لغة خاصّة، وفي هذه اللّغة يكمن الإبداع والتميّز؛ فقد نعرف كاتباً أو شاعراً من لغته فقط، هي وحدها تخلق فارقاً شاسعاً في الكتابات الأدبية، كما أنّها أحد أسرار الجودة. مع هذا الاعتبار سنحاول أن نتقصّى معجم شاعرنا ونرصد الحقول التي تنضوي تحته مع العلاقة التي تربطها.

أولّ حقل في نظرنا ينبغي استخراجُه والبحث في ثناياه هو حقل الحزن، لكون غرض القصيدة العام التعبير عن هذا الحزن، وكلّماته تشكّل نسبة كبيرة منتقاة بكيفية متقصّدة، وهو إلى حدّ كبير ناطق بالذات الموحدة. الشاعر يقول: / أمن المنون وريها نتوجه - سملت بشوك فهي عور تدمع - أودى بني من البلاد فودعوا - وإذا المنية انشبت أظفارها - بصفا المشرق كلّ يوم تفرع / إنّها كلمات ذات حمولات دلالية قوية، راسمة للمشهد المؤثر والمعاناة التي يمرّ منها الشاعر، إنّها مارس عملية الغرلة ليصل إلى هذه المعاني ويقصد بها تصوير الحالة النفسية، لا مجرد التلوين والتنميق، وطبعاً في سبيل الغاية ذاتها لما حلّ به من المصائب التي أتت دفعة واحدة.

بعد حقل الحزن نجد كذلك حقل الطبيعة، وقد تظافرا ليرسما لوحة / جون السراة له جداد أربع - ذكروا الورود بها وشاقى أمره - شبب أفزته الكلاب مروّع - شعف الكلاب الضاريات فؤاده / نلاحظ أنّ الشاعر ينتقي كلامه بدقّة عالية، فالحزن لا يليق به الكلام الرقيق المعسول، وحجم المصيبة ولّد ضغطاً نفسياً رهيباً على الشاعر، وكأنّه لا يبكي أولاده وإنما ساخط على الأمر الذي حلّ بهم. هذان الحقلان فقط لهما أبعاد دلالية فاعلة وكافية، وضعتا المتلقي في قلب الحدث محققة مقصد تأثيري؛ وقد عبّر عن الحزن بالطبيعة الخشنة القوية.

ثانياً: تركيبياً

يلعب المستوى التركيبي دوراً بارزاً في إنتاج المعنى الشعري، فالأسلوبية تختبر هذه القيم التعبيرية للتراكيب النحوية من صيغة فردية، والانتقال من نوع محدد من الكلمات إلى نوع آخر، ثم ببنية التركيب أي موقع الكلمات وترتيبها وحالات النفي والإثبات وعلاقات التراكيب داخل النص الأدبي. ومن هنا فالأسلوبية التركيبية تتركب من مجموعة العلاقات القائمة داخل بنية التركيب النحوي وهي وحدات معنوية صغرى تبنى على علاقات توزيعية. (العاني، 2003، ص: 33) فالقصيدة هي وحدة متلاحمة وبناء متراس لا يقبل التجزئ. وقد يقبله في ضوء الفضاء المعنوي العام والإدراك الكلي، لأنّ جمالية اللغة الشعرية يحكمها النظام اللغوي التركيبي، ولا يمكن أن يحدث الإبداع إلا بسبر مدلولات هذا الترابط، ومعرفة طبيعة التساوق لإنتاج جمالية خاصة تفسح للشاعر إيصال شعرية بدرجة عالية من الدقة والجودة.

استهلّ شاعرنا نصّه بأسلوب استفهام / أمن المنون وريبها نتوجع / وهو أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للثيرات عند المتلقي؛ فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة عن قطع رتبة التلقي المستكين، ورضوخ المتلقي لنحول وطأة استقبال التراكيب الجاهزة، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع لتنشأ جدلية حيوية بين المبدع والمتلقي عبر تركيب السؤال. (عبد الله محمود، 2017، ص: 5) هذا السؤال هو صرخة وصراع نفسي داخلي يتساءل من خلاله الشاعر. هل يمكننا أن نواجه المنون أو ندفعها بالوجع والحزن؟ أو ربما يتساءل - فقط - مع نفسه أنّ الانحناء لمشية القدر هو فعل نجاة عوض الاتكاء على الانفعال الحادّ في بداية القصيدة، الذي قد يجعل الأفكار تتلاطم في لسانه وتمتنع الخروج مناسبة، وقد ينهار ويضطرب قبل أن يتمّ البيت الأوّل وكأنّه يرى في تساؤله هذا خلاصاً من همّه، لأنّ الأسئلة التي لا تقبل حلاً هي أسئلة ميتافيزيقية غيبية تريح النفس، على الأقل يبقى السؤال معلّقاً بلا إجابة. وعلى هذا الأساس يقوم صراع الإنسان مع المنية.

وظّف الشاعر أسلوب النفي بشكل كبير، ونجد في نصّه أمثلة كثيرة / فإذا المنية أقبلت لا تدفع - ألفت كل تميمة لا تنفع - يبكي عليك مقنعا لا تسمع - لا أتضعضع / هذا النمط التركيبي يعكس ذات الشاعر الحزينة، فهو رافض لهذا الواقع الذي أحدث ثقبا أسودا في قلبه، كما أنّه يحاول أحيانا أن يعوّض حزنه بالصبر لكن دون جدوى، فقد أخذ منه مأخذا. وهذا النفي يأتي ملازما للفعل المضارع وهو يؤكّد الامتداد والاستمرار ويمنح الحركة والنشاط. نشاط في جمالية القصيدة وشلل في حركة الشاعر / وإخال أنّي لاحق مستتبع /

إلى جانب أسلوب النفي نجد الشرط، وهو أسلوب عامل يجسّد دلالة في إطار النسق العام الذي يسعى إلى إيصاله أبي ذؤيب. فكان له أثره البالغ ودوره الفاعل في تجسيد معظم الجوانب الدلالية. ومن أمثلة ذلك / إذا المنية أقبلت - إذا المنية أنشبت - إذا تردّ إلى قليل تنقع / يريد بشرطه الشاعر أن يثبت أنّ المنية إذا أقبلت أو أنشبت أظفارها فلا تحاول أن تعترض طريقها، فإقبالها ثقيل على النفس، موجع للقلب. وفلسفة الشرط تقوم على إلزامية وقوع الحدث. (زرّوقي، 2010، ص: 2)

يمكننا أن نضيف أيضا أسلوب التوكيد نظرا للدور الذي يلعبه، توكيدا للمعنى الشعري، فمثلا حينما نصادف / أنّ البكاء سفاهة / فهنا يؤكّد الشاعر طرحه على ملامة المنون، أو وقوفه أمام عوائد الدهر وقوفا فاشلا لا يعيد مفقودا ولا يدفع مصيبة. / فأجبتها أما لجسمي أنه أودى بني / هنا يثبت مدى شدة وجعه على فقد بنيه، فالشاعر يحاول أن يأتي بجملة من الدلالات وصوغها في قالب لا يشي بشيء غير إيصال حجم المصيبة والألم الناجم عنها.

الأفعال في القصيدة تتراوح بين الماضي والمضارع / أقصّ، أودى، أعقبوني، غبرت - يجزع، يصدع، يفزع، يحجي، يتضعضع / لكن نجد حضورا بنسبة أكثر للفعل المضارع، ويمكننا أن نستشف من ذلك محاولة الشاعر نسيان المصيبة وجعلها من الماضي القديم الذي ينبغي حتما نسيانه ونقص التفكير فيه، كما يمكننا أن نقول إنّ الشاعر لم يستطع النسيان، فالواقعة حية تنبض داخله ممّا جعلها الفعل المضارع تعكس حال الشاعر وهو يكتب القصيدة الأليمة.

لم تخل قصيدة شاعرنا من ظاهرة التقديم والتأخير / والدهر لا يبقى على حدثانه / فقد تقدم المبتدأ وتأخر الخبر/ وتجلّدي للشامتين أريهم أي لريب الدهر لا أتضعضع/ تم تقديم شبه الجملة من لريب على خبر لا لأتضعضع. هذان نموذجان فقط لرصد دلالة هذه الظاهرة ووفرتها؛ فهو دليل على مرونة الشاعر وحرية في التعبير وتغيير بنية الكلام، ومن سبيل قوة التراكيب التقديم والتأخير، فتقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة إلى موضعها الطبيعي دلالة على حسن الذوق. (مقدادي، 2021، ص: 11) ثم هي -

أي الظاهرة- ترجمة صادقة للأغوار النفسية، وانعكاسا واضحا لخلاجات هذه النفس وسبرا عميقا لمكوناتها.

ثالثا: صوتياً

إن الناظر جيداً في حقيقة الشعر الجهرية وماهيته الخاصة، وجده يقوم على البناء الموسيقي والنعمة الصوتية كقالب عام يحتضن المعنى، وتعبير دقيق فحمولة هذا المعنى لا تصل قلب المستمع إلا إذا نقلت وصيغت في موجات عاطفية نفسية، وبالتالي يمكن القول إن الموسيقى تغطي نسبة كبيرة من خواص الشعر. وكما جعل (ابن رشيق) المعنى روحا للغة الذي هي الجسد، فكذلك الموسيقى وهذا السياق؛ والمؤكد لذلك أن حالة الشاعر النفسية تنعكس وتؤثر بشكل كبير على الموسيقى، فالمعنى تجمعها علاقة تأثير وتأثر بالجانب الصوتي، وهنا بالذات يدور فلك القصيدة العام.

اختر الشاعر لصبّ تأملاته ومشاعره الحزينة بحر الكامل، الذي يمثل جزالة وحسن أطراد. (عوني، 1976، ص: 74) واختياره هذا لم يأت هكذا عبثاً أو اعتباطياً وإنما تقف وراءه دوافع شتى يمكن إجمالها في مدى قوته ومرونته مع غرض القصيدة، وقد ساعده في البوح والسرود المتتابع، فتوالي تفعيلات هذا البحر أحدث نغما صوتياً ودقة إيقاعية تلائم ذات الشاعر المتأرجحة بين الشوق والحزن، وعلى هذا فإن كل مبدع حالما يشرع في نسج القصيدة تكون لديه طائفة من الانفعالات التي تبحث عن تجسيد إيقاعي يوافقها ويلتبس به. (صاديق، 1998، ص: 30) ومع ذلك لم يغفل الشاعر مطلع القصيدة فقد اعتنى به، ويظهر فيه تماثل إيقاعي بين الضرب والعروض، أثمر ظاهرة التصريح.

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرِيهَا تَوَجَّعُ وَالْدَهْرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مِّنْ يَجْزَعُ

وقد اكتسب هذا الابتداء نبضا إيقاعيا لا يخلو من جمالية، وجماليته تظهر في تكثيف الإيقاع الصوتي، كما يكون أوثق في نفس المتلقي.

أما القافية فقد جاءت مطلقة، التزم بها الشاعر في جميع أبيات القصيدة / يجزعو/ وقد منحها انتظاما إيقاعيا، له جمالية صوتية وهذه القافية تمتاز بنبرة موسيقية عن سواها، أفاد منها الشاعر ليخرج تلك الحرارة المزدحمة في صدره. ولعلّه سعى إلى استخدام القافية المطلقة رغبة في إيجاد التلاحم الإيقاعي بين أبيات القصيدة حين جعل القافية جزءا لا يتجزأ من البيت، فالشاعر لا يجتهد الوقف على سكون كما هو الحال في النثر، وهذه الظاهرة من أهم ما يميّز الشعر عن لغة النثر، ولذا فإن أكثر من تسعة أعشار الشعر العربي رويّه مطلق. (أنيس، 1952، ص: 94)

ومما عضد هذا الإخراج حرف الروي المتمثل في / العين / والمعنى النظر أن الواو المتولد عن إشباع حركة الروي يصبح حينها المخرج الصوتي بمثابة الذئب الذي يعوي في الغابة ليلا ويسمى هذا الواو وصلا؛

فقد عكس الانكسار الذي يعانیه والحبيبة التي يشعر بها جرّاء هذه المصيبة، خاصة وأنه جعل البيت الأول مصرّعا ممّا ضاعف انتباهنا للهزيمة الذي يعانينا شاعرنا. وقد استطاعت بدقة لا متناهية التعبير عن القلق الذي يعتمل داخله وعن متعلّق الوجد، ليكون هذا الحرف طاقة تأثيرية لا حد لها. أو لعلّ الشاعر يريد أن يخرج همه من هم فردي إلى إنساني عام، وهو واقع كوني يشمل الجميع.

إلى جانب الموسيقى الخارجية للقصيد نجد من جهة أخرى اهتمام الشاعر واعتناؤه عناية بارزة بالموسيقى الداخلية، حتى يكون تكاملا وتقاربا نسبيا من حيث الصوت العام الذي ينتج عن التساوق؛ فنلاحظ بشكل كبير مع الأصوات المهموسة التي تتردّد وسط القصيدة وتجتمع كشكل من أشكال الكبت لتنتطق دفعة واحدة نحو رويّ العين الموصول، وكأنّ الشاعر يأتي بهذا الانقباض ليطلق له العنان في سماء البوح، فهو يريد أن يتخلّص من هذه الزفريات التي ترتطم بداخله، ومن هذا الصراع النفسي الأليم، ومن هذه المشاعر التي لن تجد فسحة تتنفس من خلالها إلاّ بالعواء. فهما انقبضت المعاني في صدره يحررها دلالة على الصبر والتجدد.

كرّر الشاعر همزة الاستفهام / أمن المنون - أم ما لجنبك / فالاستفهام يحمل صرخة واعتراضا ينكران على الشاعر توجعه وتألمه بسبب الموت، وهي قضيته الوجودية وسؤاله الأبدي. (عبد الله محمود، 2017، ص: 5) وكأنّ الاستفهام هو القادر في تلك اللحظة القاسية على حمل همّ المبدع ووجعه، بل وجع كلّ إنسان، وهو المعبر الصادق عن تلك اللحظة التي نقف فيها أمام ثنائية الحياة / الموت. والاستفهام يتضمّن حيرة المبدع وإنكاره ورفضه وغضبه في آن. (عبد الله محمود، 2017، ص: 5)

قبل الدخول إلى عالم الكلمة لا بد من الوقوف عند تكرار بعض الحروف التي شكلت فاعلية قوية في النص، باعتباره بنية كلية تسبح في فلك واحد، فالحرف هنا أصغر وحدة دالّة وهو مادة خام للكلمة ومن خلال خصائصه ندلف عالمها. (مبروك، 1994، ص: 23) حرف الميم مثلا كان له حضور قويّ في القصيدة، ومن ذلك / أمن المنون - بمعتب - من أميمة - مالك / فهذا الحرف له ارتباط بالوضع النفسي الذي يعيشه الشاعر وليس هامشا، ثم حرف الفاء كذلك / فأجبتها - فودعوا - فتخرموا / ولهذا نستخلص أنّ الحروف لها علاقة وطيدة بمشاعر الشاعر العاطفية والنفسية الذي يحاول جاهدا أن يصورها ويبيّنها في قالب ينقل الإحساس بألم الفقد كما هو؛ والتكرار بشقّي أنواعه يأتي ليثبت المعنى ويؤكّده، هذا في منأى عن سماته الصوتية الجمالية الموزّعة عبر الهمس والانفجار والاحتكاك...

كرّر الشاعر مجموعة من الكلمات داخل القصيدة وذلك لغاية جمالية موسيقية من جهة، وتأكيديّة ثبوتية من جهة ثانية، إذ تكرار الكلمة يعقبه الإصرار على المعنى الذي تقبض عليه، وتسلط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها. (الملائكة، 1983، ص: 242) وأول كلمة

وقف عليها النظر، كلمة / جسم / في الشطر الأول من البيت الثاني، والشطر الأول من البيت الرابع؛ فالمأساة النفسية التي يعاني منها الشاعر جرّاء الفاجعة انعكست سلبا على جسمه، وجعلته شاحبا عليلا، وظهر هذا الشحوب في ضعف القوة البدنية والنفسية ولو كان التاريخ كلّه أمجاد وبطولات. كذلك نجد تكرار كلمة / مضجع / في الشطر الأول والثاني من البيت الثالث، والمضجع يمكنه أن يُبين عن الركون والاستسلام للواقعة، الذي لا يمكن تغييرها بأي شكل من أشكال المقاومة والنضال، فكان لزاما عليه أن يتقبله كما هو، وهي في نظرنا محاولات بائسة للبقاء، ولكن دون جدوى.

ثم تكرار / المنون جمع منية / في الشطر الأول من البيت الأول والشطر الثاني من البيت الثامن؛ وهي الكلمة التي يدور عليها غرض القصيدة، الكلمة التي أصبحت تشكّل رعبا لشاعرنا، فعكّرت صفو حياته واجتثت استقراره.

التضعيف كذلك يتكرر أكثر من مائة وثلاثين مرة، وللتضعيف معنى قويّ يفصح عن حال الشاعر المتأزّم، المضغوط من شدة الوجد والحزن، ويزيد من نبرة الكلمة الصوتية لتتماشى مع الجوّ الدلالي للقصيدة.

هذه الأصوات الناتجة عن التكرار تشكل غاية البوح الشعري، وتسهم في تصوير حركة القصيدة. وهذا ما رغبتنا في استبياننا من خلال استنطاقنا لتلك الطاقة التعبيرية الكامنة في عينية أبي ذؤيب الهذلي، محاولين رصد مميزات الصوتية وخصائصها الإيقاعية، وذلك بخلق حوار معمق أساسه التفكيك والتشظي. (دهينة، 2009، ص: 253-261) فالشاعر حين يكرّر يعكس أهمية ما يكرّره مع الاهتمام بما بعده حتى تتجدد العلاقات وتثرى الدلالات مما يساعد في نمو البناء الشعري. وظاهرة التكرار لوحدها تقتضي بحثا كاملا مفصّلا، مما لا يسعنا المقام هنا.

خاتمة

وعليه يمكننا القول إنّ التحليل الأسلوبي ساعدنا بشكل قويّ على قراءة النصّ واستكناه مقوماته وأساليبه التي شكّلت طابعا جمالياً تأثيرياً، هذه الأساليب هي التي تبثّ الروح في أيّ قصيدة علّقت في الزمن، كما يمكننا أن نرجع هذا الصمود إلى ذات الشاعر نفسها التي نأت بشكل أو بآخر على باقي قصائد الرثاء؛ فرثى وبكى فلذات كبده وبالموازاة مع ذلك ضمن هذا البكاء أسئلة وجودية لا حلّ لها، هي غيبية بامتياز؛ وهذا النوع من الأسئلة لا يموت، بل على العكس من ذلك يتجدد بين الفينة والأخرى وتبقى روحه نابضة.

في الشقّ الأول من التحليل وقفنا عند التعريف بالمنهج الأسلوبي ومستوياته، وكيف سنقوم بتوظيف رؤيته في استخراج الإقناع والجمالية، وفي الشقّ الثاني من الدراسة، عملنا على الجانب التطبيقي

من هذه المستويات، فقمنا برصدها وتفريغها؛ من الناحية الدلالية وقفنا عند بعض الصور الاستعارية والتشبيبية التي لعبت دورا حجاجيا بارزا، أعطى النص جمالية، وغصنا في مجموعة من المقومات الخفية التي لها علاقة ارتباط وذات الشاعر.

في المستوى التركيبي ركّزنا على التراكيب النحوية والنسق الكلامي الذي يتظافر في إنتاج القصيدة والمعنى، لأنّ النصّ في شموليته هو ككلمة ملتحمة ومتراصة، يقوم على مبدأ التأثير والتأثر، وهذا ما جعلنا نبحث عن هذه الخواص.

في المستوى الأخير أي الصوتي بحثنا في الطبيعة الموسيقية التي تقوم عليها شعرية النصّ، فالنصّ الشعري غنائيّ منذ نشأته، وهذا ما يميّزه عن باقي الأطباق الثقافية، وإذا عدنا إلى العينية، فحرف العين - فقط - له طابع صوتي تأثيري خاص.

لائحة المصادر والمراجع

- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط. 2، 1952.
- إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط. 1، 1997.
- أبو بكر زروقي، دلالات الارتباط في أسلوب الشرط، دراسة في نصوص من صحيح البخاري، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ع. 6، 2010.
- رمضان صادق، شعر ابن الفارض دراسة أسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. 1، 1998.
- صدام هايل وحسن مقدادي، دلالة التقديم والتأخير في الجملة الإسمية، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، مج. 6، ع. 14، 2021.
- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط. 3، 1982.
- علي الطنطاوي، صور وخواطر، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية، ط. 4، 1998.
- عوني عبد الرؤوف، بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف، ط. الخانجي، القاهرة، 1976.
- فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2004.
- فريال هديب عبد الله محمود، عينية أبي ذؤيب الهذلي، قراءة حجاجية في العتبات والتخييل، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج. 44، ع. 1، 2017.
- مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت إلى النص، نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط. 1994.
- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العمّ للملايين، بيروت، ط. 1983.
- ياسر عكاشة وحامد مصطفى، مستويات التشكيل الأسلوبي في ديوان "شموخ زمن الانكسار" للشاعر عبد الرحمن صالح العثماوي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ع. 6، 2016.

Dévoiler le système torturant : Approche de *La Question* d'Henri Alleg

الكشف نضام التعذيب عن: مقارنة لرواية هنري علاق " السؤال"

Unveiling the Torturing System: An Approach to Henri Alleg's *La Question*

Mehdi HAMDI, Maitre de conférences, HDR

Dr en sciences des textes littéraires, Département de français

Université Mouloud Mammeri de Tizi-Ouzou, Algérie

E-mail : mehdi.hamdi@ummto.dz

ملخص

الكتابة والحديث عن التعذيب ليست أموراً سهلة أبداً. إنها تؤثر على الكاتب والقارئ على حد سواء، حيث يجد بعضهم وسيلة للصدوم وآخرون وسيلة لإعادة تجربة العذاب. "هنري أليغ". عانى من هذه الوحشية، وقد أراد مشاركتنا في تجاربه عبر كتابات أهمها: كتاب نشر في عام 1957 خلال الاحتلال الفرنسي، كاشفاً عن عالم التعذيب المخيف هذا العالم الشنيع الذي يحو الحدود بين الضحية ومرتكبها، مما يخلق ديناميكية معقدة ضمن نظام مكتوم العذاب. إلا أن الكاتب قد حاول شرح واقع تصعيد التعذيب إلى مستويات مميتة من أجل الحصول على مفهوم الصرخات والمعاناة لتفسير أموراً مستحيلة. فهم هذا العالم السجني يتطلب الاعتراف بأننا نخل نصاً وخطبة شهادية تمت كتابتها بعد شهر من الاعتقال. إنها قصة "هنري أليغ"، الذي عُقد في أعماق اليأس في ظل تعرضه للتعذيب والاستجواب. وتحليلنا لهذا النص جاء على ضوء أولاً:

- 1- المواجهة بين المعبذ والضحية، ودوافعهم، وفعل التعذيب من خلال النص.
- 2- الاعتماد على أعمال وإصدارات كندية " موريل " ومصادر أخرى لدراستنا التي نراها متعددة التخصصات.

كلمات مفتاحية: تعذيب، ضحية، جلاد، رعب، مواجهة، معاناة، مقاومة

Abstract :

Writing and discussing the issue of torture invariably represents a substantial challenge. The inherent sensitivity of both the reader and the writer, when delving into this painful experience, exerts a significant influence on the writing process. For some, tackling this subject can serve as a means to bolster their own resilience, while for others, it may entail the risk of reliving the traumas of this harrowing experience. Henri Alleg, as a victim of this inhumane cruelty, undertook the task of explaining and describing the reality of torture in his work, "The Question," published in 1957, during the period of French occupation. His purpose was to share this experience with others, to reveal it, and to bring it to the world's attention. The practice of torture, which the colonial system scarcely dared to acknowledge due to its secretive nature, eventually took shape and circulated discreetly, challenging public opinion.

This text provides an opportunity to explore a dark world peopled by torturers and victims, where the distinction between the victim and the perpetrator blurs, further complicating an abyssal equation between two parties engaged in conflicting relationships that define a concealed system of torture. To better grasp the complexity of this system, our study will first focus on the context of the confrontation between the perpetrator and the victim and then examine the underlying intentions behind these acts of torture. The works of Montagu Muriel will serve as the foundation for our reflection, while other sources will enrich our interdisciplinary study.

Keywords: Torture; Victim; Perpetrator, Horror; Confrontation; Souffring; Résistance.

Introduction

Écrire et évoquer la torture n'est jamais une tâche aisée. La sensibilité du lecteur et de l'écrivain face à cette expérience douloureuse se présente comme un impact émotionnel influençant l'écriture. Si pour certains, l'acte d'écrire peut évoquer une expérience résiliente, pour d'autres, cela peut être un moment de revivre les vicissitudes et les de ce qu'il aura vécu comme traumatisme.

Victime de cette expérience barbare, Henri Alleg raconte et expose dans sa *Question*, parue en 1957 sous l'occupation française, les brutalités auxquelles il a eu droit de la part de la machine torturante française. Il cherche à l'aide d'une écriture de témoignage à divulguer cette réalité en la partageant avec les autres, en la révélant aux yeux du monde. Marquée par le sceau d'une inhumanité sans précédent, cette torture que le système colonial ne peut mentionner, car rédhibitoire, devait voir le jour et se donner à lire. Sous une forme crue, mais blessante, elle prend forme et circule à la rencontre de l'opinion publique nationale et internationale pour crier son horreur et sa cruauté. Par cette action que la presse de l'époque a qualifiée de courageuse, Henri Alleg dévoile la vraie nature d'un système coloniale loin de se verser dans des actions de charité.

Le lecteur imprégné pour la première fois de telles horreurs se heurte à un monde pitoyable. Il y découvre des êtres répugnants, et en reste exécutés. C'est dans cet univers que ce lecteur découvre cette équation combien complexe où la victime et le bourreau s'affrontent dans la difficulté et constituent un rapport abyssal, caractérisé par des relations conflictuelles qui éclairent un système de torture sournois. Dans les caveaux de la mort sanguinolents où la torture se révèle une expertise pour les tortionnaires, l'aveu et l'information deviennent un écueil à atteindre. Face à ces êtres, dépourvus de clémence, qui font tout pour finir leur tâche qui semble être quotidienne pour certains, les victimes répondent différemment. Les uns par des cris et des hurlements pour conjurer la souffrance,

d'autres supportent le martyre et résistent à l'oppression. Si pour les premiers, la mort est une délivrance, pour les deuxièmes, ils s'affirment en résistant pour dire à l'ennemi qu'ils ne peuvent abandonner leur essence humaine.

Dans deux trajectoires différentes l'on distingue d'un côté la torture qui est érigée en un grade à atteindre et une érudition à s'approprier, de l'autre côté, la souffrance qui s'amplifie et suit une courbe paroxysmique de la première. Pour Muriel Montagu, l'acte de torturer ne peut pas à lui seul expliquer le système de torture, mais il aura besoin d'autres réalités pour qu'il soit intelligible et cohérent.

Elle explique :

La terminologie de système torturant veut souligner le fait que la torture ne se réduit pas à un acte, mais englobe sous son aspect structurel trois éléments constitutif, le contexte, l'intention et l'acte. Cette appellation rend compte de l'interdépendance des composants les uns avec les autres. (Muriel Montagu, 2015)

Pour mieux comprendre et saisir ce monde carcéral, il convient d'aborder ce récit comme une corrélation à élucider. Détenu dans les ténébreuses cellules de la mort, où il a subi des tortures, Henri Alleg a fait l'objet d'interrogatoires et de supplices. Cette analyse nous la voulons une compréhension, du contexte de l'affrontement entre le bourreau et la victime, de l'intention recherchée, et de l'acte de torturer.

Pour répondre à ces questions, les travaux de Muriel Montagu, serviront de fondement de base à notre réflexion. Nous ferons également appel à d'autres recherches pour mieux comprendre quelques aspects du texte. En somme c'est au carrefour d'une analyse éclectique et pluridisciplinaire que nous allons inscrire notre étude. Nous pensons que cela est indispensable dans le cas de ce genre de texte qui nécessite des disciplines variées pour saisir sons sens:

Tout texte ne peut se lire véritablement que replacé dans son contexte. Cette opération intellectuelle nécessite des connaissances historiques que le transmetteur littéraire se doit d'aller puiser dans les ouvrages d'histoire, de sociologie, d'anthropologie, d'enquêtes lui permettant de décoder des signes qui, hors d'une société précise et d'un moment bien daté, n'ont pas un sens évident. (Christiane Chaulet Achour, 2018)

Notre apport ne se limite pas à aborder La Question d'un point de vue historique, mais intègre également les dimensions sociales, psychologiques, sociologiques, anthropologiques et politiques des éléments qui composent le système torturant.

Pour rappel, Henri Alleg était un journaliste et militant algéro-français de gauche. Né à Londres en 1921 de parents français, il a grandi en Algérie. Il s'est rapidement impliqué dans la vie politique de l'Algérie et a soutenu la cause indépendantiste. Cet engagement lui a valu d'être arrêté par la police française en 1957 et incarcéré pour une durée d'un mois où il a subi des tortures. Après sa libération, il s'est exilé en France et a repris ses activités politiques. Il décède en 2013 à l'âge de 91 ans.

1) La torture comme devoir patriotique ?

Quand on ne peut se soustraire à la réalité politique, c'est impliquer, en plus du bourreau et de la victime, deux nations. Pour des idéaux différents et opposés ces deux entités, l'Algérie et la France, se battent pour des objectifs différents : l'indépendance pour l'une et le maintien du statu quo pour l'autre. Si l'un de ces deux idéaux prend le dessus, cela entraînerait inévitablement la disparition de l'autre. C'est de la survie de deux cultures qu'il est question. Pour Muriel Montagut « *les dimensions politiques et sociales [sont] indispensable à la bonne compréhension* » (Muriel Montagut, 2015) de la torture. Il ne s'agit pas de

comprendre la torture comme acte, mais de justifier son utilisation comme moyen de persuasion, de punition et enfin de prévention. Dans un discours de repentance, le général Aussaresses déclare : « l'action que j'ai menée en Algérie, c'était pour mon pays, voyant bien faire, même si je n'ai pas aimé le faire. Ce que l'on a fait en pensant accomplir son devoir, on ne doit pas le regretter » (Général Aussaresses, 2015, p. 10)

À travers les mots du Général, nous comprenons que cette posture révèle un devoir envers sa nation. Tuer et exécuter ne peuvent être que de simples services rendus à la nation contre tout individu soupçonné de porter préjudice à son propre pays. Les intérêts de la nation priment sur tout et justifient les actions abominables telles que la mutilation et le meurtre. Cette posture considère la torture comme étant une opération qui a émané non pas d'une décision individuelle prise instinctivement mais à partir d'une décision réfléchie et au bout tolérée et saluée. Elle est une réponse immédiate aux individus considérés comme étant opposants au à la politique internes de l'Etat. Le Général qui rajoute :

Je ne cherche pas à me justifier mais simplement à expliquer qu'à partir du moment où une nation demande à son armée de combattre un ennemi qui utilise la terreur pour contraindre la population attentiste à le suivre et provoquer une répression qui mobilisera en sa faveur l'opinion mondiale, il est impossible que cette armée n'ait pas recours à des moyens extrêmes (*Ibid.*, p. 10)

Pour la survie d'un Etat la torture devient une nécessité. Pratiquée dans des lieux discrets, elle ne tarde pas à avoir la grâce de la justice qui voit dans les résultats de cette pratique son propre succès. Pour Michel Foucault :

Et du côté de la justice qui l'impose, le supplice doit être éclatant, il doit être constaté par tous, un peu comme son triomphe. L'excès même des violences exercées est une des pièces de sa gloire : que le coupable gémissent et crie sous les

coups, ce n'est pas un à-côté honteux, c'est le cérémonial même de la justice se manifestant dans sa force. (MICHEL, Foucault, 1975, p. 32)

Par ailleurs, l'on comprend et ce n'est un secret pour personne, le discours se rapportant à cette réalité est vite frappé du sceau de la discrétion. Nier et contredire tout discours visant à dévoiler au grand public ces pratiques était monnaie courante. Les seuls à être au courant sont les membres de la famille de la victime. La disparition de la victime entraîne inéluctablement la disparition des preuves. Pour Hannah Arendt :

Les criminels sont châtiés, les indésirables disparaissent de la surface du globe ; la seule trace qu'ils laissent derrière eux est le souvenir de ceux qui les connaissent et les aimaient, et l'une des tâches les plus ardues de la police secrète est de s'assurer que ces traces elles-mêmes disparaissent avec le condamnés. (Annah Arendt, 1972, p. 235)

Si la discrétion qui frappe la détention est de mise, dissimuler les traces de la torture est chose difficile. C'est en faisant parvenir dans la discrétion totale du lieu de son emprisonnement une copie d'une plainte, qu'il aura déposé bien plus tard, que l'opinion publique soit mise au courant de sa question. En effet, « *du camp, Alleg fait parvenir en France une copie de la plainte qu'il a déposé fin juillet entre les mains du procureur général d'Alger* » (Henri Alleg, 1992, p. 10.). C'est à partir de cet événement que les rumeurs commencent à circuler. Pour l'éditeur de *La Question* : « *A partir de ce moment, les bruits les plus inquiétants circulent tous les jours à Alger sur la « disparition », « l'enlèvement » et même le décès d'Alleg* » (Ibid., p. 10.). A sa sortie, après une dénonciation des plus acharnée de la presse et des intellectuels, les traces de l'internement sont toujours visibles. « *Un mois après les tortues, il portait encore, nettement visible, des marques de liens aux poignets, des cicatrices de brûlures et d'autres traces* » (Ibid., p. 12.), pouvons-nous lire dans *La Question*.

L'équation de la torture semble impliquer d'autres variables qui doivent absolument être prises en compte. En plus de combattre cet ennemi, il s'agit de l'empêcher d'atteindre ses buts. Cependant, cela serait-il suffisant pour justifier le recours à de tels moyens extrêmes ? Il semble que d'autres exigences d'ordre judiciaire, éducatif et vengeresse entrent en jeu dans ce système de torture:

En travaillant à comprendre les logiques de ces systèmes auprès des personnes qui les avaient subis, nous avons pu distinguer différentes logiques qui les traversent de manière récurrente : la logique judiciaire qui tend à utiliser la torture comme moyen de recueillir des renseignements ; la logique rééducationnelle qui vise à transformer les comportements ; et la logique punitive dans laquelle l'acte de torture est associé à un désir de vengeance. Une quatrième logique, mais qui existe de manière intrinsèque dans les trois précédentes, est une logique d'emprise. (Muriel Montagut,2015)

La Question apparaît comme une allégorie qui renvoie en abyme vers la nation algérienne. Désormais, Henri porte sur ses épaules la lourde responsabilité de représenter, au fond des cachots et souvent à l'insu des autres, une Algérie en quête de son indépendance. S'il s'était agi de sa propre personne, il aurait peut-être agi différemment. Cependant, lorsqu'il s'agit de ses compagnons d'armes et de tous les citoyens algériens, il a choisi de ne pas fournir les informations que l'ennemi voudrait obtenir. Cette attitude de résistance lui a permis de s'inscrire dans le registre de la fermeté. Dès lors, il devait faire preuve d'un grand courage et être prêt à confronter directement le bourreau. A la demande de l'un des bourreaux, Alleg répond par un refus catégorique : « *je n'ai pas à vous en dire davantage. Je n'écrirai rien et ne comptez pas sur moi pour dénoncer ceux qui ont eu le courage de m'héberger.* » (Henri Alleg, 1992, p. 20.) Il s'abstrait, à cet effet, de cette attitude globalisante en invitant son tortionnaire à un face à face sanglant où la course au sommet s'annonce d'ores et déjà palpitante, mais douloureuse. Pour

Françoise Sironi « *la torture fait taire. Elle fait taire victimes et bourreaux dans un même silence. Mais aussi ceux qui l'autorisent, l'encouragent, la programment dans le but évident de rendre leurs agissements opaques* ». (Françoise Sironi, 1999, p.6)
Dorénavant, le monde est réduit à l'acte de torture et en dehors de lui se néantisent les éléments qui le composent.

2- Bourreau et victime, les dessous d'une confrontation.

Réduits aux seules personnes du bourreau et de la victime, l'affaire devient personnelle et développe en abyme le manichéisme incarnant le Bien et le Mal. L'effacement de la société aidant, ce face à face s'érige le temps de la torture en un espace de confrontation inégale. D'une part la victime qui oppose une résistance à la torture et d'autre part le bourreau qui s'ingénue à plier la victime et l'amener à se soumettre et avouer. L'un des tortionnaire s'adressant à Henri Alleg s'écrie : « *le lieutenant vous laisse réfléchir un peu, mais après vous allez parler. Quand on pique un Européen, on le soigne mieux que les « troncs ». Tout le monde parle. Faudra tout nous dire* ». (Henri Alleg, 1992, p. 23.) Et d'ajouter plus loin : « *tu vas parler ! Tout le monde doit parler ici !* » (Ibid., p. 30.)

Se soustrayant à sa propre humanité le bourreau revendique son animalité. Pendant cette torture, il évite de prendre ses responsabilités pour se hisser au rang d'une monstruosité où les actes cruels sont monnaie courante. Devenant non-sujet, en proie à la haine, il se transforme en une manifestation de violence, qu'il transfère avec félicité sur le corps de sa victime, jusqu'à ce qu'elle se confonde avec sa douleur et son traumatisme. Cette victime chosifiée perd son humanité aux yeux de son bourreau et devient un objet expérimentable à qui l'on demande des comptes : « *il vaut mieux aller dans la cuisine dans la pièce à côté, il y a de la lumière, on sera mieux pour travailler* » (Ibid., p. 24.), déclara l'un des tortionnaires en désignant la cuisine comme un atelier où l'on torture. Si les différentes tentatives s'avéreraient vaines, « *ils allaient expérimenter sur [lui] le*

« *sérum de vérité* ». C'était cela les « *moyens scientifique* » dont Chaavait parlé » (Ibid., p. 63.)

La confrontation dans ce cas précis aboutit généralement à une reconnaissance absolue des deux parties de l'ascendant de l'un sur l'autre. Cet ascendant est généralement marqué par un signe de reconnaissance, celui de voir la victime triompher de son bourreau. A Henri Alleg, le tortionnaire déclare : « *c'est vraiment dommage. J'ai de la sympathie pour vous. Et de l'admiration pour votre résistance, je vais vous serrer la main, je ne vous reverrai peut être plus* » (Ibid., p. 80.)

Sur un autre abord, dans une disgrâce devant les coups répétés du tortionnaire, la victime pourrait signer sa défaite et reconnaître son impuissance. C'est à partir de là que le tortionnaire reconnaît l'efficacité de la méthode utilisée et la valeur du travail effectué. Ce succès auquel il aspire le rassure et le reconforte. Il est considéré désormais par ses collègues comme celui par qui la faiblesse de la victime s'est exprimée. C'est dire que « *la reconnaissance par le tortionnaire d'une dissociation à l'œuvre est sans doute le signal pour lui que le travail a réussi à générer chez la victime la prise de conscience de sa totale impuissance* » (Roy, Gabrielle. 2019) Fier de son identité et de son engagement, la victime ne s'avoue pas facilement vaincue. Plutôt mourir que donner raison et satisfaction à son bourreau, la victime persévère et résiste. Cet héroïsme lui vaut de mettre à l'échec un interrogatoire sanglant ficelé à l'orée d'une machination meurtrière. Cette brutalité en elle-même ne peut en aucun cas garantir la réussite. En effet, « *la force brutale et la violence peuvent remporter une victoire matérielle, mais pas toujours un succès moral* » (Laure de Chantal, 2013, p. 117). *La Question* montre « que les bourreaux et leurs commanditaires, même en infligeant aux malheureux tombés entre leurs mains toutes les tortures que leur dicte leur imagination, se heurtent parfois à une volonté sans faille de la part des victimes » (Ibid., p. 124).

Face aux menaces proférées par ses tortionnaires qui veulent se prendre également aux membres de sa famille, Henri Alleg oppose une endurance et un entêtement ferme. Désespéré, l'un des bourreaux, dit : « *il s'en fout, il se fout de tout* » (Henri Alleg, 1992, p. 45.). Même son de cloche chez la victime, ragaillardie par le fait de tenir devant son bourreau : « *et je fus soudain heureux à l'idée que les brutes ne m'avaient pas vaincu* ». (Ibid., p. 46)

Afin de supporter la douleur, la victime se néantise en s'imaginant intouchable. Elle s'offre les canaux d'une abstraction psychique où la douleur est annihilée. Cette absence en soi atténue la douleur et ramollit l'impact de la torture. En effet, le « fait de basculer dans l'Absence de soi protège en quelque sorte le sujet, car c'est une manière de nier l'expérience de torture » (Roy, Gabrielle. 2019). Henri Alleg qui se débattait au début de la torture comme pour conjurer la douleur, avait enfin compris :

Depuis la veille, je m'efforcer de regrouper tous les souvenirs que m'avaient laissés des lectures faites au hasard sur les effets du penthotal. « Si la volonté du sujet est assez forte, on ne peut le forcer à dire ce qu'il ne veut pas dire. » J'en avais retenu cette conclusion, que je me répétais pour garder mon calme et ma confiance. (Henri Alleg, 1992, p. 63)

Pour fuir momentanément l'épreuve infligée par le tortionnaire, notre personnage s'invente des espaces secondaires qui permettent au corps de résister à la douleur et l'inhiber. En rapportant l'une des scènes de la torture, il déclare :

Je m'entendais répondre avec une volubilité extraordinaire : je donnais des détails sur les difficultés de fabrication d'un journal, puis je passai à la constitution des équipes rédactionnelles. C'était comme j'avais été ivre, comme si quelqu'un d'autre avait parlé à ma place, mais je gardais assez de conscience pour me souvenir que j'étais entre les mains de mes bourreaux et qu'ils cherchaient à me faire dénoncer mes camarades. (Ibid., p. 66)

Ces espaces de substitution et d'oubli peuvent-ils constituer à eux seuls cette horreur exercée avec brio par le tortionnaire ?

3- L'horreur psychologique et les effets de la torture blanche.

Il s'agit d'une forme de torture psychologique. L'objectif est d'isoler complètement la personne que l'on souhaite torturer. Le bourreau commence par la séparer de ses semblables de telle sorte à lui signifier psychologiquement sa néantisation sociale et son inexistence symbolique. Cette approche vise à l'éloigner de son environnement habituel et mettre à l'échec ses habitudes et comportements rassurants. Appelée "torture blanche", cette façon de faire ne laisse aucune marque visible sur le corps. Toutefois, elle entraîne des conséquences dramatiques. D'après Muriel Montagut « *la torture blanche, c'est-à-dire la torture psychologique et/ou torture « discrète » qui ne laisse pas de trace visible sur le corps. Ce type de sévices est avancé comme étant un moyen d'humaniser l'usage de la torture. L'idée de torture blanche a évolué vers l'idée d'une « torture propre » (qui rappelle la terminologie de « guerre propre »).* » (Muriel Montagut,2015)

Le bourreau dans son premier geste inaugure une symphonie douloureuse qui invite la victime à avouer ses torts. C'est dire que l'interrogatoire en constitue un élément de base de cette torture : « *nous allons dixit l'un des personnages, vous préparer un interrogatoire tout-à l'heure qui vous suffira, vous répondrez, je vous promets* ». (Henri Alleg, 1992, p. 18). Généralement la politesse, dans ce genre de situation, est un moment de disgrâce qui permet d'évaluer la teneur de la torture et le faite de l'interrogatoire. Elle peut éviter que la séance de travail aille au bout où des moyens de persuasion sont mobilisés. « *Nous allons vous donner une chance* » dit l'un des protagonistes sous forme de menace voilée. (Ibid.,p. 20) Pour Henri Alleg, « *le ton restait poli, on lui avait [même] enlevé les menottes* » (Ibid.).

Seulement, quand l'information n'est pas obtenue, le climat se détériore. une pression et une anxiété terribles s'installent et envahissent l'endroit du supplice. Cela finit souvent, quand la victime est assez courageuse pour ne pas avouer, dans une atmosphère d'angoisse qui progresse vers une phase de violence plus sanglante. Harcèlements et menaces sont là comme signes avant-coureurs de la possibilité d'une torture imminente. En effet, le tyran « *harcèle par des avertissements avant de le faire par des tortures* » (Laure de Chantal, 2013, p. p122). Bourreau et victime cheminent progressivement dans le sens d'une dépression critique. Les paroles récurrentes du tortionnaire et les menaces proférées envers la victime provoquent la confusion, altèrent sa perception du temps et engendrent chez lui des délires. Les visions, les illusions, les mirages et les chimères s'invitent et assiègent une victime déjà à bout. Elle sont perçues par la victime tantôt comme alliés, tantôt comme adversaires. Alleg rapporte : « *je faisais un effort et, soulevant les paupières, j'arrivais à reprendre pied dans la réalité pour replonger aussitôt dans cette demi-inconscience.* » (Henri Alleg, 1992, p. 67).

Après avoir enduré d'innombrables souffrances, la victime ne tarde pas à plonger dans des rêveries spéculatives dans une conjonction avec des espaces créés par l'imagination. Ces espaces offrent une occasion de se protéger de l'ennemi, car la désincarnation utopique, c'est de cela qu'il s'agit, supplée à la réalité d'un corps ensanglanté. Il s'agit ici de la perte des repères spatiaux favorable à la paranoïa et à la psychose. Cette forme de torture est souvent employée pour briser la volonté de la personne, la plonger dans la confusion et l'amener à avouer des informations.

Un des effets indésirables est la remise en question de la présence au monde, ce qui fait naître des doutes chez la victime quant à son appartenance à la race humaine et à sa place dans l'espace qu'elle occupe. « *Les sujets alors désorientés,* écrit Montagut, *dans un état de confusion, semblent ne plus se ressentir eux-mêmes*

comme appartenant à ce monde » (Muriel Montagut,2014). Cela ne l'empêche pas d'intégrer, toujours à partir de l'espace où il est torturé, d'autres espaces imaginés dans la douleur : « j'étais dans la rue, dans un appartement, dans un square et toujours avec ce « Marcel » qui me poursuivait et m'importunait de ses questions.» (Henri Alleg : 1992, p. 67)

Affectée grièvement, la victime présente des troubles mnésiques l'affectant non seulement dans sa relation avec le temps présent et l'espace immédiat, mais également avec son passé, son identité et l'ensemble de son être qui se confond avec les idées que le tortionnaire veut lui imposer. En plus donc de cette distanciation spatiale, « la victime de torture souffre aussi d'un dérèglement psychique temporel » (Ibid., p. 67). Aux frontières de cette souffrance dite blanche que l'on obtient par la menace, l'interrogatoire et le travail psychologique de répétition, une autre dite sanglante intervient pour suppléer ou compléter la première.

4- La chair comme témoin: la torture sanglante et les signes de la souffrance

Contrairement à la torture blanche, cette torture est l'une des pratiques les plus cruelles qui consistent à infliger des douleurs et des blessures pour obtenir l'information voulue. C'est dans ce sens que l'on retrouve des pratiques inhumaines telles que le viol, la mutilation, l'eau-boarding, l'électricité et d'autres encore. L'ensemble de ces pratiques génèrent non seulement des transformations psychiques et morales chez la victime, mais enregistrent comme, pour témoigner de la présence et de l'emprise du bourreau, des marques indélébiles d'une horreur qu'était jusque là muette pour s'exprimer comme gravures et tatouages. « J'ai côtoyé, durant ce temps, déclara Henri, tant de douleurs et tant d'humiliations»¹. En s'interrogeant sur « les mécanismes qui sont mis en œuvre sous la torture et qui ont pour but de fabriquer de l'universel » (Ibid., p. 14), Sironi écrit :

¹ Henri Alleg, *op.cit.*, p.14.

Qu'ils soient intentionnels ou non, les marquages corporels ou psychologiques que constituent les méthodes de torture ont une propriété spécifique : générer des transformations. Ce processus de transformation est, en règle générale, culturellement organisé, précisément parce que les techniques mobilisées sont d'une efficacité redoutable. (Françoise Sironi, 1999, p.33)

Par ces marquages corporels imprimés par le tortionnaire, la victime se trouve devant un choix douloureux. Celui d'abandonner le groupe social, ethnique ou politique auquel elle appartient. La cicatrice, le tatouage et la mutilation sont autant de tonalités symboliques qui amènent la victime, ayant choisi de vivre, à abandonner et renoncer. Ces marques, utilisées pour ostraciser la victime, déshonorent celui qui les porte et agissent comme une incitation au reniement de son identité. « Sous la torture, écrit Sironi, les marquages corporels inscrivent une rupture d'alliance avec le groupe d'appartenance (religieux, ethnique, politique) auquel est affilié, de façon permanente ou provisoire, celui qui est soumis à la torture.» (Ibid., p.33)

Pour réussir son exercice, le bourreau ou le tortionnaire exhibent ses instruments, des plus simples aux plus tranchants. L'effet escompté est d'installer la peur chez son objet de mutilation et l'encourager à se soumettre. Les tortionnaires peuvent, à cet effet, se relayer pour dévoiler l'outil le plus à même capable d'éveiller plus de crainte chez la victime. En effet, « le lieutenant prit le relai de Ja.....Il avait dégarni un fil de sa pince et le déplaçait sur toute la largeur de ma poitrine déclare Henri Alleg. J'étais tout entier ébranlé de secousses nerveuses de plus en plus violentes et la violence se prolongeait rajoute-t-il» (Henri Alleg, 1992, pp.27-28). Vaciller, faire tituber et chanceler la victime seraient tributaire de l'outil choisi :

Il n'y a donc pas lieu de s'étonner si l'objet le plus capable d'éveiller la crainte est celui qui découvre, dans une grande diversité, des apprêts terribles. De même que le succès du bourreau augmente à mesure qu'il étale plus d'instruments de torture (la

simple vue triomphe de qui eût pâti sans fléchir) ; de même, parmi les objets qui subjuguent et domptent nos courages. (Laure de Chantal, 2013, p.31).

Face à ces outils, la victime est appelée à transcender ses limites physiques et morales de résistance. Le tortionnaire expose ses instruments de manière à ce que, à leur simple vue, la victime vacille. Le déploiement de cet arsenal est une opportunité jugée par le tortionnaire comme étant capable de dépouiller la victime de son humanité en la plongeant dans les l'éther d'une violence irréversible. Une invitation à coopérer avant l'ultime exercice. En effet, l' « on déploie l'arsenal de la cruauté(...) pour arracher un aveu(...) qui par leur seule vue brisent même les esprits des hommes ». (Ibid., p122).

Ces différentes mutilations provoquent chez le torturé une prise de conscience en écoutant ce qui se passe d'effrayant en lui. Son corps et tout son être se confondent pour ne plus s'inscrire dans l'unicité. L'on peut comprendre, à cet effet, que « la douleur résultant de l'entaille ou de la brûlure qu'inflige le tortionnaire à ses victimes occasionne chez celles-ci une violente prise de conscience quant à l'amalgame soudainement devenu effrayant du Moi-frontière-cutanée-du-corps. » (Roy, Gabrielle, 2019). La victime ne sait plus qui elle est. Dorénavant en étant vulnérable l'aveu est possible. En somme, c'est un moment profitable au tortionnaire qui n'a qu'à cueillir l'information. « Comme ce corps est assujéti au contrôle d'un autre aux intentions destructrices, la personne est plongée dans la conscience de sa totale vulnérabilité » (Ibid., 2019). C'est de ce plaisir qu'entendait Henri Alleg priver ses tortionnaires.

Conclusion

Au terme de notre réflexion, et selon le témoignage d'Henri Alleg, victime directe de la torture en Algérie pendant la guerre de libération, nous avons compris que la *Question* décrit les techniques de torture subies pendant un mois de détentions.

La question d'Henri Alleg raconte les tortures ayant cours pendant la guerre d'Algérie. Elle décrit avec détails les techniques déployées par les tortionnaires. La

sortie de ce témoignage a ébranlé l'opinion publique et la conscience internationale du fait de divulguer les pratiques de la police secrète à l'encontre de la population algérienne. En révélant la brutalité de cette police *la Question* le monde a découvert l'existence d'un système torturant dissimulé où sont outrées des idylles sanglantes. Le système mis en place par la police secrète française visait tout d'abord à obtenir des informations. Pour ce faire, les tortionnaires se relayent dans cet exercice abominable. Les tortionnaires utilisent des méthodes diverses, atroces les unes les autres. La gégène, les électrochocs, les simulations d'exécution et la suffocation ont toutes été essayé sur Henri Alleg, devenu le temps de ces supplices jouet dans les mains de ses bourreaux.

La tortue blanche est avant gout d'une autre torture appelée sanglante. La première est caractérisée par les menaces, l'interrogatoire et l'instauration d'un climat de peur et de psychose. L'objectif étant d'amener la victime reconnaître sa vulnérabilité et l'accusation dont il est victime. Si par malheur, la victime ne collabore pas, les souffrances et physiques l'attendent. Des outils terrifiants sont exhibés non loin de là pour donner à réfléchir sur leurs capacités à générer des douleurs.

L'objectif de ces supplices est de maintenir le contrôle non seulement sur la victime des tortures, mais également sur la population algérienne engagée dans la lutte contre le colonialisme. Ce qui choque véritablement c'est de voir le tortionnaire jubiler en torturant, car cela le conduit inéluctablement vers l'anéantissement de la victime.

Dans son affrontement avec le bourreau, Henri Alleg a réussi à résister aux assauts répétés de son ennemi, car dès le début, il était conscient que c'était avant tout un combat pour préserver son identité. Pour lui, avouer équivaldrait à renoncer à ce pour quoi il se battait. Sironi Françoise a raison d'écrire qu'en effet, « *l'enjeu n'est pas seulement celui de l'aveu. Car livrer le secret, avouer, c'est se plier à la*

volonté omnipotente du tortionnaire, et à partir de là souffrir l'atroce transparence de la dépersonnalisation. Le secret et l'opacité intime sont fondements de l'identité. » (Françoise Sironi, 1999, p.18). C'est dire que pour le bourreau et l'institution qu'est derrière, la torture est loin d'être un procédé purifiant, il n'est en tout point qu'une manœuvre politique inhumaine.

Bibliographie

Annah Arendt, *Le système totalitaire, les origines du totalitarisme*, Seuil (1972), Gallimard(2002) pour la nouvelle édition. *Champ social/ « Spécificités »* 2015/2 n° 8 | pages 73 à 78

Christiane Chaulet Achour, « La torture et la guerre. Mémoires en décalage : France/Algérie », in *DIACRITIK- Le magazine qui met l'accent sur la culture*, 28 septembre 2018, consulté le 08/02/2023 sur <https://diacritik.com/2018/09/28/la-torture-et-la-guerre-memoires-en-decalage-france->

Françoise Sironi (1999). *Bourreaux et victimes. Psychologie de la torture*, Paris, Odile Jacob,

Général Aussaresses (2001) *Services spéciaux. Algérie 1955-1957*, Perrin.

Henri Alleg (1992) *La Question*, Editions RAHMA, Alger.

Laure de Chantal, *Torturer à l'antique, supplices, peines et châtements en Grèce antique*, Les Belles Lettres, 2013.

Michel de Certeau, cité par Françoise Sironi(1999) *Bourreaux et victimes. Psychologie de la torture*, Paris, Odile Jacob.

Michel Foucault(1975) *surveiller et punir, naissance de la prison*, GALLIMARD.

Murielle, Montagut (2014) *L'être et la torture*, Paris, PUF, Collection Partage du savoir.

Muriel Montagut, les recherches sensibles : l'exemple d'une étude sur la torture, *Champ social/ « Spécificités »* 2015/2 n° 8 | pages 73 à 78

Roy, Gabrielle (2019). *Torture et deuil du sujet*. *Frontières*, 31(1).

<https://doi.org/10.7202/1066197ar>

وسائل الاعلام وعلم اللغة التطبيقي

Media And Applied Linguistics

Researcher. Muna Jumaa Ali

College of Language , Baghdad University , Baghdad / Iraq

Email: a_muna46@yahoo.com

الملخص:

نستعرض من خلال هذا البحث دور وسائل الإعلام في علم اللغة التطبيقي لمساعدة المتعلمين على تدريس اللغة بشكل خاص ، ودورها في التواصل مع الآخرين في مجال التعليم بشكل عام. تساعد وسائل الإعلام على زيادة المعرفة اللغوية التي نستخدمها لنقل المعلومات والأساليب لتحليل وتحسين منتجات الوسائط المتعددة وعمليات الإنتاج والاستقبال. تعمل هذه المعرفة كمحفز لتطوير التعليم حيث نعمل على إيجاد حلول لتحديات الاتصال الناتجة عن التحول الرقمي. كما تساعد هذه المعرفة على زيادة القدرة التواصلية وكفاءة المتعلمين ، وذلك لمواكبة التطورات في مجال التعليم.

لذا عن طريق اللغة نسلط الضوء على وسائل الإعلام لأنها من أهم الطرق لتحسين القدرة اللغوية من خلال الممارسة والتواصل عن طريقها .

الكلمات المفاتيحية: ما هي وسائل الإعلام؟ ، قنوات الإعلام، تقنيات التعليم، الوظيفة التربوية لوسائل الإعلام.

Abstract

Through this paper we review the role of the media in applied linguistics to help learners teach language in particular , and its role in communicating with others in the field of education in general. Media help increase the linguistic knowledge we use to convey information and methods to analyze and improve our multimedia products, production , and reception processes. This knowledge acts as a catalyst for the development of education as we work to find solutions to the communication challenges resulting from digital transformation. This knowledge also helps to increase the communicative ability and competence of learners , in order to keep pace with developments in the field of education..

So , Language we shed light on the media because it is one of the most important ways to improve language ability through practice and communication through it.

Keywords: What is Media ? , Channels of Media , Education Techniques , Education Function of The Media.

Introduction

The attempt to describe the functions of mass media is not only to understand their characteristic properties, directions of effect, but also to define and refer to their exceptional character between other means of social communication. The functions of mass media are understood as activities, missions, mutual dependencies, relationships, and also positions, or duties. The authors of the dictionary of media terminology define them as "at least the missions to be performed by them, the target they should achieve, or the result of their actions.

And considered for some people, that media worthless and useless to many recipients, as they would not be able to make proper use of it. This educational function goes far beyond using the means of mass communication in pedagogy and school education. The impact of mass media in this regard is rather a part of the concept of long life learning, because it focuses on the, mature, well developed and shaped recipient. The proper definition of mass media functions reflects the effects of research on the use and satisfaction from the media. The traditional approach of these studies dealt with the impact of mass media on recipients in its direct form.

So, the choice of media and media content is generally rational and calculated for certain specific purposes and satisfaction (the audience is therefore active and its creation can be explained logically), - Members of the audience are aware of their needs in relation to media that arise from personal (individual), and social (shared) circumstances, and can express them through their motives, In general, usability is a more important factor in shaping the audience than aesthetic, or cultural factors, All or most of the factors shaping the audience (motives, perceived, or received benefits, media choices,

social variables) are generally measurable . This paper dealt with several media channels, whether they are visual or audial, and their role in influencing language education.

Aim of the study

The study aims at the following :

- Explaining characteristics and functions of media .
- Identifying and classifying the media according to auditory and visual.
- Finding out the most dominant role in teaching process.

Limitation of the study

This paper tries to describe what is meant by media ,and its role that plays in foreign language teaching.

The Significances of the study

It's hoped that this research could help students and researchers of language to understand that this study clarify the history of media use, and usefulness of media , and how media is constituted the important factor in education , with respect to objectives and curricula and the role played by FLT.

The research Question

1. What is media in applied linguistics?
2. What are the functions of the mass media and their characteristic?

1.1.What is media ?

We can define media as all aids which may be used by teachers and learners to achieve certain educational objectives .

We can noted that (Schilder,1977.p.45) clarify in his study of the history of media use, there was a consensus as to the usefulness of media , and the developments that have taken place have changed little in this field. These developments are attributed to the technological innovations which continued to expand the range of reliable and accessible media from one hand , and

changes in linguistic, psychological and didactic insights on the other hand. (Macht & Schlossbauer ,1978 .p56).

also we have important factor is constituted by the changes in education itself, for instance with respect to objectives and curricula and the role played by FLT (foreign language teaching) , we can identified media in different methods , according to Erdmenger (1979,p.24) , lists a number of points of view that can be considered media , the nature of the information transmitted by the media ((linguistic and non-linguistic information)) . The channel of information ((visual , auditory, and , audiovisual media))

The process of teaching and testing ((are they used for the repetition , presentation , and exploitation of learning material for testing)) . The education function ((are they used to , to transmit information , motivate learners, and ,to stimulate free language use)) (Mindt ,1978.p.34)

the degree of accessibility and adaptability. The possibilities for supporting, supplementing, or replacing the teacher , and use of media by individuals or in groups .(Heaton ,1979.p.39).

1.2.Channels of Media

The most of the channel of information for Media that involves:-

1.2.1.Auditory media

In this sense , the positive role of in foreign language teaching , and we can noted to any new points of view have been advanced in the last few years . There is a great variety of auditory media available in this period , that technical qualities are excellent. also considered oral skills feature prominently in foreign language teaching objectives , it unsurprisingly ; that such media as radios , tape recorders, televisions , gramophones and video recorders receive

considerable attention . And these media requires a certain kind of course training. (Freudenstein ,1981.p.53)

In this period the use of technological media in education a lot of materials were developed by the teachers themselves, it is a fact that the construction of high-quality course training requires a long of time and experiments and that depend on experts in cooperation with teachers.

Considered that problems organizational and financial . Because of the expenses included equipment and software are often not bought and one often finds that the available media are not employed or inadequately , either because the requirements is lacking in flexibility or because of lack of maintenance or because appropriate software is not sufficiently available. One of the clearest examples of a wrong policy of media use in schools is the language laboratory .

Even though these problems it can be concluded that there are parts of the teaching programme which benefit from the use of auditory media , but other parts could not be employed at all without them . And from the most of the advantages auditory media offer to learners the opportunity to practice with spoken materials without the teacher and can even be done outside the classroom at home ,considered as fixed model for missions involving frequent repetition, in for instance pronunciation correction, resolving difficulties in understanding spoken texts, and providing feedback in pattern drills. The model may be presented as frequently as necessary without any change in quality , in this principle , sounds of many native speakers can be presented in class, with any desired difference with respect to age, clarity of diction ,rate of speech, situational context and type of language use , and media can record sound make it possible to check learners utterances, which allows a certain degree of objectiveness in testing and evaluation to be achieved, after that recorded

utterances are then also available for later use, for instance for subsequent evaluation by external judges. (Macht ,1979.p 56)

These characteristics do not apply to all kinds media in the same method will become clear in the following paragraphs , where we will indicated to each of the auditory media separately.

➤ **Tape recorder**

Included the cassette recorders, play a supporting role in the use of radio programmes . The tape recorder is auditory medium that most widely usable . It can be used in all stages of the cycle of teaching or learning activities, can both reproduce and record spoken language. can be employed for individual as well as for group work, because it is flexible, and it is not very expensive. Also a large quantity of course materials suitable for the tape recorder is available, and it is easy to develop one's own materials for it. The technical qualities of most tape recorders are such that high quality recording und reproduction, which are indispensable in foreign language teaching . Freudenstein (1981b:274)

Even though speech contains a lot of redundant information which a trained listener does not need to be able to understand what is being said, in foreign language teaching most learners are not trained listeners. Language learners, and especially initial learners, will have to be able to receive all of the information as fully as possible .The same requires of technical excellence also apply to microphones, head phones, speakers and tapes.

➤ **Radio**

The radio is an important source of high - quality materials. News broadcasts ,interviews, quizzes , which make an enormous variety of language material available which is very useful in teaching, even though it has not been specifically designed for teaching , but it can to be edited for classroom use, while the advantage is that because it is topical and authentic, learners generally find it

motivating. The amount and variety of topical and authentic material the teacher may record from radio broadcasts could never be equaled in commercial publishing . The flexibility of the radio as a teaching aid may be increased significantly. and a considerable degree of editing and preparation by the teacher becomes possible, if radio programmes are not presented directly as they are broadcast, but recorded on tape. The great advantage of tape-recorded material is that especially repetition and exploitation can be arranged more flexibly. The main function of radio programmes in foreign language teaching , is that they can be used in training listening proficiency, as a basis for conversational activities, and as a means to improve cultural background knowledge. (Epting & Bowen,1979.p.76)

➤ Language laboratory

In these days language laboratories occupy a position within the all range of audiovisual media which is rather variant from what it was a few decades ago. in 1960s , and a subsequent relatively general rejection of this medium ,language laboratories were again discussed in a strikingly large number of readers and monographs in the 1970s . In the last few years, we find predictions of a resurrection of language laboratories, albeit in a somewhat variant form and under somewhat different circumstances. We shall first of all give a brief description of the different language laboratory types, then a survey of the history of this medium, and lastly a discussion and summary of the possibilities of language laboratory use in present - day foreign language teaching . For a discussion of research into the effectiveness of language laboratories in foreign language teaching. (Freudenstein ,1971, p.43) .

Language laboratory types:

- Audio-passive (AP)
- Audio-active (AA)

- Audio-active-comparative (AAC)

1.2.2. Auditory Media in the Teaching

In this respected auditory media can only be employed successfully and efficiently, if particular conditions are fulfilled. These first of all concern the equipment itself (such technical aspects as ease of operation and reliability), organizational aspects (such as accessibility and maintenance) and financial aspects. Secondly, teachers are needed who know how to use media efficiently. Thirdly adequate language learning materials which are geared to the objectives in general and to specific teaching and learning tasks in particular, must be sufficiently available. These conditions, which also apply to other media, are frequently emphasized in the literature. (Freudenstein ,1981.p.270)

Several disappointing experiences with auditory media, and ,especially with language laboratories, can be attributed to a failure to fulfill the conditions mentioned above. So the failure to do so will lead to misuse of media. The role of the teacher is central in this connection ,there is no empirical proof of the fact that media use per se accounts for more motivation, interesting teaching, or better learning results, nor will there ever be. Machines can always only be as good and helpful as the individual teacher thinks they are teachers must first of all be (familiar with the possibilities and limitations of the media which are used in foreign language teaching , an awareness of the possibilities and impossibilities may prevent some disappointments. Such awareness enables teachers to judge the relevance of the Chief functions of auditory media (objectification, individualization, intensification and enrichment) for his own teaching. (Dakin,1973.p.65)

And auditory media can be used for repetition, presentation , and exploitation, for training listening and speaking skills, but also for dictation, spelling exercises

and various other aspects of writing, as well as for the testing of these skills. Whether they are used or not will depend, as we have argued earlier, on the objectives of the teaching programme. An auditory medium like the tape recorder is not maximally useful for the teaching of meaning, if it is not supported by visual media, but it is eminently suited for the presentation of spoken texts, for repetition exercises, for pattern drills, and for guiding oral productive language use. (Beile ,1979.p.43)

Compilers of materials for foreign language teaching in which media use plays an important role have no easy task. They have to strike a balance between what has been laid down in the objectives and the possibilities and limitations of auditory media contain surveys of suitable exercises. Dakin gives innumerable examples of the uses language laboratories can be put to, including free conversation practice. Several authors express the opinion that especially in the later stages of the teaching or learning process the media should be in the hands of the learners'. The possibilities of the language laboratory, for instance, with regard to recording and reproduction, monitoring and correction, and of evaluation and assessment will then become more transparent for the learners take over tasks from the teacher, and provide a first step towards real communication. It is hardly surprising, given its history, that the language laboratory should often be associated with what (Dakin ,1973) calls (tum-te-te-tum drills). Language laboratory work need not, however, be limited to practicing by means of structural or contextualized drills. In the last few years many other suggestions for the use of language laboratories have been put forward. The suggestion of using the language laboratory for a variety of learning tasks simultaneously is an especially interesting one, which for instance prevents the learners from automatically associating language laboratory work with a particular type of learning task.

Missions which can be carried out simultaneously by individual learners or by groups of learners with the aid of a language laboratory are , for instance , dictation exercises , grammar - and vocabulary exercises, listening comprehension exercises, pronunciation exercises, and oral proficiency tests. Comprehension exercises can also be based on written texts, in which case the language laboratory can serve as a means to allow learners to work in groups more easily during the exploitation phase. They can communicate through the headphones and record both their discussions about the text and the outcome thereof, and evaluate them later, either together with the teacher or the entire class. (Hunziker , 1977.p.51)

Even though this kind of language laboratory work is only relevant for a part of the curriculum, and although there are learning tasks for which the language laboratory cannot be usefully employed, the language laboratory can be a very useful medium, especially for those learning tasks which can be carried out individually or in small groups. In this connection it is useful to divide learning tasks up into modules which can be presented as independent units. Most proposals for learning activities incorporate some visual support for the auditory media. (Macht & Schlossbauer ,1978 .p34)

1.2.3. Visual and Audiovisual Media

There is no strict separation among visual and audiovisual media with respect to their use in foreign language teaching. However, television, video and film are usually regarded as the audiovisual media proper, because of the combination of sound and image in these media. All of visual media, therefore, can in principle be combined with all auditory media .(Griffin ,1981.p.7)

➤ Visual Media

Consider that the visual element has long played an important role in foreign language teaching. Schilder (1977.p.14) has shown that as long as a century ago

a surprising number of visual media, such as prints, drawings, and maps of cities and countries was used in foreign language teaching , in fact, long before such auditory media as we have discussed in the preceding paragraphs came to be employed. The various in approach to the use of visual media in foreign language teaching that the last few decades have witnessed, cannot exclusively be attributed to the fact that modern technology has enabled us to produce a rich variety of such media , a development which has taken us into an age in which (the visual component is an increasingly important dimension of communication). And even more important factor has been the extension of the functions of visual media. They are no longer just a means of making foreign language teaching more lively, to intensify it, and add some frills to it " mainly to motivate the learners " . but they have now also acquired the function of didactic intermediary in the sense that they can be used to provide prestructured guidance of the learner's use of an (L2) structure through a visual representation of that structure . (Wipf , 1978 .p 11 - 12)

There is considerable agreement in the literature on the positive effect which the use of visual media has on foreign language teaching. But it is also generally agreed that a number of conditions must be met if the use of visual media is to be effective Some of these conditions will be mentioned in our enumeration of visual media below. A number of visual media could be grouped together as (non-technical teaching aids) These include aids such as blackboards, magnetic boards and pegboards, pictures, charts, scrolls, flashcards, word – and - picture pocket books, photographs, and cartoons. They are all easily available and adaptable ,that is to say, a large variety of such aids can be bought because they are relatively inexpensive, which in turn makes them more flexible for use in foreign language teaching. (Weiland ,1978.p.22)

Emphasizes Schilder (1980 ,p.344) that the use of media should be structured in such a way that learners can choose from a rich selection of aids for a considerable number of learning tasks, initially, with the teacher's help, and later, independently. This also creates possibilities for differentiation, in that learners can work individually or in small groups. Another important aspect of visual aids of this kind is that they do not date very quickly, which makes them rather more usable than other types. Many of such aids can be made by the teacher himself. The difference is that some technical device is needed. This group includes slides, transparencies, films, filmstrips, videotapes and the technical equipment needed for projecting them. Non-technical aids may also be projected with the help of, for instance, a video camera and a monitor. The most flexible device is the overhead projector it is very easy to produce transparencies for it, which can be easily adapted to all sorts of learning tasks. Slides are much less flexible , while films , TV and video are least flexible, and are very difficult to adapt. (Celce,Murcia ,1979 .p.64)

➤ **Audiovisual Media**

The combination of sound and image and the use of rather expensive equipment characterire audiovisual media in the narrow sense of the word , namely films, TV and video The presentation of moving pictures is one of the most important differences among these and other media. This makes it possible to achieve a considerable degree of contextualization, Le presentation of authentic language use in real situations. (Ayton & Morgan ,1981.p.83)

One of the main disadvantages of this type of material is, however, that it dates very quickly as a result of technical, political and cultural developments. In foreign language teaching, films are losing ground to TV and video. This can be largely accounted for by problems inherent in the use of films: they are difficult to operate, the equipment is usually rather noisy, the sound quality is often poor,

and the classroom has to be darkened. Films, furthermore, often contain too much language material to be usefully exploited in the classroom. There are only very few films especially designed for foreign language teaching, and it is hardly possible to produce such films oneself. TV and video suffer much less from these disadvantages. There is, however, one important barrier to an optimal use of the possibilities offered by video: the existence of many different video systems which are not interchangeable. In so-called multi-media systems a great number of media are employed. (Hinz, 1979, p.13)

Characteristic of multi-media packages is the functional division of the various media over the various parts of the course and the different phases of the teaching or learning process. Sometimes the media are used separately, sometimes in combination with each other. In many cases, for instance in the Feoll project in the Federal Republic of Germany use is made of radio and TV broadcasts, which play an important role especially in the presentation phase. For the repetition and exploitation phases, as well as for additional activities for example (for the teaching of cultural background), auditory and visual material is made available, such as slides, tapes for use in groups and individual use, flashcards, transparencies, readers, workbooks and wall charts.

According to the multi-media approach, therefore, textbooks retain their central function of setting out the structure of the course, and of providing the link between the media. This role is especially important in view of the not inconsiderable danger that the media will dominate the teaching programme. In this context, a lesson can be drawn from the Berlin multi-media instruction room, intended as an experiment and equipped with an abundance of auditory and visual media, which could be used at any given moment. voiced the following criticism, fortunately, this concept has not become common practice. If it had, it

would have been a perfect example of the dehumanizing effect of media use without consideration for actual instructional needs. (Gutschow ,1980.p.87).

1.2.4.Audiovisual media in the Teaching process

In this principle we have put much emphasis on usability, flexibility and adaptability of audiovisual media in order to make it clear that the use of such media can only be effective if they are in all respects (user - friendly), Ifthey are not, media use is bound to meet with irritation on the part of both learners and teachers. Media are generally said to have two main functions: they serve to make foreign language teaching more lively, and they are an integral part of the teaching or learning process These two functions may be reflected in a large number of practical measures, on the use of audiovisual media in the classroom such as visual and audiovisual media mostly provide additional information.

For example involved furnishing the classroom with wall charts, notice boards, posters, maps, pictures, or providing visual or audiovisual support for parts of the teaching programme, for instance, the cultural background part. Especially useful for this purpose are series of slides with an accompanying prerecorded commentary, films, TV and video. It is usually quite easy to obtain up - to - date material from TV programmes. This material does, however, nearly always require adaptation, which necessitates the use of a video recorder. Adaptation is very time-consuming. especially if one wants to keep one's stock of materials up to date.

We can see some of the main problems in using films and TV for foreign language teaching are that the non - linguistic information generally far exceeds the linguistic information, that the linguistic information is usually pitched far above the level of proficiency of the learners, and that, as a consequence, these media are used less for actually teaching the learners than for entertaining them.

With respect to the second function it should be observed that the actual use of media largely depends on the particular phase in the cycle of teaching or learning activities in which they are used.

According to Downes (1980.p.130 – 31) states an example of a multi-media approach in which the use of a particular medium is always linked to a particular aspect of the teaching or learning process, (lashcards to present main lexical items; filmstrip and tape recording bring lexical items into context) cassette recordings of conversations printed in pupil's book give listening practice with good quality sound , pupil's book exercises and workbook exercises give explanation and practice of structures used; language laboratory gives intensive practice through contextualized drills , television brings together the above into visual, living contexts , colour slides give high quality photographs for detailed study.

According to the visual media ((flashcards and filmstrips)) provide the visual support for the acoustic memory and aid the semantization of the language material which has been presented auditory. We can see that the next step in the above example is bringing the language material into context. Linguistic communication is not exclusively verbal behavior. Such elements as paralinguistic signals ((gestures and facial expressions)) are also relevant. Furthermore, the meaning of language is also determined by the situation in which it is used, which is constituted by a number of factors, involving the speaker, the behavior of the conversation partner before, during and after the linguistic exchange, and the environment. We use our eyes and our ears to register different aspects of the language use situation. It is, therefore, often advisable to make use of visual media, certainly where aspects of the language use situation are concerned which are strongly culturally determined. It is very important to adapt the visual material for use in the presentation phase. Drawings, presented through

textbooks, slide projectors, flashcards, and overhead projectors are eminently suitable. Pictures, films and television are less suitable, especially in the initial stages of the teaching or learning process. A teacher with even the most rudimentary drawing skills can easily adapt the materials to suit the needs of the learners. In the repetition phase, visual media may be used to aid the internalization of rules and to correct pronunciation . (Maley & Duff ,1976.p.87)

In exercises they may serve to initiate and guide practice. They make it possible to work quickly and efficiently, without resorting to LI . Especially conversational practice can be initiated quite easily by means of visual aids. For this purpose not only the simple visual media are useful, but also the more complex audiovisual media such as TV. In the above example, both auditory ((language laboratory)) and visual (TV & colour slides) media are used in the repetition phase. In the exploitation phase media are especially important because they can provide stimuli for free conversation. Both auditory, visual and audiovisual media are relevant in this connection, as discussion may be prompted by verbal, visual, and situational stimuli. Spontaneous language use on the part of the learner ceases, however, at the point where knowledge and skills are no longer adequate to react to such stimuli. This means that the material which is intended to provide the stimuli must be adapted to the level of the learners. (Borel, 1970.p.54)

For instance (Downes ,1980) there is a gradual build - up towards free conversation, which may exploit all audiovisual media or any combination thereof. This building - up stage, which is aimed at helping learners who tend to adhere too closely to the learning materials to work independently of them, can also be implemented by the learners themselves in small groups. They should be given the opportunity to listen to and watch the stimuli carefully and to take notes. Written instructions, to set up question , and answer game for instance ,

would be very helpful in this connection. The last step towards free conversation is in this way introduced through a form of guided conversation.

1.3.Education Techniques

By education techniques we mean tools which is capable of storing and presenting learning materials, and of automatically processing learner responses. Tools with these features can be used for those parts of a language course which can be programmed, that can be classified into a number of more or less predictable and ordered stages. The history of education techniques has stated that they are ill - equipped to handle appropriately all portions of a language teaching programme. In fact ,education techniques are often designed particularly for a particular learning missions. Examples of such teaching machines are the (Suvog Lingua), a tool for pronunciation correction , the conversation Visualizer , and the Language Master, which can be used for simple learning missions in a stimulus - response frame-work . Differ these tools , computers voice to be capable of guiding or supervising all range of learning missions. Particularly speaking the development of teaching machines was stimulated by a desire to individualize and intensify the teaching or learning approaches, however , it happens as a bit of a surprise to find that computers are particularly found to be most useful as a medium of instruction when they are collected into the normal classroom schedule , even thoughcompute - tutors were primary target, it is now clear that the computer is most possible to be useful as a supplement to class - room instruction. (Guberina , 1973.p.32)

Computers considered as one medium of instruction among many others. We have results to expect that the computer will become more common as a medium of instruction in foreign education techniques than other machines as the Suvag Lingua and the Language Master, not just because computers also can do what these and other machines can do, but because they can carry out other missions,

such as administering and evaluating learner performance. The best describe of the present situation and some well-founded views on future developments , can be discover in(Marty,1981, 1982). Marty is related with Plato (Programmed Logic for Automatic Teaching Operations) , a (CAI) system of Control Data Corporation, which has been in operation for some 20 years . Plato is a macro system that a central computer controls a large number of terminals.

The characteristics of this system are its large memory capacity , the wide chose of learning programs and exercises it offers, its state of operation, and its certain computer language instructor, which is suitable for programming language lectures. Fundamental defect is that the costs involved for the user are very expensive. The installation of mini - or micro - computers could possible solve this problem in the foresecable future. Therefore , the necessary software, computer languages and learning programs is not available. (Howatt ,1969 .p.228)

Assumed the developments in computer technology that the range of possibilities for (CALI) can be extended . Whereas most existing (CALI) programs deal with grammar and vocabulary, and programs for improving listening comprehension, reading comprehension and translation skills. Certain fields of pronunciation, intonation and evidence speech could also be taught by means of a (CALI) system, so that the teacher can refer to a greater proportion of the class time to something which is beyond the ability of any current or future computer, the development of creative free expression . Essential advantages of (CALI) are that it can individualize the learning approach by taking into consideration the primary skills and the learning average of each individual learner, and by giving selections with respect to type and amount instruction and experience . And it can intensify the learning approach and reduce learning time, it can submit immediate feedback, give random access to

programs and exercises, and, finally, it can increase desire precisely because programs can be tailored to the requirements of the individual, and also because of the intrinsic attraction of the machine, the studies agree on the enthusiasm that learners reflected in working with computers. (CALI) still leaves a lot to be motivated, However, (Marty,1982.p.5 - 7) , who mentions some fields for improvement the computer can just submit partial error analyses of the language happened by learners, since groups of errors fed into the computer cannot be exhaustive ,one has to do with a group of predictable errors. Nevertheless, the provide groups could be improved in a number of methods. And the propositions for review must be modified in order to prevent, for example, learners repeating too short and long, or incorrectly. And there is a require for modification of computer languages and computer programs in order to work it possible, for example, for some of the assignments to be established automatically. (Leidy et al, 1980,.p.13)

Moreover, (CALI) can be modified by adding a visual component to the computer. Visual support of computerized instruction by device of slides and micro- fiche is may be at the moment. More advanced instruments , as vidcodiscs which can both record and reproduce sound, is still being developed. The computer does not sound to have much to offer in the field of creative writing. Quite apart from the considerable problems included in the automatic linguistic analysis that this would need, the computer cannot monitor the actual content of what the learners do. Another field in which substantial modification sounds differ is oral interaction with the computer. (Marty 1982, .p.17) explain it is pure fantasy to think that one day we will have devices which can understand the kinds of badly formed sentences foreign language learners are apt to create and that those devices will submit the students with a correction." To sum up, the computer has most to offer in the field of written skills, with the prediction of

creative writing, and least in the field of oral productive skills. Although some progress has been made also in this field, it is similar that, in the near property, the computer will continue to be baffled by conversation to a great extent. It seems realistic to aim for a rather modest role for (CALI) for the time being. This modesty is motivated not just by submit expectations with consider to technological developments, but by last experiences with media, the costs included, and the as yet determined expertise in designing and using computerized learning materials. This last problem may also result a widening of the gap among the technical and the didactic fields of (CALI), which possible hardly to bridge. (Roberts, 1981.p.54)

1.4. Educational Function of the Media

We can noted, that the attempt to describe the functions of mass media is not only to understand their characteristic properties, directions of effect, but also to define and refer to their exceptional character between other means of social communication. The functions of mass media are understood as activities, missions, mutual dependencies relationships, and also positions or duties. The authors of the Dictionary of Media Terminology define them as, { at least the missions to be performed by them, the target they should achieve, or the result of their actions. }.

Whereas, attempt to classification the functions of mass media, it is worth taking into account their essential division into their desired functions and undesirable ((dysfunctions)) ones, while the desired functions or the poor of them, may be both on the sender and the recipient side, and at the same time they can be in convergent, or divergent communication processes (H. Lasswell), as one of the first scientist, was working theoretical considerations on the functional dimension of mass media and mass communication,

stated that social communication functions are a prerequisite for keeping a society's existence , continuity , integration and social order , with the reservation that mass communication can also discover the dysfunctional consequences. (Lasswell, 1948, p. 32-51)

In this respective , the main functions of mass media defined by (Lasswell) indicated to supervision of the surrounding, correlation of the group reactions in a community on its surroundings, transmission of cultural heritage { D. McQuail } collected the suppositions of { H. Lasswell, C. R. Wright's achievements } as well as the results of his own research and proposed a typology of the functions of mass media in a community Information function. Correlation function. Continuity function " heritage transmission " Entertainment function. Mobilization function (M. Mrozowski) in his review of the typology of functions of mass media and mass communication . Also , draws attention to the catalog of functions formulated in 1948 , by (P. F. Lazarsfeld) , and (R. K. Merton) . This typology is perhaps less important from the point of view of these considerations, however, it is an important complement to the categorization of mass media functions. (McQuail, 2007, p. 111-112)

So, the classification of (Lazarsfeld) and Merton recognized the functions of the media not so much from the perspective of their tasks as from the consequences of their operation and it consisted of two functions and one dysfunction. They involve the following (Mrozowski, 2001, p. 114-115) .The function of assigning status associated with the focusing of social attention and giving importance to public issues , people and organizations. - The function of strengthening social norms - mass media reduce the discrepancy between private and public morality, strengthening the norms and values on which public morality is based .Addiction dysfunction - based on the progressive addiction of

recipients to mass communication , which can absorb more and more time , is the result of replacing direct contact with reality with artificial and superficial one, and participation in social life is replaced by passivity and apathy. In modern typologies, there are also other functions of mass communication media, such as persuasive " propaganda ", cultural , or educational ones. (Pisarek, 2006, p. 62)

We can noted the educational function of mass media includes , to some extent, some of the previously mentioned functions. It is based on providing information about the surrounding world , presenting facts that enable shaping knowledge , showing the truth, communicating content that shapes skills and competences. From this point of view, modern mass media carry out an important task of teaching the recipients about the world.. So , the educational function, however, refers not only to providing information, as information deprived of commentary and embodiment in a certain context { and thus mass communication without a correlation function }, would be worthless and useless to many recipients, as they would not be able to make proper use of it. This educational function goes far beyond using the means of mass communication in pedagogy and school education. The impact of mass media in this regard is rather a part of the concept of long life learning , because it focuses on the, mature, well developed and shaped recipient .The proper definition of mass media functions reflects the effects of research on the use and satisfaction from the media. According to the traditional approach of these studies dealt with the impact of mass media on recipients in its direct form, trying to answer the question: what do mass media do with people, or how they shape them, change and educate them. A more recent approach reverses the problem, what do people do with mass media and how do they use them? This research perspective, according to ((T. Goban-Klas)) , is most

marked in two intensively practiced fields of study in the studies of the so called uses , and gratifications and in the socialization research of mass media functions.

In the basic assumptions of the theory of uses and gratifications are as follows ((Goban-Klas, 1999, p. 253)). The choice of media and media content is generally rational and calculated for certain specific purposes and satisfaction { the audience is therefore active and its creation can be explained logically } , Members of the audience are aware of their needs in relation to media that arise from personal "individual" and social " shared " circumstances , and can express them through their motives , In general , usability is a more important factor in shaping the audience than aesthetic, or cultural factors , all or most of the factors shaping the audience { motives, perceived or received benefits, media choices, social variables } are generally measurable.

Conclusion

From this study we can say that the use of media , in some form or other, is generally considered useful and important for all types of foreign language teaching . In this respective , we have argued that in foreign language teaching a specific use of media is both possible and desirable. .

Moreover , If media are intended to support, supplement, or replace the teacher with respect to a number of tasks, then one should first of all ask the question whether and in how far media should be used, for which task , and at which certain stage in the teaching - learning process.

We can noted , that the media do not necessarily become more effective as they become technically more advanced. So , the results of complex media systems also depend on the quality of the learning materials used.. Sometimes it would be wrong to attribute didactic value a priori to any one

medium. Flashcards may, under certain circumstances , be more effective than computers or television.

References

- Ayton , A.M, Morgan , (1981) , Photographic slides in language teaching . Practical language teaching No.6 , London 1981.
- Beile , W.(1979), Typologie von Übungen in sprachlabor. Zur Entmythologisierung eines umstrittenen Sachfelds, Frankfurt / M. 1979.
- Borel , J. (1970) , L'emploi de l' image dans l' enseignement des language , Bulletin CILA.
- Celce – Murcia , M , L . Melntosh (eds.), (1979) , Teaching English as a second or foreign language , Rowley , Mass . 1979
- Dakin , J.(1973) , The language laboratory and language leaning , London 1973.
- D. McQuail, Teoria komunikowania masowego, Warszawa 2007, p.111-112.
- Erdmenger, M.(1979), Englischunterricht in Medienverbund , Weinheim / Basel 1979.
- Freudenstein, R.(1981), Media in the second language program : from and uses for the eighties , in : Alatis et la 1981.
- Feoll (1975) , Schulfernsehen and Schulfunk in fremdsprachlichen Medienverbund, Paderborn 1975.
- Geddes, M , G. Sturtridge (eds.) , (1982) , Video in the language classroom . Practical language teaching no. 7, London , 1982.
- Griffin , S . (1981) , Video studios : the language labs for the 1980 , NALLD Journal 15 , ,1981.
- Guberina , P. (1973) , Les appareils Suvag et Suvag Lingua , Revue de phoneetique Appliquee 27 / 28 .
- Gutschow , H.(1980), English an der Tafel . Anregungen zum Tafelzeichnen , Berlin ,1980.

- Howatt , A. (1969), Programmed learning and the language teacher , London, 1969.
- Hinz , K. (1979) , Der Overheadprojektor in Englischunterricht . Didaktisch – methodische Handreichungen , Dusseldorf , 1979.
- Heaton , J.(1979), An audiovisual method for ESL , in : Celce – Murcia and McIntosh 1979, 38 – 48.
- Hunziker , H. (1977), Bild and Ton in Unterricht . Handbuch der Lerntechnologie 1978/79 , Zurich 1977.
- Liedy , J.A. Bueke , A . Merkel , M. Howard (1980) , Using computer assisted instruction in an ESL language program , NALLD Journal 15 , 1,1.
- Macht ,K.R.Schlossbauer (1978) , Englischunterricht audiovisuell . Reihe Exempla Band 10, Donauworth 1978.
- Mindt , D. (1978), Medien in Fremdsprachenunterricht : eine Klassifizierung unter didaktischem Aspekt , Trier 1978.
- Maley , A , A. Duff (1976) , The use of pictures in language teaching, Bulletin pedagogique , Tubingen.
- Marty, F . (1981) , Reflections on the use of computers in second language acquisition (1) , System 9 .
- M. Mrozowski. Media masowe. Władza rozrywka i biznes, Oficyna Wydawnicza ASPRA – JR, Warszawa 2001, p.114- 115 [in:] P.F. Lazarsfeld, R.K. Merton, „Mass Communication, Popular Taste and Organized Social Action [in:] W. Schramm (ed.), Mass Communication, Urbana 1948.
- Putnam , C . (1981b) , Technology and foreign language teaching , The British Journal of Language Teaching 19.
- T. Goban – Klas, Media i komunikowanie masowe, PWN, Warszawa – Kraków 1999, p. 253.

- Roberts, G. (1981), The of microcomputers for the teaching of modern language , The British Journal of Language Teaching 19,3.
- Schilder, H. (1977) , Medien in neusprachlichen Unterricht seit 1880 , Kronberg ,/ TS 1977.
- Schilder, H. (1980), Sttion der neusprachlichen Mediendidaktik seit 1945.Versuch einer Ortsbestomung , Die Neueren 79
- Wipf, J. (1978) , The preparation and use of non-photographic slides in the second language classroom , in : Baker , R. (ed.), Teaching for tomorrow in the foreign language classroom , Skokie , 1978.
- Weiland , H. (1978), Film and Fernsehen in Englischunterricht , Theorie , Praxis and kritische Dokumentation , Kronberg / TS 1978.

The Challenges that Face Abstract writing in Terms of Contents, Coherence, and Cohesive Devices for Sudanese Researchers

التحديات التي تواجه الباحثين السودانيون في كتابة ملخصات البحوث من ناحية المحتوى و التماسك والترابط

Dr. Abedelrahman Mohammdain Abdurrahman Ahmed, Associate Professor, El Imam

El Mahdi University, Faculty of Arts and Humanity, and White Nile University Sudan,

Email, abogamals1977@gmail.com

Dr. MohiEldeen Ahmed Abdelrahman Ahmed, Assistant Professor, White Nile University,

Faculty of Arts, English language Department, Sudan, Email: mohieldeen9@gmail.com

Abstract

The current study aimed to investigate the challenges that face Sudanese researchers in abstract writing in terms of contents, coherence, and cohesive devices. A descriptive analytical method was adopted to conduct the study. The population of the study was Sudanese researchers who continue to write researches in different fields of knowledge. The sample of the study was taken randomly from the population of the study. 20 abstracts represent the sample of the study. 5 PhD in applied linguistics, 5 PhD studies in Arabic language and psychology, and 10 Master studies in science and nursing. Textual analysis technique and contents analysis were used as way to analyze the data. The analysis of data revealed that 70% of the selected ample do not satisfy the requirements which were about the basic components of an abstract. The selected sample of the abstracts do not explain why it gets on this particular study which is not answered by the selected sample abstracts, how the study was organized and the methodology that is followed by the researchers. Finally, results or what the data showed must be mentioned as well as the recommendations of the study. The majority of the selected abstracts do not satisfy the above mentioned requirements which are very essential in writing a proper abstract. The researchers do not use the suitable discourse markers when writing the abstracts that make it improper way of writing a good abstract. Moreover, they don't differentiate writing abstract according to the nature of the field of the study..

Based on the results of the study, the researchers recommended that Sudanese researcher should have study the way abstracts are written.

Keywords: Abstract writing- coherence - cohesion –content- textual analysis

الملخص

هدفت هذه الدراسة الي تقصي التحديات التي تواجه الباحثين السودانيون في كتابة الملخصات من ناحية التماسك، الترابط، والمحتوي. اتبع المنهج الوصفي التحليلي لاجراء الدراسة. تمثل مجتمع البحث في الباحثين السودانيون اللذين يواصلون كتابة البحوث في مختلف مجالات المعرفة. اخذت عينة الدراسة بصورة عشوائية. (20) ملخص دراسة تمثل عينة الدراسة. (5) منها دراسة دكتوراة في علم اللغة التطبيقي، (5) دراسات في اللغة العربية و علم النفس بالاضافة الي (10) دراسات ماجستير العلوم و التمريض. استخدمت تقنيتا التحليل النصي و تحليل المحتوى كأداة للتحليل . اظهر التحليل ان 70% من عينة الدراسة لم تستوفي شروط كتابة الملخص الجيد. لم توضح العينة المختارة ما السبب من اختيار الموضوع، كيف تم تنظيم الدراسة و المنهجية التي اتبعت لاجراء الدراسة. و اخيرا لم تكتب النتائج و التوصيات. اوضح التحليل ان معظم الملخصات لم تستوفي شروط كتابة الملخص الجيد. لم يستخدم الباحثون ادوات الربط المناسبة حتي يكون الملخص متماسكا و مترابطا. اضافة الي ذلك انهم لا يميزون الاختلافات المتعلقة بطبيعة الدراسة محل البحث. وفقا للنتائج المذكورة اوصت الدراسة علي الباحثين السودانيون دراسة كيفية كتابة الملخصات البحثية.

الكلمات المفتاحية : كتابة الملخص، الترابط، التماسك، المحتوى. التحليل النصي

Introduction

It is well known that abstract is one of the most important contents of a research. It has a scientific process to be followed so as to be perfect and effective. A lot of Sudanese researchers face many obstacles when writing abstract. According to Mark C. Griffin(p:6), abstract is the synopsis of the thesis. It should state the study main hypothesis, the methods that are followed by the researchers, a brief summary of the study results, and a brief conclusion. It is the final thing that the researcher writes.

It is very important to know that when writing a research or article, we will be asked often to include an abstract. It is one of the most essential requirements for

the research to be accepted at all universities as well as educational institutions in Sudan of higher education and scientific research. According to Writing Centre (2014:1) the word abstract comes from the Latin word 'abstractum, which means a shortened form of a longer piece of writing. The center adds that there are two main types of abstract: the descriptive and the informative abstract depending on the field you are writing in.

It is very important to write abstract when writing research, papers or even sometimes assignments. It is the last item that we write, but the first thing people read when they want to have a quick overview of the whole paper. The researchers suggest that writing an abstract should be delayed to the end of the study, because you will have a clearer picture of all your findings and conclusions. There is no agreement that an abstract is usually a very concise summary of what the report or article is about and is usually placed before the body of your writing. Abstract can be read to get a quick synopsis. A good and satisfactory abstract tells the reader what to anticipate in written or oral work and it should be founded on what has been written by the researchers.

The aim of this study is to investigate the problems that face Sudanese researchers in writing the abstracts of their thesis. It aims to explore how interact discourses markers are arranged by research article abstract writers belonging to differ castigatory communities within the social sciences, while trying to reach the audience by creating organized discourse.

This study is considered to be very significant that is why because it tackles a very indispensable element of research writing which is an abstract. It is important parts of reports and research papers and sometimes academic projects. It decontaminates the most important information that appears in a research. It enables the readers to understand precisely what the researcher has conducted in his or her research. Why they have conducted it, the method they utilized to

conduct the work, what are the main outcomes, results or conclusions were as well as the researcher's argument.

Koopman, Phil. (2010:1) Abstracts are important for both selection and indexing purposes. Selection: Abstracts allow readers who may be interested in the study to decide quickly whether it is relevant to their purposes and whether they need to read the whole study. Indexing: most academic journal databases accessed through the library enable you to search abstracts. This allows for quick retrieval by users. Abstracts must include the key terms that a possible researcher would use to search.

Statement of the Problem

This study aims to investigate the impediments that face Sudanese researchers to write a well-connected abstract with appropriate contents. The most important focus of this study is that some Sudanese researchers don't write the abstracts of their researches well. They suffer from the proper ways to write a well-connected abstract as they are written universally. So, the problem of the recent study could be based on the fact that a lot of Sudanese researchers face problems in writing a proper abstract of their studies.

The researchers as teaching staff at a lot of Sudanese universities and supervisors of some candidates; B.A, MA as well as PhD observe that a lot of Sudanese researchers suffer from how to write an abstract. They write some ideas which are not a part of what is known universally as an abstract. Also they do not write cohesively and in a cohesion way. They don't include some of the most important components of the abstract such as the results, recommendations, as well as methodology. They include ideas which are not part of the abstracts such as the titles of the chapter as well as some of the contents of their study.

The questions of the study

1. What are the global requirements of accepted contents of the abstract?

2. To what extent do the candidate use the suitable discourse markers when writing the abstracts?
3. To what extents writing abstract is different according to the nature of the field of the study?

The Hypotheses of the study

1. There are international requirements of accepted contents of the abstract.
2. The candidates don't use the suitable discourse markers do make the abstract coherent as well as cohesion when writing the abstracts.
3. Sudanese researchers don't know that writing abstract is not different according to the nature of the field of the study

The Objectives of the study

1. To identify if there are international requirements of accepted contents of the abstract.
2. To identify whether Sudanese researcher's, use the suitable discourse markers do make the abstract coherent as well as cohesion when writing the abstracts.
3. To identify whether Sudanese researchers, know that writing abstract is not different according to the nature of the field of the study?

Methodology of the Study

The researchers adopted the descriptive analytical method to conduct the study. The tool which was followed to collect data was a survey that via a survey that focusing on some target abstracts which were not achieved properly due the lack of contents and unity. Twenty abstracts were chosen by the researchers from different field of knowledge as a sample of the study. The content analysis was adopted to measure the content, the cohesion and cohesive devices that were followed.

Limits of the Study

This study takes the following limits:

First, the population was limited to the Sudanese researchers. Second, the generalization of the results is limited to the population of the study. Third, this study was confined on the problems that face Sudanese researchers who face challenges in writing abstract in term of contents and coherence and cohesive devices.

Literature Review

Definition of abstract

An abstract is a self-contained, short, and powerful statement that describes a larger work. As there is no universal formula for writing a successful abstract, components vary according to your discipline. An abstract of a social science or scientific work may contain the scope, purpose, results, and contents of the work. An abstract of a humanities work may contain the thesis, background, and conclusion of the larger work.

According to American National Standards Institute's (ANSI) definition of an abstract, Huckin's (2006: 93) 'Stand-alone mini-texts'; 'Screening devices'; 'Previews'; and 'Aids to indexing'. Abstracts provide readers with a quick summary of topic, method and results of a work. It also, helps readers to decide on whether they wish to read the entire article, focusing especially on the body of the topic. The third function shapes an interpretive scheme which guides the reading process. Moreover, function, abstracts assist indexing for large database.

An abstract is a brief summary that shortens in itself the argument and all the needed information of a study. An abstract allows the reader to review the contents of the study and decide whether to carry on reading. It needs to be dense with information but also readable, well-organized, brief, and self-contained. Abstracts are generally 100-250 words, though a thesis or conference

abstract may be up to 400 words. There are no rules for the exact format of an abstract. This Guide provides samples, below, of the commonly used formats: paragraph style, headings style, and mixed style. A conference paper may have an audience of a few dozen; the audience for a journal paper may be hundreds to thousands. An abstract, though, has a life of its own in electronic databases around the world. Like a title, it is used by abstracting and information services to index and retrieve articles. Thus, for every person who hears or reads a paper, hundreds will read the abstract.

Importance of abstract

You may write an abstract for various reasons. The two most important are selection and indexing. Abstracts allow readers who may be interested in a longer work to quickly decide whether it is worth their time to read it. Also, many online databases use abstracts to index larger works. Therefore, abstracts should contain keywords and phrases that allow for easy searching.

Components of abstract

The format of your abstract will depend on the basic tenets and conventions of your academic discipline. An abstract of a more scientifically oriented research paper will contain elements not found in an abstract of a literature article, and vice versa. But, all abstracts share some components, and there are also some optional parts that you can decide to include or not. When preparing to draft your abstract, consult some major publication outlets (e.g., journals articles, edited books, reports, etc.) in your discipline to get acquainted with format, style, prose, and other components.

What to include in an abstract

The format of your abstract will depend on the discipline in which you are

working. However, all abstracts generally cover the following five sections:

1. **Reason for writing**

What is the importance of the research? Why would a reader be interested in the larger work?

2. **Problem**

What problem does this work attempt to solve? What is the scope of the project? What is the main argument, thesis or claim?

3. **Methodology**

An abstract of a scientific work may include specific models or approaches used in the larger study. Other abstracts may describe the types of evidence used in the research.

4. **Results**

An abstract of a scientific work may include specific data that indicates the results of the project. Other abstracts may discuss the findings in a more general way.

5. **Implications**

How does this work add to the body of knowledge on the topic? Are there any practical or theoretical applications from your findings or implications for future research?

Abstracts may include:

The thesis of the work, usually in the first sentence. Background information that places the work in the larger body of literature. The same chronological structure as the original work.

Abstracts do not include:

- Extensive references to other works.
- Information not presented in the original work.

- Lengthy definitions and description of concepts or methodological protocols.
- Citations.
- Tables or graphs.

Knowing key terms:

Search through the entire document for key terms that identify the purpose, scope, and methods of the work. Pay close attention to the Introduction (or Purpose) and the Conclusion (or Discussion). These sections should contain all the main ideas and key terms in the paper. When writing the abstract, be sure to incorporate the key terms. Instead of cutting and pasting the actual words, try highlighting sentences or phrases that appear to be central to the work. Then, in a separate document, rewrite the sentences and phrases in your own words.

Key words and phrases that quickly identify the content and focus of the work. Clear, concise, and powerful language.

Revise your abstract

No matter what type of abstract you are writing, or whether you are abstracting your own work or someone else's, the most important step in writing an abstract is to revise early and often. When revising, delete all extraneous words and incorporate meaningful and powerful words. The idea is to be as clear and complete.

Types of abstract

According to academic-skills (2010) Abstracts can be informative and descriptive. Descriptive abstracts describe the work being abstracted. They are more like an outline of the work and are usually very short - 100 words or less. The majority of abstracts written at the university of Melbourne are informative. Informative abstracts act as substitutes for the actual papers as all the key

arguments and conclusions are presented; specifically, the context and importance of the research, reasons for methods, principal results and conclusions.

Abstracts are usually required for:

- submission of articles to journals
- application for research grants
- completion and submission of theses
- submission of proposals for conference papers

According to Keria (73-75) The Abstract provides the reader with a summary of the contents of the research. It should therefore be brief but contain sufficient detail, telling the reader the motivation for the work; project. Objectives; techniques employed; main results and conclusions. Abstracts should not normally exceed a page and should be self-contained. The abstract is the “gateway” to the contents of the research, and therefore it is important that the abstract gives the reader a good initial impression.

He added that an abstract is a summary of the major ideas contained in your research; it is usually required for papers written in the natural or social science, but not in the humanities. In writing the abstract, use no more than one page. (Enter the title “Abstract” (without quotation marks) one inch from the top of the page. (Remember that the whole point of abstracting is to condense) the page containing the abstract must come after the title page but before the actual body of the research. It should have running head and page number. To produce a smooth abstract, you need only link and condense the main ideas of the outline with appropriate commentary.

The abstract should observe the following convention.

1. Reflect accurately the purpose and content of your research.
2. Explain briefly the central issue or problem of your research.
3. Summarize your research’s most important points.

4. Mention the major sources used.
5. State your conclusion clearly.
6. Be coherent so that it is easy to read.
7. Remain objective in its point of view.

Always place the abstract on a separate page, on page 2 of your Research. Do not exceed 120 words.

The General Ideas:

1. A thesis is a hypothesis or conjecture.
2. A dissertation is a lengthy, formal document that argues in defense of a particular thesis. So many people use the term “thesis” or refer to the document that a current dictionary now includes it as the third meaning of “thesis”).

Important information for writing Abstract

According to William T. Jerome, the following are very important points in writing abstract. These tips are as follow:

1. Write your paper first, and then write the abstract.
2. A good abstract should not exceed 250 words.
3. Proofread your abstract several times - submit your very best work.
4. A good abstract is usually followed by a good paper. The opposite also tends to be true.
5. A reader does not want to wade through complicated and unfamiliar terms in the abstract.
6. Know your audience and target your abstract accordingly.
7. Have a peer read your abstract and then tell you what your research is about. If he or she has difficulty explaining your research, chances are your abstract requires revision.

How to Structure an Abstract

Many of the following suggestions come from the American National Standard for Writing Abstracts published by the Council of National Library and Information Associations.

Explain the purpose of your study/paper. Ideally in one sentence, state the primary objectives and scope of the study or the reasons why the document was written. Also state the rationale for your research. Why did you do the research? Is the topic you are researching an ignored or newly discovered one? In terms of methodology (research methods), clearly state the techniques or approaches used in your study. For papers concerned with non-experimental work (such as those in the humanities, some social sciences, and the fine arts) describe your sources and your use/interpretation of the sources. Describe your results (the findings of your experimentation), the data collected, and effects observed as informatively and concisely as possible. These results may be experimental or theoretical, just remember to make note of that in your abstract. Give special priority in your abstract to new and verified findings that contradict previous theories. Mention any limits to the accuracy or reliability of your findings.

Your conclusions should in essence describe the implications of the results: Why are the results of your study important to your field and how do they relate to the purpose of your investigation? Often conclusions.

A good abstract should contain these elements

Statement of the purpose of your study the research methods/methodology used to arrive at your results and/or conclusions the results observed the conclusions drawn from your study these elements do not necessarily have to be presented in the order shown above. How the elements are sequenced in your abstract

depends on the audience for whom the abstract is intended. For example, if the audience is exclusively or mainly interested in quickly applying new knowledge, then perhaps you would want to place your most important conclusions and results first, followed by the purpose of the study, methodology, and other findings and details.

Abstracts in the humanities and social sciences should also contain the above elements. All research; be it in the sciences or the humanities should have a stated purpose. Research methods in social sciences may differ substantially from the experimental methods of physical sciences but an abstract, whatever the discipline, must address the methodology of the research. Studies in the humanities and social sciences find results and draw conclusions; these results and conclusions must be included in the corresponding abstract.

Previous study

This study entitled an exploration of interactive metadiscoursal markers in academic research article in two disciplines, by Mohsen Khedri, Chan Swee Heng and Seyed Foad Ebrahimi University Putra Malaysia, 2013. The study aimed to explore how interactive metadiscoursal markers are deployed by research article abstract writers belonging to different disciplinary communities within the soft sciences, while trying to reach the audience by creating a well-organized discourse. Hyland's (2005) interpersonal model of Meta discourse was adopted to analyze 60 research article abstracts written in Applied Linguistics and Economics. A generic analysis of research article abstracts can cover issues of different types; among them are linguistic features. An integral part of linguistic features of research article abstracts is interactive metadiscoursal usage that can assist to make the text persuasive and unfolding to a discourse community. The main principle behind applying interactive metadiscoursal is the view of writing as socially engaging; specifically, it indicates the ways writers project themselves

into their arguments to declare their attitudes and commitments to the readers. Based on the results, there were marked variations found across the two disciplines in terms of interactive Meta discourse markers.

The Analysis of the Data

It is well known that qualitative data analysis is a combination of both coding down and coding up the main theme and motifs of the study. Induction implies that all themes are emergent from the data; deduction implies that all themes are predetermined. Nevertheless, these differences, to be able to identify themes, patterns, and categories and to record notes and assign codes, there is no substitute for immersion in the data.

Continues reading of a text multiple times enable readers to identify important themes that the researchers are looking for. Focusing on the irrelevant points in a text with each subsequent read may reveal new or less obvious themes. The researchers read many abstracts and found out the problematic areas that included in the statement of the problem of the research.

The researchers examined the parts of the selected abstracts in which the contents

have not been associated with the contents of a proper content of abstract in which the following should be included. The following conventions of writing abstract are examined of the selected sample abstracts; it should explain and reflect the purpose and content of the research. What the researchers got out from the selected sample did not satisfy this requirement, so there have not been written according to the common method and way of writing abstract. A good abstract explains concisely the central issue or problem of the research that a researcher write about. All the sample failed to satisfy this requirement. Also abstract must summarize the research's most important points which are the main concerns of the study, the methods that has been followed, the main finding

as well as the main recommendations. In surveying the selected sample abstracts, the researchers found out that the majority of them weren't according the requirement. The major sources were not mentioned by the researchers. The conclusions were not Stated clearly. The abstracts were not well connected, so the unity of the paragraphs were lost, so they weren't easy to read. Moreover, the majority of the abstract were not objective in their standpoint.

To conclude this study, the researcher would like to answer the questions of the study which are: What are the global requirements of accepted contents of the abstract? To what extend do the candidate use the suitable discourse markers when writing the abstracts? And to what extents writing abstract is difference according to the nature of the field of the study?

Question one which that is about the requirements the abstract that is important for the abstract to be accepted as an abstract. A proper abstract always begins with a statement of the topic of the article or what the study is about in a broad sense. 70% of the selected ample do not satisfy this requirement. Also a good abstract must explain why it gets on this particular study which is not answered by the selected sample abstracts. The abstract writer must make reference to a gap or debate in the literature or a particular "problem" that has been addressed. It also tells the audiences how the study was organized and the methodology that is followed by the researchers. Finally, findings or what the data showed must be mentioned as well as the recommendations of the study. The majority of the selected abstract did not satisfy the above mentioned requirements which are very essential in writing a proper abstract. The researchers do not use the suitable discourse markers when writing the abstracts that make it improper way of writing a good abstract. Moreover, they don't differentiate writing abstract according to the nature of the field of the study.

Conclusion

According to what has been written about the challenges that face Sudanese researchers in abstract writing in term of contents, coherence, and cohesive devices we could say that, the textual analysis technique and contents analysis of the data revealed that 70% of the selected ample do not satisfy the requirements that make proper abstract. The selected sample of the abstracts do not explain why it get on this particular study which is not answered by the selected sample abstracts, how the study was organized and the methodology that is followed by the researchers. Findings or what the data showed must be mentioned as well as the recommendations of the study. The majority of the selected abstract do not satisfy the requirements which are very essential in writing a proper abstract. The researchers do not use the suitable discourse markers when writing the abstracts that make it improper way of writing a good abstract. Moreover, they don't differentiate writing abstract according to the nature of the field of the study. Based on the results of the study, the researchers recommend that Sudanese researcher should have to study the way abstracts are written so as to become outstanding when writing abstract.

References

David Crystal (2008:3) a Dictionary of Linguistics and Phonetics 6th Edition, Blackwell.

Kirya Ahmed Mohammed Nasr (2016) Scientific Research Methods, Open University of Sudan press.

Nigel Fabb and Alan Durant (2005) How to Write Essays and Dissertations: A Guide for English Literature Students, second edition, Pearson Education Limited 1993, 2005 –Longman

Koopman, Phil. (2010)How to Write an Abstract
<http://www.ece.cmu.edu/~koopman/essays/abstract.html> accessed 12 December 2010
 University of North Carolina Abstracts

<http://www.unc.edu/depts/wcweb/handouts/abstracts.html> accessed 12 December 2010

William T. Jerome () TLC@bgsu.edu, www.bgsu.edu/LearningCommons/WritingCentre(2014) Writing an Abstract , Level 3 East, Hub Central North Terrace campus, The University of Adelaide ph. +61 8 8313 3021 writingcentre@adelaide.edu.au

www.services.unimelb.edu.au/academicskills, 13 MELB, academic-skills@unimelb.edu.au

https://www.unlv.edu/sites/default/files/page_files/27/OUR

AbstractInstructions.pdf <http://writingcenter.unc.edu/tips-and-tools/abstracts/>

UNLV Undergraduate Research.

Mark C. Griffin, Writing the Thesis, Department of Anthropology, San Francisco State University, San Francisco, California 94132-4155.

<http://online.sfsu.edu/~mgriffin>

<http://www.unc.edu/depts/wcweb/handouts/abstracts.html>)

Linguistic justice, the concept, ways of development

العدالة اللغوية، المفهوم، طرق التطوير

Ftaich abdelilah faculté des langues et lettre et art , université ibn Tofail, Kénitra, Morocco

Gmail : ftaich.abdelilah@gmail.com

Abstract

This article deals with the concept of linguistic justice in relation to the theoretical references framed by it and its relation to linguistic policy and the issues of multilingualism, the article is part of the sociology of linguistics which draws on the linguistic , political, economic and legal sciences and aims to crystallize the concept of linguistic justice and its applications in policies language.

The idea of linguistic justice is new to arab culture to a larg extent; including morocco in particular. This article attempts to crystallize this concept and incorporate it into the context of sociology and to show the application of justice to linguistic issues, which will necessarily address concepts such as language policy and multilingualism the main purpose of this article is to present the linguistic situation in order to approach linguistic justice in its roots, problems and virtual solutions.

Keywords: language policy, linguistic justice, language, multilingualism.

ملخص:

يتناول هذا المقال مفهوم العدالة اللغوية في علاقتها بالمرجعيات النظرية المؤطرة بها وعلاقتها بالسياسة اللغوية وقضايا التعددية اللغوية، والمقال جزء من علم اللسانيات الاجتماعية الذي يعتمد على العلوم اللغوية والسياسية والاقتصادية والقانونية ويهدف إلى بلورة مفهوم العدالة اللغوية وتطبيقاتها في السياسات اللغوية. فكرة العدالة اللغوية جديدة على الثقافة العربية إلى حد كبير. بما في ذلك المغرب على وجه الخصوص. تحاول هذه المقالة بلورة هذا المفهوم ودمجها في سياق علم الاجتماع وإظهار تطبيق العدالة على القضايا اللغوية ، والتي ستتناول بالضرورة مفاهيم مثل السياسة اللغوية وتعدد اللغات الغرض الرئيسي من هذا المقال هو عرض الوضع اللغوي من أجل مقارنة العدالة اللغوية في جذورها ، المشاكل والحلول الاقتراضية. الكلمات المفتاحية: السياسة اللغوية، العدالة اللغوية، اللغة، تعدد اللغات.

It may be useful to say in its introduction that addressing the issue of linguistic justice is not easy because of the novelty of the term use and deliberation, or in terms of the concept, which is still surrounded by some confusion and ambiguity.

However, despite the novelty of the term and its attractiveness, the researcher realizes that it is subject to study and identification, the scholar sees the issue of justice in its social and moral dimensions. It has occupied the wise men and philosophers since ancient times, the Greeks dealt with the philosophy of justice, and entered the civil situation or what the social situation is known according to the theories of social contract and political sociology, but intellectuals did not care about linguistic justice or its status as applied or applied to languages only recently.

It seems that the philosophers and the politicians were preoccupied with the issue of cultural justice or the priority of cultural rights before the term of linguistic justice, so it can be said that the question of languages has always been addressed in public discourse dealing with the concept of culture.

From this point of view, the subject of linguistic justice is new to the Moroccan cultural system, from a philosophical, legal and intellectual perspective it is in its embryonic stage. We do not exaggerate if we confirm that it is still in the process of crystallizing and forming even in the western liberal cultures themselves. The term was not mentioned in the arab world except in a few writings that revolve around the dissection of the linguistic justice has not been achieved so far and did not know the accumulation of theoretical knowledge of the great image of other contemporary knowledge in the context of globalization and the development of information technologies.

Therefore, we have to extend the concepts of linguistic, and language to study it, and to show the relations between them and their practice in pluralistic societies

so that we can overcome some of the classic definitions of those terms, which undoubtedly expanded research and saturated analysis over successive eras.

This implicitly implies that we will highlight the applications of justice to linguistic issues, which necessarily necessitates addressing similar or neutral concepts such as linguistic rights, linguistic citizenship, and linguistic tolerance these are terms that have become the surface of contemporary cultural and economic pluralism as they relate to different spheres of life.

The problematic questions associated with this article can be summarized as follows what is the extent to which the principle of linguistic justice is reflected in reality, and how do we compare different languages in their ability to absorb all the latest development in life ?

Is it not ironic that in the era of globalization, in which monolithic linguistic domination is devoted to the whole world, lites call for pluralism that leads to rupture instead of circumventing as strong arabic language that has the best reasons to challenge language domination.

I- Definition of the term linguistic justic

The scholarly approach prevailed, and the strictness of the scientific method necessitated that when the researcher carried out an issue or sought to highlight the phenomenon, whatever its nature, it would first define the concepts that refer to the key terms to clarify the vision and dispel the fog of the path.

Ibn Manzoor says that: "justice is what he has in mind that he is upright" it means equitable appreciation, recognition and respect for rights and what everyone deserves, which leads to giving one something and taking what is on it, that is justice is to give everyone his right, or to put things in their rightful place.

Justice means that rights holders are entitled to rights because rights are vulnerable to attacks, violations and adversities because they are linked to the protection of the human self, and therefore we recognize that the administration of justice is not easy to deal with the circumstances of the meeting and the conditions of the repercussions of justice means in its popular and common use among people to stand at one distance towards the members of society without prejudice to one party at onether expense in accordance with predetermined rules and principles, namely equal opportunity in the distribution of income and wealth and resistance to all forms of class inequality, exploitation, poverty, and developing solidarity between the people of the homeland and perhaps does not exclude this description linguistic justice that we are analysing.

What concerns us in the the concepts of justice in this endeavor are those that focus an the grounds that justice is a pattern of social or political relations undr which every person or group is treated on an equal basis, based on the prevailing system of values in society.

Accordingly, linguistic rights should be distinguished between the personal rights of individuals and collective rights belonging to ethnic or national groups living under one state. Thus, specialists in the legal field continue to fin dit difficult to make, linguistic rights a separate branch within the legal and political disciplines. Therefore, they approach this article with legal concepts, particularly the rights of minorities which include linguistic rights. It also leads us to say that linguistic justice among individuals, the mechanism by which justice is achieved between the language that establish the public landscape of a state by adopting a pluralistic language policy that recognizes the right of every language group to use its language in the geographical space it occupies within the state or along the presence of speakers on the basis of linguistic distribution of members of society on the basis of recognition of equal rights and duties, and on the basis of linguistic cultural contract between the state and the citizen.

One of the first to be exposed to the term linguistic justice in the field of political philosophical studies is philippe Van Parijjs, and then to neighboring knowldege sectors.

In his opinion, Parijjs that linguistic justice is based on the pillars are:

- Recognition of linguistic deversity within the boundaries of the state, and the symbolic affirmation of the equality of languages.
- Adopting a common language that communicates among all citizens of the country, called Parijjs "lingua Franca"

- The possession of citizens of the state residing in the regions of minorities courage and humility to learn the official local languages according to the principle of regionalism in those territories.
- Adopting the principle of regional linguism, which is based on the recognition of the right of each linguistic group to use its tongue within the borders of its territory.

For his part, Parigis sought linguistic justice for Europe and for the world he had prepared for this purpose, he illustrated the images of injustice related to linguistic diversity, the most important of which was the hegemony of English in Europe and the world. He also presented a set of principles which he considered to be applicable and capable of achieving, the premise is that justice linguistic.

Language is a participative and distributional justice designed to preserve dignity and equality between languages, which leads to:

- To manage the diverse linguistic situation in the society smoothly, wisely and objectively so as not to raise the sensitivity between the center and the margin.
- The recognition of the other and the adoption of their rights must not be treated as temporary or special settlements of certain problems. Rather, they must be considered as basic obligations and rights required to achieve justice. In essence do not look for grounds stability.
- The prevalence of stability in society, which positively reflects on the overall development of the nation-state.

The complement this concept, the concept of language should be devoid of definitions that have been emphasized as the optimal means of communication that express a particular identity as not the expression of the conscience that enters into the concept of idealism, but rather the same conscience.

This means that the language carries in its assemblage, its vocal system and so on the history of the group that speaks and its relations with the other groups, and the nature of these relations and the place of the speakers among the geographical movements and vital activity.

All this leaves traces and imprints in the language that is the first source of knowledge acquisition and control investment and conversion and significant determinant in the identification of the individual so that the language is not fixed, but change and turn over time.

II- The philosophical reference of linguistic justice:

If we try to determine the framework governing the idea of linguistic justice we find it takes reference from the fields of knowledge, many of which are entirely human and social sciences, and we will note that the interest of politicians in the issue of justice and linguistic rights of communities living in the space of the state of the new one dates back to the nineties of the last century and the decade the first of the third millennium, this issue has not received this care only after many conflicts of linguistic origin in many regions of the world as the search for linguistic homogeneity usually associated with the establishment of nation-states after the disappearance of the phenomenon of colonialism and the interest began to crystallize in a political theory dealing with language according to a democratic vision pluralism that recognizes diversity and preserves the unity of society and the state.

In addition to the above, the positions presented on the issue of linguistic diversity and the proposals that tried to solve its problems in order to achieve harmony within the nation state fall into a broader and more comprehensive format called the post-modernist trend, which resulted in state- building operations and the transition to multi-lingual and multicultural citizenship, in

which justice was founded on two pillars: freedom, and equality in the individual and collective cultural language rights of all citizens of the state.

But such a scenario remains largely theoretical, because the competition between linguistic entities in societies remains a reality that can not be concealed or denied. Language policy becomes a philosophy that works to balance conflicting language groups. These linguistic and national mosaic in the absence of social justice and awarances civilizational and social factors should be a factor in the threat of national security and destabilization.

In the middle of the 20th century, the world began to grow up to the struggles of oppressed peoples and nations that sought to eliminate backwardness in various fields and to achieve the social justice that was absent in the colonial era, such as replacing the colonial language with the language of the colonizer which consists of the entity of the independent state that its languages have an official presence free of folklore, and celebrate it as a mere heritage of the festivals, which means that multilingualism becomes a way to celebrate cultural diversity.

These ideas are echoed within a general philosophical framework known as distributive justice, which was based on aristote view that evil was produced by poor distribution, thus plays an essential role in the stability of developed societies it encompasses all areas that improve human life and dignity, especially in the political and social spheres. Distributive justice is the basis of social justice, under which justice is viewed as a political theory rather than a moral philosophy, thanks to John Rawls fingerprint and the enrichment of W. Kymlicka. The theory of cultural rights presented by W. Kymlicka is the most important one in which an approach is adopted that tries to answer the absence of cultural justice or cultural injustice. It is axiomatic when evaluating the normative foundations for the protection of tongues to address the issue of linguistic justice through theories of justice.

It should be noted here that language policy levers create a plan to regulate the use of staff languages by clearly defining common language functions, defining the roles of languages with an ethnic dimension, and opening language functions to avoid confrontations or decomposition. It is well known in this context that this language policy is the result of a community project, and how the society determines its future based on the institutions that are available to it. This policy must be based on the principles of total national cultural identity, local or regional ethnic diversity, and knowledge which is meant to learn foreign language, which should not become a break from identity, but a means of transmission of knowledge and the benefit of thought, which did not know how to benefit from all that is crowded around him, although it has a model in his heritage.

III- multilingualism and linguistic justice

The analyst will find the components of societies and their different structures, wheter in terms of ethnicity, affiliation or otherwise, that it is difficult to find a society characterized by absolute unilateralism is a fact and characteristical all societies and every rational language policy should work to confirm, refine and guide rather than fight it.

Although pluralism in most human societies is a feature of a living society, as various types of interrelationship appear to be interrelated and stable, it sometimes seems fragile and time- limited due to the friction generated by linguistic conflict. Which arises among language groups to adopt or impose the use of a language on many speakers in other languages.

There is no doubt that this policy of dictation and pressure, wheter it is the expected result of a pre-planned or inevitable language policy dictated by other emergency social factors, is the legacy of a number of chalenges to the integrity of the social structure. Linguistic rationality put in her vision and calculated his strategy is linguistic justice that takes into account the rights of language groups and respect for the common language adopted by the state.

Therefore, we tend to define multilingualis as a group of languages that exist in a different society of the system and the structure lived side by side and used by a particular group, and that the occurrence of that coexistence either natural or by friction or colonization or all that leads to the emergence of more in use within the community, unbalanced monogonal language causes the reactions go to the extent of taking positions in the opposite direction. It is also necessary to point out that pluralism is a feature of unity and reunification not a project to tear apart all components of society that are reflected in its fabric.

David Crystal imagined the time when English would dominate the world and become the only language of communication, and concluded that this would be the greatest disaster mankind has known in history. The strange thing is that the question of the extinction of languages does not mean the disappearance of a communication apparatus, but rather the disappearance of a nation and the loss of a culture, and the loss of data for psychologists and specialists interested in the relationship between language and thought, and thus the loss of the ethics of the group speaking and all that gives us an idea of their experiences in their lives and their perception reality and the world.

Thus, every language of death deprives us of discovering a specific pattern of organizations of the human mind as they combine linguistic, psychological and cognitive components because they carry within in the characteristics unique and rare extract from the momentum of human heritage. Hence the phenomenon of loss of language of appearances that do not differ very much the reality of the extinction of animals and rare species of birds or plants.

However, the forms presented by this understanding of language and linguistic justice on the ground are difficult to achieve procedurally given the disparity between languages in various aspects, the number of speakers in each of these languages, their qualifications, their ability to absorb scientific and social developments, re-represent them and the historical heritage of some of them, and the balance that works to enhance their ability to confront current civilizational challenges, because the power of language is of the power of its speakers.

Nevertheless, these questions are on obstacle and a major obstacle to the linguistic justice desired in a particular society. The leading global experiences in our modern world have shown many of the gaps that have accompanied the application of this justice, as we have done in Switzerland, Canada, Belgium, Russia, Turkey and Spain and others.

Therefore, despite the abundance of legal texts regulating the linguistic space in these countries, the dominance of one language over the other languages remains an undeniable reality, an issue that refers us to the problem of justice in its principles.

VI- Politics and linguistic justice

Linguistic policy is the official language that plans to create a particular language in multilingual societies, making a particular language an official language in the power of law and the constitution. But the question is : what is the relationship between language policy and linguistic justice ?

There is no doubt that we are close to each other, because a multilingual society may dominate one language over another without law or protection of unfair law and inequality, and thus persecute social minorities or at least feel injustice because they are deprived of their language. Part of the community is dysfunctional because of the lack of equal opportunity to learn the languages of the society or to feel marginalized by one of them in which a class speaks, or does not take a position worthy of it, which requires it to ask the authorities to intervene and often struggle for its language the presence of two or more languages at two contradictory levels or the presence of one of them in a higher position may prompt the political authority to seek linguistic balance or linguistic justice.

This will require the development of a language policy based on the management and treatment of language in the national state to establish a common language for all. It will be circulated in accordance with other languages within the same society. This community will preserve its unity and existence without conviction. So do not which is unjust to some components of the society and some of its structures and institutions. Hence, we recognize that linguistic management in the light of linguistic justice does not mean abandoning the common language that is supposed to be accepted by the political, economic, social and cultural circles.

Moreover, the language policy aims to develop programs, projects and laws for the languages of the community so that one does not advance or develop at the expense of the other, the multilingual society needs to determine the relationship between the languages spoken, that is the common official national language dialects and other foreign languages.

The linguistic policy aims to creating linguistic reality in a way that suits modern civilization and new systems, planing to build the relations desired in the state

and its relations with the world and the other. Its objectives are to reduce contradictions and facilitate communication. And communication within the state or between linguistic groups. There is no doubt that this policy will establish justice among different linguistic groups, and find their differences and conflicts before they exist and even if they exist. It also aims to use two or more languages in all cases, or to limit it to a specific language. This determination is clear by legal provisions specifying the language used in the various community areas.

On the other hand, the adoption of an adult language policy takes into account the multiple linguistic features and works to contain a scientific plan based on recognition and embodiment on the ground by programs and plans that make one feel the realization of citizenship based on respect for linguistic identity. Which would result in a socially stable state. We do not attempt to reduce all societal problems by their diversity and complexity in the linguistic question. Rather, our purpose is to show the importance of the linguistic factor in such cases. Therefore, we must safeguard the major questions that concern the collective consciousness of nations.

The pivotal role of language in social life and its value as a means of reaching the highest centers of power and influence, as well as its symbolic value in the formation of social elites and in the consolidation of ethnic identity provides the speakers and linguistic and political groups an appropriate atmosphere for the success of their linguistic planning is no doubt that linguistic justice will be a fruitful outcome and it will solve many problems of linguistic origin in society.

References

- Cooper, R. (1989). *Language planning and social change*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

- De Korne, H. (2010). Indigenous language education policy: Supporting community-controlled immersion in Canada and the US. *Language Policy* 9(2), 115-141.
- Fishman, J. (1980). The sociology of bilingual education. Lectures at the University of New Mexico, Albuquerque. Cited in N. Hornberger (1988). *Bilingual education and language maintenance*. Providence, RI: Foris Publications.
- John Edwards, *Language, Society and Identity* (Oxford, UK: Blackwell, 1985);
- John Rawls, *A Theory of Justice* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971).
- Kymlicka, W. et A. Patten (sous la dir.) (2003). *Language Rights and Political Theory*. Oxford : Oxford University Press.
- Spolsky, B. (2004). *Language policy*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- Tollefson, J. (1991). *Planning language, planning inequality*. London, UK: Longman.
- VAN PARIJS, Philippe. 2011. *Linguistic Justice for Europe and for the World*. Oxford University Press.

المسرح كوسيلة تعليمية لتنمية المهارات اللغوية للمتعلمين

Theater as a didactic tool to develop language skills of learners

Touria MOUKATE, Doctorante (Université Ibn Tofail Maroc) touria.moukate@uit.ac.ma

Mounia BENAMEUR, Professeur de l'enseignement supérieur (Université Ibn Tofail,
Maroc)

mounia.benameur@uit.ac.ma

ملخص:

يعد تطوير المهارات اللغوية الشفهية أحد أهداف تدريس اللغة الفرنسية في المرحلة الابتدائية. في هذه المساهمة، سنستعمل المسرح كوسيلة تعليمية تربوية وترفيهية لبناء التعلمات وكأداة لعلاج الصعوبات المرتبطة بالفهم والتعبير.

هدفنا هو معرفة كيف يمكن للأششطة المسرحية تطوير قدرة المتعلمين على التعبير اللفظي وغير اللفظي

واستخدامها للتواصل.

كلمات مفتاحية:

التواصل غير اللفظي، المهارات اللغوية، التواصل اللفظي، تعليم وتعلم اللغة الفرنسية، الأداة التعليمية، الممارسات المسرحية،

Abstract –

The development of oral language skills is one of the objectives of teaching French in the primary cycle. In this contribution, we have exploited theater as a playful didactic tool for learning and for remediation of difficulties related to the comprehension and production of oral.

Our objective is to see how theatrical activities could develop the learner's ability to understand the different modes of verbal and non-verbal communication and to use them to communicate.

Key words - non-verbal communication, language skill, verbal communication, teaching learning french, didactic tool, theatrical practices,

Introduction

L'enseignement apprentissage de la langue française au Maroc commence dès la deuxième année du primaire, c'est-à-dire que l'apprenant découvre la langue de Molière en même temps qu'il découvre la langue officielle, à savoir l'arabe standard.

La masse horaire consacrée au français est de huit heures par semaine, cependant, à la fin des études primaires, on est devant un constat inquiétant. Nos apprenants sont incapables de communiquer en français car beaucoup d'entre eux ont encore des difficultés en matière de maîtrise de la langue française. Selon une étude réalisée par l'PNEA¹ en 2019, « 41% des élèves n'ont pas acquis, au cours des années antérieures, les ressources linguistiques requises pour poursuivre les cours de français prescrit en 6ème année primaire et seuls 12% ont assimilé la totalité dudit programme. »

Ce constat nous pousse à nous demander s'il n'est pas judicieux de diversifier les méthodes d'enseignement/apprentissage de la langue française en adoptant des méthodes et des pédagogies nouvelles dans lesquelles l'apprenant pourra apprendre tout en s'amusant.

L'objectif de cette recherche est celui de suggérer d'autres pistes et d'autres outils d'apprentissage de la langue en vue du développement des compétences langagières des apprenants. Des moyens d'enseignement, différents, qui changent de la monotonie de la classe du FLE et qui créent un lieu et un espace d'apprentissage où l'apprenant ne sent pas les contraintes du cours de langue et où l'enseignement apprentissage et synonyme de plaisir. Nous faisons allusion au théâtre comme nouveau vecteur d'apprentissage.

L'objet de l'étude réside dans la corrélation entre l'enseignement du français par le théâtre et le développement des compétences langagières orales chez les

Programme National d'Evaluation des Acquis des élèves de la 6^{ème} année du primaire et de la 3^{ème} année¹ du secondaire collégial, 2019, p19.

apprenants. Nous allons essayer de voir comment les activités théâtrales, lorsqu'elles sont utilisées comme outil didactique authentique, pourraient améliorer la compréhension et la production orales chez les apprenants ?

Pourquoi une approche par le jeu ?

Le jeu est universel, il est propre à tous les groupes sociaux et toutes les civilisations. Dans toutes les sociétés et les cultures, le jeu a toujours fait partie de la vie de l'enfant.

Dans son livre « jouer/apprendre », Brougère met en avant la relation étroite entre le jeu et l'apprentissage « *C'est dans le jeu que l'enfant apprend et apprend à apprendre* »² (Delory-Momberger: 2006), ainsi, il attribue au jeu un rôle fonctionnel en le considérant comme un outil de développement de l'enfant et un support d'apprentissage.

Dans cette contribution nous avons choisi le jeu de rôle comme outil et vecteur d'apprentissage. Le jeu de rôle n'est pas méconnu des enfants car depuis leur bas âge, ils ont tendance à imiter leur entourage (parents, animaux ou autre), à imaginer des personnages ou des êtres fictifs (princesse, sorcière, dragon...) et à créer des situations imaginaires (jouer à la maman, faire les courses...).

Notre but est de mettre les apprenants dans des situations d'apprentissage dans lesquelles ils vont apprendre tout en s'amusant. Nous avons ciblé deux aspects de la communication orale : la communication verbale et la communication non verbale.

Nous allons donc essayer de voir comment la pratique théâtrale, à travers les jeux de rôle, pourrait contribuer au développement des compétences

Christine Delory-Momberger, "G. Brougère. *Jouer/Apprendre*", *L'orientation scolaire et professionnelle* [Online], 35/3 | 2006, Online since 28 September 2009, connection on 31 August 2023. URL: <http://journals.openedition.org/osp/1033>; DOI: <https://doi.org/10.4000/osp.1033>

langagières verbale et non verbale des apprenants ? Quelles sont les autres compétences qu'on peut travailler grâce aux activités de jeux de rôle ?

Etat des lieux

A l'école marocaine, le cours de théâtre n'existe pas en tant que matière indépendante et à part entière. Cependant, nulle ne peut nier que les activités théâtrales peuvent être des supports d'acquisition d'apprentissages et de développement de compétences forts si elles sont pensées, organisées et utilisées comme un outil pédagogique.

C'est à partir de cette conviction que nous avons décidé de mener cette recherche en mettant en place un projet d'école : il s'agit d'un atelier théâtre spécifique aux apprenants de la 6^{ème} AEP³ de l'école où je travaille. Il vise le soutien, le renforcement des apprentissages et le développement des compétences langagières orales des apprenants.

1. La mise en place du projet

Il était prévu que le projet débute en septembre 2020, seulement, il a été retardé à cause de la pandémie du Covid-19 qui a perturbé les modes d'enseignement et déstabilisé les pratiques pédagogiques dans le monde entier.

Après la fermeture des établissements scolaires en mars 2020 et le recours à l'enseignement à distance auquel un grand nombre d'apprenants n'ont pas pu accéder, la rentrée scolaire 2020/2021 a marqué le retour au présentiel malgré la situation catastrophique de la pandémie. Ce choix était fait par les parents d'élèves suite à leur mauvaise expérience avec l'enseignement à distance.

Pour ce fait, un protocole sanitaire ainsi que plusieurs mesures ont été mis en place avant et après la reprise des cours : l'obligation du port du masque, l'interdiction du groupement des élèves en grand nombre et le respect de la distanciation physique d'un mètre.

³ 6^{ème} année de l'enseignement primaire

Afin de respecter cette distanciation et surtout dans les salles de classe, certaines écoles, y compris la nôtre, ont dû diviser les élèves en trois groupes, ainsi les apprenants bénéficiaient d'un enseignement alterné : deux jours de présentiel et quatre jours d'auto-apprentissage à la maison.

Telles étaient les circonstances et les raisons qui ont retardé le projet de « l'atelier théâtre ». Nous avons donc dû attendre jusqu'au mois de février pour commencer, et bien sûr, nous avons fait en sorte de prendre en considération toutes les mesures de prévention sanitaire pour le bien de tous. Ainsi le nombre d'élèves par groupe ne dépassait pas 12 apprenants, ils devaient tous porter des masques et surtout respecter la distanciation.

2. Les techniques d'investigation entreprises

Tout travail de terrain exige des techniques d'investigation empiriques. Concernant le nôtre, et pour le mener à bon terme, nous avons eu recours aux techniques d'investigation suivantes :

2.1. Le pré-test (Annexe 1)

Même si le but de l'atelier théâtre que nous avons créé n'est pas « d'enseigner le théâtre » mais plutôt d'« enseigner par le théâtre », les apprenants seront appelés, à travers les diverses activités de l'atelier théâtre, à utiliser un lexique spécifique au théâtre. Nous avons donc estimé important d'évaluer leurs connaissances antérieures en lien avec le lexique en question par un pré-test. Le même pré-test sera administré à la fin de l'atelier pour voir l'évolution de leurs acquis.

L'atelier théâtre sera utilisé comme outil didactique pour travailler les outils de la langue à savoir certaines règles grammaticales et lexicales relatives au programme de la 6^{ème} AEP. Nous avons donc administré un deuxième pré-test pour évaluer les acquis antérieurs des apprenants concernant les règles linguistiques en question.

2.2. L'observation directe

C'est une technique d'investigation qui nous permet d'observer les acteurs en temps réel. De recueillir des données à la lumière desquelles nous avons pu revoir nos choix pédagogiques, conserver quelques uns et modifier d'autres.

2.3. L'enregistrement audio et vidéo d'un corpus varié

Ces supports nous ont permis de repérer l'évolution des prestations des apprenants sur tous les niveaux des compétences ciblées au préalable, mais surtout de s'arrêter sur les difficultés, les classer et les analyser en vue d'une correction ultérieure ce qui réduira les écarts entre les apprenants.

2.4. Fiches d'auto-évaluation (Annexe 2)

Ce processus permet à l'apprenant de réfléchir à son propre apprentissage, de repérer ses difficultés et d'évaluer lui-même sa propre prestation ainsi que sa progression. Il pourra aussi évaluer le travail de son groupe et celui des autres. A la fin, il donnera son appréciation sur les activités proposées tout au long de cet atelier.

3. Lieu d'investigation

Il s'agit d'une école publique à la ville de Meknès, lieu où je travaille. Elle est située au périphérique d'un quartier populaire. Elle accueille un grand nombre d'élèves issus de milieu défavorisé. Un grand nombre d'entre eux vivaient dans les bidonvilles de la ville de Meknès. Ils ont été relogés dans ce quartier grâce aux efforts de l'état pour combattre l'habitat insalubre. Ils sont issus de familles modestes, des parents exerçant des métiers précaires (serveur, vendeur ambulant, femme de ménage...)

4. Le public cible

Le public cible était les apprenants de la 6^{ème} AEP. Dans l'établissement, il y avait trois classes de 6^{ème} année de 36 apprenants chacune. Au début, notre projet consistait à soutenir les apprenants ayant des difficultés par le biais d'activités théâtrales. J'ai donc demandé aux enseignants de français des autres groupes de

la 6^{ème} d'élaborer une liste des apprenants en difficultés et de leur expliquer le concept.

Seulement, lorsque les professeurs ont parlé du projet aux apprenants, même ceux qui n'avaient pas beaucoup de difficultés étaient enthousiastes pour participer à l'expérience. Nous avons fini par les intégrer aux groupes.

L'idée de former des groupes de classes différentes nous a permis de diversifier les stratégies d'enseignement/ apprentissage et d'adopter diverses pédagogies telle que la pédagogie de groupe.

« On appelle pédagogie de groupe celle qui s'exerce avec des groupes qui ne sont pas de la même classe, au sens habituel du mot. Les groupes résultent, soit de la partition d'une classe en plusieurs sous-ensembles, soit de l'association d'élèves qui n'appartiennent pas habituellement à la même classe. »⁴ (Raynal et Rieunier: 1997, 213)

5. Modalité d la mise en œuvre de l'atelier théâtre

5.1. La constitution des groupes

Etant moi-même enseignante qui exerce depuis plus de vingt ans, pendant lesquelles j'ai souvent enseigné la langue française aux apprenants de la sixième année du primaire. De ce fait, je connaissais les compétences relatives aux apprenants de la 6^{ème} AEP ainsi que les difficultés qui entravent leur apprentissage. Pour (Tardif et Lessard) (1999)⁵, l'expérience de l'enseignant joue un rôle sur sa flexibilité, sa souplesse et sa gestion du temps; sa connaissance du programme d'études influence les priorités qu'il arrive à établir et à sa répartition chronologique des contenus.

D'une autre part, j'ai déjà eu recours au théâtre dans le passé. Je connaissais donc l'intérêt qu'il apporte aux apprenants et son impact sur les

Raynal. F, Rieunier. A. (1997), *Pédagogie : dictionnaire des concepts clés*, Paris : ESF éditeur, p 213⁴
Tardif, M., & Lessard, C. (1999), *Le travail enseignant au quotidien: expérience, interactions humaines*⁵
et dilemmes professionnels. Presses Université Laval.

apprentissages. Ainsi et pour un bon déroulement de l'atelier théâtre, il a fallu limiter le nombre de participants. Mais vu la demande pressante des apprenants, nous avons dû constituer quatre groupes. Nous avons accueilli cinquante apprenants des trois classes de la 6^{ème} AEP.

Pour travailler dans des conditions sanitaires et éducatives favorables, et pour que tous les apprenants intéressés par cet atelier puissent y participer, nous avons décidé de former quatre groupes. Chaque groupe va bénéficier d'une séance par semaine d'une durée de deux heures. Les objectifs attendus de chaque groupe seront les mêmes, seul le support didactique qui changera.

Le tableau ci-dessous présente les données du projet :

Tableau 1 : données du projet

Nombre de groupes	4
Nombre d'apprenants par groupe	12
Durée du projet	12 semaines
Nombre de séances par groupe	12
Durée de la séance	2 heures
Temps du déroulement	Du 15 février au 06 juin 2021
Titres des pièces choisies	- Le goûter - La cage au lion - Vous les hommes !

5.2. . L'aménagement de la salle

Puisque l'école ne dispose pas de salle de théâtre, nous nous sommes contentés d'utiliser une simple salle de classe qui servait comme débarras. Avec l'aide du directeur de l'établissement, nous avons fait en sorte de la vider, d'y mettre un tableau, quelques tables et des rideaux pour l'utiliser comme espace de travail.

Nous avons donc disposé les tables sous forme d'un demi-cercle afin de garder, au milieu, un espace vide pour les jeux de dramatisation.

6. Scénario pédagogique

6.1. Introduire une approche ludique en classe de FLE à travers une pratique théâtrale

L'apprentissage d'une langue ne se fait pas seulement par une mémorisation de règles grammaticale, lexicale ou orthographique ou par la réalisation d'une multitude d'exercices écrits. Pour une acquisition efficace et réelle, l'apprenant doit mettre en pratique ses acquis linguistiques dans des situations concrètes ou similaires à la vie réelle. Chose qui va le préparer à sa vie future, selon Huizinga , « *la vie sociale se passe en grande partie en jeux.* »⁶ (Di Filippo, 2014). D'où l'importance d'introduire les activités théâtrales dans les pratiques de classe de langue.

Selon le CECRL⁷, l'enseignant peut adopter une pratique théâtrale en classe de FLE, et ce, « *en créant des situations et en mettant en place des activités (par exemple le jeu de rôle et la simulation)* » qui contribuent « *au développement de la capacité de l'apprenant à utiliser des stratégies communicatives* ».

6.1.1. La pratique théâtrale à travers les jeux de rôle

Le jeu de rôle en classe de FLE crée un climat détendu propice aux apprentissages. Le Dictionnaire de didactique du français définit le jeu de rôle comme « *Une activité d'apprentissage dite ludique guidée par des règles de jeu et pratiquée pour le plaisir qu'elle procure. Elle permet une communication entre apprenants orientée vers un objectif d'apprentissage* »⁸ (Cuq : 2003, 106)

Laurent Di Filippo, « Contextualiser les théories du jeu de Johan Huizinga et Roger Caillois », *Questions de communication* [En ligne], 25 | 2014, mis en ligne le 01 juillet 2016, consulté le 31 août 2023. URL : <http://journals.openedition.org/questionsdecommunication/9044> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/questionsdecommunication.9044>
Conseil de l'Europe. (2001). *Un Cadre Européen Commun de Référence pour les langues apprendre, enseigner, évaluer*. Paris: Didier.p, 112
Cuq, J-P. (2003), *Dictionnaire de didactique du français langue étrangère et seconde*, CLE⁸ International, p106

Ainsi, l'apprenant se sent dans son environnement naturel, celui du jeu. Cela crée une atmosphère détendue qui favorise l'apprentissage. On incite donc les apprenants à s'exprimer librement, à donner libre court à leur imagination, à être créatifs et à agir et réagir dans diverses situations.

L'enseignant jouera le rôle d'animateur, il faut tout de même qu'il rappelle aux apprenants le but éducatif des activités.

Le jeu proposé doit prendre en considération l'âge des apprenants et leurs centres d'intérêts. Il « peut varier suivant le niveau des apprenants et le but de l'activité ». ⁹(Sheils : 1993,170). Ainsi l'enseignant pourra commencer par des jeux de rôle simples pour, qu'ensuite, avancer vers des situations plus complexes. Il peut aussi passer des jeux de rôles individuels à ceux en binôme ou en groupe où les apprenants peuvent s'échanger deux ou trois répliques et avoir l'occasion de réagir à un énoncé par des mots ou tout simplement par un geste.

6.1.2. La pratique théâtrale à partir d'un texte

Travailler un texte théâtral en classe de langue vise deux compétences, la compréhension de l'écrit et la production de l'oral. Les apprenants sont appelés à étudier le texte à travers l'identification des personnages, des lieux, de l'objet, des événements et autres. Ils seront aussi amenés à discuter, s'exprimer autour de l'idée ou les idées véhiculées dans le texte et à découvrir aussi la structure, les caractéristiques et les composantes de ce type d'écrits.

Dans son article, Les activités théâtrales en classe de français langue étrangère, (2014)¹⁰, Vlad Dobroiu propose d'utiliser le texte théâtral en classe de langue comme outil pour remédier aux difficultés liées à la lecture et à la prononciation en travaillant le débit, l'intonation et le rythme.

Sheils, J. (1993), *La communication dans la classe de langue*, Strasbourg, édition du conseil de ⁹ l'Europe. p170

Vlad , D, *Les activités théâtrales en classe de français langue étrangère*, Synergies Roumanie n^o9 - ¹⁰ 2014 p. 93-99

Il peut aussi être utilisé comme outil didactique pour travailler certains aspects linguistiques et grammaticaux tels que la négation, l'interrogation, la pronominalisation... Ainsi, l'apprenant découvrira l'usage de ces faits de langue dans des situations authentiques.

Une fois que la pièce théâtrale est appropriée par les apprenants, l'enseignant peut s'en servir pour travailler la compétence de la production de l'écrit, soit en les invitant à rédiger un résumé de la pièce en question soit de réutiliser le lexique et les structures étudiées pour élaborer de nouveaux textes.

6.2. La planification des apprentissages

Pour réaliser notre projet qui vise le développement des compétences langagières orales des apprenants de la 6^{ème} année du primaire, une planification de l'enseignement-apprentissage s'impose.

La planification de l'enseignement apprentissage est le résultat des décisions prises par l'enseignant à partir de son interprétation des informations dont-il dispose. Dans notre cas, nous avons mis en avant les attentes curriculaires¹¹ ainsi que les besoins des apprenants¹². Tous ces éléments sont pris en considération lors de l'élaboration des activités d'enseignement / apprentissage à travers lesquelles nous allons répondre à ces besoins et atteindre les objectifs. Notre premier travail à faire était de planifier des scénarios pédagogiques d'enseignement-apprentissage et d'évaluation.

6.2.1. Compétences langagières visées

La compétence représente ce qu'un individu est capable de réaliser. Selon (Raynal & Rieunier), la compétence est un :

En ce qui concerne les attentes curriculaires, nous avons fait une étude des documents ministériels, du ¹¹ guide de l'enseignant ainsi que le manuel de l'apprenant dans le but de relever les compétences langagières relatives à la 6^{ème} AEP

Avant d'entamer l'atelier théâtre, nous avons administré aux apprenants un pré-test afin d'identifier ¹² leurs besoins langagiers. A la lumière des résultats obtenus, nous avons fixé des objectifs et élaboré des séquences d'apprentissage pour les atteindre.

« Ensemble de comportements potentiels (affectifs, cognitifs et psychomoteurs) qui permettent à un individu d'exercer efficacement une activité considérée généralement comme complexe. [...] Elle englobe des savoirs, savoir-faire et savoir-être intimement liés. ». (Raynal & Rieunier : 2007, 76)¹³

Pour Meirieu , elle est « un savoir identifié mettant en jeu une ou des capacités dans un champ notionnel ou disciplinaire donné ». (Meirieu : 1991, 181)¹⁴. Cela signifie que dans une situation déterminée, il faut combiner plusieurs capacités afin d'atteindre le résultat espéré.

Dans le cadre de notre atelier théâtre, le tableau ci-dessous résume les divers aspects visés :

Tableau 2 : Les compétences visées par l'atelier théâtre

Compétence : Comprendre et produire, oralement, à partir de supports iconiques, graphiques, audio et/ou audiovisuels, des énoncés variés	
Domaine de la langue orale	-S'exprimer de façon compréhensible (prononciation, articulation), dans des situations diverses : raconter, exprimer un point de vue une opinion, expliquer, justifier -Dire et mémoriser des dialogues. -Utiliser une vidéo sans paroles pour construire du sens
Des savoirs fonctionnels	-Prendre conscience des autres modes d'expression (mimes, gestes) -Prendre conscience du code commun. -L'éveil de la sensibilité esthétique par un travail de groupe
Des savoir-faire	-Exprimer par la parole devant le grand groupe. -Utiliser le lexique, la syntaxe et la morphologie comme outil pour s'exprimer -Maîtriser sa respiration, son articulation, le dosage de la

Raynal. F, Rieunier. A. (1997), *Pédagogie : dictionnaire des concepts clés*, Paris : ESF éditeur, p76 ¹³
Meirieu .Ph. (2016), *Apprendre...oui, mais comment ?*, Paris : ESF éditeur, p 181¹⁴

	voix, l'intonation.
Des savoir- être	-Être bien pour dire, avoir confiance en soi. -Écouter et se faire écouter.

6.2.2. La progression du projet

Tout d'abord, nous avons évalué le nombre de séquences incluses dans le projet et défini pour chaque séquence l'objectif à atteindre. A partir de là, nous avons pu déduire les contenus de chaque séquence et le nombre de séances envisagées pour chacune. L'ensemble des séquences fera apparaître la progression des acquis des apprenants.

Notre projet contient quatre séquences : la première est consacrée à sensibiliser les apprenants aux activités théâtrales et à travailler les compétences langagières verbale et non verbale à travers des activités de jeux de rôle, de mime et d'improvisation. La deuxième vise la découverte de l'art du mime et le comique de situation. La troisième et la quatrième concernent le travail sur deux pièces théâtrales qui ont été choisies comme supports didactiques pour notre projet.

Tableau 3 : progression du projet

Séquence 1			Séquence 2			Séquence 3			Séquence 4		
Séance 1	Séance 2	Séance 3	Séance 1	Séance 2	Séance 3	Séance 1	Séance 2	Séance 3	Séance 1	Séance 2	Séance 3
Improvisation Mime et jeu de rôle			Extrait du film «La cage au lion »			Pièce de théâtre intitulée «Le goûter »			Pièce de théâtre intitulée «Vous les hommes !»		

6.3. Choix des pièces

Dans cet atelier, nous avons choisi deux pièces théâtrales : « Le goûter » et « Vous les hommes ! ». Ce choix ne s'est pas fait aléatoirement mais il est motivé par plusieurs raisons et basé sur plusieurs critères :

6.3.1. La longueur du texte

La première pièce « le goûter » est courte et les répliques des personnages le sont aussi. Et vu que la majorité des apprenants n'ont jamais fait de théâtre, nous avons estimé qu'il serait préférable de commencer par un texte court ce qui facilitera sa compréhension et la mémorisation des répliques et surtout de mettre les apprenants en confiance.

Ce qui est de la deuxième pièce « Vous les hommes », elle a la particularité d'avoir quelques répliques qui sont très longues. Chose qui poussera les apprenants à se dépasser et à faire un effort supplémentaire surtout au niveau de la mémorisation et de surmonter leur timidité et faire face au public.

Le critère de la longueur des répliques était important pour nous car il permet de pratiquer la différenciation dans l'enseignement apprentissage. C'est à dire que tous les apprenants pourront participer même ceux qui ont des difficultés de mémorisation et ce, en choisissant des répliques courtes. Le choix des rôles revient aux apprenants eux-mêmes, car au moment où ils découvrent la pièce théâtrale, chacun choisi le personnage qu'il veut jouer plus tard.

6.3.2. La mise en scène

Nous avons commencé par une pièce qui contient des indications de jeu (didascalies) dans laquelle les apprenants étaient appelés à les réaliser pour une bonne dramatisation. Elles n'étaient pas nombreuses certes, mais c'était une occasion pour qu'ils apprennent qu'une pièce de théâtre, en plus du texte, se constitue de plusieurs éléments : décor, gestuels, accessoires, expressions du visage, ton, intonation... Des éléments délivrés par les didascalies et qui sont primordiaux pour le jeu théâtral.

Dans la deuxième pièce, il n'y avait pas de mise en scène. Après la lecture et la compréhension de la pièce, nous avons laissé aux apprenants une grande marge de liberté. Ce sont eux qui se sont mis d'accord sur la mise en scène de la pièce, les tons, les déplacements sur scène, les gestes... Mais aussi d'apporter les accessoires qu'ils estiment importants et d'en créer d'autres. (Annexe3)

6.3.3. Critères liés au fonctionnement de la langue

Les pièces choisies peuvent être exploitées didactiquement par les enseignants de français. Elles peuvent être utilisées comme supports didactiques pour aborder plusieurs aspects du fonctionnement de la langue relatifs au programme de la 6^{ème} AEP.

Dans notre recherche, nous avons utilisé ces pièces pour travailler les aspects suivants¹⁵ :

- Les types et formes de phrases : « *Tu m'en donnes un peu ?* » « *Oh ! Dis donc !* »
- La pronominalisation du complément du verbe : « *Si je t'en donne, ça m'en fera moins.* »
- L'interrogation totale et partielle : « *Tu veux un morceau du mien ?* »
- L'accord de l'adjectif : « *un gâteau énorme* » « *des parts grosses* ».
- Les temps de conjugaison : « *c'était* » « *Venez, dis,...* » « *Tu n'as pas dit/ il a coupé* »
- La phrase nominale et la phrase verbale : Tant mieux pour toi ; On peut toujours partager.
- Savoir utiliser le lexique relatif à la citoyenneté et le comportement civique : offrir ; donner ; partager.
- La négation : *Je n'ai pas de goûter ; Je n'ai plus faim.*
- Identifier et utiliser la synonymie et l'antonymie : offrir/ donner ; A grand bruit/ silencieusement

Les pièces contiennent d'autres aspects liés au fonctionnement de la langue relatifs au programme de la 6^{ème} AEP. Nous nous sommes contentés de présenter ceux que nous avons travaillés avec nos apprenants.

- Identifier les préfixes et les suffixes et former des mots dérivés: apporter ; déballer
- Identifier les noms composés : demi-sandwich

6.4. Présentation d'une partie de la séance 1 séquence1

Compétences visées

- S'exprimer avec les gestes.
- Acquérir un lexique thématique (relatif aux métiers)
- Acquérir des savoirs et savoir-faire relatifs aux constituants et aux fonctionnements de la langue.

Objectifs

- L'apprenant doit être capable de communiquer un message avec les gestes sans l'usage du langage verbal.
- L'apprenant doit être capable de comprendre le langage non verbal et de remplacer le geste par la parole afin d'organiser des phrases dans un ensemble cohérent.
- L'apprenant doit être capable d'acquérir le lexique relatif aux métiers

Activité 1

Lors du pré-test conçu pour évaluer la compétence langagière orale des apprenants, et au moment où ils passaient sur scène pour se présenter, nous avons remarqué qu'un grand nombre d'entre eux ne connaissait pas les métiers de leurs parents, ils nous le demandaient avant leur passage ou même pendant leurs prestations. Ce constat nous a poussés à improviser une activité de jeu de rôle pour remédier à cette difficulté. Cela fait partie du soutien instantané.

Le jeu consiste à passer sur scène et de mimer le métier de leurs parents, ou tout autre métier, avec les gestes. Le groupe classe doit trouver le nom du

métier en question en français. En cas d'échec, nous intervenons pour le dire aux apprenants.

Retour sur la pratique

L'objectif était donc de travailler le lexique relatif aux métiers. Grâce à cette activité, les apprenants ont pu véhiculer et découvrir le lexique suivant : avocat, maître, soldat, serveur, infirmier, tailleur, maçon, vendeur ambulancier...

Cette activité était l'occasion pour travailler d'autres capacités liées à la structure de la phrase. Les apprenants étaient appelés à construire des phrases simples et bien structurées en transformant les gestes de leur camarade en phrases. Voici quelques exemples de phrases élaborées par les apprenants :

- Le maître entre en classe, dépose son cartable sur le bureau, écrit la date et explique la leçon ;
- Le maçon construit des maisons ; Le maçon construit de grands bâtiments ;
- Le tailleur prend les mesures.

Activité 2

-Un apprenant passe sur scène et fait une action juste avec les gestes (Avec ou sans objets). Le reste de la classe doit transformer le langage non verbal de leur camarade en langage verbal. Ainsi, ils seront appelés à décrire ce qu'il fait en utilisant des phrases simples et bien structurées.

Voici quelques exemples d'actions proposées et jouées par les apprenants : prendre un stylo et écrire une lettre, mettre une veste, déposer une valise, compter des fiches, téléphoner, jouer à la corde...

Retour sur la pratique

A travers cette activité, nous avons pu travailler plusieurs compétences :

-La production de l'oral : les apprenants ont pu réaliser et construire des phrases grammaticalement correctes : les mots ne sont plus abstraits pour eux car en observant le langage non verbal de leurs camarades, ils remplacent le geste par le mot ainsi les apprentissages ont un sens et le lien entre parole et geste est établi de manière concrète.

-La compétence lexicale : cette activité offrait la possibilité d'utiliser un nombre non négligeable de verbes d'actions. Il s'agit de verbes usuels connus par les apprenants (ouvrir, prendre, écrire, manger, dormir...) mais aussi de verbes nouveaux que nous leur avons donné (**s'asseoir** sur une chaise, **verser** le thé, **éplucher** une banane ...)

-La compétence grammaticale : En analysant leurs productions orales, on constate une évolution au niveau de certaines erreurs récurrentes qui ont été surmontées au fur et à mesure des présentations comme l'omission du verbe, l'utilisation du verbe à l'infinitif...

Pour travailler d'autres aspects de la langue, nous avons divisé la scène en trois parties : à gauche (l'action se déroule au passé), au milieu (l'action se déroule au présent) et à droite (l'action se déroule au futur).

Cette variante du jeu nous a permis de travailler les temps de conjugaison avec les apprenants. Ainsi, si le joueur se place au milieu, ses camarades doivent trouver la phrase qui correspond à son geste en conjuguant le verbe au présent et font les modifications nécessaires s'il se déplace.

Conclusion

Dans cet article, nous avons utilisé le jeu de rôle, qui est l'une des facettes des activités théâtrales, comme outil pour travailler les compétences langagières orales verbale et non verbale. Les apprenants ont compris, qu'en plus du texte, le

texte théâtral se compose d'autres moyens d'expression : la voix, le corps, le ton, les gestes, les expressions du visage....

Grâce aux activités proposées, les apprenants ont pu maîtriser les diverses manières de s'exprimer. Ils ont réussi de passer d'un langage à l'autre, de réaliser concrètement des gestes porteurs de messages, de remplacer le geste par la parole et de construire des phrases simples et bien structurées.

En plus de la compétence langagière orale, cette activité a servi à travailler certaines compétences transversales qui constituent un savoir agir fondé sur la mobilisation et l'utilisation efficaces d'un ensemble de ressources. Ainsi, Les jeux proposés offraient aux apprenants l'occasion de présenter leurs performances devant le groupe, de faire face au public et de dépasser leur timidité, d'être disciplinés et impliqués dans leur propre apprentissage en étant créatifs et pleins d'imagination.

Bibliographie

- Conseil de l'Europe. (2001). *Un Cadre Européen Commun de Référence pour les langues apprendre, enseigner, évaluer*. Paris: Didier, p112
- Cuq, J-P. (2003). *Dictionnaire de didactique du français langue étrangère et seconde*, CLE International. p106
- Delory-Momberger, C. "G. Brougère. *Jouer/Apprendre*", *L'orientation scolaire et professionnelle* [Online], 35/3 | 2006, Online since 28 September 2009, connection on 31 August 2023. URL: <http://journals.openedition.org/osp/1033>; DOI: <https://doi.org/10.4000/osp.1033>
- Di Filippo, L. « Contextualiser les théories du jeu de Johan Huizinga et Roger Caillois », *Questions de communication* [En ligne], 25 | 2014, mis en ligne le 01 juillet 2016, consulté le 31 août 2023. URL : <http://journals.openedition.org/questionsdecommunication/9044> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/questionsdecommunication.9044>

- Meirieu .Ph. (2016), *Apprendre...oui, mais comment ?*, Paris : ESF éditeur, 8^e éd ? p181
- Programme National d'Evaluation des Acquis des élèves de la 6^{ème} année du primaire et de la 3^{ème} année du secondaire collégial, 2019, p19.
- Raynal. F, Rieunier. A. (1997). *Pédagogie : dictionnaire des concepts clés*, Paris : ESF éditeur, p 213
- Sheils, J. (1993). *La communication dans la classe de langue*, Strasbourg, édition du conseil de l'Europe. p170
- Tardif, M., & Lessard, C. (1999), *Le travail enseignant au quotidien: expérience, interactions humaines et dilemmes professionnels*. Presses Université Laval.
- Vlad, D, *Les activités théâtrales en classe de français langue étrangère*, Synergies Roumanie n°9 – 2014, p. 93-99

ANNEXES :

Annexe 01

Groupe	
Élève n°	

Indique la définition de chaque mot:

Le théâtre:

1	Personnage		A	C'est l'action, c'est l'histoire de la pièce
2	Nœud		B	C'est la fin de la pièce de théâtre
3	Intrigue		C	Les comédiens
4	Dénouement		D	Le moment où l'intrigue est arrivée à son point essentiel

1=	2=	3=	4=
----	----	----	----

La construction d'une pièce:

1	Acte		A	Scène 1 de l'acte1
2	Scène		B	Action dans une pièce de théâtre /Partie du théâtre où jouent les acteurs
3	Scène d'exposition		C	Différentes parties d'une pièce de théâtre

1=	2=	3=
----	----	----

Le genre de la pièce:

1	Comédie		A	Un théâtre sans mots
2	Tragédie		B	Une pièce divertissante qui se termine bien
3	Le mime		C	Une pièce qui se termine mal

1=	2=	3=
----	----	----




L'écriture d'une pièce:

1	Dialogue		A	Parole d'un personnage
2	Réplique		B	Phrases données par l'auteur sur la manière dont la pièce doit être jouée
3	Didascalie		C	Des personnages qui se parlent

1=	2=	3=
----	----	----

Pré-test : évaluer la compétence lexicale relative au lexique théâtral des apprenants

Annexe 02

			
J'ai bien utilisé les différents tons pour m'exprimer			
J'ai bien utilisé mon visage pour exprimer des sentiments et des émotions			
J'ai bien utilisé les gestes pour m'exprimer			
J'ai bien mimé des situations			

J'ai bien mimé des attitudes			
Je suis satisfait de mon travail			
Je suis satisfait du travail du groupe			
J'ai bien aimé ces activités			

Fiche d'auto-évaluation

Annexe 03



Accessoires créés et préparés par les apprenants

A quoi servent les termes d'adresse et de politesse dans une interaction commerciale ? Le cas de quelques petits commerces à Fès

What are the terms of address and politeness used for in a commercial interaction?

The case of some small businesses in Fez

MHANDEZ TLEMÇANI ZAKARIA

Université Sidi Mohammed Ben Abdellah- MAROC

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Sais-Fès

CEDOC : langues, patrimoine et aménagement du territoire

Laboratoire : Discours, Créativité, Sociétés et Religions

Résumé :

Ce travail porte sur un genre particulier d'interaction, celle commerciale, déroulant entre Vendeur et Client dans certains petits commerces de la ville marocaine de Fès. Il s'intéresse au fonctionnement pragma-énonciatif de l'activité de l'adresse. Or, comme il est attesté dans une grande part du corpus, les termes d'adresse à la marocaine sont aussi mis au service de la politesse. Mettre la lumière plus précisément au discours du vendeur en tant qu'expert de la vente, c'est parce qu'il a tendance à orienter le script de l'interaction pour des fins lucratives. Il s'agira donc de localiser et d'interpréter les principales fonctions de ces procédés langagiers, leurs principales formes et ce que laissent entendre leurs différents usages comme effets pragmatiques.

Mots-clés : termes d'adresse, interaction commerciale, arabe marocain, politesse, compétences.

Abstract:

This work focuses on a specific type of interaction, the commercial one, taking place between sellers and customers in certain small businesses in the Moroccan city of Fes. It examines the pragma-enunciative functioning of the act of addressing. As demonstrated in a significant portion of the corpus, Moroccan forms of address are also employed to convey politeness. Shedding more light on the discourse of the seller as an expert in sales is essential because they tend to guide the interaction script for profitable purposes. Therefore, the goal is to identify and interpret the primary functions of these linguistic processes, their main forms, and what their various uses imply as pragmatic effects.

Keywords: terms of address, commercial interaction, Moroccan Arabic, politeness, skills.

ملخص

هذا العمل يركز على نوع معين من التفاعلات، وهو التفاعل التجاري الذي يحدث بين البائعين والعملاء في بعض المحلات التجارية الصغيرة في مدينة فاس المغربية. يقوم البحث بدراسة وظيفة التعبير والتصريح من الناحية البنوية لنشاط التحدث. كما هو موضح في جزء كبير من الكوربوس، يتم استخدام مصطلحات التحدث بالطريقة المغربية أيضاً للتعبير عن اللباقة. إلقاء المزيد من الضوء على خطاب البائع تكبير في مجال المبيعات أمر ضروري لأنهم يميلون إلى توجيه سيناريو التفاعل لأغراض ربحية. لذلك، الهدف هو تحديد وتفسير الوظائف الرئيسية لهذه العمليات اللغوية، وأشكالها الرئيسية، وما تدل عليه استخداماتها المختلفة من آثار تطبيق. كلمات مفتاحية: عبارات النداء، محادثة تجارية، اللهجة المغربية، الأدب، مهارة.

1. Cadrage théorique :

1.1 Préliminaires introductifs : système et comportements d'adresse :

Comme il existe dans le système linguistique de chaque langue des universaux partagés avec d'autres langues, autrement dit, des similitudes avec elles et des régularités qui déterminent leur fonctionnement communicatif commun, il existe aussi des particularités linguistiques, dans d'autres termes, des comportements communicatifs propres à une langues donnée.

« Précisons à ce propos que si par « langue » on entend l'ensemble de toutes les règles ou régularités qui sous-tendent la production et l'interprétation des énoncés attestés, on doit y admettre aussi celles qui commandent le fonctionnement de phénomènes tels que : les actes de langage directs et indirects, les mécanismes inférentiels, le système des tours de parole, l'enchaînement des interventions et des échanges, les connecteurs pragmatiques et conversationnels, les marqueurs de la relation interpersonnelle et les rituels de politesse, etc.»(Orecchioni, 2002, 36).

Cela concerne davantage « le système et les comportements d'adresse » (Braun, 1988) étant des marqueurs de la relation interpersonnelle, qui « varient d'une langue et d'une culture à autre »(Orecchioni, 2010, 3) et qui ont des effets pragmatiques et interactionnels différents. EN EFFET, travaillant sur les termes

d'adresse et de politesse, le chercheur doit s'intéresser aux emplois prototypiques du côté du système, comme aux emplois atypiques d'un point de vue du comportement. Il doit s'engager donc dans l'analyse de ces traces qui reflètent la conception d'une société envers les rapports sociaux et le fait communicatif, voire «certains aspects spécifiques de l'idéologie collective en matière de communication »(Orecchioni, 2002, 38) afin d'en tirer une certaine logique conversationnelle sous-jacente et une autre culturelle propre à une société ou une catégorie données, et surtout incarnée au sein d'elles.

Là, on s'intéresse plus particulièrement aux formes nominales d'adresse (FNA), dans la mesure où elles représentent un matériau capital dans l'activité de l'adresse en arabe marocain y compris spécifiquement le genre interactionnel du commerce. On s'intéresse aussi aux FNA, parce qu'elles sont des outils efficaces pour s'adresser à autrui et parce qu'elles donnent accès à une large interpénétration du linguistique, du social et du culturel. Mais, la question qui se pose ici est si ces FNA sont prédéterminées par la particularité culturelle et l'éthos communicatif de l'arabe marocain ou sont liées seulement au genre d'interaction commerciale. On peut prélever une sorte de réponse en disant que celle-ci se trouve dans le système pronominal de l'arabe en matière d'adresse, ainsi que dans la nature du corpus étudié.

« Et en ce qui concerne le pronom d'adresse ; une seule forme en anglais et en arabe, langues dans lesquelles on peut penser que les formes nominales d'adresse vont jouer un rôle accru pour le marquage de la relation interpersonnelle, par rapport au français ou ce marquage repose d'abord sur l'opposition entre « Tu » et « Vous » (forme dite de politesse, lorsqu'elle dénote un allocataire singulier) »(Orecchioni, 2014, 9).

On s'explique encore par mentionner clairement que, contrairement au français et d'autres langues similaires, on rencontre en arabe l'existence d'une particule à caractère vocatif et du caractère exceptionnel au niveau du pronom-sujet. Ce qui confirme l'intérêt que l'on porte à ces formes nominales d'adresse, c'est de même le fait de trouver une variété des observables au niveau des comportements d'adresse attestés tels les noms propres, les surnoms, les diminutifs, les honorifiques, les noms indiquant une adhésion socio-professionnelle, les termes de parenté, les termes affectifs, etc.

1.2 Fonctions et valeurs des FNA :

- Fonction interpellative :

«Il y a des messages qui servent essentiellement à établir, prolonger ou interrompre la communication, à vérifier si le circuit fonctionne (...), à attirer l'attention de l'interlocuteur ou à s'assurer qu'elle ne se relâche pas (...)» (Jakobson, 1963, 217).

La fonction désormais appelée interpellative est la fonction de base des formes nominales de l'adresse. A travers cette fonction, les formes nominales de l'adresse servent à attirer l'attention d'une personne interlocutive afin d'établir avec elle une interaction verbale, à la relancer en cas de désengagement de celle-ci, à rétablir avec elle le contact tout au long de l'échange verbal et ses séquences à savoir séquence d'ouverture et séquence de fermeture et à identifier la personne adressée, si l'on assiste à une interaction avec plus de deux personnes.

Loin d'une analyse séquentielle et que ça soit au début de l'interaction ou bien à sa fin, les termes d'adresse dans leurs formes nominales assument toujours cette fonction nommée phatique dans la terminologie de R. Jakobson. Mais, sur la base de cette dernière, il est nécessaire de mentionner qu'ils sont aussi des marqueurs discursifs forts dans l'organisation et «la gestion des tours de parole » (Orecchioni,

2010, 6). Car, «ce sont aussi des outils efficaces pour allouer, réclamer, négocier la prise de parole »(Ibid., 6), surtout dans des situations polylogales.

- Fonction captative :

Lorsque le contact est déjà maintenu et lorsque la nature de la personne et du lien interlocutifs est déjà déterminée, les formes nominales de l'adresse interviennent afin d'exercer leur seconde fonction captative, ce que Orecchioni désigne par valeur de renforcement de l'acte de langage, ainsi qu'afin de « renforcer l'impact de l'énoncé sans disparaître complètement la valeur de base »(Ibid., 6), celle interpellative.

Là, on voudrait dire par fonction captative le sens que donne Charaudeau à celle-ci, étant « l'un des trois espaces dans lesquels sont mises en œuvre des stratégies de discours »(Charaudeau et Maingueneau, 2002, 92). Cela veut dire qu'à partir des noms d'adresse, le locuteur vise à capter l'attention de son interlocuteur tout au long de l'échange verbal et le faire entrer dans son univers de pensée ; ce qui lui facilite le fait de partager des idées et des émotions, de charger l'échange par un air de familiarité et de connivence et d'atteindre enfin les objectifs visés.

- Fonction relationnelle :

Si l'on dit souvent que les termes d'adresse sont des relationnels extrêmement puissants, c'est parce que leur fonction relationnelle est largement prédominante, mais toujours accompagnatrice des deux autres évoquées là-dessus. De ce fait, « (une FNA n'est jamais relationnellement neutre). On peut l'envisager par rapport aux deux principales dimensions relationnelles qui sont classiquement reconnues comme structurant l'espace interactif »(Orecchioni, 2010, 6). Ce sont les deux axes ou bien les deux grandes dimensions (horizontale et verticale), celle qui touche à la familiarité, la solidarité, la proximité et la distance, ainsi que celle qui concerne le pouvoir, l'égalité et la hiérarchie, etc. à ces deux dimensions, Orecchioni pense que l'ajout d'une troisième concernant le caractère conflictuel

ou consensuel (coopératif) de l'échange interlocutif est nécessaire. Dans ce sens, il est à signaler finalement que cette valeur relationnelle des noms d'adresse dépend aussi du sens de la forme et du contexte dans lequel ils sont utilisés.

1.3 Des maximes conversationnelles aux maximes de politesse :

Si l'échange langagier est le résultat d'un effort de coopération fourni par les participants de l'interaction verbale, et si chacun de ces participants tisse un but commun et une direction interactionnelle commune accordée, cela impose, selon Grice, le respect parallèlement des maximes conversationnelles. Ce qui donne à dire que ce principe coopératif constructif implique le respect de ces maximes, tout en traçant un cadre interactionnel où il n'y a ni rudesse, ni confrontation, ni impolitesse, comme il est défini ainsi :

« It is] a rough general principle which participants will be expected (ceteris paribus) to observe, namely: Make your conversational contribution such as is required, at the stage at which it occurs, by the accepted purpose or direction of the talk exchange in which you are engaged »(Grice, 1989, 61).

Pour les maximes conversationnelles, étant les caractères définitoires d'une conversation selon Grice, la maxime de quantité «concerne la qualité de l'information qui doit être fournie»(Ibid., 61), donnant les informations nécessaires afin qu'un énoncé soit compris ; la maxime de qualité est liée à la règle de la véridicité du contenu de l'énoncé, en d'autres termes, «que votre contribution soit véridique »(Ibid., 61); la maxime de relation ou de pertinence est attachée à la règle de « parlez à propos »(Ibid., 61) ; en dernier lieu, la maxime de manière touche à la clarté du propos et à la question de « comment on doit dire ce que l'on dit »(Ibid., 61). Sur la base de ces principes, chaque participant de l'échange est sensé de mobiliser aussi «l'ensemble des procédés auxquels recourent les participants pour maintenir entre eux une relation relativement harmonieuse, par la préservation de leurs « faces »

mutuelles »(Orecchioni, 2001, 106). Ainsi, pour y parvenir au maintien de ce type de relation interpersonnelle, il est nécessaire, aux yeux de Geoffrey Leech, de respecter ce qui propose appeler maximes de politesse « maxims of politeness »(Leech, 1983, 131-138).

Tact maxim: (in impositives (directives) and commissives)

- o Minimize cost to other
 - o Maximize benefit to other
 - Generosity maxim (in impositives (directives) and commissives)
 - o Minimize benefit to self
 - o Maximize cost to self
 - Approbation maxim (in expressives and assertives)
 - o Minimize dispraise of other
 - o Maximize praise of other
 - Modesty maxim (in expressives and assertives)
 - o Minimize praise of self
 - o Maximize dispraise of self
 - Agreement maxim (in assertives)
 - o Minimize disagreement between self and other
 - o Maximize agreement between self and other
 - Sympathy maxim (in assertives)
 - o Minimize antipathy between self and other
 - o Maximize sympathy between self and other
- 2—étude de cas :

(ordonner, commander, demander, conseiller, recommander, promettre, jurer et offrir

Remercier, féliciter, pardonner, blâmer, louer and condoléancer.

indiquer, suggérer, se vanter, plaindre, prétendre et reporter

Ce schéma si mentionné précédemment explique et donne assez de clarté au caractère coopératif et poli des interactions commerciales, objet d'étude de ce travail. De cela, on comprend que même si l'interaction commerciale est basée sur le potentiel discursif du vendeur, elle est par contre surdéterminée par la satisfaction de la clientèle. C'est dans ce paradoxe où réside la spécificité

pragmatique des termes d'adresse et de politesse qui dévoilent l'orientation discursive du locuteur-vendeur d'une part, et le grand intérêt donné à la recherche de l'accord avec son interlocuteur de l'autre. De ce fait, on tente de comprendre comment l'usage des différentes formes nominales de l'adresse sert de bonne pratique du commerce, s'il est bien métrisable, indiquant des informations plus ou moins précises concernant la nature de l'interlocuteur et manifestant un haut degré de politesse envers lui.

A ce titre, l'analyse porte sur un corpus d'interaction dans des petits commerces à la ville marocaine de Fès enregistré dans une épicerie, une boulangerie, une herboristerie et un magasin de tissus en 2019. Dans ce sens, l'analyse comprend les types et les formes des FNA attestés dans le corpus susmentionné, ainsi que leurs rôles et leurs fonctions pragmatiques au sein de l'interaction.

A—noms, prénoms et patronymes :

Avec certains clients et plus particulièrement des hommes, on trouve dans beaucoup de nos corpus un usage fréquent des noms, des prénoms et des patronymes, comme il est le cas dans les répliques ci-dessous.

?a fin had l-ğabra ?a ssi benkiran

?aš xbar-ek ?a ssi bannani

ši haža xra ?a ssi hmed

Dans ces extraits, l'usage de cette forme nominale de l'adresse indique une proximité effective du vendeur vis-à-vis de ses clients, en les adressant la parole avec leurs noms personnels, soit leurs noms de famille soit leurs prénoms s'il ne connaît que l'un d'eux. Certes, si l'adresse sage par le nom est liée à la non-connaissance du prénom, il désigne aussi un fort degré de respect, voire de politesse par rapport à la personne adressée, donnant à l'interaction un sens de familiarité et au client un caractère d'habitué.

B—monsieur, madame :

En arabe marocain, différentes formes dialectales apparaissent des termes (monsieur, madame) selon qu'ils apparaissent seuls ou bien combinés syntagmatiquement avec d'autres éléments linguistiques notamment les noms personnels.

bqa li-na ġi d l-fino ?a lalla

šuf / had tafšila dayr-a 80dh ?a lalla /ġa-n-xalli-ha li-k b 60dh !

ma-n-qder-š wa-llah /fi-ha šī baraka alil-a ?a sid l-ḥāž

Là, dans ces extraits, on observe clairement que ces FNA dans leur forme arabe dialectales sont très attestées dans notre corpus interactif de type commercial, du moment qu'elles peuvent accompagner toutes les autres fna. Utilisées à valeur de mise en infériorité, ces FNA corporalisent cette stratégie de politesse qui vaut l'effet pragmatique d'une hiérarchie familière connue culturellement comme spécificité du système de l'adresse arabe. Dans ce sens, il est à signaler que cet usage ne devient plus frappant, il est par contre routinier à force qu'il est incarné quotidiennement dans la politesse et la culture marocaines.

C—titres honorifiques :

Il existe dans le parler arabe marocain beaucoup de termes d'adresse à contenu religieux. Mais, dans le cadre restreint et précis de notre corpus d'analyse, on ne rencontre que celui de « l-ḥāž », ayant une double valeur à savoir religieuse et honorifique. Notons aussi que celui-ci est le plus utilisé même dans le cadre interactionnel global au niveau de la société marocaine.

ma-n-qder-š wa-llah /fi-ha šī baraka alil-a ?a sid l-ḥāž

allah y-katter xir-ek ?a l-ḥāž

A partir de cet extrait, on comprend qu'il est « employé dans la religion musulmane pour une personne qui a fait le pèlerinage à la Mecque. Dans les milieux populaires musulmans, il est aussi utilisé pour s'adresser à des personnes âgées, comme marque de respect» (Dimachki et traverso, 2014, 341). C'est dans

ce sens où réside le potentiel discursif des termes d'adresse et de politesse dans une interaction commerciale, dans la mesure où ils donnent des indications sur la nature de l'interlocuteur sans être dans l'obligation de le voir.

« All the informant agreed that the term has two usages. It is used to anyone who had actually performed the hagg, and by extension to an older respected person in the community. Some added that as a further requirement, the addressee must have an air of goodness about him (karam, tiiba) to really deserve the term» (Parkinson, 1985, 150).

D—noms de métiers :

En ce qui concerne les noms de métiers rencontrés dans les fragments si dessus, ils sont le fruit d'un choix discursif précis, du moment que le locuteur-vendeur aurait eu la possibilité d'utiliser la forme arabe de (madame, monsieur), et du moment que l'usage du terme « ?ustad-a » n'est pas ordinaire comme celui de « ?ustad » en cas d'un interlocuteur masculin.

had-i zayd-a men εand-i l-?ustad-a dyal-na

tfaddel ?a ?ustad

Dans une telle interaction, ce choix discursif précis désigne l'impression de supériorité que donne le locuteur-vendeur à son client pour lui afficher son respect. En effet, en employant donc ces termes d'adresse, le locuteur exprime la supériorité du destinataire sans avoir une véritable relation hiérarchique, car il les utilise « de manière plus ludique que pour véritablement afficher le respect dû à des statuts socioprofessionnels asymétrique» (Hmed, 2003, 150).

E—termes de parenté et diminutifs :

A l'exception de certains cas rares où vendeur et client ayant une relation de parenté, l'usage de ces termes se fait d'une manière métaphorique dans une interaction commerciale. Ce sont des termes que l'on rencontre très fréquemment dans tout type de conversation arabe, commerciale ou autres, ainsi qu'ils sont

utilisés seuls, si les participants de l'échange interlocutif ne se connaissent pas, ou bien accompagnés du nom personnel. Comme ils peuvent exprimer toute sorte de relations interpersonnelles symétriques ou asymétriques, ces termes relationnels sont donc surdéterminés par de nombreux facteurs externes tels l'Age, le sexe, le milieu social, etc.

šnu n-zid-ek ?a weld-i ? safi ?

hak ?a lalla bent-i !

a n-dir-ha li-k f-ši xniša ?a xit-i

A ce titre, concernant ces répliques, les valeurs répondues sont celles de la fraternité, de la proximité, de l'affectivité, de l'adoucissement, de l'évaluation positive de la relation, du respect, de l'exclusion de tout sens de séduction et de connotation sexuelle, etc. sans oublier que dans ces extraits, sachant que l'on est face à une des inter actants musulmans, ces termes expriment aussi l'appartenance à une même communauté fondée sur des repères plus ou moins religieux.

F—termes affectifs :

« Les termes affectifs, au contraire des précédents, sont très couramment employés dans les interactions de service, entre des personnes qui ne se connaissent pas et qui entretiennent une relation formelle et distante. Leur usage est plutôt populaire, mais leur fréquence dans ce contexte pourrait aussi conduire à parler à leur propos d'usage commercial » (Dimachki et traverso, 2014, 360).

had-u zwin-in bezzaf ?a ḥbib-a

twahḥaš-na-k ?a l-ğzal-a

Le premier extrait inclut le terme « *ḥbib-a* » qui a une connotation affective. Son emploi n'est pas réservé uniquement à des situations entre personne qui se connaissent, au contraire, son usage est attesté dans des relations distantes. Le second extrait, quant à lui, dénote la présence du terme « *l-ğzal-a* » qui figure

dans des situations où les personnes se connaissent vraiment. Cela est renforcé par l'emploi de la structure verbale «*twaḥḥaš-na-k* ».

Bilan conclusif :

--En arabe marocain, la valeur pragmatique de la FNA ne dépend ni de son emplacement distributionnel ni de son apparition en séquence, autrement dit, elle n'est pas liée à la séquence d'ouverture ou de fermeture. elle peut donc apparaître tout au long de l'interaction, dans la mesure où elle peut accompagner tout acte de langage.

--Dans un corpus arabe de type commercial comme il est le cas du notre, on peut attester souvent une grande instabilité au niveau du choix des FNA de la part d'un locuteur-vendeur, tout en s'adressant à un interlocuteur à partir de l'usage d'un nom de métier, après un terme de parenté, en suite un terme affectif, etc.

--On observe aussi qu'en arabe toutes les FNA expriment une relation de hiérarchie dans un emploi souvent asymétrique. Ce qui veut dire que l'usage fréquent des termes exprimant une sorte d'infériorité vaut une stratégie de politesse, associant paradoxalement hiérarchie et proximité, infériorité et affectivité.

--Vue que l'exploitation du paradigme des FNA disponibles est largement répandue chez les arabophones, il s'ajoute au caractère de l'instabilité de ces FNA celui de leur complexité. En effet, le locuteur arabophone rencontre considérablement un problème angoissant du choix particulier de la forme convenable et appropriée afin d'éviter toute sorte de malentendus. Ce qui donne à dire par conséquent que la bonne maîtrise de ces formes dans des cadres situationnels précis laisse entendre une maîtrise même des effets interactionnels produits, étant une compétence langagière à acquérir par tout locuteur-vendeur.

Bibliographie :

- Friederike, Braun, Terms of Address. Problems of Patterns and Usage in Various Languages and Cultures. Berlin/NewYork/Amsterdam : Mouton de Gruyter, 1988.
- Patrick, Charaudeau et Dominique, Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, Ed. Seuil, 2002.
- Loubna, Dimachki et Véronique, Traverso, « Les formes nominales de l'adresse dans les interactions en arabe », in : S'adresser à autrui : les formes nominales d'adresse dans une perspective comparative interculturelle. Université de Savoie 2, collection : Langages, 2014.
- Paul, Grice, « Logique et conversation », Communications no : 39. Paris, Editions du seuil, 1979.
- Paul, Grice, Studies in the Way of Words, Cambridge, MA, Harvard University Press, 1989, pp : 22/40
- Neijete, Hmed, Analyse comparative des interactions. Le cas de trois commerces : français, tunisiens et franco-maghrébin, Thèse de doctorat en sciences du langage, Université Lumière Lyon 2, 2003, P. 150.
- Roman, Jakobson, Essais de linguistique Générale, Ed Les Etudes philosophiques ; 1963.
- Catherine, Kerbrat-Orecchioni, « Système linguistique et ethos communicatif », Cahiers de praxématique, n : 38 | 2002.
- Catherine, Kerbrat-Orecchioni, « Je voudrais un p'tit bifteck », Les Carnets du Cediscor, no : 7 | 2001.
- Catherine, Kerbrat-Orecchioni, « Pour une approche contrastive des formes nominales d'adresse French Language Studies », 20, Cambridge University Press, 2010.
- Catherine, Kerbrat-Orecchioni, S'adresser à autrui : les formes nominales d'adresse dans une perspective comparative interculturelle. Université de Savoie 2, collection : Langages, 2014.
- Geoffrey, Leech, Principles of Pragmatics, Londres, Longman, 1983, pp : 131-138
- Dilworth, Parkinson, Constructing a social context of communication. Terms of adress in Egyptian Arabic, Berlin/ New York/ Amsterdam : Mouton de Gruyter, 1985.



إصدارات

المركز الديمقراطي العربي

لدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية

برلين - ألمانيا

ISSN : 2625-8943

رقم التسجيل

VR.3373.6326.B

لمزيد من المعلومات حول المجلة

يرجى زيارة موقعها على النت

<http://democraticac.de>